فلاديمير نابوكوف

مكتبة
٥٦٩

آدا
أو الوهج

ترجمة: حنان يمق

مكتبة | 569

فلاديمير نابوكوف: **آدا أو الوهج**، رواية

مكتبة
t.me/t_pdf

فلاديمير نابوكوف: آدا أو الوهج، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: حنان يمق
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٩
تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Vladimir Nabokov: *Ada, or Ardor: A Family Chronicle*, roman
Copyright © 1969 by Article 3 C Trust
under the will of Vladimir Nabokov

© *Al-Kamel Verlag* 2019
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

فلاديمير نابوكوف

آدا

أو الوهج:
سجلات عائلة

رواية

ترجمة: حنان يمق

مكتبة | 569

منشورات الجمل

إلى فيرا

شجرة العائلة

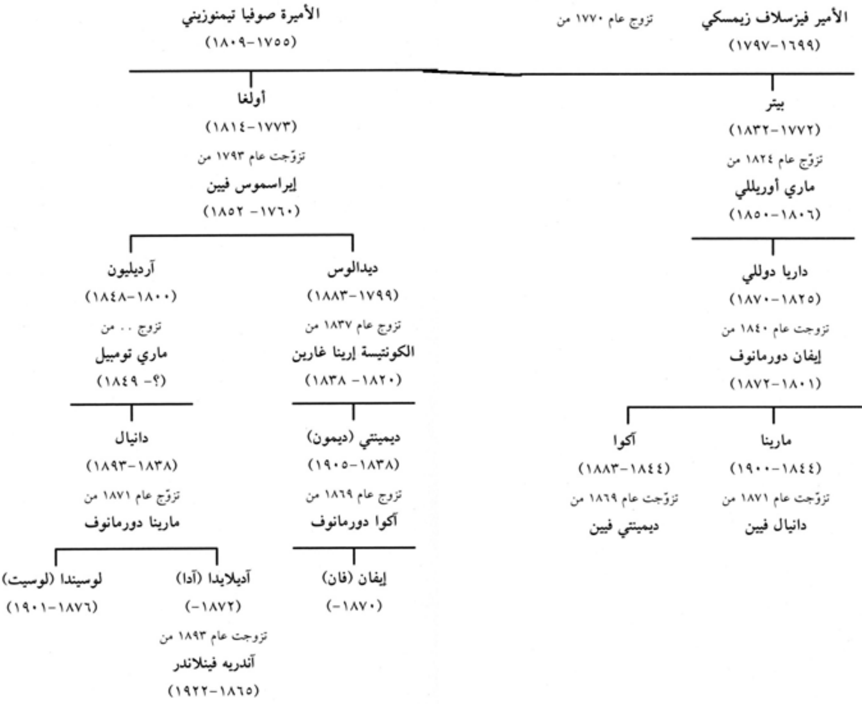

كل الأشخاص المذكورون بأسمائهم في هذه الرواية هم متوفّون، باستثناء السيد والسيدة رولاند أورونجر، وعدد قليل من الشخصيات الثانوية، وبعض المواطنين غير الأمريكيين.

القسم الأول

١

مكتبة
t.me/t_pdf

«كل العائلات السعيدة تتشابه، لكن لكلّ عائلة تعيسة طريقتها الخاصة في التعاسة»، تلك العبارة التي أعلنها الكاتب الروسيّ العظيم في مطلع روايته الشهيرة (آنا أركاديفيتش كارنينا، ترجمها إلى الإنكليزيّة ر.ج. ستونلوير، ونشرتها دار Mount Tabor Ltd عام ١٨٨٠)، ترتبط على نحو ضعيف بالقصة التي سأسردها عن تاريخ عائلة، والتي ستبدو بجزئها الأوّل أقرب إلى رواية أخرى من روايات تولستوي، والتي هي Detstvo i Otrochestvo (الطفولة، الصبا والشباب، بنسختها الإنكليزيّة، الصادرة عن Pontius Press عام ١٨٥٨).

داريا (دوللي) دورمانوف، جدّة فان لأمه، كانت ابنة الأمير بيتر زيمسكي، حاكم جزيرة برادور، مقاطعة أمريكيّة في شمال شرق وطننا الكبير والمتنوّع، وكان قد تزوّج عام ١٨٢٤ من ماري أوريللي، امرأة إيرلنديّة ذات منزلة رفيعة. عام ١٨٤٠، عندما بلغتْ دوللي، ابنتهما الوحيدة المولودة في برادور، عامها الخامس عشر، السنّ الغضّ وصعب المراس، تزوّجتْ من الجنرال إيفان دورمانوف، قائد قلعة يوكون، وهو من نبلاء الريف المسالمين، وقد امتلك أراضي في منطقة سفيرن (Severnïya Territorii)، المحميّة ذات الأراضي

المضلّعة، التي لا تزال تحمل اسماً محبباً، إيستوتي الروسيّة، والتي تتمازج، بنسيجها العضويّ والغرانوبلاستيّ، مع كانادي الروسيّة، أو إيستوتي الفرنسيّة، حيث لا يقطن الفرنسيون فحسب، بل ينعم أيضاً المستوطنون المقدونيّون والبافاريّون بمناخ من السعادة والسلام، تحت علمنا الذي يرفرف بنجومه وخطوطه.

ومع ذلك، فإن دورمانوف كان يفضّل الإقامة في رادوغا، التي تقع بالقرب من بلدة محصّنة تحمل الاسم ذاته، وراء إيستوتي، في الجانب الأطلسيّ من القارّة ، بين نيو تشيشاير- الولايات المتحدة الأمريكية (كالوغا الرائعة)، وبين ماين (لادوغا الأقل روعة)، وهي - أي رادوغا- المدينة التي امتلك فيها بيتاً قد شهد ولادة أبنائهما الثلاثة: ولدٌ قد توفّي شاباً ومشهوراً، وابنتان توأمان كانتا تعانيان من بعض المصاعب. ورثتْ دوللي جمال ومزاج والدتها، فضلاً عن ميول غريبة الأطوار تعود لسلالة أجدادها، وذوقاً يُرثى له، ظهر جليّاً، على سبيل المثال، من خلال الإسميْن الذيْن اختارتهما لابنتيها: آكوا ومارينا («ولمَ ليس جبل توفانا؟» تساءل الجنرال الطيب المتوّج بقرون الوعل، بينما كان يطلق ضحكات من كرشه، الملاحظة التي جعلت زوجته تدّعي سعالاً خفيفاً كاذباً، مما حمله على الصمت خوفاً من انفجارها غضباً).

في الثالث والعشرين من أبريل ١٨٦٩، وفي كالوغا خضراء دافئة يغشاها مطر خفيف، تزوّجت آكوا البالغة من عمرها خمسةً وعشرين عاماً، والمبتلاة بالصداع النصفيّ الربيعيّ (migraine)، من والتر د. فيين، مصرفيّ من مانهاتن، تعود أصوله إلى الأنغلو إيرلنديّة، ربطته منذ وقت طويل علاقةٌ عاطفية بشقيقتها مارينا، سرعان ما عاد إلى استئنافها، وإن كان بشكل متقطّع. أما بالنسبة لمارينا، فقد تزوّجت في أحد أيام عام ١٨٧١، ابن عمّ عشيقها

الأول، «والتر د. فيين» آخر، لا يقلّ عن رجلنا الأوّل إلّا في الدمائة، أما في الثراء فإنّهما متشابهان.

كان حرف «د» في اسم زوج آكوا يرمز لديمون [شيطان] (ربما ديميان أو ديمينتيوس)، وبها كانت تتمّ مناداته بين أقاربه. أما في المجتمع فكان يُعرف عموماً بفيين الأسود Raven Veen أو بكلّ بساطة والتر شديد السمرة Dark Walter، من أجل تمييزه عن زوج مارينا المعروف بوالتر الأحمق Durak Walter، أو فيين الأحمر Red Veen. كانت هواية ديمون المزدوجة هي جمع الأسياد المسنّين، والمحظيّات الشابّات. كما كان مولعاً بالتورية اللفظية، التي كانت رائجة في العصور الوسطى.

انحدرت والدة دانيال فيين من قبيلة ترامبيل Trumbell، وكان يجد نفسه في كلّ مرة مضطراً للشرح بأدقّ التفصيل - ما لم يجبره أحد المتبرّمين على تغيير الموضوع - كيف أنه على مرّ التاريخ الأمريكيّ، قد تحّول اسم Bull (ثور) في إنكلترا، إلى Bell (جرس) في نيوإنغلاند. بطريقة أو بأخرى، انخرط في العشرينات من عمره بالأعمال التجاريّة، وقد نال منزلة مرموقة إلى حدّ ما، بين تجّار الفنون في مانهاتن لم يُبدِ - في البداية على الأقل - أي إعجاب خاص باللوحات، ولم يكن مؤهلاً للترويج لأي نوع من المبيعات، ولم تكن الأرباح المتأرجحة لتلك «الوظيفة»، لتؤثّر على ثروته الطائلة التي ورثها عن أسلافه الحذقين والمغامرين. أمضى عدداً قليلاً فقط من عطل الصيف الظليلة في آرديس، عزبته الساحرة القريبة من لادور، معترفاً بعدم اهتمامه بالمناطق الريفيّة. لمرات قليلة، عاد لزيارة عقار آخر، لم يكن قد زاره منذ طفولته، وهو مزرعة شمال بحيرة كيتز، بالقرب من لوغا، تشمل، بل تتألف بالأحرى من كتلة مائيّة طبيعيّة واسعة، ذات شكل مستطيل غريب،

حيث لزم سمكةَ فرخ كان يراقبها، مدة نصف ساعة لتقطع قطرها. كان قد امتلك تلك المزرعة مع ابن عمه، الذي كان صيّاداً شهيراً في عزّ شبابه.

الحياة الإيروتيكيّة البائسة الخاصة بدان، لم تكن بالمعقّدة ولا بالجميلة، ولكنه بطريقة ما، وقع في غرام مارينا (سرعان ما نسي الظروف الدقيقة لذلك الحدث كما ينسى المرء مقاس وسعر معطف كان مولعاً به عند شرائه، ثم لم يرتده إلّا من وقت لآخر، مرتين خلال موسميْن كحد أقصى) والتي كان قد تعرّف إلى عائلتها أثناء إقامتها في رادوغا (بيعت في وقت لاحق للسيد إيليوت، رجل أعمال يهوديّ). بعد ظهر أحد أيام ربيع عام ١٨٧١، تقدّم لطلب الزواج من مارينا، في مصعد أوّل مبنى شُيّد في مانهاتن من عشرة طوابق، تمّ رفضه عند الطابق السابع (قسم الألعاب)، وعاد وحيداً نحو الطابق السفليّ؛ وكي يخفّف وقع الخيبة، أعدّ لرحلة ثلاثية حول العالم، في الاتجاه العكسيّ لرحلة فوغ[1]، متبعاً في كلّ منها، كما لو كانت رحلات متوازية، الدرب ذاته، الذي سلكه في المرة السابقة. في نوفمبر ١٨٧١، كان برفقة الدليل السياحيّ ذاته، الظريف رغم رائحته الكريهة، ببدلته ذات اللون «قهوة بالحليب»، والذي سبق أن احتاج مرتين إلى خدماته المأجورة أثناء إقامته في فندق جنوة، وكانا يرتّبان خططاً لتمضية الأمسية حين تلقى بريداً جويّاً من مارينا (تأخر أسبوعاً في وصوله بسبب إهمال سكرتيرته الجديدة التي تدير شؤون مكتبه في مانهاتن، وقد وضعته في ملف يحمل ملصقاً كتب عليه: غراميات)، وصله فوق صينيّة فضّية، كتبتْ فيه مارينا أن عليه الزواج منها عند عودته إلى أمريكا.

---

(١) فوغ: بطل رواية «حول العالم في ثمانين يوم» لجول فيرن. (مترجم)

وفقاً لما ذكره ملحق «الأحد» لإحدى الصحف اليوميّة، التي بقيت مع سواها من الصحف الناجية في عليّة عزبة آرديس، (الصحيفة التي كانت قد بدأت لتوّها بتدشين أعمدتها في صفحة التسلية بقصص قد عفا عليها الزمن، نيكي وبيمبيرنيلا بطلتا «تصبحون على خير يا أطفال»؛ شقيقتان جميلتان يتشاركان سريراً ضيّقاً)، فإن زفاف فين-دورمانوف قد تمّ في يوم القديسة آدالايدا، عام ١٨٧١. بعد اثني عشر عاماً وثمانية أشهر، كان هنالك طفلان عاريان، الأوّل بشعره الداكن وبشرته السمراء، والثانية بشعرها الداكن وبشرتها الحليبيّة، قد انحنيا فوق كدسة من الصحف التي تراكم فوقها الغبار، وقد أظهرها شعاع شمس حاد، قد سقط عمودياً مخترقاً زجاج المنور، فما كان منهما إلّا أن قارنا التاريخ الذي قرآه في الملحق (١٦ ديسمبر ١٨٧١)، مع آخر (١٦ أغسطس من العام ذاته) مخربش بخط قديم فوق يد مارينا الظاهرة في زاوية صورة فوتوغرافيّة احترافيّة (بإطار من البيلوش الفاخر بلون توتيّ، موجودة فوق طاولة المكتب في مكتبة زوجها)، قد تطابقت حتى في أدنى التفاصيل مع تلك المنشورة في الصحيفة، بما فيها الهيول المنبثق من وشاح العروس، بعد أن ضربه النسيم في فناء الكنيسة، فمال صوب سروال العريس. وُلدت فتاة في الواحد والعشرين من يوليو، عام ١٨٧٢، في آرديس، مكان إقامة والدها المفترض في مقاطعة لادور، ولسبب غامض، أُعطيت اسم آدالايدا، الاسم الذي سيذكّر دائماً بسبب التسمية. فتاة أخرى، ولكن هذه المرة هي ابنة حقيقيّة لدان، كانت هي المولودة التالية، في الثالث من يناير عام ١٨٧٦.

إلى جانب ذلك الجزء المصور من صحيفة كالوغا، الباقية على قيد الوجود رغم اهترائها، فإن صفحات التسلية الخاصة ببيمبيرنيل ونيكوليت، قد وُجدت في العليّة ضمن صندوق معدنيّ، اتضح أنه

يحوي أيضاً (كما فهمنا لاحقاً من كيم فتى المطبخ) بكْرات ميكروفيلم ذات امتداد هائل، قد التُقطت لرحّالة العائلة، في بازارات غريبة حول العالم، حيث تظهر لثلاث مرات، وفي عدة مقاطع مختلفة من ألوان الهيليوس المظلّلة، رسومات ملائكة ملوّنة، وتماثيل أطفال صغار يتبوّلون. بطبيعة الحال، عندما يشرع أحدنا بتأسيس عائلة فإنه يتجنّب عرض ما هو خاص (كتصوير المجموعة التي كان بينها في دمشق، حيث يظهر إلى جانب عالم آثار من آركانساس يمسك بسيجاره بين أسنانه بشدّة، بينما تظهر ندبة جميلة فوق جسده من جهة الكبد، وكانا محاطيْن بثلاث عاهرات بدينات، وكذلك يعرض التصوير القذف السريع لـ«آركانساسي الحامي»، كما قال مازحاً الشاب البريطانيّ الأنيق، الذكر الثالث في المجموعة)؛ ومع ذلك، فإن معظم مقاطع الأفلام التي صوّرها دان فيين كانت توثّق لمذكرات واقعية حقيقيّة، ليس من السهل دائماً تحديد موقعها - بسبب أنّ الإشارات المرجعيّة في الأماكن المحيطة بالتصوير كانت مضللة وغير واضحة - وقد أعاد عرضها عدة مرّات أمام عروسه أثناء شهر العسل التثقيفيّ الذي قضياه في مانهاتن.

أما اللقية الأثمن، فقد وجدها الطفلان فيما مضى، داخل صندوق كرتونيّ، في الطابق الأسفل. وكانت ألبوماً أخضر صغيراً، أُلصقت فوقه زهورٌ قد قطفتها مارينا أو حصلت عليها في إيكس، منتجع جبليّ، ليس بالبعيد عن بريغ - سويسرا، حيث، أقامت معظم وقتها قبل الزواج، وبشكل مؤقت، في شاليه مستأجر. زُيّنت الصفحات العشرون الأولى بعدد من النباتات الصغيرة التي جُمعت بشكل عشوائيّ، خلال أغسطس ١٨٦٩، من المنحدرات العشبية المحيطة بالشاليه، أو من متنزّه فندق فلوري، أو من حديقة المصحّة القريبة منه («العصفورية» كما كانت تسميها آكوا المسكينة، أو

«المنزل» كما عرّفتها مارينا الأكثر تحفّظاً، ضمن ملاحظاتها المدوّنة). لم يظهر في تلك الصفحات التمهيديّة أي اهتمام خاص بالنبات أو ذكر للحالات النفسيّة؛ وظلّت الصفحات الخمسون الأخيرة فارغة تماماً؛ ولكن القسم الأوسط، والذي ينخفض فيه عدد العيّنات بشكل ملحوظ، فقد ثبت أنه عرض ميلودرامي لأشباح زهور ميتة. كانت العينات مثبّتة فوق الصفحات اليمينيّة، بينما تقابلها ملاحظات مارينا فوق اليساريّة.

أنقوليا زرقاء ألبيّة؛ إيكس - فاليز؛ ١-٩-١٩٦٩؛ من رجل إنكليزيّ مقيم في الفندق. «أنقوليا ألبيّة بلون عينيكِ».

حشيشة الغراب؛ ٢٥-١٠-١٩٦٩؛ إيكس؛ الحديقة الألبيّة المسوّرة الخاصة بالدكتور لابينيه.

ورقة جنكة ذهبيّة؛ سقطت من كتاب «حقيقة تيرا»، أعطتني إياه آكوا قبل عودتها إلى منزلها؛ ١٤-١٢-١٩٦٩.

زهرة إديلويس صناعيّة، أحضرتْها ممرضتي الجديدة مع ملاحظة من آكوا تذْكر فيها أن الزهرة قد سقطت من شجرة الميلاد «الغريبة والبائسة»، التي تزيّن «المنزل»؛ ٢٥-١٢-١٩٦٩.

بتلة أوركيد، من باقة تحمل ٩٩ زهرة أوركيد، «من فضلك»، وصلتني أمس في بريد مستعجل وخاص، من فيلا آرمينا - الألب البحريّة. تركتُ عشرة منها لآكوا كي تأخذها معها إلى منزلها. إيكس، فاليز- سويسرا. «إنها تثلج، إنها كرات المصير الكريستاليّة التي تتساقط الآن»، كما كان يقول. (التاريخ ممحو).

زهرة جنطيانا نادرة، أحضرها (العزيز) لابوشكا لابينيه من «حديقته الصامتة». ٥-١-١٩٧٠.

بقعة حبر زرقاء قد فشّت على شكل زهرة، قد يكون الأمر حادثاً أو قُصد به إخفاء كتابة ما؛ "*Compliquaria compliquata* var". آكوامارينا. إيكس، ١٥-١-١٩٧٠.

زهرة مزخرفة مصنوعة من الورق، وُجدت في محفظة آكوا. إيكس، ١٦-١١-١٨٧٠، صنعها زميلها المريض في «المنزل»، الذي لم يعد منزلها بعد الآن.

جنطيانا ربيعيّة. إيكس، ٢٨-٣-١٨٧٠. فوق العشب الممتد أمام شاليه ممرضتي. آخر يوم إقامة لي هنا.

اليافعان اللذان اكتشفا ذلك الكنز الغريب والباعث على الاشمئزاز، قد علّقا عليه كما يلي:

«أنا أستنتج»، قال الصبيّ، «ثلاث حقائق رئيسيّة: مارينا التي لم تكن قد تزوّجت بعد، قد أقامت خلال الشتاء في مكان ولادتي مع أختها المتزوّجة؛ وأن مارينا كان لديها الدكتور كروليك خاصتها، إن جاز التعبير؛ وأن زهرات الأوركيد قد وصلت من ديمون الذي فضّل البقاء قرب البحر، جدّته 'الزرقاء الداكنة'.»

«يمكنني أن أضيف» قالت الفتاة، «أنّ البتلة تعود لنفس مجموعة الأوركيد ؛ أن والدتي أكثر جنوناً من أختها؛ أن الزهرة الورقيّة المستهجنة هي استنساخ دقيق للسانيكولة الأوروبية التي رأيتها بوفرة فوق تلال كاليفورنيا الساحليّة خلال فبراير الماضي؛ الدكتور كروليك، عالم الطبيعة المحليّة خاصتنا، الذي استخدمتَ اسمه للإشارة إلى شخص آخر يا فان، كما كانت لتفعل جاين أوستين بغرض الإيجاز في سرد المعلومات (أنت تذكر براون، أليس كذلك، سميث؟)، قد حدّد نوع النبتة التي أحضرتُها من ساكرامانتو إلى

آرديس بـ Bear-Foot[1]، B,E,A,R يا حبيبي، وليس Bare Foot، كقدميّ وقدميْك الحافيتيْن، أو قدمَي الفتاة من ستابيا التي تقطف الزهور[2] - وهذه الإشارة كانت لتعجب والدي الذي وفقاً لبلانش هو والدك أيضاً، وكان ليفرقع أصابعه (على الطريقة الأمريكيّة)».

«سوف تشكرني»، استمرّت في كلامها بينما كانت تحتضنه، «إذ إني لم أذكر الاسم العلميّ لتلك النبتة. ولكن لاحظ أيضاً أن البتلة الثانية - بتلة Pied de Lion[3]، التي سقطت من شجرة الميلاد الصغيرة وقد صنعتها نفس اليد - ربما تعود لذاك الفتى الصينيّ المريض جداً، والقادم من كلية باركلي.»

«أحسنتِ! بومبيانيلا[4]! أعتقد أنك رأيت صورة 'فتاة الزهور' في أحد كتب الفنون الخاصة بالعم دان، أما أنا فقد تأملتها الصيف الماضي في متحف نابولي. ألا تعتقدين أنه حان الوقت لنرتدي من جديد قمصاننا وسراويلنا لننزل إلى الأسفل، وأن ندفن لا بل نحرق هذا الألبوم حالاً؟ ما رأيك يا فتاة؟»

«أوافقك»، أجابت آدا، «فلنتلفه وننسه! ولكن ما زال أمامنا ساعة قبل وقت الشاي.»

لنعد إلى ملاحظة «زرقاء داكنة» التي بقيت معلّقة.

نائب سابق لملك إستوانيا، الأمير إيفان تيمنوزيني، وهو والد

---

(١) Bear-Foot: اسم نبات يعرف بالـ«خربق» ولـ Bear foot معنى آخر وهو: حافي القدمين. (مترجم)

(٢) الفتاة الستابية التي تقطف الزهور: إشارة إلى لوحة باسم «الربيع» موجودة في متحف نابولي، للرسام الإيطالي ساندرو بوتيتشيلي (١٤٤٥-١٥١٠). (مترجم)

(٣) Pied de Lion: نبات «قدم الأسد». (مترجم)

(٤) بومبيانيلا: اسم وردة pomponella. (مترجم)

جدة جدة الطفلَيْن، الأميرة صوفيا زيمسكي (١٧٥٥-١٨٠٩)، وهي السليلة المباشرة للحكام الياروسلافيين لزمن ما قبل التتار، وكانت تحمل اسماً قديماً يعود لألف عام، ويعني بالروسيّة «أزرق داكن». في حين أن فان بقي في معزل عن الوعي بفتنة فخامة الأنساب، وغير مبال بالمغفلين الذين يرثون العجرفة والتحفّظ عن أجدادهم، إلا أنه لم يقدر على منع نفسه من تلمّس جمالية خلفيّته المخمليّة، التي كان يراها كسماء صيف صافية ومريحة، تتخلّلها الأغصان السوداء الخاصّة بشجرة العائلة. في السنوات اللاحقة، لم يعد قادراً على إعادة قراءة بروست (كما لم يعد قادراً على الاستمتاع براحة الحلقوم التركيّة العطرة) دون أن يشعر بما يشبه غثيان التخمة وألم حرقة المعدة؛ غير أنّ أجمل رواية بالنسبة له تبقى تلك التي تحوي اسم "Gurermantes"[١]، التي تتماهى ألوانها في موشور روح فان مع رابطته اللازوردية البحريّة، والتي يدعها بكلّ سرور لتثير خيلاءه الفنّية.

«تماهي، تباهي. جناس غير موفق. أعد الصياغة!» (ملاحظة هامشية كتبتها مؤخراً آدا فين).

---

(١) Gurermantes : "Le Côté de Gurmantes" (جانب غيرمانت) الرواية الثالثة من سلسلة «البحث عن الزمن المفقود» لمارسيل بروست. (مترجم)

٢

بدأت العلاقة الغرامية بين مارينا وديمون فيين في الخامس من مايو ١٨٦٨، اليوم الذي يصادف ذكرى ميلادهما معاً وميلاد دانيال فيين أيضاً، عندما أتمت عامها الرابع والعشرين، بينما أتم الرجلان الثلاثين.

كممثلة، لم تمتلك مارينا تلك المهارة الإيمائية الخاطفة للأنفاس التي تجعل من تلك المهنة، أثناء العرض على الأقل، أمراً جديراً بما هو أبعد من أضواء المسرح، كالسهاد، الخيال، وغطرسة الفن؛ ولكن في تلك الليلة بالذات، وبينما كان الثلج الناعم يتساقط فوق المخمل والخلفيّة المطليّة، فإن الدورمانسكا[1] (التي دفعت لسكووت العظيم، مدير أعمالها، سبعة آلاف دولار ذهبية أسبوعياً لقاء الترويج الإعلانيّ، ومكافأة إضافية فخمة لقاء كل موعد) قد بدتْ عند بداية ذلك العرض المسرحي التافه والسيّئ (مسرحية أمريكية مقتبسة بشكل مبتذل وواضح عن أخرى روسيّة) شاعرية جداً، جميلة جداً ومثيرة جداً إلى الحدّ الذي دفعت به ديمون (الذي لم يكن نبيلاً في شؤون الحب) لوضع رهان مع الأمير «ن»، المجاور له، وتقديم سلسلة من الرِّشا

(١) دورمانسكا: الأنثى من آل دورمانوف. (مترجم)

لحجّاب غرف الممثلين، ومن ثمّ، وفي الحجرة القصِيّة (كما كان ليطلق كاتب فرنسيّ من قرن سابق ذلك الوصف الغامض على غرفة صدف أن كانت مستودعاً لترومبيت مكسورة وطارات تعود لمهرّج منسيّ، مع أوانٍ كثيرة بألوانها الزيتيّة التي تراكم فوقها الغبار) دخل مقتحماً ليخضعها تحت غوايته (الفصلان الثالث والرابع من الرواية الضحيّة). في المشاهد الأولى للمسرحيّة، ظهر ظِلّ مفاتن مارينا بينما كانتْ تتعرى وراء ستار نصف شفّاف، ثم عادت لتظهر بقميص نوم رقيق مدغدغٍ للغرائز، وأمضت بقيّة المشهد الهزيل في مناقشة البارون «أو»، إقطاعيّ محليّ، وممرضة مسنّة تنتعل جزمة إسكيمو.

بناء على اقتراح المرأة الريفيّة فائقة الحكمة، أمسكت بريشة إوزّة، وفوق طاولة السرير الجانبيّة، كتبتْ رسالة غراميّة، واستغرقتها خمس دقائق لإعادة قراءتها بصوت واهن ولكن عالٍ، دون أن نعرف لمن تتوجه بذلك بما أنّ النعاس كان قد غلب الممرضة أثناء جلوسها فوق صندوق بحارة، أما المشاهدون، فكانوا مأخوذين بالذراعيْن العاريتين للشابة المتيّمة، وبصدرها العارم، وقد لمعت فتنتها تحت ضوء القمر الاصطناعيّ. وقبل أن تجرّ عجوز الإسكيمو قدميْها لتغادر المشهد حاملة رسالة الحب، كان ديمون فين قد ترك مقعده المخمليّ الورديّ وباشر كسب رهانه، وقد تحقّق له ذلك بسبب أن مارينا، التي «لم تذق قبله طعم القبل»، كانت قد وقعتْ في غرامه منذ أن راقصها ليلة رأس السنة. وعلاوة على ذلك، فإن ضوء القمر الإستوائيّ التي استحمّت به لتوّها، تفاصيل جمالها اللاذعة، اهتياج العواطف التي أشعلتها عذريتها المتخيّلة، وتصفيق المعجبين الحار المنبثق من قاعة كادت تكون ممتلئة، كل ذلك قد سبّب لشارب ديمون تلك الوخزة التي جعلتْ من مارينا عرضة لهجومه. كما أنها كان لديها، أيضاً، ما يكفي من الوقت لتبديل ملابسها قبل المشهد التالي، الذي بدأ بمقدّمة

طويلة لعرض قدّمته فرقة باليه قد استقدمتْها خدمات سكووت، الذي جلب الراقصين الروس بمقطورتَي نوم، من بيلوكونسك - إيستوتي الغربيّة. في وسط بستان باهر، وقف بستانيّون مرحون، يرتدون، ولسبب غير معروف، الزيّ الجورجيّ، وكانوا يلتهمون التوت البريّ بشراهة، بينما كانت هنالك عدة عذروات شابات، لا يقلّن شناعة عن الشبّان، يرتدين الـ«شوفار sharovars»[١] (أحدهم قد ارتكب خطأً، وردت تلك الكلمة على نحو مشوّه عند الإعلان عن الفرقة، فاستُبدلتْ بساموفار samovar[٢]) وكنّ مشغولات بقطف الخطمى والفول السوداني من أغصان أشجار الفاكهة. وعند إشارة ديونيسوسيّة[٣] خفيّة، انغمسوا جميعاً، ضمن ذلك العرض الجذل ذي الأخطاء المسببة للفوضى، في رقصة عنيفة تُدعى كورفا أو الكرة المزيّنة بالشرائط. أما فيين، الذي عاد مع وخزة خفيفة في عانته، والذي دسّ ورقة نقديّة في جيب الأمير «ن» ذي الأنف الأحمر، فقد تهاوى فوق مقعده.

فاتته ضربة قلب ولم يأسف لتلك الخسارة الجميلة، عندما دخلتْ مارينا المشهد راكضة بفستانها الورديّ وسط البستان، متوهّجة ومذعورة، وقد حصلتْ على هتاف وتصفيق المشاهدين، الذين كان ثلثهم تقريباً مستأجَراً، لتصرف الانتباه عن أخطاء الحمقى ولكن الظريفين، ممثلي شعوب لايسكا - أو إيبيريا[٤]. لم يعرْ

---

(١) شوفار: سروال الرقص الفضفاض. (مترجم)

(٢) ساموفار: سماور، إناء شاي كبير فضي أو معدني. (مترجم)

(٣) ديونيسوس أو باكوس أو باخوس في الميثيولوجيا الإغريقية وهو إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة. (مترجم)

(٤) إيبيريا: إيبريا هو الاسم الذي أطلقه الإغريق والرومان للدلالة على مملكة كارتلي الجورجية (من القرن الرابع قبل الميلاد إلى الخامس الميلادي) التي حكمت شرق وجنوب شرق جمهورية جورجيا الحالية. (مترجم).

ديمون فيين انتباهاً للقاء الجميلة مع البارون «أو»، الذي وصل متهادياً من زقاق جانبيّ، بذيل سترته الأخضر ومهمازَي حذائه، إذ إنه كان لا يزال مأخوذاً بسقوطه الموجز في هاوية الواقع، المحفورة بين ومضتين وهميتيْن زائفتيْن. ودون أن ينتظر نهاية المشهد، خرج من المسرح مسرعاً تحت ندف الليل الكريستاليّ الهشّ، نحو منزله القائم في الحيّ المجاور، لترتيب عشاء فخم. وعند وصوله، كانت رقائق الثلج تلمع فوق معطفه. وعندما ذهب لجلب عشيقته الجديدة بمزلقته ذات الأجراس المجلجلة، كان المشهد الأخير من باليه الجنرالات القوقازيين، والسندريلات المتحوّلات قد انتهى بشكل مفاجئ، أما البارون «أو»، بذيل سترته الذي أصبح الآن أسود، وقفازاته البيضاء، فقد كان جاثماً فوق خشبة خالية، ممسكاً بالخفّ الزجاجي، الذي تركته أنثاه الهاربة، التي لم تنجح معها عروضه المتأخرة. وكان المستأجَرون يصفّقون متعبين وينظرون إلى ساعاتهم، عندما كانت مارينا بعباءتها السوداء، قد انسلّت في حضن البجعة، مزلقة ديمون.

عربدا، سافرا، تشاجرا، ثم عاد كل منهما إلى الآخر ثانية. في الشتاء التالي، بدأ يشك في إخلاصها له، لكنه لم يتوصل لتحديد خصمه. في منتصف مارس، وخلال غداء عمل مع خبير فني، طويل نحيل، يرتدي سترة قديمة الطراز، يملك روحاً لامبالية ومهارة محببة في التجارة، ثبّت ديمون نظارته الأحادية أمام عينه، فتح حافظة مسطحة وأخرج منه لوحة مرسومة بتقنية Pen and Wash(١) وقال إنه يعتقد (لم يكن متأكداً في الحقيقة، ولكنه كان يتمنى أن يحظى حكمه ذاك بالإعجاب) أنها عمل غير معروف يعود لصاحب

---

(١) Pen and Wash: تقنية الرسم بالحبر والفرشاة. (مترجم)

الموهبة الرقيقة بارميجيانينو[1]. أظهرت اللوحة فتاة عارية تجلس بشكل جانبي فوق دعامة يكللها اللبلاب، وترفع قليلاً يدها التي تحمل تفاحة أشبه بالدرّاق، وقد كانت محرّضاً إضافياً لمكتشفها لاستذكار مارينا، عندما خرجت ملهوفة من حمام الفندق لتردّ على الهاتف، وجثمت عارية فوق ذراع كرسي، كتمت صوت المتصل، وتوجهت إلى حبيبها بسؤال، لم يتمكن الأول من فهمه جيداً إذ إن خرير الماء في حوض الاستحمام قد أغرق همسها. اكتفى البارون دونكسي بالنظر إلى الكتف المائلة، وآثار بعض النباتات الرقيقة المرتعشة، كي يؤكد تخمين ديمون. اشتهر دونسكي بكونه لا يظهر أية إشارة تدل على عاطفة جمالية في وجود محبّي التحف؛ ومع ذلك، فإنه هذه المرة قد وضع عدسته المكبرة جانباً، التي كان يخفي بها انطباعاته كما لو أنها قناع، ثم سمح لعينيه، مع ابتسامة متعة مرتبكة، أن تهيما علناً لتداعبا التفاحة المخملية، ونمشات الجسد العاري الذي تعرّش فوقه الطحالب. هل كان السيد فيين ليبيعها له حالاً؟ أرجوك يا سيد فيين! لكن السيد فيين لم يفعل. على سكونكي[2] (أحد ألقاب البارون) أن يفخر بنفسه اعتباراً من اليوم، لأنه كان ومالك اللوحة، الوحيدين اللذين تسنى لهما تأملها عن سابق دراية. أعادها إلى قمقمها الخاص؛ ولكن بعد أن انتهى من كأس الكونياك الرابعة، طالب البارون «دو» بنظرة خاطفة أخيرة. كان الرجلان ثملين إلى حدّ ما، وتساءل ديمون في سره ما إذا كان ذاك التشابه الضئيل ما بين حورية عدن والممثلة الشابة، التي لا شك قد سبق لزائره أن رآها فوق الخشبة تؤدي دورها في مسرحية

---

(١) بارميجيانينو: رسام أسلوبي إيطالي مدينته بارما (١٥٠٣-١٥٤٠). (مترجم)

(٢) سكونكي: من Skunk – الظربان (مترجم)

أوجين ولارا أو لينور رافين (كلاهما قد واجها نقداً لاذعاً من قبل شاب «مثير للاشمئزاز غير قابل للرشوة») كان أو يمكن له أن يكون، عرضة لتعليقه. لم يعلّق بكلمة: عادة ما تتشابه الحوريات من هذا النوع بسبب الوضوح المشترك بين عناصرهن الأساسية، فالتشابه بين الأجسام الشابة لحوريات الماء، ما هو إلا براءة خادعة ومرايا مضللة ذات وجهين، هذه قبعتي، قبعته أقدم، ولكنهما من ذات متجر القبعات في لندن.

في اليوم التالي، كان ديمون يتناول الشاي في فندقه المفضل مع سيدة بوهيمية لم يسبق له أن رآها ولم يفعل لاحقاً (كانت ترغب في توصية منه بغرض حصولها على وظيفة في قسم الأسماك وزهور البيوت الزجاجية في متحف بوسطن)، ثم فجأة قاطعتْ خطابها الفصيح لتشير إلى آكوا ومارينا أثناء عبورهما ردهة الفندق بحذر، بكآبتهما المألوفة، وفراء الثعالب فوق كتفيهما، يتبعهما دان فيين مع كلب الداشهاند، وقالت: «كم هو غريب هذا الشبه بين الممثلة وحواء فوق الساعة المائية في لوحة بارميجيانينو الشهيرة.»

«إنها غير شهيرة على الإطلاق»، قال ديمون بهدوء، «ومن المؤكد أنك لم تريها من قبل. وهذا ما لا أحسدك عليه»، أضاف؛ «الدخيل الساذج الذي يدرك أنه - أو أنها - قد داس في طين حيوات الآخرين، لا بد أن يشعر بالاشمئزاز. هل حصلت على تلك المعلومات من خلال محادثة مع رجل يُدعى دونسكي أو مع أحد أصدقائه؟»

«أحد أصدقائه؟»، تلعثمَت البوهيمية قليلة الحيلة.

عندما وُضعت في زنزانة استجواب حبيبها، ضحكت مارينا عارضةً نسيجاً خلّاباً من الأكاذيب. ولكنها بعد أن انهارت، اعترفت. أقسمتْ إن كل شيء كان قد انتهى؛ وإن البارون، بجسد

بائس وروح ساموراي، قد رحل إلى اليابان، وإلى الأبد. تبين ديمون من مصدر أكثر ثقة، أن وجهة الساموراي لم تكن إلا إلى الفاتيكان، وإلى منتجع روماني تحديداً، ليعود بعد أسبوع أو أكثر إلى آردفارغ - ماساشوسيتس. وبما أن فيين الحذر كان يفضل قتل رجله في أوروبا (يقال إن عجوزنا العاجز الذي لا يُقهر، غاماليل[1]، قد منع المبارزات في نصف الغربي من الكرة الأرضية - ربما تكون إشاعة أو نزوة عابرة من رئيس مثالي، لأن كل ما قد قيل لم يأتِ بنتيجة) فقد استأجر أسرع طائرة نفط (petrolplan)، وفاجأ البارون في نيس (المكان الذي بدا مناسباً جداً)، ودخل وراءه إلى مكتبة غونتر، وبحضور صاحب المتجر الإنكليزي الذي حافظ على رباطة جأشه، أو الذي كان ضجراً على الأرجح، قام ديمون بصفع البارون المنذهل بقفاز تفوح منه رائحة الخزامى. تمّ قبول التحدي؛ تمّ اختيار شاهديْن من السكان المحليين؛ اختار البارون السيوف؛ بفعل حركات مسلية كتلك الخاصة بـ«دوغلاس دارتانيان»، سالت كمية كبيرة من الدماء (بولوندية وإيرلندية، أو «غاري ماري» بلغة بارمان أمريكي) التي كانت كافية لتلويث صدريْن شعرانيين، أرضية بيضاء، بضع درجات من الدرج المؤدي إلى حديقة مسورة، كما كانت كافية أيضاً لتلويث مئزر الحلّابة التي تواجدتْ هناك صدفةً، وأكمام قمصان الشاهديْن، السيد الفاتن دي باستروي والكولونيل - الوغد - سانت آلان، الذي قام بتفريق المقاتليْن اللاهثيْن، وقد مات سكونكي، ليس مباشرة متأثراً بجروحه (كما قالت الشائعات)، ولكن بسبب غرغرينا لاحقة قد أصابت أصغرها، ربما سبّبها لنفسه، حين

(١) غاماليل: إشارة إلى رئيس أمريكي سابق «وارن غاميليال هادرينغ»، الذي شغل منصب الرئاسة بين ١٩٢١ و١٩٢٣. (مترجم)

وخز فخذه عن طريق الخطأ، وسبّبت بدورها اضطراباً في الدورة الدموية، رغم بضعة تدخلات جراحيّة خلال سنتين لاحقتيْن أو ثلاث، من الإقامة الطويلة في مشفى آردفارك في بوسطن - المدينة التي، وبمحض صدفة، كان قد تزوج فيها صاحبنا عام ١٨٦٩ من السيدة البوهيمية، والتي هي الآن حارسة القسم البيولوجي الزجاجي في المتحف المحلي.

وصلت مارينا إلى نيس بعد بضعة أيام من المبارزة، ولحقت بديمون في فيلّته آرمينا، وفي نشوة مصالحتهما، لم يتذكر أي منهما تجنب الحمل، وعندها بدأتْ interesnoe polozhenie (القضية المثيرة للاهتمام)، والتي لولاها لم يكن هناك من داع لذكر كل التفاصيل السابقة.

(فان! أنا أثق بذوقك كما موهبتك. ولكن هل أنت يا فان متأكد أنه يتوجب علينا العودة ببهجة إلى هذا العالم الشرير، بعدما تبين أنه ليس إلا مجرد عالم أوهام؟ ملاحظة هامشيّة كتبتها آدا، شطبتها مؤخراً بريشة مرتعشة).

تلك المرحلة المتهورة لم تكن الأخيرة، ولكن الأقصر - مسألة أربعة أو خمسة أيام. سامحها. عشقها. تمنى بشدة الزواج منها - شريطة تركها لمهنة التمثيل. شجب موهبتها غير الفذّة وبطانتها المبتذلة، أجابت صائحة بأنه وحش كريه. في العاشر من أبريل، كانت آكوا هي من تعتني به، بينما عاودت مارينا بروفات لوسيل، دراما رديئة أخرى، قادتها نحو فشل آخر، فوق مسرح لادور.

«الوداع! ربما هذا أفضل لكلينا»، كتب ديمون لمارينا في منتصف ١٨٦٩ (قد تكون الرسالة إما نسخة بخطّ يده، أو تلك الأصلية التي لم يرسلها في البريد) «مهما بلغ النعيم الذي ينتظر حياتنا الزوجية، ومهما دام، فإن هنالك صورة واحدة لن أتمكن يوماً

من نسيانها أو مسامحتها. إنها محفورة في أعماق روحي يا صديقتي. اسمحي لي أن أذكرك بما فعلتِ، مستعيناً بكلمات لا يثمّنها إلا الممثلون! كنتِ قد ذهبتِ إلى بوسطن لرؤية عمتك العجوز - حجة غيابك الكاذبة عادة ولكنها كانت حقيقيّة في تلك المناسبة - وأنا ذهبت إلى مزرعة عمتي قرب لوليتا- تكساس. في وقت مبكر من أحد أصباح شهر فبراير (حوالي الظهر حسب توقيتك) اتصلتُ بك في الفندق الذي تنزلين فيه، من كشك هاتف عمومي جانب الطريق، كانت دموع العاصفة الرهيبة التي ضربت مؤخراً لا تزال تلمع فوق زجاجه، لأطلب منك أن تستقلّي طائرة في الحال لتنضمي إليّ، لأنني، أنا ديمون - فاقداً أعصابي وشاتماً الهاتف الآلي - لا أستطيع العيش من دونك ولأنني أردتك أن تري، وأنا أحملك بين يديّ، اللآلئ التي تركها المطر فوق زهور الصحراء. جاء صوتك بعيداً ولكن عذباً؛ قلتِ إنك كنتِ في نفس وضعية حواء اللوحة، لا تغلق الخط! انتظرني لأضع رداء الحمام. ودون أن تكتمي السماعة كلياً، تكلمتِ، كما أفترض، إلى الرجل الذي أمضيت الليلة معه (الذي قد أرسلته إلى العالم الآخر بكل سرور، إذ لم أرغب بالاكتفاء بخصيه). والآن وجدت هذا المشهد وقد رسمه فنان من بارما، في القرن السادس عشر، إنها لوحة مرسومة في ذهن رجلين، بإلهام تنبؤي يجسد مصيرنا، باستثناء تفاحة المعرفة الرهيبة. بالمناسبة، خادمتك الهاربة قد وجدتها الشرطة في بيت للدعارة هنا، وسوف تُشحن إليك بمجرد الانتهاء من حشوها بالزئبق.»

٣

تفاصيل الكارثة L[١] (ولا أقصد بها حادث سكة الحديد المرتفعة[٢]) التي وقعتْ في منتصف القرن الماضي، قد خلقت مفهوم الأرض المناظرة، تيرا[٣]، ولعنته في الوقت ذاته، وقد أسهب في ذكره المؤرخون واستنكره رجال الدين، وليس هناك من داع لشرحه مطولاً في كتاب ليس موجهاً إلى رجال رجعيين وبائدين، بل إلى شباب علماني منفتح.

اليوم، وبطبيعة الحال، وبعد أن ولّت إلى حد ما سنوات الماضي الرجعية، المهولة والمناهضة للكهرباء، وبعد أن عادت آلاتنا الصغيرة المصقولة (بمباركة الآلهة) لتنشط من جديد بطرازها الحديث في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فإن فكرة العالم

---

(١) الكارثة L: ويقصد بها اختراع الكهرباء electricity الذي أثار جدلاً كبيراً في أوروبا وقد رفضه رجال الدين باعتباره شكلاً من أشكال السحر. (مترجم)

(٢) حادثة سكة الحديد المرتفعة: وتعرف أيضاً بكارثة "El" وهي حادثة وقعت عام ١٨٦٨ في نيويورك. (مترجم)

(٣) تيرا وأنتيتيرا: تدور أحداث الرواية فوق أنتيتيرا، الكوكب المناظر لكوكب تيرا، وهي فكرة مغدقة في القدم تعود أصولاً إلى القرن الرابع قبل الميلاد، حيث نادى بها للمرة الأولى فيلولوس، فيلسوف يوناني. (مترجم)

المناظر قد استعادتْ شكلها الجغرافي بجانبه الهزلي فقط، من خلال الرسوم السيئة والأنماط النحاسية، والتي كان أسلافنا المفتقدين لحس الفكاهة يسمونها «فناً». إذ إنه، في الواقع، لا يمكن لأحد أن ينكر مدى الغرابة المثيرة للسخرية، التي رُسمت بها تلك الخرائط، والتي تقترح تصويراً ساذجاً لتيرا. كم هو مضحك (أليس كذلك؟) أن تكون روسيا، تسمية طريفة مرادفة لإيستوتي، المقاطعة الأمريكية التي تمتد من الحلقة القطبية التي لم تعد موحشة وصولاً إلى الولايات الأمريكية ذاتها، فهي - حسب ذاك التصوّر - كانت تسمية لبلد فوق تيرا، وقد انزلقتْ عبر أراضي وخنادق المحيطات لتصل إلى نصف الكرة المقابل، حيث امتدت فوق ما يعرف اليوم بطارطاريا، من كورلان إلى جزر الكوريل. ولكن (ما يبدو أكثر سخافة)، إن كانت، بالمصطلحات المكانية الأرضية، أمري-روسيا الخاصة بأبراهام ميلتون قد فقدت وحدة مكوّناتها، فانقسمت المياه والثلوج مفرقة بين المفاهيم السياسية أو بالأحرى الشعرية لكل من روسيا وأمريكا، فإن هنالك خلافات أكثر تعقيداً وسخرية سوف تنشأ من وجهة نظر زمنية - ليس بسبب أن التاريخ الخاص بكل جزء من ذاك الخليط (روسيا- أمريكا) لا يتطابق مع نظيره المنفصل في العالم الآخر، بل بسبب فجوة تصل لأكثر من مئة عام (باتجاه أو بآخر)، موجودة بين الأرضيْن، وتميّزها ألواح علامات الاتجاه الفوضويّة والغريبة، الخاصة بتقاطع الزمن، الذي يمر حيث الأحداث التي «حدثت وانتهت» في أحد العالميْن، لا تتطابق مع تلك التي «لم تحدث بعد» في الآخر. بالإضافة إلى أسباب أخرى، فإن تلك الاختلافات «غير المقبولة علمياً»، التي ترفضها العقول المقيدة بالعلم والمنطق، جعلت البعض ينبذ مفهوم تيرا كما لو كان شبحاً أو بدعة، بينما قبل به أصحاب العقول المضطربة، القادرون على

الغوص في أي هاوية كانت، وقد راهنوا على دعمه من دون الاستناد إلى أي منطق.

خلال بحثه المحموم في علوم الأرض (فرع من فروع الطب النفسي)، اكتشف فان فين بنفسه أن حتى أكثر المفكرين عمقاً، وأنقى الفلاسفة، ككبير أساتذة جامعة تشوز أو زاباتر من آردفارغ، كانوا منقسمين عاطفياً تجاه موقفهم من الاعتقاد بوجود «نسخة مشوهة عن كوكبنا المشوه»، التعبير الدقيق الذي قال به عالِمٌ لم يرغب في الكشف عن اسمه. («ممم هذا أمر مريب» كما اعتادت الآنسة ل. أن تقول لغافرونسكي. ملاحظة مكتوبة بخط آدا).

وكان هنالك الذين دافعوا عن اعتقادهم بوجود العديد من التناقضات ونقاط عدم تطابق بين العالمين، متغلغلة عميقاً في نسيج الأحداث المتعاقبة، ولكنها لا تفسد مفهوم التماثل الأساسي بين العالميْن؛ الاعتقاد الذي رد عليه خصومهم بأن تلك الاختلافات ما هي إلا تأكيد على الحقيقة العضوية الحية، والمتعلقة بالعالم الآخر، وأن التشابه المثالي سوف يولّد، في الواقع، ظاهرة التناظر المضارب، وأن لعبتيْ شطرنج تتطابقان بحركات البداية والنهاية، قد تتشعب إلى عدد لا ينتهي من التبديلات، والتي لا رجعة فيها عادة، فوق لوح واحد وداخل دماغيْن، في أي مرحلة تقارب من مراحل تطور اللعبتيْن.

على الراوي المتواضع أن يذكّر القارئ بكل ما سبق، لأنه في أبريل (شهري المفضل) من عام ١٨٦٩ (العام المذهل)، وفي يوم القديس جورج (وفقاً لمذكرات الآنسة لاريفيير البكائية)، تزوج ديمون فين من آكوا دورمانوف، بدافع النكاية والشفقة، مزيج من الدوافع غير الغريبة عن الزواج.

أهناك دافع أكثر إثارة؟ لقد أكدت مارينا، في تيهها الشاذ، أن لا

شيء يستثير حواس ديمون في السرير كذاك النوع الغريب من متعة «زنى المحارم» (أياً كان معنى العبارة، أما كلمة متعة فالمقصود بها تلك المتعة الفرنسية التي ترافقها رعشة في العمود الفقري كأمر ملحق). كما وصفتْ كيف كان يداعب، يتذوّق، ويفلق بشرة واحدة تخص زوجته وعشيقته في آن واحد، ثم وبألف طريقة فاتنة ولا يمكن نكرانها، يدنّس الجسديْن، الوجهيْن المتقابليْن لتوأم ساحر متشابه، «آكوامارينا» المفردة والمزدوجة، سراب في إمارة، حجرين كريميْن، جناس ظهاري لعربدة جماعية.

في الواقع، كانت آكوا أقل جمالاً من مارينا وأكثر اضطراباً. كانت خلال أربعة عشر عاماً من زواجها البائس، قد أقامت في المصحات خلال فترات عديدة، قد تزايدت باطّراد. إن أردنا أن نغرز دبابيس أعلام صغيرة فوق خريطة صغيرة تُظهر جزءاً من الكومنويلث البريطاني، لنقل، من سكوتو- سكاندينافيا وحتى الريفييرا، آلتار وباليرمونتوفيا[1]، كما تظهر معظم الولايات المتحدة الأمريكية، من إيستوتي وكانادي إلى أرجنتينا، للإشارة إلى مناطق المصحات التي عسكرتْ فيها آكوا خلال حربها مع العالميْن، لبدتْ كثيفة جداً. ذات مرة، كانت لديها خطط لاستعادة القليل من مظاهر الصحة (اترك القليل من اللون الرمادي، لو سمحت، لا تجعله أسودَ قاتماً) في بعض المحميات الأنغلو-أمريكية، مثل جزر البلقان وجزر الهند، حتى أنها جربت الذهاب إلى مناطق القارتيْن الجنوبيتين، الخاضعتين تحت سلطتنا المتناظرة. وبالطبع، فإن طارطاريا، الجحيم المستقل، التي امتدتْ في ذلك الوقت من بحر البلطيق والبحر الأسود وصولاً إلى المحيط الهادئ، لم تكن متوافرة

---

(١) آلتار وباليرمونتوفيا: أسماء المناطق المقابلة فوق Antiterra. (مترجم)

للرحلات السياحيّة، بينما كانت كل من يالطا وجبال آلتون تاج (جبال كونلون)، جاذبة للسياح على نحو غريب... ولكن وجهتها الحقيقية كانت تيرا الجميلة، حيث آمنت أنها حين تموت هناك، فإن روحها سوف تحلّق فوق أجنحة يعسوب. في الرسائل القليلة والصغيرة التي أرسلتها من «بيوت الجنون» إلى زوجها، كانت أحياناً توقّع على الشكل الآتي: السيدة "Shchemyashchikh-Zvukov" (أنين قلب معذب).

بعد معركتها الأولى مع نوبات الجنون في إيكس -فاليز، عادت إلى أمريكا حيث كانت تنتظرها خيبة مريرة. كان فان في ذلك الوقت لا يزال تحت رعاية مرضعته الشابة جداً، لا بل تكاد تكون طفلة، روبي بلاك، السوداء، والتي كانت بدورها على وشك أن تفقد عقلها: كادت كل الحنونات والضعيفات اللواتي تقرّبن منه بشكل وثيق (وكذلك لوسيت، إن أردنا ضرب مثال آخر)، يتعرضن للابتلاء بالكرب والمحن، لو أنه لم يرث نقطة من دم أبيه ديمون، التي كانت كفيلة بتخفيف تلك اللعنة.

لم تكن آكوا قد أتمت العشرين من عمرها، حين بدأت طبيعتها غير السوية بالكشف عن ميول مرضية. زمنياً، تزامنت المرحلة الأولى من اعتلالها الذهني مع العقد الأول من «الكشف العظيم». ورغم أن ذلك قد مكنها من إيجاد موضوع جديد لتخيلاتها وأوهامها، إلّا أن الإحصائيات تظهر أن ذلك «الكشف العظيم» (والذي يبدو لا يُطاق) قد أثار الجنون بين البشر، كما لم يفعل الانغماس المفرط في الأديان، والذي كان حاصلاً في العصور الوسطى.

أمكن لهذا الكشف أن يكون أكثر خطورة من الثورات. قامت عقول مريضة بتحديد مفهوم كوكب تيرا، وذلك بربطه مع عالم آخر،

و«العالم الآخر» هذا، ليس مختلطاً فقط مع «العالم الثاني»، بل مع «العالم الحقيقي» الموجود داخلنا، وخارجنا. شياطيننا، السحرة، والمخلوقات القزحية النبيلة ذوات المخالب الشفافة والأجنحة الهائلة التي ترفرف بقوة؛ ولكن في العقد السابع من القرن التاسع عشر، قام «المؤمنون الجدد» بحثّ الناس نحو تخيّل كوكب يوجد فيه كل أصدقاؤنا الرائعون أولئك، ولكنهم قد أصبحوا في منزلة منحطة، بعد أن تحولوا إلى وحوش شريرة، جلادين مقذعين للأرواح الأنثوية، أبالسة مقرفين، لهم أنياب الثعابين، وأكياس صفن سوداء كتلك الخاصة بالضواري؛ بينما، وفوق الجانب المقابل لذلك الدرب الكوني، يجتمع سكان تيرا الجميلة - أرواح ملائكة ضبابية بألوان قوس قزح، تستعيد كل أساطير العقائد القديمة، والتي ما زالت واسعة النفوذ رغم عفنها، مع إعادة توزيع ألحانها ونغماتها المتنافرة من خلال ميلودكا خاصة بكل الآلهة التي سبق لها أن تكاثرتْ في مستنقعات كوننا الكافي هذا، الذي يتسع للجميع.

يتسع بما يكفي لتحقيق أهدافك يا فان، لنكن واضحين! (ملاحظة فوق الهامش).

آكوا المسكينة، والتي كانت مؤهلة للخضوع لكل بدع المهووسين والمسيحيين، قد تخيلت جنة مشرقة يعيش فيها مرتّل فتي، أمريكا مستقبلية بأبنية من المرمر، يبلغ ارتفاعها مئة قصة، مخزناً للأثاث الجميل، تزدحم فيه خزانات ملابس بيضاء طويلة، وثلاجات قصيرة؛ رأتْ أسماك قرش طائرة عملاقة بعيون جانبية، بالكاد تحتاج إلى ليلة كاملة لنقل حجاج، عبر الأثير الأسود، وفوق قارة كاملة، من الظلام نحو بحر مشع، قبل أن تعود بهم إلى سياتل أو وارك. سمعت غناءً وأحاديث صادرة من صناديق الموسيقى السحرية، يغرق فيها رعب الأفكار، ترتفع مع راكبي المصاعد، ثم

تهبط مع عمال المناجم، تتغنى بالجمال والورع، تمجد العذراء وفينوس، وتصدح في مساكن الوحيدين والفقراء. تلك القوى المغناطيسية التي لا يصح حتى ذكرها، والتي شجبها المشرعون في هذا البلد البائس - أوه، في كل مكان، في إيستوتي وكانادي، في مارك كينينزي الخاصة بألمانيا، وكذلك في مانيتوغوبان السويد، في ورشات يوكون حيث يرتدي العمال قمصاناً حمراء، كما في مطبخ امرأة من لايساكا بوشاح أحمر، وفي إيستوتي الفرنسية، من برادور وحتى لادور - كانت متوافرة في تيرا كما الماء والهواء، كما الأناجيل ومكانس الغبار. فإن كانت قد وُلدت قبل عقدين أو ثلاثة، فلا بد أنها كانت مجرد ساحرة أخرى.

خلال سنوات دراستها غير المنتظمة، غادرت آكوا كلية براون هيل العصرية، التي أسسها أحد أسلافها (أقل من تمتع بينهم بالسمعة الطيبة) لتشارك في مشروع «التحسين الاجتماعي» (وقد كان عصرياً أيضاً)، أو غيره في سيفيرنيا تيريتوري. بمساعدة ميلتون أبراهام التي لا تقدّر بثمن، أنشأت صيدليّة مجانية في بيلوكونسك، ووقعتْ، بكل أسى، في حب رجل متزوج، وهبها، داخل شقته المفروشة، صيفاً كاملاً من شغف لم تعرف نعمته من قبل، ثم آثر أن يتخلى عنها في سبيل عدم المخاطرة بمكانته المتميزة في مدينة رجال الأعمال الذين لا يفقهون إلا في أمور لعبة الغولف، يقيمون في «المساكن» الخاصة بها، ويمضون الآحاد في لعبها. العلة المروعة في حالتها، أو حالات آخرين بائسين أمثالها، تم تشخيصها بإيجاز على أنها «شكل متطرف من الهوس المختلط ما بين الصوفية والوجودية» (أو جنون واضح بمعنى آخر)، وقد اجتاحتها على مراحل، وتخلّلتها فترات انتشاء وسلام، وأخرى تخلو من الاستقرار العقلاني، مع أحلام مفاجئة تؤكد أبديتها، تناقصت تدريجياً لتصبح نادرة ووجيزة.

بعد وفاتها عام ١٨٨٣، افترض فان أنه خلال ثلاثة عشر عاماً، إن أراد أن يحسب كل لحظة من وجودها المفترض، آخذاً بعين الاعتبار كل زياراتها الكئيبة للمصحات المختلفة، فضلاً عن ظهورها المفاجئ والمضطرب عند منتصف الليل (تتصارع مع زوجها أو الخادمة الإنكليزية، الضعيفة ولكن الرشيقة، اللذين كانا يحاولان الوقوف في طريقها نحو الطابق العلوي، مع كلب «آبنزيلر» ينبح بعنف - حتى تصل في نهاية المطاف إلى غرفة الحضانة، من دون شعرها المستعار، ومن دون خف، مع دم تحت أظافرها)، فإن كل المدة التي قضاها على مقربة منها، أو رآها خلالها، لا تتجاوز مدة الحمل البشري.

سرعان ما أخفى ضباب النحس الأماكن الوردية الجميلة النائية التي كانت تراها في تيرا. بدأت سلسلة متعاقبة المراحل من التفكك العقلي، كانت كل منها أسوأ من سابقتها؛ إذ يمكن للعقل البشري أن يكون هو البيت الأسوأ بين كل بيوت التعذيب التي اخترعها، أسسها، واستخدمها على مرّ ملايين السنين، في ملايين الأماكن، التي امتلأت بعويل ملايين البشر.

تطورت لديها حساسية مرضية تجاه «لغة» مياه الصنبور (تماماً كصوت تدفق الدم في الأوعية قبل اللحظات التي تسبق الاستغراق في النوم) التي تشبه في كثير من الأحيان جزءاً من حديث بشري يبقى يطنّ في أذن أحدنا بينما يقوم بغسل يديه بعد أن احتسى كوكتيلات برفقة غرباء. عندما لاحظتْ تكرار ذلك الخطاب بشكل مباشر، ومستدام، والذي لم يبدُ لها في حالتها استفزازياً بل مجرد تكرار مسالم، شعرت آكوا المسكينة بالابتهاج، إذ ظنّت أنها وقعت بالصدفة على طريقة بسيطة لتسجيل وبثّ الأحاديث، بينما كان التقنيون حول العالم (الذين يعرفون بـ«العلماء») يناضلون في سبيل

الترويج لآلات غاية في التعقيد كما هي باهظة الثمن، مثل الهواتف الهيدروديناميكية، وكذلك بالنسبة لآلات أخرى صغيرة وبائسة، بـ«عنبرها»[1] المحرم الذي لا يصح ذكره، وقد حلّت مكان ما تمّ إرساله "k chertyam sobach'im" (إلى الشيطان). ومع ذلك، فإن إيقاع الصنابير المتقن، رغم طلاقة حديثه الشفهي الغامض والمشوش، سرعان ما ارتقى إلى مراتب اهتمامها المبالغ فيه. كان الصوت النقي لانسياب المياه قد بدأ بالتنامي طرداً مع الوسوسة التي ولّدها في الوقت ذاته. بدأ ذلك المونولوج، مباشرة بعد أن استمعتْ آكوا، أو بالأحرى تعرضتْ، لشخص يتحدث - ليس بالضرورة إليها - بلغة تعبيرية مقنعة، شخص يتميز خطابه بالتدفق السريع، ولكنة خاصة جداً وربما أجنبية، ثرثرة لا يُقاوم سماعها من حكواتي متواجد في سهرة رهيبة، أو مناجاة عذبة في مسرحية مملة، أو ربما صوت فان الجميل، أو قليل من شعر قد ألقي في محاضرة، سيدتي، جميلتي، حبيبتي، ارحميني، وعلى وجه الخصوص الأبيات الإيطالية الأكثر مرونة وانسياباً، على سبيل المثال القصيدة التي ألقاها، بين نقر الركبة ورفّ الجفون، الطبيب العجوز، نصف الروسي، ونصف المجنون، طبيب. . إبهام. . قصيدة. . مجنون ,ballatetta deboletta ... tu, voce sbigottita ... spigotty e diavoletta ... de lo cor dolente ... con ballatetta va va della strutta, destruttamente ... mente ... mente ... فليتوقف هذا التسجيل وإلا فإن الدليل السياحي سيستمر بالادعاء، كما فعل صبيحة هذا اليوم في فلورنسا أمام نصب تذكاريّ تافه، إذ قال، إن شجرة الدردار المنتصبة هناك قد نبتت من خلال رفات سانت زيوس الذي حُمل إلى هناك

(١) العنبر: إشارة إلى الكهرباء. (مترجم)

بناووس حجري ثقيل، ثم أورقتْ ورمت ظلالها شيئاً فشيئاً؛ أو أن تلك العجوز من آرلينغتون ستستمر بالثرثرة ومضايقة زوجها الصامت أثناء مرورهما في الكروم، وحتى في النفق: (لا يمكنهم أن يفعلوا بك ذلك، عليك أن تخبرهم يا «جاك بلاك»[1]، عليك أن تخبرهم!. . .). كان صوت مياه حوض الاستحمام (أو المسحاح) ذا طبيعة كاليبانيّة[2]، ولم تكن مفهومة بشكل واضح، أو ربما كان يتوق بعنف ليلفظ تياره الحار ويتخلص من وهجه الجهنمي لكي يتفرغ لأحاديث صغيرة؛ ولكن شيئاً فشيئاً باتت غرغرة المياه تلك أعلى طموحاً وأكثر شناعة، وعندما سمعتْ آكوا في «بيتها» الأول صوت الطبيب الذي تبغضه (مقتبس «كافالكانتي»[3]) وكان قد جاء لزيارتها وإعطائها تعليمات بغيضة، داخل مرحاضها البغيض، بلغة روسية ألمانية بغيضة، عندها فقط قررت أن تتوقف عن تشغيل مياه الصنبور.

لكن تلك المرحلة قد انقضتْ أيضاً. وحلّت مكانها عذابات أخرى كمرادف بليغ لمعنى اسمها المائي الهادئ آكوا، عندما، خلال فترة من فترات صفائها، فتحت بيدها الصغيرة الضعيفة صنبور حوض الغسيل لتأخذ رشفة ماء، وسمعت الصوت الليمفاوي الفاتر يردد بلغته الخاصة، من دون أي أثر يدل على الخداع أو السخرية: «Finito! انتهى!». إن سبب عذابها الرهيب الآن هو تلك الحفر

---

(١) بلاك جاك: جون جوزيف بيرشنغ (١٣ سبتمبر ١٨٦٠ - ١٥ يوليو ١٩٤٨) كان جنرالاً في القوات الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى، وقائداً للقوات الأمريكية والحرب الأمريكية الإسبانية ، والحرب ضد الهنود الحمر. (مترجم)

(٢) كاليبانية: نسبة إلى كاليبان، من الشخصيات الرئيسة في مسرحية شكسبير «العاصفة». (مترجم)

(٣) غيدو كافالكانتي: شاعر إيطالي (١٢٥٥-١٣٠٠). (مترجم)

السوداء اللدنة (yamï, yamishchi) (بقع صغيرة معتمة) التي بدأت تتشكل في عقلها، فاصلة ما بين النتوءات البارزة في فكرها وذاكرتها؛ وعندها، تشابكت يد الذعر الذهني السوداء مع اليد الحمراء للألم الجسدي، تصلي إحداهما طلباً للعافية، أما الأخرى فتتضرع استجداءً للموت. تجردت الأشياء التي هي من صنع الإنسان من معناها، أو أنها اتخذت دلالات شنيعة؛ تحولت شماعات الملابس إلى رؤوس «سكان الأرض» المقطوعة، البطانية التي رمتها بركلة واحدة تحت السرير، صارت طياتها عيوناً ترميها بنظرة لوامة، مع شعرة ناتئة من شحّاذ العين المتورم فوق الجفن، وشفاه متبرمة، كئيبة ومرتخية. الجهد الذي كان عليها بذله لمعرفة الوقت بمجرد النظر إلى عقارب الساعة، لم يطل به الحال حتى أصبح ميؤوساً منه، كما محاولتها لفهم لغة مجتمع سري، أو أغنية صينية يغنيها طالب شاب يعزف على غيتار غير صيني، كانت قد تعرفت إليه - أو ربما شقيقتها - يوم وضعت طفلاً بنفسجي اللون. ولكن جنونها، عظمة جنونها، بقيت محافظة على الغنج المرَضي الخاص بملكة مجنونة: «أتعرف يا دكتور! ربما سأحتاج قريباً إلى نظّارة» (ضحكة مدوية) «فأنا لا أتمكن من معرفة ما تقوله لي ساعة يدي. . . بحق السماء! أخبرني ما تقول! اه!! أيشير العقرب الكبير إلى السادسة أم ماذا؟ Never mind، لا تهتم! لا تهتم! Never و Mind[١] هما توأمان، وأنا أيضاً لدي أخت توأم وابن توأم. أعرف أنك تريد أن تعاين عانتي، جبل الألب ذا الزغب الوردي، الذي جمعتْ أختي كثيراً من صوره في ألبومها.» (ثم مدت أصابعها أمامه بكل زهو وفخر، «العشرة هي عشرة»!).

---

(١) Never و Mind: بالمعنى الحرفي للكلمتين (لا) (عقل)، تلميح للجنون. (مترجم)

ثم تفاقم الكرب حتى أصبح مهولاً على نحو لا يُطاق، واصلاً إلى مرحلة الكوابيس، التي كانت تدفعها للصراخ والتقيؤ. أرادت (وكان يحق لها، بمباركة حلاق المشفى بوب بين) أن تحلق شعرها الداكن المجعد، لأنه كان ينمو داخل جمجمتها التي يسهل اختراقها، ويتجعد فيها.

كقطع puzzle لصورة سماء أو جدار، بغض النظر عما إذا كانت مركّبة بشكلها الصحيح، ولكن عند أدنى هزة قد يسببها إهمال أو كوع ممرضة، سرعان ما تتهاوى وبسهولة، تلك الشظايا الخفيفة، التي أصبحت أجزاء بيضاء غير مفهومة لمواضيع مجهولة، أو القفا الفارغ لقطع لعبة Scrabble، التي لم تستطع يد آكوا المربوطة إلى يد ممرض بعيون سوداء إبليسية، أن تقلبها على وجهها الصحيح. أصبح الذعر متوائماً مع الألم، كطفل وطفلة مشاغبين، يلعبان بعنف، يطلقان آخر صرخة فرح، ثم ينطلقان إلى عمق دغل ليداعبا بعضهما، تماماً كما حصل في رواية الكونت تولستوي، آنا كارنينا، ومن جديد، لبرهة فقط، برهة قصيرة، عاد الهدوء إلى المنزل، حيث وُجدت الأم التي تحمل نفس اسم والدة آكوا.

ذات مرة، اعتقدتْ آكوا أن جهيضاً ذكراً عن عمر ستة أشهر، كانت ولادته قد باغتتها بينما كانت في حوض الاستحمام في «منزلها» الذي يظهر جلياً في أحلامها مميزاً بعلامة (X)، وتبين أنه جنين بحجم سمكة مطاطية، وذلك بعد أن كانت تتزلج بسرعة فائقة فارتطمت بجذل شجرة آركس، ولكنه قد أُنقذ بطريقة ما، وجُلب إليها في «العصفورية»، تحمله أختها المحتفية به، ملفوفاً بقطن طبي مشبع بالدماء، ولكنه كان حياً وبصحة ممتازة، ليُسجل على أنه ابنها إيفان فيين. في لحظات أخرى، شعرت بقناعتها التامة، أن ذلك الطفل يخص أختها، وقد حملت به خارج إطار الزواج، أثناء عاصفة

ثلجية، عنيفة ورومانسية للغاية، داخل كهف في جبل Sex Rouge[١]، بينما كان الدكتور آلبينيه، الطبيب العام وعاشق الجنطانيا، يجلس، بكل دهاء، أمام موقد ريفي متوهج، منتظراً حذاءه كي يجف. أدى كل ذلك إلى ظهور تشويش خلال أقل من سنتين (في سبتمبر ١٨٧١، كانت آكوا فخورة بكونها لا تزال تحفظ عشرات التواريخ) وذلك عندما هربت من ملجئها التالي، وتمكنت بطريقة ما من الوصول إلى منزل زوجها الريفي الذي لا يُنسى (مقلدة سائحاً أجنبيّاً: "Signor Konduktor, ay vant go Lago di Luga, hier geld"، «أيها السيد السائق أريد أن أذهب إلى بحيرة لوغا، فهناك يوجد الذهب») واستغلت فرصة انشغال ديمون بالتدليك أثناء حمامه الشمسي، ومشت على رؤوس أصابعها نحو غرفتهما السابقة، حيث كانت تنتظرها صدمة لذيذة: قارورة مسحوق التالك خاصتها، "Quelques fleurs"، نصف الممتلئة، ما زالت فوق منضدة السرير الخاصة بها؛ قميص نومها المفضل، كان ملقى هناك، بلونه البرّاق، مجعداً فوق حافة السرير السفلية؛ بالنسبة لها كان ذلك له معنى واحد: كابوس أسود قد طمس حقيقة مشرقة، ألا وهي أن شقيقتها كانت خلال كل ذلك الوقت - منذ عيد ميلاد شكسبير في يوم ممطر أخضر - تنام في أحضان زوجها؛ بينما وبالنسبة لمعظم الآخرين، وللأسف، فإن ذلك يعني أن مارينا، وبعد أن تخلى عنها رجل الأفلام جي.أي. فرونسكي من أجل "Khristosik" أخرى (كما كان يدعو كل نجمات التمثيل الجميلات) ذات رموش طويلة، قد أوهمت نفسها، وهذا أفضل ما يمكن قوله، بفكرة ذكية مفادها أن ديمون سيطلّق آكوا المجنونة ويتزوج من مارينا التي اعتقدت (بفرح وكانت

(١) Sex Rouge: جبل في سويسرا. (مترجم)

صائبة) أنها حامل للمرة الثانية. كانت مارينا قد أمضتْ شهراً "rukuliruyushchiy" (رومانسياً) معه في كيتيز، ولكنها عندما كشفت عن نواياها (تماماً قبل وصول آكوا) طردها من المنزل. ثم لاحقاً، وفي آخر مرحلة من وجودها عديم الفائدة، تحررت آكوا من كثير ذكرياتها الغامضة، ووجدت نفسها في مصحة فاخرة في سينتور-آريزونا، تقرأ، تدقق، وتعيد قراءة رسائل ابنها، بكل حبور. كان يكتب لها دائماً باللغة الفرنسية، ويدعوها بـ«أمي الصغيرة»، وقد وصف لها في إحدى الرسائل المدرسة المسلّية التي سينتقل للعيش فيها بعد عيد ميلاده الثالث عشر. وفي الليل، أثناء معاناتها من آخر نوبات الأرق، النوبات الجديدة التي كانت تستحضرها بملء إرادتها، لم يكن هناك ما يواسيها إلا صوته الذي كانت تسمعه، وهو يناديها «مامي» (mummy) أو «ماما» (mama)، مشدداً على المقطع الصوتي الأول بالإنكليزية، والأخير بالروسية؛ يُقال إن التوائم الثلاثية غالباً ما توجد في العائلات التي يتكلم أفرادها لغات ثلاث؛ ولكنها الآن، وأكثر من أي وقت مضى، لم يعد لديها أدنى شك بأن فان (طبعاً، ربما، هذا ليس ما تفكر به مارينا الحقودة والمتوفاة منذ زمن بعيد، في عقلها المريض والحقود) هو ابنها، ابن آكوا الحقيقي، ابنها الحبيب.

وكونها غير راغبة في معاناة انتكاسة أخرى بعد تلك المرحلة المباركة من الاستقرار الذهني المثالي، رغم علمها أنها لن تدوم طويلاً، فقد فعلتْ ما أمكن لأي مريض فعله في «فرنسا» بعيدة، أقل بهجة وراحة من «المنزل». الطبيب Froid[1]، أحد القناطير

(١) Froid: تلميح إلى سيغموند فرويد الذي كان يشبّه الإنسان بـ«قنطور يجمع بين عقل وحشي دائم التوتر و«الأنا» العليا البشرية». وقد اشتهر نابوكوف بمعاداته لفلسفة فرويد وشجبها في أغلب رواياته. (مترجم)

الإداريين، الذي ربما كان له أخ مهاجر، استبدل اسمه بـ Froit، يعيش في Signy-Mondieu-Mondieu - «آردين»[١]، أو على الأرجح، إنه الآخر ذاته (لأن كلاهما قدما من فيين - إيزير[٢] وكانا ولديْن وحيديْن لوالديهما، تماماً كما كان ابنها) هو من وضع نظاماً، أو بالأحرى استعاد نظاماً علاجياً يقوم على تعزيز روح الجماعة، بمساعدة أرقى المرضى الموجودين هناك، إن أظهروا قبولاً بذلك. بدورها، كررت آكوا خدعة إيليونور بونافار[٣] الذكية، وأعني، ترتيب الأسرة وتنظيف الأسطح الزجاجية. «منفى القديس برج الثور»[٤]، أو مهما كان الاسم (من يأبه للأمر، فالإنسان عادة ما ينسى بسرعة الأمور التافهة، حين يطفو في عدم لامُنتهٍ) كان ربما أكثر حداثة، مع إطلالة صحراوية أكثر أناقة، من إطلالة «المنزل الكئيب» الخاص بـ Monfroid، ولكن في كلا المكانين، يمكن بكل سهولة لمريض مخبول أن يخدع متحذلق مغفل.

في أقل من أسبوع، تناولت آكوا أكثر من مئتي حبة دواء، لكل منها درجة قوة مختلفة. كانت خبيرة بمعظمها - المهدئات الخفيفة، وتلك التي تطرحك من الثامنة مساءً وحتى منتصف الليل، ومختلف الأصناف من العقاقير الشديدة التي تتركك مع جفون مرتخية ورأس ثقيل بعد ثماني ساعات من «اللاوجود»، ومخدر يمكن له إن تم تناوله على حدة أن يكون مسرّاً ولكنه يتحول إلى مهلك إذا ما خُلط

---

(١) آردين: منطقة غابات تقع بين فرنسا واللوكسمبورغ وبلجيكا. (مترجم)
(٢) فيين وإيزير: الأولى هي مدينة تقع في إقليم إيزير في فرنسا. (مترجم)
(٣) إيليونور بونافار: تلميح إلى إيما بوفاري في رواية لغوستاف فلوبير، «مدام بوفاري».
(٤) منفى القديس برج الثور: الهذر واللغط في ذاكرة آكوا بسبب الجنون، فالمنفى هو مشفى أما القديس برج الثور فهو الالتباس بينه وبين القنطور. (مترجم)

بقليل من سائل التنظيف، الذي يُعرف تجارياً بمورونا؛ وكان هنالك الحبة البنفسجية الكبيرة التي كانت تذكرها (مما يجعلها تضحك) بتلك التي استخدمتها ساحرة الغجر الشابة في الحكاية الإسبانية (التي أحبتها كل فتيات مدرسة لادور) لتنويم الصيادين، وكلابهم الشرسة، عند افتتاح كل موسم صيد. وخوفاً من أن يقوم أحدهم ببعثها من جديد ومقاطعة عملية طوفها في عالمها البعيد، افترضت أنه يتوجب عليها أن تؤمّن لنفسها أطول فترة سبات ممكنة دون أن تسمح لأحد بتعكير صفوها، ولم تجد مكاناً أكثر سرية من بيت الزهور الزجاجي، وقد تم تبسيط وتنفيذ الجزء الثاني من مشروعها بمساعدة عميل، أو ربما هو الطبيب المضاعَف للبروفيسور القادم من إيزير، الدكتور ساي هيلير، الذي كان الجميع يجلونه ويعتبرونه رجلاً عظيماً، يحمل من العبقرية، ما تحمل جعة قليلة الكحول من الكحول. أثبت بعض المرضى عند مرحلة معينة من تشنج جفونهم، وبعض أعضاء أخرى وحتى الحساسة منها، أن سيغ (صبي مشوّه إلى حد ما على الرغم من مظهره الأنيق) كان قد ظهر في أحلامهم بهيئة papa fig[1]، المهووس بمؤخرات البنات، والممارس البارع للعادة السرية؛ وكان المريض الذي يدلي بشهادة كتلك، يُعتبر في طريقه للشفاء، ويُسمح له بعد الاستيقاظ أن يشارك في نشاطات طبيعية في الهواء الطلق، كالنزهات. تظاهرت آكوا الماكرة برمش جفونها، ثم بالتثاؤب، فتحت عينيها ذاتي الزرقة الخفيفة (مع ذلك التباين الرائع بين لونيهما ولون البؤبؤيْن الفاحمين الذين قد ورثتهما عن أمها دوللي)، لبست سروالاً أصفر وسترة بوليرو سوداء، مشت عبر غابة الصنوبر، طلبت توصيلة من شاحنة مكسيكية أقلّتها إلى حرش صغير حيث وجدت جدولاً، وبعد أن كتبت مذكرة هناك، مدت يدها إلى حقيبتها الممتلئة

---

(١) Papa fig: إشارة إلى father figure (صورة الأب) عند سيغموند فرويد.

بكثير من المحتويات الملونة، وكأي فتاة من ريف روسيا "lakowyashchayasya yagodami" (تولم على التوت)، ملأت باطن كفها بحباته، وبدأت تأكل على مهلها. ابتسمت، وتهللت لفكرة (تغلب عليها الروح الكارنينية[1]) أن فناءها لن يؤثر في أحد إلا كما يفعل اختفاء غامض، مفاجئ وغير مفسر، لزاوية هزلية في صحيفة يوم الأحد، اعتاد الناس على متابعتها لسنوات طويلة. كانت تلك ابتسامتها الأخيرة. سرعان ما وُجدت، وسرعان ما قضت نحبها أيضاً. أما المراقب سيغي، فقد كان لا يزال مرتدياً سرواله القصير الكاكي الفضفاض، حين كتب في تقريره أن الأخت آكوا (كان الجميع يدعونها هكذا لسبب ما) تمددت، كجثة مدفونة من زمن ما قبل التاريخ، بوضعية جنين في رحم أمه، الملاحظة التي كانت مهمة بالنسبة لطلابه، كما قد تكون لطلابي.

الرسالة التي وُجدت فوق جثتها، والتي كانت موجهة إلى زوجها وابنها، قد يُظن أن أعقل إنسان فوق هذه الأرض هو من كتبها:

Aujourd'hui (heute-toity!)[2]، كنتُ - أنا ذات العينين المدورتين كالدمى - قد حصلت على حقِّ «نفسيّ» للتمتع بنزهة في الطبيعة مع هير دكتور سيغ، الممرضة جوان

---

(١) فكرة كارنينية: نسبة لـ«آنا كارنينا».

(٢) Aujourd'hui (heute-toity!): ابتدأت آكوا رسالتها باللغة الفرنسية Aujourd'hui أي «اليوم» ثم عقبت بعبارة (heute-toity) وهي العبارة التي كان زملاء نابوكوف يطلقونها عليه حين كان تلميذاً في المدرسة لأنه كان يحشر كلمات إنكليزية وفرنسية في نصوصه الروسية، وكان ذلك ما يعتبرونه استعراضاً. حتى أن العبارة ذاتها لا تزال تستعمل حتى اليوم وبالمعنى ذاته: الاستعراض والخيلاء. (مترجم)

الرهيبة، وعدد من المرضى في غابة صنوبر مجاورة لنا. وهناك قد لاحظتُ وجود السناجب شبيهة الظربان ذاتها التي قد استوردها جدُّك ذو العينين الزرقاوين القاتمتين إلى متنزه آرديس، حيث سوف تتنزه يوماً ما يا فان، دون أدنى شك. إن عقارب الساعات الكبيرة حتى وإن كانت معطّلة، عليها أن تعرف مكانها الذي تقف عنده، وتسمح لعقارب ساعات اليد الصغيرة الأخرى المتواضعة أن تعرفه أيضاً، وإلا فإن قرص الساعة ليس إلا وجهاً شاحباً بشارب مستعار. وكذلك الـ "chelovek" (الإنسان)، عليه أن يعرف أين يقف ويسمح للآخرين بمعرفة مكانه، وإلا فإنه لن يكون "Klok of a chelovek" (ذرة من إنسان)، ولن يكون «هو» أو «هي» بل مجرد شيء، كما كانت تقول المسكينة روبي يا صغيري فان، حين كانت تتحدث عن ثديها الأيمن المصاب بالسرطان. أنا الأميرة المسكينة، البعيدة، البعيدة جداً الآن، لا أعرف أين أقف، وعليه، عليّ أن أسقط. لذا، الوداع! الوداع يا عزيزي، يا ابني الحبيب! والوداع يا ديمون المسكين، لا أعرف التاريخ، أو حتى الفصل الحالي، ولكن مما لا شك فيه أنه يوم جميل، مع كثير من النمل اللطيف الذي يدبّ حولي محاولاً الوصول إلى حبوب الدواء بحوزتي ليتذوقها.

[التوقيع]		أخت أختي التي هي الآن "teper' iz ada" (خارج هذا الجحيم).

«إن أردنا للمزولة أن تظهر لنا عقاربها»، علّق فان، مطوّراً تلك الاستعارة في حديقة عزبة آرديس، في نهاية أغسطس عام ١٨٨٤،

«فعلينا دائماً أن نتذكر أن قوة، كرامة، وبهجة الإنسان، تكمن في كرهه واحتقاره للظلال والنجوم التي تخفي أسرارها عنه. وحدها قوةّ الألم السخيفة، جعلتها تستلم. ولطالما اعتقدتُ، أنه لكَم كان مقبولاً من الناحية الجمالية، والعاطفية، لو أنها كانت حقاً أمي.»

٤

عندما، في منتصف القرن الماضي، بدأ فان بإعادة تركيب ماضيه البعيد، سرعان ما اكتشف أن الطريقة الأنسب (لا بل تكاد تكون الوحيدة) لاستعادة تفاصيل طفولته المهمة حقاً (بغرض هدف خاص ومهم أيضاً)، هي كما الطريقة التي عادت من خلالها للظهور في مراحل لاحقة مختلفة من طفولته وصباه، أي من خلال اصطفافها المفاجئ، مجاورة بعضها البعض، بحيث كلما بُعثت صورة، أنعشَت الأخريات. ولذا، كان لحبه الأوّل المدون فوق هذه الصفحات، الأسبقية على جرحه الأول وكابوسه الأول.

كان قد بدأ لتوه عامه الثالث عشر. لم يسبق له حتى ذلك الحين أن فارق الرفاهية الي تنعّم بها تحت سقف الحماية الأبوية. لم يسبق له أن أدرك أن «وسائل الراحة» تلك، لا ضمان لاستمرارها، ولا يمكن لها أن تحدث في مجاز مسبق الصنع، ضمن الفقرة التمهيدية لكتاب يحكي قصة صبي وقصة مدرسة.

على بعد بضعة مبان من المدرسة، كانت هنالك أرملة، السيدة تابيروف، فرنسية ولكن تتحدث الإنكليزية بلكنة روسية، وكان لديها متجر لبيع القطع الفنية، ومفروشات عتيقة الطراز (Antique)، أو هكذا كانت تبدو على الأقل. زاره فان في يوم شتوي مشرق.

مزهريات كريستالية تملأها ورود قرمزية وزهور أقحوان برية ذات صفرة مائلة للسمرة، كانت منتشرة في كل مكان من القسم الأمامي للمتجر - فوق كونصول خشبي ذهبي، فوق صندوق مطلي، فوق سطح منضدة عالية، وبكل بساطة، على امتداد سجاد الدرجات المفضية إلى الطابق الثاني حيث توجد خزانات كبيرة جداً، تحوي أطباقاً مبهرجة ومصفوفة بشكل نصف دائري حول مجموعة غريبة من القيثارات. تحقق فان ما إذا كانت الورود طبيعية، وحين اكتشف عكس ذلك، تساءل محتاراً كيف يمكن لذلك التقليد أن يخدع البصر حصراً، ولا يمكن له أن يحاكي الملمس الرطب لورقة خضراء أو بتلة. عندما عاد في اليوم التالي ليسأل عن غرض (قد نسي ماهيته اليوم، بعد ثمانين عاماً) كان قد طلب إصلاحه أو استنساخه، لم تكن طلبيته جاهزة. أثناء مروره، لمس وردة نصف متفتحة، ولم يكن النسيج العقيم المتوقع هو ما فاجأ أصابعه، بل شفاه جميلة ممتلئة بالحياة، قد قبّلت رؤوسها. «إن ابنتي»، قالت السيدة تابيروف التي انتبهت لدهشته، «تضع دائماً مجموعة من الحقيقية ما بين الوهمية لجذب الزبائن. لقد وقعت يدك على الجوكر». ما إن همّ بالخروج، دخلت طالبة مدرسة ترتدي معطفاً رمادياً، لها وجه جميل ولفائف شعر تصل إلى كتفيها. في مناسبة أخرى (بالنسبة لجزء معين من الشيء الذي كان قد أوصى بتصليحه - إطار ربما - فقد تطلب وقتاً طويلاً حتى يلتصق، ثم تبين في النهاية أن رغبته لا يمكن أن تتحقق) رآها جالسة مع كتبها المدرسية فوق أريكة، كانت بين قطع الأثاث المنزلية المعروضة للبيع. لم يكلمها أبداً. أحبها بجنون. ولا بد أن شغفه بها قد استمر لفصل مدرسي كامل على الأقل.

كان ذلك حباً، عادياً وغامضاً. فشلتْ أجيال متعاقبة من

المدرسين في اجتثاث قصص الشغف تلك التي تزيد غرابتها على غموضها، والتي، عام ١٨٨٣، حظيت برواج لا مثيل له في مدرسة ريفرلان. كان لكل مهجع مأبونه[١] الخاص. كان هنالك فتى عصابي من أوبسالا، أحول العينين، مع شفتيْن مرتخيتيْن وأعضاء تكاد تكون غير طبيعية، ولكن مع بشرة فائقة النعومة، ووركيْن فاتنيْن باستدارة ناعمة زلقة، كتلك الخاصة بكيوبيد في لوحة برونزينو[٢] (اللوحة العظيمة[٣]) التي تُظهر ساتير[٤] مبتهجاً باكتشافه لوجود كيوبيد في مخدع سيدة)، وقد كانت مفاتنه مثمنة على قدر ما تعرض للتعذيب من قبل عصابة من الفتيان الأجانب، إنكليزيين ويونانيين بمعظمهم، يترأسهم تشيشاير، لاعب الرغبي المحترف؛ مدفوعاً بشيء من الشجاعة وشيء من الفضول، استطاع فان أن يتجاوز قرفه وقام بمراقبة هياجهم الجنسي الجماعي بكل برود. ومع ذلك، لم يطل به الأمر لاستبدال تلك التسلية الشاذة، بأخرى أكثر طبيعية، ولكنها تحمل من القسوة ما لا يقل عن سابقتها. المرأة المسنة التي كانت تبيع عيدان السكر نبات ومجلات لاكي لاوز في الدكان عند زاوية الشارع، والتي، لم يُمنع طلاب المدرسة الداخلية - حسب التقاليد - من ارتياد دكانها، كانت قد وظفت لديها مساعدة شابة، فما كان من تشيشاير، ابن لورد مقتدر، إلا أن أكد لرفاقه سريعاً أن تلك البغيّ

---

(١) مأبون: الغلام الذي تُفعل به الفاحشة. (مترجم)

(٢) أنجولو برونزينو: رسام إيطالي (١٥٠٢-١٥٧٢). (مترجم)

(٣) اللوحة العظيمة: والمقصود بها لوحة "Venus, Satyr and Cupid" للرسام أنطونيو دي كوريدجيو (١٤٨٩-١٥٣٤) والموجودة حالياً في المتحف الروماني في مدينة كولونيا بألمانيا. (مترجم)

(٤) ساتير: إله النشوة عند الإغريق. (مترجم)

السمينة الفتية، لا يصعب الحصول عليها مقابل دولار روسي أخضر. كان فان أول من تمتع بمنجمها الذي بذل خيراته في الدكان شبه المعتم، بين الصناديق والأكياس، بعد ساعات دوامها. أخبرها أنه في السادسة عشرة من عمره وذو خبرة سابقة، بدل أربعة عشر وبتول، وبذلك أوقع الشقي نفسه في ورطة محرجة عندما حاول تمويه قلة خبرته من خلال حركة سريعة، لم تنجح إلا في جعله يقذف فوق العتبة المرحبة، بينما كانت الفتاة الطيبة تساعده بطيب خاطر لتخطي الباب وولوج ما وراءه. تحسنت الأمور بعد ست دقائق، عندما أنهى تشيشاير وزوغرافوس ما بدآه؛ ولكن فان، عندما خاض حفلتهم الجماعية التالية، عندها فقط، بدأ يستمتع حقاً بنعومتها، إطباقها على ذكره، ورعشتها المدويّة. كان يعرف تماماً أنها مجرد عاهرة سمينة سمجة، صغيرة كخنزيرة وردية، فكان يدفع وجهها بمرفقه ليبعده كلما أرادت أن تقبله بعد انتهائه، وكان يتفقد بضربة يد سريعة، كما رأى «تشيشاير يفعل»، ما إذا كانت محفظة نقوده لا تزال في جيب سرواله الجانبي؛ ولكن بطريقة أو بأخرى، بعد أن مضى الزمن وابتلع ذكرى آخر نشوة لتشنجاته الأربعين التي عاشها معها، وكان القطار يعبر الحقول السوداء والخضراء نحو آرديس، وجد نفسه مأخوذاً بشاعرية غير متوقعة لذكرى صورتها البائسة، رائحة المطبخ العالقة على ذراعيها، رطوبة رموشها التي كانت تلمع تحت نور ولاعة تشيشاير، وحتى صرير الدرجات المُفضية إلى الطابق العلوي، حيث غرفة نوم السيدة غيمبر الصماء.

في مقصورة أنيقة من الدرجة الأولى، تتدلى من جانبيها الأناشيط المخملية، تمسّك بإحداها بيده التي أخفى القفازُ كفَّها، وشعر في لحظة كهذه أنه سيّد هذا العالم، عندما مسح المناظر الطبيعية التي تدفقتْ بسلاسة أمامه؛ وبين الحين والآخر، كان يغمض

عينيه الهائمتين لبرهة استراحة، ليسمع في عقله صوت حكة سفلية، كان قد افترضها للحظة (وكان محقاً، Thank log[1]) مجرد تهيج ظهاري طفيف.

---

(١) Thank log: رديف عبارة thank god فوق كوكب Antiterra. إذ يُظن بالرب هناك على أنه كان يحمل فأساً وقد شقّ كوكباً واحداً ليجعله اثنين، كما قد يُشق الحطب (Log) . (مترجم)

٥

عند أولى ساعات بعد الظهر، نزل يحمل حقيبتيْن فوق رصيف المحطة الريفيّة حيث فرشت الشمس سلامها الدافئ. ومن هناك، سلك طريقاً متعرجاً يوصل إلى عزبة آرديس، التي كان سيزورها لمرّته الأولى. كان قد سبق له أن تصور في مخيلته المنمنمة وجود خيل مسرج ينتظره؛ لم يكن هنالك حتى حنطور. مدير المحطة، وهو رجل بدين أسمر بزيّ عمله البني، قال إنه متأكد من وجود من كان ينتظر قدومه مع قطار المساء الذي وصل متأخراً، ولكن على الأقل، كانت هناك عربة شاي. وقال أيضاً، بينما كان يشير بالاستعداد للانطلاق إلى سائق القطار القلق، إنه سيتصل بالعزبة خلال دقيقة. وفجأة وصلت إلى المحطة عربة أجرة مكشوفة يجرها حصان، نزلت منها سيدة حمراء الشعر، تحمل بيدها قبعة قش، تركض نحو القطار الذي قفزت إلى متنه، لحظات قبل أن ينطلق، بينما كانت تضحك ساخرة من سرعتها. وافق فان على استخدامه لوسيلة النقل التي أتاحتها له فرصةٌ غير متوقعة، غزلتها الصدفة في نسيج الوقت، فما كان منه إلا أن اتخذ له مقعداً في تلك العربة. لم تكن رحلة نصف الساعة مريحة. كان الطريق إلى هناك يمر عبر غابات الصنوبر والوديان الصخرية، وبين العصافير وسائر الحيوانات التي كانت تغني

بين الأشجار الصغيرة في الغابة المزهرة. كانت أشعة الشمس المرقطة والظلال المخرمة تنزلق فوق ساقَي الحوذي وفوق ظهر معطفه، مانحةً وميضاً أخضر للزر النحاسي الخلفي. عبَرا خلال تورفيانكا، قرية حالمة تحوي ثلاثة أو أربعة أكواخ ريفية خشبية، دكاناً لتصليح دلاء الحليب، وآخر للحدادة غارقاً تحت قبة من الياسمين المُزهر والعطر. أومأ السائق لصديقه غير المرئي، فانحرفت العربة الصغيرة الحساسة تناسباً مع إيماءته. كان يطوف في تلك اللحظة حول طريق ترابي يمر بين الحقول، ليعبر تلة وراء تلة، صعوداً وهبوطاً؛ وعند كل مرتفع، كانت سيارة الأجرة الميكانيكية تلك تبطئ وكأنها على وشك أن تغفو، فتحاول بكل ما أوتيت من عزم أن تغلب نعاسها. وثبت العربة فوق الأرصفة الحجرية لغامليت، قرية نصف روسية، ثم عاد السائق للتلويح ثانيةً ولكن هذه المرة لفتى واقف عند شجرة كرز. تفرقت أغصان البتولا التي كانت متعانقة، لتفسح الطريق أمام عبور العربة فوق الجسر القديم، وعندها ظهر لادور، النهر الذي سيعود فان لاحقاً لرؤيته مرات عديدة خلال حياته، مع قلعة سوداء متهدمة فوق الجرف، تومض ألوان أسطحها المبهجة عند المصب.

عندما انحرف الطريق نحو متنزه آرديس، صار منظر النباتات الأخضر يشي أكثر فأكثر بطبيعته الجنوبية. عند المنعطف التالي، بدا القصر الشاعري فوق «ربوة ناعمة» كتلك التي نقرأ عنها في الروايات القديمة. كان منزلاً ريفياً رائعاً بطوابق ثلاثة، مبنية بالآجر المصفرّ والأحجار الأرجوانية، التي بدت تأثيرات خصائصها ودرجة لونها متغيرة تحت إضاءة معينة. وعلى الرغم من تنوع، وفرة، وحيوية الأشجار الطويلة التي حلّت من زمن بعيد محل صفين من الشتلات المنمنمة التي سبق لها أن كانت منسّقة بترتيب عالٍ جداً (بفعل عقل

مهندس وليس عين رسام) تعرّف فان مباشرة على منزل آرديس الريفي الذي كان مفصّلاً في لوحة مائية تعود لمئتيْ عام سابقة، كانت معلّقة في غرفة ملابس والده: رُسم الصرح فوق مرتفع عالٍ يطل على مرج تجريدي يقف وسطه شخصان صغيران جداً يعتمر كل منهما قبعة ذات قرنين، يدور بينهما حديث، ليس بعيداً عن بقرة مبقعة.

لم يكن أحدٌ من أفراد العائلة موجوداً لاستقبال فان. استلم الحصان خادم كان ينتظره عند الباب. اجتاز القنطرة القوطية نحو القاعة حيث استقبله بوجه يشي بالسرور كبيرُ الخدم العجوز والأصلع بوتييان ، الذي أصبح يضع (بشكل غير احترافي) شارباً مستعاراً مصبوغاً بالبني الغامق اللامع. كان بوتييان سابقاً الوصيف الخاص بوالد فان. «أراهن أن السيد لم يتعرف إليّ»، قال، ثم شرع بتذكيره بما كان فان قد بدأ فعلاً بتذكره من دون مساعدته، كالـ«فارمانيكين» الخاصة بطفولته (طائرة ورقية من نوع خاص لا يمكن إيجاد مثيل لها في أيامنا هذه، حتى في أهم المتاحف التي تضم ألعاب الماضي) وكان بوتييان قد أعانه يوماً على تطييرها عالياً في مرج يملأه الحوذان البري. نظر كلاهما نحو سقف القاعة التي كانت مشهورة بأسقفها العالية المطلية بالألوان، ولبرهة، تذكر كل منهما المستطيل الأحمر الصغير الذي كان معلقاً بشكل منحرف في سماء ربيع زرقاء.

كان الوقت مبكراً جداً لتناول الشاي. «هل سيوضب السيد أمتعته بنفسه أم سيترك الأمر لأحد الخدم؟»، «أوه! فليقم أحدهم بذلك!»، قال فان وقد عبر في ذهنه لبرهة تساؤلٌ عما قد تحوي حقيبة طالب مدرسة من أمتعة قد تسببُ صدمة لخادم، أتكون الصورة العارية لإيفوري ريفوري (نموذج عارٍ للرسم)؟ ولكن من سيهتم لذلك بعد أن أصبح فان رجلاً؟

بناءً على اقتراح كبير الخدم، خرج للقيام بنزهة في الحديقة.

سلك درباً متعرجاً، تهادى فوق رملها الوردي، منتعلاً حذاءه الخفيف الذي كان جزءاً من لباسه المدرسي الموحد، والذي سمح له بالتقدم من دون إصدار أي ضجيج. ظهرت فجأة أمامه مدرسة اللغة الفرنسية السابقة التي تعرف عليها فوراً ولكن باشمئزاز (أيعقل أن يكون هذا المكان محتشداً بالأشباح!). كانت تجلس فوق مقعد أخضر أمام أجمة ليلك فارسي، تمسك مظلة شمس في يد، وفي الأخرى كتاباً فرنسياً تقرأ منه بصوت عالٍ، على مسمع فتاة صغيرة كانت تنكت أنفها ثم تتفحص إصبعها بكل رضىً وشاعرية قبل أن تمسحه بحافة المقعد. قرر فان أن لا بد لها أن تكون آرديليا، الأكبر بين بنتَي عمه اللتين كان يُفترض بهما المجيء لاستقباله والتعرف عليه. ولكنها في الواقع كانت لوسيت، الأصغر بينهما، طفلة في الثامنة من عمرها، حيادية الملامح بشعر أشقر ذي لمعة حمراء، وأنف وردي يعلوه النمش: كانت تعاني من التهاب رئوي مع بداية كل ربيع، وكان ذلك الهواء العليل، النائي والغريب، ليحجبها ويخفيها كما فعل في الماضي مع الأطفال الناجين من الموت، وخاصة المؤذين منهم. نظرت السيدة لاريفيير فجأة إلى فان من خلال نظّاراتها الخضراء، وكان عليه عندها أن يبدّل بروده باستقبال حار آخر. على عكس ألبرت العجوز، لم تتغير البتة منذ تلك السنوات التي كانت تأتي خلالها ثلاث مرات أسبوعياً إلى منزل دارك فيين في المدينة، مع حقيبة تمتلئ كتباً، وقد وضعت فيها أيضاً كلبها الكانيش القزم والمرتجف دائماً (الآن هو نافق) لأنه كان يخشى البقاء في المنزل وحيداً في غيابها. كانت له عينان لامعتان كحبتَي زيتون سوداويْن حزينتين.

عادوا جميعاً نحو الداخل، الآنسة، برأس - ذي أنف وذقن كبيريْن- يهتز بفعل الذكريات الحزينة تحت المظلة، لوسيت التي

كانت تجر بصعوبة مجرف الحديقة الذي وجدته لتوّها، الشاب فان ببدلته الرمادية الأنيقة وربطة عنقه الفضفاضة، مع يديه وراء ظهره، وكان ينظر إلى الأسفل نحو خطواته المنتظمة والصامتة، محاولاً إبقاءها ضمن خط واحد، دونما سبب محدد. توقفت عربة عند الشرفة، وخرجت منها سيدة بدت تشبه والدة فان، مع فتاة ذات شعر داكن في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، يسبقهما كلب داشهاند رشيق. حملت آدا بين يديها مجموعة غير منسقة من الأزهار البرية. ارتدت ثوباً أبيض وسترة سوداء، وكان هناك قوس أبيض في شعرها الطويل. لم ير هذا الفستان فيما بعد، وكان كلما أتى على ذكره في محاولة لاسترجاع الذكريات، ردت عليه حاسمة أنه لا بدّ قد رآه في منامه، إذ لم يسبق لها في كل حياتها أن كان لديها فستان مثيل، كما لا يمكن لها أن تكون قد ارتدت سترة سوداء في نهار حار، ولكنه بقي مصراً على الاحتفاظ بصورتها الأولى تلك في ذهنه، لآخر يوم في حياته.

قبل عشر سنوات خلت، وفي فترة قريبة من عيد ميلاده الرابع، ربما قبله أو بعده، وعند اقتراب نهاية فترة إقامة والدته الطويلة في إحدى المصحات، ارتمت فوقه الخالة مارينا لتحضنه، في متنزه عام يوجد فيه قفص كبير لطيور الذيّال. نصحت المربية التي كانت تعتني به أن تغض طرفها وتهتم بشأنها الخاص، ثم أخذته نحو كشك قريب من مسرح الموسيقى، حيث اشترت له عصا حلوى النعنع بلون الزمرد، وأخبرته أنها قد تحل مكان والدته إن رغب والده بذلك، وأنه لا يمكن له أن يطعم العصافير إن لم تأذن له الآنسة أمهيرست، أو شيء من هذا القبيل.

تمّ تقديم الشاي عند الزاوية التي يرتفع منها الدرج الكبير، الزاوية المريحة والمفروشة على نحو جميل، خلافاً لمركز القاعة

المتقشف والبسيط. تحلقوا حول طاولة جميلة فوق كراسيّ منجدة بالحرير. باقة ورد صغيرة وردية زرقاء وصفراء، تجمع بين شقائق النعمان والخطاطيف والأنقوليا، ألقتها آدا مع سترتها السوداء فوق مقعد من خشب السنديان. حصل الكلب على كثير من فتات الكعكة كما لا يفعل عادة. أحضر برايس، الخادم العجوز الكئيب، قشدة الفراولة، وبدا أكثر شبهاً بمعلم فان للتاريخ، جيجي جونز.

«إنه يشبه معلم التاريخ»، قال فان بعد أن انصرف الرجل.

«لطالما أحببت مادة التاريخ»، قالت مارينا. «أحببتها لأنها تمكنني من تمييز مكانتي بالنسبة للنساء الشهيرات، هناك دعسوقة فوق صحنك يا إيفان، وخاصة بالنسبة لشهيرات الجميلات مثل الزوجة الثانية للينكولين أو الملكة جوزفين.»

«أجل، لقد انتبهت للحشرة، إنها مرسومة بشكل جميل. لدينا ذات المجموعة من الأطباق في منزلنا أيضاً.»

«Slivok (بعض القشدة)؟ آمل أنك تتكلم الروسية!» قالت مارينا بينما كانت تصب كوباً من الشاي لفان.

"Neohotno no sovershenno svobodno" (أتحدثها مرغماً ولكن بطلاقة)، أجاب فان، "slegka ulïbnuvshis" مع ابتسامة طفيفة. «أجل، الكثير من القشدة وثلاثة مكعبات من السكر».

«أنا وآدا لدينا الميل ذاته للترف والتبذير المفرط! كان دوستويفسكي يتناولها مع شراب التوت.»

«باه»، زفرت آدا متنهدةً.

اللوحة الزيتية المعلقة فوق الجدار وراء مارينا، والتي رسمها تريشام، تظهر فيها صورة لمارينا تعتمر قبعة ذات حافة كبيرة وورومانسية، مع شريط قوس قزح، تتدلى منها ريشة طويلة سوداء مزينة بالفضي، كانت تستخدمها أثناء بروفات مشهد الصيد، قبل عشر

سنوات؛ أما فان، فإنه حين تذكّر القفص في المتنزه، وأمه التي كانت بطريقة ما في قفصها الخاص، فقد اختبر شعوراً غريباً وغامضاً، كما لو أن المعلّقين على قدره، قد احتشدوا في زاوية وبدأوا بحبك مؤامرة.

في تلك اللحظة، بدا وجه مارينا أكثر تقليداً لمظهرها السابق، ولكن أزياءها هي ما تغير؛ كان لفستانها القطني طابع ريفي، ابيضت خصلات شعرها الكستنائية ولم تعد تتدلى أسفل عنقها، ولا شيء في ردائها أو زينتها يحاكي تلك الأناقة الحيوية في صورتها ممسكة بسوط الخيل، ولا ذلك النمط القرميدي الذي رسم به تريشام ريشتها البراقة بكل مهارة.

لم يكن في جلسة الشاي الأولى كثير من الأحداث ليتذكرها. لاحظ حيلة آدا لإخفاء أظافرها، بإبقاء قبضتها مضمومة، أو بفتحها كلياً عند مد يدها لالتقاط قطعة بسكويت. كانت ضجرة ومحرَجة من كل ما قالته والدتها، وعندما بدأت تلك الأخيرة بالحديث عن بحيرة تارن أو عن خزانات المراحيض الجديدة، لاحظ أن آدا لم تعد جالسة إلى جانبه، بل وقفتْ بعيداً شيئاً ما أمام نافذة الباب وقد أدارت ظهرها لطاولة الشاي، وقد وقف فوق كرسي إلى جانبها كلبها صغير الحجم، محدقاً في الحديقة من خلال قائمتيْه الأماميتيْن المتباعدتيْن والمرفوعتيْن فوق النافذة، وكانت تسأله بهمس خاص عما كان قد تنشقه.

«يمكنك رؤية البحيرة من نافذة غرفة المكتبة» قالت مارينا. «ستأخذك آدا الآن في جولة حول كل غرف البيت، آدا؟» (لفظت اسمها بالروسية مع التشديد على المدّيْن الظاهريْن، وبالتالي جعلته يبدو كلفظ كلمة «آردور Ardor» (الوهج بالإنكليزية).

«يمكنك إلقاء نظرة من هنا أيضاً» قالت آدا، وأشارت

(مستهجنة) إلى الناحية التي أرادت لفان أن ينظر إليها، فما كان منه إلا أن وضع كأس الشاي جانباً، مسح فمه بمنديل صغير مطرز، ثم دسه في جيب سرواله واقترب من الفتاة داكنة الشعر، شاحبة الذراعين. عندما مال صوبها (كان يزيدها ثلاثة إنشات طولاً، وضعفهم يوم زفافها إلى اليوناني الكاثوليكي، حيث كان ظله موجوداً هناك، يقف وراء العروس ويحمل تاجها)، حركت رأسها مشيرة به إلى الزاوية التي أرادته أن ينظر إليها، فلامس شعرها عنقه. في أولى أحلامه عنها، أثبت دائماً تكرار هذا الاحتكاك الخفيف جداً، والوجيز جداً، أنه أقوى من قدرة الحالم على الاحتمال، معطياً، كسيف مسلول، الإشارة لانهيال إطلاق الكثير من النار دفعة واحدة.

«أنهِ الشاي يا عزيزي»، نادت مارينا.

توّاً، وكما وعدتْ مارينا، صعد الطفلان إلى الطابق العلوي.

«لَمَ تُصدر الدرجات كل هذا الصرير المزعج حين يصعد طفلان نحو الأعلى؟» تساءلت بينما كانت تجيل نظرها على امتداد طول الدرابزين، حيث كانت يدان يُسْرَيان تتقدمان سوية، تنزلقان، ترتفعان قليلاً ثم تهبطان، فتتطابقان في كل حركة حتى في صوت نقرهما للدرابزين، كما لو كانتا يدَي شقيقين في أول درس رقص لهما. «في النهاية، لقد كنا أختيْن توأميْن، الكل يعرف تلك الحقيقة». بالجهد البطيء ذاته، هي أمامه وهو وراءها، صعدا آخر درجتيْن، وعاد الدرج لصمته من جديد. «مجرد وساوس قديمة»، قالت مارينا.

٦

قادتْ آدا ضيفها الخجول نحو المكتبة في الطابق الثاني، فخر آرديس ومرعاها الخصب الذي لم يسبق لوالدتها أن دخلته (كانت لها مجموعتها الخاصة المؤلفة من ألف مسرحية ومسرحية، من أفضل الأعمال، موجودة في مخدعها). أما ريد فيين (دانيال)، العاطفي والجبان، فقد تجنب دخولها بدوره، هرباً من مواجهة شبح أبيه الذي توفي بين كتبه بسبب سكتة دماغية، وكذلك لأنه كان يجد في الأعمال الكاملة والمجموعة لكتاب منسيين، إحباطاً ليس إلا. ولكنه لم يبدِ انزعاجاً إن قام أحد الزائرين بإبداء إعجابه برفوف الكتب الطويلة والخزانات القصيرة، اللوحات القاتمة والتماثيل الشاحبة، الكراسي العشرة المنحوتة من خشب الجوز، وطاولتيْن فخمتيْن جداً، مطعّمتيْن بخشب الأبنوس. سقط شعاع شمس مائل على أطلس نباتي مفتوح فوق حاملة كتب عند صفحة ملونة من أزهار الأوركيد. ربما ديوان أو مقعد نهاري مغطى بالمخمل الأسود، مع وسادتيْن صفراويْن، كان موضوعاً في تجويف جداري، تحت نافذة ذات درفة زجاجية واحدة، تمنح إطلالة سخية على متنزه عادي جداً، وبحيرة من صنع الإنسان. زوج من الشمعدانات، مجرد أشباح من الخشب والمعدن، انتصب، أو ربما بدا منتصباً، فوق حافة النافذة الواسعة.

كان مخرج المكتبة ليوصل المكتشفيْن الصامتيْن إلى شقق السيد والسيدة فيين في الجناح الغربي، لو أنهما تابعا تحقيقاتهما في الاتجاه ذاته. ولكن بدلاً من ذلك، عرج بهما درج صغير شبه سري موجود خلف خزانة دوارة نحو الطابق العلوي، وكانت هي، بفخذيها الأبيضيْن، تتقدمه بقفزات طويلة، وكان هو، وراءها، متأخراً عنها بثلاث درجات.

كانت غرف النوم والمَرافق المجاورة لها أقل من متواضعة، ولم يتمكن فان من منع شعوره بالأسف لكونه لا يزال أصغر - على ما كان يبدو - من أن تخصص له إحدى غرفتَي الضيوف المجاورتيْن للمكتبة. عندما رأى الأثاث المقزز الذي سيُسجن معه في عزلة ليالي الصيف، هاج حنينه لكل وسائل الراحة والترف التي أحاطته في منزل والده. كل ما رآه في الغرفة كان صادماً وكأنه قد وُضع لشخص مخبول ذليل؛ سرير فقير موحش مع حافة عليا بخشب داكن وطراز يعود للقرون الوسطى، خزانة تصدر صريراً حتى لو لم يمسسها أحد، منضدة سرير ضخمة بخشب يحاكي الماهوغني، وبمقابض جوارير تشبه الأزرار (أحدها مفقود)، صندوق للبطانيات (بطانيات رخيصة هاربة من غرفة كتان)، ومكتب ذو درْج أمامي بمصراع مقبب، كان مقفلاً أو ربما عالقاً: وجد المقبض في واحدة من حجرات المكتب الصغيرة وعديمة الفائدة، وسلمه لآدا التي رمته من النافذة. لم يكن فان حتى ذلك الوقت قد صدف له أن رأى حاملة مناشف، أو حتى منضدة تحمل حوضاً للاغتسال قد صنعت خصيصاً للحمامات التي تفتقر إلى وجود أحواض فيها. تعلو الحوض مرآة دائرية مزينة بعناقيد عنب جصية ذهبية، وتحيط بخزفه أفعى شيطانية (ولهذه الأفعى توأم مشابه في حمام البنات، في الجهة المقابلة من الممر). كرسي بمرفقين عاليين ومنضدة سرير تحمل شمعداناً نحاسياً له مقبض

جانبي، ويلتصق بأسفله الطبق الخاص بالشمع الذائب (وقد تهيأ له أنه رأى مثيله منذ دقيقة منعكساً في إحدى المرايا، ولكن أين؟) كان مكملاً للجزء الرئيسي والأسوأ لكل تلك التجهيزات البائسة.

عادا إلى الممر، هي تنفض شعرها، وهو يتنحنح. على مسافة قريبة منهما، كان هنالك باب مفتوح جزئياً، ربما باب الحضانة أو غرفة اللعب، وكان يصدر صريراً ذهاباً وإياباً، مظهراً الركبة الخمرية للوسيت التي كانت تسترق النظر. ثم فُتح الباب على مصراعيه، فركضت نحو الداخل هاربة. كانت هنالك قوارب زينة شراعية فضية فوق الرخام الأبيض للموقد القرميدي، وما إن عبر فان ومعه آدا أمام الباب المفتوح، بدأت الأنغام النشاز تصدر من الأرغن اللعبة، خاصة لوسيت.

عاد الطفلان إلى الطابق الأرضي، وعادا للنزول فوق الدرج الفخم. من بين كل صور الأجداد المعلّقة على امتداد الدرج، أشارت إلى أحبهم إلى قلبها، الأمير العجوز فيزسلاف زيمسكي (١٦٩٩-١٧٩٧)، صديق لينيوس[١] كاتب فلورا لادوريكا، وكانت اللوحة الزيتية بألوانها الصارخة تظهره حاملاً عروسه اليافعة جداً، ودميتها الشقراء في حضنه، مرتدياً بزّته الساتان. صورة مكبرة، مؤطرة ببراعة، معلقة («ليست مستوية»، فكر فان) إلى جانب صورة «محب أزرار الورود» بمعطفه المطرز. الراحل سوميرتشنيكوف، السلف الأمريكي للأخوين لوميير، قد التقط صورة لخال آدا، ممسكاً بالكمان تحت ذقنه، خلال آخر حفلة موسيقيّة له في حياته القصيرة.

في الطابق الأرضي، غرفة رسم صفراء، ممدودة بالكامل بالسجاد الدمشقي، ومفروشة بما عُرف آنذاك بالطراز الإمبراطوري،

---

(١) كارولوس لينيوس: عالم نبات سويدي (١٧٠٧-١٧٧٨). (مترجم)

كانت مفتوحة على الحديقة. وفي ذلك الوقت المتأخر من فترة بعد الظهر، غزتْ عتبتها ظلال وارفة، ألقتها الأوراق الكبيرة الخاصة بشجرة باولونيا (شرحت له آدا أن عالِم لغة مستهتر هو من أعطى تلك الشجرة اسمها، نسبةً للقب عائلة سيدة طيبة، آنا بافلوفنا رامونوف، ابنة بافل، الملقب بـ«بول ناقص بيتر»، ولكنه اختار مخطئاً الاسم الثاني بدل الكنية، ولكن آدا لا تعرف سبب ذلك اللقب، وهو في الوقت ذاته ابن عم عالم النبات زيمسكي، الذي هو بدوره معلّم عالم اللغة الفاشل، «أريد أن أصرخ»، فكر فان). خزانة صينية ذات واجهة زجاجية، تخفي وراءها مجموعة خزفية كاملة من الحيوانات الصغيرة، من بينها بقرة وحشية وحيوان الآكاب، مرفقة جميعها بأسمائها العلمية، كانت المحطة التالية التي أوصت مرافقته الساحرة ولكن المملة، بالوقوف عندها. وفي الروعة ذاتها، كان هنالك بارافان بخمس طيات تحمل كل منها لوحة براقة بإطار أسود، وتقدم مجتمعة خريطة القارات الأربع ونصف القارة. وها نحن الآن ندخل قاعة الموسيقى، حيث البيانو قليل الاستخدام، ومن ثم غرفة زاوية صغيرة تدعى غرفة السلاح، تحوي مهراً محشواً بالقش (من شاتلاند[1])، رمزاً للمهر الذي ركبته مرة عمة دان فيين، والتي لم يعد أحد يتذكر اسمها، "Thank Log". وفي ناحية أخرى من المنزل كانت هناك قاعة الرقص، مساحة كبيرة خالية ذات أرضية براقة، تحدها كراسيٌّ لصيقة بالجدران. «اعبر أيها القارئ» (mimo, chitatel، كما كتب «تورغينيف»). كانت الهندسة المعمارية لـ«حظائر» (تسمية الإسطبلات غير اللائقة في لادور) لا تقل إرباكاً

(١) شاتلاند: جزر شاتلاند في اسكتلندا وتشتهر بمهورها الصغيرة وبسباق المهور هناك الذي يعرف بسباق شاتلاند. (مترجم)

عن تلك الخاصة بعزبة آرديس. شرفة خارجية مزودة بشعرية، تطل بحوافها المزينة على الحديقة، وتؤدي من زاوية أخرى نحو ممر العربات. ثم، وفي ناحية أخرى، قاد رواق مفتوح أنيق يضيئه النور الداخل عبر نوافذ كبيرة، آدا معقودة اللسان، وفان الضجِر إلى حدّ يطاق، نحو كوخ مبني من الصخور: مغارة زائفة، يعرّش فوقها السرخس بلا خجل، وشلال صغير اصطناعي، مصدر مائه «جدول أو كتاب»[1]، أو ربما مثانة فان التي أوشكت على الانفجار، ب(عد كل الشاي الذي أُرغم على شربه).

مساكن الخدم (ما عدا خادمتيْن دائمتيْ الزينة والتبرج، كانت غرفتاهما في الأعلى) كانت على جانب الفناء الخارجي للطابق الأرضي، وقالت آدا إنها قد زارتها مرة عند مرحلة معينة من مغامرات استكشافاتها الطفولية، وكل ما تذكره هو وجود كناري، وآلة قديمة لطحن البن، واختصرت بذلك الكثير من الوصف.

عادا مرة ثانية لصعود الدرج. دخل فان إلى المرحاض محرجاً وخرج منفرجاً، تعلو محيّاه روح الدعابة. وعند مرورهما، عاد هايدن[2] قزم ليعزف من جديد بعض فواصل موسيقيّة.

العلية! هذه هي العلية! أهلاً بكم في العلية! حوتْ عدداً هائلاً من الصناديق المعدنية والكرتونية، وأريكتين بنيتيْن تعلو إحداهما الأخرى، كخنفسيْن في موسم التزاوج، كما كان هناك الكثير من الصور في الزوايا وفوق الرفوف، وجهها إلى الحائط، كأطفال معاقبين. وأيضاً، كانت هناك طائرة تدعى «بساط سحري» (jikker) لا تزال محفوظة ضمن صندوق خاص، سجادة زرقاء بزخارف

---

(١) جداول أو كتب: اقتباس من مسرحية «كما تشاء» لـ شكسبير (books in the running brooks). (مترجم)

(٢) جوزيف هايدن: موسيقي نمساوي (١٧٣٢-١٨٠٩). (مترجم)

عربية، ما زالت مدهشة رغم بهتانها، قد استخدمها والد العم دانيال أثناء طفولته ولاحقاً في ليالي ثمالته. منع الخفر الجوي استخدام البسط السحرية بسبب الكثير من الاصطدامات والسقوط وحوادث أخرى، التي جرت فوق تلك الحقول الرائعة، وخاصة تحت سماء الغروب؛ ولكن بعد أربع سنوات، قام فان الذي أحب تلك الرياضة، برشوة ميكانيكي محلي لينظف ذلك الشيء، يعيد تأهيل أنابيبه المسخّمة، ويعيده بشكل عام إلى وضعه السحري، ليقضي فيما بعد الكثير من أيام الصيف، وآدا خاصته، معلقيْن فوق نهر أو بستان، يركبان الهواء على ارتفاع آمن من عشر أقدام، فوق الطرقات وأسطح البيوت. كم كان مضحكاً ذاك الانزلاق المتعرج وكأنه غوص في خندق هوائي، كم كان غريباً اندفاع تلك المدخنة الكاسحة للهواء!

أحستْ آدا أنهما طالما كانا يقومان بجولة استكشافية في المنزل، فإنهما، على الأقل، يقومان بأمر ما، متابعان ما يشبه الخطوات المتتالية، وأنهما، بغض النظر عن الموهبة الذكية التي ظهرت لدى كل منهما خلال أحاديثهما، قد أوشكا في لحظات معينة على دخول فراغ يائس من الصمت لم تسعفه روح الفكاهة لديهما، وهذا الإحساس قد دفعها على نحو مبهم لمرافقته إلى القبو، حيث لم ترد له أن تفوته هناك رؤية الآلة الضخمة الهادرة، التي كانت تسخّن، حتى حرارة شديدة، الأنابيبَ الممتدة نحو المطبخ الواسع، والحماميْن الموحشيْن، والتي كانت تقوم بأفضل ما يمكنها لإبقاء المنزل قابلاً للسكن خلال الزيارات الاحتفالية الشتوية.

«أنت لم ترَ شيئاً حتى الآن»، صرخت آدا، «ما زال هناك الطابق الأخير».

«ولكنه سيكون آخر ما نزوره اليوم»، قال فان لنفسه حازماً.

بسبب مزيج من التداخلات ما بين الأساليب المعمارية للبيوت

وبين قراميدها (من الصعب شرحها بمصطلحات غير تقنية لمن لم يعرف الحب يوماً في الطوابق الأخيرة) وسلسلة عشوائية، إن صحّ التعبير، من التجديدات، كان الطابق الأخير في آرديس يطل على ارتباك لا يوصف بين الزوايا والمستويات، لأسطح باللون الرمادي الحديدي والأخضر الضارب إلى الرمادي، لقمم جبال رائعة، ودروب معزولة، لا شيء يدخلها حتى الريح.

يمكنك أن تعانق، تقبّل، وتتأمل - ما بين الفعليْن - الخزان، البساتين، المروج، خط الحبر الذي ترسمه شجرات الآركس، التي ترسم الحدود بين آرديس وأقرب عزبة مجاورة تبعد عنها عدة أميال، وأشكالاً صغيرة قبيحة لأبقار مرقطة وغير مرقطة، ترعى فوق التلال البعيدة. كما يمكنك الاختباء بسهولة من ضوء الكشافات الفضولية، أو رجل في منطاد يلتقط الصور الفوتوغرافيّة.

سُمع قرع الجرس البرونزي في الشرفة.

لسبب غريب، خلص الطفلان لتوقع وصول زائر إلى العشاء. لقد كان المعماري الأندلسي، الذي طلب منه العم دان أن يصمم حوض سباحة فنياً لعزبة آرديس. كان العم دان ينوي الحضور أيضاً مع مترجم، ولكنه بدل ذلك أصيب بـ hrip روسي (انفلونزا إسبانيّة)، وقد هاتف مارينا طالباً منها أن تحْسن ضيافة العجوز ألونسو الطيب.

«عليكما أن تساعداني»، قالت مارينا قلقة عابسة.

التفتت آدا نحو ابن عمها وقالت: «كان بإمكاني أيضاً أن أريه نسخة متقنة للوحة طبيعة صامتة رسمها خوان دي لابرادور من إكسترامادورا[١] - عناقيد ذهبية ووردة غريبة فوق خلفية سوداء. باعها دان لديمون الذي وعد بإهدائها إليّ في عيد ميلادي الخامس عشر».

---

(١) إكسترامادورا: منطقة في غرب إسبانيا. (مترجم)

«نحن أيضاً لدينا فاكهة زورباران[1]»، رد فان معتداً بنفسه. «حبات مندرين، على ما أعتقد، إلى جانب نوع من حبات التين، مع دبور فوقها. أوه! سنبهر العجوز بحديثنا المتخصص!»

لكنهما لم يفعلا، فألونسو، ذلك المجنون القزم ببزّة التوكسيدو ذات الصدرية المزدوجة، لم يكن يتحدث إلا الإسبانية، بينما كان مجموع الكلمات الإسبانية التي يعرفها مضيفوه، بالكاد يتجاوز نصف الدزينة. كان فان يعرف كلمة canastilla (سلة صغيرة)، وnubarrones (رعد)، الكلمتين اللتين وصلتاه من ترجمة قصيدة إسبانية جميلة جداً، كان قد قرأها في أحد كتبه المدرسية. وتذكرت آدا، بالطبع، mariposa (فراشة)، وأسماء عصفورين أو ثلاثة (كانت مدرجة في دليل الطيور) مثل Paloma (حمامة)، أو grivol (طيهوج البندق). أما مارينا فكانت تعرف aroma (عبير) وhombre (رجل)، ومصطلحاً تشريحياً مع حرف "J" في وسطه. ونتيجة لذلك، كانت الأحاديث التي دارت حول الطاولة في ذلك المساء متضمنة لجمل إسبانية طويلة وغير مفهومة، نطق بها المعماري الفصيح بصوت عالٍ إذ ظن أنه يتعامل مع أشخاص صُم، أما ضحاياه فقد استعانوا، بقليل من المفردات الفرنسية، التي، وبسبب أنهم لا يتقنونها جيداً، قد صاغوها متعمدين، بطريقة إيطالية لا تخلو من الخيلاء. بمجرد انتهاء العشاء المتعثر، تحقق ألونسو تحت ضوء مشاعل ثلاثة يحملها خادمان، من الموقع الممكن لإنشاء حوض سباحة عالي التكلفة، وضع مخططاً للأفنية الخارجية في حافظة أوراق، وبعد أن قبّل يد آدا - عن طريق الخطأ - في الظلام، مضى مسرعاً ليلتحق بآخر قطار متجهٍ نحو الجنوب.

---

(١) فرانسيسكو دي زورباران (١٥٩٨-١٦٦٤): رسام إسباني.

٧

ذهب فان للنوم بجفنيْن أتلفهما النعاس، بعد «شاي المساء»، وهي عادة خاصة بسهرات الصيف، تبدأ بعد ساعتيْن من تناول العشاء، وكانت بالنسبة لمارينا جلسة حتمية وطبيعية، كالأخرى الخاصة بفترات الغروب قبل هبوط الظلام. كان ذلك الاحتفال الروسي الروتيني قائم على تقديم prostokvasha (ترجمته المربية الإنكليزية بـ«خثارة ومصل»، أما الآنسة لاريفيير فقد ترجمته بـ lait caillé أي الحليب الرائب) وكان ذا طبقة ناعمة، قشدية، ورقيقة، اعتادت الآنسة آدا أن تزيلها بكياسة تخفي وراءها شراهة (آدا! إن تلك الاستخدامات اللغوية تناسب كل أفعالك!) بواسطة ملعقتها الفضية التي تحمل نقش مونوغرام، ثم تلعقها، قبل الغوص في أعماق ما تبقى من كوبها؛ كان يُرفق مع خبز ريفي خشن وأسود؛ "dusky klubnika" (توت الأرض المسكي) وحبات فراولة ضخمة وبراقة مقطوفة من الحديقة (وهي نوع مهجن من نوعين آخرين من التوت المسكي).

كانت وجنتا فان بالكاد قد لامستا وسادته المسطحة والناعمة، حين هزّت غفوتَه بعنف أصواتُ أجراس صاخبة، تغريدات شجية، زقزقات، زغاريد، نعيق، صرير، وأصوات اجترار خفيفة، الأصوات

التي افترض أن آدا، حتى لو لم تكن تملك معرفة آدوبون[1]، فإنها قادرة على الفصل ما بين تلك الأصوات وتسمية مصدر كل منها. انتعل خفه الخفيف، حمل منشفة قد جمع فيها صابونة ومشطاً، أخفى عريه داخل رداء حمام قطني، وغادر سريره ناوياً الذهاب للغطس في جدول صغير كان قد رآه في أمسه. لم تكن تكّات ساعة الحائط المعلّقة في الممر بين الغرف هي وحدها ما يكسر صمت ساعة الشفق، بل الشخير الصادر من غرفة المربية أيضاً. بعد لحظة من التردد، ذهب إلى مرحاض الحضانة، ومن خلال كوة مفتوحة هناك، رأى انبثاق ضجيج الطيور وأول شعاع شمس. أحس أنه في حالة جيدة جداً، جيدة جداً. عندما نزل الدرج، ألقى عليه التحية والد الجنرال دورمانوف بعينيْن عابستيْن، ثم سلمه للأمير زيمسكي وباقي الأجداد، الذين كانوا جميعاً يحملون تلك النظرة المجامِلة المتحفظة، كما لو كانوا حراس متحف ينظرون إلى السائح الوحيد المتجول في قصر كئيب قديم. تبين أن الباب الرئيسي مغلق ومقفل بالسلاسل. جرب فان الباب الزجاجي الجانبي الصغير، الذي يفضي إلى شرفة مطلة على الأكاليل الزرقاء؛ لكنه لم يفلح أيضاً في فتحه. وبما أنه كان جاهلاً بأمر الفتحة المخفية تحت الدرج، التي توضع فيها نسخة احتياطية من المفاتيح (قديمة ومجهولة، معلقة بخطاف نحاسي) توصِلُ عبر مستودع العتاد إلى جزء معزول من الحديقة، فقد جال في كل غرف الاستقبال بحثاً عن نافذة تفي بالغرض. في غرفة الزاوية، وجد خادمة واقفة أمام نافذة طويلة، كان قد لمحها (ووعد نفسه بالتحقيق معها) في أمسيته الفائتة. كانت ترتدي ما وصفه ديمون ذات مرة ساخراً: «ثياب الخدم السوداء بكشاكش بيضاء»؛ كان ضوء

(١) جايمس آدوبون (١٧٨٥-١٨٥١): عالم طبيعة أمريكي. (مترجم)

الكهرمان منعكساً فوق المشط «درع السلحفاة» في شعرها الكستنائي؛ كانت الشرفة الفرنسية[١] مفتوحة، وكانت قد أمسكت بكفها (يزيّنه اخاتم بحبة زبرجد صغيرة جداً) عضادة النافذة العالية، ومالت لتنظر إلى الدُّوري الذي كان يثب فوق الدرب المرصوف، حيث رمتْ له قطعة بسكويت بالزبدة. وجهها المنحوت كحجر كريم، فتحات أنفها الوردية الناعمة، عنقها الطويل، الفرنسي، الأبيض كزنبقة، معالم جسدها، البارزة واللينة في الوقت ذاته (في حالة الاشتهاء يفقد الرجل لباقته عند الوصف) وعلى وجه الخصوص تلك الغريزة المتوحشة لاقتناص الأوقات المناسبة، كل ذلك قد دفع فان بقوة للاستسلام لرغبته بإمساك معصم يدها المرفوعة، التي يلتصق بها الكم الضيق بإحكام. حررت يدها بهدوء، وابتعدت عنه ببرود يؤكد إحساسها المسبق بقربه، ثم أدارت نحوه وجهها الجذاب، رغم خلوّه تقريباً من الحواجب، وسألته إن كان يرغب في كوب من الشاي قبل الفطور. لا. ما كان اسمها؟ بلانش يا سيدي - ولكن الآنسة لاريفيير كانت تدعوها بسندريلا لأن جواربها كانت سريعاً ما تنسل، أفَهِمتني يا سيدي! ولأنها كانت تضيع أشياء وتكسر أخرى، ولا تحسن تنميق الزهور حسب ألوانها. فضحت ملابسه الفضفاضة رغبته؛ لا يمكن لفتاة أن لا تلحظ شهوة ذكر، حتى لو كانت مصابة بعمى ألوان؛ وبينما كان يقترب منها أكثر فأكثر، مجيلاً بنظره من فوق رأسها في ذلك القصر المسحور (حيث يمكن لأي زاوية أن تتحول إلى ركن «حريم»، كما في قصص كازانوفا) متمنياً ظهور أريكة مناسبة لتلبية رغبته، تمكّنت من الإفلات من قبضة يده، وبدأت مونولوجاً بلهجة لادور الفرنسية الرقيقة:

---

(١) نافذة فرنسية: نافذة طويلة وكبيرة تشبه الباب، بدرفة واحدة. (مترجم)

«عمر السيد خمسة عشر عاماً، على ما أعتقد، أما أنا، حسب ما أعرف، فإنني في التاسعة عشرة. سيدي رجل نبيل أما أنا فابنة حفار فقير بائس. لا بد أن لسيدي سابق تجربة مع فتيات من المدينة. أما أنا فما زلت عذراء، تقريباً عذراء. قد أقع في حبك، أقصد حباً حقيقياً، وإن، واحسرتاه، امتلكتَني لمرة واحدة فقط، فإنك لن تورّثني إلا المرارة وعذاب الجحيم واليأس حتى الموت يا سيدي. كما أني مصابة بـ"الأبيض"[1] وعليّ رؤية طبيب أمراض مزمنة في يوم عطلتي القادم. الآن علينا أن نفترق، لقد اختفى الدُّوري، كما أرى أن السيد بوتييان قد دخل الغرفة المجاورة، ويمكنه رؤيتنا بوضوح من خلال مرآة فوق الأريكة، وراء ذلك الستار الأخضر.»

«سامحيني يا فتاة» همس فان مضطرباً، بعد أن أربكته طبقة صوتها الغريبة والمأساوية، كما لو كان قد أُسند إليها دور بطولة في مسرحية، لم يعد يذكر منها إلا ذلك المشهد فقط.

ظهرتْ في المرآة يد كبير الخدم وقد أمسكت بإناء خمر ظهر من العدم، ورمته خارج المشهد. أما فان، الذي أعاد ربط حزام ردائه، فقد اجتاز النافذة الفرنسية، نحو الحديقة بلونها الأخضر الواقعي.

---

(١) الأبيض: الثر الأبيض: (Leukorrhea) عبارة عن إفراز مهبلي سميك أبيض أو أصفر اللون، قد تزداد كميته نتيجة للإصابة بعدوى في المهبل أو مرض منقول جنسيّاً. (مترجم)

٨

في الصباح ذاته، أو ربما بعد عدة أيام، وفوق الشرفة ذاتها:

«اذهبي والعبي معه!» قالت الآنسة لاريفيير لآدا، وقد دفعتها من وركها الفتي الذي اهتز لقوة الصدمة. «لا تدعي ابن عمك للملل في صبيحة مشرقة كهذه. امسكي بيده وخذيه إلى السيدة البيضاء في حارتك المفضلة. أريه الجبل والسنديانة الضخمة.»

رفعت آدا كتفيْها مستهجنة ثم اقتربتْ من فان. ملمس كفّها الباردة وقبضتها الرطبة، طريقتها - الواعية - لتسريح شعرها بأصابعها عندما اجتازا الطريق المشجّر الرئيسي للحديقة، قد ولّدت جميعاً وعيه أيضاً، فحرّر يده بحجة قطف كوز تنوب. أراد رمي الكوز في جرة ستامنوس ينحني فوقها تمثال امرأة رخامي، لكنه لم ينجح إلا في إخافة عصفور كان قد حطّ فوق الفخار المكسور.

«لا يوجد في العالم ما هو أكثر ابتذالاً من رمي 'بلبل زيتوني' بحجر»، قالت آدا.

«آسف»، قال فان، «لم أقصد ترويعه. ولكن اسمعي! أنا لست فتى قروياً لأميّز الفرق بين الكوز والحجر. أخبريني! ما هي الألعاب التي تريدنا أن نلعبها؟»

«لست أدري»، ردّت آدا، «أنا لا أهتم أبداً لسخافة عقلها

المسكين. ربما افترضت أننا سنلعب الغميضة، أو نتسلق الأشجار.»

«رائع! هذا يناسبني! فأنا ممتاز في الوثب بين شجرة وأخرى بواسطة ذراعي. أتريدين رؤيتي أقوم بذلك؟»

«لا»، قالت، «سنلعب على طريقتي، ألعاباً قد اخترعتها بنفسي. إنها ألعاب ستتمكن لوسيت، كما آمل، من مشاركتي بها العام القادم، حبيبتي المسكينة! تعال سأريك! اللعب الحالية تنتمي لفئة «ظلال وضياء»، واليوم سأجعلك تتعرف على اثنتيْن منها.»

«فهمت»، قال فان.

«ستعرف كل شيء خلال دقيقة»، قالت المنافقة الجميلة، «والآن، كل ما علينا إيجاده هو عصا.»

«انظري»، قال فان الذي لا يزال يفوقها ذكاءً بقدر قليل، «هنالك بلبل آخر.»

في تلك اللحظة كانا قد وصلا إلى دوّار - ميدان صغير مسيّج بمشاتل زهور وشجيرات ياسمين مزهرة. في الأعلى، كانت أيدي شجرة زيزفون متشابكة مع أيدي سنديانة، كما لو كانت فتاة جميلة، بلون أخضر برّاق، معلّقة من قدميها بأرجوحة، تحلّق بذراعيْن ممدودتيْن نحو والدها القوي ليحضنها. حتى في عمرنا الغضّ ذاك، كان كلانا يفهم تلك اللوحات السماوية، حتى في ذلك العمر.

«كأن تلك الأغصان تقوم بحركات بهلوانية، أليس كذلك؟»، سأل مشيراً إلى الأعلى.

«أجل»، أجابت، «لقد اكتشفتُ ذلك منذ فترة طويلة. الزيزفونة هي شابة إيطالية محلّقة، أما السنديان العجوز فهو العاشق الغيور المتألم، ولكنه يستمر في احتضانها كلما وصلت عنده» (تستحيل استعادة المعنى الكامل والترنيم الحقيقي لصوتها عند تذكر كلماتها تلك - بعد ثمانية عقود! - لكنها، في الحقيقة، كلما رفعنا بصرينا

عالياً ثم خفضناهما، كانت تنطق بما هو نابض بالحياة، ولا يخطر ببال فتاة يانعة بطراوة عمرها).

نظرت آدا نحو الأسفل، وأومأت بوتد أخضر كانت قد اقتلعته من أجمة فاوانيا، لتشرح لعبتها الأولى. بقع ضوء شمس مباشر، كانت مبعثرة هنا وهناك فوق ظل أوراق الأشجار الواقع فوق الأرض. على اللاعب أن يختار بقعته - الأفضل - ويحددها برأس العود الذي يحمله؛ وهكذا كانت كل بقعة صفراء تصير أكثر بروزاً فتبدو محدّبة كسطح كأس مترعة بالذهب السائل. ثم ينتقل اللاعب إلى حفر البقعة المحددة بعصاه أو بأصابعه، وعليه، فإن مستوى ذلك التسريب اللامع لظلال الزيزفون ينخفض في تلك الكأس الأرضية، فيتضاءل ويتضاءل إلى أن يصبح قطرة رائعة. والرابح هو صاحب أكبر عدد حفر، لنقل، خلال عشرين ثانية.

سأل فان مرتاباً إن كان هذا كل ما في الأمر. «لا، هنالك مزيد». جلست آدا القرفصاء وبدأت بحفر واحدة من البقع المضيئة، فوقع شلال شعرها الأسود فوق ركبتيْها الحليبيتيْن الناعمتيْن، واستمرت في عملها، محركة وركيْها ويديها الاثنتين، تمسك العصا بواحدة، وبالأخرى ترفع بعض خصلات شعرها التي كانت تعيقها. حجب نسيم لطيف النور فجأة عن حفرتها. حادثة كتلك تجعل اللاعب يخسر نقطة، حتى لو انسحبت سريعاً ورقة الشجر الحاجبة أو الغيمة العابرة.

حسناً. ما كانت اللعبة الأخرى؟

اللعبة الأخرى (قالت بصوت رخيم) قد تبدو أكثر تعقيداً. على اللاعب أن ينتظر فترة بعد الظهر حين تكون الظلال أطول بقاء ـــ

«كفاك قولاً «اللاعب»! لا يوجد «لاعب»، إنه أنت أو أنا!»

«لنقل إنه أنت! عليك أن تؤطر ظلي بينما تمشي ورائي. ثم

أمشي. فتؤطره مجدداً، وهكذا (أعطته عوداً). وإذا رجعتُ الآن نحو الخلف ـــ»

«أتعرفين؟»، قال فان بينما رمى بالعصا بعيداً، «شخصياً، أعتقد أنها أغبى وأتفه الألعاب التي يمكن لشخص أن يخترعها، في أي مكان، في أي وقت كان، قبل الظهر أو بعده!» لم تنبس ببنت شفة لكن فتحتيْ أنفها قد ضاقتا. التقطت العود، بشراسة، أعادته إلى حيث ينتمي، عند التربة الطينية، غرزته في الأرض، وربطته - منكّسة رأسها وصامتة - بساق زهرة كانت ممتنة لذلك.

سلكت طريق العودة نحو المنزل، وتساءل فان الذي كان يراقبها، ما إذا كانت مشيتها ستكون أكثر رشاقة حين تكبر.

«أنا صبي وقح وقاسٍ، أرجو أن تسامحيني!»، قال.

هزّت رأسها دون أن تلتفت إلى الوراء، وكدليل موافقة على مصالحة جزئية، أرته حلقتيْن حديديتين متينتين، مثبتتين إلى جذعيْن متقابليْن من شجر القيثاريّ، كان، وقبل أن تولد هي، ولد واسمه فان أيضاً، شقيق والدتها، يقوم بنصب أرجوحة شبكية بينهما، ثم ينام فوقها خلال ليالي الصيف القائظة - لا تنسَ أننا فوق نفس خط عرض صقيلية.

«فكرة رائعة»، قال فان. «بالمناسبة، هل تلسعك اليراعات الليلية إن نمت مرة هكذا تحت السماء؟ إنه مجرد سؤال. مجرد سؤال سخيف من فتى قادم من المدينة.»

قادته لاحقاً إلى مكان تخزين الأرجوحة الشبكية - مجموعة كاملة من الأراجيح، حقيبة كتانية مملوءة بشباك متينة وناعمة: كانت موجودة في زاوية من مستودع للعتاد في الطابق السفلي، وراء حديقة الليلك. كان مفتاح الباب مخفياً في حفرة كانت في العام المنصرم عشاً لعصفور - لا داعي لتحديد نوعه. خط طويل من نور الشمس قد

شابه اخضرار، سقط فوق صندوق أخضر مستطيل الشكل، كان مستودعاً للعبة «كروكيت»؛ لكن طاباتها قد ضاعت بعد أن دحرجها بعض أطفال مشاكسين أسفل التل؛ إنهم أطفال عائلة إرمينين، الذين أصبحوا الآن في عمر فان، ولكنهم صاروا مهذبين ولطيفين.

«كما نصبح جميعنا في هذه السن»، قال فان، بينما انحنى نحو الأرض لالتقاط مشط شعر متقوّس على شكل درع سلحفاة - النوع الذي تستعمله الفتيات لرفع الشعر عن العنق؛ كان قد رأى مثيلاً له في الآونة الأخيرة، ولكن أين؟ في تسريحة من؟

«إحدى الخادمات» قالت آدا. «وهذا الكتيّب الرثّ لا بد أنه يخصها أيضاً: «رومانسيات الدكتور ميرتفاغو»[١]، قصة حب صوفية كتبها قس.»

«لا بدّ أن لعب الكروكيت معك»، قال فان، «أشبه باستخدام طيور النحام والقنافذ[٢].»

«لا تتطابق قوائم مطالعاتنا نحن الاثنين»، ردت الفتاة. «قصر بلاد العجائب ذاك، كان بالنسبة لي كتاباً قد تنبّأ لي الجميع بعشقه، وقد أجمعوا على ذلك، وهذا ما ولّد عندي نفوراً مسبقاً لم تستطع قراءتي له تغييره. هل قرأت إحدى قصص الآنسة لاريفيير؟ حسناً، ستفعل. تعتقد أنها كانت في إحدى حيواتها السابقة راقصة وممثلة مسرح في باريس؛ وقد نبعتْ قصصها من إيمانها ذاك. انظر! يمكننا أن نراوغ في مشينا هنا وننسلّ سراً في القاعة الأمامية، ولكن أظن أنه

---

(١) «رومانسيات الدكتور ميرتفاغو»: كرواية نظيرة لـ«دكتور جيفاغو»، الرواية الشهيرة لمؤلفها الروسي بوريس باسترانك (١٨٩٠-١٩٦٠). (مترجم)

(٢) استخدام القنافذ والنحام: تلميح إلى فصل لعب الكروكيت في رواية أليس في بلاد العجائب. (مترجم)

يفترض بنا أولاً أن نذهب لإلقاء نظرة على السنديانة الكبيرة، هي في الحقيقة شجرة دردار». أتراه أحبَّ يوماً شجر الدردار؟ أتراه كان يعرف قصيدة جويس[1] عن غاسلات الملابس؟ نعم. كان يعرث حقاً. ولكن هل أحبها؟ أجل لقد فعل. في الواقع، كان قد بدأ بحبّ الشجر والحجر، الوهج والثلج. إنه سجع، أعليه أن يذكر ذلك أيضاً؟

«والآن!»، قالت له بعد أن توقفت، محدّقة في وجهه.

«ماذا؟»، ردّ فان، «ماذا عن الآن؟»

«حسناً، ربما ما كان عليّ أن أسليك - بعد أن دست فوق دوائري وخرّبتها؛ لكني سأكون متسامحة وأسمح لك برؤية الأعجوبة الحقيقية لعزبة آرديس؛ إنها متحف اليرقانات، في الغرفة المجاورة لغرفتي» (غرفتها التي لم يرها مطلقاً، مطلقاً - أليس غريباً أنه يفكر بها!).

ما إن دخلا ما يشبه المزار المقدس (عبارة عن حمّام قد تم تحويله إلى زريبة، كما كان واضحاً) الواقع في نهاية قاعة ذات أرضية رخامية، أغلقتْ آدا الباب بحذر. وعلى الرغم من كون المكان جيد التهوية، بفضل نافذة عريضة، تبقى درفاتها الزجاجية، التي رُسمت شعارات النبالة فوقها، مفتوحة (يُسمع من خلالها صياح رهيب وصفير غاضب لعصفور جائع يستنجد بالمارة كي يطعموه)، إلا أن رائحة الزريبة - الأرض الرطبة، الجذور الغنية، مشتل نبات قديم وربما أثر لعنزة - كانت مقززة جداً. ولكن قبل أن تسمح له بالاقتراب، قامت آدا بتحريك كل مزاليج أبواب الصناديق الشبكية

(١) جيمس جويس (١٨٨٢-١٩٤١): كاتب وشاعر إيرلندي، من أشهر أعماله «عوليس». (مترجم)

هناك، وكل الشعلة الحلوة التي كانت قد اجتاحت فان منذ أن بدأت ألعابهما في ذلك اليوم، قد اختفت ليحلّ مكانها شعور بفراغ هائل ويأس عظيم.

«أنا مهووسة بكل ما يزحف» قالت.

«ولكنني شخصياً»، قال فان، «أفضّل تلك التي تتقوقع حول نفسها عند لمسها - تلك التي تذهب للنوم ككلب عجوز.»

«أوه، إنها لا تنام، يا لغباء فكرتك، إنها تفقد الوعي، مجرد إغماءة بسيطة»، شرحت آدا، مقطّبة وجهها، «أما بالنسبة لصغارها فأتصور أن الأمر يكون بمثابة صدمة.»

«أجل، يمكنني أن أتصور ذلك جيداً، أيضاً. ولكن أعتقد أن عليّ الاعتياد على الفكرة، شيئاً فشيئاً.»

سرعان ما أدى تردده أمام نقص المعلومات لديه إلى تعاطف جمالي. بعد عدة عقود، لن ينسى فان كم أعجب بيرقانات sharkmoth الجميلة، العارية، اللامعة، المنقطة والمخططة، والتي لا تقلّ سمّاً عن زهور أذن الدب التي تتجمع حولها، أو هاتيك اليرقانة المسطحة من فصيلة catocalid التي كانت كتلها الرمادية وقشرتها البنفسجية تحاكيان العُقَد والحزاز في الأغصان الصغيرة التي التصقتْ بها حتى أصبحت كأنها جزء منها، كما أنه لن ينسى عثة "Vaporer" الصغيرة، بمعطفها الأسود الذي يتلألأ على امتداد ظهرها، مع تلك الخطوط الناعمة، حمراء، صفراء، زرقاء، بأطوالها غير المتكافئة، كشعيرات فرشاة أسنان فاخرة، قد تمّ عن عمد تلوين بعضها وترك البعض الآخر. وهذا النوع من المقارنة، بكل تلك البلاغة المنمقة، تذكّرني بالشروحات الحشرية، المدونة في دفتر يوميات آدا - الذي لا بدّ أننا وضعناه في مكان ما، أليس كذلك يا حبيبي؟ ربما في ذلك الدرج، لا؟ ألا تظن ذلك؟ ها هو! يا للفرحة!

لنرَ بعض العينات (خطك الواضح والجميل يا حبيبتي كان أكبر بقليل، ما عدا ذلك، لا شيء تغير، لا شيء):

«الرأس المنكمش والذيول الشرجية شيطانية الشكل لذلك الوحش المتوهج الذي يولّد العثة المتواضعة Puss Moth، ينتمي إلى فصيلة أبعد ما تكون عن العثّات، بفصوص أمامية أشبه بالمنافيخ، ووجه كعدسة كاميرا قابلة للطيّ. إن مسّدت بلطف جسدها المنتفخ الناعم، فإنك ستشعر بنعومة الحرير - إلى أن يصل الإزعاج بهذا الكائن إلى الحدّ الذي يفقد عنده كياسته، فيبخّ في وجهك سائلاً لاذعاً، يبصقه من شقّ في حلقه.»

«تلقّى الدكتور كروليك من الأندلس خمس يرقانات صغيرات من ذلك الصنف الحديث المعروف محلياً على نطاق واسع باسم Carmen Tortoiseshell، وقد كان لطفاً منه أن يعطيني إياها مباشرة. إنها مخلوقات مبهجة، بتدرجات ألوان حجر الجاد الجميلة، وأشواك فضية ناعمة، ولا تتكاثر إلا فوق نوع نادر من الصفصاف لا يتواجد إلا في الجبال العالية (وقد اقتنى العزيز كراولي أيضاً بعضها من أجلي).»

(في العاشرة من عمرها أو ربما أبكر، قرأت الفتاة - كما فعل فان - أحزان سوان[1]، كما ستكشف النصوص التالية):

---

(١) أحزان سوان: ويجمع بهذا العنوان ما بين «أحزان صوفي» للكونتيسة دي سيغير، وبين «قصة حب سوان» لـ مارسيل بروست. (مترجم)

«أعتقد أن مارينا ستتوقف يوماً عن توبيخي بسبب هوايتي ('من غير اللائق أن تحتفظ طفلة بتلك الحشرات المقرفة'، 'الشابات العاديات يشمئزّن من الأفاعي والديدان' إلخ. .) إن استطعتُ إقناعها بالاستغناء عن حساسيتها المفرطة القديمة، كي تضع فوق كفّها وفوق شرايين معصمها النابضة (باطن اليد وحده لن يكون كافياً!) يرقة Cattleya Hawkmoth النبيلة (بنفسجية كالأوركيد الخاصة بالسيد بروست[1])، عملاقة بطول سبع ةإنشات، لحيمة وملونة، مع زخرفة أرابيسك فيروزية، ترفع رأسها الياقوتي بصلابة، كما يفعل طائر الفينيق.»

(إنها حشرات جميلة حقاً، قال فان محدثاً نفسه، حتى لو أنني لم أستوعب ذلك حين كانت فتيّاً حينها. إذاً، دعونا لا نضجر الفتى الريفي الذي يقلّب في صفحات كتاب ويقول: «هيه أنت يا ف. ف! يا لك من عجوز مخادع!»).

في أواخر صيف ١٨٨٤، صيفه البعيد القريب، وقبل أن يغادر آرديس، قام فان بزيارة وداع لمتحف اليرقانات الخاص بآدا.

كانت يرقة Cowl (أو عثّة القرش) البيضاء الخزفية، الثمينة كحجر كريم، ذات العينيْن البارزتيْن، قد أتمّت تحولاتها التالية بأمان، ولكن Lorelei Underwing خاصة آدا الفريدة قد ماتت، بعد أن هاجمتها حشرة نمسيات، التي لم تخدعها النتوءات الذكية لبقع

(١) الأوركيديا الخاصة ببروست: باقة الأوركيديا في رواية «قصة حب سوان» التي كانت حاضرة أثناء أول ممارسة حب بين «سوان» البطل وحبيبته «أوديت». (مترجم)

الفطريات السامة التي ادّعتها اليرقة. بكل راحة، خدرتْ يرقة toothbrush في شرنقتها الزغبية، واعدة بولادة عثّة Persian Vaporer في آخر الخريف. أما يرقتا Puss Moth فقد ازدادتا بشاعة، ولكنهما على الأقل بدأتا باكتساب شكل دودة لتصبحا أكثر هيبة: أصبح لكل منهما مذراوان رخوان يتدلى خلفهما، وكثير من البقع البنفسجية التي تشوّه رسمهما التكعيبي الفاخر، وكانتا تذرعان أرض القفص جيئة وذهاباً بحركة سريعة تمهّد لمرحلة تحضيرية أخرى. آكوا أيضاً بدورها قد مشت العام المنصرم في غابة، وخلال وادٍ، لتقوم بالأمر ذاته. عثة Nymphalis Carmen حديثة الولادة، كانت ترفرف بأجنحتها ذات اللون الليموني والبني العنبري، فوق بقعة مشمسة من شبك الشعرية، لتلتقطها آدا عديمة الرحمة، بأصابعها الرشيقة؛ تحوّل طائر الفينيق(١) الخاص بأوديت، حماه الله من الحسد، إلى مومياء فيلية، بخرطوم كوميدي زغبي، على شكل حرشفيات الأرفيّة؛ وكان الدكتور كروليك في تلك الأثناء يركض بساقيه القصيرتين، في النصف الآخر من الكرة الأرضية، يبحث فوق الجبال العالية عن صنف برتقالي نادر الوجود، بقي حتى عام ١٨٨٤ يُعرف بـ Antocharis ada Krolik، قبل أن يغيره قانون التصنيفات المتشدد عام ١٨٨٣ إلى A. prittvitzi Stümper.

«ولكن بعد ذلك، أي بعد أن تفقس كل تلك الوحوش» سأل فان، «ماذا ستفعلين بها؟»

تنهدت وقالت: «سآخذها إلى مساعد الدكتور كروليك الذي سيثبتها فوق أطباق زجاجية ويضع ملصقاً تحت كل منها يحمل

---

(١) طائر الفينيق الخاص بأوديت: أوديت بطلة الرواية ذاتها (قصة حب سوان)، أما المقصود بطائر الفينيق فهو العثة "Cattleya Hawkmoth". (مترجم)

اسمها، ثم يخبئها في خزانة نظيفة من خشب السنديان، والتي ستكون ملكي عندما أتزوج. سأحظى عندها بمجموعة كبيرة، وأستمر في تربية وتوليد جميع أنواع الحرشفيات - أحلم بأن تكون عندي منشأة خاصة بكل اليرقانات من صنف Fritillary، بكل أنواعها وألوانها، وزهور البنفسج أيضاً - البنفسج الخاص الذي تتكاثر فوقه تلك الحشرات. وستصلني طائرة إلى هنا، تحمل على متنها كل البيوض واليرقانات الملتقطة في شمال أمريكا، وتكون كلها مرسلة إليّ، مع النباتات التي تتغذى عليها - بنفسج الخشب الأحمر من الساحل الغربيّ، وبنفسج Egglestone من كنتاكي، والبنفسج الأبيض النادر الذي ينمو في سبخات سرية قرب بحيرة لا اسم لها عند جبل في القطب الشمالي، حيث تطير يرقانات Krolik's Fritillary. وبطبيعة الحال، عندما تظهر تلك الحشرات، فإن من السهل مزاوجتها باليد، يمكنك أن تحمل زوجاً - عند لحظة معينة - كما أفعل الآن، بشكل جانبي مع الأجنحة المطوية (أرته آدا الطريقة متناسية إخفاء أظافرها الرديئة) الذكر بيدك اليسار، والأنثى باليمين، وتوجههما رأساً إلى عقب، بحيث يتلامس الجذعان، شريطة أن يكونا حديثَي الولادة ولا يزالان غارقَيْن في رائحة العفن البنفسجيّ، المفضلة لديهما.»

٩

هل كانت حقاً جميلة، في عامها الثاني عشر؟ هل رغب - هل تراه حقاً شعر برغبة في مداعبتها كما لم يشعر مسبقاً في حياته؟ شعرها الأسود المتدفق فوق ترقوتها اليسارية، الحركة التي قامت بها لرفعه عن عنقها، وتلك النمشات فوق خدها الشاحب، كل ذلك كان كالكشف عن شيء ما إن تراه حتى يوحي إليك بأنك تعرفه مسبقاً. أشرق شحوبها، ولمع الليل في شعرها. التنانير ذات الثنيات التي أحبّتها كانت كلها قصيرة، وتليق بها. حتى أطرافها العارية لم تكن لتشوبها لطخة شمس، لدرجة أن المحدّق في قصبة ساقها وساعديها، يمكنه أن يتابع الميلان المنتظم للزغب الأسود الحريري فوق بشرتها الطفولية العذراء. بؤبؤا عينيها الجديّتيْن، البنيان الغامقان، كانا يحملان تلك العتمة الغامضة، التي تحملها عين منوِّم مغناطيسي قادم من الشرق (في صفحة الإعلانات الخلفية لإحدى المجلات) ويبدوان وكأنهما أعلى من المعتاد بحيث يظهران، حين تنظر إليك، هلالاً أبيض ما بين نصفيْ دائرتيْهما السفلية والجفنيْن السفليَيْن الرطبين. بدت رموشها الطويلة مطلية بالأسود، وقد كانت كذلك حقاً. لولا اكتناز شفتيها المحمومتين لبدت ملامح وجهها رقيقة وناعمة كوجه قزم. أنفها الإيرلندي الواضح، نسخة مصغرة عن

أنف فان. أسنانها شديدة البياض، رغم كونها غير مستوية تماماً. أما يداها الجميلتان المسكينتان - لا يمكن لأحد أن ينظر إليهما دونما إشفاق - فهما ورديّتا اللون مقارنة مع بياض ساعدها الشفاف، وأكثر توردأً من كوعيها اللذيْن يبدوان محمرّيْن خجلاً من وضع أظافرها: كانت آدا تقضمها بلا رحمة لدرجة أن ميناءها قد اختفى تماماً، واستبدل بأخدود محفور باللحم الحيّ، كما لو كان صنيعة سلك حديدي، ملحِقاً برؤوس أصابعها المعرّاة، طولاً إضافياً. لاحقاً، عندما أصبح فان مولعاً بتقبيل يديها الباردتيْن، كانت تأبى إلا أن تقبض كفيها، ولكنه، كان بكل عنف وحب، يفتح باطن القبضة العمياء، ليقبّل تلك الوسائد المسطحة الصغيرة، التي لم ترَ النور قبلاً. (ولكن! أوه! أوه يا إلهي! كيف أصبحتْ أصابع كفّيها العقيقية أثناء مراهقتها وبعد أن نضجت، نحيلة وجميلة، وردية وفضية، مطلية ومستدقة!).

ما خبره فان في الأيام الغريبة الأولى التي تعرف فيها إلى أرجاء المنزل مع آدا - مع كل الخلوات الموجودة فيه والتي تحولت لاحقاً إلى زوايا لممارسة الحب - كان خليطاً بين عناصر الفتنة والحنق في آن واحد. الفتنة - بسبب استحالة القدرة على الوصول إلى تلك البشرة البيضاء الشهوانية، بسبب شعرها، ساقيها، حركاتها المتشنجة، رائحة الغزلان التي تعبق منها، تحديقها المفاجئ بعينيْن فاحمتيْن واسعتيْن، عريها الريفي المغري تحت فساتينها؛ الحنق - بسبب أن بينه - كطالب مدرسة عبقري - وبين الطفل الغامض داخله، الذي نضحت عاطفته قبل أوانها، قد امتد فراغ من نور وحجاب من ظلال، لا يمكن لقوة في العالم أن تخفيهما أو تمحوهما.

أكّد بكل خساسة أنه ذات ليلة من لياليه البائسة، كان مركّزاً كل

حواسه المنتفخة على استحضار لمحة مما انغمس في تأمله عندما، خلال جولتهما الاستكشافية الثانية للطابق العلوي من المنزل، اعتلتْ صندوق بحارة بغرض فتح كوّة يمكن الدخول من خلالها إلى العلية (حتى الكلب قد تمكن مرة من الدخول هناك) وكان هنالك كروشيه يتدلى من تنورتها، وقد نظر فان عندها - كما ينظر شاهد إلى معجزة شفاء تحصل أثناء حلقة تلاوة الإنجيل، أو كما يفعل مراقب للتحولات المقززة لعثّة ما - ليرى الزغب الأسود مظلِلاً عانة الطفلة.

لاحظ أنها قد لاحظت أنه يلاحظ أو ربما قد فعل (ما لم يلاحظه فقط، بل وقع تحت أسره الرهيب والرقيق، إلى أن حرّر نفسه من تلك الرؤية - في وقت بعيد جداً - وبطرق غريبة)، ورمته بطرف عينها بنظرة غريبة، غامضة ومتعجرفة: تحرك خداها الغائران وشفتاها المكتنزتان الشاحبتان، كما لو كانت تمضغ شيئاً، وأطلقت ضحكة فرح مدوية، عندما انزلق هو، فان الكبير، أثناء محاولة مروره من المنور الضيق. وعندما وجد نفسه فجأة ممدداً تحت أشعة الشمس، أدرك، هو، فان الصغير، أنه كان لا يزال حتى ذلك الحين غارقاً في عذرية وعمىً، باعتبار أن العجالة التي كان يأتي بها عاهرته الأولى، بالإضافة للغبار والغبش، كل ذلك كان قد حجب عنه رؤية مفاتن الفئران السوداء الصغيرة.

ومنذ تلك اللحظة، وُلدت معرفته العاطفية. لمحها صدفة في الصباح التالي تغسل وجهها وذراعيها فوق حوض قديم الطراز قائم على دعامة مزينة بأسلوب الروكوكو، وكانت قد رفعت شعرها نحو أعلى رأسها، وزمزمت أطراف ثوب نومها حول خصرها الذي بدا كتويج زهرة انبثق منه ظهرها النحيل بأضلاعه البارزة التي شفّ الثوب عنها. يلتف حول الحوض ثعبان خزفي سمين، وعندما توقف ذلك

الحيوان الزاحف، كما فعل هو، لتأمّل حواء، وتأمّل ارتجاج ثدييها المبرعمين، انزلقت صابونة بلون التوت من يدَي الفتاة التي ثنت قدمها - بالجورب الأسود - وضربت بها الباب بعنف، ولكن دويّ إغلاقه لم يشِ بغضب فتاة محتشمة، بل كان أقرب إلى صدى فقاعات صابون قد وقعت فوق رخام رنّان.

١٠

غداء خلال أحد أيام الأسبوع في آرديس: لوسيت جالسة بين مارينا ومربيتها؛ فان بين مارينا وآدا؛ داك، كلب بحجم ابن عرس، ذو لون بني مصفر، كان تحت الطاولة، إما بين آدا والآنسة لاريفيير، أو بين لوسيت ومارينا (لم يكن فان قد أفصح عن كرهه للكلاب وخاصة تلك الشاذة منها ذوات الأجسام الطويلة الصغيرة، والتي تزفر رائحة نتنة). بأسوب جدي ومفخم، كانت آدا تقصّ حلماً، تصف إحدى عجائب تاريخ الطبيعة، تعلّق على أسلوب بعض الكتاب - لقد استعار بول بورجيه[1] «المونولوج الداخليّ» من ليو العجوز - أو الحماقة المضحكة التي وردت في عمود صحيفة Elsie de Nord، حيث نشرت كاتبة سوقيّة بأسلوب يعود للقرون الوسطى، أنها تعتقد أن ليفين[2] قد ذهب إلى موسكو مرتدياً nagol'nïy tulup «معطف فلاح روسي، أجرد من الخارج، صوفيّ من الداخل»، التعريف الوارد في أحد القواميس الذي لم يسبق له أن وقع تحت يد أحد في العالم، إلا بعدما أخرجته مشعوذتنا المعلقة من قبعتها السحرية.

---

(١) بول بورجيه (١٨٥٢-١٩٣٥): كاتب فرنسي. (مترجم)

(٢) ليفين: بطل رواية «آنا كارنينا» - تولستوي. (مترجم)

معالجة آدا المذهلة لترتيب استطراداتها، جملها المعترضة، حسّها اللفظي الجميل عند التشديد على المقاطع الصوتية الأحادية المتجاورة («الغبية ألسي لا تستطيع القراءة بكل بساطة») - كل ذلك قد أثّر في فان كما لو كان إثارة اصطناعية، أو مداعبات تعذيبية غريبة قد يسببها عقار مثير للشهوة، فجاءت متعته على قدر عذابه وغضبه.

«يا كنزي الثمين!»، نادتها أمها مؤكدة انبهارها بمحاضرة ابنتها مع قليل من التعجب: «كم هذا مضحك! أوه! كم أعشق ذلك!»، كما لم تمتنع عن الإدلاء بمواعظها التنبيهية، على سبيل المثال «انتبهي لطريقة جلوسك واجعلي ظهرك مستقيماً»، أو، «كُلي يا غاليتي» (مشدّدة على الحروف أثناء نطقها بفعل الأمر بلهجة أمومية محفّزة، بعكس لهجة آدا الشاعرية التي تحمل خبث التهكم).

وها هي الآن آدا، جالسة باستقامة، مطابقةً بليونة عمودها الفقري انحناء مسند الكرسي الذي تجلس فوقه، ومن ثمّ، وعند بلوغ حلمها أو مغامرتها (أو أياً كان ذلك الذي تقصّه) الذروة، أصبحت منحنية فوق المكان الذي أزال من فوقه برايس - من باب الاحتياط - طبق طعامها، وفجأة، غزا الطاولة كوعاها اللذان مدتهما على امتداد المساحة أمامها، ثم عادت لتسند ظهرها، مستعينة بكثير من الإيماءات المبالغ فيها، رافعة يديها عالياً عالياً، لتوضيح خطابها الذي وصل عند كلمة «طويل، طويل».

«ولكن، يا كنزي! أنتِ لم تجربي بعد .. أوه! برايس! هلّا أحضرت لو سمحت ....»

ماذا؟ أرجوحة للطفلة المسكينة التي لا ترتدي سروالاً داخلياً، كي تطير بها نحو سماء تزهو بأزرقها المتوهج؟

«لقد كان طويلاً، طويلاً... أعني (مقاطعة نفسها) كمجسّ

نبتة. . . لا. دعوني أرى» (هزة رأس، ارتعاشة في الملامح، كما لو أنها أرادت حلّ خيوط متشابكة بحركة واحدة وسريعة).

لا: بل حبات خوخ وردية بنفسجية كبيرة، إحداها قد انفلقت مظهرة ذلك الشقّ الأصفر الرطب.

«وقد كنت هناك ـــ» (يسقط شعرها فوق وجهها، ترتفع يداها نحو المعبد، تبدأ بغزل ضفيرة دون أن تنهيها، ثم جلجلة مفاجئة لخرير ضحكة، تنتهي بسعال رطب).

«ولكن جديّاً يا أماه! يمكنك أن تتخيلي كيف أصبحت ابنتك المسكينة في لحظة عاجزة عن الكلام، ثم بدأتُ بالصراخ عندما أدركتُ ـــ»

عند الوجبة الثالثة أو ربما الرابعة، بدأ فان أيضاً بإدراك أمر ما. بعيداً عن كونه استعراضاً ذكياً لمواهبها بغرض إبهار ضيفها، كان سلوك آدا ذكياً جداً، إذ كانت تحاول يائسة منع مارينا من الاستيلاء على المحادثة وتحويلها إلى خطاب مسرحي. من ناحية أخرى، وبينما تحيّنت مارينا الفرصة لركوب صهوة هوايتها، كانت تستمتع بلعب الدور المبتذل لأم مولعة بابنتها وفخورة بسحرها ودعابتها، وتعمل - في الوقت ذاته - على إظهار سحرها الخاص ودعابتها، من خلال تساهلها مع استعراض ابنتها لمواهبها: ما كانت تستعرضه - ليس آدا! وعندما فهم فان الوضع الحقيقي، سمح لنفسه بالاستفادة من فاصل صغير (كانت مارينا على وشك ملئه باقتباسات لستانيسلافسكيانا) ليبحر مع آدا فوق المياه المضطربة، نحو بوتاني باي[1]، الرحلة التي خاف أن يخوضها سابقاً، ولكن قد تبيّن له في تلك اللحظة، أن هذا الإبحار، الأكثر سهولة وأماناً، هو ما تحتاج

(١) بوتاني باي: خليج في أستراليا. (مترجم)

إليه فتاته. كان ذلك التكتيك يحوز كل اهتمامه على نحو استثنائي عند كل عشاء، باعتبار أن لوسيت ومربيتها يتناولان العشاء في وقت أبكر وفي الطابق العلوي، وعليه فإن الآنسة لاريفيير لا تكون موجودة هناك، لتزويد آدا عند لحظات حرجة كتلك، بروائع ما كتبته مؤخراً في روايتها الجديدة (كانت في مرحلة وضع اللمسات الأخيرة على «قلادة الماس»[١] الشهيرة)، أو تزويد فان بذكريات طفولته المبكرة، وهي في الحقيقة ذكريات مقبولة جداً بالنسبة له، عن معلمه الروسي العزيز، الذي تغزّل بكل تهذيب بها، وكتب فيها، بالروسية، شعراً رمزياً، شعراً حراً لا قافية له، ثم شرب، بالطريقة الروسية أيضاً، ورفع نخب «عزلته الروسية».

فان: هذا الشيء الأصفر (مشيراً إلى صورة زهرة مرسومة فوق الطبق أمامه) هل هو حوذان؟

آدا: لا! هذه الزهرة الصفراء هي أذريون الماء المنتشرة على نطاق واسع هنا، ويدعوها الفلاحون، خطأً، بزهرة الربيع، في حين أن تلك الأخيرة تختلف اختلافاً جذرياً.

«فهمت»، قال فان.

«أجل بالفعل!»، بدأت مارينا، «فإنني حين كنت ألعب دور أوفيليا، وكنت قد جمعت تلك الأزهار، فإنها ـــ»

«ساعدتك كثيراً بلا شك. أما الآن، فإن الاسم الروسي لأذريون الماء هو Kuroslep (الاسم الذي حوّله الفلاحون الطارطاريون، العبيد المساكين، إلى الحوذان) أو Kaluzhnitsa كما يُطلق عليه في كالوغا، الولايات المتحدة الأمريكيّة.»

---

(١) قلادة الماس: تلميح إلى قصة الحلية المفقودة للكاتب غي دي موباسان الفرنسي (١٨٥٠-١٨٩٣). (مترجم)

«آه»، علّق فان.

«كما يحصل لكثير من الزهور»، تابعت آدا، مع ابتسامة عالِم مجنون، «أما الاسم الفرنسي التعيس لنبتتنا فهو "souci d'eau" (همّ الماء) فقد تم انتهاكه أو لنقل تشويهه ــ»

«Flowers into bloomers[1]»، تلاعب فان بالألفاظ.

«توقفا أرجوكما!» تدخلت مارينا التي كانت تجد صعوبة في متابعة محادثتهما وفهمها، ولكنها انتبهت إلى تلميح فان الذي قد يكون غير لائق.

«بمحض صدفة في وقت مبكر من هذا الصباح»، تابعت آدا دون أن تتفضّل على والدتها بتفسير تنويري، «كانت مربيتنا المثقفة وهي مربيتك أنت أيضاً يا فان ــ»

(كانت مرتها الأولى التي تنطق فيها اسمه، خلال حصة علم النبات تلك!)

« ــ والتي هي متشددة جداً بالنسبة لأخطاء المترجمين الأنغلو ساكسونيين الفادحة (رغم أنني كنت قد ظننتها تبالغ في تشددها لأسباب شوفينية أكثر منها فنية وأخلاقية) قد لفتت انتباهي - انتباهي المتردد - إلى بعض أزهار الـ bloomers الرائعة - كما تدعوها أنت - مذكورة تحت هذا الاسم في العمل الأدبي «ذاكرة»، للسيد فاولي[2] (أطرت عليه ألسي مؤخراً قائلة: «حساس! حساس»!) ضمن قصيدة رامبو التي وردت في الكتاب (كانت ولحسن الحظ -

---

(١) "Flowers into bloomers" اعتمد الكاتب هنا التورية اللفظية، إذ إن كلمة bloomer تحتمل معنيين: الأول نوع من الأزهار، والثاني سروال نسائي داخلي. (مترجم).

(٢) والاس فاولي (١٩٠٨-١٩٩٨): كاتب أمريكيّ. (مترجم)

وبعد نظرها - قد أجبرتني على حفظها عن ظهر قبل، رغم شكّي في أنها تفضل موسيه[1] وكوبيه[2])»ـــ

«. . . أثواب الفتيات الخضراء الناعمة. . .» اقتبس فان زاهياً بانتصاره.

«تماااااماً» (مقلدة طريقة دان). «لقد سمحت لي لاريفيير بقراءته في أنطولوجيا Feuilletin[3] فقط، التي يبدو أنك قرأتها بدورك، ولكن عليّ أن أحصل على أعماله الكاملة قريباً جداً، أجل قريباً جداً، أقرب من أي وقت قد يخطر ببال أحد. بالمناسبة، إنها ستنزل بعد أن تنوّم لوسيت، صغيرتنا النحاسية، التي لا بدّ أنها الآن ترتدي قميص نومها الأخضر ـــ»

«Angel moy (يا ملاكي)!» اعترضت مارينا، «لا يمكن لفان أن يكون مهتماً بثوب نوم شقيقتك!».

«ـــ بلون الصفصاف، وتعدّ الخراف التي تعدو في «سماء سريرها»، كما ترجمها فاولي بدل أن يقول «ناموسية السرير». ولكن، لنعد إلى زهرتنا المسكينة! الترجمة الأشنع بين كل تلك التسميات الخاطئة لمجموعة الأزهار الفرنسية الواردة في كتابه، كانت تلك الخاصة بـ همّ الماء - والذي هو أذريون الماء الخاص بنا - إذ تم تحويله إلى «عناية الماء» - على الرغم من وجود عشرات المرادفات بمتناول يده ، مثل mollyblob، marybud، maybubble، والعديد من الألقاب الأخرى المرتبطة بأعياد الخصوبة، أياً كانت.»

---

(١) ألفريد دي موسيه (١٨٠٠-١٨٥٧): شاعر وروائي ومسرحيّ فرنسيّ. (مترجم)

(٢) فرانسوا كوبيه (١٨٤٢-١٩٠٨): شاعر وروائيّ فرنسيّ. (مترجم)

(٣) Feuilletin : إشارة إلى Feuilleton وهي تسمية صفحة التسلية في الصحف، كما كانت تعرف آنذاك في أوروبا. (مترجم)

«من ناحية أخرى»، قال فان، «يمكننا أن نتخيّل بسهولة «الآنسة أنهار»، كمماثلة لغوية لاسم آنستنا، موجودة في النسخة الفرنسية من، لنقل، حديقة مارفيل[1] ــ»

«أوه!» صاحت آدا، «يمكنني إلقاء «الحديقة» بنسختي المترجمة الخاصة بي - دعني أرى -

(بالفرنسية) عبثاً نستمتع حين نربح
مزيداً من السنديان وتوت النخيل. . . »

(بالإنكليزية) «. . . من النخيل، السنديان أو التوت!» صاح فان.

«أتعلمون يا أطفال!» قاطعتهما مارينا بحزم، رافعة يديها الاثنتين في حركة لتهدئتهما، «عندما كنت في عمرك يا آدا، وكان شقيقي في عمرك يا فان، كنا نتحدث عن لعبة الكروكيت، عن المهور، والدمى، آخر أعياد الأطفال، والنزهات القادمة، و، أوه، ملايين الأمور الطبيعية، ولكننا أبداً، أبداً لم نتحدث عن عالِم نبات فرنسي قديم، ووحده الله يعرف ماذا أيضاً!»

«ولكنكِ قد قلت لتوك إنك قد جمعت الأزهار!» ردّت آدا.

«أوه أجل، كان ذلك لموسم واحد، في مكان ما في سويسرا. لم أعد أذكر التاريخ. لم يعد ذلك مهماً الآن.»

أما الأخ الذي أشارت إليه مارينا فكان إيفان دورمانوف: كان قد مات قبل عدّة سنوات بسرطان الرئة في إحدى المصحات (ليست ببعيدة عن إيكس، في مكان ما في سويسرا، حيث ولد فان بعد ثماني

(١) حديقة مارفيل: قصيدة «الحديقة» التي كتبها الشاعر الإنكليزي أندرو مارفيل (١٦٢١-١٦٧٨). (مترجم)

سنوات). كثيراً ما تحدثت مارينا عن إيفان الذي كان عازف كمان شهيراً في الثامنة عشرة من عمره، ولكنها كانت تذكره دون أن تُظهر أدنى إيماءة عاطفة خاصة، ولكن هذه المرة، لاحظت آدا متفاجئة، أن تبرُّج والدتها السميك قد بدأ يميع تحت سيل دموع مفاجئ (ربما حساسية من أوراق الأزهار القديمة الجافة، أو هبوب مفاجئ لهواء يحمل رائحة التبن، أو ربما الجنطيانا، كما اقترح التشخيص الذي تمّ لاحقاً، أثناء استذكاره للماضي).

أفرغت مارينا أنفها كما لو كان انفجاراً، أو «نهيم فيل»، كما وصفته بنفسها - وها هي الآنسة لاريفيير قد نزلت للمشاركة في طقس القهوة، واستحضار المزيد من الذكريات عن طفولة فان، «الطفل الملائكي»، «الكنز الغالي»، الذي عشق حين كان في التاسعة من عمره جيلبرت سوان[١]، وليزبيا الخاصة بكتولوس[٢] (والذي قد تعلّم، من تلقاء نفسه، كيف يطلق العنان لافتتانه ذاك، كلما حملت حاضنته قنديل الزيت، بيدها السوداء، وأخرجته من غرفته، لتترك فان يغرق في العتمة والشهوة).

مكتبة
t.me/t_pdf

(١) جيلبرت سوان: شخصية خيالية في رواية «البحث عن الزمن المفقود»، لـ مارسيل بروست.

(٢) غايوس فاليريوس كتولوس: شاعر لاتيني من زمن ما قبل الميلاد، كتب قصائد حب لمعشوقته التي أعطاها اسماً مستعاراً وهو «ليزبيا».

١١

بعد أيام قليلة من وصول فان، قدِم العم دان في قطار الصباح، من المدينة التي يقضي فيها عادة عطلة نهاية الأسبوع مع عائلته.

ركض فان للقائه بينما كان العم دان يعبر القاعة. قام كبير الخدم بلفتة ساحرة (كما قدّرها فان) ليجعل سيده يتعرف إلى الصبي الطويل الموجود هناك. رفع إحدى يديه عمودياً ثلاث أقدام عن الأرض، ثم بدأ برفعها أكثر فأكثر تدريجياً - رمز يشير إلى الطول المتزايد، لم يفهمه أحد من الموجودين سوى صاحبنا الشاب ذي الست أقدام طولاً. ثم رأى فان السيد الصغير، أحمر الشعر، يلقي نظرة مرتبكة إلى كبير الخدم، الذي سارع نحوه ليهمس اسم الوافد الجديد في أذن سيده.

كانت للسيد دان فيين طريقة غريبة حين يتقدم لتحية ضيف، إذ كان يبقي أصابع يده الخمس المقبوضة بشدة مغموسة في جيب معطفه، كما لو كانت تخضع لعملية تعقيمية، ثم لا يُخرجها إلا في اللحظة الدقيقة للمصافحة.

أخبر فان بأنها ستمطر بعد دقائق قليلة، لأن «المطر قد بدأ بالهطول في لادور»، وعادة، كما قال، «يستغرق نصف ساعة ليصل آرديس». ظن فان أن ذلك كان تهكماً فأطلق ضحكة خفيفة مهذبة،

ولكن العم دان عاد إلى نظرته المرتابة تلك، وحدّق بعينيه السَّمَكيّتيْن الشاحبتيْن في وجه فان، مستفسراً ما إذا كان قد تنزه في المناطق المحيطة بآرديس وألِفها، كم يتقن من لغات، وما إذا كان يريد أن يشتري ببعض الكوبيكات تذكرة يانصيب خاصة بالصليب الأحمر.

«لا شكراً!» أجاب فان، «لدي ما يكفي من تذاكر اليانصيب»، وعادت عينا عمّه للاتساع ثانية، ولكن هذه المرة في اتجاه مغاير.

تمّ تقديم الشاي في غرفة الرسم. كان الجميع صامتين، أو بالأحرى تنقصهم البهجة، وحينذاك، انزوى العم دان في ركن مكتبته، سحب جريدة مطوية في جيب داخلي، وما إن غادر الغرفة حتى فتحت درفة النافذة من تلقاء ذاتها، وبدأ خارجاً وابل مطر عنيف بالنقر فوق أوراق شجر القيثاريّ، والباولونيا، وعندئذ عادت المحادثة لتكون عامة وبصوت عالٍ.

لم يستمر الهطول طويلاً، أو بالأحرى، بالكاد دام قليلاً: لقد أكمل طريقه المفترض نحو رادوغا أو كالوغا أو لادوغا، ذارفاً فوق آرديس قبل رحيله، قوس قزح غير مكتمل.

كان العم دان، الجالس في مقعد متخم التنجيد، يحاول أن يقرأ (بمساعدة قواميس صغيرة جداً كتلك الخاصة بالسيّاح كثيري الأسئلة، تساعد على فكّ شيفرة اللوحات الفنية الأجنبية المصورة في كاتلوغات) مقالاً عن فن الطلاء المحاري في مجلّة ألمانية مصوّرة قد تركها أحدهم في القطار فوق المقعد المواجه له، وفي تلك اللحظة سُمع في كل البيت صوت جلبة بغيضة تنتشر بين الغرف.

كان كلب الداشهاند اللعوب، بأذن متدلية وأخرى مقلوبة على نحو يُظهر الجوف الرمادي الوردي، يركض بساقيه المضحكتيْن، ينزلق فوق الأرضية الخشبية، يتوقف فجأة ثم يركض في اتجاه معاكس، باحثاً عن مخبأ مناسب لقطعة القطن الطبيّ الكبيرة الممتلئة

دماً، والتي قد وجدها في مكان ما في الطابق العلوي. آدا، مارينا وخادمتان كنّ في أثر ذلك الحيوان الجزل، الذي استحال حصره في زاوية، بينما كان يندفع مسرعاً من باب إلى آخر، بين كل ذلك الأثاث الباروكي الضخم. وفجأة، دارت المطاردة حول أريكة العم دان قبل أن تنطلق إلى غرفة أخرى ثانية.

«يا لعظمة الرب!»، هتف بعد أن ألقى نظرة خاطفة إلى الغنيمة الدموية، «لا بدّ أن أحدهم قد قطع إبهامه!». جسّ قدميه ثم مقعده، بحث عن قاموس جيبه الذي لا يستغني عنه، وجده تحت الكرسي الخاص برفع القدميْن، استأنف قراءته، ثم بعد ثانية، وصل إلى تفسير Groote، الكلمة التي كان يبحث عن معناها قبل حدوث البلبلة.

أزعجته بساطة المعنى.

من خلال درفة النافذة الفرنسية، قاد الكلب مطارديه نحو الحديقة. هناك، وفي المرج الثالث، أدركته آدا عندما قامت بـ«الغوص الطائر»، الحركة الخاصة بكرة القدم الأمريكية، الرغبي التي لعبها الطلبة ذات مرة فوق الضفاف العشبية لنهر غوود-صان (Goodson River). في الوقت ذاته، قامت الآنسة لاريفيير عن مقعدها حيث جلست تقلّم أظافر لوسيت، موجهة مقصها نحو بلانش التي كانت تركض حاملة كيساً ورقياً، وكان قد سبق لها أن وجّهتْ لتلك الخادمة القذرة تهمة فاضحة - ألا وهي إغفالها لدبوس شعر سقط في مهد لوسيت، وكان طويلاً وقد جرح الطفلة في قفاها. ومع ذلك، فإن مارينا التي تربّت - كأي سيدة نبيلة روسية - على عدم الإساءة لمن هو أدنى، كانت قد أعلنت إغلاق القضية.

«Nehoroshaya, nehoroshaya sobaka (كلب سيئ)» هتفت آدا، بأنفاسها المتقطعة واللاهثة، بينما التقطت بين ذراعيها «كلبها السيئ» الذي بقي مرحاً رغم خسارة غنيمته.

١٢

أرجوحة وعسل: بعد ثمانين عاماً، ما زال قادراً على استرجاع ذلك الانقباض الطازج لوقوعه المبهج في حب آدا. التقت الذاكرة بالخيال في منتصف الطريق، تعانقا وناما في أرجوحة فجر مراهقته. في عامه الرابع والتسعين، كم يرغب في تقفّي أثر ذلك الصيف العاطفي الذي عاشه، ليس كحلم، وإنما كاستعادة موجزة لوعيه، ليسند روحه في الساعات الرمادية الصغيرة، التي تفصل بين نومه الضحل، وحبة دواء الصباح الأولى.

«تولّي اللعبة أنت الآن، حبيبتي! عقار، دثار، دوار، مليار. انطلقي من هنا! هلا فعلتِ يا آدا!»

(هي). مليار فتى. فلنختر لهم عقداً زمنياً لائقاً. مليار «بيل»، طيبون، موهوبون، رقيقون وشغوفون، ليس روحياً فقط بل جسدياً أيضاً، وبكامل نواياهم الطيبة، اعتادوا، في ذلك العقد، أن يعرّوا مليار «جيل»، لا يقلنّ عنهم رقة وذكاء، في المحطات وضمن ظروف يجب أن تكون تحت رقابة محقق يدقق في تحديدها، خوفاً من أن يختنق التقرير في ضباب تدخين الإحصائيات، والتغاضيات القانونية. قد يبدو كل ذلك يجري عبثاً لو أننا أغفلنا، على سبيل المثال، المسألة الصغيرة الخاصة بالوعي الفردي الإعجازي، وبالعبقرية

الشابة، التي تجعل، في بعض الأحيان، من هذا أو ذاك اللهاث الشهواني، حدثاً غير مسبوق وغير قابل للتكرار في سلسلة استمرارية الحياة، أو على الأقل، خلقاً لئيمة عمل فني، أو مقالاً ساخطاً. التفاصيل التي تضيء كهالة أو كظلّ: بشرة تشفّ عن أوراق شجر محلي، شمس خضراء تشرق في عيون بنية رطبة، tout ceci، vsyo eto (كل هذا)، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار. والآن استعد! حان دورك في اللعبة (لا آدا! أرجوك استمري! ya zaslushalsya كلي آذان صاغية) لأننا إن أردنا نقل الواقع، الواقع، واقع أن - بين مليارات تلك الأزواج الرائعة في مقطع عرضي واحد لما ستسمح لي بتسميته 'مسافة زمنية' (تناسباً مع المنطق) فإننا سنجد زوجاً واحداً فريداً، ذا عظمة إمبراطورية، مقدر له أن يصبح موضوع بحث (يُحقق في أمره، يُرسم، يُشجب، يوضع في لحن، يُعذب، أو ربما يُقتل) وبذلك فإن استثنائية حبهما يكون لها تأثير فريد وخاص في حياتين طويلتيْن وحياة قليل من القراء، 'القصب المفكرة'[1]، بأقلامهم وفرش رساميهم. أتعتقد أنه تاريخ طبيعي[2] حقاً؟ لا، إنه تاريخ غير طبيعي، لأنه لا بدّ لتلك الدقة في الحواس والشعور، أن تكون بمثابة أمر غريب الأطوار وغير مريح بالنسبة للفلاحين، ولأن التفاصيل كلها عبارة عن: تغريد لصَعْوٍ أحمر العرف توسكاني، أو صعوِ سيتكا، فوق شجرة سرو في مقبرة؛ شذا نعنع يهبّ من الندغ البستاني، أو الشفوية فوق منحدر ساحلي؛ رقصة مجنحة لفراشة Holly Blue أو

---

(١) قصب مفكرة: تلميح إلى مقولة الفيلسوف الفرنسي بليز بسكال (١٦٢٣-١٦٦٢): الإنسان ليس إلا قصبة، أضعف كائن في الطبيعة، ولكنه قصبة مفكرة. (مترجم).

(٢) تاريخ طبيعي: كان هذا المصطلح يُطلق آنذاك على تاريخ الماضي. (مترجم)

Echo Azure جنباً إلى جنب مع فراشات أخرى، وطيور وأزهار: رقصة نسمعها، نراها ونشمها من خلال شفافية الموت، وتوهج الجمال. وما هو أكثر صعوبة: الجمال بحد ذاته، وكيف يُرى، بعين الزمان والمكان. ذكور اليراع (إنه حقاً دورك الآن يا فان).

ذكور اليراع، خنفساء صغير مضيئة، أقرب إلى نجم متحوّل، منها إلى حشرة مجنحة، ظهرت في أول ليلة مظلمة ودافئة في آرديس، الواحدة تلو الأخرى، هنا وهناك، ثم احتشدت لتصير شبحاً، تضاءل واضمحل شيئاً فشيئاً، ما إن وصل سعي كل منها إلى نهايته. شاهدها فان بنفس الرعب الممتع الذي خبره ذات مساء في طفولته، حين كان تائهاً ساعة الغروب البنفسجية في حديقة فندق إيطالي، وتحديداً في الممر المشجّر بالسرو وظن حينذاك أنها جنيات ذهبية، أو روح الحديقة. ثمّ، طارت الذكور بنعومة، وبخط مستقيم وواضح، عبرت الظلام من حوله جيئة وذهاباً، أومض كل بدوره بضوئه الليموني الخفيف كل خمس ثوانٍ تقريباً، مشيراً بإيقاعه الخاص (وميض يختلف كلياً عن ذلك الخاص بالأنواع المتحالفة، التي تطير مع Photinus ladorensis - وفقاً لما قالته آدا - في لوغانو ولوغا) إلى أنثاه المقيمة في العشب، التي أعلنت استجابة ضوئية نابضة، بعد دقيقتيْن من التفكير بالضوء الدقيق الذي عليها أن تردّ به على الشيفرة التي يطلب بها ودّها. مرور تلك الحيوانات الصغيرة الرائعة، بإضاءتها الدقيقة، وتلك الليلة العطرة، قد ملأت فان بنشوة بارعة، لم يشعرها تجاه علوم آدا الحشرية - ربما كان ذلك بتأثير الحسد الذي يثيره أحياناً عالم الطبيعة العملي في نفس طالب لا يزال نظرياً. أما الأرجوحة الشبكية، فهي عشّ مستطيل مريح، يستلقي فيها عارياً تحت أغصان الأرز المتهدلة، التي تنتشر في زاوية أحد مروج الحديقة، والتي تؤمّن حماية جزئية من المطر. كما كان يستلقي فيها

أحياناً أخرى، في ليالٍ أكثر أماناً، بين شجرتَي توليب (حيث نام ضيف سابق ذات ليلة صيفيّة، تغطي عباءة الأوبرا قميصه البارد والرطب، وقد استيقظ مرعوباً لأن قنبلة «الرائحة الكريهة» قد انفجرت في حلمه في قاعة الأوركسترا بين آلات الكمان وغيرها، فما كان من الخال فان[1] إلا أن أشعل الفتيل، ليُعثر عليه صباحاً واضعاً رأسه فوق وسادة تغرق في الدماء).

مضاءة، مطفأة، كانت نوافذ القلعة السوداء ليلتها كرقعة شطرنج. الآنسة لاريفيير، أكثر من يشغل حمام غرف الحضانة لوقت طويل، كانت هناك مع فانوس شمع بعطره الوردي، ومنشفتها. هزّ النسيم ستائر حجرته الأبدية. أشرقتْ فينوس في سمائه؛ غربتْ فينوس في لحمه.

هكذا كانت ليالي الصيف في آرديس قبل أن يبدأ نوع معيّن من البعوض المثير للاستغراب، بغزوه الموسمي (الموفد الروسي غير المرحب به في منطقتنا، والذي اكتسب صفاته الخبيثة من نظامه الغذائي المعتمد على كروم لادور وشجيرات التوت البرّي فيها)؛ ولكن رغم ذلك، فإن اليراعات الساحرة، وشحوب الكون الحليبي الذي كان يتغلغل في ظلام الأغصان المورقة، لم تكن وحدها مصدراً للعذابات والأرق الليلي، بل زاد عليها هواء غرفة مخنوق، يحمل رائحة تعرق لاهث ونطاف متعب. على امتداد كل سنوات عمره التي أوشكت أن تصير قرناً، لطالما كان الليل محنة بالنسبة لهذا الرجل المسكين، مهما كان نعسانَ أو حتى مخدّراً - فالعبقرية لا تجرّ الروعة لحياة أصحابها، حتى بالنسبة للبليونير بيل[2]، بلحيته الخفيفة

---

(١) الخال «فان»: إيفان دورمانوف. (مترجم)

(٢) البليونير بيل: تُرجم في النسخة الفرنسية للرواية، والتي راجعها نابوكوف بذاته، على أنه «وليام شكسبير العظيم». (مترجم)

مستدقة الرأس وذقنه الحليق بأسلوب منمق، أو بروست الفظّ الذي كان يعجبه قطع رأس الفئران[1] عندما لم يكن النوم يعرف سبيلاً إلى عينيْه، أو حتى صاحبنا ف.ف.، الذي كان ذكياً أو ربما غامضاً (حسب وجهة نظر القراء، الذين هم أيضاً بدورهم مساكين، رغم فارق المهن بيننا، فنحن من يكتب الانحراف، وهم من يتلقونه)؛ ولكن في آرديس، فإن ذلك الصخب الحي لسماء ترصدها النجوم قد زاد في اضطراب ليلة الفتى لدرجة أنه شعر بالامتنان للجو حين بدأ يسوء، جالباً معه البعوض الكريه (الـ Kamargsky Komar[2] الخاص بفلاحينا، والبعوض الموسكوفي، الذي لا يقلّ عن الأول بنفحته الانتقامية) والذي دفعه للعودة إلى سريره المتخبط.

في تقريرنا الموضوعي هذا عن حب فان المبكر، المبكر جداً، لآدا فيين، لم تُذكر الأسباب التي أدت إلى انحرافه [أي الحب- مترجم] الميتافيزقيّ أو حتى مكان ذلك الحدث. ومع ذلك، دعونا نلاحظ أمراً (عندما كانت الشياطين تطير وتنبض، والبومة تنعق - بنفس الإيقاع تقريباً - في المتنزه المجاور)، وهو أن فان الذي لم يكن قد تذوّق بعد رعب مفهوم تيرا (العذاب المبرّح الذي حللته حبيبته آدا العصية على النسيان، على أنه مجرد بدعة خبيثة وأوهام شائعة) قد تيقن، رغم كونه في الرابعة عشرة من عمره، أن الأساطير القديمة قد أوجدتْ دوامة من العوالم (بغضّ النظر عما فيها من غرابة أو باطنية) وأفردتْ لها مكاناً داخل المادة الرمادية للسموات المخضبة بالنجوم، وربما تشمل فيما شملت، مقدار جناح بعوضة من حقيقة

---

(١) بروست والفئران: تلميح إلى ما قاله أندريه جيد عن مارسيل بروست، وما نقله وأكده جورج بينتر في توثيقه لحياة مارسيل بروست. (مترجم)

(٢) La Camargue : Kamargsky Komar، اسم منطقة مستنقعات في جنوب فرنسا، أما Komar فهو تسمية البعوض بالروسية. (مترجم)

غريبة. أما لياليه في الأرجوحة (حيث ذلك الشاب الآخر المسكين، قد سعل دمه الملعون وعاد ليغرق في أحلام تجوس فيها كواجر سوداء، وتتصادم رموز في افتتاحية أوركسترا خِصْيوية - كما اقترح أطباء مهنيون) فلم يعد كرب اشتهاء آدا يطاردها، بقدر ما فعل الفضاء الذي لا معنى له، والذي بدأ يحوم فوق رأسه، تحت رأسه، أينما حلّ، مُناظِراً بطريقة شيطانية الزمن الإلهي، مرتعشاً حوله وخلاله، كما سيعود للارتعاش - مع قليل من المعنى لحسن الحظ - في الليالي الأخيرة من حياته، التي لن آسف عليها، يا حبيبتي.

غفا في اللحظة التي اعتقد فيها أنه لن يعود للنوم مطلقاً في حياته، وكانت أحلامه شابة. عندما وصل أرجوحتَه أولُ وهج نور، استيقظ رجلاً آخر - رجلاً شديد الرجولة في الواقع. استفاق وفي دماغه صوت أغنية واحدة: «آدا، وهج آرديس وروضها» - القافية الداكتيليكية[1] الثلاثية، التي ستبقى مساهمة فان فيين الوحيدة في الشعر الأنغلو-أمريكي. ملعونة هي نجوم الثريّا، مباركة هي أغاني الأصباح! كان عمره أربعة عشر عاماً ونصف العام؛ سيحصل عليها وبشراسة، يوماً ما!

عند استعادته للماضي، يمكن أن يتذكر بالتفصيل قيامة خضراء كتلك. شدّ سرواله سريعاً، بعد أن حشد فيه آلته النافرة، متعددة الاستعمالات، المعقدة والممانعة، سقط من عشه، ثم سعى على الفور ليتأكد ما إذا الحياة قد استيقظت في القسم الآخر من المنزل. أجل لقد فعلتْ. رأى ومضة كريستال وترقيط ألوان. كانت تتناول وحدها وجبة الطعام الخفيفة التي تتناولها عادة عند الصباح، فوق

---

(١) تفعيلة داكتيليك: أو الداكتيل وهو مقطع صوتي طويل متبوع بمقطعين صوتيين قصيرين. (مترجم)

شرفة خاصة. وجد فان صندله - خنفسة فوق فردة وبتلة فوق أخرى - ومن خلال مستودع العتاد دخل المنزل البارد.

الأطفال الذين يماثلونها بارعون في استنباط أنقى الفلسفات، ولكن آدا قد طوّرت أسلوباً صغيراً يخصها. لم يمض على وجود فان أسبوعاً هناك، حتى وجد نفسه جديراً بوقوعه فريسة في الشبكة التي نسجتها حكمتها. تتكون حياة الفرد من بعض الأشياء المصنفة: «أشياء حقيقية» وهي غير متكررة ولا تقدر بثمن، «أشياء بسيطة» ومنها يتشكل روتين الحياة؛ و«الأشياء الشبحية» وتدعى أيضاً بـ«الضباب»، مثل الحرارة، وجع الأسنان، خيبة الآمال المروّعة، والموت. ربما ثلاثة أشياء أو أكثر كانت تجري في الأوان ذاته قد شكلت «برجاً»، ولو أنها تتالت بشكل مباشر لشكلت «جسراً». «أبراج حقيقية» و«جسور حقيقية» هي أفراح الحياة، وإن حدث وجاءت الأبراج متتالية، فذلك هو أقصى النشوة؛ ورغم ذلك، فإن ذلك الأمر لم يحدث أبداً تقريباً. في ظروف معينة وتحت أضواء معينة، قد يبدو شيئاً «محايداً» أو ربما قد يصير «حقيقياً»، أو ربما بخلاف ذلك، قد يتخثّر ليصير «ضباباً» نتناً. عندما تختلط السعادة بالكدر، في الوقت ذاته أو على امتداد مدة مضطربة من الزمن، فإننا آنذاك نواجه «أبراجاً مهدمة» أو «جسوراً معطلّة». التفاصيل التصويرية والهندسية لتلك الميتافيزيقيا، جعلتْ ليالي آدا أخفّ كرباً من تلك الخاصة بفان، أما ذلك الصباح - كما هي حال معظم الأصباح - كان يتملكه الإحساس بأنه عائد من بلاد أكثر نأياً وكآبة، من تلك التي تشرق منها آدا والشمس.

ابتسمت شفتاها المكتنزتان، الدبقتان واللماعتان.

(عندما أقبّلك هنا، قال لها بعد عدّة سنوات، أتذكر دائماً ذلك الصباح الأزرق حين كنت تأكلين tartine de miel (فطيرة العسل)

فوق الشرفة؛ التسمية الفرنسية أجمل وأفضل من bread and honey).

هكذا يكون الجمال الكلاسيكي لعسل النفل، في انسيابه سلساً، بطيئاً، وشفافاً، من الملعقة الصغيرة، ليُغرق قطعة خبز محبوبتي، المدهونة بالزبدة، بسائله الذهبي. وها هو لبّ الخبز منقوعاً بالرحيق.

«شيء حقيقي؟» سألها.

«برج» أجابته.

والدبور.

كان الدبور يتفحص طبقها، بجسمه الخافق.

«علينا أن نتذوق واحداً، لاحقاً» قالت آدا، «ولكن عليه أولاً أن يُتخم بالعسل ليصير طيب المذاق. طبعاً، لا يمكنه أن يلدغ لسانك. لن يلمس أي حيوان لسان إنسان. حين ينتهي أسد من التهام متجوّل في الغابة، وينتهي من عظامه وكل جسده، فإنه يترك لسانه متدلياً هكذا (قامت بحركة صغيرة) في الغابة.»

«أشك في صحة الأمر؟»

«إنه أمر غامض يعرفه الجميع.»

كان شعرها مسرّحاً بشكل جيد ومشرقاً ببريق قاتم، متبايناً مع شحوب ذراعيها وعنقها. ارتدت قميصاً مخططاً، لطالما تمنى في خيالاته المعذِّبة أن يقشره عن فاكهة جذعها الملتوي. كان غطاء الطاولة المشمّع ذا مربعات زرقاء وبيضاء. خيط عسل قد لطخ ما تبقى من الزبدة الطازجة في قعر الفخارة الخاصة بها.

«حسناً! وما هو الشيء الحقيقي الثالث؟»

نظرت إليه مطوّلاً. القطرة الذهبية المتوهجة العالقة فوق زاوية شفتيها، نظرت إليه. ثلاثة زهور ناعمة بلون البنفسج الذي رسمت به

لوحة في الأمسية السابقة، كانت أيضاً تنظر إليه عبر إنائها الكريستالي المخدّد. لم تقل شيئاً. لعقتْ أصابعها المدودة، واستمرت في التحديق في وجهه.

فان، الذي لم يتلقّ إجابة، قد غادر الشرفة. أما آدا، فقد رأت برجها ينهار بكل هدوء، في صمت الشمس الجميل.

١٣

خلال نزهة عيد ميلاد آدا الثاني عشر، الذي هو عيد «إيدا» أيضاً الثاني والأربعين، سُمح للطفلة بارتداء زي لوليتا (كما سمّاها الغجري الأندلسي الصغير في رواية أوسبرغ ويُلفظ الاسم بالإسبانية بتاء خفيفة Lolita، غير مشددة كما في الإنكليزيّة Lolitta) وهو عبارة عن تنورة سوداء طويلة ولكنها فضفاضة جداً، رسمت عليها بالأحمر زهور الخشخاش أو ربما هي زهور الفاوانيا، «لا تمتّ إلى الواقع النباتي بأية صلة»، كما أسهبت في التعبير عنها، ولم تكن تدرِ بعد، أن الواقع والعلوم الطبيعية، هما مرادفان لهذا الحلم، لهذا الحلم فقط.

(حتى أنت لم تفعل، أيها الحكيم فان. ملاحظة بخط يدها).

دخلت تنورتها عارية، وكانت قدماها لا تزالان مبللتين، تفوح منهما رائحة الصنوبر بعد فركهما بمنشفة خاصة (لا أحد يدري ما يمكن أن يجري خلال حمّامات الصباح تحت إشراف الآنسة لاريفيير) ثم هزّت ردفيها برشاقة لترفعها نحو الأعلى، الحركة التي تدفع آنستها دائماً لتوبيخها المألوف: (بالفرنسية): «لا تتهزهزي هكذا عند ارتداء تنورتك! بنات العائلات النبيلة لا .... إلخ». أما في المقابل، فإن إغفال ارتداء سروال داخلي، قد تغاضت عنه إيدا

لاريفيير، ذات الصدر العارم والجمال اللافت والمثير للاشمئزاز (ولم تكن في تلك اللحظة ترتدي إلا مشداً للجوارب)، والتي لم تكن تأنف من تقديم تنازلات سرية - هي أيضاً - أمام حرارة ذاك اليوم القائظ؛ ولكن في حالة آدا - الرقيقة والطازجة - كانت لتلك العادة عواقب غير حميدة. حاولت الطفلة تهدئة حِكّة فتحتها الطرية، مع كل ما يرافقها من أحاسيس رطبة ومزعجة تدعو للهرش، من خلال امتطائها لغصن غضّ من أغصان شاتال[1]، شجرة التفاح، وهذا أكثر ما يثير اشمئزاز فان، كما سنرى لاحقاً. إضافة إلى تنورة لوليتا، ارتدتْ قميص جيرسيه مخططاً بالأبيض والأسود، بأكمام قصيرة، قبعة عريضة (تتدلى وراء ظهرها بواسطة مطاط يلتف حول حنجرتها)، ربطة شعر مخملية، كما كانت تنتعل صندلاً قديماً. لم تكن مطلقاً مسألة النظافة ولا حتى مسألة الذوق الرفيع، كما لاحظ فان، مدرجة ضمن سمات قاطني آرديس المميزة.

ما إن أصبح الجميع مستعدين للبدء، قفزت آدا عن الشجرة كهدهد. «أسرعي أسرعي يا ملاكي يا عصفوري!». كان بِنْ رايت، المعلم الإنكليزي، لا يزال متماسكاً رصيناً (لم يتناول عند فطوره أكثر من نصف ليتر من الجعة الخفيفة). بلانش التي سبق لها أن حضرتْ نزهة كبيرة لمرة واحدة على الأقل (في ذلك اليوم الشهير حين هرعتْ نحو بينغلين، لفك حزام مشد الآنسة، التي أغمي عليها) كانت تؤدي واجباً أقلّ روعة، بحمل داك المزمجر والممتعض، إلى غرفتها الصغيرة في البرج.

سبق لعربة شاربانك أن نقلت إلى موقع النزهة، خادميْن، ثلاث

---

(١) تفاح شاتال: يقصد بـ«شاتال»، شط العرب، وقد أطلقت العائلة عليها هذا الاسم لكونها مستوردة من «متنزه عدن الوطني» في العراق. (مترجم)

أرائك، وعدداً من الأسبتة. الروائية، بفستانها الساتين الأبيض (خاطه الشهير فاس من مانهاتن لمارينا التي فقدت مؤخراً عشرة أرطال) قادت عربة تجرها الأحصنة إلى هناك، مع آدا جالسة بقربها، أما لوسيت التي بدتْ فائقة الجمال ببلوزة بحرية بيضاء، فقد جثمت بجوار رايت الكئيب. ركب فان إحدى الدراجات التي تعود لعمه أو ربما والد عمه. كان طريق الغابة سالكاً إلى حد ما، شريطة ألا يحيد عن المسار الأوسط. كان لا يزال موحلاً وأسودَ بعد فجر مطير، تحدّه من الجانبيْن صخور بلون زرقة السماء، مرقطة بانعكاسات أوراق البتولا ذاتها التي نشرت ظلالها فوق مظلة الآنسة لاريفيير المفتوحة، ذات القماش الحريري الصدفي المشدود، وفوق الحافة العريضة لقبعة آدا البيضاء الأنيقة. بين الحين والآخر، كانت لوسيت الجالسة إلى جانب بن Ben بمعطفه الأزرق، تنظر إلى فان وتومي له بباطن كفها بإشارات تحذيرية، كما رأت أمها تفعل مع آدا، حين خافت عليها من الاصطدام بالعربة التي كانت ابنتها وراءها على ظهر مهرها أو فوق دراجة.

وصلتْ مارينا على متن سيارة حمراء، من النمط البدائي الصغير جداً، يقودها كبير الخدم، ممسكاً بالمقود بحذر شديد، كما لو كان لولباً فلينياً خيالياً. بدت أنيقة على نحو غريب بالفانيلا الرمادية الخاصة بالرجال التي ارتدتها. وعندما وصلت السيارة، المتذبذبة قليلاً، إلى حافة موقع النزهة (فرجة في غابة صنوبر قديمة تتخللها وهدان ساحرة) كانت مارينا تجلس واضعة باطن كفها المغطى بالقفاز، فوق مقبض عصا مزيّن بحجر الجاد. من الجانب الآخر من الغابة، مرّت فراشة صفراء غريبة، بعد أن عبرت طريق لوغانو الترابي، ووصلت خلفها مباشرة عربة، قد ترجل منها على التوالي (برشاقة أو ببطء، تبعاً للحالة أو السنّ) توأم عائلة إرمينين، عمتهما

الشابة الحامل (ذلك النوع من الأشخاص الذي يثقل كاهل رواية ما) والسيدة فورستييه، المربية الشيباء، زميلة ماتيلدا في المدرسة، كما سيتبين في القصة المقبلة.

وعلاوة على ذلك، كان من المتوقع وصول ثلاثة سادة من الرجال، لكنهم لم يظهروا أبداً: العم دان الذي فاته قطار الصباح القادم من المدينة؛ العقيد إرمينين الأرمل، الذي أرسل مذكرة اعتذار متحجّجاً بكبده الذي يعمل «كمحارب من جيش البجانقة»[1]؛ وطبيبه (كما هو شريكه في الشطرنج)، الدكتور كروليك الشهير، وكان يدعو نفسه «الصائغ في بلاط آدا»، وقد أحضر هديتها بالفعل في صبيحة اليوم التالي - ثلاث خادرات يرقانات محفوظة بدقة («أحجار كريمة لا تقدّر بثمن» صاحت آدا بملء حنجرتها، رافعة حاجبيها دهشةً) كان قد خرج منها، قبل فترة طويلة، عيّنات مخيّبة للآمال من عثّة ichneumon، بدل فراشة Kibo Fritillary النادرة، والتي كانت قد اكتُشفتْ مؤخراً.

فطائر مكدسة طرية غير ملفوفة بورق (مستطيلات مثالية، خمسة إنشات بإنشيْن)، ديك حبش محمّر، خبز روسي أسود، جرار من كافيار Gray Bead[2] (الخرز الرمادي)، ملبّس بنفسجي اللون، فطائر صغيرة بالتوت البري، نصف غالون من نبيذ Goodson الأبيض، وآخر ياقوتي، ونبيذ أحمر داكن مضاف إليه ماء خاص بالفتيات، مسكوب في قوارير حافظة للحرارة، وشاي الطفولة السعيد، الحلو والبارد - يسهل تخيّل كل ذلك أكثر من وصفه. يا لها

(١) البجانقة: كانوا شعباً تركياً شبه بدوي من سهوب آسيا الوسطى يتحدثون اللغة البجناكية / البجناقية / البتشناقية التي انتمت لشجرة اللغة التركية. وكان محاربوهم معرفين بالغلظة والوحشية. (مترجم)

(٢) Gray Bead: نوعية فاخرة من الكافيار. (مترجم)

من معلومات مفيدة حقاً! [هكذا وردت في النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة. ملاحظة المحرر].

ومن المفيد أيضاً جلوس آدا فيين وغرايس إرمينين جنباً إلى جنب: بشرة آدا الحليبية منزوعة الدسم والشاحبة، بجوار بشرة صحية يتدفق الدم في أوردتها، تخص غرايس التي تماثل آدا عمراً؛ الأولى، لها شعر المشعوذات الأسود والطويل، والثانية شعرها كستنائي قصير؛ عينا محبوبتي الباهتتان ذاتا النظرة العميقة، وبريق أزرق يلمع وراء نظارة غرايس ذات الإطار الصدفي؛ فخذا الأولى العاريان، وجوارب الثانية، الحمراء الطويلة؛ ملابس غجرية وبزة بحرية؛ وما كان أكثر إفادة، ربما، مراقبة ملامح غريغ الواضحة، المنتقلة دون أن يمسها أي تغيير، إلى وجه أخته، ملامح أنثوية جميلة، لم يفسد التشابه تطابقها، كالتشابه بين صبي بحار ونسخته الأنثوية.

بقايا الحبش، النبيذ الأبيض الذي لم يمسّه أحد غير المربيات، وحطام طبق Sèvres[1]، سرعان ما تمت إزالتها من قِبل الخدم. ظهرتْ قطة من تحت أجمة، حدّقت بعينيْها تحت تأثير صدمة مفاجئة وشديدة، ورغم الجوقة التي انطلقت «بيس بيس بيس»، ولّت الأدبار واختفت في الغابة.

وصلنا إلى حين طلبت الآنسة لاريفيير من آدا مرافقتها إلى بقعة منعزلة. وهناك، قامتْ تلك السيدة، بكامل ملابسها المكدّسة، باستخدام فستانها الضخم كستار، وقد بقيتْ طياته سليمة ولكنها بدت وكأنها زادت واحدة، فصار أطول بإنش خافياً حذاءها، يخفي شلالها المنهمر، وبعد مرور دقيقة، عاد إلى طوله الطبيعي. في طريق

(١) Sèvres: أطباق فرنسية خزفية شهيرة وثمينة، يعود تأسيس مصنعها الذي يحمل الاسم ذاته إلى القرن التاسع عشر. (مترجم)

عودتهما، شرحت المربية الفاضلة، ذات النوايا الحسنة، لتلميذتها، أن احتفال الفتيات بعيدهن الثاني عشر، هو مناسبة لمناقشة أمر والتنبؤ به، وهذا الأمر، حسب ما قالت، سيجعل من آدا شابة ناضجة بين عشية وضحاها. ولكن آدا، وقد تلقّت معلومات كافية عن الموضوع منذ ستة أشهر، من قبل معلمة المدرسة، وخبرت السرّ الغامض مرتين قبل إجراء ذلك الحديث، قد فاجأت مربيتها المسكينة (التي لم ينفكّ ذكاء الفتاة الحاد والغريب يذهلها) أن الأمر برمّته ليس إلا هراءً وتخريفاً؛ وأضافتْ أنه بالكاد يحصل لفتيات عصرها العاديات، ومن المستحيل أن تكون هي واحدة منهن. الآنسة لاريفيير، والتي هي شخص واضح الغباء (على الرغم أو ربما بسبب ميلها للتأليف الروائي) استعرضتْ في ذهنها ذكريات تجربتها الأولى، وتساءلتْ، لبضع دقائق مروّعة، ما إذا كان تطوّر العلوم، خلال انغماسها في الكتابة، قد أخلّ بقوانين الطبيعة.

مالتْ شمس العصر في السماء، فانزلقت أشعّتها نحو أماكن جديدة لتضيئها، بعد أن تركت القديمة محمّصة. أخذت العمة روث إغفاءة بسيطة، واضعة رأسها فوق وسادة سرير صغيرة قدمتها إليها السيدة فورستييه، التي كانت تحيك ملابس صوفية صغيرة جداً، للأخ المستقبلي غير الشقيق لتلاميذها. تفكّرتْ مارينا ملياً بشأن السيدة إرمينين التي، بزرقة عينيها القاتمة، كانت تنظر إلى الأسفل من علياء نعيمها، نحو المتنزهين تحت الظلال الوارفة لشجرة الصنوبر الخضراء الرائعة، بنظرة ممزوجة بحكمتها القديمة وفضولها الطفولي الذي اكتسبته مؤخراً، خلال فترة نقاهتها المزعجة التي أعقبت محاولة انتحار. عرض الأطفال مواهبهم: رقصت كل من آدا وغرايس رقصة روسية على أنغام منبثقة من صندوق موسيقى قديم (بقي يتعثر عند منتصف اللحن، كما لو كان يتوقف ليتذكر شواطئ

أخرى، شموساً أخرى، وأمواجاً أخرى)؛ وضعت لوسيت قبضتها فوق وركها وغنّت أغنية صياد سان مالو[1]؛ ارتدى غريغ قميص أخته الأزرق، قبعتها ونظاراتها، وكل ما مكّنه من التحول إلى نسخة مريضة ومتخلفة عقلياً، عن غرايس؛ وسار فان على يديه.

قبل عامين، عندما كان على وشك أن يبدأ فترة سجنه في مدرسته الداخلية العصرية والوحشية في الوقت ذاته، والتي سبق أن ارتادها أكثر من شخص من آل فيين (في الماضي حين «كان الواشنطيون ويلينغتونيين»)، كان فان قد عزم على تعلّم بعض الحيل البهلوانية المثيرة للدهشة، ليحظى مباشرة بإعجاب المحيطين به وبتمايز لافت بينهم. بناء عليه، وبعد مشاورات أجراها مع ديمون، قام كينغ وينغ بتعليم الفتى القوي كيفية المشي على يديه من خلال تمرين خاص لعضلات الكتف؛ لم يتطلب اكتساب تلك المهارة وإتقانها أكثر مما تتطلب خلخلة تمثال كارياتيد[2].

يا لها من متعة! (كما ذكر في المخطوطة). متعة الاكتشاف المفاجئ لبراعته بأداء حركة الشقلبة تلك، كانت توازي تلك التي يشعرها إنسان تعلم، بعد كثير من السقوط المؤلم والمخزي، كيفية استخدام تلك الطائرات المبهجة، التي تسمى بالبساط السحري (jikker)، والتي كانت تقدم لطفل في عيده الثاني عشر، في غابر الزمن الذي غلبت عليه روح المغامرة، قبل «الحدث العظيم» - ويا لها من مداعبة طويلة وخاطفة للأنفاس، تلك التي خبرها الجد ديدالوس فيين، حين حمله الهواء للمرة الأولى، فتمكن من الطواف

(١) سان مالو: مدينة ساحلية في فرنسا. (مترجم)
(٢) تمثال كارياتيد: تماثيل نساء (كاريا) تقوم مقام الأعمدة الحاملة، في المعابد اليونانية. (مترجم)

فوق كومة قش، شجرة، جدول، حظيرة، بينما كان يطير وقد أدار وجهه نحو السماء، ملوحاً بعلم، لينتهي به الأمر ساقطاً في حوض صغير!

نزع فان عنه قميص البولو، ثم خلع حذاءه. نحول جذعه - الذي تتطابق سمرته مع لون سرواله الضيق، هذا إن لم يكن مع النسيج أيضاً - يتناقض والعضلتيْن المثلثتيْن الخاصتيْن بكتفَي الفتى الأنيق، المتضخمتيْن على نحو غير طبيعي، ومع ساعديه المفتوليْن. بعد مرور أربع سنوات، استطاع فان أن يطرح رجلاً أرضاً بضربة واحدة من كوعه.

كان جسده المقلوب منحنياً برشاقة، ساقاه الأسمران منتصبيْن كسارية في خليج تارانتو، كاحلاه المضمومان يطرقان بعضهما بعضاً، وبكفيْه المتباعدين، واعتماداً على الجاذبية، مشى فان على يديه جيئة وذهاباً، مغيراً الاتجاه بخفة في كل مرة، فاتحاً فمه بالمقلوب، غامزاً بعيْنيه بطريقة غريبة جداً، تزيد من غرابة وضعيته غير الطبيعية. ما بدا أكثر إعجازاً من تنوّع وسرعة الحركات التي قام بها أثناء تقليده لحركات القوائم الخلفية للعديد من الحيوانات، هو اللياقة العالية والسهولة بالأداء، التي لم تكلفه جهداً كبيراً. أخبره كينغ وينغ محذراً، أن فيكشيلو، وهو محترف من إقليم يوكون، قد فقد مهارته في الثانية والعشرين من عمره؛ ولكن في فترة العصر الصيفية تلك، وفوق الأرض الحريرية لحرش الصنوبر، في قلب آرديس السحري، وتحت زرقة عيني السيدة إرمينين، استطاع فان، ذو الأربعة عشر ربيعاً، أن يمتعنا بأجمل عرض قد رأيناه في كل حياتنا للمشي على الساعديْن. لم يعبق وجهه احمراراً ولا حتى عنقه. بين الحين والآخر، كان يفصل أعضاءه المتحركة عن جاذبية الأرض المتساهلة، ويصفق بكفَّيه في الهواء، كمحاكاة خارقة للقفز في رقص

الباليه. كان لجسده من الليونة ما يدفع مشاهده ليظن أنه في حلم، وليتساءل ما إذا كان هذا الوثب الرشيق ليس إلا نتيجة لسهو الأرض للحظة عن تملكها المستبد. بالمناسبة، واحدة من النتائج الغريبة لبعض التعديلات التي أصابت عضلات وعظام فان، بسبب التمرين الذي حمله عليه كينغ وينغ، هي أن فان قد فقد قدرته، بعد عدّة سنوات، على رفع كتفيه.

أسئلة للدراسة والمناقشة:

١- هل بدا فان حين كان يرفع كِلتا كفّيه ويبعدهما عن الأرض وكأنه «يقفز» بيديه، أثناء شقلبته رأساً على عقب؟

٢- هل كان عجزُ فان الناضج عن رفع كتفيه هو إعاقة محض فيزيائيّة أم أنه «يتطابق» مع بعض الطباع النمطية للاوعيْه؟

٣- لماذا انفجرت آدا بالبكاء عندما وصل آداء فان لذروته؟

وأخيراً، قامت الآنسة لاريفيير بقراءة La Rivière de Diamants (نهر الماس)، القصة التي كتبتها مؤخراً لمجلة The Quebec Quarterly. سيدة جميلة ومثقفة، زوجة موظف بائس، تستعير قلادة من صديقة لها ثرية، ويضيع منها حينما رافقت زوجها في طريق عودته من مكتب الحزب إلى البيت. وعلى امتداد ثلاثين أو أربعين سنة مهولة من الكدح والتوفير، استطاع الزوجان التعيسان إيفاء أقساط يصل مجموعها إلى نصف مليون فرنك، ثمن العقد الذي اشترياه سراً بدل الضائع، ليردّاه إلى علبة مجوهرات السيدة F. أوه، كيف خفق قلب ماتيلد - هل ستفتح جانين العلبة؟ لكنها لم تفعل. مضت السنون، والكرامة التي انتصرا لها لم تكلفهما مالاً فحسب، بل شباباً وعافية (هو أصبح نصف مشلول بعدما أمضى نصف قرن في الطباعة في عليّة البيت، وهي اخشوشن جمالها دون أن تدري أثناء عملها في غسل الأرضيات). ذهبا لمقابلة السيدة F، المحتفظة بجمالها وشبابها

رغم شيبها، والاعتراف لها بكل ما جرى، ولكن الأخيرة أخبرتهما، في آخر جملة من القصة: «ولكن، يا ماتيلد المسكينة! كانت القلادة زائفة، ولم تكلفني أكثر من خمسمائة فرنك!»

كانت مساهمة مارينا أكثر تواضعاً، لكنها لم تخلُ من السحر أيضاً. دلّت فان ولوسيت (الوحيدان بين الموجودين اللذان لا يعرفان) على شجرة الصنوبر المحدّدة والنقطة المحددة فوق جذعها الأحمر، حيث نُصب هاتف مغناطيسي في الزمان الغابر، الغابر جداً، وكان موصولاً بعزبة آرديس. بعد تحريم «التيارات والدارات» الكهربائيّة، كما قالت (لفظت تلك الكلمات غير اللائقة بسرعة ولكن بصراحة كما تفعل ممثلة وقحة - بينما قامت لوسيت التي بدت الحيرة على محياها، بشد قميص فان، صديقها فانيشكا، الذي يمكنه أن يفسر لها كل شيء لاحقاً) جدة زوجها، وقد كانت مهندسة يُشهد لها بالعبقرية، بتمديد كابل عبر جدول ريدمونت (ينبثق من تلة تعلو آرديس ويجري في حرش الصنوبر) وحمّلته كل الأسلاك الدقيقة الناقلة للاهتزاز، من خلال نظام شرائح البلاتين. وهذا ما أنتج بطبيعة الحال، رسائل باتجاه واحد، وكان تركيب وصيانة الطبول (الأسطوانات) ليكلّفا «ثروة يهوديّ»، فتمّ التخلي عن الفكرة، رغم كونها مغرية بإمكانية إخطار أي فرد من آل فين أن منزله يحترق، إن كان في نزهة.

عادت من عزبة آرديس السيارة الحمراء الصغيرة، بهدير محركها المزعج، كما لو أنها وصلت في تلك اللحظة لتؤكد سخط الناس على السياسات الوطنية والخارجية (يكاد غماليال العجوز أن يصبح أبله)، وترجل كبير الخدم حاملاً رسالة. وصل «السيد» مع هدية للآنسة آدا، ولكن لم يعرف أحد كيفية تشغيل ذلك الشيء المعقد، لا بد من الاستعانة بـ«السيدة». أخرج كبير الخدم الرسالة من علبة الجيب، وقدمها لمارينا.

لا يمكن إعادة صياغة كلمات الرسالة كما وردت، ولكننا عرفنا أن الهدية الثمينة جداً والمنتقاة بعناية كبيرة، هي عبارة عن دمية جميلة وضخمة - لسوء الحظ، وعلى نحو غريب، كانت عارية إلى حد ما؛ وأيضاً على نحو أكثر غرابة، الساق مدعمة بجهاز تقويم، والذراع ملفوفة بالضماد، وبدل صندوق ملحق بالفساتين المعتادة والأكسسوارات، كان هنالك صندوق مملوء بضمادات الجروح اللاصقة، وملحقات مطاّطية. لم يتمكن أحد من قراءة التعليمات الواردة بالبلغارية والروسية إذ إنها لم تكن مكتوبة بالأحرف اللاتينية بل السيريلية القديمة، الأبجدية الكابوس، التي لم يتوصل دان يوماً إلى تعلمها.

هلا سمحت مارينا بالعودة مباشرة من دون إبطاء لتأمر بخياطة ملابس مناسبة من بعض قصاصات الحرير الجميل الذي سبق أن جمعته خادمتها في درج اكتشفه مؤخراً دان بنفسه، ولتعيد لف الصندوق من جديد بمناديل ورقيّة جديدة؟

آدا التي كانت تقرأ الرسالة من وراء كتف أمها، هتفت وقالت: «أخبريه أن يمسك هذا الشيء بملقطيْن، ويحمله إلى مكب النفايات الجراحية!»

«Bednyachok! (يا للمسكين الصغير!)» قالت مارينا، بعينيْن مترعتيْن بالشفقة. «أنا قادمة بالطبع. قسوتك يا آدا، أحياناً، أحياناً، لا أعرف - تكون شيطانية».

خفّت مارينا في مشيتها مستعينة بعصاها، وكان وجهها ينتفض عصبيةً، واتجهت نحو السيارة التي بعد أن مشت انحرفت عن مسارها - لتفادي اصطدامها بالعربة المركونة - ودارت عجلاتها فوق زجاجة النصف غالون الفارغة، ثم تغلغلت في أجمة توت بري مزعجة.

سرعان ما تبدّد الغضب الذي كاد يبلغ السماء. طلبت آدا من مربيتها أقلاماً وأوراقاً. تمدد فان على بطنه، سانداً خديه بكفيه، وراح يتأمل عنق محبوبته المائل، وهي تلعب لعبة «إعادة ترتيب الأحرف»، مع غرايس التي اقترحت بكل براءة كلمة insect (حشرة).

«Scient (عالِم)»، قالتْ آدا، ثم دونت الكلمة.

«أوه لا!» اعترضت غرايس.

«ولكن بلى! أنا متأكدة من وجود كلمة كهذه. يُقال "Scient" كبير. دكتور "Entsic" يكون "Scient" كبير».

تأملت غرايس، ضاربة فوق جبينها المتجهم بالممحاة في طرف قلم الرصاص، ثم توصلّت إلى:

«Niceset! (الأجمل).»

«Incest! (سفاح المحارم)»، ردّت آدا على الفور.

«أعلن استسلامي» قالت غرايس، «نحتاج إلى قاموس لنتحقق من تأليفاتك الصغيرة».

كان توهج فترة ما بعد الظهر قد دخل في أشدّ مراحله، ودوى صوت الصفعة التي قتلت بها لوسيت أول بعوضة في الموسم، طاب لها أن تحطّ على ساق آدا.

كانت عربة الشاربانك قد رحلتْ مع الأرائك، الأسبتة وكل من إيسيكس، ميدليسيكس، وسوميرست، الخدم الذين كانوا لا يزالون يمضغون الأطعمة الشهية؛ ثم بدأت الآنسة لاريفيير والسيدة فورستييه بتبادل وداع إيقاعي؛ لوّحت الأيادي، وحملت عربة اللاندو نحو البعيد التوأم مع مربيتهما العجوز، وعمتهما الشابة النعسة. لحقت بهنّ فراشة بأجنحة شفافة شاحبة وجسم أسود حالك، لمحتها آدا وهتفت: «انظر!»، ثم أوضحت أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفراشة

Japanese Parnassian. فجأة، قالت الآنسة لاريفيير إنها ستتخذ اسماً مستعاراً عند نشر القصة. اتجهت نحو العربة مع تلميذتيْها الجميلتيْن، حيث وجدت بن رايت نائماً في المؤخرة تحت الأغصان المورقة المنخفضة التي كانت تظلّله، فلكزت عنقه الأحمر الثخين - من دون أي تكلفة - برأس مظلتها الشمسية. رمتْ آدا قبعتها في حضن إيدا ثم ركضتْ نحو الوراء حيث وقف فان. وبما أنه لم يكن على دراية تامة بمسار الشمس والظلال في تلك البقعة من الغابة، فقد ترك دراجته تتلظى تحت أشعة الساعات الثلاث الأخيرات. وحين جاءت آدا لتركبها، أطلقت صرخة ألم مدوّية، كادت تقع، ترنحت، ثم كبحت الفرامل - وفرقعت العجلة الأمامية منفجرة، بطريقة كوميدية. تُركت الدراجة المهزومة تحت شجيرة، ليجلبها لاحقاً بوتييان الابن، شخصية أخرى من شخصيات خدم المنزل. رفضتْ لوسيت التخلي عن مجثمها (ثم أومأت موافقة، بناء على نصيحة رفيق رحلتها السكران بن الذي داعب ركبتَي الفتاة العاريتيْن، بلمسة ودّية)؛ وبما أنه لم يكن هناك مقعد إضافي، وجدت آدا نفسها مضطرة لقبول جلوسها في حضن فان الصلب.

كان ذلك الاحتكاك الجسدي الأول بين الطفليْن، وكان كلاهما محرجيْن. جلستْ ظهرها لفان، ثم عادت لتستقر في مكانها بعد أن مالت العربة، نفضتْ تنورتها العابقة برائحة الصنوبر، وأعادت نشرها لتبدو وكأنها تحتويه بفضفضتها، «تماماً تماماً» كما تفعل مريلة الحلاقة. مأخوذاً بنشوة ابتهاجه المحرجة، أمسكها من وركيْها. تحركت بقع من ضوء الشمس سريعاً فوق سترتها المخطّطة بالأبيض والأسود، وظاهر ذراعيها العاريتيْن، وشعر فان أنها ستكمل رحلتها وصولاً إلى نفقه المعتم.

«لماذا بكيت؟» سألها، مستنشقاً عبير شعرها وحرارة أذنها.

التفتت برأسها نحوه للحظة وحدّقت في وجهه عن كثب، بصمت خفيّ ومتواطئ.

(هل فعلت؟ لا أعرف - لقد أزعجني الأمر بطريقة ما. لا يمكنني شرح ذلك، ولكني شعرت بوجود شيء مخيف، وحشي، غامض، و، أجل مخيف، كان الأمر برمّته مرعباً. ملاحظة لاحقة).

«أنا آسف» قال رامياً بصره بعيداً، «لن أكرر الأمر بوجودك ثانية.»

(بالمناسبة، أنا أكره عبارة «تماماً تماماً». ملاحظة أخرى لاحقة بخط آدا).

بكل شعرة في جسمه، كان الفتى المترع بدم يغلي، يتلذّذ باستجابة وزنها للمطبّات التي تجاوزتْها العربة، إذ كان جسمها يرتفع بطراوة ثم يعود ليضغط فوق ثمرة اشتهائه التي عرف فان أن عليه ضبطها خوفاً من نزّ محتمل، قد يربك براءة الطفلة. ومع ذلك، كاد يسمح لفرائص الحيوان الذائب في داخله أن ترتخي لولا أن خاطبته مربيتها في اللحظة المناسبة، منقذة للموقف. أزاح فوراً المسكين فان مؤخرة آدا نحو ركبته اليمنى، مثبطاً بتلك المناورة ما كان يُطلق عليه في بيوت التعذيب «زاوية سكرات الموت». لم يمنعه كدر رغبته التي لم تكتمل من مراقبة الأكواخ الخشبية الفقيرة المنتشرة هنا وهناك، بينما كانت العربة تعبر قرية غامليت.

«لم أتوصل يوماً (يا جميلي)» قالت الآنسة لابارور[1]، «لاستيعاب هذا التناقض بين بذخ الطبيعة وبؤس البشرية. انظر إلى اهتراء قميص هذا القروي العجوز، انظر إلى كوخه البائس، وانظر

(١) السيدة لابارور: الاسم الحقيقي للشخصية الواردة في قصة «موباسان». (مترجم)

إلى رشاقة هذا السنونو! يا لسعادة الطبيعة! يا لتعاسة الإنسان! لم يخبرني أي منكما كيف وجد قصتي! فان؟»

«إنها قصة خرافية جيدة»، قال فان.

«إنها قصة خرافية»، قالت آدا الحذرة.

«كفاكما!» صاحت الآنسة لاريفيير، «على العكس - كل تفصيل في القصة هو واقعي - فهي تعكس معاناة صغار البرجوازيين، بكل مشاكلهم الطبقية، أحلامهم الطبقية وأيضاً غطرستهم الطبقية».

(صحيح؛ ربما كان ذلك حقاً هو مقصدها - بغض النظر عن الخلل القاتل؛ ولكن تلك القصة تفتقر إلى الـ«واقعية»، بالمعنى الحقيقي للمصطلح، إذ إن أي موظف صغير، حريص واقتصادي، قبل كل شيء، وبأية طريقة ممكنة، حتى لو اضطر أن يعترف للأرملة، كان ليسأل عن القيمة الحقيقيّة للقلادة المفقودة. هنا يكمن الخلل في عمل لاريفيير المثيرة للشفقة، ولكن فان وآدا بعمريهما آنذاك، لم يتمكنا من التقاط تلك النقطة والتعبير عنها رغم أنهما شَعَرا غريزياً بزيف القصة برمّتها). ارتجّ مقعد السائق قليلاً. التفتتْ لوسيت نحو آدا وقالت:

«أريد ان أجلس معك (Mne tut neudobno, i ot nego nehorosho pakhnet) لست مرتاحة هنا، كما أن رائحته كريهة.»

«سنصل خلال لحظات» ردّت آدا بحسم، «اصبري قليلاً poterpi!»

«ماذا يجري هناك؟» سألت الآنسة لاريفيير.

«لاشيء. إن رائحته نتنة وحسب.»

«يا للهول! بدأت أشكّ حقاً إن كان قد عمل يوماً في خدمة الراجا[1] كما يدعي.»

---

(١) خدمة الراجا: اعتاد الخدم أن ينادوه بـ«بين البنغالي». (مترجم)

١٤

في اليوم التالي، أو الذي تلاه، كانت العائلة بأسرها مجتمعة في الحديقة لتناول الشاي مع بعض الأطعمة الخفيفة. لم تنفك آدا، الجالسة فوق العشب، تحاول صنع طوق للكلب من زهور الأقحوان الأبيض، بينما استمرت لوسيت بمراقبتها، بينما كانت تمضغ الكعك. بقيت مارينا لما يقارب دقيقة كاملة، دون أن تتذمر بكلمة، مادةً ذراعها فوق الطاولة نحو زوجها، لتناوله قبعة القش الخاصة به؛ حدج الشمس التي ردت عليه بالمثل ثم انسحب، مع كوب شاي وصحيفة Toulouse Enquirer (محقق تولوز)، نحو مقعد ريفي، في الجانب الآخر من الحديقة، تحت شجرة دردار عملاقة.

«أتساءل من تراه يكون هذا؟» همست الآنسة لاريفيير من وراء السماور (الذي انعكستْ فوق طلائه اللامع، كِسَرٌ لصور كل ما حوله، بأسلوب بدائيّ لا يخلو من الخيال) في حين أمالت بنظرها من طرف شق جفنها، إلى ممر العربات المرئي بين الأعمدة، أما فان، المستلقي منبطحاً خلف آدا، فقد رفع عينيه عن كتابه (نسخة آدا من آتالا[١]).

(١) آتالا: رواية لـ شاتوبريان الكاتب والروائي الفرنسيّ (١٧٦٨-١٨٤٨). (مترجم)

شاب متورّد البشرة، يرتدي بزة ركوب خيل أنيقة، ترجّل عن مهر أسود.

«إنه مهر غريغ الجديد الجميل»، قالت آدا.

غريغ، مع كل الاعتذارات التي يتربى أبناء العائلات الكريمة على الادلاء بها، أعاد لمارينا ولاعتها الفضية التي اكتشفت عمته وجودها في حقيبتها بعد عودتها من النزهة.

«يا إلهي! لم يتسنّ لي الوقت لتفقّدها. كيف هي روث؟»

قال غريغ إن كلاً من العمة وغرايس قد أصيبتا بعسر هضم حاد - «ليس بسبب شطائرك الرائعة» استطرد مضيفاً، «بل بسبب توت العلّيق الذي قطفتاه من الأجمات.»

كانت مارينا على وشك أن ترن جرسها البرونزي بغرض أن تأمر الخادم بإحضار المزيد من الخبز المحمّص، ولكن غريغ اعتذر بحجة أنه في طريقه لحضور حفلة عند الكونتيسة دو براي.

«سرعان ما وجدت عزاءها» أبدت «مارينا ملاحظتها، ملمحة إلى موت الكونت مقتولاً بمسدس مبارزة، في متنزه Boston Common قبل عامين.

«إنها امرأة فاتنة جداً وأنيقة»، قال غريغ.

«وتكبرني بعشر سنوات»، أضافت مارينا.

ثم توجهت لوسيت إلى أمها مطالبة باهتمامها:

«أمي، ماذا تعني كلمة يهود؟»

«مسيحيون منشقون»، أجابت مارينا.

«ولماذا غريغ يهودي؟»، سألت الطفلة.

«لماذا - لماذا!» قالت مارينا، «لأن أهله يهود.»

«وأجداده؟ وأجداد أجداده؟»

«أنا حقاً لا أعرف يا حبيبتي. هل كان أجدادك يهوداً يا غريغ؟»

«حسناً، لست متأكداً»، قال غريغ، «عبرانيون بالتأكيد - وليسوا يهوداً بالمعنى الضيّق - أعني ليسوا شخصيات كوميدية ولا رجال أعمال مسيحيين. قدموا من طارطاريا إلى إنكلترا منذ خمسة قرون. ورغم ذلك، كان جدّ والدتي ماركيزاً فرنسياً يعتنق، حسب علمي، العقيدة الرومانية، وكان مهووساً بالمصارف والمجوهرات والأسهم، ولهذا السبب أعتقد أن الناس كانوا يدعونه باليهودي.»

«بكل الأحوال» قالت مارينا، «لا أعتقد أنها ديانة قديمة جداً، أعني بالنسبة لبقية الديانات، أليس كذلك؟» ثم التفتت إلى فان مع نوايا خفية بتحويل الحديث إلى الهند حيث كانت هي نفسها هناك، راقصة شابة، قبل أن يظهر موسى بزمن طويل، أو حتى أن يُخلق أي إنسان في مستنقع اللوتس.

«ومن يأبه لذلك؟»، قال فان.

«وماذا عن Belle (كما تنادي لوسيت مربيتها) أهي أيضاً مسيحية ضالة؟»

«فيمَ يهم ذلك؟» صرخ فان، «من يأبه لكل تلك الأساطير البالية؟ ما المهم في الأمر؟ جوبيتر أو يهوه، قبة مستدقة أو مقببة[1]، جوامع في موسكو، رهبان مسيحيون أو بوذيون، ماذا يعني رجال الدين، والأضرحة، أو الجِمال التي تعبر الصحارى؟ كل ذلك مجرد غبار وسراب في صحراء العقل الجمعي الطائفي.»

«كيف بدأت هذه المحادثة الغبية؟» تمنت آدا لو تعلم، متلفتة يمنة ويسرة نحو كلبها الذي لم تنتهِ من تزيينه بعد.

«Mea culpa (الذنب ذنبي)» أوضحت الآنسة لاريفيير بنبرة

(١) قبة مستدقة أو مقببة: بروتستانت أو كاثوليك. (مترجم)

تحمل الإحساس بإهانة كرامتها. «كل ما قلته أثناء نزهتنا، إن شطائر لحم الخنزير ربما لن تروق لغريغ، لأن اليهود والطرطاريين لا يأكلون لحم الخنزير.»

«إن الرومان» أجاب غريغ، «الرومان الذي صلبوا وعذبوا اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، كما صلبوا المجرمين أمثال باراباس وغيرهم من الناس سيئي الحظ، هم أيضاً لم يلمسوا لحم الخنزير مطلقاً، ولكني بالتأكيد قمت بذلك، كما فعل أجدادي السابقون.»

سمعتْ لوسيت من غريغ فعلاً ما لم تفهم معناه مما أوقعها في حيرة. حاول فان أن يشرحه لها بطريقته، فضمّ كاحليْه، مدّ كلتا ذراعيْه أفقياً، وقلب عينيْه.

«عندما كنت فتاة صغيرة» قالت مارينا مستاءة، «كان التاريخ الميزوبوتامي[1] يُدرّس فقط في فترة الحضانة.»

«ليست كل الفتيات مؤهلات ليتعلمن ما يتم تدريسه»، أدلت آدا بملاحظتها.

«أنحن ميزوبوتاميون؟» سألت لوسيت.

«كلا، نحن هيبوبوتاميون[2]» قال فان. «هيا تعالي!» أضاف، «حتى أننا لم نقم بحراثتنا اليوم.»

قبل يومين أو أكثر، كانت لوسيت قد طلبت منه أن يعلمها المشي على ذراعيها. أمسكها فان من كاحليْها، في حين بدأت تتقدم ببطء على كفّيها الحمرواين الصغيرتيْن. بين الحين والآخر، كانت تقع على وجهها ناخرة، أو تتوقف لتقضم أقحوانة. زمجر الكلب محتجّاً.

---

(١) الميزوبوتامي: التاريخ الخاص ببلاد الرافدين. (مترجم)

(٢) هيبوبوتاميون: من "hippopotamus" هو فرس النهر. (مترجم)

«ومع ذلك» قالت الآنسة لاريفيير المتجهمة بصوتها الحساس، «فقد قرأت لها مرتين القصة التي اقتبستْها سيغور[1] عن مسرحية شكسبير والتي تحكي قصة المرابي الشرير.»

«كما أنها تعرف» أضافت آدا، «مشهد مونولوج الملك المجنون للكاتب نفسه، وكنت قد أجريتُ عليه بعض التعديلات»:

هذه الحديقة الجميلة تزهر في أيار
ولكنها في الشتاء
أبداً أبداً أبداً أبداً أبداً
ليست بخضراء، ليست بخضراء، ليست بخضراء،
ليست بخضراء، ليست بخضراء.

«أوه هذا عظيم»، هتف غريغ مع تنهيدة إعجاب حقيقيّة.

«لا تجهدا نفسيكما لهذه الدرجة!» صرخت مارينا متوجهة إلى فان ولوسيت.

« Elle devient pourpre، إن لونها يتحول إلى قرمزي»، علّقت مربيتها. «أؤكد لكم أن تلك التمارين البدنية ليست جيدة بالنسبة لها.»

كان فان، بعينيْه المبتسمتيْن، يمسك بذراعيه الملائكيتيْن، مشطَي ساقَي الطفلة اللذيْن أصبح لونهما كحساء الجزر البارد، وكان وكأنه يفلح الأرض، بينما لعبت لوسيت دور المحراث.

تدلى شعرها الأشقر فوق وجهها، وبدا سروالها الأبيض من تحت حاشية ثوبها، ولكنها استمرت في حثّ الفلاح على متابعة عمله.

---

(١) الكونتيسة دي سيغور (١٧٩٩-١٨٧٤) أديبة روسية المولد فرنسية الثقافة، ورائدة قديرة في مجال أدب الأطفال. أما شخصية المرابي فهي في مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير. (مترجم)

« Budet ،Budet، توقفا! يكفي لهذا اليوم!»، قالت مارينا لفريق الحراثة.

أنزل فان ساقيها فوراً بكل رقة، وسوّى فستانها. تمددت للحظات، لاهثة.

«أعني، يسعدني حقاً أن أعيرك إياه لتمتطيه لجولة في أي وقت ترغبين، وقدر ما تشائين، هلّا فعلت يا آدا؟ كما أن لدي مهراً آخر، وهو أسود اللون أيضاً.»

لكنها هزت رأسها بعناد، هزت رأسها المنحني، واستمرت في حبك طوق الأقحوان.

«حسناً» قال أثناء نهوضه، «عليّ المغادرة. إلى اللقاء جميعاً، إلى اللقاء يا آدا. أليس والدك من يجلس تحت شجرة السنديان تلك؟»

«ليست سنديانة إنها دردار»، قالت آدا.

نظر فان خلال المرج وقال، كما لو كان يستلهم شعراً - أو ربما مجرد لمسة خفيفة لاستعراض صبياني:

«أنا أيضاً أرغب في إلقاء نظرة على الجريدة بعد أن ينتهي منها عمي. كان عليّ أن ألعب لمصلحة فريق مدرستي في مباراة الكريكيت التي جرت بالأمس. فيين مريض، لا يمكنه التسديد، نشرتْ الـ Riverlane الخبر، بكل تواضع.»

١٥

بعد ظهر أحد الأيام، تسلّق كل من آدا وفان شجرة التفاح «شاتال»، ذات الأغصان المورقة واللامعة، في الجزء الخلفي من الحديقة. لوسيت والآنسة لاريفيير، وراء ستار من الشجيرات، يحجب رؤيتهما ولا يمنع أصواتهما، كانتا هناك أيضاً، تلعبان لعبة الطارّة والعصا. من خلال أوراق الشجر، كانا يلمحان بين الحين والآخر طارّة تتدحرج قد قذفتها عصا غير مرئيّة، نحو أخرى. لم يتوقف أول زيز في الموسم عن دوزنة آلته. سنجاب من "skybab"(١) مخطط بالأبيض والأسود، كان فوق ظهر مقعد في الحديقة، يفحص عينات من الأكواز المرمية فوقه.

تمكن فان، ببزته الرياضية الزرقاء، أن يتسلق نحو الأغصان المتفرعة، تحت رفيقته الرشيقة بالضبط (التي كانت بطبيعة الحال، أكثر منه دراية بخريطة الشجرة المتشابكة) وبما أنه لم يكن قادراً على رؤية وجهها، فقد استدل على طريقة تواصل صامتة، بإمساك كاحلها برأسيْ إبهامه وسبابته، كما لو كان يلتقط فراشة مغلقة الأجنحة؛ انزلقت قدمها العارية، وتشابك جسدا الشابين اللاهثيْن بين الأغصان

(١) Skybab: تلميحاً إلى Kaibab، وهي غابة كايباب الوطنية في آريزونا.

بصورة مشينة، فأمسكا ببعضهما تحت انهمار الأوراق والثمار، وفي اللحظة التالية، بعد أن استعادا شيئاً من التوازن، وبوجه خال من التعابير، وجد رأسه الحليق بارزاً بين ساقيها. سقطت آخر ثمرة محدثة دوياً - كسقوط نقطة علامة تعجب مقلوبة. كانت تضع ساعة يده، وترتدي فستاناً قطنياً.

(«أتذكرين؟»

«طبعاً أذكر: لقد قبّلتني هنا، في الداخل ـــ»

«وأنت لم تتوقفي عن خنقي بركبتيك الشيطانيتيْن ـــ»

«كنت أبحث عن دعامة ما»)

قد يكون هذا صحيحاً، ولكن في رواية أخرى لاحقة (بعد زمن طويل) كانا لا يزالان في الشجرة، ولا يزالان في توهجهما، حين أزال فان عن شفته خيط شرنقة حريري، وانتبه إلى إهمال آدا لارتداء ملابسها، مشيراً إلى أن الأمر هيسيتري.

«على كل حال» أجابت آدا، ممتطية غصنها المفضل، «كما نعلم جميعنا الآن، فإن الآنسة لاريفيرر دو ديامون ليس لديها أي موقف ضد فتاة هيستيرية صغيرة، لا ترتدي سروالها في حرّ الصيف القائظ.»

«أرفض أن تشاركني شجرة تفاح بوهج جسدك القائظ.»

«إنها حقاً شجرة المعرفة - تم استيراد تلك العينة ملفوفة بالديباج من 'متنزه عدن الوطنيّ'، حيث يعمل ابن الدكتور كروليك كحارس ومربّي.»

«فليحرس وليربِّ كما يحلو له!» قال فان (كانت علوم آدا عن التاريخ الطبيعي قد بدأت تستفز عصبيته) «ولكني أقسم أن لا شجر تفاح في العراق.»

«هذا صحيح، ولكن هذه ليست بشجرة تفاح حقيقية.»

«هناك في هذه الرواية ما هو صحيح وهناك ما هو خطأ» كتبت آدا في تعليقها، وأيضاً بعد مضي زمن طويل: «لأنك حتى في تلك اللحظة، لم تكن لتسمح لنفسك بقبول جواب بديهي مبتذل. في ذلك العصر، الفرصة وحدها، وهي أكثر الفرص احتشاماً، هي ما سمح لك أن تسرق، كما يقولون، قبلتك الأولى الخجولة. أوه يا للعار! كما أنه لم يكن هنالك متنزه وطني في العراق منذ ثمانين سنة». «أجل هذا صحيح»، قال فان، «كما أن العثّات لا تتكاثر فوق تلك الشجرة في بستاننا»، «وهذا أيضاً صحيح يا حبيبتي، التي غادرت شرنقتها». كان التاريخ الطبيعي يُدعى بتاريخ الماضي، آنذاك).

احتفظ كلاهما بدفتر لليوميات. بعد فترة وجيزة من بداية معرفتهما التي تنذر بالكثير، حدث أمر مسلٍّ. كانت آدا في طريقها إلى منزل كروليك مع صندوق مليء بفراشات قد فقست حديثاً ومخدَّرة بالكلوروفورم، فمرّت من خلال بستان، وفجأة توقفت وبدأت السباب chort! (اللعنة). في اللحظة ذاتها، كان فان في الاتجاه المعاكس يتهيأ لجولة من التدريب على الرماية في جناح قريب (حيث كان هناك مسار للبولينغ ومرافق ترفيهية أخرى، اعتاد أفراد آل فيين أن يرتادوها كثيراً) وفجأة، وباستدراك مفاجئ، تسمّر في مكانه. ثم، وبمحض صدفة لطيفة، عاد الاثنان أدراجهما إلى المنزل ليخبئا دفترَي يومياتهما، بعد أن ظنّ كل منهما أنه قد ترك دفتره مفتوحاً في غرفته نومه. آدا التي خشيت فضول لوسيت وبلانش (لا تشكل الخادمة أي تهديد، لأنها - بشكل مرضي - تفتقر إلى روح المراقبة)، اكتشفت أنها كانت مخطئة - كانت قد أخفت الدفتر بآخر التعديلات التي أجرتها عليه قبل مغادرتها للمنزل. كان فان يعلم أن لدى آدا حب التلصص، ولكنها بلانش من وجدها في غرفته، تتظاهر بترتيب السرير، وفوق طاولته، كان دفتر اليوميات

مفتوحاً. رماها من الخلف بصفعة خفيفة، ثم نقل الدفتر ذا الرباط الجلدي، إلى مكان أكثر أماناً. ثم التقى فان بآدا في الممر، حيث، كان من الممكن أن يقبّلها، في مرحلة سابقة من تطور الرواية في تاريخ الأدب، إذ قد يكون ذلك تتمة صغيرة وأنيقة لحادثة شجرة التفاح. ولكن، عوضاً عن ذلك، استأنف كل منهما طريقه المنفصل - وذهبت بلانش، كما أفترض، لتستأنف بكاءها في كوخها.

١٦

كانت أولى مداعباتهما الصريحة والمحمومة، مسبوقة بحيل غريبة وتسلل خفي. كان فان هو الآثم المقنّع، ولكن تساهل آدا السلبي بدا كاعتراف ضمني، يفضح شخصيتها الشبقة والوحشية في الوقت ذاته. بعد بضعة أسابيع، كان كلاهما يساهم في مرحلة المغازلة تلك، بتنازلات مسلية؛ ومع ذلك فإن المخاوف الضمنية المزامنة لتلك المرحلة، قد أربكتْ آدا وزادت في كرب فان - لسبب أساسي وهو إدراكه التام لسبب حيرتها.

لم تكن آدا من نوع الفتيات التي يمكن إخافتها بسهولة، كما أنها يصعب إرضاؤها - («أنا مهووسة بكل ما يزحف»)، ورغم أن فان لم يتوصل ضمن أي فرصة متاحة، ليلاحظ أدنى انفجار لثورة العذرية لديها، إلا أنه اعتمد على حلمين بغيضيْن، أو ربما ثلاثة، ليتخيلها في حياة حقيقية، أو حياة جادة على الأقل، تتراجع فجأة عن شهوة جسده الملتهب، ترميه بنظرة متوحشة، ثم تتركه لعذابه بينما تستدعي مربيتها أو والدتها أو خادماً عملاقاً (غير موجود أساساً في البيت ولكنه في الحلم جاهز للقتل - يضع بين أصابعه برجمة حادة جاهزة بدورها للّكم، يكاد الدم ينفجر من وجهه كمثانة مثقوبة) ليعلم بعد ذهابها أنه سيُطرد من آرديس -

(بخط آدا: أنا أعترض وبشدة على كلمة «يصعب إرضاؤها». إنه وصف غامض من حيث الشكل، وكاذب في جوهره. ملاحظة فان الهامشية: أعتذر يا قطتي؛ لن أمحوها.)

- ولكنه حتى حين أجبر نفسه على السخرية من تلك الصورة بغرض طردها من وعيه، لم يكن فخوراً بسلوكه: الأشياء التي قام بها، طريقته بالقيام بها، المتع السرية التي اختلسها، كل ذلك بدا له وكأنه يخدع آدا ويستغل براءتها، أو يحثّها لتخفي عنه، هو الذي يخفي كل رغباته، انتباهها لما يخفيه.

بعد أن تمّ الاحتكاك الأول، الصامت والطفيف، بين شفتَي المراهق الناعمة وبشرتها الأنعم - في أعلى الشجرة المرقطة بأشعة الشمس، على مرأى من السنجاب الأريزوني الضال، الذي كان يتجسس عليهما - لم يتغير شيء، بل تبدد كل ما قبله، ليصير لتلك الملامسات نسيج جديد وخاص؛ الإحساس اللمسي هو بقعة عمياء، وكأننا نلمس خيالاً. ابتداءً من ذلك الاتصال، وفي لحظات معيّنة من أيامهما التي لم تعد بريئة، في بعض الظروف المتكررة من الجنون المسيطر عليه، نشأت علامة سرية، ورُسم ستار ما بينهما ـــ

(آدا: لقد اختفوا تقريباً من آرديس[1]. فان: من؟ أوه فهمت)

ـــ لم تتم إزالته إلا بعد أن تخلص فان مما أوصلته ضرورة الإخفاء إلى مستوى حكة مهينة وشقيّة.

(آخ! فان!)

لم يستطع أن يقول بعد ذلك، حينما ناقش معها ذلك الفحش المثير للشفقة، إنه إما كان حقاً خائفاً، من انفجار غضب *avournine* أي حلوته (كما كانت بلانش تشير إلى آدا برطانتها الفرنسية السيئة)

---

(١) اختفوا من آرديس: الحديث عن البعوض. (مترجم)

إذا كشف لها عن رغبته الفاضحة، سواء كان غضباً حقيقياً أو مدّعى، وإما أن اعتبارات الحشمة والشفقة قد أملت ذلك التقرب المتحايل الكئيب، من طفلة ما زالت عفيفة، وتملك من السحر ما يكفي لإقناعه بعدم تذوقه سراً، وما يكفي لإخافته من انتهاكه علناً؛ ولكن حدث خطأ ما - وهذا ما لا شك فيه البتة. إشكالية المبالغة في استعراض الحشمة ضمن الأماكن العامة - والتي كانت سائدة منذ ثمانين سنة، إضافة إلى التفاهة غير المحتملة في تقديم خجل العشاق ضمن الروايات العاطفية آنذاك، كل تلك الأساليب، وكل تلك المزاجية، كانت، بلا شك، وراء تحايل كمائنه، ومواربة تغاضيها. لم يبق أي سجل يذكر اليوم الصيفي المحدد، الذي دشّن فيه فان مغازلاته الحقيقية والحذرة؛ ولكن في الوقت ذاته، وعند استشعارها في لحظات معينة، بوقوفه المشبوه وراءها، بأنفاسه الملتهبة ورطوبة شفتيه اللزجتين، كانت مدركة أن هذا التقارب الغريب والصامت سبق له أن بدأ من زمن طويل، في ماض مجهول ومستمر، وليس بإمكانها أن توقفه، من دون التسليم لذلك التواطؤ الضمني، لقبولها بتكرار ما اعتادا على ممارسته في الماضي.

في لظى فترات بعد ظهر شهر يوليو، كان يحلو لآدا الجلوس في غرفة الموسيقى المشمسة، فوق كرسي البيانو البارد المصنوع من الخشب المصدّف بالعاج، إلى طاولة يغطيها مشمع أبيض تضع فوقها أطلسها النباتي مفتوحاً، ثم تنسخ بالألوان فوق ورقة قشدية ملساء، زهرة ما. قد تختار، على سبيل المثال، زهرة أوركيد على شكل حشرة ما، وتعرف، بمهارة ملحوظة، كيف تضاعف حجمها أثناء الرسم، أو قد تجمع بين صنف وآخر (لا وجود له في الوثائق ولكنه محتمل)، مدخلة عليه تغييرات وتحريفات طفيفة ولكن غريبة، تبدو مرضية المنشأ، صادرة عن مخيلة طفلة ترتدي ملابس شبه عارية.

دخل شعاع طويل ومائل من النافذة الفرنسية وألقى بوهجه فوق الكأس المضلّعة، ومائها الملون وفوق صفيح علبة الألوان - وبينما كانت، ترسم بدقة وتركيز عاليين جداً، بؤبؤ عين أو فص شفة، كانت تفتل طرف لسانها المشدود نحو زاوية فمها، وتحت اشتداد الشمس، كان شعر الطفلة الرائع، الأسود-الأزرق-البني، ومع كل التفاتة منها، يحاكي برعم مرآة فينوس[1]. كان ثوبها رقيقاً، فضفاضاً ومفتوحاً من الخلف حتى آخر ظهرها، بحيث إنها كلما قوسته، هازّة كتفيها البارزتيْن، ومميلة برأسها جانبياً (عندما بطرف أصابعها تمسك الريشة بتوازن وتتأمل إنجازها الرطب، أو عندما تمسح بباطن رسغها الأيسر، خصلة شعر تغطي صدغها) استطاع فان، الذي اقترب من مقعدها على قدر ما سمحتْ له جرأته، أن ينظر أسفل اعوجاج ظهرها الحريري الواصل حتى العصعص، وأن يستنشق دفء جسدها كله. بقلبه الخافق، ويده البائسة المنغمسة في عمق جيب سرواله - حيث احتفظ بمحفظة تحوي نصف دزينة قطع نقدية ذهبية من فئة عشرة دولارات لتخفي حالته - كان ينحني فوقها كلما انحنت فوق لوحتها، مطلقاً العنان لشفتيه المتعطشتين أن تتجولا، بكل رقة، أسفل شعرها الدافئ، ومؤخرة عنقها الحامية. كانت الأحاسيس الأحلى، الأقوى، والأكثر غرابة، التي خبرها ذلك الطفل يوماً؛ لا شيء في حياته الجنسية الخسيسة التي عاشها في الشتاء الماضي، يمكن أن يقارن بتلك العذوبة المعذبة، وتلك الرغبة اليائسة. لو أنها أبقت عنقها مائلاً إلى الأبد، لو أن صاحبنا التعيس كان ليحتمل لمدة أطول استثارة ملامسة ذلك الجيد بشفتيْه اللتيْن تقطران شمعاً ذائباً

---

(١) مرآة فينوس: من أسماء زهرة أوفريس وهي من فصيلة الأوركيديا تشتهر براعمها بألوانها الثلاثة: أسود- أزرق- بني. (مترجم)

دون أن يُطلق جنونهما الجامح، لكان بقي، إلى الأبد، يطوف بهما حول ذلك النتوء المدوّر الجميل، الذي يتوسط أسفل عنقها. صيوان أذنها الذي صار قرمزياً متوهجاً، والخدر التدريجي الذي طرأ على حركة ريشتها، كانا العلامتين الوحيدتين - علامتان هائلتان - على إحساسها بإلحاحه المتزايد تدريجياً أيضاً، على مداعبتها. انسلّ خلسة في غرفته، أقفل الباب، تناول منشفة، تعرّى، واستدعى الصورة التي خلّفها وراءه للتوّ - الصورة التي ما زالت آمنة ومشرقة كألسنة النار التي نحيطها بكفينا في ليلة مظلمة وباردة - ليتخلص منها بسرعة محمومة واهتياج وحشي؛ وبعد ذلك، بعد أن استنزف شبقه، تاركاً حيوانه ضعيفاً ومرتجفاً، عاد فان إلى نقاء الغرفة المترعة شمساً، حيث الفتاة الصغيرة، تلمع عرقاً، لا تزال ترسم زهرتها: الزهرة المدهشة التي تحاكي عثّة زاهية، تحاكي بدورها خنفسة سوداء.

إن كانت تهدئة حماسة الشباب التي تغلي في عروق فان هي كل همه، أو بعبارة أخرى، إن لم يكن هنالك تورط عاطفي، لكان كل ما حظي به، في صيفه العابر ذاك، هو زيادة في غرابة وبذاءة سلوكه الجنسي. ولكنه بما أحب آدا، فإن الراحة المعقّدة التي بلغها في استمنائه، لم يمكن لها أن تكون غاية بحد ذاتها، أو بالأحرى، كانت كنهاية طريق مسدود، لأنها لم تكن مشاركة، لأنها كانت مخبّأة كسرّ رخيص، لأنها لن تكون قابلة للاندماج في المسرّات الأخرى اللاحقة التي، كضباب فوق قمة وراء ممرّ جبل بري، تعد بذروة حقيقية لعلاقته بآدا، المحفوفة بالمخاطر. في منتصف ذلك الصيف، وخلال ذلك الأسبوع، أو ربما الأسبوعيْن، وعلى الرغم من القبلات النهارية الرقيقة كالفراشات، فوق ذلك الشعر، ذلك العنق، شعَر فان بنفسه أكثر بعداً عن آدا، من عشية ذلك اليوم الذي لامس فيه فمه،

عن طريق الخطأ، قطعة لحم غضّة من بشرتها، بالكاد أمكنه أن يستشعرها بحواسه، في متاهة شجرة شاتال.

لكن الطبيعة هي الحركة والنمو. بعد ظهر أحد الأيام، في غرفة الموسيقى، اقترب منها بسرية غير معتادة، إذ كان حافي القدميْن، وعندما أدارت آدا رأسها، أغمضتْ عينيْها، وضغطت بشفتيْها فوق شفتيْه لتمنح فان قبلة وردية عذبة، وتوقعه في عذاب جديد وحيرة مربكة.

«اركض الآن!» قالت، «بسرعة بسرعة! فأنا مشغولة»، وحين تباطأ كأحمق، مسحت جبينه المتعرق بفرشاة طلائها، لترسم علامة الصليب الخاصة بقدماء الإيستوتيين. «لا بدّ لي من الانتهاء من هذه»، أضافت، مشيرة بفرشاتها الرقيقة الغارقة في الأرجوان والبنفسج، إلى رسم يمزج بين زهرة Ophrys scolopax وزهرة Ophrys veenae، «وعلينا خلال دقيقة أن نرتدي ملابسَ أنيقة لأن مارينا طلبت من كيم أن يلتقط لنا صوراً - ممسكين بعضنا بأيدي بعض، ومبتسمين». (ابتسمتْ، ثم أدارت ظهرها مجدداً نحو زهرتها القبيحة).

١٧

كُتب في أكبر المعاجم في مكتبة آرديس تحت كلمة شفة: «ثنيّة أو ثنيّتان لحميتان تحيطان بفوهة».

"Mileyshiy"[١] إميل، كما كانت آدا تدعو Monsieur Littré[٢]، فسّرها كالتالي: «الجزء الخارجي اللحيم الذي يحدّد الفم... حافتا جرح بسيط (نحن ببساطة نتكلم بجروحنا؛ نتناسل بجروحنا) العضو الذي يلعق». إميل العزيز!

الموسوعة الروسية، الصغيرة ولكن السميكة، لم تُعنَ بتفسير كلمة guba[٣] بأكثر من كونها تسمية لمحكمة إدارية في لياسكا القديمة، أو خليج قطبي.

كانت شفاههما، من حيث الشكل، النسيج واللون، متطابقة على نحو سخيف. كانت شفة فان العليا تشبه بشكلها طائراً بحرياً يطير نحو وجهك مباشرة بأجنحته الطويلة، بينما كانت السفلية شحيمة

---

(١) Mileyshiy: عزيزي بالروسية. (مترجم)

(٢) Monsieur Littré: إميل ليتريه (١٨٠١-١٨٨١) لغوي ومعجمي فرنسي. يُعتبر من أبرز المعجميين الفرنسيين في جميع العصور. (مترجم)

(٣) guba: وتحمل بالروسية عدة معانٍ: شفة، خليج، أو مضيق.

ومتجهمة، تضفي لمسة وحشية على شكله المعتاد، الوحشية التي لم تمسّ ذرّةٌ منها شفتَي آدا، رغم أن تقوّس العليا لديها، مع امتلاء السفلى وبروزها المتخايل بذلك اللون الوردي الكامد، لم يكن إلا تكراراً لفم فان ولكن بنسقٍ أنثوي.

في مرحلة القبل التي خاضها طفلانا (أسبوعان من العناقات الطويلة والمداعبات الفوضوية التي لا تحمد عقباها صحياً)، حال رادعٌ غريب من العفة، إن جاز التعبير، بين جسديهما القائظيْن، ولكنه لم يصمد في وجه الملامسات وردّات الأفعال الناجمة، التي اخترقته كاهتزازات لإشارت يائسة، تُرسل عن بعد. بكلّ رقة، بلا كلل، وبشغف لا ينتهي، فرّش فان شفتاه بشفتيها، ملهِباً مخملهما المتورّد، جيئة وذهاباً، يميناً ويساراً، في الحياة وفي الموت، مستلذّاً بذلك التناقض ما بين العذوبة الرقيقة للأنفاس المنبثقة من أنشودة ملحمية، وما بين الاحتقان الثخين للحمٍ مخفيّ.

وكانت هنالك قبلات من نوع آخر. «أرغب في تذوّق» قال، «ما داخل فمك. يا إلهي! كم وددت لو أكون بحجم أقزام غوليفر[1] لأدخل كهفك هذا وأستكشفه.»

«قد أعيرك لساني» قالت، وفعلت.

حبة فراولة كبيرة مسلوقة، لا تزال حارّة. أوغل في مصّه لآخر نقطة ممكنة. أطبق فوق الفم ولعق سقف حنكها. غرق ذقناهما في اللعاب. «منديل!» قالت، ثم أزلقت يدها من دون تحفّظ في جيب سرواله، ولكنها سحبتها بسرعة، بعد أن أوعزت إليه كي يخرج المنديل بنفسه. لا تعليق.

---

(١) غوليفر: رحلات غوليفر أشهر أعمال الكاتب جوناثان سويفت الإنجليزي الإيرلندي (١٦٦٧-١٧٤٥). (مترجم)

(«لقد ثمّنتُ كياستك» أخبرها بذلك حين كانا يستذكران، بخليط من السرور والرهبة، خليط النشوة والكرب الذي خبراه على حدّ سواء. «كم أضعنا من الوقت! أحجار الأوبال[1] التي لا تُعوّض»). لقد تعلّم وجهها. أنف، وجنة، ذقن - لكل منها تلك النعومة الخاصة (ملامح تعيدك إلى زمن التذكارت، القبعات المزينة، وومسات ويكلاو[2] الصغيرات، فاحشات الأجر) التي جعلت معجباً طفوليّاً تفتقد ذائقته للمعايير، يتخيّل ريشة قصب باهتة، الرقة التي استخدمها رجلٌ غير مفكر - باسكالتريزا[3] - لينحت بها ملامحها، بينما كان إصبعه، المدفوع بطفولة حسية[4]، يودّ، وقد فعل، لو يتلمس أنفها، وجنتها، وذقنها. إحياء الذكريات، كما في لوحات رامبراند، مظلم ولكنه احتفالي. ما إن تستدعي إحداها حتى تراها قد لبّت مناسبتك بكامل أناقتها وجلست أمامك ساكنة. الذاكرة هي استوديو تصوير فخم يقع في جادة القوة الخامسة[5] اللامتناهية.

---

(١) أوبال: حجر كريم. (مترجم)

(٢) ويكلاو: شارع شهير في مدينة دبلن- إيرلندا. (المترجم)

(٣) باسكالتريزا: باسكال وسكالتريزا. تلميح آخر إلى فكرة القصب المفكرة للفيلسوف بليز بسكال، أما scaltrezza فهي كلمة إيطالية وتعني المكر. (مترجم)

(٤) إصبعه المدفوع بطفولة حسيّة: ورد في بعض الدراسات التي تناولت شرح الرواية أن الكاتب كان يقصد بها «اللسان». (مترجم)

(٥) جادة القوة الخامسة: Fifth Avenue هو اسم شارع شهير جداً في مانهاتن، أما القوة الخامسة فهي القوة التي كانت ولا تزال مثار جدل بين علماء الفيزياء الذين أطلقوا تلك التسمية ليشرحوا من خلالها مختلف الملاحظات الشاذة التي لا تتوافق مع النظريات الفيزيائية الموجودة، والتي تفترض وجود أربع قوى أساسية تشكل أساس كل التفاعلات المعروفة في الطبيعة: الجاذبية، الكهرومغناطيسية، القوى النووية القوية والقوى النووية الضعيفة. (مترجم)

العصابة السوداء المخملية التي عقدتْ بها شعرها ذلك اليوم (يوم الصورة الذهنية) قد عزّزت لمعان الحرير في معبدها وعلى امتداد الخط الطباشيري فوق مفرق شعرها. خصلتا شعرها المنسابتان والمتدليتان من عقدة أعلى رأسها على امتداد عنقها، تتدفقان حتى الكتف، بحيث يختلط بياض عنقها الجارح، بجدوليْها الأسوديْن البرونزييْن، ليشكلّا معاً مثلثاً أنيقاً.

إنْ برز ميل أنفها الطفيف، يصبح أقرب إلى أنف لوسيت، وإن خفّ بروزه لصار أنف سامويد[1]. كان تلكلتا الشقيقتين أسنان أمامية كبيرة إلى حدٍّ ما، أما لشفتيهما السفليتيْن، فامتلاء كافٍ لتلبية الجمال المثالي في موت مرمري؛ وبسبب أن أنفيهما كانا مزكوميْن دائماً، فإن كلتاهما (وخاصة فيما بعد، عندما أصبحت أعمارهما خمسة عشر واثنيْ عشر) بدتا في مظهرهما الجانبي حالمتيْن، أو مبهورتيْن. بياض بشرة آدا الأقلّ لمعاناً (في عامها الثاني عشر، السادس عشر، العشرين، الثالث والثلاثين، وهكذا دواليْك) كان وعلى نحو لا يُضاهى، أكثر ندرة من تورّد بشرة لوسيت البرّاق (في عامها الثامن، الثاني عشر، السادس عشر، الخامس والعشرين، وحتى آخر عمرها). أما ذلك الخط الطويل النقي فوق حنجرة كلّ منهما، الذي ورثتاه عن مارينا، فقد كان كفيلاً بتعذيب الحواس بوعود غامضة، أقدس من أن تُذكر (لم تحفظها الأم).

العينان. عينا آدا البنيّتان القاتمتان. وما تكون (سألتْ آدا) العيون بكل الأحوال؟ ثقبان في قناع الحياة. وما كانتا لتعنيان (سألتْ) لمخلوق من خلايا مختلفة، قادم من فقاعة لبنيّة[2] أخرى،

---

(١) سامويد: فصيلة من الكلاب، موطنها الأصلي سيبيريا. (مترجم)
(٢) فقاعة لبنية أخرى: المقصود بها مجرة أخرى غير «درب التبانة» أو "milky way". (مترجم)

ولم يكن عضوه الخاص بالرؤية إلا عبارة عن عضو متطفل طفيلي، يشبه بشكله الكلمة المكتوبة 'مؤله'. ماذا؟ قل لي! ماذا قد تعني عينان جميلتان، عينا (إنسان، ليمور، بومة)، لأي شخص في حال وقع عليهما ملقيتيْن فوق مقعد سيارة أجرة؟ لم أصف عينيْكِ بعد. القزحيّة: سوداء بنّية مع بقع كهرمانية وتلك الخطوط الرفيعة المتحلّقة حول بؤبؤ رزين، كما لو كانت القرص الرقمي لساعة مماثلة. الجفون: بطياتها الغزيرة، v skladochku (قافية اسمها المصغّر بالروسية في حالة المفعول به). شكل العين: كسول. في ليلة الصقيع الأسود الشيطانية في ويكلاو تلك، عند اللحظة الأكثر مأساوية في حياتي كلها، والتي كادت تكون قاتلة (لقد بلغ فان الآن، والحمد لله، التسعين من عمره - بخط آدا) كانت هنالك قوادة قد أسهبتْ وبإصرار غريب في وصف 'العينيْن المطاولتيْن'، الخاصتيْن بحفيدتها الفاتنة، والمثيرة للشفقة. «بأية آلام مبرحة، طفتُ كل بيوت الدعارة في العالم، بحثاً عن أثر أو رمز لحبي الذي لا ينسى!». اكتشفَ يديها (فلنتناسَ أمر الأظافر المقضومة الآن!). عظام معصمها الرقيقة، روعة سلامياتها المتطلّبة التي ترديك أمامها راكعاً، ضباب دموع متلألئة، سكرات عشق لا يمكن اختزالها. لمسَ معصمها، كطبيب يحتضر. بجنون هادئ، داعب الخطوط الموازية للزغب الرقيق الذي يظلّل الجهة الأمامية لذراع سمرائه. عاد إلى براجمها. «أصابعك، من فضلك».

«أنا حساسة»، قالت. «أستطيع تشريح «كوالا» ولكن ليس طفلها. أحب كلمة damozel وeglantine، وكلمة elegant[1]. أحبك حين تقبّل يدي البيضاء الطويلة.»

---

(١) damozel eglantine elegant: damozel «آنسة» بلغة إنكلترا في العصور الوسطى، eglantine وهي إحدى فصائل الورود، أما elegant فمعناها

كانت لها فوق ذراعها اليسرى من الخلف، ذات البقعة البنية الصغيرة التي ميّزت ذراعه اليمنى. كانت متأكدة، قالت - سواء حملت الأمر على محمل الهزل أو التهكم - أن مارينا كانت تحمل الوحمة ذاتها، وقد استأصلتها جراحياً، منذ عدة سنوات، حين كانت واقعة في حبّ وغد[1] لم يكن يرى فيها إلا ما يذكّر ببقّ الفراش.

في سكون فترات ما بعد الظهر، كان يصل من التلة صوت صفير قطار «تولوز» المتلوّي، يطلقه مرّتين بمرتيْن، بحيث يمكن تحديد موقعه:

«وغد!! أنتِ تبالغين بتلك الصفة». أبدى فان ملاحظته.

«استخدمتها ودّياً.»

«وإن يكن. أعتقد أني أعرف الرجل. يحمل قلباً أصغر من عقله، هذا مؤكد.»

وبينما كان ينظر إليها، تلاشت يد الغجرية الصغيرة السائلة للصدقات، لتحلّ محلّها يد واهبة تطلب المزيد من الحياة. (متى سيصل صانعو الأفلام إلى المستوى الذي وصلناه؟). تحت شجرة البتولا، وتحت أشعة الشمس الخضراء التي دفعتها لرمش عينيها، جلست آدا تشرح لعرّافها الشغوف كيف أن بقعها المرمرية تلك، تشاركها فيها كاتيا خاصة تورغينيف[2]، فتاة أخرى بريئة، يُطلق عليها

أنيق. وفي الكلمات الثلاث إشارة إلى قصيدة «ملكة الجن» الملحميّة التي كتبها الشاعر الإنكليزيّ إدموند سبنسر (١٥٥٢-١٥٩٩) والتي وردت فيها تلك الكلمات الثلاث. (مترجم)

(١) وغد: «ديمون» هو المقصود. (مترجم)

(٢) كاتيا الخاصة بتورغينيف: شخصية كاتيا في رواية «الآباء والبنون» للكاتب الروسيّ إيفان تورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣). (مترجم)

في كاليفورنيا اسم فالس («لأن السنيوريتا تريد أن ترقص طوال الليل»).

مع حلول عيد ميلادها الثاني عشر، ٢١ يوليو ١٨٨٤، توقفت الطفلة عن قضم أظافر يديها (أما قدميها فلا) بفعل إرادة عظيم (تماماً كتوقفها عن التدخين بعد عشرين سنة لاحقة).

لنكن صادقين! نعرف أنها كافأت نفسها ببعض التجاوزات - كهفوتها المباركة، حين ارتكبت خطيئة شهية في عيد الميلاد، الموسم الذي لا تطير خلاله بعوضة Culex chateaubriandi Brown[1]. تمّ اتّخاذ قرار حاسم وجديد عشية رأس السنة الجديدة بعد أن هدّدت الآنسة لاريفيير بدهن رؤوس أصابعها المسكينة بالخردل الفرنسي ولفّها بمنديل صوفي أخضر، أصفر، برتقالي، أحمر، وردي (الأصفر ضمن هذا التدرج هو محض اكتشاف).

بعد نزهة عيد الميلاد بفترة قصيرة، حين أصبح تقبيلُ يد المحبوبة هوسَ فان الجديد والحنون، أصبحت أصابعها، التي بدأت رؤوسها تدريجياً بالتخلص من زوايا المربع، قويةً بما يكفي للتعامل مع تلك الحكّة المؤلمة التي يعاني منها الأطفال المحليين في منتصف الصيف.

خلال الأسبوع الأخير من شهر يوليو، ظهرتْ، على نحو منتظم وشيطاني، أنثى بعوضة Culex chateaubriandi Brown.

لم يكن شاتوبريان (شارل)[2]، أول من لدغته تلك البعوضة...

---

(١) بعوضة Culex chateaubriandi Brown: التسمية من اختراع الكاتب ملمحاً بها إلى البعوض الذي كتب عنه الكاتب الفرنسي شاتوبريان في «مذكرات ما وراء القبر»، أثناء رحلته إلى أمريكا الجنوبية. (مترجم)

(٢) شاتوبريان (شارل): فكرة هجينة ما بين شاتوبريان وشارل بودلير وما بين أعظم قصيدتيْن كتباهما. قصيدة: Romance à Hélène للأول، وقصيدة

ولكن أوّل من أطبق على الجاني في قارورة زجاجية، ومع صيحات انتقامية غريبة حملها إلى البروفيسور براون[1] الذي وضع لها على عجل وصفاً صريحاً يخلو من الدقّة («مجسّ صغير أسود.. أجنحة شفّافة.. صفراء تحت إضاءة معينة.. تختفي تلك الصفرة تماماً إن أبقينا النوافذ مفتوحة [الطابعة ألمانية!][2]» عالم الحشرات الخاص ببوسطن، عام ١٨٤٠، العدد الصادر في شهر أغسطس: مقال سريع بكل الأحوال). شاتوبريان (ش) هذا لا صلة قرابة تجمعه بالشاعر الكبير وكاتب المذكرات المولود بين باريس وتانييه[3] («كما كان عليه أن يفعل»، قالت آدا، التي كانت تحب جدل سيقان الأوركيد ببعضها البعض).

يا طفلتي! يا أختي!
فكّري في سماكة
السنديانة الهائلة في تانييه
فكّري في الجبل
فكّري في عذوبة....

... الحكّ بالمخالب أو الأظافر، للمواضع التي زارتها تلك الحشرة ذات السيقان الزغبية التي يميزها نهم متهوّر وشهية لا تنتهي

L'Invitation au voyage للثاني، حيث يتوجه كل منهما لمخاطبة أخته في قصيدته الخاصة بالإضافة إلى أوجه شبه كثيرة بين القصيدتيْن، استخدمها الكاتب ليأتي بهجين يلمّح به إلى الشاعريْن. (مترجم)

(١) البروفيسور بروان: ليس بروان المذكور سابقاً في أول الرواية والذي يُكتب اسمه Braun من فيلادلفيا أما الثاني فهو Brown من بوسطن.

(٢) الطابعة ألمانية: تلميح إلى استهجان الكاتب للطريقة التي عمل بها علماء الحشرات الألمانيون في بدايات القرن المنصرم، وكان قد أسهب في التعبير عن رأيه هذا ضمن مذكراته التي كتبها «تكلمي أيتها الذكريات». (مترجم)

(٣) تانييه: Tange تسمية مختلقة من قِبل الكاتب.

نحو دماء آدا وآرديلي، لوسيت ولوسيل[١] (بعد أن تضاعفتا بفعل الهرش).

كانت تلك الوحوش تظهر كما تختفي، فجأة. كانت تستقرّ فوق الأذرع والسيقان الجميلة دون إصدار أي همهمة، كشكل من أشكال الصمت التأملي الذي - على نقيض ذلك - يتحوّل، عند لحظة ولوج خراطيمها الجهنمية، إلى ما يشبه الانهيار النحاسي لفرقة موسيقية عسكرية. بعد خمس دقائق من غزوها ساعة الغروب، بين درجات الشرفة والحديقة المستعرة بصرير الخنافس، يبدأ هياج احتفالية الحك، الذي يتجاهله من كان قوياً وذا أعصاب باردة (واثقاً من كونها حالة بالكاد تستمر لساعة من الزمن) أما الضعيف، الفاتن، الشهواني، يستغل الفرصة ليحكّ، ويحكّ، ويحكّ بطريقة مثيرة للغرائز (شذوذ المقصف). «Sladko (عذب!)[٢]» أعلن بوشكين بتلك الكلمة علاقته مع بعض فصائل البعوض في يوكون. بقيت أظافر آدا المسكينة مصبوغة بلون العقيق، على مدار الأسبوع الذي تلا عيد ميلادها. وفي إحدى جلسات سلخ جلدها بكل الوسائل المتاحة كما لو كانت تلغي وعيها تجاه هذا العالم، صار الدم يتدفق حرفياً فوق قصبة ساقها - كم آلمتني رؤيتها! من جهة كنت أتفكر فيما تقوم به بإعجاب وتعاطف، ومن جهة أخرى كان المنظر ساحراً حدّ الاشمئزاز - نحن البشر، لسنا سوى زائرين ومستكشفين لهذا الكون الغريب، حقاً، حقاً.

---

(١) لوسيل: تلميح إلى الاسم الحقيقي لشقيقة شاتوبريان التي كان مغرماً بها أيضاً.

(٢) عذب: تغزل بوشكين في إحدى قصائده الوطنية بصوت البعوض: «... إني احب سماع أصوات البعوض ... وصوت أفراح الشباب فوق الروابي الخضر يصطهجون....» من مقال منقول من صحيفة روسية ومترجم إلى العربية في صحيفة «الوحدة» السورية. (مترجم)

بشرة الفتاة الشاحبة، المثيرة برقّتها لعينَي فان، الواهنة تحت إبرة الوحش، كانت، برغم ذلك، بقوة نسيج ساتان من سمرقند، وقد صمدت في وجه كل محاولات التعذيب الذاتية، كلما كانت آدا، بعينين مغمضتيْن كما لو وصلت نشوتها العاطفية (النظرة التي بدأ فان يشهدها خلال قبلاتهما المفرطة)، بشفتيْها المشقوقتيْن، بأسنانها الكبيرة المطلية باللعاب، تخمش بأصابعها الخمسة الروابي الوردية التي خلّفتها لدغة حشرة نادرة - إنه حقاً لبعوض نادر ومثير للانتباه (الوصف الذي أطلقه - ليس تماماً في الوقت ذاته - عجوزان غاضبان - كان براون ثانيهما، عالم حشرات من فيلادلفيا، وهو أفضل بكثير من نظيره في بوسطن) كما كان نادراً وجذلاً منظر محبوبتي وهي تحاول إخماد شهوة جلدها الثمين، تاركة خطوطاً، لؤلؤية في البداية ومن ثم ياقوتية، على امتداد فخذها الخلّاب، لتصل خلال فترة وجيزة إلى حالة من الخدر الهانئ، الذي سينطلق منه مجدداً غضب الحكة وهياجها، مدفوعاً، كما في الفراغ، بفعل الطاقة المتجددة.

«اسمعيني جيداً» قال فان، «سأعدّ حتى الثلاثة وإن لم تتوقفي فسوف أفتح سكيني» (فتحها) «وسوف أجرح ساقي لتشبه ساقك. هيا أرجوك! عودي إلى قضم أظافرك، أي شيء ما عدا ذلك!»

ربما ولأن الحياة التي تدفقت في عروق فان كانت مريرة جداً، حتى في تلك الأيام السعيدة، فإن بعوضة شاتوبريان لم تسعَ في أثره. يبدو وكأنها بدأت تنقرض في أيامنا هذه، بسبب برودة المناخ المتزايدة، وجفاف السبخات الغنية والجميلة في منطقة لادور، وكذلك المناطق المحيطة بكالوغا، ولوغانو- بنسلفانيا. (قيل لي إن مجموعة عيّنات صغيرة من إناث ذلك البعوض، قد التُقطت متخمة بدماء من اصطادوها، وقد جُمعت مؤخراً في مسكن سري، بعيداً عن المحطات الثلاث المذكورة أعلاه. ملحوظة بخطّ آدا).

١٨

ليس فقط في عمر البوق الصوتي[١] (العمر الذي دعاه فان بعمر الخرف)، ولكن حتى في سنّ الشباب (صيف ١٩٨٨)، كانا يجدان في دراسة مراحل نشوء حبهما وتطوّره (صيف ١٨٨٤)، متعةً وحماسةً كتلك التي يجدها عالم أثناء بحثه. كيف بدأ، وعند أية مراحل بدأ يتكشّف لهما، مع كل التناقضات الغريبة في الفجوات الزمنية.

احتفظتْ آدا بعدد قليل فقط من الصفحات التي تشرح بخط اليد بعض الأمور المتعلّقة بالنبات أو الحشرات، ضمن دفتر يومياتها، إذ إنها عندما أعادت قراءته وجدت فيه الكثير من التفاصيل الخاطئة أو غير المهمة؛ أما الخاص به، فقد أتلفه تماماً بسبب الركاكة المكتوبة بأسلوب طالب مدرسة أخرق، مقرونة بالاستهتار والمبالغة في السخرية. وعليه فقد توجّب عليهما اعتماد التقليد الشفوي في استنباط ذاكرتهما المشتركة وتبادل التصحيحات الذاتية. عبارة «وهل تتذكر»، "a ti pomnish'"، "et te souviens-tu"[٢]، (حيث يبدأ السؤال دائماً بتلك الشيفرة الضمنية «و»، التي تحمل بشرى العثور

(١) البوق الصوتي: سماعة الأذن. (مترجم)

(٢) "a tï pomnish'"، "et te souviens-tu": وتعني «وهل تتذكر». الأولى بالروسية والأخرى بالفرنسية. (مترجم)

على حبّة مفقودة من عقدهما المنثور) قد أصبحتْ لاحقاً ضمن محادثتاهما المكثفة، السؤال المفتاح للانتقال إلى ذكرى أخرى. تناقشا في تواريخ التقويم، غربلا الأحداث المتعاقبة وبدّلا ترتيبها، قارنا الملاحظات العاطفية، وحلّلا بشغف الترددات والقرارات. حصل أحياناً أن لم تتطابق ذكريات كل منهما، وغالباً ما كان مردّ ذلك إلى اختلاف جنسيهما وليس إلى أهواء كل منهما الفردية. مسرات الشباب قد متعت كليهما، كما أشقتْهما حكمة الزمن، أيضاً. مالت آدا للاعتقاد أن المراحل الأولى لم تكن سوى تطور تدريجي موّزع زمنياً بشكل دقيق، ربما على نحو خارج عن الطبيعة، أو فريد على الأرجح، ولكنه مزوّد بسحر نقي بسبب تلك العذوبة التي تجلّى بها الحب، والتي حالت بين الطفلين وبين وقوعهما في حالة من البهيمية، أو تحت صدمة العار. لم يستطع فان أن يمنع ذاكرته من إحياء وقائع خاصة، مستعرة أبداً بلهيب الرعشات الجسدية، المفاجئة، الفظة، والمثيرة للندم أحياناً. تكوّن لديها انطباع أن تلك الانتشاءات النهمة التي وصلتها، دون أن تتوقعها أو تستدعيها، سبق لفان أن خبِرها قبلها: وقد حصل ذلك بعد عدّة أسابيع من المداعبات المتراكمة؛ رفضتْ أن تعتبر ردّات فعل جسدها الفيزيولوجية الأولى ذات صلة بالممارسات الطفولية التي سبق لها قبل ذلك أن انغمست فيها، والتي لا تقدّم من مجد وعظمة السعادة الفردية إلا قليل القليل. فان، وعلى نقيض ذلك، كان قادراً على فهرسة كل تشنّج غير رسمي كان قد أخفاه عنها قبل أن يصيرا عاشقيْن، ولكنه شدّد على الفوارق الفلسفية والأخلاقية بين القوة الخشنة والمدمرة للنشوة الذاتية، وبين النعومة العارمة لحب معلن ومُشارك.

حين نتذكر ذواتنا السابقة، هنالك دائماً هيئة صغيرة لإحداها، بظلّ طويل، تقف كطيف زائر متأخر وغير مؤكد، ينتظر فوق عتبة

مضاءة، عند آخر نقطة من نفق معتم جداً. رأت آدا نفسها كمتشرّدة بعينيْن مبهورتيْن، تحمل باقة زهور صغيرة وذابلة؛ رأى فان ذاته كساتير ماجن وشهوانيّ، بأظلاف خرقاء، وبوق ملتبس. «ولكني لم أكن حينها قد تجاوزت الثانية عشرة»، كانت آدا لتبكي عند استحضار بعض التفاصيل غير المحتشمة. «كنت أنا في الخامسة عشرة»، قال فان حزيناً. «وهل تتذكر الشابة»، سأل فان الذي سحب من جيبه بطريقة مجازية بعض المسودات، «المرة الأولى التي انتبهتْ خلالها إلى ابن عمها (القربى الرسمية التي تجمعهما) الشاب الخجول، وهو مثار جسدياً في حضورها، رغم كل الطبقات المحتشمة، الصوفية والكتّانية، التي كان يلفّ بها شهوته، ومانعاً نفسه من أي احتكاك بالشابة؟»

«لا» قالت بصراحة. إنها حقاً لا تذكر، لأنها وحتى في الحادية عشرة من عمرها، ورغم عشرات المحاولات بكل مفتاح موجود في البيت لتفكّ قفل الخزانة الخاصة بوالتر دانيال فين حيث يحتفظ بـ«صور يابانية وهندية إيروتيكية»، كما كان واضحاً من خلال الواجهة الزجاجية، (المفتاح الذي وجده لها فان لاحقاً برفّة جفن، معلقاً بخيط في إحدى حجرات الجدران الصغيرة) كانت لا تزال تحمل بعضاً من شكوك تجاه عملية التزاوج.

لم تنقصها يوماً دقة الملاحظة، هذا مؤكد، فقد سبق لها أن عاينتْ مختلف الحشرات التي تنتمي لبنية تشريحية واحدة، ولكن، وفي الفترة ذاتها، نادراً ما انتبهتْ للذكورة الواضحة لدى بعض نماذج الثدييات، التي بقيت غير مرتبطة بأية فكرة أو إمكانية لوظيفة جنسية (على سبيل المثال يوم تسنى لها أن تراقب ابن الحارس الزنجي حين كان يبول في مرحاض الفتيات، وقد أمعنَت النظر في منقاره الناعم الجميل بلون البيج، في مدرستها الأولى ١٨٨٣).

وفي مرات سابقة، لاحظت ظاهرتيْن أخرييْن، تبيّن لها لاحقاً أنهما كانتا مضللتيْن على نحو مضحك. لا بدّ أنها كانت في التاسعة حين كان ذلك النبيل المسنّ، رسام بارز لم تستطع ذكر اسمه ولم ترغب في ذلك، يتردد أحياناً لتناول العشاء في قاعة آرديس. كانت معلمة الرسم الخاصة بآدا، الآنسة وينترغرين، تكنّ له احتراماً وإعجاباً عظيميْن، رغم أن لوحات الطبيعة الصامتة - خاصة المعلمة - قد اعتُبرت (عام ١٨٨٨ ثم عام ١٩٥٨) متفوّقة بشكل لا يحمل وجهاً للمقارنة على نظيرتها الخاصة برسامنا النذل العجوز الشهير الذي كان، وبثبات، يقدم نماذجه العارية المصغّرة، مرسومة من الخلف - عذارى فاتنات بأرداف مكوّرة كحبات الدراق يمدّن جذوعهن الملتوية لقطف التين، أو فتاة من الكشافة تتسلق صخرة بسروالها القصير والمثير —

«أعرف بالضبط» قاطعتْه بغضب، «من تعني بقولك هذا، وأطلب منك أن تدوّن ما سأقوله، حتى وإن كانت موهبته الفذّة ليست بمحطّ إعجاب في أيامنا هذه، إلا أن بول ج. غيغمن[١] كان لديه كل الحق لرسم فتيات المدارس والمسابح، ومن الجهة التي تحلو له، يمكنك الآن إكمال حديثك!»

كلما جاء (أخبرته آدا بهدوء) بيغ بيغمينت[٢]، ارتعدتْ فرائصها خوفاً عند سماعه يشهق ويزفز ويصعد الدرج لاهثاً سعياً وراءها، ليصير مع اقترابه «الضيف المرمري»[٣]، الشبح القادم من ماضٍ

---

(١) بول ج. غيغمن: تلميح إلى الرسام الفرنسي بول غوغان (١٨٤٨-١٩٠٣). (مترجم)

(٢) بيغ بيغمينت: الاسم الذي أطلقته آدا على الرسام ذاته. (مترجم)

(٣) الضيف المرمري: تلميح إلى مسرحية بوشكين الضيف الحجري. (The Stone Guest، ١٨٣٠). (مترجم)

سحيق، ليذرف أمامها دموعه بنحيب رقيق لوّام، لا يتوافق وطبيعة الرخام.

«يا للعجوز المسكين!» تمتم فان.

كانت طريقته المعتمدة للمسها، قالت، «من باب استعراض الواقعة وليس تقديم انتقادات هجومية»، قائمة على إصراره بقوة هوسية، على مساعدتها لالتقاط شيء ما - أي شيء، هدية صغيرة أحضرها معه، حبّات سكر، أو ببساطة لعبة قديمة التقطها عن أرض غرفة الحضانة ثم علّقها عالياً على الحائط، أو يختار من شجرة الميلاد شمعة وردية بلهب أزرق، ثم يأمرها بإطفائها، ورغم كل احتجاجاتها اللطيفة، كان يرفع الطفلة من مرفقيْها، ويتأنى مسهباً في الضغط، والنخر، قائلاً: آه! كم كانت جميلة وثقيلة - وكان ذلك الوضع يستمر إلى أن يُقرع جرس العشاء، أو أن تدخل المربية مع كأس من عصير الفواكه. ولكم كان مريحاً - لكل من تعنيهم معرفة التتمة - حين كانت مؤخرتها الضعيفة، خلال العملية التصاعدية الاحتيالية، تنزلق في النهاية فوق الثلج الذائب فوق صدارته البيضاء والمنشاة، فينزل الطفلة أرضاً، ثم يزرّ سترة العشاء. كما تذكرتْ ــــ

«إنها مبالغة غبية» كتب فان معلقاً. «لديّ أيضاً ما يدفعني للاعتقاد أنها أعادت تلوين الواقعة تحت إضاءة مصباح كهربائي، كما في حدث لاحق، لم يُكشف عنه إلا فيما بعد.»

كما تذكرَت الخجل الذي أصاب وجنتيْها بحرقة، حين قال أحدهم أن بيغ المسكين كان مختلاً عقلياً أو يعاني من تصلب شريان، أو شيئاً من هذا القبيل؛ ولكنها كانت تعرف، حتى في تلك السنّ المبكرة، أن الشريان يمكن له أن يطول على نحو بغيض، فقد رأت مرة درونغو، حصان أسود، وكان يبدو - عليها أن تعترف - بائساً ومرتبكاً، إزاء التحولات التي طرأت عليه في وسط حقل وعر،

محاطاً بكل أزهار البابونج (مارغريت) التي شهدت الحدث. ولقد ظنت، قالت آدا (ما مدى صدقها؟ هذا أمر آخر) أن هنالك مهراً في بطن درونغو، وقد بدأ يتدلى مخرجاً ساقاً سوداء مطاطية، إذ لم تكن تستوعب حينها أن درونغو هو فحل وليس فرساً، ولم يكن لديه أيضاً جيب كما للكنغر في صورة كانت تعشقها، ولكن مربيتها الإنكليزية شرحت لها أن الحصان مريض جداً، ثم بعد ذلك، عاد كل شيء إلى حاله السابقة.

«حسناً» قال فان، «إنها حقاً لقصة ساحرة! ولكني أتساءل متى كانت المرة الأولى حين اشتبهتِ بكوني خنزيراً[١] أو حصاناً مريضاً»؛ «أتذكر»، أكملَ فان، «الإضاءة الوردية البراقة، المسلطة فوق الطاولة المستديرة، وكنت أنتِ راكعة فوق كرسي، إلى جانبي. كنت أنا جالساً فوق ذراع الكرسي العالية بينما كنتِ تبنين بيتاً من ورق اللعب، وكانت أدنى حركة منك تتصاعد، كما أثناء انتشاء، كما حلم بطيء ولكن يقظ إلى أبعد حد، وأنا، المعربد على نحو إيجابي، انتشيت بأريج الأنثى فوق ذراعك العارية، ورائحة شعرك، والتي ماتت اليوم بفعل بعض العطور الشعبية. لقد أرّختُ الحدث في حوالي العاشر من يونيو، أمسية ماطرة بعد وصولي إلى آرديس بأقل من أسبوع.»

«أذكر البطاقات» قالت، «والأضواء، وضجيج المطر، وكنزتك الكاشمير الزرقاء - ولكن لا شيء آخر، لا شيء غريب أو بذيء، كالذي حصل لاحقاً. كما أن طريقة الاستنشاق هذه، لا تحصل إلا في قصص الغرام الفرنسية.»

---

(١) خنزير: pig بالانكليزية وهي متطابقة أيضاً مع ذات الاسم الذي أعطته آدا للرسام. (مترجم)

«حسناً، لقد قمتُ بذلك بينما كنتِ منهمكة في عملك الدقيق. لمسك الساحر. صبرك الذي لا ينفد. رؤوس أصابعك التي تطارد الجاذبية. أظافرك المقضومة والمشوّهة، يا حلوتي! اغفري لي هذه الملاحظات! لا يمكنني أن أشرح بحق انزعاجي من تلك الرغبة العارمة والدبقة. أتعرفين ما كنتُ أتمنى؟ أن يتداعى قصرك فتستسلمين على الطريقة الروسية، ثم تجلسين فوق ذراعي».

«لم يكن قلعة، بل فيلّا مزينة بورود البومبيانيلا والفيسفساء، مع لوحات داخلها، لأنني لم أستخدم سوى بطاقات القمار القديمة والمكدّسة، الخاصة بجدّي. هل جلستُ فوق يدك الحارة؟»

«فوق راحة يدي المفتوحة، يا حبيبتي. ثنايا من الجنة. بقيت هادئة للحظة، مسبوكة في قالب كفّي. ثم رتبتِ أطرافك وعدتِ للركوع.»

«لألتقط بسرعة، بسرعة، بسرعة، البطاقات المسطّحة والبراقة، لأعيد البناء مجدداً، ومجدداً بالبطء ذاته. كم كنا منحرفيْن، ألم نكن؟»

«كل الأطفال الأذكياء منحرفون. أراك الآن قد بدأتِ تتذكرين ـــ»

«ليس تلك المناسبة بالتحديد، بل شجرة التفاح، وحين قبّلت عنقي، وأذكر كل ما تبقى. ثم بعد ذلك . . . الحدث الإلهي: ليلة احتراق الحظيرة!»

١٩

كلغز قديم («سفسطة صوفي» للآنسة ستوبشين[1] في مكتبة Vieux Rose): هل جاءت حادثة الحظيرة قبل أم بعد تلك الخاصة بالعلّية؟ أوه ! كانت أولاً! كنا قد قبّلنا بعضنا بعضاً لفترة طويلة كأبناء عمومة عندما اندلع الحريق. في الواقع، كنت قد اشتريت من لادور في ذلك الوقت مرهم Château Baignet لأدهن به شفتيَّ المشققتيْن. وقد استيقظ كل منّا فزعاً في غرفته الخاصة على صراخها «حريق حريق»! متى كان ذلك؟ ٢٨ يوليو؟ ٤ أغسطس؟

من التي صرخت؟ ستوبشين؟ أم لاريفيير؟ إنها لاريفيير التي أعلنت حريق الحظيرة بصراخها.

لا لا. كانت لاريفيير غارقة في أعماق الحريق، أعني النوم. أنا أعرف من تكون، قال فان، إنها تلك الخادمة المدلّلة التي استخدمت الألوان المائية خاصتك للتبرج بها، كما قالت الآنسة لاريفيير، التي اتّهمتها وبلانش بارتكاب خطايا آثمة.

---

(١) «سفسطة صوفي» للآنسة ستوبشين: تلميح آخر إلى «أحزان صوفي» للفرنسية الكونتيسة دي سيغور، والتي هي روسية المنشأ بكنية «روستوبشين». (مترجم)

أوه بالتأكيد! ولكنها حتماً ليست الخادمة الفرنسية المسكينة الخاصة بمارينا. لقد كانت إوزتنا البيضاء الصغيرة. أجل، لقد ركضتْ في الردهة بين الحجرات، وقد أضاعت فردة شبشبها المزين بالفراء فوق الدرج الكبير، مثل آشيت[1] بنسختها الإنكليزية.

«وهل تذكر يا فان كم كانت تلك الليلة حارة؟»

«Eshchyo bï! (كيف لي أن أنسى!). في تلك الليلة، كم كان الوميض مزعجاً. . .»

في تلك الليلة، وبسبب الوميض المزعج لبرق بعيد يلحّ على اختراق القلوب السوداء لتعريشة نومه، هجر فان مهجعه بين شجرتَي التوليب، وذهب نحو فراش غرفته. الهياج الذي وقع في البيت وصياح الخادمة، قد قاطعا حلماً نادراً، رائعاً ومثيراً، لم يكن قادراً على تذكّر فحواه لاحقاً، رغم أنه لا زال يحتفظ به في صندوق مجوهرات. كان ينام عارياً كعادته. وعندما استيقظ مذعوراً لم يدرِ ما إذا كان عليه أن يرتدي سريعاً سروالاً قصيراً أم يلف نفسه برداء الطرطان الذي يصل إلى الركبتيْن فقط. اختار الحل الثاني، تناول على عجل علبة الثقاب، أشعل شمعة بجانب السرير، ثم اندفع خارج غرفته، مستعداً لإنقاذ آدا وكل يرقاناتها. كان الممرّ مظلماً، وفي مكان ما، كان الداشهاند ينبح بحماسة. بدأ الصراخ يتناقص، وتمكن فان من تحديد الموقع، إنه ما يُعرف بـ: الحظيرة الشريان، بناء كبير على بعد ثلاثة أميال، عزيز على قلوب سكان آرديس، وكانت النيران قد نشبت فيه، ولو كانت فعلتْ في وقت لاحق من الموسم، لكانت خمسون بقرة ستفقد علفها، كما ستفقد الآنسة لاريفيير قهوة القشدة في فترات بعد الظهر. شعر فان بأنهم قد

---

(١) آشيت: اسم سندريلا في النسخة الفرنسية. (مترجم)

استخفوا به. «لقد ذهبوا جميعاً وتركوني وحيداً»، كما غمغم فيرس العجوز في المشهد الأخير من «بستان الكرز»[1] (كانت مارينا مناسبة لأداء شخصية رانيفسكي).

مزنّراً بشملته الطرطانية، رافق ظله الأسود نحو آخر ملحقات الدرج الحلزوني، المؤدي إلى المكتبة. وضع ركبته العارية فوق الديوان الخشن تحت النافذة، ثم أزاح الستائر الحمراء الثقيلة.

استقلّ السيارة المكشوفة الحمراء كلٌّ من العم دان - بسيجار بين أسنانه - ومارينا - بمنديل فوق رأسها وداك الفخور محمولاً بإحكام بين يديها هازئاً بكلاب الحراسة - وانطلقا وسط الأذرع المرفوعة، والفوانيس المتأرجحة - كعربات الإطفاء! - بسرعة لم يتجاوزها عند المنعطف الوعر إلا ثلاثة من الخدم الإنكليز، يقلّون أيضاً فوق مؤخرات أحصنتهم ثلاث خادمات فرنسيات. بدا وكأن طاقم الخدم بأكمله كان مندفعاً نحو الحريق بغاية الاستمتاع بمنظرها (حادث نادر في منطقتنا الرطبة التي لا تهب فيها الرياح) مستخدمين كل وسائل النقل الممكنة أو المتخيّلة: عربات أحصنة، تلفريك، قوارب صغيرة بعجلات، دراجة يجرها حصان، وحتى عربات الأمتعة الصغيرة التي يحركها زنبرك، والتي قدمها مدير المحطة للعائلة في ذكرى إراسموس فيين[2]، مخترعها. وحدها المربية بقيتْ نائمة (كما لاحظتْ آدا وليس فان) مسترسلة رغم كل ما كان يدور حولها في شخيرها الصافر، في الغرفة المجاورة للحضانة القديمة،

---

(١) بستان الكرز: مسرحية للكاتب الروسي أنطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤). (مترجم)

(٢) إراسموس فيين: تلميح إلى إراسموس داروين جد تشارلز داروين، والذي كان فيزيائيا إنجليزيًا، فيزيولوجيا، فيلسوفًا طبيعيا، مخترعا وشاعرا. (١٧٣١-١٨٠١). (مترجم)

حيث تمددت لوسيت الصغيرة وبقيت لدقيقة فقط مستيقظة قبل أن تركض نحو حلمها لتلحق بالعربة المؤثّثة الأخيرة.

فان، راكعاً أمام الإطلالة البانورامية، راقب بصيص السيجار الملتهب كيف خبا حتى تلاشى. راقب تلك الانطلاقات المتعددة... دورك الآن!

كانت تلك الانطلاقات المتعددة في آرديس شبه الاستوائية عملياً، مشهداً رائعاً أمام غبار النجوم الشاحب الذي يملأ قبة سماء، تلوّنها أشجار سوداء وتورّد طيور نحام بعيدة، تماماً فوق البقعة التي تتصاعد منها ألسنة اللهب. على من يريد الوصول إلى هناك، أن يطوف حول حوض مائي كبير؛ كنت أتمكن من الانتباه للأضواء البراقة البعيدة التي تشقّ سطحه هنا وهناك، كلما اجتازه سائس مغامر أو خادم فوق لوح للتزلج، أو زورق صغير (Rob Roy)، أو ما يشبه العوامة، مع كل التموّجات التي تتركها وراءها مثل التنانين اليابانية؛ بعين فنان، يمكن الآن متابعة مصابيح السيارات، الأمامية والخلفية، متّجهة شرقاً على امتداد الخط AB لتلك البحيرة المستطيلة، لتنعطف فجأة عند الزاوية B، ثم تتابع فوق الجانب القصير لتتسلّل نحو الغرب، فتخفت الأضواء وتتناقص، لتصير نقطة تتوسط الهامش البعيد، حيث تتأرجح شمالاً ثم تختفي.

في حين كان آخر متخلّفين، الطباخ والحارس الليلي، يعدوان خلال الحديقة نحو حنطور بلا حصان، كان يلوّح لهما بمحفته المنتصبة (أم لعلّه كان ريكاشة Rickshaw؟ كان للعم دان ذات مرة مستخدم ياباني)، ميّز فان، مسروراً ومصدوماً في آن واحد، آدا بثوب نومها الطويل تمرّ بين الشجيرات حبرية القتامة، تحمل بيد شمعة مضاءة وبالأخرى فردة حذاء، كما لو كانت تلتحق سراً بحفلة عبادة للنار، كانت قد تأخرت عنها. لم يكن سوى انعكاس صورتها

فوق الزجاج. أسقطت فردة الحذاء في سلة مهملات، والتحقت بفان فوق الديوان.

«هل يمكن لأحد رؤية أي شيء؟ أوه! أي شيء؟» الجملة التي استمرت في تردادها الطفلة ذات الشعر الداكن، وأضرمت مئات الحظائر في كهرمان عيْنيْها السوداوين، بينما كانت تحدّق بنظرات تشعّ فضولاً. حمل عنها شمعتها ووضعها بقرب شمعته الأطول، فوق إفريز النافذة. «أنت عارٍ، أنت فاحش وغير محتشم»، لاحظت ذلك دون أن تنظر، بنبرة هادئة لا تحمل استنكاراً، وعليه أعاد رمسيس الاسكتلنديّ شدّ مئزره بإحكام، بينما جثتْ بجانبه. للحظة، تأمل كلاهما لوحة الليل الشاعرية تؤطّرها النافذة. بدأ بمداعبتها، مرتعشاً، محدقاً في النافذة، سابراً بيد رجل أعمى، وعبر نعومة الباتيست[١] تجاويف عمودها الفقري.

«انظر! غجر!» همستْ، مشيرة إلى ثلاثة أشكال غامضة - رجلان، أحدهما يحمل سلّماً، والثاني ولد أو ربما قزم يتحرك بحذر فوق العشب الرمادي. لقد فرّا هاربين ما إن لحظا النافذة وقد أضاءتها الشموع، وكان صغيرهما يمشي إلى الخلف كمصوّر يبتعد لالتقاط صورة.

«لقد بقيتُ عن قصد في المنزل، إذ إنني أملت أنك ستفعل أيضاً، إنها صدفة مدبّرة»، قالت - أو قالت لاحقاً إنها قالت - بينما استمر في ملاعبة خصلات شعرها، تمسيد وتجعيد ثوب نومها، دون أن يجرأ على تمرير يده تحته، بينما تجرّأ على إحكام باطن كفيْه فوق ردفيْها إلى أن، ومع هسيس خفيف، جلسَت القرفصاء على كعبيْها وفوق يده، وعند تلك اللحظة، انهار قصر البطاقات محترقاً. أدارت

---

(١) باتيست: batiste، نوع من القماش القطني. (مترجم)

له ظهرها، ووجد نفسه في اللحظة التالية يقبّل كتفها العارية، بينما راح يضغطها كجندي في آخر الطابور.

لم يسبق لي أن سمعت بهذا الأمر. ظننت أن السيد «مؤخرات العذارى» هو الوحيد الذي سبقني إلى ذلك.

الربيع الماضي. رحلة إلى المدينة. المسرح الفرنسي في عرض الظهيرة. أضاعت الآنسة التذاكر. ظنّ صديقنا المسكين على الأرجح، أن اسم «طرطوف»[1] يعود لمومس ما، أو نجمة تعرٍّ. ليس بالظنّ الغبي على أية حال. حسناً. لنعد إلى مشهد الحظيرة المحترقة ــ

ما بك؟

لا شيء أكملي!

آه يا فان! تلك الليلة، تلك اللحظة حين انثنت ركبتاك داخل ركبتيّ، تحت ضوء الشموع، كولدين يصلّيان في لوحة خبيثة للغاية، تظهر بواطن أربع أقدام صغيرة، خبيرة في تسلق الأشجار، لوحة لا تليق كبطاقة تُرسل لجدة طيبة في عيد الميلاد، بل لثعبان واقع تحت السحر والفتنة، لو تعرف يا فان في تلك اللحظة كم تمنيت بشدّة لو أسألك عن بعض معلومات علمية بحتة، لأن نظرتي الجانبية لم...

لا، ليس الآن، ليس بالمشهد الرائع الآن، وسيكون أسوأ في لحظة (كلمات بهذا المعنى).

لم يستطع فان أن يقرر ما إذا كانت حقاً جاهلة بالمطلق ونقية نقاء سماء الليل - التي بدأت الآن تنفض عن نفسها لون الحريق - أم

---

(١) طرطوف: اسم الشخصية الأساسية في مسرحية طرطوف للفرنسي موليير. (مترجم)

أن التجربة الكلية قد ساعدتها بالانغماس في تلك اللعبة الباردة. ليس بالأمر المهم.

انتظري! ليس الآن! أجابها بهمهمة نصف مكتومة.

أصرت: أريد أن أسأل، أريد أن أعر ـــ

داعبها، ثم فتح بطياته اللحيمة (اللحيمة جداً لدى كل من الشقيقيْن) ستار شعرها الأسود الحريري والمنساب، والذي يصل حدّ كليتيْها إن أرجعتْ - كما الآن - رأسها إلى الخلف، ليشق طريقاً نحو طاحلة[1] عنقها الساخن. (ليس من الضروري، لا هنا ولا حتى في مكان آخر - سبق أن أشرتُ إلى ممر نظير - أن تشوّه أسلوباً نقياً نسبياً باستخدام مصطلحات تشريحية غامضة كتلك التي يحتفظ بها طبيب نفسي من أيام دراسته. ملاحظة مكتوبة بخطّ آدا).

«أريد أن أسأل» ردّدتْ، بينما وصل بفمه النهم إلى هدفه الحار فاتح اللون.

«أريد أن»، قالتها بوضوح شديد، ولكن بصوت خفوق هذه المرة، إذ إن كفّه الهائجة التي بدأت تتلمس طريقها عبر الإبط، مع إصبعه الذي وصل حلمتها، قد أرعشَت الحروف تحت سقف حلقها: إنه الضغط فوق الجرس. ولكن عبارة «رن الجرس» الخاص بالخدم في الروايات الجورجية، لا يصح من دون وجود الكهرباء.

(أنا أعترض. لا يمكنك فعل ذلك. هذا محظور حتى في البلاد الليتوانية واللاتينية. ملاحظة بخط آدا)

«ـــ أسألك . . .»

«اسألي ما تشائين!» صاح فان، «ولكن لا تفسدي كل شيء» (كأن أروي جوعي من ثدييك، كأن أجدل جسدي بجسدك).

---

(١) العضلة الطاحلة: عضلة العنق. (مترجم)

«ولماذا»، تساءلت (إلحاح، تصدٌّ، طقطقة شمعة، وسادة مرمية فوق الأرض) «لماذا أصبح خاصتك هذا هنا سميناً وصلباً عندما ـــ»

«أصبح ماذا؟ عند ماذا؟»

ولكي تشرح له بلباقة حسّية، قلّصت عضلات بطنها ثم أرختها - مكررة ذلك تباعاً- لتشير إلى ما تقصد. وبركبتين مثنيتيْن قليلاً، وشعر طويل يعيق الرؤية الكاملة، حدّقت بطرف عينها في أذنه (وضعية جعلت جسديهما متماهييْن كصورة مشوّشة).

«كرّري ما قلتِ» قال صائحاً، كما لو كانت بعيدة جداً، كما لو كانت انعكاساً فوق نافذة مظلمة.

«أريد أن أراه حالاً» قالت آدا بحزم. تجرّد من إزاره الاسكتلندي، فتغيرت نبرتها في الحال.

«أوه يا عزيزي»، كما لو كانت طفلاً يخاطب طفلاً آخر، «جلدك هنا مسلوخ ومحمر. هل يؤلمك؟ أيؤلمك على نحو فظيع؟»

«المسيه بسرعة» ناشدها.

«فان أيها المسكين» تابعت بصوتها الرفيع التي اعتادت الفتاة الحلوة أن تخاطب به قططها، عثّاتها، ويرقاناتها، «أجل، أنا متأكدة أنه سيلذعني، هل أنت متأكد أن لا ضير في ذلك؟ أتتحسن حالتك إن فعلتْ؟»

«راهني على ذلك (You bet)» قال فان، "On n'est pas bête à ce point"[1] (تعبير في غاية السوقيّة والفظاظة).

---

(١) On n'est pas bête à ce point: كتبها بالفرنسية وتعني: لسنا بهذا الغباء. معتمداً التلاعب اللفظي بين bet بالإنكليزية وهي فعل راهن، و bête بالفرنسية ومعناها الحرفي وحش، وتُستخدم لدلالات أخرى منها: الغباء. (مترجم)

«خريطة مجسّمة» قالت زهرة الربيع المنافقة، «أنهار افريقيا». تتبعتْ بمؤشرها الخاص أسفل مجرى النيل حتى وصلت دغله ثم عادت مجدداً نحو أعلاه. «والآن قل لي! ما الذي أراه؟ أليس في قبعة "Red Bolete"[١] هذه شيء من المخمل؟ فعلاً» (هذرتْ على نحو إيجابي)، إنه يذكرني بإبرة الراعي أو زهرة اللقلقي».

«يا إلهي!» قال فان، «كيف لم أفكر في ذلك قبلاً!»

«أوه يا فان، لقد أحببت ملمسه، أحببته حقاً!»

«اعصريه أيتها الإوزة! ألا ترين أنني أحتضر؟»

لكن عالمة الطبيعة اليافعة لم يكن لديها أدنى فكرة عن كيفية التعامل الصحيح مع نبتة كهذه، أما فان، وفي حالة متطرفة من الإثارة، ضغطه بخشونة فوق كشكش ثوبها، ثم ذاب ناخراً في بركة من المتعة.

نظرت تحتها فزعة.

«ليس الأمر كما تظنين» أبدى فان ملاحظته بهدوء، «هذا ليس بولاً، إنه في الحقيقة لا يقل نظافة عن نسغ عشب. حسناً، تم الآن تحديد منبع النيل - برقية مرسلة من سبيك[٢].»

(إنني أتساءل يا فان لماذا بذلت قصارى جهدك لتحوّل ذكرياتنا الفريدة والشاعرية إلى مهزلة بذيئة؟ قل الصدق يا فان! أنا صادق. هكذا جرت الأمور. لم أكن واثقاً مما أغامر فيه، لم أعرف من أين أتتنا روح الوقاحة والجسارة. آه! تكلم عن نفسك! أما أنا يا عزيزي،

---

(١) ويقصد بذلك الفطر المسمى بـ Boletus aurantiacus المعروف برأسه الورديّ.

(٢) جون هانين سبيك: رحالة بريطاني يعتبر أول من اكتشف ١٨٥٨ م بحيرة فيكتوريا وهو من أطلق عليها اسم الملكة البريطانية. (مترجم)

فإن الفتوحات التي قامت بها أصابعي بدءاً من أفريقيا وصولاً إلى قمة العالم، لم أخضها إلا في وقت متأخر، وعندها حفظت درب رحلتي عن ظهر قلب. أعتذر منكِ، هذا ليس صحيحاً. لو أن كل البشر يتذكرون بذات الطريقة فإنهم سيكونون متشابهين. هكذا جرت الأمور. ولكننا متشابهين. التفكير والحلم[1] لهما المفردة ذاتها بالفرنسية. فكّر في العذوبة يا فان! أوه، أنا أفكر فيها طبعاً، لا شيء سواها - كان الأمر عذباً برمّته، يا طفلتي، يا قافيتي. هذا أفضل، قالت آدا).

تولى الأمر! لو سمحت.

تمدد فان عارياً في ضوء الشمعة الذي سكن في تلك اللحظات.

«دعينا ننام سوية هنا، فهم لن يعودوا قبل أن يشعل الفجر سيجار العم دان من جديد.»

«ولكن قميص نومي مبلل»، همستْ.

«اخلعيه، هذا الغطاء كافٍ لشخصيْن.»

«لا تنظر يا فان!»

«هذا ليس عدلاً» قال، ساعدها في التخلص منه، ورفعه إلى أن خرج منه رأسها المتأرجح بشعره الأسود. لمسة طفيفة من الأسود الفاحم تظلل السحر الغامض في جسدها الأبيض الطباشيري؛ بثرة سيئة تركتْ بين ضلعيْن ندبة وردية؛ طبع فوقها قبلة، ثم مدّ ساعده تحت عنقها؛ كانت تتفحص من الأعلى جسده المدبوغ، وتتأمل قافلة النمل التي تخطّ دربها نحو واحة سرّته؛ نسبة لصبي في عمره، كان بلا شك شعرانياً. ثدياها اليانعان المستديران فوق وجهه تماماً.

---

(١) التفكير والحلم: فعل songer بالفرنسية يحمل المعنيين، حسب السياق. (مترجم)

كطبيب وفنان، أعارض بشدة تناول سيجارة بعد الجماع كما يفعل غير المثقفين. بكل الأحوال، فلنعترف، لم يكن فان غير منتبهٍ لوجود صندوق السجائر التركي الزجاجي «ترومانيز»، فوق منضدة أبعد من أن تصلها يدٌ ممدودة باسترخاء. أعلنتْ دقات الساعة عن ربع ما، كانت حينها آدا، ساندة خدها بقبضتها، تراقب بانبهار أكثر منه استغراباً، تلك الاهتزازات الثابتة - باتجاه ثابت، ثم الارتفاع الهائل لصحوة الرجولة تلك. كان نسيج الغطاء يثير الحكّ أكثر مما يفعل عدّ نجوم السماء. قبل حدوث أي شيء، حبتْ آدا على أطرافها الأربعة، لترتيب الغطاء الذي سيفترشانه، والوسائد. فتاة محلية تقلّد أرنباً. مدّ فان يده المستكشِفة؛ ملأت استدارتا أليتيْها الحارتيْن باطنيْ كفيْه، بقفزة محمومة، تحوّل إلى وضعية فتى يعمّر قصراً من الرمل فوق شاطئ؛ ولكن آدا استدارت واستلقتْ على ظهرها، باستعداد جِدي لاحتضانه، تماماً كما تمّتْ توصية جولييت باستقبال روميو. كانت محقة. لأوّل مرة خلال قصة حبهما هبطت النعمة والعبقرية الخطابية الشاعرية على لسان فتانا الفظّ، همس تارة وتنهد أخرى، مقبّلاً وجهها بحنان فصيح، معبّراً بثلاث لغات[١] - أعظم ثلاث لغات في العالم - ناطقاً بمغازلات من شأنها أن توفّر لاحقاً المادة الأساسية في قاموس للكلمات المصغّرة السرية، ستتم مراجعته تباعاً حتى صدور النسخة النهائية عام ١٩٦٧. كلما علا صوته، كانت تهدّئ من حماسه «ششششش» ثم تتنفس في فمه، ثم تلف أطرافها الأربعة حوله، كما لو كانت تمارس الحب لسنوات في أحلامنا - ولكن نفاد صبر

---

(١) اللغات الثلاث: الإنكليزية، الروسية والفرنسية. سئل مرة نابوكوف عن لغته المفضلة بين الثلاث، فأجاب: الإنكليزية لعقلي، الروسية لقلبي، والفرنسية لأذني. (مترجم)

شغف الشباب (مترع كحمّام فان الطافح بينما كان، فان العجوز فوق حافة سرير الفندق، يعيد صياغة كل تلك التفاصيل) لا بد أن يقترن ببعض طعنات متهورة. انفجرتْ شفة الأوركيد، صدح عصفور أزرق محذّراً، عادت الأضواء لتظهر من بعيد، متأرجحة تحت تجاعيد الفجر، راسمة خطوطاً حول البحيرة. سرعان ما أصبحت تلك المصابيح البعيدة نجوماً، وصار يُسمع صوت العجلات فوق الحصى. عادت كل الكلاب مسرورة بعد حفلة السمر تلك. قفزتْ بلانش، ابنة أخ الطباخ، من عربة اليقطين، بقدميْها المجوربتيْن (للأسف، انقضى منتصف الليل منذ وقت طويل)، أما طفلانا العاريان، فقد انقضّا على ملابسهما المرمية أرضاً، رتّبا الديوان قبل مغادرتهما، وعاد كل منهما بشمعدانه إلى غرفته البريئة.

«وهل تذكرين؟» قال فان ذو الشارب الرمادي، بينما كان يتناول عن طاولة السرير سيجارة كانابينا، ويهز علبة كبريت ملونة بالأصفر والأزرق، «كم كنا متهورين، وكيف توقفت لاريفيير عن الشخير للحظة واحدة فقط، ثم عادت لتهزّ المنزل بشخيرها، وكم كانت الدرجات الحديدية باردة، وكيف كنت أنا مرتبكاً، بـ... - كيف سأقولها؟ - بجموحك الذي لم يكن ليُكبح.»

«غبي!» قالت آدا من جانب الجدار، دون أن تدير رأسها.

صيف ١٩٦٠؟ فندق مزدحم في منطقة ما بين إيكس وآرديس؟

عليّ أن أضع تاريخاً للصفحات، علّها تكون أكثر لطفاً مع الحالمين المجهولين الذين سيقرأونها.

٢٠

في صباح اليوم التالي، فيما كان أنفه لا يزال غائصاً في عمق جعبة أحلام وسادته الطرية، التي زودته بها الحلوة بلانش لتكسر بها خشونة سريره المتقشف (بلانش التي، وحسب قوانين لعبة النوم، كان يمسك بيدها في كابوس مفجع، أو ربما كان ذلك بسبب عطرها الرخيص)، حتى في تلك اللحظة، كان الفتى في محض وعيه، لتلك السعادة التي طرقت باب حياته، والتي حاول متعمّداً إطالة وهجها المستتر، متمسكاً بآخر بقايا من ياسمين ودموع في حلمه السخيف؛ ولكن نمر السعادة قفز مقتحماً أبواب الواقع.

إنها بهجة امتيازه الحديث! يبدو أنه احتفظ بظلّ تلك النشوة في حلمه، تحديداً في الجزء الأخير منه حيث كان يخبر بلانش أنه تعلّم كيف يحلّق في الهواء، وأن قدرته على الطواف في الهواء بسهولة سحرية، ستمكنه من كسر كل الأرقام القياسية في القفز الطويل، الذي لن يكون بالنسبة له سوى طريقة جديدة للتسكع على ارتفاع بضعة إنشات عن سطح الأرض، على طول، لنقل، ثلاثين أو أربعين قدماً (طول كبير جداً حدّ الريبة) أمام صالات عرض تغلي جنوناً، بينما كان زامبوفسكي من زامبيا[١]، واضعاً يديه فوق خصره، يحدّق

---

(١) زامبوفسكي من زامبيا: جناس لفظي يحمل عدّة تلميحات، الأول إلى

في فان بنظرات يملأها الرعب والدهشة على حدّ سواء.

نصرٌ حقيقي تحدد معالمه الرقة، تحررٌ صارم تخفف حدته اللطافة: أعراض المجد والشغف حين تترجمها أحلامنا. من الآن وصاعداً، سيكون فان مديناً بنصف فرحته العظيمة (الأبدية، كما تمناها) ليقينه بقدرته على الاقتراب من آدا بإسراف، علناً وفي أوقات الفراغ، ليغدق عليها مداعباته الصبيانية، التي لم يتخيلها سابقاً بوجود رادع من الخجل الاجتماعي، أنانية الذكور، والوسواس الأخلاقي.

خلال عطلات نهاية الأسبوع، كان الإعلان عن الوجبات الثلاث يتم بقرع ثلاثة أجراس: صغير، متوسط وكبير. يعلن الأول عن الفطور في غرفة الطعام. مع تردد الاهتزازات، بدأ فان يفكر في الخطوات الست والعشرين التي يحتاج إليها لينضم إلى الشابة، شريكته في الجريمة، التي لا يزال يحمل مسكها الشهي في باطن كفه، الوهج الذي وقع تحت سحر إشعاعه: أتراه حقاً حصل؟ هل تحررنا الآن حقاً؟ يقول بعض ظرفاء الصين السمينون، هواة جمع الطيور، أن بعض العصافير حبيسة الأقفاص تصطدم بالقضبان (وتفقد وعيها لعدّة دقائق) أثناء اندفاعها القوي و الآلي، لحظة استيقاظها صباحاً، استكمالاً لحلمها بالطيران، رغم أن أولئك المساجين بألوانهم القزحية، يكملون بقية نهاراتهم بالخضوع، بالمرح وبالثرثرة.

حشر فان إصبع قدمه العارية في فردة حذاء رياضي، مستعيداً الفردة الأخرى من تحت السرير؛ أسرع نزولاً، مروراً بنظرة الأمير زيمسكي الراضية، وتجهم فينسنت فيين، أسقف بالتيكومور وكومو.

لكنها لم تكن قد وصلتْ بعد. في غرفة الطعام المشرقة، الممتلئة بعناقيد زهور صفراء قد انحنت تحت أشعة الشمس، كان

الطبيب الروسي الذي كان مشاركاً في عملية تحنيط لينين، أما الثاني فإلى سعي الاتحاد السوفييتي خلال عام ١٩٦٠ لمدّ نفوذه في زامبيا. (مترجم)

العم دان يتناول فطوره. كان يرتدي ما يتوافق مع يوم حار ريفي، تحديداً: بدلة مخطّطة كعصا حلوى، فوق قميص بنفسجي وصدرية بيضاء، مع ربطة عنق بلونَي الأزرق والأحمر، وياقة ليّنة، عالية جداً، يشدها حول عنقه دبوس ذهبي (بدا وكأن كل تلك الزخارف، الخطوط والألوان، قد شطّت عن مكانها الأصلي خلال طباعة شريط فيلم سينمائي مصغّر هزلي، خاص بأيام الآحاد). كان قد أنهى لتوّه أول قطعة خبز محمصة مدهونة بالزبدة، مع مسحة من مربى قشور البرتقال، وكانت تصدر عنه أصواتاً كديك حبش، كلما شطف أسنانه بجرعة من القهوة قبل أن يبتلعها كبحر يبتلع حطام سفينة. «كوْني صبوراً على تحمّل المشاق، لأسباب خاصة دفعتني لاعتقاد ذلك، استطعتُ تحمّل معاناة النظر المباشر إلى وجه الرجل الوردي، مع شاربه الأحمر في حالة دوران مستمر، ولكن لم يكن شيء ليجبرني (عادت تلك الذكرى إلى رأس فان عام ١٩٢٢، حين رأى صدفة زهور القنصور الصفراء من جديد) على تحمّل المنظر الجانبي لذقنٍ لا شيء يدلّ على وجودها، سوى جعدات لحية حمراء ملطخة بالقهوة». وهكذا راح فان ينظر، دون أن يؤثر شيء على شهيته، إلى الأواني الفخارية المترعة بالشوكولا الساخنة، وقطع الخبز المعدّة للأطفال الشرهين. تناولت مارينا فطورها في السرير. تناول كل من رئيس الخدم وبرايس فطورهما في خلوة ضمن مخزن المؤونة (فكرة ظريفة، بشكل أو بآخر). لم تذق الآنسة لاريفيير لقمة واحدة قبل الظهر، باعتبارها متقيّدة بشكل صارم بالـ "midinette"[١] (نحن

---

(١) midinette: ويقصد به فطور الظهيرة، ويحمل تلميحاً إلى بعض الطوائف المسيحية التي كانت ترجئ فطور يوم الأحد حتى الظهيرة، بعد إتمام الشعائر والصلاة. (مترجم)

نتكلم عن طائفة وليس علامة تجارية) حتى أنها أقنعت كاهن الاعتراف، والذي هو والدها، بالانضمام إلى مجموعتها.

«كان بإمكانك أن تأخذنا معك لرؤية الحريق يا عمي العزيز»، قال فان بينما كان يصبّ كوباً من الشوكولا.

«ستخبرك آدا بكل التفاصيل»، تناول قطعة أخرى من الخبز المحمص ودهنها بالزبدة والمربى، «لقد استمتعتْ كثيراً بالرحلة.»

«أوه، هل كانت معك؟ حقاً؟»

«أجل، في الشاربانك السوداء مع جميع الخدم، كانت مسيرة رائعة» (بلهجة بريطانية مستعارة).

«لا بدّ أنها كانت واحدة من خادمات المطبخ، وليست آدا»، قال فان مبدياً ملاحظته، ثم أضاف «فلقد لاحظت غيابهن جميعاً ليلاً، أعني الخادمات.»

«أجل، يمكنني تخيّل ذلك»، قال العم دان بطريقة مبهمة. أعاد عملية الشطف الفموية، ومع سعال خفيف، وضع نظارته استعداداً للقراءة، لكن جريدة الصباح لم تصل. خلع نظارته ووضعها جانباً.

سمع فجأة صوتها الرخيم الجميل، قادماً من ناحية الدرج حيث كان اتجاه صوتها إلى الأعلى، «لقد رأيت واحدة في إحدى سلال المهملات» - كانت على الأرجح تشير إلى بعض نبات إبرة الراعي، أو البنفسج أو زهرة أوركيد على شكل خفّ. تلى برهة صمت يدعوها الفوتوغرافيون بالتوقف المؤقت، وبعد أن وصل صياح بشرى أطلقته الخادمة من المكتبة، أضافت آدا: «أود لو أعرف فقط من وضعها هناك؟» . مباشرة بعد ذلك، دخلت غرفة الطعام.

ارتدت - دونما تواطؤ مسبق معه - سروالاً قصيراً أسود، قميصاً أبيض، وحذاء رياضياً. ذيل الحصان الكثيف الذي جمع شعرها خلف رأسها، كشف عن جبهة عريضة ومقببة. تهيّج وردي تحت

شفتها السفلى، يلمع فوقه الغليسرين، الذي حاولت - فاشلة - إخفاءه بمسحوق آخر. كان شحوبها ينتقص من جمالها. حملت مجموعة شعرية. «ابنتي البكر ذات جمال بسيط ولكن شعرها ساحر، أما الصغرى فجميلة ولكنها حمراء كثعلب»، هذا ما اعتادتْ مارينا ترداده. عمر جاحد، ضوء جاحد، فنان جاحد، أما الحبيب فلا، ليس جاحداً. موجة من العشق اشتعلت في درك معدة فان ثم علت به نحو السموات. فتنة رؤيتها، مع علمه أنها تعلم، وأن لا أحد سواهما يعرف حرية، ودناءة، وبهجة ما انغمسا فيه، قبل أقل من ست ساعات، فراق طويل لا يحتمل قسوته عاشقنا المبتدئ، رغم أنه حاول التقليل من أهمية ذلك باللجوء إلى التصويبات الأخلاقية لحالة مشينة كحالتهما. «مرحباً»، غامر بإلقائها من دون حماس، التحية الصباحية غير المعتادة (ولزيادة في سوئها، تجاهلتها)، ثم أحنى رأسه فوق فطوره، بينما كان يراقب أدنى تحركاتها بعضوه السري البوليفيمي[1]. مرّت خلف السيد فيين، ربتت بكتابها فوق رأسه الأصلع، ثم سحبت بضجيج كرسياً بجانبه، لتجلس مواجه فان. طرفتْ عينيها، برموش الدمية الكثيفة، ثم صبّت لنفسها كوباً كبيراً من الشوكولا. ورغم حلاوة الشوكولا الظاهرة، وضعت الطفلة قطعة سكر فوق ملعقتها وغطّستها برفق في كوبها، مستمتعة بمراقبة السائل البني الحار أثناء امتصاصه لزوايا الكريستال المتداعية، الواحدة تلو الأخرى، ثم ابتلاعها كاملة. في هذه الأثناء، طارد العم دان، وبحركة مؤجلة، حشرة متخيلة طارت من رأسه، نظر إلى الأعلى، ثم حوله، فأدرك وجود الوافد الجديد.

---

(١) بوليفيمي: نسبة لبوليفيموس، أحد شخصيات الميثولوجيا اليونانية، وهو أشهر كائنات السكلوب ذات العين الواحدة. (مترجم)

«أوه أجل يا آدا»، قال، «إن فان قلق البال لمعرفة أمر ما. أين كنت يا عزيزتي بينما كنا، أنا وهو، مشغولين بإخماد الحريق؟»

كان انعكاس الحريق يغزو وجهها. لم يرَ فان في كل حياته أية فتاة (ببياض بشرتها الشفاف ذاك)، أو في الحقيقة لم يرَ أحداً، خزفاً أو دراقاً، كثيراً ما تتورد وجنتاه خجلاً وعلى نحو ظاهر، فيزعجه خجله كما لم يفعل ما سبّبه. استرقتْ نظرة غبية إلى الفتى الكئيب، ثم قالت ما معناه أنها كانت غارقة في أعماق الحريق[1].

«ليس صحيحاً» قاطعها فان بحدّة، «لقد كنت معي في المكتبة وقد شاهدنا سوية وهج النار.»

تندّى وجه العم دان. «انتبها لأسلوبكما الأمريكي هذا» قال الأخير - ثم فتح ذراعيه بطريقة أبوية ترحيباً بلوسيت البريئة التي دخلت الغرفة خبباً، تمسك بقبضتها المحكمة شبكة فراشات وردية خاصة بالأطفال، وكأنها oriflamme[2].

هزّ فان رأسه مغالطاً آدا. أظهرتْ له بتلة لسانها الحادة. احمر خجلاً بدوره، واقعاً تحت صدمة الاستنكار الذاتي. ها قد بدأت الامتيازات. علّق منديله ثم انسحب إلى mestechko (مكان صغير) خارج الردهة الأمامية.

قاطع فان طريقها على بسطة الدرج، كانت قد أنهت فطورها

---

(١) غارقة في أعماق الحريق: عودة إلى ما قاله الطفلان عن الآنسة لاريفيير في الفصل السابق: «كانت «لاريفيير» غارقة في عمق الحريق، أعني النوم». (مترجم)

(٢) oriflamme: أصل الاسم لاتيني (aurea flamma، لهب ذهبي) سميت به معركة كبيرة لأحد ملوك فرنسا في العصور الوسطى. وكان في الأصل تسمية للافتة المقدسة الخاصة بدير القديس دينس في دير بالقرب من باريس. (مترجم)

بدورها وخرجت من الغرفة بفم لا يزال متخماً بالزبدة والسكر. كانت لديهما لحظة واحدة لتخطيط الأمور. تاريخياً، كان ذلك فجر عصر الرواية التي كانت لا تزال في رعاية الكهنوت(١)، والأكاديميين الفرنسيين، لذا كانت لحظات كهذه، ثمينة جداً. وقفت لتحكّ ركبتها بعد أن رفعتها. اتفقا على الذهاب في نزهة قبل الغداء وإيجاد مكان منعزل. كان عليها أن تنهي ترجمة للآنسة لاريفيير. أرته المسودة. «فرانسوا كوبيه»، «أجل».

«سقطتا بلطف. أخبر الحطاب
قبل أن تصلا الطين
السنديانة بأوراقها النحاسية
والقيقب بلون الدم في أوراقه»(٢)؟

«سقطتا على مهل» قال فان مصححاً، «ستعرف إن تابعت سقوطهما»، أضاف - «كما أن تلك الإضافة التفسيرية «حطاب» و«طين»، هي بالطبع، أسلوب لاودن الركيك (شاعر صغير ومترجم

---

(١) رواية في رعاية الكهنوت: تلميح إلى جين أوستين التي عاشت في بيت أبيها الكاهن حتى عامها الخامس والعشرين. (مترجم)

(٢) النص الأصلي لقصيدة كوبيه:
بالفرنسية:

Leur chute est lente. On peut les suivre
Du regard en reconaissant
Le chêne à sa feuille de cuivre,
L'érable à sa feuille de sang.

بالإنكليزية:

Their fall is slow. One can follow
Them with one's gaze, recognizing
The oak by its leaf of copper
The maple by its leaf of blood

(مترجم)

١٨١٥-١٨٩٥) أما وأنك قد ضحيت بنصف الرباعية الأول لإنقاذ الآخر، فقد قمت بنفس ما قام به ذلك النبيل الروسي، الذي رمى بالحوذي طعاماً للذئاب ثم وقع عن عربته.»

«أعتقد أنك قاسٍ جداً وغبي»، قالت آدا. «ليس مطلوباً مني أن أقدم عملاً فنياً أو محاكاة فذّة. إنها الفدية التي تغتصبها مربية مجنونة من تلميذة مسكينة ومجتهدة أكثر من اللازم. انتظرني عند تعريشة القنصور»، أضافت، «سأكون هناك خلال ست وثلاثين دقيقة بالضبط.»

كانت يداها باردتيْن، أما عنقها فحار؛ قرع ساعي البريد الشاب جرس الباب؛ مشى بوت - المستخدم اليافع، ابن كبير الخدم غير الشرعي - عابراً بلاط الردهة الرنان.

كان البريد عادةً ما يصل متأخراً صباح أيام الآحاد، بسبب الملحقات الورقية الهائلة الوافدة من بالتيكومور، كالوغا ولوغا، والتي كان ساعي البريد العجوز، روبيرت شيروود[1]، مرتدياً بزته الخضراء البرّاقة، يمتطي حصانه ويوزعها في جميع أنحاء الريف النعس. كان فان يهمهم بأغنيته المدرسية (اللحن الوحيد الذي حفظه في حياته) عندما تجاوز درجات الشرفة، ورأى روبيرت فوق فرسه العجوز، يمسك بلجام فحل أسود، يخص مساعد أيام الآحاد، وهو شاب إنكليزي أنيق، قد وصله هسيس ثرثرة تدور خلف سياج الورد، مفادها أن العجوز الطيب يحب عمله أكثر من المفروض والمطلوب.

وصل فان إلى المرج الثالث، ثم التعريشة، وتفحّص بعناية الخشبة التي أُعدّت للمشهد، «كقروية تصل إلى الأوبرا في ساعة

---

(١) روبيرت شيروود: تلميح إلى روبين هود وغابة شيروود والزي الأخضر. (مترجم)

مبكرة جداً، بعد ركضها طوال النهار، وبعد أن علق الخشخاش والقنطريون فوق عجلات عربتها التي دارت على امتداد طرقات حقول الحصاد» (فلوبيرغ[1] أرسولا).

«الفراشات الزرقاء» التي تقارب بحجمها «البيضاء الصغيرة»، والتي تعود مثلها لأصول أوروبية، كانت ترفرف برشاقة حول الشجيرات، وتستقر فوق عناقيد الزهور الصفراء المتدلية. بعد أربعين سنة، وفي ظروف أقل تعقيداً، سيرى عاشقانا مجدداً، بذات الدهشة والحبور، الحشرة ذاتها، والقنصور الأصفر ذاته، في طريق غابة بالقرب من سوستن - فاليه. في لحظته الحاضرة، كان يتطلع إلى كل ما يمكن جمعه لصنع ذكريات. تمدد فوق العشب، وصار يراقب الفراشات الزرقاء الكبيرة، مستدعياً بحرقة صورة أطراف آدا البيضاء - وقد رقّشها الضوء الواصل عبر عناقيد القنصور، ثم، وببرود، قال في سرّه، لا يمكن للواقع أن يبلغ مقام الخيال. عندما عاد من السباحة في جدول كبير وعميق وراء البستان، بشعر مبلل وجلد يرتعش، حصل فان على مكافأته النادرة، إذ وجد حلمه المتنبَّأ وقد تجسد بدقة، حقيقةً عاجية حية، باستثناء أنها قد أسدلت شعرها، واستبدلت زيها بثوبها القطني القصير، بلونه الزاهي، الذي لطالما أحبه بشدة، ولطالما تمنى وبشدة، منذ ماض ليس ببعيد، لو أنه يمرّغه بالتراب.

قرر أن يتعامل أولاً، وقبل كل شيء، مع ساقيها، اللتين شعر أنه لم يحظ بكفايته منهما في الليلة الفائتة؛ أن يغرقهما بالقبل، من الـ «أ»، أخمص قدميها، وحتى الـ «م»، مخملها، وهذا ما أنجزه فان

(١) فلوبيرغ: تلميح إلى غوستاف فلوبير الروائي الفرنسي، وإلى شهيرته «مدام بوفاري». (مترجم)

عندما أوغل وآدا عميقاً بما يكفي في غابة الآركس، والتي تشكل حدوداً مع السفح الصخري عند الجانب الوعر لمتنزه بين آرديس ولادور.

حقاً، لم يستطع أي منهما لاحقاً، أثناء استرجاع الماضي، ومهما ألحّا في الاستذكار، أن يثبت، متى، كيف، وأين «قطف فان زهرتها» - تعبير مبتذل اكتشفته آدا صدفة أثناء مرورها في بلاد العجائب وبحثها في موسوعة فرودي، مرفقاً بتلك العبارة: «هتك غشاء مهبل عذراء بوسيلة رجولية أو ميكانيكية»، مع تزويد الشرح بمثال: «قُطفت زهرة حلاوة روحه» (جيريمي تايلور[1]). هل كان ذلك ليلة رداء الطرطان؟ أم ذلك اليوم في غابة الآركس؟ أم تراه لاحقاً في معرض الرماية، أم في العلية، أم فوق السطح، أم فوق الشرفة المنعزلة، أم في الحمام، أم (بوضعية غير مريحة البتة) فوق البساط السحري؟ لا نعرف ولا نهتم.

(لقد قبّلتَ وقضمت، لكزتَ وهمزت، وأوغلت عميقاً ولست أدري في أية معركة فقدتُ عذريتي؛ ولكني متأكدة أن الآلة التي كان أجدادنا يسمونها «جنساً»، كانت في منتصف ذلك الصيف، تعمل بسلاسة كما فعلت لاحقاً، عام ١٨٨٨ . . . إلخ. . حبيبي. ملاحظة فوق الهامش بحبر أحمر).

---

(١) جيريمي تايلور (١٦١٣-١٦٧٦): قس، وثيولوجي إنكليزي. (مترجم)

٢١

لم تكن يد آدا مطلقة في المكتبة. ضمت المكتبة ١٤,٨٤١ مجلداً، وفقاً للائحة الأخيرة (المطبوعة ١ مايو ١٨٨٤)، وقد فضّلتْ معلمتها إبقاء حتى الفهرس المفتقر إلى التشويق، بعيداً عن يدَي الطفلة، خوفاً من «تقديم الإيحاءات». ولكن من دون شك، فقد كانت لآدا فوق رفوفها الخاصة، أعمال تصنيفية في علم النبات وعلم الحشرات، إلى جانب كتبها المدرسية وبعض روايات شعبية مغدقة في البراءة. ولم يتوقف الأمر على منعها من استعراض المكتبة من دون مشرف، بل كان لا بدّ لكل كتاب تخرجه بغرض قراءته في السرير أو الحديقة، أن يمرّ تحت رقابة معلمها الخاص، ليبدي موافقته قبل أن يدرج ملاحظة باسم الكتاب ممهورة بالتاريخ، محفوظة في ملف «الإعارة»، ضمن الملفات التي، وكمحاولة لفرض شكل من أشكال النظام اليائسة، احتفظتْ بها الآنسة لاريفيير ، في حالة من الفوضى الدقيقة (مع إدخال علامات استفهام، إشارات استغاثة، وحتى شتائم، مكتوبة جميعها فوق قطع من الورق الوردي، الأحمر والأرجواني) لدى ابن عم لها، السيد فيليب فيرجيه[1]،

(١) فيليب فيرجيه: تلميح إلى بيير فيكتور فيرجيه مؤلف القاموس الكلاسيكي للغة الفرنسية عام ١٨٢٧. (مترجم)

عجوز عازب هزيل، صامت وخجول على نحو مَرَضيّ، يداهم مكتبة آرديس مرة كل أسبوعيْن، حيث يعمل لبضع ساعات بطريقة صامتة، في الواقع صامتة جداً، لدرجة أنه ذات مرة، بعد ظهر أحد الأيام، وعندما، وبحركة بطيئة جداً، انزلق فجأة أحد سلالم المكتبة الطوال نحو الوراء، ووقع فوقه بينما كان يحتضن طاحونة من المجلدات، فإنه قد سقط أرضاً مغشياً عليه، مع الكتب والسلّم فوقه، دون أن يصدر عن ذلك أدنى ضجيج، حتى أن آدا المذنبة، والتي كانت تعتقد نفسها وحيدة هناك (تتصفح على عجل، بخيبة أمل، مجلد «الليالي العربية[1]») قد أخذت سقوطه على أنه ظلٌّ لباب يفتحه أحد الخصيان الناعمين المتسللين.

علاقتها الحميمة مع «العزيز، العزيز جداً رينيه[2]»، كما كانت تدعو فان أحياناً من باب الملاطفة، قد غيرت وضع مطالعتها كلّياً - رغم كل أوامر الحظر التي بقيت معلقة في الهواء. ما إن وصل آرديس، حذّر فان مربيته السابقة (ولأسباب معينة أخذت تهديداته على محمل الجد)، بأنه إن لم يكن ليُسمح له بدخول المكتبة - متى شاء، ولأية مدة شاءها، ومن دون أي إشارة «إعارة» - بغرض إخراج أي مجلد، أية مجموعة كاملة، أي كتيّب أو مخطوطة قد يرغب في الاطلاع عليها، فإنه سوف يكلّف الآنسة فيرتوغراد (أمينة مكتبة أبيه، عجوز قد كرّست عنوستها الكاملة للعمل هناك، ولها كما لفيرجيه شكل يعود لتاريخ الإصدار ذاته) بأن ترسل إلى آرديس صناديق مليئة بكتب القرن الثامن عشر الفاجرة، وعلوم الجنس الألمانية، و«السيرك

(١) الليالي العربية: ألف ليلة وليلة. (مترجم)

(٢) رينيه: عزيزي رينيه: وردت عدّة مرات على لسان شخصية إميلي في رواية رينيه للكاتب الفرنسي شاتوبريان الصادرة عام ١٨٠٢، متوجهة بها إلى أخيها رينيه الذي جمعها به ما هو أبعد من عاطفة الأخوة. (مترجم)

الكامل» لكتب الكاماسوترا والنفزاوي[1] بترجمتها الحرفية مع إضافات ملفّقة. كانت الآنسة لاريفيير التي تقاذفتها الحيرة، لتستشير سيد آرديس في ذلك، ولكنها لم تناقش معه أي موضوع جدّي منذ ذلك اليوم (في يناير ١٨٧٦) حين مرّ بها على نحو غير متوقع (أو غير ودي، حقيقة - من باب الإنصاف). وعندما طلبتْ مشورة مارينا العزيزة، والطائشة، فقالت الأخيرة، مبدية رأيها، إنها حينما كانت في عمر فان سمّمتْ مربيتها بسمّ الصراصير حين منعتها من قراءة رواية «الدخان» لتورغينيف، على سبيل المثال. وبعد ذلك، كل ما رغبتْ آدا في قراءته، أو قد ترغب في قراءته، وضعه فان تحت تصرفها في مختلف الزوايا الآمنة. لم يكن لذلك عاقبة مرئية سوى حيرة وارتباك المسكين فيرجيه، الذي لم يجد تفسيراً لوفرة الغبار الأبيض المذرور هنا وهناك، فوق السجادة القاتمة، وتحت الرفوف التي استهلك تصنيفها كدحاً وجهداً هائليْن، إذ لا يمكن لرجل منظّم ونظيف مثله، إلا أن يرى في الأمر لعنة وحشية.

قبل عدّة سنوات، وخلال حفلة عيد ميلاد لطيفة جمعتْ أمناء المكتبات الخاصة، وقد نُظّمت تحت إشراف «نادي براي» في رادوغا، لاحظت الحنونة فيرتوغراد أنها تشارك فيرجيه، المقهقه، بتناول قطعة حلوى ملفوفة بورق معدنيّ (تم انتزاعه من دون أدنى صوت - ودون أن يثمر حلّ الطرفيْن الذهبيين المكشكشيْن عن أدنى حبة «بونبون»، أو حبة مجوهرات، أو أية نعمة قدرية كانت) كما تشاركه أيضاً مرضاً جلدياً غريباً كان قد تمّ تصويره مؤخراً من قبل

(١) النفزاوي: أبو عبد الله محمد بن محمد النفزاوي، مؤلف كتاب «الروض العاطر في نزهة الخاطر» هو كتاب تعليمي جنسي. ألفه فيما بين عامي ١٤١٠ و١٤٣٤ بناء على طلب من السلطان عبد العزيز الحفصي سلطان تونس.

روائي أمريكي شهير في كتابه «شيرون[١]»، وُوصف بأسلوب مضحك من قبل أحد المصابين به[٢]، الذي كتب مقالات لصحيفة لندنية أسبوعية. طلبت الآنسة فيرتوغراد من فان الذي كان يتسلل إلى مكتبة آرديس، وبعد كثير من الإلحاح، أن ينقل لها متوخّياً الدقة، اقتراحات لكتب فرنسية تتناول مواضيع معينة كالزئبق أو الـ Höhensonne[٣] العجيب. الآنسة لاريفيير بدورها، والتي شاركتهما السر، أشارتْ إلى مادة عن الصَّدَفية موجودة في كتاب ضمن موسوعة طبية، تركتها لها أمها المتوفاة. لم تكن الموسوعة فقط لتساعدها، وتساعد طلابها، في علاج بعض الأمراض الصغيرة، بل أيضاً في اقتراح أمراض مناسبة لشخصيات قصصها التي نشرتها في Québec Quarterly. في ذلك الوقت، كانت النصيحة الوحيدة التي تحمل بعضاً من تفاؤل هي «أخذ حمام دافئ مرتيْن شهرياً على الأقل، وتجنب التوابل»، الوصفة التي طبعتْها وأرسلتْها إلى ابن عمها في ظرف يحمل علامة «Get-Well» (معافاة). أخيراً، أطلعتْ آدا فان على رسالة واصلة من الدكتور كروليك حول الموضوع ذاته؛ تقول الرسالة (بنسختها الإنكليزية): «لطخات قرمزية، حراشف فضية، بقع قشرية صفراء، صدفية وغير مؤذية (ليست معدية كما أن المصابين بها يعتبرون من أكثر الناس صحة، إذ إن ذلك الأذى الصغير يمنع عنهم

---

(١) شيرون: من أشهر روايات الروائي، الشاعر، والناقد الأمريكي جون أبدايك (١٩٣٢- ٢٠٠٩). (مترجم)

(٢) أحد المصابين بالمرض: إشارة إلى الصحفي الانكليزي آلان برين (١٩٢٥- ٢٠٠٨).

(٣) «الميركور» أو الـ"Höhensonne": الميركور أو الزئبق وكان يستخدم في علاج الأمراض الجلدية ومنها الصدفية، أما الآخر فهو تسمية لمصباح إضاءة فوق البنفسجية كان يستخدم للغرض ذاته. (مترجم)

خطر البوباس[1] والسفلس، كما أشار أستاذي عدّة مرات) وقد شُخّصت خطأً في العصور الوسطى على أنها جذام - أجل جذام - حين اقتيد آلاف المقيدين إن لم يكونوا ملايين، من أشباه فيرجيه وفرتوغراد، يسبقهم عويلهم وهياج المتفرجين المتحمسين، نحو الأعمدة المنصوبة في ساحات إسبانيا، وخمسة بلاد أخرى مهووسة بعقوبة الحرق». ولكن لم يكن لأي من فان أو آدا نية بإدراج تلك الملاحظة ضمن فهرس الكتاب المتواضع، فعلماء الحرشفيات، برأيهما، يبالغون في الوصف إن تعلّق الأمر بالحراشف.

بعد أن قدمت أمينة المكتبة تعيسة الحظ تنازلاً، في الأول من أغسطس، ١٨٨٤، أصبح للروايات، لدواوين الشعر، للكتب العلمية والفلسفية، جولتها خارج المكتبة، دون أن يلحظ أحد ذلك. عبرت المروج، طارت خلف الحواجز - بطريقة تشبه إلى حدّ ما، الطريقة التي اعتمدها الرجل غير المرئي لنقلِ الأشياء، في رواية ويلز[2] الممتعة - لتهبط في حضن آدا، التي اصطحبتها نحو كل مواعيدهما الغرامية. بحث كلاهما عن المتعة في الكتب كما يفعل دائماً القراء الجيدون؛ وجد كلاهما في العديد من الأعمال ذائعة الشهرة تضليلاً وادّعاءً باعثيْن على السأم.

«**وهكذا**، أمكن للطفلين أن يغرفا من المتعة من دون خوف»، الجملة التي لم تفهمها آدا تماماً، يوم قرأتها للمرة الأولى - في التاسعة أو ربما العاشرة من عمرها - في القصة التي كتبها شاتوبريان عن علاقة حب تنشأ بين شقيقيْن. في مجموعة من المقالات تحت عنوان «متعة المفكرين»، والتي صارت آدا قادرة على مناقشتها بكلّ

(١) بوباس: أو فرامبوزيا. مرض جلدي. (مترجم)

(٢) هربرت جورج ويلز (١٨٦٦-١٩٤٦): روائي إنكليزي. من أشهر أعماله: «آلة الزمن»، «الرجل الخفي». (مترجم)

حبور، وجدتْ نقداً مسيئاً لكلمة «**وهكذا**»، يتلخص بالإشارة إلى عقم عمريْهما الطريّ والقرابة التي تجمعهما على حدّ سواء. ومع ذلك، قال فان إن الكاتب أخطأ كما الناقد، ولدعم رأيه وتوضيحه، لفت نظر محبوبته إلى أحد فصول مؤلفات «الجنس والقانون» الذي يتناول تأثيرات نزوات الطبيعة الكارثية على المجتمعات.

في تلك البلاد خلال ذاك الزمن، لم يكن لكلمة incestuous سفاح المحارم غير تفسر واحد ألا وهو الفسوق - من منظور لغوي أكثر منه شرعي - مع تداخل ضمني لما يحمل إشارة إلى تشويه السياق الطبيعي للتطور البشري (عبارة «تناسل المحارم»، إلخ). تاريخياً، طغت الفطرة السليمة والمعارف الشعبية على «القانون الإلهي». أخذاً بتلك الاعتبارات، يمكن اعتبار السفاح جريمة فقط لأن التناسل من زواج الأقارب قد يكون جريمة. ولكن تقيّداً بإشارة «القاضي ذي الرأس الأبيض[١]» أثناء أعمال الشغب في ألبينو[٢] عام ١٨٣٥، قام كلٌّ من المزارعين ومربّي الحيوانات في طارطاريا وأمريكا الجنوبية، باستخدام هذا النوع من التكاثر من أجل الحفاظ على النسل وتحفيزه وترسيخه، لا بل حتى خلق سمات جديدة واعدة في عرق أو سلالة، ما لم يُطبق بصرامة شديدة، إذ إن السفاح الصارم قد أدّى إلى ظهور عدّة أشكال من السلالات المنحدرة، المشوهة، والضعيفة، «التحولات الصامتة»، وفي نهاية المطاف إلى عقم يائس. الآن وبعد أن أُعلن كجريمة، وباعتبار أن لا أحد يمكنه السيطرة الحكيمة على عربدات السفاح المسوح به (في بقعة ما من طارطاريا

---

(١) القاضي ذو الرأس الأبيض: تلميح إلى الصقر ذي الرأس الأبيض رمز الولايات المتحدة الأمريكية.

(٢) ألبينو: اسم من اختراع الكاتب يلمح به إلى بوسطن التي جرت فيها أعمال شغب في ذات العام المذكور. (مترجم)

انتهى الأمر مؤخراً، وفجأة، بخمسين جيلاً من الخراف ذات الصوف الكثيف والدائم، بولادة حمل عديم الشعر، بخمس قوائم، هزيل جداً - ولجوء عدد من المزارعين إلى سياسة قطع الرأس لم يفلح في إحياء السلالة الشحيمة) كان من الأفضل تحريم «سفاح المحارم» جملة وتفصيلاً. لم يكن ذلك رأي القاضي بلاد (Blad) وأتباعه ، الذين رأوا في القمع المتعمد لمنفعة قد تجنّب شراً محتملاً، انتهاكاً لواحد من حقوق الإنسان الأساسية - استمتاع الإنسان بحرية اختيار تطوره، الحرية التي لا يعرفها أي كائن آخر. للأسف، في ذروة ذاك الجدل، وبعدما أُشيع عن قطيع ورعاة الفولغا، تناهى إلى أنظار الرأي العام الأمريكي، خبر مدعّم بتفاصيل أكثر دقة: مواطن أمريكي معيّن، يدعى إيفان إيفانوف، مواطن من يوكونسك، موصوف على أنه «عامل دائم السكر» (تعريف جيد لعبارة «فنان حقيقي»، قالت آدا بمرح) تمكّن بطريقة ما من تلقيح حفيدته ماريا إيفانوف ذات السنوات الخمس، وقد حصل ذلك أثناء نومه وهذه النقطة تحديداً أكّدها هو كما فعلت أسرته الهائلة. ثم وبعد خمس سنوات أخرى، وفي نوبة نعاس أخرى، لقح أيضاً داريا ابنة ماريا، وبعدها طفلة أخرى. أظهرتْ صور فوتوغرافية في كل الصحف ماريا جدةً في عامها العاشر، مع داريا الصغيرة، وفاريا تزحف حولهما. مهزلة الأنساب تلك قد أثارت غضب الأفراد الأحياء - وليسوا بالضرورة فاضلين - من عشيرة إيفانوف، قد أصبحت مادة دسمة لترويج جميع أنواع الألغاز المسلية في يوكونسك. قبل أن يتمكن العجوز المسرنم ذو الستين عاماً من الاستمرار في الإنجاب، كان حبيساً داخل أحد الأديرة لمدة خمسة عشر عاماً بموجب قانون روسي قديم. بعد إطلاق سراحه، اقترح القيام بتعديلات مشرّفة عن طريق زواجه من داريا، التي كانت حينها شابة عارمة الصدر، تعاني من مشاكلها الخاصة.

أسهب الصحافيون في وصف الزفاف، وهدايا المهنئين التي أمطرت على العروسيْن (سيدات عجائز من نيوإنغلاند، شاعر تقدمي مقيم في جامعة تينيسي - والتز، ثانوية مكسيكية بكل من فيها، إلخ)، وفي اليوم ذاته، قام غاماليل (الذي كان آنذاك سيناتور شاباً وشجاعاً) برطم طاولة المؤامرات بقوة جعلته يؤذي قبضته، مطالباً بإعادة المحاكمة وعقوبة الإعدام. كانت بالطبع لفتة مزاجية من قِبله؛ ولكن قضية إيفانوف قد ألقت ظلاً طويلاً فوق المسألة الصغيرة المتمثلة بـ«تناسل الأقارب». بحلول منتصف القرن، لم يطل التحريم فقط زواج أبناء العمومة من درجة القرابة الأولى، بل تعداه ليشمل القرابة الثانية أيضاً، وفي بعض مناطق إيستوتي الخصبة، حيث تنتشر بيوت الفلاحين التي يحوي كل منها عائلة كبيرة قد يفوق عدد أفرادها اثني عشر شخصاً من كلا الجنسيْن وبأحجام مختلفة، وينامون على فراش واحد، كانت الأوامر تُعطى بعدم إغلاق الستائر، تسهيلاً لدوريات المصابيح النفطية الليلية، «الجاسوس الإيرلندي»، كما أسمته الصحف الشعبية المعادية لإيرلندا.

جلجلت ضحكةٌ فان حين كشف لآدا، ذات العقل المهووس بعمل الحشرات، المقطع التالي من تاريخ موثق لـ«عادات التزاوج»:

«الوضعيّة التبشيرية[1]، التي تتضمن بعض المخاطر والسخافة المعتمدة لغرض الجماع من قِبل نخبة المثقفين المتزمتين، والتي بالمقابل قد استهزأ بها السكان الأصليون البدائيون، أصحاء العقول في جزيرة بيغوري، قد كشف عنها مستشرق فرنسيّ بارز [حاشية سفلية طويلة، تمّ تخطيها] خلال وصفه لعملية تزواج الذبابة

---

(١) الوضعية التبشيرية: وردت في قاموس أوكسفورد: "s.v. missionary": وضعية جنسية أثناء الجماع حيث يكون الزوجان وجهاً لوجه مع استلقاء المرأة تحت الرجل. (مترجم)

Serromyia amorata Poupart. أثناء التزاوج، تنطبق الأسطح البطنية للشريكيْن بعضها فوق بعض، بحيث يتلامس الفاهان. عند انتهاء آخر ارتعاشة في الجماع، تمتص الأنثى محتوى جسم عاشقها من خلال فمه. من المفترض (انظر إلى بيسون وغيرها) [حاشية وفيرة أخرى] أن تلك التحلية المقدّمة للأنثى، كساق الذكر الغضّة والمغلفة بمادة خيطية، أو حتى ما هو أكثر رمزية (نهاية تافهة أو بداية متقنة لعملية تطورية - من يدري!) كبتلة ملفوفة بعناية ومربوطة بورقة من السرخس الأحمر، التي يجلبها بعض ذكور البعوض (ما عدا الـ femorata والـ amorata) إلى الأنثى قبل التزاوج، كتقديم ضمان حذر للشابة تفادياً لشراهة مبكرة قد تفسد الأمر برمّته.»

ولكن ما حمل جرعة أكبر من التسلية، كان «رسالة» من كندية عاملة في الشأن الاجتماعي، السيدة ريان فيشيني، التي نشرت دراستها حول «وسائل منع الحمل»، باللهجة العامية الخاصة بكابوستان (لتجنب خدش حياء سكان إستونيا والولايات المتحدة الأمريكية، في حين أبلغت العاملين في حقلها بذلك) إذ كتبت:

"Sole sura metoda por decevor natura, est por un strong-guy de contino-contino-contino jusque le plesir briviz; et lors, a lultima instant a, svitchera a l'altra gropa [groove]; ma perquoi una femme ardora andor ponderosa ne se retorna kvik enof, la transita e facilitata per positio torovago".

«الطريقة الوحيدة لخداع الطبيعة هي أن يستمر الرجل القوي بالإيلاج، ويستمر ويستمر حتى تدركه لحظته الكبرى، وعندها، وفي اللحظة الأخيرة، ينتقل إلى الأخدود الآخر، ولكن وبما أن المرأة المثارة أو السمينة لا يمكنها تبديل الوضعية فوراً، يُنصح باتخاذ وضعية Torovago[1] منذ البداية»؛ وقد أُلحق بذلك المصطلح

(١) Torovago: وضعية الجماع التي تعتمدها الحيوانات. (مترجم)

تفسيراً في قاموس المصطلحات، بالإنكليزية الصريحة: الوضعية المعتمدة بشكل عام في المجتمعات الريفية من قِبل جميع الطبقات، ابتداءً بالنبلاء وانتهاء بالحيوانات الأكثر وضاعة، في جميع أنحاء الولايات الأمريكية، من باتاغوني إلى غاسب. وعليه استنتج فان: «لا للتبشيرية بعد الآن!».

«لا يعرف ابتذالك حدوداً» قالت آدا.

«أفضّل أن أموت حرقاً على أن تشربني حبيبتي حيّاً - أو قاتلتي، سمّها كما شئتِ - ثم لأصير بيضاً أخضر صغيراً تضعه أرملتي».

من المفارقات العجيبة، أن آدا العالمة قد وجدت سأماً كبيراً في الأعمال الكبيرة التي تحوي رسومات للأعضاء، ولبيوت الدعارة الخاصة بالقرون الوسطى، أو صوراً فوتوغرافية لهذا او ذاك القيصر الصغير، أثناء عملية انتزاعه من رحم أمه، حسب طرق الجزّارين، والجرّاحين المقنّعين، في العصور القديمة والحديثة؛ وبالمقابل، فإن فان الذي لم يكن مولعاً بالتاريخ الطبيعي، ولطالما شجب وبشدة الألم الجسدي الموجود في كل العوالم، كان مفتوناً إلى أبعد حدّ، بتوصيفات وتصويرات تعذيب الجسد البشري. أما في المجالات الأكثر رقة وبياناً، فقد أثبتا أنهما يتقاسما الذائقة ذاتها. أحبّا رابليه وكازانوفا؛ كرها السيد ساد، والسيد مازوش، وهاينريش مولر[(١)]. على المدى الطويل، أضجر الشعر الإنكليزي والفرنسي الإباحي الطفليْن، رغم كونه ظريفاً ومفيداً في بعض الأحيان، أما اتجاهه ذاك (وخاصة قبل الغزو الفرنسي) نحو جعل الرهبان والراهبات يؤدون

---

(١) هاينريش مولر (١٩٠٠-١٩٤٥): مسؤول في الشرطة الألمانية الغستابو في حقبة كل من جمهورية فايمار، وألمانيا النازية. أصبح رئيس الغستابو، الشرطة السرية لألمانيا النازية، وقد شارك في التخطيط والتنفيذ للمحرقة. (مترجم)

مآثر جنسية، فقد بدا لهما غير مفهوم ومحبطاً، على حدّ سواء. من الناحية الفنية، صنّفا مجموعة الصور الشرقية الإيروتيكية الخاصة بالعم دان، كدرجة ثانية، أضف على ذلك تفاهتها. اللوحة الأغلى والأكثر غرابة، كانت تلك التي تصور فتاة منغولية، بوجه بيضاوي يعلوه شعر بشع، تتواصل جنسياً مع ستة من لاعبي الجمباز، قصيرين وممتلئي الأجسام، بوجوه خالية من التعابير، في مكان عبارة عن نافذة عرض مزدحمة بالستائر الخشبية القابلة للطي، أصص نباتات، قصائص حرير، مراوح ورقية وأوانٍ فخارية. ثلاثة من الذكور، في وضعيات تبدو معقدة وغير مريحة، يستخدمون في الوقت ذاته الفتحات الثلاث الرئيسية الخاصة بالزانية، التي كانت تتعامل يدوياً مع زبونيْن آخريْن مسنّيْن، أما السادس، وهو قزم، فقد وضعت قدمها المشوّهة تحت تصرفه. ستة ذكور شبقين آخرون، كانوا يلجون شركاءها المباشرين، مع سابع كان عالقاً تحت إبطها. بعد أن قام العم دان، وبكل صبر، بتفكيك وتحديد كل الأعضاء المشتركين، مع الطيات البطنية المتعلقة بشكل مباشر أو غير مباشر بالمومس الوديعة (التي لا تزال تحتفظ بأجزاء من ثوبها)، كتب ملاحظة تحدّد سعر اللوحة مع تعريف لها: «غيشا مع ثلاثة عشر عاشقاً». ومع ذلك، استطاع فان أن يحصي خمس عشرة سرّة، قد ألقاها الرسام بسخاء، ولكن لا يمكن لها أن تُحسب تشريحياً.

قامت تلك المكتبة بتأثيث مسرح لأبطال مشهد «حريق الحظيرة» الذي لا يُنسى؛ فتحت لهما أبوابها المزجّجة، ووعدت بملحمة مكتبية؛ ربما أصبحت ذاتها فصلاً في رواية منسية فوق رفوفها؛ أثراً من محاكاة، وقد أضفى على ثيمتها المتزمتة، بعضاً من راحة الحياة الهزلية.

٢٢

أختاه! هل ما زلت تذكرين
اللادور الأزرق في قاعة آرديس؟

هل تراك نسيت تماماً
القلعة المستحمة في لادور؟

أختاه! هل ما زلت تذكرين
حائط القلعة القديم المستحم في لادور؟

أختاه! هل ما زلت تذكرين
سندياناتي المنتشرة فوق التلة؟

أوه من يعيد لي آلين
وسنديانتي الكبيرة والتلة؟

أوه من يعيد لي آديل
والجبل والسنونو؟

من يعيد لي لوسيل
لادور والسنونو الرشيق؟

من يعيد لنا ألسنتنا
مع كل الكلمات التي أحبتها وغنتها؟[١]

ذهبا إلى لادور للسباحة، تنزّها في قارب، اتّبعا التواءات نهرها الرائع، اجتهدا في تأليف مزيد من القوافي المنتهية باسمها، صعدا التل نحو البقايا السوداء لقلعة بريانت، التي لا تزال طيور الطنّان تحلّق حول برجها. سافرا إلى كالوغا، شربا من ماء كالوغا، ورَأَيا طبيب أسنان العائلة. كان فان يقلب صفحات مجلة حين سمع صراخ آدا قادم من الغرفة المجاورة: chort (يا للشيطان)!، الكلمة التي لم يسبق له أن سمعها تتفوه بها. شربا الشاي عند الجيران، الكونتيسة دو براي، التي حاولت، ولم تفلح، أن تبيعهما حصاناً أعرجاً. زارا معرض مدينة آرديس، Ardisville، حيث أُعجبا وبشكل خاص بالبهلوانات الصينية، المهرج الألماني، والأميرة الشركسية الضخمة مبتلعة السيوف، التي ابتدأت بسكين فاكهة، ثم خنجر مرصع بالجواهر، لتنتهي بازدراد قطعة سجق هائلة الحجم، بجلدها وخيطها وكل ما فيها.

مارسا الحب - غالباً في الوديان والأخاديد.

بالنسبة لفيزيولوجيّ عادي، ستبدو طاقة هذيْن المراهقيْن الجنسية غير طبيعية. كان توقهما بعضهما لبعض يتزايد بطريقة غير محتملة، إن لم يتم إشباعه عدّة مرات وفي غضون ساعات قليلة، تحت الشمس وفي الظلال، فوق السطح أو في القبو، في أي مكان ممكن. وبرغم وجود مصادر استثنائية لتغذية تلك الحرارة الملتهبة،

---

(١) القصيدة محاكاة لـ«قصيدة حب إلى هيلين»، لشاتوبريان. وقد وردت على لسان البطلين في النص الأصلي بلغات ثلاث: الإنكليزية والفرنسية والروسية. (مترجم)

فإن الشاب فان بالكاد استطاع مواكبة سرعة الـ amorette (لهجة فرنسية عامية محلية) البيضاء الصغيرة. كاد الاستثمار المفرط لمتعة جسديْهما يصير جنوناً قد يبتر شبابيهما، ما لم يكن الصيف - الذي بدا لهما وكأنه تدفق غير محدود للمجد الأخضر والحرية - قد تعب، وبدأ يلوّح مهدداً بتساقط الأخضر وخفوته، وبالفرار نحو آخر مأوى، جناس الطبيعة المبهج (الورقة والعثّة، حين تقلّدا بعضهما بعضاً)، استراحة أواخر أغسطس، والبداية الصامتة لسبتمبر. كانت البساتين والكروم متنوعة الألوان ذلك العام على نحو خلاب؛ وكان بن رايت قد طُرد بعد أن أطلق العنان لريحه أثناء توصيل مارينا والآنسة لاريفيير إلى المنزل، بعد زيارة لمهرجان فيندانغ، في برانتوم قرب لادور.

ما يذكّر بشيء آخر. كتالوج في مكتبة آرديس مدْرج تحت تصنيف Exot lubr، بحجم فخم (عرفه فان بفضل خدمات فرتوغراد اللطيفة)، حمل عنوان «روائع محظورة»: مئات اللوحات المعروضة في قسم كبير من المتحف الوطني (القسم الخاص)، التي طُبعت لجلالة الملك فيكتور. إنها اللوحات (ملوّنة على نحو رائع) الحسيّة والرقيقة التي لم يمتنع كبار الرسامين الإيطاليين عن إنتاجها بين جملة من الآداب والفنون التي بُعثت من جديد، وعلى امتداد فترة طويلة وشديدة من عصر النهضة. كانت نسخة الكتالوغ تلك إما ضائعة أو مسروقة، أو مخفية في العلية بين متعلقات العم دان، والتي كان بعضها غريباً حقاً. لوحة في ذهن فان، لم يستطع أن يتذكر تماماً لمن كانت تُنسب، ربما إلى ميكيل أنجلو دا كارافاجيو[1] إبّان

(١) ميكيل أنجلو دا كارافاجيو: رسام إيطاليّ (١٥٧٣-١٦١٠) واسمه الحقيقي ميكيل أنجلو ميريزي وملقب بكارافاجيو. ملاحظة: اللوحة التي يصفها

شبابه. كانت رسماً بالألوان الزيتية فوق قماش (كانفاس) غير مؤطّر، تصوّر ولداً وبنتاً عاريِيْن، يقترفان إثماً في مغارة يعرّش فوق جدرانها السرخس، أو ربما يسري خلالها جدول نبيذ، أو ربما تقع قرب شلال صغير تطفو على سطحه أوراق زمردية اللون، مدبوغة بالبرونز القاتم، مع عناقيد كبيرة جداً شبه شفافة، ظلال وانعكاسات واضحة للفاكهة وأوراق الشجر، تمتزج على نحو سحري مع بشرة معرّقة.

ذات عصر، عندما ذهب الجميع إلى برانتوم، شعر أنه انتقل بنفسه إلى تلك اللوحة المحظورة (قد يكون هذا مجرد تحوّل في الأسلوب) فذهب وآدا ليستحما بالشمس فوق حافة الكاسكاد، داخل غابة الآركس، في متنزه آرديس. انحنتْ حوريته الصغيرة فوقه وفوق رغبته المفضّلة. تحت أشعة جوهرة السماء، لمع بريق أزرق في سواد شعرها الطويل والمسبل، مع طبقات بلون عمق العقيق، متناوبةً مع العنبر الداكن، تتماوج بين خيوط رقيقة وطويلة تغطي تجويف خدها، يشقّها بعناية، مرتفع كتفها العاجي. نسيج ذلك الحرير البني، بريقه، رائحته، وكل ما فيه قد ألهب حواس الفتى في بداية ذاك الصيف المشؤوم، بتأثير قوي ما فتئ رازحاً تحته لفترة طويلة، بعد أن وجد توقّدُ شبابه في آدا مصادر جديدة لنعيم لا يمكن الشفاء منه البتة. في التسعين من عمره، تذكّر فان سقوطه الأول عن حصان، السقوط الذي كان بالكاد مقروناً بصعوبة التقاط الأنفاس، كصعوبة التقاطها حين انحنت آدا فوقه فأمسكها من شعرها بقوة. دغدغ شعرُها فخذيه، تسلل إلى فرجه، انفرد فوق بطنه الخافقة. من خلاله، تمكن طالب

الكاتب هي محض خيال ولكنها مستوحاة من عدة أعمال للرسام ذاته. (مترجم)

الفنون من رؤية قمّة مدرسة ترمبلوي[1]، نصب تذكاري، متعدد الألوان، نتوء مع خلفية داكنة، يبدو جانبياً غارقاً في إضاءة كارافجية مركزة. داعبته بدلال، ضفرته - كتعريشة لولبية تدور حول عمود - حاصرته أكثر فأكثر، إلى أن، وأطيب من أي وقت مضى، لعقت عن عنقه قوّتَه التي ذابت في عمق القرمز الناعم. فوق حافة ورقة عريش، كان هنالك يرقة sphingid قد قضمتها على شكل هلال. وكان هنالك أيضاً عالم حشرات شهير جداً، وصغير، وبعد أن استُنفدت كل الأسماء اللاتينية واليونانية، اخترع لها أسماء جديدة قائمة على التورية اللفظية: ماريكيزم، آديكيزم، آداأومبراسموا (Marykisme، Adakisme، Adaembrassemoi[2]). هي الفاعلة. بريشة من تلك اللوحة الآن؟ تيتيان[3] العظيم؟ الثمل بالما فيكيو[4]؟ لا. قد تكون أي شيء ما عدا لوحة «شقراء فينيسيا». أيكون دوسو دوسي[5]؟ أحد الآلهة متعب بجمال حورية؟ ساتير المنتشي؟ ألا يؤذي لسانَكِ ضرسُك المحشو مؤخراً؟ لقد جرحني. أنا أمزح، يا لاعبة السيرك الشركسية.

لحظات قليلة، ثم بدأ عرض اللوحات الهولندية: لوحة لفتاة

---

(١) ترمبلوي: أي خداع البصر، وهو تسمية لتقنية للرسم الفني، استخدمت في اليونان القديمة وفي روما. (مترجم)

(٢) Adaembrassemoi: تعني العبارة بعد تفكيكها «قبليني يا آدا». (مترجم)

(٣) تيتيان: تيتسيانو فيتشيليو (١٤٨٨-١٥٧٦) رسام إيطالي من البندقية. (مترجم)

(٤) بالما فيكيو (١٤٨٠-١٥٢٨): رسام إيطالي. أما لوحة «شقراء فينيسيا» فهي إحدى لوحاته المعروفة بـ«امرأة شقراء». (مترجم)

(٥) دوسو دوسي (١٤٨٩-١٥٤٢): رسام إيطالي، من أشهر لوحاته «ساتير والحورية». (مترجم)

تخطو داخل بركة[1] تحت شلال صغير لتغسل خصلات شعرها، وتلفّها بيديها على شكل خواتم، إشارة إلى زمن سحيق، مع فم قد فتحته الدهشة على شكل خاتم، لفتة إلى الماضي البعيد أيضاً وأيضاً.

يا أختاه! هل تذكرين
برجنا الصغير «البربري»؟

يا أختاه! هل ما زلت تذكرين
القصر المستحم في لادور؟

(١) لوحة الفتاة المقصودة هي لوحة «سوزانا والعجوزيْن» لرامبرانت الرسام الهولندي الشهير، رسمها عام ١٦٤٧. (مترجم)

٢٣

سار كل شيء على ما يُرام إلى أن قررت الآنسة لاريفيير البقاء في سريها لخمسة أيام: كانت قد لوت ظهرها وآذته حين ركبت حصاناً خشبياً في معرض فينتاج، وكانت إضافة إلى ذلك، في مرحلة الإعداد لكتابة قصة جديدة (حول عمدة قرية خنق فتاة صغيرة تدعى روكيت[1])، وقد أيقنتْ أن لا باعث على الوحي كدفء السرير. أثناء المرحلة ذاتها، كان يُفترض بفرينش، خادمة الطابق الثاني - التي لم يتوافق شكلها ولا حتى مزاجها مع طباع بلانش الطيب وخصالها الرائقة - أن تعتني بلوسيت، بينما لوسيت، قد قامتْ بأقصى ما يمكن لتجنّب رعاية الخادمة الكسولة، مفضلة عليها صحبة أختها وابن عمها. الردود المنذرة بالسوء: «حسناً، إن كان السيد فان يسمح لك بذلك»، أو «أجل، أنا واثق أن الآنسة آدا لن تمانع التقاطك للفطر أثناء تواجدك معنا». عبارات قد قرعتْ في مسمعيْهما كأجراس جنازة تهدد حرية حبهما. وبينما كانت السيدة المرتاحة بقضاء نقاهتها تكتب واصفة ضفاف غدير حيث كانت بطلتها روكيت

---

(١) روكيت بطلة قصة لاريفيير: تلميح إلى قصة La Petite Roque كتبها غي دو موباسان عام ١٨٨٦. (مترجم)

تحب أن تمرح، جلستْ آدا على ضفة مشابهة، تلقي بين الفينة والأخرى نظرة حزينة نحو الأجمات دائمة الخضرة (التي لطالما آوت عشّاقنا) ونحو فان بجذعه الذي دبغته الشمس، وقدميْه الحافيتيْن، وسراوله المثني حدّ الركبتيْن، يبحث عن ساعة يده التي ظنها قد سقطتْ بين كومة من أزهار أذن الفأر، ناسياً أن آدا كانت تضعها. تخلّت لوسيت عن حبل القفز. جلسَت القرفصاء عند حافة الغدير وصارت تطوّف فوقه دمية مطاطية بحجم جنين، ثم، بين الحين والآخر، تضغط فوق بطنها المنتفخ ليخرج الماء من ثقب صغير نحو أختها التي ترعاها، والتي لم يكن طعم الماء الخارج من ثقب دمية زلقة حمراء وبرتقالية ليروق لها البتة. بعد نفاد صبر مفاجئ لهيكل جامد غير حيّ، تمكنَت الدمية من أن تدع نفسها للتيار كي يجرفها. خلع فان سرواله تحت الصفصاف واسترد الهاربة. آدا، وبعد تأمل الوضع للحظة، أغلقَت الكتاب وقالت للوسيت، التي لم تكن فتنتها صعبة، أنها، أي آدا، قد شعرت بنفسها فجأة وبسرعة عجيبة، وقد تحولت إلى تنين، وأن على لوسيت أن تُربط إلى شجرة بحبل القفز، إلى أن يأتي فان وينقذها في الوقت المناسب. لسبب ما، لم تقتنع لوسيت بالبرنامج، ولكن القوة الوحشية غلبتْ. تُركت الأسيرة الغاضبة مربوطة بإحكام إلى جذع الصفصافة، ثم بدأ الوثب مدّعييْن ملاحقة التنين والتقاطه، مختفييْن لدقائق ثمينة جداً داخل بستان الصنوبريات المظلم. كافحتْ لوسيت، وكانت قد تمكنت من إخراج أحد معصميْها المحمرّيْن من الحبل، وكادت تتمكن من الفكاك الكامل، عندما عاد التنّين والفارس، ينطّان من جديد.

اشتكتْ إلى مربّيتها التي فسّرت القضية برمّتها في سياق معاكس (وهذا ما يمكن أن يُقال أيضاً عن تأليفها الجديد). استدعتْ فان، ومن وراء ستارة سريرها، ومن خلال عفونة تختلط فيها رائحة

المراهم بتعرّقها، أخبرته أنه إن لم يتوقف عن اللعب برأس ابنة عمه الصغير، فإنه سيحوّلها إلى عانس حزينة تعيش تحت محنة الحكايا الخرافية.

في اليوم التالي، أخبرتْ آدا أمها أن لوسيت بحاجة ماسّة إلى أخذ حمام، ستقوم هي بتدبر أمره، سواء وافقت مربيتها أم لم توافق. "Horosho" (حسناً بالروسية)، قالتْ مارينا، بينما كانت تستعد - بحلّة مارينا سيدة المسارح العظيمة - لاستقبال أحد جيرانها مع ضيف له، ممثل شاب، «ولكن لا تنسي أن تبقي الحرارة مضبوطة على ثماني وعشرين درجة (استمراراً لقوانين بدأت مع القرن الثامن عشر) ولا تسمحي ببقائها أكثر من عشر أو اثنتيْ عشرة دقيقة».

«يا لها من فكرة!»، قال فان الذي هبّ فوراً لمساعدة آدا في تسخين خزان الماء، ملء حوض الاستحمام المحدودب، وتدفئة منشفتيْن.

على الرغم من كونها في التاسعة من عمرها فقط، ومتخلّفة في تطورها إلى حدّ ما نسبة لعمرها، إلا أنه لم يفتها بزوغ ذاك الزغب الفوضوي، الخاص بفتيات الشعر الأحمر. كانت لإبطيها رقطة طفيفة من لمعان الحرير، أما سمكتها النهرية، فكان يشوبها غبار النحاس. أصبح السجن المائي جاهزاً، مع منبه إلى جانبه يمنح ربع ساعة كاملة للحياة.

«دعيها تنتقع الآن! ستنظفينها بالصابون بعد ذلك» قال فان محموماً.

«أجل، أجل، أجل» صاحتْ آدا.

«أنا فان»، قالتْ لوسيت، بينما وقفت وسط حوضها برغوة صابون التوت بين فخذيْها، مبرزة بطنها اللامعة.

«ستتحولين إلى صبي إن استمررتِ بفعل ذلك»، قالت آدا بحزم، «ولن يكون الأمر مسلياً أبداً.»

بكل رويّة، بدأت الطفلة بإغراق أليتيْها في الماء الساخن.

«حار جداً»، قالت، «حرارة فظيعة.»

«سيبرد» أجابتْ آدا، «اسقطي فيه واسترخي، ها هي دميتك، التقطيها!»

«هيا تعالي بحق الآلهة، دعيها تنتقع!» ردد فان.

«وتذكري!»، قالت أختها، «إياكِ والخروج من هذا الماء الحلو الدافئ قبل أن يرنّ المنبه أو تموتين، لأن هذا ما قاله كروليك. سأعود لأرغيك بالصابون، ولكن لا تناديني؛ علينا أن نقوم بفرز قطع الكتان، لنخرج منها مناديل فان ونحصيها.»

للحمام شكل حرف L. قام الطفلان الأكبران، بعد أن أقفلا الباب من الداخل، بالانسحاب نحو خلوة منه جانبية، في زاوية بين خزانة ذات أدراج، وآلة قديمة لتمزيق الورق لم تعد قيد الاستعمال. زاوية لا يمكن أن تصلها العين الساحرة لباب الحمام. ما إن بالكاد انتهيا من تمرينهما العنيف وغير المريح في الركن الخفي، مع زجاجة دواء فارغة لم تتوقف طوال الوقت عن الارتجاج بغباء فوق الرف، حتى نادتهما لوسيت بصوت عال إذ إن الخادمة كانت تقرع الباب: الآنسة لاريفيير تطلب ماءً ساخناً أيضاً.

ألّفا كل أنواع الحيل.

أحدها، على سبيل المثال، أن لوسيت قد أصبحتْ حقاً مزعجة، إذ كانت تبكي مع أنف يسيل، ممسكة بيد فان طوال الوقت، مما جعل تعلّقها المخادع يتحول إلى هوس مزعج، وحشد فان كل مهارات الإقناع التي يملكها، مع سحره وبلاغته، ليتفوّه

بعبارات تحمل لهجة مؤامراتية: «اسمعي يا عزيزتي. هذا الكتاب البني هو من أغلى ممتلكاتي. كان له جيب خاص في سترتي المدرسية. خضت معارك لا تُنسى مع صبيان أشرار أرادوا سرقته. ما نجده هنا (مقلباً في الصفحات) ليس إلا مجموعة من أروع وأشهر القصائد المكتوبة بالإنكليزية. تلك القصيدة الصغيرة، على سبيل المثال، كتبها بدموعه، منذ أربعة عشر عاماً، الشاعر لوريت روبرت براون[١]، العجوز النبيل، الذي لفتني والدي إلى أدبه، حين كان واقفاً في الهواء الطلق، تحت سروة عند منحدر صغير، ناظراً إلى الأسفل، نحو رغوة الأمواج الفيروزية قرب نيس، المشهد الذي لن يغيب عن ذاكرتي يوماً. عنوان القصيدة بول ومارغريت[٢]. والآن، سأريكِ (ملتفتاً إلى آدا بنظرة استشارية) قصيدة «أربعين دقيقة» (أعطها ساعة كاملة، لن تستطيع حتى أن تحفظ Mironton, mirontaine[٣]) - حسناً، ساعة كاملة لحفظ تلك الأبيات الثمانية عن ظهر قلب، أنا وأنت (بهمس) سنثبت لأختك المتعجرفة أن لوسيت الغبية قادرة على فعل أي شيء. إذا (ممشطاً بشفتيه، برقة، شعرها المعقود) إذا استطعت يا حلوتي، تسميع القصيدة وإفحام آدا بعدم ارتكابك لأي زلة - عليك أن تنتبهي لجملة there- there، و this-that وكل باقي التفاصيل - إن استطعتِ فعل ذلك سأعطيك كتابي الثمين لتحتفظي به. (أعطها تلك التي تحكي عن إيجاد ريشة ورؤية طاووس عادي، إنها أكثر صعوبة بقليل، قالت آدا). لا، لا، سبق لنا أنا وهي أن

---

(١) لوريت روبرت براون: تلميح إلى روبرت براونينغ شاعر وكاتب مسرحي إنجليزي (١٨١٢-١٨٨٩) يعد من أشهر شعراء العصر الفيكتوري. (مترجم)

(٢) بول ومارغريت: عنوان من اختراع الكاتب. (مترجم)

(٣) Mironton, mirontaine: من الأغاني الفرنسية الشهيرة في القرن الثامن عشر.

اخترنا تلك القصيدة الشعبية. والآن، ادخلي هنا (فُتح باب) ولا تخرجي قبل أن أناديكِ، وإلا ستخسرين مكافأتك، وستندمين عليها طوال حياتك.»

انتهى تأليف الحيلة.

«أوه فان، كم أنت لطيف!» قالتْ لوسيت بينما دخلت بكل هدوء إلى غرفتها، بعينين مرتبكتين تمسحان صفحة الكتاب البيضاء الأولى، مع اسمه فوقها، بزخرفته الواضحة، وتخطيط رائع بيده، رسمه بالحبر - أسطر نجمية سوداء، (تطوّرت من لطخة)، عمود ملتف (لم يكن سوى تمويه لتصميم بذيء)، شجرة ضعيفة بلا ورق (كالتي تراها عبر نافذة الصف في المدرسة) وعدة وجوه صبيانية (تشيشكات، زوغدوغ، فانسيتارت، وآدا على نفس هيئة فان).

سارع فان للانضمام إلى آدا في العلية، وفي تلك اللحظة كان فخوراً جداً بحيلته، التي تذكرها بعد سبعين عاماً برجفة مشؤومة، عند قراءته لرسالة لوسيت الأخيرة التي وصلته من باريس في إقامته في كينغستون - «في حال ما زلت هناك» - في تاريخ الثاني من يونيو، عام ١٩٠١، وقد ورد فيها:

احتفظتُ لسنوات طويلة - لا بد أن ذلك كان في حضانة آرديس - بالمختارات التي أعطيتني إياها ذات مرة؛ والقصيدة الصغيرة التي أردت مني حفظها عن ظهر قلب، لا تزال كلماتها الكاملة محفورة في مكان آمن من عقلي المضطرب، وسط كثير من العتالين الذين يدوسون فوق حقائب ذكرياتي، وصناديقي المقلقة، والأصوات التي تنادي: «حان وقت الذهاب، حان الوقت». ابحث عن الجملة في قصيدة براون، وأثني مجدداً على ذكاء طفلة في الثامنة من عمرها، قد سمح لك ولآدا في ذلك اليوم البعيد، أن تسعدا في مكان ما، مع زجاجة دواء فارغة ترتج فوق رفّ ما. والآن إليك القصيدة:

هنا كان الحقل، قال المعلم
وهناك، قال، كان الخشب
هنا حيث ركع بيتر
وهناك وقفت الأميرة.

لا، قال الزائر
أنت هو الشبح، أيها المعلم العجوز
الشوفان وشجر السنديان قد صارت أمواتاً
ولكنها ما زالت بجانبي.

٢٤

تمّ حظر «المغناطيس الكهربائي» (نكتة فانفيتيلي القديمة) في كل أرجاء العالم، وأصبح هذا الاسم «الكلمة القذرة» بين عائلات الطبقة العليا (بالمعنى البريطاني والبرازيلي) التي ينتمي إليها آل فيين وآل دورمانوف، لتحل مكانها بدائل متقنة - هواتف، محركات - ماذا أيضاً؟ - عدد لا بأس به من الأدوات التي سعى وراءها الناس العاديون بألسنتهم المتدلية، لاهثين أكثر من كلب Gundog (إنها حقاً لجملة طويلة)، وكم أسف لذلك الحظر إذ إن لهواً جميلاً كتسجيل أشرطة صوتية، الألعاب المفضلة لدى أسلاف فان وآدا (كان للأمير زيمسكي مسجل لكل سرير من أسرّة حريمه أو فتيات المدارس)، لم يعد مسموحاً بتصنيعها، إلا في طارطاريا حيث تمّ تطوير minirechi[1] (مآذن ناطقة) ضمن صناعة سرية. لو أنه سُمح لعاشقينا واسعَي المعرفة، تحت غطاء الآداب العامة والقانون العام، أن يعيدا تشغيل الجهاز الغامض الذي وجداه في العلّية السحرية، لكانا سجلا (ليعودا إلى مشاهدتها بعد ثمانية عقود لاحقة) مونولوجات جيورجيو

---

(١) minirechi : mini وهي صيغة التصغير في اللغة الإنكليزية أو الفرنسية، و rechi من الروسية وتعني خُطب. (مترجم)

فانفيتيلي، ومحادثات فان فيين مع حبيبة فؤاده. هذا، على سبيل المثال، ما سمعاه اليوم، مع تسلية، إحراج، ضيق وتعجب.

(الراوي: في ذلك اليوم الصيفي، وبعد فترة وجيزة من دخولهما مرحلة التقبيل، من قصة عشقهما القاتلة والسابقة لأوانها للغاية، كان كل من آدا وفان في طريقهما إلى جناح المسدسات المعروف بمعرض الرماية، حيث وقعا في طابقه العلوي على غرفة صغيرة جداً بطراز شرقي، فيها صناديق زجاجية غائمة، تحوي طبنجات وخناجر - تحمل أختاماً وطبعات غامضة فوق مخملها الباهت - مخبأ جميل ولكن كئيب، تشوبه رائحة العفن الجميل، مع مقعد تحت النافذة تتوسّده الأرائك، وبومة «تنغمالم» محنطة فوق رفّ جانبي، بجوار زجاجة جعة فارغة قد خلّفها أحد البستانيين القدامى، كُتب فوق علامتها التجارية القديمة تاريخ الصنع، ١٨٤٢).

«لا ترجّ شيئاً!» قالتْ، «فإن لوسيت تراقبنا، أقسم إني سأخنقها يوماً ما.»

سارا عبر بستان واجتازا مغارة.

قالتْ آدا: «رسمياً، نحن أبناء عمومة وخالات، ويمكن لأبناء العم أن يتزاوجوا بموجب مرسوم خاص، إن وعدوا بإجراء عمليات تعقيم لأبنائهم الخمسة الأوائل. ولكن، وعلاوة على ذلك، كان زوج أم والدتي، أخاً لجدتك في الوقت ذاته، أليس كذلك؟»

«هذا ما أُخبرت به»، أجاب فان بسكون.

«ليست بمدة بعيدة بما يكفي»، قالتْ بتفكر، «ما رأيك أنت؟»

«بعيدة بما يكفي، بعيدة بما يكفي.»

«أمر مضحك - لقد رأيت شطر القصيدة ذاك بحروف بنفسجية صغيرة قبل أن تحولها أنت إلى اللون البرتقالي - قبل ثانية واحدة

من بدء حديثك. تتكلم، تدخن. كالنفثة التي تسبق إطلاق مدفع بعيد.»

«جسدياً»، تابعتْ، «نحن أقرب إلى توأم من أبناء عمومة، والتوائم والأشقاء لا يمكن لهم التزاوج، طبعاً، وإلا سيتم سجنهم أو خصيهم، إن أصرا على ذلك.»

«ما لم يكن قد أعلن عن أنهما أبناء عمومة بوثيقة رسمية.»

(كان فان قد بدأ بالفعل بفكّ قفل الباب - الباب الأخضر الذي كانا يقرعانه غالباً بقبضتيْن طريتيْن لا عظام فيها، في أحلامهما المنفصلة، لاحقاً).

خلال مرة أخرى، أثناء جولة فوق الدراجة (مع عدة وقفات) على امتداد السكة الحديدية التي تقطع الغابة، والطرق الريفية، بعد فترة وجيزة من ليلة حريق الحظيرة، ولكن قبل عثورهما على دفتر النباتات في العلّية، الذي أكدّ على ما سبق أن أحسّاه بطريقة غامضة، مسلية، وجسدية، أكثر منها أخلاقية، ذكر فان بشكل عرَضيّ أنه وُلد في سويسرا، وأنه سافر خارج البلاد مرتيْن أثناء طفولته. أما هي فمرة واحدة، قالتْ. معظم فصول الصيف قد قضتها في آرديس؛ ومعظم فصول الشتاء في بيتهم القائم في كالوغا - طابقان علويان في chertog (قصر) زيميسكي.

عام ١٨٨٠، حين كان فان في عامه العاشر، سافر في قطارات فضية تحوي مقصورات استحمام، بصحبة والده، وأمين سره الجميل، وأخت أمين السر ذات القفازات البيضاء والتي تبلغ من عمرها ثمانية عشر عاماً (وقد لعبتْ إلى حد ما دور معلمة اللغة الإنكليزية والمربية في وقت واحد)، ومعلم اللغة الروسية البسيط والملائكي، آندريه آندريفيتش آكساكوف (آ. آ. آ.)، ليستمتعوا جميعاً في منتجعات لويزيانا ونيفادا. تذكّر فان أن آ. آ. آ. قد شرح

لفتى زنجي كان فان قد تشاجر معه، أن بوشكين ودوما[1] حملا دماً أفريقياً، الأمر الذي لم يدفع الزنجي إلا لمدّ لسانه، الحيلة المثيرة التي لفتت فان لتقليدها واستخدامها في أول مناسبة أمام أصغر آنسات فورتون، التي لم تتردد في صفعه: «أعده إلى فمك يا سيد!»، قالتْ. تذكّر أيضاً سماعه لأحد نزلاء الفندق الهولنديين، حين كان يتحدث في ردهة الفندق إلى رجل آخر عن والد فان، الذي مرّ قبل قليل أمامهما صافراً ثلاث صفرات، «ليس إلا جمّال (سائق جمال - غزلان شاموا قد تمّ استيرادها مؤخراً؟ - لا مجرد مقامر[2])».

قبل أن تبدأ أيام مدرسته الداخلية، كان يقضي الشتاء في منزل والده الجميل، ذي الطراز الفلورنسي، بين قطعتين من الأرض الجرداء، بارك لاين ٥ في مانهاتن؛ وكان هنالك عملاقان ضخمان يظهران بين الفينة والأخرى عند جانبي المنزل، مستعدان لإفراغه مجرد أحسّا خلّوه من سكانه، إن سافروا إلى الخارج. أما فصول الصيف، ففي رادوغاليه، آرديس أخرى، بصيف أبرد وأكثر كآبة من صيف آرديس، خاصة محبوبته آدا. ولمرة واحدة فقط، قضى فان هناك صيفاً وشتاءً متعاقبيْن، لا بدّ أن ذلك كان عام ١٨٧٨.

بالطبع، بالطبع، تذكرت آدا، إذ كانت حينها قد لمحته لمرتها الأولى، ببزة البحارة البيضاء التي كان يرتديها، وقبعة البحارة الزرقاء. («ملاك نظامي»، علّق فان بلهجة رادوغا) . كان هو في الثامنة، وهي في السادسة. كان العم دان، وبشكل غير متوقع، قد أعلن عن رغبته بزيارة العزبة القديمة. في اللحظة الأخيرة، وافقتْ

---

(١) دوما: الكاتب الفرنسي ألكسندر دوما (١٨٠٢-١٨٧٠) مؤلف «الفرسان الثلاثة». (مترجم)

(٢) جمّال ومقامر: لعب بين كلمتيْن إنكليزيتيْن camler و gambler. (مترجم)

مارينا على مرافقته، رغم احتجاجات دان، وقد رفعت آدا الطفلة، بتنورتها القصيرة، وطارة الـ«هوبالا» التي كانت تلعب بها، ووضعتها في العربة. تهيّأ لها أنهم استقلوا القطار من لادوغا إلى رادوغا، لأنها تذكّرت الطريقة التي اعتمدها صاحب المحطة الذي كان يطوف على طول رصيف القطار، مع صافرة حول عنقه، لتجاوز فوضى العربات المتوقفة، والتي كانت أبوابها تُصفق الواحد تلو الآخر، الأبواب الستة الخاصة بكل عربة، ولكل باب نافذة على شكل يقطينة، انسبكت فيه قطعة واحدة.

لقد كان برجاً في الضباب، اقترح فان (كما وصفتْالذكريات الجيدة) وبينما كان القطار يجري مسرعاً، مشى قاطع التذاكر فوق المتن بين المقطورات، مقطورة تلو الأخرى، يفتح الأبواب، لخرم التذاكر والحصول عليها، ثم يلعق إبهامه، يعدّ المال، وظيفة من الجحيم، ولكنها «برجاً بنفسجياً». هل استأجرا عربة لاندوليت نحو رادوغاليه؟ مسافة عشرة أميال، كما خمّنتْ. عشرة فرستات[1]، قال فان. اعترفتْ بعدم صوابها. لقد كان خارج المنزل، تخيّل فان، na progoulke (متنزهاً بالروسية في غابة التنوب المعتمة بصحبة آكساكوف، معلمه، وحفيد باغروف، ابن الجيران، وكان قد أغاظه، وقرصه، وتسلى في ذلك كثيراً، غلام جميل وهادئ، يذبح ببرودة أعصاب حيوانات الخلد، وكل ما له فراء، كحالة مرضية، على الأرجح. بكل الأحوال، كان واضحاً جداً عندما وصلوا، أن ديمون لم يكن يتوقع زيارة السيدات. كان على الشرفة يشرب نبيذاً ذهبياً (ويسكي حلو المذاق) مع يتيمة كان قد تبنّاها، قال، وردة إيرلندية

(١) فرستا: هي وحدة قياس روسية قديمة كانت تستخدم لقياس الأطوال. تساوي ١,٠٦٦٨ كيلومتر (٠,٦٦٢٩ ميل؛ ٣٥٠٠ قدم). (مترجم)

برية فاتنة، تعرفت عليها مارينا في الحال، خادمة صفيقة من حجرة غسل الأطباق، عملتْ لفترة وجيزة في قصر آرديس، وقد اغتصبها أحد النبلاء المجهولين - الذي لم يعد مجهولاً الآن. في تلك الفترة، وفي محاولة لتقليد ابن عمه، كان دان يستخدم نظارة أحادية، وقد عدّلها في تلك اللحظة لتأمل روز، الذي ربما يكون هو أيضاً قد وعد نفسه بها (هنا قاطعتْ آدا حوار فان، طالبة منه مراعاة ألفاظه).

. . . تحولت الحفلة إلى كارثة. بحركة كسولة، خلعَت اليتيمة أقراط اللؤلؤ طالبة من مارينا تثمينها. الجد بارغوف الذي خرج لتوّه من خدر قيلولة، قفز بعُرجته نحو مارينا ليستقبلها بعناق كبير. أما مارينا الغاضبة، فلقد تأكدت من صواب حدسها، في المرة الأولى التي تمكنت فيها من الكشف عن سريرة دان المسكين. تخلّت عن فكرة قضائها لليلة هناك، طافتْ بحثاً عن آدا، التي كان قد تلقت إيعازاً باللعب في الحديقة، حيث كانت هناك، تتمتم بتعداد الجذوع البيضاء للبتولا التي تحمل أزهاراً يانعة، مشيرة إليها بلحم يدها المحمر، بعد أن سرقت أحمر الشفاه من روز، تمهيداً للعبة لم تعد تذكرها الآن - يا للأسف، قال فان. حملتها أمها بقوة وسافرت عائدة بها نحو آرديس، بنفس سيارة الأجرة التي تركتْ دان هناك - لمكائده ورذائله، علّق فان - لتصلا البيت عند المغيب. أضافت آدا، أنها قبل أن يتم إبعادها عن الحديقة وتخليصها من قلم تلوينها (قذفته مارينا: k chertyam sobach'im، إلى كلاب الجحيم - متذكرة كلب الصيد الخاص بروز، الذي بقي يلاحق دان حتى تمكن من اصطياد ما بين فخذيه) تمكنت من الحصول على لمحة سحرية من فان الصغير، مع صبي حلو آخر، وآكساكوف بلحيته الشقراء، وقميصه الأبيض، يمشون عائدين نحو المنزل، و. . أوه، أجل، لقد نسيتْ طارتها هناك - لا، كان لا يزال في سيارة الأجرة ذاتها.

ولكن، وعلى الصعيد الشخصي، فإن فان لم يمتلك أدنى ذكرى عن تلك الزيارة، ولا عن ذلك الصيف على وجه التحديد، لأنه وبكل الأحوال، كان آنذاك في كنف أبيه المشغول برعاية ورود فصوله، لكل فصل وردته، وكان فان ذاته يحظى بمودة الآنسة فورتون التي خلعت قفازها بغاية مداعبته، الملاحظة التي لم تهتم لها آدا على الإطلاق.

والآن! ماذا عن عام ١٨٨١، عندما صُحبَت الشقيقتان، الأولى بين الثامنة والتاسعة من عمرها، والثانية في الخامسة، إلى رحلة في الريفييرا، في سويسرا، وبحيرات إيطاليا، برفقة صديق لمارينا، المسرحي الكبير، غران د. دومونت (حرف الدال يرمز إلى الدوق، وأيضاً إلى Duke كنية والدته قبل الزواج، وهي فصيلة ما من طيور الشويهين)، مسافراً سراً على متن قطار الشرق السريع التالي، أو سيمبلون التالي، أو قطار الشرق التالي، أو على متن أي قطار فاخر للّحاق بالذي يحمل ثلاث إناث من آل فين، مربية إنكليزية، حاضنة روسية، وخادمتيْن، بينما كان دان شبه المطَلّق، قد سافر إلى مكان ما في أفريقيا الاستوائية لتصوير النمور (متفاجئاً بعدم رؤيتها) وغيرها من الحيوانات الضارية سيئة السمعة، تمّ تدريبها على مجاوزة سرعة المركبات، بالإضافة إلى فتيات سوداوات سمينات، التقى بهنّ في منزل وكيل السفريات الكريم المضياف، في براري موزامبيق. عندما لعبت لاحقاً مع شقيقتها لعبة «مقارنة الملاحظات عن الرحلة»، استطاعَت الكبرى، بالطبع، أن تتذكر أكثر من الصغيرة، أشياء مثل مسارات الرحلة، النباتات المذهلة، الأزياء، المعارض المسقوفة وتحتها كل أنواع المحلات التجارية، رجل سمين وأنيق بشارب أسود، بقي يحدّق فيها من زاوية كان يجلس فيها في مطعم «قصر مانهاتن في جنيف»؛ ولكن لوسيت، وعلى الرغم من صغر سنّها، إلا

أنها تذكرت قطع الباغاتيل[1] المكدّسة، أبراج صغيرة وبراميل صغيرة، biryul'ki proshlago (ذكريات الماضي). كانت لوسيت تلك، مثل . . . آه. . فتاة cette line[2] (رواية شعبية)، مزيج غريب من «البديهة، الغباء، السذاجة والمكر». وبالمناسبة، كانت قد اعترفت، حملتها آدا على ذلك (وهذا ما شكّ فيه فان أصلاً)، أنه عندما عاد كلّ من التنين والفارس للظهور أمام الفتاة التي كانت واقعة تحت محنة، لم تكن كما وجداها تحاول فكّ معصميْها على عجل، بل على عكس ذلك، تحاول إعادة ربطهما بعد إفلات مكّنها من اللحاق بهما والتجسس عليهما عبر أجمات الآركس.

«يا إلهي!»، صاح فان. «هذا ما يفسر إذاً مشهد رغوة الصابون». أوه! وماذا يهم ؟ من كان ليهتم؟ لم تأمل آدا إلا أمراً واحداً فقط: أن تحظى تلك الصغيرة بذات السعادة التي كانت آدا قد حصلتْ عليها في عمرها ذاك، حبيبتي، حبيبتي، حبيبتي، حبيبتي. أما أمل فان، فكان أن لا تلمع إطارات الدراجتيْن المركونتيْن بين شجيرات الغابة من خلال الأوراق، فينتبه أحد المارة لتسكعهما.

بعد ذلك، حاولا تحديد ما إذا كانت الطرقات التي اتبعوها خلال تلك السنة في أوروبا، توازي إلى حدّ ما، أو تتقاطع بشكل أو بآخر، بعضها مع بعض.

في ربيع عام ١٩٨١، قضى فان البالغ أحد عشر عاماً، عدّة أشهر مع معلمه الروسي وخادمه الإنكليزي، في فيلا جدته بالقرب

---

(١) باغاتيل: لعبة تشبه البلياردو. (مترجم)

(٢) Cette line: بحرفيتها تمزج بين كلمة cette الفرنسية والدالة على الإشارة، وline الإنكليزية وتعني السطر أو بيت الشعر. ولكن التلميح يذهب إلى مكان آخر تماماً، ألا وهو مادة الأسيتلين المكتشفة عام ١٨٩٥، والتي تتحول إلى ضوء ما إن تمسها النار. (مترجم).

من نيس، بينما كان ديمون في كوبا، يحظى بأوقات أفضل من أوقات دان في موكوبا[1]. في يوليو، تم اصطحاب فان إلى فلورنس، روما وكابري، حيث التقى بوالده لفترة وجيزة. افترقا مجدداً، عاد ديمون مبحراً إلى أمريكا، وذهب فان أولاً مع معلمه إلى غاردوني على ضفاف بحيرة غاردا[2]، حيث كشف المعلم لتلميذه بإجلال، عن آثار أقدام غوتيه ودانونزيو[3] فوق الرخام. ثم بقي لفترة من فصل الخريف في فندق يقع على منحدر جبلي فوق بحيرة ليمان[4]، حيث تجول ذات مرة الكونت تولستوي وكارامزين[5]. هل توقّعتْ مارينا أن يكون فان في مكان ما من نفس المنطقة التي كانت فيها عام ١٨٨١؟ لا على الأرجح. كانت كلتا الشقيقتيْن واقعتيْن تحت الحمى القرمزية في كان، بينما كانت مارينا في إسبانيا مع الغراندي خاصتها.

بعد مطابقة الذكريات بعناية، توصّل كل من آدا وفان إلى أنه لم يكن من المستحيل أن يكونا قد عبرا في الوقت ذاته، ومن دون انتباههما، فوق ساحل الريفييرا المتعرج، بينما كان كل منهما راكباً في عربة فيكتوريا خضراء، لا يزال لونها محفوظاً في الذاكرة، تجرها خيول بسروج خضراء، أو ربما في قطاريْن مختلفيْن، في وجهة واحدة، والفتاة الصغيرة عبر نافذة إحدى مقطورات النوم، تنظر إلى

---

(١) موكوبا: في موزامبيق. (مترجم)

(٢) غاردوني وغاردا: في إيطاليا. (مترجم)

(٣) دانونزيو: غابرييل دانونزيو (١٨٦٣-١٩٣٨) كاتب إيطالي، صحفي، شاعر، مؤلف مسرحي وجندي خلال الحرب العالمية الأولى. (مترجم)

(٤) بحيرة ليمان أو بحيرة جنيف هي أحد أكبر البحيرات الأوروبية. وتقع ٦٠٪ من مساحة البحيرة في الحدود السويسرية و ٤٠٪ في الحدود الفرنسية. (مترجم)

(٥) كارامزين: نيكولاي ميخائيلوفيتش كارامزين (١٧٦٦-١٨٢٦)، مؤرخ وروائي روسي. (مترجم)

فتى أسمر نائم وراء نافذة القطار الموازي، ينحرف بمساره تدريجياً نحو مساحات بحرية متلألئة، استطاع الفتى رؤيتها على الجانب الآخر للمسار. صدفة أضعف من أن تكون شاعرية حقيقية، تماماً كما لم تكن إمكانية مشيهما أو تجاوز أحدهما للآخر فوق رصيف بلدة سويسرية لتحتمل أية عاطفة ملموسة. لكن، عند توجيه الضوء العاكس نحو متاهات الماضي، حيث لم تأخذ المسارات الضيقة المرصعة بالمرايا التفافات مختلفة فحسب، بل اتخذتْ مستويات مختلفة (كرؤية بغل يجر عربة تحت قوس الجسر الذي تمر فوقه سيارة) وجد فان نفسه يواجه، على نحو غامض وعبثي، مشكلة علمية، وهو الذي كان مهووساً بالعلم خلاله سنوات نضجه - مسائل المكان والزمان، المكان مقابل الزمن، الالتواء الزمني المكاني، المكان كالزمن، الزمن كالمكان - والمكان المبتعد جداً عن الزمن، في الانتصار المأساوي الأخير للتفكّر البشري: أنا موجود لأنني أموت، "I am because I die".

هتفتْ آدا بقوّة: «ولكن هذا مؤكّد، هذه حقيقة، هذا واقع صرف - هذه الغابة، هذا الطحلب، يدك، الدعسوقة فوق ساقي، لا يمكن لأحد أن يلغيها، أيمكن؟ (سوف، كان). كل شيء تجمّع في النهاية هنا، بغضّ النظر عن انحراف المسارات، وتجاوز أحدنا للآخر، قد تمّت خديعتنا: كان مقدراً لكل شيء أن يجتمع هنا.»

«علينا الآن العثور على دراجتيْنا»، قال فان. «نحن ضائعان في قسم آخر من الغابة.»

«أوه، انتظر! دعنا لا نعود الآن»، صاحت.

«دعيني أتأكد من مكان تواجدنا ومن الوقت»، قال فان، «إنها حاجات فلسفيّة.»

أشرف النهار على المغيب؛ بدأت بقايا الأشعة البراقة

بالتلاشي، في شريط غربي من السماء الملبّدة بالغيوم: كلنا قد رأى ذلك الشخص الذي، وبعد إلقاء تحية مرحة على صديقه، يعبر الشارع مع ابتسامته الطازجة التي بقيت معتلية وجهه، إلى أن يحدّق بالابتسامة ذاتها في وجه عابر آخر، الذي بدوره قد لا يدرك السبب، ولكن سيدركه تأثيرُ الابتسامة التي تشعّ جنوناً. بعد استنتاجهما لتلك الاستعارة، أقرّ فان وآدا بوجوب العودة إلى المنزل. ما إن عبرا طريق غامليت، حرّضت رؤية مقهى روسي صغير جوعهما، فما كان منهما إلا أن ترجّلا ودخلا تلك الحانة الصغيرة بأضوائها الخافتة. كان هنالك حوذي يشرب الشاي من صحن كان يرفعه بمخالبه الغليظة نحو شفتيه الصاخبتيْن، كإحدى الشخصيات القادمة مباشرة من سلسلة روايات فلكلورية قديمة. لم يكن هنالك أحد في الجحر الذي ينبعث منه البخار إلا امرأة تضع منديلاً وتتوسّل ugovarivayushchaya متملقة وغداً يلبس قميصاً أحمر، لا يتوقف عن هزّ ساقيه، كي ينهي حساء السمك خاصته. تبين أنها صاحبة الحانة، كما تبيّن، حين مسحت يديها بمئزرها، لتحضر لآدا (التي تعرفت عليها في الحال)، ولفان (الذي ظنّته، ولم تكن مخطئة، أنه النبيل الشاب، حبيب سيدة القصر الصغيرة) بعضاً من الهمبرغر على الطريقة الروسية، ويدعى bitochki بيتوشكي. التهم كل منهما نصف دزينة، ثم استردا دراجتيْهما من تحت شجرة الياسمين وانطلقا. اضطرا لإضاءة مصابيح الكربيد. توقفا لاستراحة أخيرة قبل ولوج ظلام متنزه آرديس.

من قبيل صدفة غنائية، وجدا مارينا والآنسة لاريفيير تحتسيان شاي المساء في الشرفة المزججة حسب طراز روسي، والتي نادراً ما كانت تدخل حيّز الاستخدام.

كانت الروائية، التي قضت نقاهتها، ولكنها ما زالت في مبذلها

المزهّر، قد انتهتْ لتوّها من قراءة قصتها في نسختها الأولى المقبولة (لتتم طباعتها في اليوم التالي) لمارينا التي كانت ترتشف التوكاي[1]، وقد أصابها من الكرب نصيب، تجاه انتحار السيد النبيل «بعنق أرمل متورد وثخين، لا يزال مليئاً بنسغ الحياة»، الذي، إن صحّ التعبير، كان خائفاً من خوف ضحيته، فضغط بقوة شديدة على عنق الطفلة التي سيغتصبها في لحظة من «شراهة لا تُغتفر».

شرب فان كوباً من الحليب وشعر فجأة بموجة من الإرهاق اللذيذ وقد غزتْ أطرافه، فلم يفكر إلا في الخلود إلى السرير.

«للأسف»، قالت آدا بينما كانت تستولي على قطعة من حلوى الفاكهة الإنكليزية.

«الأرجوحة»؟ تساءلتْ؛ لكن فان المترنّح قد هزّ رأسه، قبّل يد مارينا، ثمّ انسحب.

«للأسف»، رددت آدا، وبشهية لا تُقهر، بدأت بدهن الزبدة فوق سطح قطعة الحلوى المصبوغة بصفار البيض، الممتلئة بالطّيبات: زبيب، منكهات، كرز مسكّر وسدر.

قالت الآنسة لاريفيير التي كانت تتابع حركات الطفلة برعب وقرف:

«لا بدّ أني أحلم، لا يمكن دهن الزبدة هكذا فوق المعجنات البريطانية، لقد أصبحت قذرة وعسيرة الهضم.»

«وهذه ليست إلا الشريحة الأولى»، قالت آدا.

«أترغبين في رشّة من القرفة فوق حليبك الرائب؟»، سألتْ مارينا. «أتعلمين يا بيل؟ (ملتفتة نحو المربية) اعتادت أن تسميه 'الثلج الرملي' عندما كانت طفلة.»

---

(١) توكاي: شراب العنب المركز وهو شديد الحلاوة. (مترجم)

«لم تكن يوماً طفلة»، قالتْ بيل بصرامة. «لقد تمكنتْ من كسر ظهر مهرها قبل أن تتمكن من المشي.»

«إنني أتساءل»، قالت مارينا، «كم عدد الأميال التي قطعتها واستنزفت طاقتك كلّياً؟»

«سبعة فقط»، أجابت آدا بضحكة ماكرة.

٢٥

ذات صباح مشمس في سبتمبر، حين كانت الأشجار لا تزال خضراء، بعكس زهور النجمية و الأريغارون التي بدأت بذبولها وأفولها، استعدّ فان للانطلاق نحو لادوغا -نيو هامبشير، لقضاء أسبوعيْن هناك بصحبة والده ومعلميه الثلاثة، قبل أن يعود إلى مدرسته الباردة في لوغا - ماين.

قبّل فان غمازتيْ لوسيت ثم عنقها، وغمز مودعاً الآنسة لاريفيير التي نظرت إلى مارينا.

حان وقت الفراق. كان الجميع هناك حاضراً لوداعه: مارينا مرتدية الـ shlafrok (ثوب نومها)، لوسيت معانقة كلبها داك (كبديل)، لاريفيير التي لم تكن قد عرفت بعد أن تلميذها لم يرجع الكتاب الذي أعطته إياه في الأمسية السابقة والذي يحمل توقيع وإهداء كاتب، وعدد من الخدم الذين ودّعهم فان بحرارة (من بينهم فتى المطبخ كيم مع آلة التصوير) - عملياً، كان الجميع هناك، ما عدا بلانش التي كانت تعاني من الصداع، والمؤدبة آدا، التي استأذنت لغيابها بحجة عيادتها لقروي مريض («لها قلب من ذهب هذه الطفلة، حقاً» - كما اعتادت مارينا أن تلاحظ، بهذا القدر من الحكمة).

تمّ نقل متاع فان إلى الجزء الخلفي من العربة: صندوقه الأسود،

حقيبته السوداء، وكذلك أثقال تدريبه السوداء الثقيلة؛ اعتمر بوتيبان قبعة قبطان، كبيرة نسبة لرأسه، ونظارات شمسية زرقاء؛ «أزح مؤخرتك من هنا! أنا من سوف يقود»، قال فان - وهكذا انتهى صيف ١٨٨٤.

«إنها تدور بسلاسة يا سيدي»، قال بوتيبان بلهجة إنكليزية ظريفة، ضاربة في القدم. «كل العجلات جديدة، ولكن للأسف، هنالك الكثير من الحصى فوق الطريق، وعادة ما يقود الشبان مسرعين. عليك الحذر يا سيدي. الرياح البرية غدارة. كزنبقة تثق بالصحراء...»

«كفاك! يا كفيل الكوميديا العجوز، ألست كذلك؟»، علّق فان مقتضباً.

«لا يا سيدي»، أجاب بوتيبان ممسكاً بقبعته. «لا أبداً، أنا بكل بساطة أريد الخير لسيدي وآنسته.»

«إن كنت تقصد بلانش، فعليك أن تقتبس قصائد ديليل[1]، لابنك وليس لي، فهو من سيلاحقها في أي يوم ابتداءً من الآن.»

ألقى الفرنسي العجوز نظرة ارتياب سريعة على فان، pozheval gubami (ماضغاً شفتيْه)، لكنه لم يتفوّه بكلمة.

«علينا أن نتوقف هنا لبضع دقائق»، قال فان عندما وصلا غابة فورك، على حدود آرديس.

«أريد اختبار بعض أنواع الفطر لوالدي (اعتلتْ إيماءة مهذبة محيا بوتيبان) الذي سأبلغه تحيتك بكل تأكيد. اللعنة! لا بدّ أن فرامل اليد هذه تعود لزمن ما قبل هجرة لويس السادس عشر إلى إنكلترا.»

«يلزمها تشحيم»، قال بوتيبان ناظراً إلى ساعة يده، «لدينا ما يكفي من الوقت للّحاق بقطار التاسعة وأربع دقائق.»

---

(١) ديليل: جاك ديليل (١٧٣٨-١٨١٣) شاعر ومترجم فرنسي. (مترجم)

انسلّ فان بين الشجيرات الكثيفة. كان يرتدي قميصاً حريرياً، سترة مخملية، سروالاً أسود، وينتعل حذاء فروسية طويلاً بمهمازيْن - الملابس غير الملائمة ليمارس مع آدا "klv zdB AoyvBno vokh gvozxm dqg kzvoAAqvo z gwttp vq wifhm"[1] في الطبيعة بين أشجار الحور الرجراج. وبعدما انتهيا قالتْ له:

«إليك الشيفرات الخاصة بمراسلاتنا، قد كتبتها هنا، كي لا تنساها. احفظها عن ظهر قلب، ثم ابتلع الورقة كجاسوس صغير محترف!»

«لن يتوقف أحدنا عن المراسلة، وأريد كل أسبوع ثلاث رسائل على الأقل، يا حبي الأبيض!»

كان يراها لمرته الأولى بفستانها الزاهي ذاك، الرقيق كثوب نوم. كانت قد ضفرتْ شعرها، وقال إنها بدتْ تشبه السوبرانو الشابة ماريا كوزنيتسوفا في مشهد الرسالة في أوبرا تشايكو، أونجين وأولغا.

آدا، وبينما كانت، وبأفضل ما يمكن، تستخدم أنوثتها لكبح وتمويه تنهداتها الباكية، وتحويلها إلى عميق الحنان العاطفي، أشارت إلى حشرات لعينة قد حطّتْ فوق جذع حور.

(لعينة؟ لعينة؟ إنه لتوصيف جديد، نادر إلى حد خيالي، فراشة Nymphalis antiopa، برتقالية بنية، مع مساحة سوداء مرقّطة بالأبيض، تحاكي ما اكتشفه البروفسور نابونيدوس من جامعة بابيون - نبراسكا، ظاناً أنها فراشة ملكية، ولكنه أدرك أنها فراشة Viceroy، أكثر الفراشات المقلدات للملكية. ملاحظة بخط آدا).

«ستأتين غداً وحدك إلى هنا، مع شبكتك الخضراء، يا فراشتي»، قال فان بمرارة.

---

(١) شيفرة من اختراع الطفلين ترمز إلى ممارسة الجنس.

قبّلتْ كل وجهه، قبّلتْ يديْه، ثم شفتيْه، جفنيْه، وشعره الأسود الناعم.

«متى يا حبي؟ متى وأين سنلتقي؟ في لوغا؟ كالوغا؟ لادوغا؟ أين؟ أين؟»

«ليس مهماً» هتف فان، «ما يهمني هو هل ستخلصين؟ هل ستخلصين لي؟»

«اهدأ يا حبي»، قالت آدا بابتسامة هزيلة، متوخية الحذر في اختيار مفرداتها. «لست أدري. أنا أعشقك. لن أحب أحداً في حياتي كما عشقتك، أبداً، ولا في أي مكان، ولا فوق أي من الكوكبيْن، لا في لادور، ولا فوق تيرا، حيث يُقال إن أرواحنا تذهب إلى هناك. ولكن! ولكن يا حبيبي! يا فاني الغالي! أنا جسدياً. . . رهيبة. أنا بصراحة، كيف أشرح لك؟ يا عزيزي لا تسألني أرجوك! هناك فتاة في مدرستي مغرمة بي، لست أدري ما أقول ـــ»

«لا تهم الفتيات»، قال فان، «ولكنهم الفتيان الذين سأقتلهم إن اقتربوا منك. حاولت في الليلة الفائتة أن أكتب لك قصيدة عن الإخلاص، لكني لا أستطيع كتابة جملة منها؛ إنها تبدأ، تبدأ فقط: «آدا وهج أرديس وروضها»، وكل ما بقي من القصيدة مجرد ضباب، حاولي تخيّله.»

تعانقا للمرة الأخيرة، وافترقا، من دون إلقاء نظرة إلى الوراء. داس فوق اليقطين، قطع بمهمازيْه، وبلا رحمة، أعواد الشمر الباثقة المتكبرة، وعاد إلى غابة فورك، حيث كان شاب من موور[1]، ينتظره هناك، ممسكاً بـ موريو، حصانه الأسود المفضل. شكر الشاب ببعض القطع الذهبية، ثم أمسك بالحصان، بقفاز قد بللته الدموع.

---

(١) موور: مدينة في أوكلاهوما. (مترجم)

٢٦

لمراسلاتهما في فترة انفصالهما الأولى، اخترع كل من آدا وفان رموزاً، استمرا في إتقان استخدامها، لمدة تجاوزت رحيل فان عن آرديس بخمسة عشر شهراً. دام هذا الفراق لما يقارب أربع سنوات (قوس قزحنا الأسود، كما وصفتْه آدا)، من سبتمبر ١٨٨٤، وحتى يونيو ١٨٨٨، مع فرصة لقائيْن وجيزيْن جداً «تحت رشاش المطر»، كنعيم مفرط في الكرم (أغسطس ١٨٨٥، ويونيو ١٨٨٦). وصف الرموز أمر مزعج؛ يجب إعطاء بعض التفاصيل الأساسية، على مضض.

الكلمات ذات الحرف الواحد، بقيت مكشوفة. ضمن الكلمات الطويلة، استبدل كل حرف بالحرف الذي يتبعه بترتيب الأبجدية، عند نقطة تراتبية معينة - اثنان، ثلاث، أربع وهكذا - تتوافق مع رقم الحروف في الكلمة ذاتها. وعليه أصبحت كلمة Love المؤلفة من أربع حروف، "pszi" (P هو الحرف الرابع بعد L بالأبجدية الإنكليزية، وS هو الحرف الرابع بعد O، وهكذا). في حين أن، وعلى سبيل المثال، كلمة "lovely"، بحروفها الستة (والتي كان المدّ فيها ضرورياً أكثر من اللازم، خادماً الإيجاز في الأبجدية بعد استنفادها) تحوّلت إلى "ruBkrE"، بحيث اتفقا على تحديد الفائض

من الحروف ضمن كلمة واحدة، بالخط الكبير: B مثلاً، استبدل به حرف v المتأخر عن الأول بستة أحرف، وبالمبدأ ذاته، حل E مكان y.

هنالك لحظة فظيعة في الكتب الشعبية تتناول النظريات الكونية (التي تبدأ خفيفةً بفقرات بسيطة وواضحة) عندما يبدأ الكاتب بإنشاء صيغ رياضية تعمي دماغ القارئ فوراً. لم تكن رموزهما لتشطح نحو هذا الحد. إن جئنا على وصف شيفرة «العاشقين خاصتنا» (إن كتابة كلمة «خاصتنا» ours، قد تكون بحدّ ذاتها مبعثاً للإزعاج ولكن لا يهم) فإنها رموز قد كُتبتْ بعناية أكثر، وتململ أقل، وإن أبسط القراء، كما أثق، لقادر على فهم مبدأ الحرف الفائض وتراتبية الأبجدية.

للأسف، ظهرتْ بعض التعقيدات. اقترحتْ آدا بعض التحسينات، بحيث تبدأ كل رسالة بشيفرة فرنسية، ثم الانتقال إلى التشفير الإنكليزي عند أول كلمة من حرفين، والعودة إلى الفرنسية عند أول كلمة من ثلاث أحرف، وتتناوب العملية مع كل اختلاف إضافي. وبهذه التعديلات، أصبحت قراءة الرسالة أصعب من كتابتها، خاصة وأن كل من المراسليْن، مدفوعيْن بحنق الشغف، حشرا بعض الأفكار الملحقة، ألغيا جملاً، أدرجا جملاً، ثم أعادا صياغتها، مع تصحيحات إملائية وتعليقات ساخرة، وكل ذلك يعود إلى معاناتيْهما من ضيق وكرب لا يمكن تفسيره، حتى برموز معقّدة.

في الفترة الثانية من انفصالهما الأول، ابتداءً من عام ١٨٨٦، تم تغيير تلك الشيفرة بشكل جذري. كان كل منهما لا يزال حافظاً عن ظهر قلب الأسطر الاثنين وسبعين من قصيدة «الحديقة» لمارفيل، والأسطر الأربعين لقصيدة «ذكرى» لرامبو. في هذيْن النصّيْن، وجدا مفتاحاً جديداً لأبجدية خاصة بهما. وبذلك عنت الأسطر «I۲ . ۱۱ /

1l.٢.٢٠/ 2l.٨» كلمة "ove"، وللدلالة على حرف l، تبدأ الجملة برقم يدل على سطر في قصيدة مارفيل، والرقم التالي يدل على موقع الحرف في ذلك السطر، 2l.١١ تعني أحد عشر حرفاً في السطر الثاني. أعتقد أن الأمر بات واضحاً. وعندما استُخدمتْ قصيدة رامبو من أجل زيادة في تنوع التضليل، فإن الحرف الدال على السطر، كان يُكتب بخط كبير. مرة أخرى، فكرة عصية على الشرح، والتفسير هو متعة للقراءة تهدف فقط (عبثاً، كما أخشى) للبحث عن أخطاء في الأمثلة. بكل الأحوال، سرعان ما ثبت فشل الطريقة الثانية الممتلئة بالثغرات أكثر من سابقتها. وقد تطلّبت الحكمة أن لا يمتلك أي من المراسليْن، نسخة مطبوعة أو مكتوبة لأي من القصيدتيْن، ومهما كانت ذاكرتهما قوية، فإنها لم تنجّهما من الوقوع في الأخطاء المتزايدة.

استمرت وتيرة المراسلات حتى عام ١٨٨٦ كما السابق، رسالة في الأسبوع على أقل تقدير؛ ولكن، وعلى نحو يثير ما يكفي من الفضول، فإن رسائلهما خلال فترة الانفصال الثالثة (الممتدة من يناير ١٨٨٧ وحتى يونيو ١٨٨٨) أصبحت أقل ندرة، تضاءلت إلى عشرين رسالة من قِبل آدا (مع اثنتيْن أو ثلاث خلال ربيع ١٨٨٨) وحوالي الضعف من قِبل فان.

لا يمكن ذكر أي مقطع هنا من تلك الرسائل، إذ إنها قد أُتلفت جميعها عام ١٨٨٩.

(أقترح حذف هذا الفصل القصير كلياً. ملاحظة بخطّ آدا).

٢٧

«أرسلتْ مارينا تحدثني عنك، وقالت أيضاً uzhe chuvstvuetsya osen[١]، وهي جملة روسية صرف. في الوقت ذاته من كل عام، كانت جدتك أيضاً تردد هذه الجملة، حتى في أحرّ يوم في الفصل، في فيلا أرمينا: لم تكن مارينا لتدرك أبداً أنني أقصد البحر حين أقول جدة[٢]، جناس عصيّ على فهمها. تبدو رائعاً، sïnok moy[٣]، ولكني أستطيع أن أتخيل كم ضاق ذرعك بالفتاتيْن الصغيرتيْن. لذلك، سأقترح أمراً ـــ»

«أوه! لقد أعجبتاني جداً» قال فان بصوت مخرخر، «وخاصة العزيزة لوسيت.»

«أقترح أن ترافقني اليوم إلى حفلة كوكتيل تقيمها الأرملة الرائعة لعمدة «براي» الغامض - أما الغموض فمرتبط بجارنا المتوفى، طلقة جيدة، ولكن الإضاءة في المكان العام لم تكن كافية، كما أن جامع القمامة المتطفل قد صاح في اللحظة الخاطئة. حسناً، تلك السيدة

---

(١) uzhe chuvstvuetsya osen: بمعنى ها قد بدأ الخريف. (مترجم)

(٢) جدة والبحر: الجناس المقصود باللغة الفرنسية: la grande mere (الجدة) و la mer (البحر). (مترجم)

(٣) sïnok moy: يا فتاي الصغير (بالروسية). (مترجم)

الفاخرة وواسعة النفوذ والتي تتمنى خدمة أحد أصدقائي (متنحنحاً)، لديها، كما أُخبرت، ابنة، ذات خمسة عشر ربيعاً، تُدعى كوردولا، والتي بالطبع، ستعوضك عن لعبة الغميضة التي لعبتها طوال الصيف مع فتيات غابة آرديس.»

«أكثر ما لعبناه كان الكلمات المتقاطعة، وورق اللعب»، قال فان، «هل هذه الفتاة من فئتي العمرية؟»

«إنها برعم Duse[1]» أجاب ديمون بصرامة، «وستتأكد من ذلك خلال الحفلة. ستكون لصيقاً بكوردولا دو براي، أما أنا فبكورديليا أوليري.»

«اتفقنا»، قال فان.

قامت والدة كوردولا، ممثلة الكوميديا المفرطة بنضجها، بتبرجها وبتملقها، بتقديم فان إلى بهلوان تركي، غزير شعر اليدين كالقرود، وله عيْنا مشعوذ - ولكنه ليس بمشعوذ، فهو فنان عظيم في مجال السيرك. كان فان مأخوذاً بحديثه، ونصائح التدريب التي أغدقها على الفتى التواق، وقد تلقاها بكل حسد، طموح، احترام، وغيرها من مشاعر الشباب، التي لم يعطِ معها الوقت الكافي لكوردولا، ذات الوجه المدوّر، الصغير والممتلئ، الذي يعلو سترة صوفية حمراء داكنة، مع ياقة عالية. وكذلك لم يجد متسعاً للاهتمام بتلك السيدة الفاتنة التي كان والده بظهر كفّه يضغط بنعومة فوق عمودها الفقري، أثناء اقتياده لها نحو هذا أو ذاك، من الضيوف غير المفيدين. ولكن في تلك الأمسية ذاتها، كان فان قد التقى بكوردولا في متجر لبيع الكتب، وقد قالت له: «بالمناسبة يا فان، أستطيع أن أناديك هكذا صحيح؟ إن ابنة عمك آدا تكون زميلتي في المدرسة. أوه، أجل. اشرح لي من فضلك! كيف تعاملت مع فتاة صعبة

---

(١) Duse: إيليونورا ديوس (١٨٥٨-١٩٢٤) ممثلة إيطالية. (مترجم)

المراس كآدا؟ في أول رسالة أرسلتْها لي من آرديس، اندفعت تشرح - آدا خاصتنا - عن حلاوتك، ذكائك، سحرك غير العادي ـــ»

«فتاة سخيفة. متى كان ذلك؟»

«في يونيو، كما أعتقد. ثم كتبتْ لي مرة أخرى، ولكنني في الرد... عليَّ الاعتراف أن الغيرة اعترتني، لقد غرتُ منك حقاً، فأوردت كثيراً من التساؤلات، فجاء ردها مراوغاً، غير متضمن ذكر فان.»

قرّب نظراته منها أكثر مما فعل سابقاً. كان قد قرأ في مكان ما (إن حاولنا يمكننا تذكر العنوان الدقيق، ليس في قصة «تيلتيل»، بل في «اللحية الزرقاء»...) أنه يمكن للرجل الحقيقي التعرّف فوراً على سحاقية، شابة ووحيدة (إذ إن البدلة الموحدة لزوج من السحاقيات، لا يمكن لها أن تخدع أحداً) من خلال خصائص ثلاث: الأيدي المرتعشة قليلاً، صوت شخص مصاب بالزكام، وتلك العيون التي تهرب فزعاً، إن أجبرتها الصدفة على كشف سحر كهذا، أمام النظرات المتمعّنة (كتفان جميلتان، على سبيل المثال). لا شيء من ذلك كلّه (أوه، تذكرت العنوان، ميتيلين، إيزيل الصغيرة، للويس بيير[1]) كان منطبقاً على كوردولا، التي ارتدتْ garbotosh (معطف «ماكنتوش» بحزام) فوق ياقة السلحفاة غير الأنيقة، واضعة كلتا يديها في عمق جيْبيْها، عندما توجب عليها تحدي نظرات فان الفاحصة. كان لشعرها القصير ظلٌّ حيادي، ما بين القش الجاف والمبلّل. أما زرقة قزحية عينيْها فتجد لها ملايين العيون المماثلة بين العائلات الفقيرة في إيستوتي الفرنسية. لها فاه دمية جميل، وخاصة عندما تغلقه، واعية لذلك، عند برطمة مهذبة، ليتحول إلى ما يسميه

(١) لويس بيير: واسمه الحقيقي بيير لويس وهو شاعر وكاتب فرنسي (١٨٧٠-١٩٢٥) اشتهر بكتابته عن السحاقيات. (مترجم)

الرسامون بطيات المنجل، والتي هي في أفضل حالاتها دمامل مستطيلة، وفي أسوأها، أثلام محفورة في الخدود الباردة لبائعات التفاح الصغيرات، المنتعلات أحذية لبادية. عندما شُقّت شفتاها، كما الآن، كشفتا عن جهاز تقويم فوق أسنانها، والذي كان... لا يهم، على أية حال، لقد أسرعتْ في إغلاق مصراعيْ فمها.

«ابنة عمي آدا»، قال فان، «فتاة في الحادية أو ربما الثانية عشرة من عمرها، وهي أصغر من أن تقع في حب أحد ما، ما لم يكن بطلاً في كتاب. أجل، لقد استظرفتها بدوري. قد تكون فتاة صغيرة وجميلة، ولكنها في الوقت ذاته وقحة ومتقلبة المزاج، ولكن... أجل، إنها ظريفة.»

«غريب»، تمتمت كوردولا متأملة، مع فارق بسيط بنغمة صوتها الدقيق، لم يعرف فان معه إن كانت تنوي إغلاق الموضوع، أو تعليقه، أم الانتقال إلى آخر.

«كيف يمكنني التواصل معكِ غداً؟»، سأل فان. «هل ستأتين إلى ريفرلان؟ هل ما زلت عذراء؟»

«أنا لا أواعد العابرين»، أجابتْ بهدوء، «لكن يمكن التواصل معي دائماً من خلال آدا. نحن لسنا في الصف ذاته، افهمْ عبارتي كما تشاء! (ضاحكة)؛ آدا طفلة عبقرية، أما أنا فشخصية أمريكية متوازنة المزاج وواضحة، لكننا ننتمي إلى ذات المجموعة الفرنسية المتقدمة، التي ينام أفرادها في مهجع واحد، يجمع دزينة من الشقراوات، ثلاث سمراوات، وواحدة حمراء Rousse[1]، والـRousse، حتى في أحلامها تتنهد باللغة الفرنسية» (تضحك وحدها).

---

(١) la Rousse: ثلاثة معان لكلمة واحدة. تعني الكلمة بالفرنسية: ذات الشعر الأحمر. كما تعني السيدة الروسية. أما التلميح الثالث فلقاموس Larousse الفرنسي الشهير.

«يا للمتعة! حسناً، شكراً. الرقم الزوجي يشير إلى أسرّة بطوابق، على ما أعتقد. أراك لاحقاً، كما يقول العابرون.»

في رسالته المشفّرة التالية إلى آدا، استفسر فان ما إذا كانت كوردولا هي الرفيقة السحاقية التي ذكرتها آدا، مع إحساس بالذنب، لم يكن ضرورياً أبداً. كنت لأغدو غيوراً من يدك الصغيرة. أجابت آدا: «يا للهراء! لا تدع تلك اللعوب تفسد ما بيننا»؛ ولكن فان الذي كان حتى حينها جاهلاً بمقدرة آدا على الاستبسال في اختراع الأكاذيب لحماية شركاء جرائمها، لم يكن مقتنعاً بردّها.

كانت للمدرسة قوانين قد عفا عليها الزمن، وفيها من الصرامة ما يدفع للجنون، ولكنها كانت تذكّر مارينا بحنينها إلى المعهد الروسي الخاص بنبيلات يوكونسك (الذي ما انفكت تعارض قوانينه بسهولة ونجاح كما لم تنجح في ذلك كل من آدا وكوردولا، أو حتى غرايس في براونهيل). سُمح للفتيات بمقابلة الفتيان أثناء حفلات الشاي الشنيعة، مع الكعك الوردي، في غرفة استقبال المديرة، ثلاث أو أربع مرات في الفصل الواحد. كل ثلاثة أسابيع، وخلال أيام الآحاد، سُمح للفتيات بعمر الثانية أو الثالثة عشرة، بمقابلة أبناء العائلات النبيلة، في حانات الحليب المرخّصة، التي تبعد قليلاً عن المدرسة، ولكن برفقة فتاة أكبر، يُشهد لها بالأخلاق الحميدة.

حصّن فان نفسه إلى حين رؤية آدا، حالماً باستخدام عصا سحرية، تمكنه من تحويل أية خادمة شابة تأتي في طريقه، إلى ملعقة أو حبة لفت.

تتطلب تلك المواعدات، موافقة أم الضحية قبل أسبوعين من اللقاء، على الأقل. اتّصلتْ مديرة المدرسة الآنسة كليفت، ذات الصوت الناعم، بمارينا التي أخبرتها أن آدا لا تحتاج إلى فتاة

مرافقة، لتصحبها في مواعدة ابن عمها الذي كان رفيقها الوحيد في نزهات الصيف الطويلة.

«وهذا بالضبط ما أخشاه»، ردّت كليفت، «إن جسدَيْ متنزهيْن مقرّبيْن بهذا الشكل، يكونان في غاية الجهوزية للاحتضان، كما أن البرعم قريب جداً من الشوكة.»

«لكنهما عملياً كالشقيقيْن»، اندفعت مارينا بردّها، ظانة، كما يفعل كل الأغبياء، أن كلمة «عملياً» تعمل في اتجاهيْن: تصرف النظر عن حقيقة الأمر، وتعطي البديهيات شكل الحقيقة.

«وهذا ما يزيد الأمر خطورة»، قالت كليفت الرقيقة. «بكل الأحوال، لنقم بتسوية ما، سأطلب من العزيزة كوردولا دو براي أن تكون الطرف الثالث. إنها تحترم فان وتعشق آدا، وبالتالي، ستكون تتبيلة الحساء» (عاميّة قديمة جداً، حتى في ذلك العصر).

«يا للهول! يا لها من figli-migli (متصنّعة، مدّعية العفة)!» قالت مارينا بعد أن أنهت الاتصال.

بمزاج كئيب، لم ينبئ بأي توقعات (ربما كانت المعرفة الاستراتيجيّة المسبقة قد ساعدتْ في مواجهة المحنة)، انتظر فان آدا في طريق المدرسة، زقاق خلفي مغم تملأه برك تعكس سماءً متجهمة، وسياج ملعب هوكي. شاب من الثانوية، بأناقة مغرية ولافتة، وقف عند البوابة.

أوشك فان أن يعود إلى المحطّة عندما ظهرت آدا - مع كوردولا. يا لها من مفاجأة! حيّاهما بحماسة رهيبة («كيف حالك يا ابنة عمي الحلوة؟ أوه كوردولا! من منكما فتاة المرافَقة؟ أنت أم الآنسة فيين؟»). كانت ابنة العم الحلوة ترتدي معطفاً مطرياً أسود لامعاً، وقبعة بكشاكش زيتية متدلية، كما لو كانت قد أُنقذت لتوّها من خطر مداهم أو غرق. لصاقة مستديرة صغيرة لم تخفِ تماماً البشرة

فوق جانب ذقنها. كانت لأنفاسها رائحة الأثير، ولمزاجها ما يفوق مزاجه كآبة. خمّن فرِحاً أنها ستمطر. وقد فعلتْ - وبقوة. لاحظت كوردولا أن معطفه المطري أنيق. لم تستسغ فكرة العودة لجلب المظلات - فالهدف اللذيذ بات قاب قوسين أو أدنى. «ربما أكثر من قوسيْن»، دعابة فان التي تلقّتها برحابة صدر. ضحكت، أما آدا فلا: لن ينجو أحد من هذا الغرق، هذا ما بدا لها.

كانت حانة الحليب مكتظّة لدرجة دفعتهم للسير تحت أروقة المباني وصولاً نحو مقهى محطّة القطار. كان يعلم (مع عجزه عن فعل أي شيء حيال الأمر) أنه في ليلته تلك، سيندم على تغاضيه المتعمّد للحقيقة - الحقيقة الرئيسية، والمؤلمة - والتي هي عدم رؤيته آدا منذ قرابة ثلاثة أشهر، وأن ملاحظتها التي أرسلتها مؤخراً قد حملتْ شغفاً منفجراً، قد أطاح بكل فقاعات الشيفرة التي اعتمدتها في رسالتها الصغيرة الحاملة أمالاً ووعوداً، بخط متغطرس وجريء، يهدد بحب لا يحتمل رموزاً. تصرفا وكأنهما لم يلتقيا قبلاً، وكأن هذا اللقاء لم يكن سوى موعد مدبّر (blind date) من قِبل مرافقة. أفكار غريبة وخبيثة كانت تدور في ذهنه. ما هو بالضبط - ليس هذا بالأمر المهم، حين يكون كبرياء وفضول المرء على المحك - ما هو بالضبط الذي قامتا به الفاسدتان، في الفترة الأخيرة، والحالية، الليلة الماضية، كل ليلة، بملابس النوم، وسط همسات وآهات مهجع منحرف؟ أيسأل؟ أيمكنه إيجاد كلمات مناسبة، لا تجرح آدا، ولكن تجعل رفيقة سريرها تفهم أنه يزدري إثارتها لطفلة، بيضاء بشعر أسود، فاحمة الشعر متورّدة الوجنات، ناعمة الأطراف، ويستنكر نشيجها في ذروة رعشتها؟ قبل لحظة، حين شاهدهما تتقدمان سوية نحوه - البسيطة آدا، والتي تبدو قادمة لأداء واجبها رغم توعك، وكوردولا، تفاحة نخرها السوس ولكنها شجاعة،

كأسيرتيْن مكبلتيْن بالأصفاد مقادتيْن إلى الغازي - وعد فان نفسه، من قبيل الانتقام، أن يروي لهما بتفاصيل مهذّبة ولكن دقيقة، كل أفعال اللواطة، أو ما يشبه اللواطة، التي كانت تجري في مدرسته (فتى ضخم، ابن عم كوردولا، قُبض عليه متلبساً مع فتاة متنكّرة على هيئة غلام في غرفة العرّيف الانتقائي). كم ودّ لو يرى صدمتهما، فيطالبهما بقصة مشابهة. تضاءل ذاك الاندفاع. تأمل لو يتخلص ولو للحظة من كوردولا المملة، ليقوم بأمر وحشي يجعل آدا البليدة تذوب في بحر من الدموع. ولكنه كان مدفوعاً بحبه الخالص، وليس بحبهما القذر (سيموت بعد ذلك بقبلة موارية). ولم يعتبر حبهما قذراً؟ هل يمتّ للانقباضات البروستاتية بِصلة؟ أبداً. لا بل على العكس: إن مجرد تخيلهما في مشهد مداعبة يأخذه نحو عالم من المتعة المنحرفة. بعينه الداخلية التي تضخّ شهوةً، رأى آدا مضاعفة ومثرية، توأماً مجدولاً، مُعطياً الصورة ما أعطى وآخذاً ما أخذ: كورودا، آدولا. ما صدمه هو أن تلك الكونتيسة السمينة تشبه عاهرته الأولى، ما شحذ حُكاكه من جديد.

تكلموا عن دراستهم، معلميهم، وقال فان:

«أرغب في معرفة رأيك يا آدا، وأنت كذلك يا كوردولا بالمشكلة الأدبية التالية. أستاذي في الأدب الفرنسي يؤكد أن هنالك مسألة فلسفية خطيرة، وبالتالي فنّية، تتعلق بخلل غير مقبول، يظهر في كيفية تعامل بروست مع علاقة ألبرتين[1]. سيكون الأمر أكثر منطقية، لو أن القارئ يعرف أن الكاتب ذاته كان لوطياً، وأن خدّي

(١) بروست وألبرتين: الجزء السادس من سلسلة «البحث عن الزمن المفقود» لمارسيل بروست الكاتب الفرنسي، يحمل عنوان «ألبرتين المختفية» أو «ألبرتين في أرض الشتات».

ألبرتين السمينيْن الجميليْن، ليسا إلا ردفَي ألبرت الجميليْن. ولكن في الوقت ذاته، ستفقد القراءة متعتها إن كان يُفترض بالقارئ - وهذا أمر لا يُطلب منه - أن يكون على دراية بعادات هذا أو ذلك الكاتب الجنسية. يدّعي أستاذي أن القارئ إن كان جاهلاً بانحراف بروست، فإنّه لن يفهم ذلك الوصف التفصيلي لعذاب الغيرة الذي يعتري ذكراً «مغايراً جنسياً» (hetro) عند مراقبته لامرأة سحاقية. ستبدو الفكرة سخيفة لأن الذكر العادي سيكون فقط مستمتعاً، لا بل مهتاجاً في الواقع، أمام سحاقيتيْن تتداعبان. وخلُص البروفيسور إلى أن الرواية التي لا يمكن تقديرها إلا من قبل «غاسل متملق صغير»، كان قد عاين ملابس الكاتب الكتانية الوسخة، ما هي إلا، من الناحية الفنيّة، عمل فاشل.»

«آدا! ما هذا الذي يتحدث عنه، بحقّ الجحيم؟ هل شاهد فيلماً إيطالياً؟»

«فان!»، قالتْ آدا بصوت متعب، «أنت لا تدرك أن المجموعة الفرنسية المتقدمة في مدرستنا، لم تتقدم نحو ما هو أبعد من راكان[١] وراسين.»

«فلننسَ الأمر!»، قال فان.

«ولكن أنت قد قرأت الكثير لمارسيل»، تمتمتْ آدا.

كان في مقهى المحطة قاعة شاي شبه خاصة تشرف عليها زوجة مدير المحطة، برعاية غبية من المدرسة. كانت خالية إلا من سيدة نحيلة ترتدي وتعتمر مخملاً أسود خلاباً، جلستْ إلى المشرب، وقد أدارت ظهرها لهم، ولم تلفت رأسها مرة واحدة. كان أول ما تبادر

---

(١) راكان: Honorat de Bueil, seigneur de Racan، هونورا دي بييل سينييور دي راكان، شاعر فرنسي (١٥٨٩-١٦٧٠). (مترجم)

إلى ذهنه أنها عاهرة من «تولوز». أطلق الثلاثي المحبط تنهدات ارتياح بعد أن وجدوا زاوية لطيفة ليركنوا إليها ويخلعوا معاطفهم. أمل لو أن آدا تخلع عن رأسها قبعة «حاملة البِحار» تلك. ولكنها لم تفعل، إذ إنها كانت تخفي شعرها الذي قصّته بسبب الصداع النصفي الرهيب، ولم ترِد لفان أن يراها في دور روميو المحتضر.

(بدأ بجويس[١] الكبير، بعد بروست الصغير. بيد آدا الساحرة)

(ولكن واصلي القراءة. إنها مخمل نقي. (V.V)[٢]. خربشة فان فوق مسودته قرب السرير)

ما إن مدّت آدا يدها - التي تبدو ميتة - لتناول كوب القشدة، حتى أمسكها فان وبدأ بتفحّصها. نتذكر فراشة الـ Camberwell Beauty التي حطّت مرة للحظة فوق كفيْنا المفتوحتيْن، ثم عادت يدانا فجأة لتصير فارغة. لاحظ برضى أنها لم تعد تقضم أظافرها التي أصبحتْ الآن طويلة وحادة.

«لا! لا يجب أن تكون حادة لهذه الدرجة. ما رأيك يا عزيزتي؟»، موجهاً سؤاله لدورا كوردولا، التي كان عليها الذهاب إلى حجرة التبرّج - بصيص من أمل.

«لم لا؟»، قالت آدا.

«لا يجب خدش الدمى الجميلة عند ملاعبتها»، تابع فان دون توقف. «انظري إلى يديّ رفيقتك الصغيرة (أمسكها)، انظري إلى

---

(١) جويس: تلميح آخر إلى رواية «عوليس» لما فيها من إباحية. (مترجم)

(٢) "V.V": تورية تحتمل معاً ثلاثة معانٍ:

١- حرف v أول حرف من كلمة مخمل (velvet) وهو تلميح إلى العاهرة التي كانت في المقهى ترتدي ثوباً مخملياً وقبعة مخملية.

٢- «فان فين» اسم الشخصية.

٣- فلاديمير فلاديميروفيتش نابوكوف. اسم الكاتب نفسه. (مترجم)

الأظافر القصيرة والأنيقة (براءة مصطنعة، مخلب مطيع!)، لا يمكن أن تخدش بها حتى الحرير. أوه لا! أتستطعين يا آردولا - أعني كوردولا؟ »

قهقهتْ كل من الفتاتيْن، وقبّلتْ كوردولا خدّ آدا. لم يكن فان ليتوقع ردة الفعل المنتظرة. ولكن هذه القبلة البسيطة قد جرّدته من أسلحته وأمله. ضاع صوت المطر في دويّ العجلات المتزايد. نظر إلى ساعته. نظر إلى ساعة الحائط. اعتذر - حان وقت قطاره.

«لا داعي للاعتذار» كتبتْ آدا (أعيدَت الصياغة هنا) رداً على اعتذاراته الذليلة. «لقد اعتبرنا أنك كنت ثملاً، ولكني لن أدعوك أبداً لزيارة بروان هيل مجدداً، يا حبيبي. »

٢٨

ثبت أن عام ١٨٨٠ (آكوا ما زالت حيّة، بطريقة ما، في مكان ما) هو العام الأكثر خصوبة بالذكاء والموهبة في حياة فان الطويلة، الطويلة جداً، التي لم تكن طويلة بما يكفي. كان في العاشرة. كان والده قد بقي في المناطق الغربية، حيث خلقَت الجبال ذات الألوان المتعددة من العبقرية في نفسه، ما خلقته في جيل الشباب الروسي. كان قادراً على حلّ مسألة من مسائل أويلر[١]، وأن يحفظ قصيدة بوشكين، «فارس بلا رأس»، في عشرين دقيقة. أمضى برفقة آندريه آندريفيتش، الذي كان يتصبب عرقاً وحماسة في قميصه الأبيض، ساعات كسولة متنزهاً بين الظلال البنفسجية للمنحدرات الوردية، يدرس أعمال صغار وكبار الأدباء الروس، ويحاول، مستعيناً بعدسة ليرمونتوف[٢] الرباعية الماسية، فكّ ألغاز تلميحات والده وتورياته

(١) أويلر: ليونهارد أويلر (١٧٠٧-١٧٨٣) عالم رياضيات سويسري، وهو أيضاً فيزيائي، عالم فلك ومنطق، ومهندس. يعد أحد أبرز علماء القرن الثامن عشر والبشرية، وذلك لاكتشافاته المؤثّرة في التحليل الرياضي ونظرية المخططات. (مترجم)

(٢) ليرمونتوف: ميخائيل يوريفيتش ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤١) أديب روسي يُدعى «شاعر القوقاز». من أشهر قصائده «الشيطان» (demon). (مترجم)

المبالغ بها، ولكنها سطحية على وجه العموم، التي تدور حول خبرته الطويلة في الأسفار والغراميات. ناضل لإخفاء دموعه، بينما أطلق آ. آ. آ. ذخيرة أنفه الأحمر الدهني، عندما كشف له عن بصمة قدم تولستوي الريفية العارية، في طين معرض مركبات في يوتا، حيث كتب قصة «مراد»، زعيم من النافاجو، ابن زنى لجنرال فرنسي، قتلته Cora Day في حوض السباحة. كم كانت سوبرانو جميلة، Cora تلك! اصطحب ديمون ابنه إلى أشهر دار أوبرا عالم في تيلورايد - كولورادو، حيث استمتع (وأحياناً كره) بأعظم العروض العالمية - شعر إنكليزي بلا قافية، تراجيديا فرنسية بمقاطع شعرية ثنائية، دراما ألمانية موسيقية هادرة، مع سحرة وعمالقة وحصان يتغوّط. اختبر أوجه عدة للشغف الرقيق - سحر قاعات الاستقبال، الشطرنج، مباريات في ملاكمة وزن الريشة في المعارض، ألعاب بهلوانية فروسية وغيرها، ولكن طبعاً، دون أن ينسى، تلك المبادرات المبكرة والعصية على النسيان، التي أغدقت بها مربيته الإنكليزية الجميلة والشابة، حين داعبته بيد خبيرة قبل خلوده إلى النوم، بينما كانت نصف عارية، تتزين وتتأنق للذهاب إلى حفلة ما مع شقيقتها، وديمون، ومرافق ديمون الدائم في جولات نوادي القمار، رجل البطانة أو الملاك الحارس، المراقب والمستشار، السيد بلونكيت، التائب عن الغشّ في لعب الورق.

في ذروة مجد مغامرته، اعتُبر السيد بلونكيت في إنكلترا كما في أمريكا، من أكبر الغشاشين في لعب الورق، وقد أُطلق عليه، على نحو مهذّب، لقب «اللاعب المشعوذ». في عامه الأربعين، وفي منتصف جلسة بوكر، خانه قلبه وتعرّض لنوبة إغماء طفيفة، مما سوّل، وللأسف، لأحد الخاسرين أن يمدّ يده القذرة إلى جيوب بلونكيت. قضى عدّة سنوات في السجن، ارتدّ إلى إيمان أجداده

الروماني، وعندما أنهى عقوبته تماماً، شارك في عمل تبشيري، وضع كتاباً حول استحضار الأرواح، تولى أعمدة في صحف مختلفة، كما عمل جاسوساً لمصلحة الشرطة (كان له ولدان نافذان فيها). حين تضافر ما أفسده الدهر مع بعض المداخلات الجراحية في ملامح وجهه القاسية، لم يعد وجهه الرمادي عديم الجاذبية فقط، بل فقد كل ما يمكّن الآخرين من التعرف عليه، ما خلا بعض المحاربين القدماء، الذين باتوا، وبكل الأحوال، يتجنبون صحبته المخيفة. بالنسبة لفان، فقد فتنه بلونكيت أكثر مما فعل كينغ وينغ. لم يستطع السيد بلونكيت، الجلف ولكن الودود، مقاومة استثمار تلك الفتنة (كلنا يعجبنا أن يُعجب بنا) بإطلاع فان على حيله، التي أصبحَت الآن نقية ومجرّدة، وعلاوة على ذلك، موثوقة. اعتبر السيد بلونكيت أن كل الوسائط الميكانيكية، المرايا أو مجرفة الورق الرخيصة وغيرها لا تؤدي إلا إلى زيادة في تعريض اللاعب لأن يكون مكشوفاً، تماماً كاستخدام الهلام، الشاش، والقفازات المطاطية وغيرها من الأدوات التي تلوّث وتضعف وسطاً مهنياً آخر. علّم فان ما يجب أن يبحث عنه عند اشتباهه بوجود غشّاش محاط بأشياء براقة من حوله (أشجار عيد الميلاد - بعض هؤلاء الهواة آتون من نواد محترمة). لم يؤمن السيد بلونكيت إلا بخفة اليد؛ كانت الجيوب السرية مفيدة (ولكن من الممكن أن تُخرج باطنها وتنقلب ضدك). المبدأ الأهم هو الإحساس بالبطاقة، رقة ملمسها، العدّ، المهارة في غش التخليط، تجريف طاولة اللعب، تبديل الورقة الأولى في الكدسة، التجهيز المسبق للصفقة، وفوق كل شيء، الإصبع الرشيق الذي يمكن أن يسبّب، من خلال إتقان الممارسة، اختفاء بطاقة كمعجزة طبيعة، أو على العكس، تجسيد للجوكر أو تحويل زوجيْن إلى أربعة ملوك. القاعدة المطلقة، في الاستخدام المنفصل لمجموعة

إضافية، هي حفظ الانحرافات والتحولات، إن لم يكن قد أتيح للبيانات أن تُعدّ مسبقاً. بعد أن كرّس نفسه عدّة أشهر لتعلّم تلك الحيل، تحوّل فان إلى نوع جديد من الاستجمام. كان تلميذاً نبيهاً، سريع التعلّم، قادراً على حفظ كل قاعدة في جارورها الخاص.

في عام ١٨٨٥، وبعد أن أنهى تماماً تعليمه الإعدادي، انتقل، كما فعل أجداده، إلى جامعة تشوز في إنكلترا، وقد سافر بين الحين والآخر متنقلاً بين لندن ولوت[١] (الاسم الذي أطلقه أثرياء المستعمرين البريطانيين ذوو الذائقة المتواضعة، على مدينة رائعة وحزينة كحبة لؤلؤ رمادية، واقعة على الجانب الآخر من القناة).

أحياناً، وخلال شتاء ١٨٨٦-١٨٨٧، وفي صقيع تشوز، وأثناء جلسة بوكر مع رجلَيْن فرنسيين، وزميل له سندعوه ديك، وتحديداً داخل شقة هذا الأخير فاحشة الفخامة والواقعة في سينيرتي كورت، لاحظ فان أن خسارة التوأم الفرنسي لم تكن فقط بسبب سكرهما الشديد والواضح، بل لأن السيد الإنكليزي كان عبارة عن «قمامة كريستالية»، كما كان بلونكيت ليطلق عليه. رجل مع العديد من المرايا - أسطح صغيرة عاكسة، متعددة الزوايا والأشكال، ينسلّ وميضها فوق ساعة أو خاتم مدموغ، كإناث يراعات عند أسفل جذع، مخفيّة فوق أرجل الطاولة، داخل ثنيّة ما أو طيّة، وعلى حواف منافض السجائر، الموضوعة فوق دعامات لم يتوقف ديك عن تغيير مواضعها تبعاً لهواه - كل هذه الوسائل (كما كان ليقول «غشاش ورق») لم تكن إلا عبارة عن غباء مفرط.

بعد تبديد وقته وخسارة بضعة آلاف، قرر فان تطبيق دروسه القديمة. كان هنالك توقف في اللعبة. نهض ديك وذهب نحو

(١) لوت أو لوتيتيا: الاسم الروماني القديم لباريس. (مترجم)

«الأنبوب الصوتي» الموجود في أحد أركان الغرفة، لطلب المزيد من النبيذ. بعصبية الواقع تحت كارثة، مرّر كل من التوأميْن تعيسَي الحظ قلم الحبر نحو الآخر، مع الضغط وإعادة الضغط فوق خرطوشه، لحساب خسارتهما التي فاقت خسارة فان. أزلق فان حزمة بطاقات في جيبه، ثم وقف ليدوّر كتفيْه الضخمتيْن الصلبتيْن.

«هل صدف يا ديك أن قابلتَ مقامراً في الولايات يُدعى بلونكيت؟ إنه رجل ذو صلعة رمادية على ما أذكر.»

«بلونكيت؟ بلونكيت؟ لا بدّ أنه من زمن آخر غير زمني. أيكون ذلك الرجل الذي تحوّل إلى راهب؟ لَمَ تسأل؟»

«إنه أحد أصدقاء والدي، فنان عظيم.»

«فنان؟»

«أجل فنّان. وأنا أيضاً فنّان. أفترض أنك تعتقد بنفسك فناناً أيضاً. كثير من الناس ما يفعلون.»

«ماذا تعني بالضبط بكلمة فنان؟»

«مرصد تحت الأرض»، أجاب فان فوراً.

«هل وجدت هذا الكلام في رواية حديثة؟»، قال ديك رامياً بسيجارته أرضاً بعد عدّة شهقات قوية.

«وجدته في رواية فان فين»، قال فان فين.

عاد ديك إلى الطاولة. وصل خادمه مع النبيذ. انسحب فان نحو دورة المياه، وبدأ بـ«طبابة البطاقات»، كما سمّى بلونكيت تلك العملية. تذكر أنه لم يمارس ألعابه السحرية منذ آخر مرة كان عرض فيها أمام ديمون مهارته في الحيل - التي استنكرها معتبراً أنها تشويه للبوكر. أوه أجل! ومرة حين ذهب إلى المستشفى لزيارة «غشاش» في المستشفى، كان هوسه المَرضي يدور حول فكرة الجاذبية وعلاقتها بدورة الدم الخاصة بـ«الكائن الأسمى». كان فان متأكداً من

مهارته - وغباء مضيفه - ولكن شكّ في طول المدة التي سيصمد فيها. أسِف لحال ديك الذي، وبغض النظر عن كونه مارق أفّاق، كان زميلاً محبباً وكسولاً، بوجه سمين وجسد مترهّل - يمكنك إطاحته أرضاً بواسطة ريشة، وكان يعلن صراحة أنه إن استمرت عائلته برفض دفع ديونه (الضخمة والثابتة)، فإنه سينتقل إلى أستراليا، حيث سيبدأ سلسلة جديدة من الديون، بعد أن يزوّر عدة شيكات تمكنه من الوصول إلى هناك.

سرّه أن يستنتج - كما أخبر ضحاياه - أنه في الوقت الراهن لا يحتاج إلا لبضع مئات من الجنيهات لإتمام الحدّ الأدنى من المبلغ المطلوب لإرضاء أكثر دائنيه شراسة. وبينما استمر في جزّ صوف جان وجاك بلا هوادة، وزع فان ورق اللعب. كان نصيب ديك ثلاث بطاقات مقص A، مقابل أربع تسعات مجتمعة في يد فان. تعاقبت الحيل المتينة الواحدة تلو الأخرى. استمر فان في تمرير البطاقات الجيدة - ليس بالنسبة لديك - إلى أن وصلت لحظة استشهاد الضحية (وصل خياطو لندن[1] بفواتيرهم، المرابي، وكاهن بروست القديس الشهير، مطالبين بموعد مع والد ديك). بوجه ممتقع، أطلق جاك رهاناً لم يسبق لفان أن رأى ما هو أثقل منه. نطق به كما لو كانت نزعات الموت الأخيرة. استسلم ديك بأوراقه الخمس المصفوفة (straight flush) أمام تلك الملكية (royal flush) في يد جلاده. أما فان، الذي حتى ذلك الحين لم يواجه مشكلة بإخفاء مناوراته الدقيقة عن عدسات ديك الساذجة، فقد سرّ أيما سرور برؤية الأخير يسترق

(١) خياطو لندن: تلميح إلى الكليشة الخاصة بأرستقراطيي إنكلترا الذين كانوا يفرون دائماً من ديونهم تاركين وراءهم فواتير الخياطين غير مسددة. (مترجم)

النظر إلى الجوكر الأخير في يده، يد فان، الذي جرف نحو صدره «قوس قزح العاج»، كما يسميه بلونكيت الشاعر. ارتدى كل من التوأمين معطفه، عقد ربطة عنقه، ثم قالا إن عليهما الذهاب.

«وأنا أيضاً»، قال فان، «من المؤسف أنك تثق بكرات الكريستال خاصتك. لطالما حيّرتني كلمة shuler[1] بالروسية - أعتقد أن لنا أسلافاً روساً مشتركين - فهي ذاتها تعني بالألمانية زميل دراسة، مع فارق المدّ». هذر بكلامه هذا بينما كان يملأ على عجالة شيكاً يستوفي مال الفرنسييْن المذهوليْن والمنتشييْن. أمسك بقبضة من البطاقات والرقائق، ورماها في وجه ديك. لم تكن مقذوفاته قد استكملت مسارها حين بدأ يتحسس ندماً على فعلته القاسية والدنيئة، لأن ديك المشؤوم، الذي لم يجد ما يتفوه به، جلس واضعاً يداً فوق عين، محملقاً بالأخرى (التي كانت تنزف أيضاً) في نظّارته المكسورة، بينما قدّم له التوأم الفرنسيان منديليْهما، وقد صدّهما على نحو ودي.

كان الفجر الوردي[2] يرتجف في سينيرتي كورت الخضراء. استيقظت الكادحة تشوز العجوز.

(كان يتوجب وجود إشارة تدل على التصفيق. ملاحظة بخطّ آدا).

بقي الغيظ يتآكل فان بقيّة صباحه ذاك، وبعد أن انتقع لفترة

---

(١) shuler و Schüler: الأولى بالروسية وتعني غشاش الورق، أما الثانية فتعني زميل المدرسة بالألمانية. (مترجم)

(٢) الفجر الوردي: تلميح إلى إحدى قصائد بودلير Le Crépuscule du Matin (شفق الفجر) وقد كتب في مطلعها:

L'aurore grelottante en robe rose et verte

(يرتجف الشفق بقميصه الوردي والأخضر). (مترجم)

طويلة في حمام ساخن (أفضل مستشار وملقّن وملهم في العالم أجمع، طبعاً بعد كرسي المرحاض) قرر كتابة رسالة اعتذار لغشاش الورق المغشوش. وبينما كان يرتدي ملابسه، وصل موفد برسالة من اللورد C (كان ابن عم أحد زملائه في ريفرلاند) يعرض فيها ديك السخي لقاء دينه المستحق، تقديمَ نادي فيلا فينوس، الذي تنتمي إليه عشيرته بكاملها. لا يمكن لفتى بعمر الثامنة عشرة أن يحلم بتلكما الهبة. لقد كانت تذكرة إلى الفردوس. تغلّب فان على ضمير المتقهقر (ضحك كلاهما كرفيقيْن عجوزيْن من جيمنيزيوم قديم) وقبل بالعرض المقدم.

(أعتقد يا فان أن عليك أن توضح لماذا، لماذا أنت يا فان، الأنقى والأنظف بين الرجال - لا أقصد بالمعنى الجسديّ الدنيء، فكلانا خسيسان بشكل أو بآخر - ولكن أقصد فان النقي، لماذا قبلتَ عرضاً من وغد لن يتوقف عن «الغمز واللمز» بعد ذلك الإخفاق. أعتقد أن عليك، أولاً، أن تشرح كم كنت غاضباً، وثانياً، أنك لم تحتمل فكرة أن الدجال (لا نختلف على كونه دجالاً) لم يتوقع منك أن تكون منافساً، أو أنك قد تغامر فقط بغاية إهانته، إن صحّ التعبير، هل أنا محقة؟ فان! هل تسمعني؟ أعتقد أن . . .)

بقي مختفياً لفترة طويلة. وبعد خمس أو ست سنوات، وفي مونتي كارلو، كان فان ماراً بمقهى في الهواء الطلق حين أمسكته يدٌ من كوعه. كان ديك C بوجه متورّد ومشع، محترم نسبياً، وقد انحنى نحوه فوق زهور التبغية المتعرشة على الدرابزين:

«فان!»، صاح، «لقد ابتعدت عن كل روث المرايا، هنئني يا صاح! اسمع: الطريقة الوحيدة الآمنة هي المراقبة، ولكنها ليست كل شيء، لقد اخترعوا مجهراً خاصاً، أتصدق ذلك! أعني مجهراً حقيقياً، غاية في النشوة، معدن ثمين، يُدخل تحت ظفر الإبهام، لا

تراه العين المجرّدة، ترسم به إشارات فوق البطاقات، وبواسطة نقطة مصغّرة جداً من النظارة أحادية العين، يمكن تكبير الإشارات، فتبدأ بقتل البراغيث، البطاقة تلو الأخرى، اللعبة بعد الأخرى، وهنا مكمن جماله، لا تحضيرات، لا ركائز، لا شيء البتة! المراقبة فقط، فقط المراقبة!» استمر ديك بالصياح بينما قفل فان مبتعداً.

٢٩

في منتصف يوليو ١٨٨٦، وبينما كان فان يفوز ببطولة كرة المضرب على متن سفينة لوكشوري (التي استغرقت حينها أسبوعاً كاملاً لتصل بفخامتها البيضاء من دوفر إلى مانهاتن!) كانت مارينا، في قطار العودة من لوس أنجلوس إلى لادور مع ابنتيْها، المربية وخادمتيْن، وكنّ جميعاً يرتجفن، وبدرجات متفاوتة، من نزلة برد روسية قد أصابتهن.

في الواحد والعشرين من يوليو (يوم ميلادها العزيز)، كانت رسالة هيدروغرام[1] واصلة من واشنطن في انتظار فان: «داديست مريض نافذ الصبر يصل ما بين الرابع والسابع والعشرين اتصل بدوريس اللقاء ممكن ترسل لك جوار تحياتها (regards)».

«ما يذكرني على نحو مؤلم بفراشات golubyanki (الزرقاء الصغيرة) التي اعتادت آكوا أن ترسلها لي»، أبدى ديمون ملاحظته متنهداً (بعد أن فتح الرسالة عملياً). «هل الرقيقة 'جوار' فتاة أعرفها؟ اسخط قدر ما تشاء، ولكن لا يبدو أنها رسالة موجهة من طبيب إلى

(١) هيدروغرام: aerograme في Terra ومقابلها hydrograme في Anti terra. (مترجم)

آخر». رفع فان عينيه إلى سقف بوشيه[1] في غرفة الإفطار، هازاً رأسه بإعجاب ساخر، تعليقاً على فطنة ديمون. أجل، لم ينكر ذلك. كان عليه المغادرة فوراً إلى Garders (أرأيت؟ جناس ناقص مع regards)، ثم إلى كوخ فوق الطريق المقابل لقرية ليثام، ليرى فنانة شابة مجنونة تسمى دوريس أو أورديس لا ترسم إلا المهور وعجائز الأثرياء.

استأجر فان غرفة تحت اسم مستعار (بوشيه) في النزل الوحيد في مالاهار، قرية بائسة عند نهر لادور، يبعد حوالي عشرين ميلاً عن آرديس. قضى ليلته في حرب مع البعوض الشهير (أو ربما ابن عمه)، الذي احتفى به أكثر مما سبق أن فعلتْ وحوش آرديس. كان المرحاض عبارة عن حفرة سوداء، مع آثار تدل على انفجار برازي، قد حصل بين نعلَي عملاق. عند السابعة صباحاً من الخامس والعشرين من يوليو، اتصل بآرديس من مكتب بريد مالاهار، فوجد نفسه موصولاً مع بوت الذي كان لحظتها موصولاً داخل بلانش. لم يتعرّف إلى صوت فان وظنه، مخطئاً، صوت كبير الخدم.

«اللعنة يا أبي»، قال من خلال الهاتف جانب السرير، «أنا مشغول الآن.»

«أريد التحدث إلى بلانش أيها الغبي»، هدر فان.

«أوه عفواً»، صاح بوت، «لحظة يا سيدي.»

سُمع صوت الفلينة وهي تقفز من الزجاجة (شرب النبيذ عن السابعة صباحاً!)، استلمتْ بلانش السماعة، وبدأ فان يملي عليها، بكل حذر، الرسالة التي عليها أن تنقلها إلى آدا، التي، وعلى أهبة

---

(١) فرنسوا بوشيه (١٧٠٣-١٧٧٠): رسام فرنسي من رواد فن الروكوكو. اشتهر بزخرفة الأسقف. (مترجم)

استعدادها، ردّت بدورها فوراً من الحضانة، حيث السماعة الأكثر وضوحاً في المنزل كله، ارتعشتْ، وانفجرتْ، تحت ضغط بارومتر ساحق.

«غابة فورك خلال خمس وأربعين دقيقة، آسف للعابي.»

«البرج! (tower)»، أجابت بصوتها الرنان العذب، بذات نغمة Roger («عُلم») التي قد يجيب بها طيّار في السموات الزرقاء.

استأجر دراجة نارية؛ محرك مهيب، ذو سرج منجد بذات لباد طاولات البلياردو، مع مقبض رنان بلون اللؤلؤ الزائف. قادها على امتداد مسار الغابة، واثباً بين جذع شجرة وأخرى. كان أول ما رآه، وميض شعاع دراجتها المركونة جانباً. كانت واقفة إلى جانبها، بشعرها الفاحم فوق بياض وجهها الملائكي، واضعة يديها فوق وركيها، وتحدّق خجلةً نحو البعيد، مرتدية ثوباً وخفاً خاصين بغرفة النوم. ما إن حملها إلى أقرب أجمة، حتى استشعر لهب جسدها القائظ، ولكنه لم يدرك أن تلك الحرارة هي إعياء، إلا بعد ذروتيْن محتدمتيْن، حين نهضت، شبه مغميً عليها، يغطي جسدها النمل الأحمر، تتمتم بحديث عن الغجر الذين سرقوا سيارات الجيب الخاصة بهم.

كان موعد حب مروّع ورائع في الوقت ذاته. لم يعد يذكر ـــ (هذا صحيح. أنا أيضاً لم أعد أذكر. ملاحظة بخطّ آدا).

ـــ كلمة واحدة مما قالاه، سؤال واحد، إجابة واحدة؛ هرع بها نحو أقرب نقطة إلى بيتها، يجرؤ على وصولها (بعد أن دفع دراجتها نحو السراخس) - وعندما اتصل ببلانش مساءً، أخبرته بأسى أن الآنسة مصابة بالتهاب رئوي حاد، «يا سيدي المسكين.»

تحسّنت صحة آدا بعد أيام ثلاثة، ولكن كان عليه العودة إلى

مان[1] للالتحاق بالسفينة العائدة إلى إنكلترا - وللانضمام إلى جولة سيرك، قد شارك فيها أشخاص لا يمكنه أن يخذلهم.

ذهب والده ديمون لوداعه: صباغ شعره يزداد اسوداداً؛ يضع خاتماً ماسياً يلمع ككتلة قوقازية؛ هبّ نسيم من الأطلسي، فاهتزت أجنحته الطويلة بسوادها المزرق؛ *Lyudi oglyadivalis* (التفتَ كل من كان هناك)؛ رافقته تمارا - المؤقتة - (كحل عربي، وأحمر شفاه بلون جبل الكاسبيك، وجسد أفعى - فلامنغو) التي لم تستطع تحديد ما يرضي عشيقها أكثر - الاستمرار بالتنهد والتأوه متجاهلة وجود ابنه الخلّاب، أم إكبار وإجلال فحولة اللحية الزرقاء التي رأتها في وجه فان النكد، الذي لم يكن ليحتمل عطرها القوقازي، Granial Maza، بتكلفة سبعة دولارات للقارورة الواحدة.

(أتعلم؟ هذا أفضل فصل بالنسبة لي حتى الآن. لا أعرف لماذا يا فان ولكني أحببته. ويمكنك أن تبقي بلانش في حضن عشيقها، حتى وإن كان ذلك لا يهم. بخط يد آدا الأكثر دفئاً).

(١) مان: تصغير مانهاتن. (مترجم)

٣٠

في الخامس من فبراير ١٨٨٧، أشارت افتتاحية غير موقعة في رانتر (صحيفة تشوز الأسبوعية، الساخرة والانتقادية) إلى عرض ماسكوداغاما على أنه الأكثر إبداعاً وتفرّداً بين كل الألعاب البهلوانية التي تُعرض أمام الجماهير في قاعات الموسيقى. أعيد تقديمه في نادي رانتاريفر عدة مرات، ولكن كل ما كُتب عنه في البرنامج أو في الإعلانات الخاصة به، كـ«عرض أجنبي غريب الأطوار»، لا يشي بأي تفصيل عن طبيعة العرض أو هوية العارض. أثار أصدقاء ماسكوداغاما شائعات ذكية ودقيقة، تزعم تكهّنات حول وصول زائر غامض سيظهر خلف «الستائر الذهبية». وقد زاد في مصداقيتها وصول نصف دزينة على الأقل من أعضاء «شركة السيرك العظيم»، قد جاؤوا من «طارطاريا» في ذلك التاريخ المحدد (أي عشية حرب القرم) - ثلاث فتيات راقصات، مهرج عجوز مريض مع عنزته الناطقة، زوج إحدى الراقصات، خبير التجميل (وهو بلا شك، وكيل متعدد) - بعد أن انشقوا عن سيركهم، ما بين فرنسا وإنكلترا، في مكان ما من Chunnel المشادة حديثاً. نجاح ماسكوداغاما الاستثنائي في نادٍ مسرحي، لطالما كان مقتصراً على مسرحيات «إليزابيثيّة» حيث ملكات وجنيات يلعب أدوارهن صبية جميلون،

المسرحيات التي كان لها، وقبل كل شيء، أيما تأثير على رسامي الكاريكاتير. العمداء، السياسيون المحليون، رجال الدولة، وطبعاً، الحاكم الحالي لغولدن هورد، كلهم قد تم تصويرهم على أنهم ماسكوداغاما، في صحف هزلية محلية. في أوكسفورد، على مقربة من كلية نسوية، تلقّى أحد مقلّدي الشخصيات (وكان يمثّل ببراعة الحركات الخاصة بماسكوداغاما ولكن في محاكاة ساخرة على نحو مفرط) صيحات استهجان المحتجين المحليين. أحد المراسلين الدهاة، وكان قد سمعه يطلق اللعان متذمراً من طيّات في سجادة المسرح، كتب معلّقاً «لهجة يانكي». تلقّى العزيز فاسكوديغاما دعوة من مالك قصر ويندسور، وهو أحد أسلاف فان من جهتَي الأم والأب، ولكنه رفض الدعوة معتبراً (وتبين لاحقاً أنه كان مخطئاً) أن الخطأ المطبعي (ف بدل م) كان مقصوداً، وأن اسمه المستعار لم يعد سرّاً بعد أن كشفه أحد المحققين الخاصين في تشوز - المحقق ذاته ربما، الذي أنقذ مؤخراً الطبيب النفسي ب. أو. تيومكين، من طعنة محققة بخنجر الأمير بوتيومكين، أحمق مختل من سيباستوبول - إيداهو.

خلال إجازته الصيفية الأولى، عمل فان تحت إمرة تيومكين، في عيادة تشوز الشهيرة، على أطروحة طموحة لم تكتمل أبداً، «تيرا: حقيقة دينية أم حلم جماعي؟». أجرى مقابلات عديدة مع اختصاصيّي أعصاب، فنانين متنوعين، أدباء، وثلاثة علماء فضاء على الأقل، حاضرين فكرياً ضائعين روحياً، وقد كانوا إما قد تخاطروا ذهنياً (لم يلتق أحدهم الآخر أبداً ولا يدري حتى بوجوده) أو أنهم حقاً اكتشفوا (لا أحد يدري أين وكيف، أو ما هي الوسائل، ربما بواسطة «مويجات» ممنوعة) كوكباً أخضر يدور في الفضاء، ويدور بشكل لولبي في الزمن، وهو، بثنائية «المادة - الروح»، شبيه بكوكبنا، وقد

وصفه الثلاثة بنفس التفاصيل المحددة كما لو أن كل منهم كان ينظر من نافذة منفصلة، إلى عرض كرنفال في شارع واحد.

أنفق كل ساعات فراغه على تلك المعضلة.

مرة في أغسطس، تلقّى من مسرح لندن الشهير عرضاً لتوقيع عقد سلسلة من عروض صباحية ومسائية، تُقدم خلال عطلة الميلاد وعطلات نهاية الأسبوع خلال موسم الشتاء. قبل بسرور، كونه بحاجة ماسة إلى ذلك النوع من الإلهاء، يخفف ضغط دراسته الصارمة، المحفوفة بالمخاطر: نوع خاص من الهوس، يرزح تحت وطأته مرضى تيومكين، قابل للعدوى، ينتقل من المريض إلى المحققين الشباب.

وصلتْ شهرة ماسكوداغاما حتماً إلى غابات أمريكا النائية: ظهرت صورة له (ملثّماً، هذا صحيح، ولكن ليس لدرجة تضليل قريب محب أو خادم أمين) في صحف لادور، لادوغا، لاغونا، لوغانو، و لوغا، في الأسبوع الأول من ١٨٨٨. لكن الصورة لم تكن مرفقة بتقرير. قصيدة شاعر، وشاعر فقط (وخاصة من شعراء مجموعة «برج الحراسة الأسود[1]») يمكنه أن يجد وصفاً يفي حق الإثارة المروّعة التي رافقتْ عروض فان الاستثنائية.

رُفعت الستارة أولاً عن خشبة فارغة؛ ثم بعد خمس دقات قلب تنبض بالتشويق المسرحي، تدفق شيء أسود وضخم من وراء الكواليس، ترافقه مزاهر الدراويش. الصدمة الناجمة عن دخوله القوي والمتهوّر قد أثّرت عميقاً في نفوس الأطفال المتفرجين، الذين

---

(١) مجموعة برج الحراسة الأسود: تلميح إلى المجموعة الشعرية المسماة «مجموعة الجبل الأسود» والتي تأسست عام ١٩٣٣ في كارولاينا الجنوبية- أمريكا. (مترجم)

بقوا لفترة طويلة لاحقة، في نوبات من الدموع والأرق، والكوابيس العنيفة، التي زادوا عليها إضافاتهم الخاصة، لتصير بادئة «الكرب الأساسي»، شر قبيح، ضربات أجنحة غير مرئية، ريح تدوي في كهف مسحور، تحمل معها حمى تتفاقم على نحو لا يُطاق. في الضوء الصارخ فوق سجادة مبهرجة، انطلق عملاق ملثّم بطول ثماني أقدام كاملة، يركض بنوع من الأحذية الطرية التي ينتعلها راقصو القوقاز. غطت عباءة سوداء ضخمة، من نوع البرقع، «خيالَه المقلق» (وفقاً لما ذكرته مراسلة السوربون - لقد احتفظنا بكل القصاصات) من الرقبة إلى الركبتين، أو ما بدا على أنه رقبة وركبتان. اعتمر قبعة كاراكول[١]. غطت لحية كثّة جزءَ وجهه السفلي، أما العلوي فغطّاه لثام أسود. استمر ذلك العملاق المزعج بتبختره فوق المسرح لفترة من الوقت، ثم تحولت تلك البخترة إلى مشي مضطرب لرجل مجنون في قفص، ثم بدأ بالدوران، وعند ضربة معينة من صنوج الأوركسترا، مترافقة مع صرخة رعب في المعرض (ربما كانت مصطنعة)، تشقلب ماسكوداغاما في الهواء ووقف على رأسه. بتلك الوضعية الغريبة، ومع القبعة كدعامة ملحقة، قفز صعوداً وهبوطاً، بأسلوب «العصا القافزة»، وفجأة، انفصل عن بعضه وصار أجزاءً. كشف وجه فان، اللامع عرقاً، عن ابتسامة عريضة، بانت من خلال ساقيْ حذائه، اللتين كانتا بدورهما نعليْن لذراعيْه الصلبتيْن المرفوعتيْن في الهواء. في الوقت ذاته، بدأت قدماه الحقيقيتان بركل رأسه المزيف، بقبعته المغضنة ولثامه ذي اللحية. ذلك الانقلاب السحري قد خطف الأنفاس. تصفيق مسعور («يصمّ الآذان»،

---

(١) قبعة كاراكول: قبعة صوفية، والكاراكول هي سلالة غنم ذات شعر طويل أصلها من مدينة كاراكول بين كاشغر وتاشكورغان في الصين. (مترجم)

«جنوني»، «عاصفة حقيقية من. . .») تلى الأنفاس المخطوفة. قفز نحو الكواليس - عاد في اللحظة التالية، بملابس سوداء ضيقة، يرقص على يديه رقصاً مرحاً.

إن كنا نفرد مساحة كبيرة لوصف حركاته، فذلك ليس فقط خوفاً من أن يصبح الفن «غريب الأطوار» طيّ النسيان قريباً، بل لأننا أيضاً نجد متعة في تحليل التشويق. لم يقدر أي التقاط إعجازي في ملعب كريكيت، ولا أي هدف مجيد في شبكة كرة القدم (رغم أنه كان بطلاً في كلتا اللعبتيْن الرائعتيْن) ولا حتى أي تفوق جسدي سابق (كرميه أرضاً لأكبر المتنمرين في مدرسته ريفرلاند، ومنذ اليوم الأول) أن يعطي فان الرضا الذي قدمه له ماسكوداغاما. لم يكن ذلك الرضا مرتبطاً بحماسة تحقيق طموح ما، رغم أنه كعجوز مسن جداً يستعيد ذكريات حياة قد ملأتها أحداث لم يعد يتعرف عليها، فإنه كان يرحب أيما ترحيب وبسرور مسلٍّ (ببهجة أكبر من تلك التي غمرته آنذاك) بالحسد المبتذل والإشادات التافهة، التي أحاطت به لفترة قصيرة من شبابه. على وجه التحديد، يمكن مقارنة جوهر هذا الرضا بمثيل وجده لاحقاً في التمارين العبثية والمفرطة في صعوبتها، وكان ف.ف. قد ألزم بها نفسه، والتي تهدف إلى تفسير ما لم يُفسر من قبل، إلا كماهية شفقية (أو ربما لا شيء على الإطلاق، إلا وهم ظل خلفي، لتعبير وشيك عنه). إنها قلعة بطاقات آدا. استعارة مجازية تقف على رأسها ليس رغبة بخلق صعوبات والتغلب عليها، بل لإدراك مفهوم الشلال أو شروق الشمس، باتجاه معاكس: بمعنى آخر، الانتصار على توهج الزمن. وهكذا، فإن نشوة الشاب ماسكوداغاما المستمدة من تغلبه على الجاذبية، تشبه إلى حد ما الوحي الفني بالمعنى المطلق، الذي يصعب تحديد طبيعته من قِبل النقاد الأبرياء، المعلقين الاجتماعيين، الأخلاقيين، مروّجي الفكر

وما إلى ذلك. قدم فان عضوياً فوق المسرح، البلاغة التي قدمتها شخصيته لاحقاً في الحياة - الشخصية التي لم يكن أحد ليتوقعها تقدم تلك العجائب البهلوانية، والتي ترعب الأطفال. وعلاوة على ذلك، لم تلعب اللذة الجسدية الصافية للمشي على اليدين دوراً ضئيلاً، كما أن البقع الطاووسية التي دمغتها سجادة المسرح في باطن كفّيْ فان، أثناء أداء رقصة نمرته اليومية دون قفاز، لم تكن بالنسبة له إلا انعكاساً لعالم سفلي غني بالألوان، كان هو أول من اكتشفه. وبالنسبة لرقصة التانغو، التي أنهى بها جولته الأخيرة، فقد مُنح شريكة، راقصة ملهى من القرم، بفستان قصير لمّاع، مع فتحة ظهر منخفضة جداً. غنّت بالروسية على ألحان التانغو:

Pod znóynïm nébom Argentínï,
Pod strástnïy góvor mandolínï

تحت سماء الأرجنتين القائظة
وعلى إيقاع المندولين الملتهب.

ريتا الضعيفة ذات الشعر الأحمر (لم يعرف أبداً ما هو اسمها الحقيقي)، يهودية «قرائية» من جبال شوفوت كال، حيث - كما قالت عنها بنبرة من الحنين - تزهر القرانيا Kisil براعم صفراء بين الصخور القاحلة، ريتا تلك، حملتْ شبهاً غريباً بلوسيت، كما كانت لتبدو بعد عشر سنوات. لم يرَ منها فان أثناء رقصهما، إلا خطوات حذائها الفضي التنبيهية، تدور وتمشي متوافقة مع خطوات راحتيه. نال تعويضاته أثناء البروفات، وذات ليلة طلب مواعدتها. رفضت بسخط شديد، وقالت إنها تعشق زوجها (خبير التجميل) وتبغض إنكلترا.

اشتهرتْ تشوز ومنذ أمد طويل، بصرامة قوانينها، تماماً كما اشتهرت بذكاء طاقمها. لم يمكن لهوية ماسكوداغاما أن تفلت من

تحقيقات سلطاتها المثمرة. أشار معلمه الجامعي، (كهل شاذ ومتزمّت، يفتقر إلى أدنى روح الدعابة والاحترام لكل أعراف الحياة الأكاديمية) إلى أن فان، الذي كان عالي النزق دائماً ولا يملك ما يكفي من التهذيب، عليه أن لا يخلط بين دراسته الجامعية والسيرك، وأنه إن كان مصراً على أن يصبح فناناً متنوعاً، فسيتم إقصاؤه عن الجامعة. كما كتب ذلك العجوز النبيل رسالة إلى ديمون، طالباً منه جعل ابنه ينسى أمر البهلوانيات، خاصة وأن فان كان أول أمريكي يفوز (بعمر السابعة عشرة) بجائزة دودلي (في مقال عن الجنون والحياة الأبدية). آنذاك، لم يكن فان يعرف فنّ الوصول إلى تسوية ما بين الكبرياء والحذر، وفي بداية يونيو ١٨٨٨، اختار الرحيل إلى أمريكا.

٣١

عاد فان لزيارة عزبة آرديس عام ١٨٨٨. وصل ذات عصر غائم من يونيو، لم يدعه أحد، لم يتوقع قدومه أحد، لم يحتج إليه أحد؛ مع قلادة ألماس ملفوفة ومحفوظة في جيبه. ومع اقترابه من الحديقة الجانبية، رأى مشهداً من حياة جديدة، بروفا لمسرحية مجهولة، لا تدور به، ولا حتى له. بدت وكأنها حفلة في آخرها. ثلاث شابات يرتدين أثواب من تصميم فاس، باللونيْن الأزرق والأصفر، يمسكن بمناديل أنيقة بألوان قوس قزح، ويحطن بشاب غندور سمين، أصلع، يقف حاملاً كأس شمبانيا، وينظر من شرفة غرفة الرسم إلى الأسفل، نحو فتاة عارية الذراعيْن ترتدي ملابس سوداء: في الرواق الأمامي للعزبة، أدار سائق أشيب كرنكَ عربة runabout، العربة التي ترتجف عند أدنى اهتزاز، وبتلك الذراعين العاريتيْن، المفتوحتيْن للأقصى، أمسكت الشابة بطرفيْ عباءة بيضاء، عباءة عمّتها البارونة فون سكول. فوق بياض العباءة، انعكس ظلّ جديد لآدا، طويل وأسود - إنه سواد ثوبها الحريري الأنيق، عديم الأكمام، عديم الزينة، وعديم الذكريات. كانت البارونة العجوز تتلمس بحركات بطيئة شيئاً ما تحت إبطها الأيمن، ثم الأيسر - ما تراه يكون؟ عكّازاً؟ طرفاً متدلّياً لسوار أو حلية؟ - وحين التفتت

بنصف استدارة، لتستلم عباءتها (التي كان يحملها في تلك اللحظة بدلاً من الحفيدة، خادمٌ متأخر)، استدارت آدا بدورها، بعنقها الأبيض العاري من أي زينة، لتركض نحو درجات الشرفة.

تبعها فان نحو الداخل، بين أعمدة القاعة الكبيرة، وخلال مجموعة من الضيوف، نحو طاولة بعيدة، وُضعت فوقها أباريق كريستالية تحوي شراب أمبروزيا بالكرز. لم تكن ترتدي جورباً، وهذا ما لم يكن رائجاً في حينها؛ كانت ربلتاها قويتين ولكن شاحبتيْن، و(لديّ ملاحظة هنا، عن شبح في رواية) «قد سمحت قصة ظهر ثوبها المنخفضة جداً بإظهار تباين حاد جداً بين بياض بشرتها المألوف وذيل حصانها الأسود الوحشي، المتدلي من قمة رأسها». تنازع فان شعوران، يستبعد أحدهما الآخر: من جهة، يقينه المدمّر بأنه وبمجرد وصوله - وكأنه في متاهة كابوس - إلى الغرفة الصغيرة، بسريرها وحوض الاغتسال فيها، والتي يتذكرها بزهو، فإنها ستنضم إليه بجمالها الطويل والناعم؛ ومن جهة أخرى، كئيبة، ذعره والرعب من أن يجدها وقد تغيرت، كارهة ما أراد، مطلقة الإدانات، واجدة شرحاً جديداً مروّعاً لظروفهما - وهو أن كلاهما كان ميتاً، أو كان وجوده فائضاً في منزل مستأجر لتصوير فيلم. لكن الأيدي التي قدّمت له النبيذ، أو اللوز، أو حتى قدّمت نفسها من دون تحفّظ، قد أعاقت في الوقت ذاته مسعاه نحو حلمه. أسرع الخطى، رغم ذهول الذين تعرفوا عليه: أشار العم دان إليه بصوت عالٍ، متوجهاً إلى أحد المجهولين هناك، الذي ادّعى دهشته، محملقاً من وراء نظارته الأحادية - وفي اللحظة التالية، كانت مارينا، المعاد طلاؤها، الثملة، ذات الشعر المستعار الأحمر والعينين الممتلئتين دموعاً، تلصق شفتيها (بطعم فودكا الكرز) بفكّ فان والأجزاء غير المحمية، منتحبة كأم مشتاقة، بنصف مواء ونصف أنين، وبكامل عاطفة روسية

جياشة. تملّص من حضنها وتابع سعيه. كانت آدا تنتقل إلى غرفة الرسم، ولكنه من خلال تعبير حركة ظهرها، وتصلب ما بين كتفيها، أدرك أنها على دراية بوجوده. مسح أذنه الرطبة، المترعة طنيناً، وأومأ برأسه، رداً على تحية شاب بدين أشقر، كان قد رفع كأس النبيذ مرحباً به (هل كان بيرسي دو براي؟ أم كان لبيرسي أخ أكبر منه؟). شابة رابعة بثوب ذي تصميم كندي، من التشكيلة الصيفية «ذيل وزهور»، أوقفتْ فان لتخبره، بتجهم لطيف، أنه لم يتذكرها، وكان ذلك صحيحاً.

«المعذرة فأنا متعب»، قال. «لقد علق حافر حصاني في ألواح جسر لادور المتعفنة، وتوجب عليَّ إطلاق النار. لقد مشيت ثمانية أميال. أعتقد أني أحلم. أعتقد أنك الآنسة «حالمة» أيضاً». «لا! أنا كوردولا!» صاحتْ، ولكنه ابتعد مرة أخرى. اختفتْ آدا. وضع جانباً سندويشة الكافيار التي وجد نفسه يحملها كتذكرة مرور، توجّه نحو المخزن، وأمر شقيق بوت (خادم جديد) أن يأخذه إلى غرفته القديمة، وأن يجلب له واحداً من تلك الأحواض المطاطية، التي كان يستخدمها حين كان طفلاً في الرابعة، إضافة إلى ملابس نوم احتياطية تخص أياً كان. لقد تعطل قطاره في الحقول ما بين لادوغا ولادور، وقد مشى عشرين ميلاً، وحده الله يعلم متى سيرسلون حقائبه.

«لقد وصلتْ للتوّ»، قالها بوت الحقيقي، بابتسامة واثقة ولكن حزينة (لقد هجرته بلانش مؤخراً).

قبل أن ينزل في حوض استحمامه، رفع فان إطار نافذته الضيقة، ليطل على الغار والليلك، اللذين يحيطان بالرواق الأمامي، حيث لا يزال يُسمع صخب المغادرين. لمح آدا. كانت تركض وراء بيرسي دو براي الذي وضع قبعته الرمادية وابتعد سائراً فوق العشب. أحيتْ تلك

الصورة في نفس فان ذكرى هاربة من حقل ترويض الخيول، حيث أمضى الاثنان، بيرسي وفان، ساعات في مناقشة أمر فرس عرجاء، وشؤون ريفرلاند. انضمتْ آدا إلى الشاب في بقعة شمس مفاجئة؛ توقف، ووقفتْ هي تحدثه هازّة برأسها، كما كانت تفعل عند شعورها بالاستياء أو التوتر. قبّل دو براي يدها. كانت قبلة فرنسية، ولكن لا بأس. بينما استمرت بالحديث، أمسك باليد التي قبّلها، ثم قبّلها ثانية، ولم يتوقف، وهذا أمر لا يحتمل، أمر لا يُغتفر. ترك فان العاري موقعه، وعاد نحو ملابسه التي كان قد خلعها. وجد القلادة. وبغضب جليدي، جعلها إرباً. ربما ثلاثون، أو أربعون حبة برَد براقة، سقط بعضها فوق قدميها عندما اقتحمَت الغرفة.

مسحت الأرض بنظرة واحدة.

«يا للعار ـــ»، بدأتْ.

اقتبس فان، بكل هدوء، الجملة الأخيرة في قصة لاريفيير الشهيرة: «ولكن يا صديقتي المسكينة لقد كانت قلادة مزيفة» - ولكن في حالته تلك، كانت كذبة مريرة؛ قبل أن تلتقط ذرّات الألماس المفروطة، أغلقت الباب وعانقته، باكية - كان كل سحر الحياة في ملمس جلدها وحريرها، ولكن لمَ يرحب بي الجميع بالدموع؟ أراد أن يعرف أيضاً ما إذا كان الشاب هو حقاً بيرسي دو براي. أجل إنه هو. الذي طُرد من ريفرلاند؟ أجل، كما اعتقدتْ. لقد تغيّر كلياً، وأصبح سميناً كخنزير. أجل، لقد فعل حقاً. هل أصبح محبوبها الجديد؟

«والآن!»، قالتْ آدا، «على فان أن يضع حداً لابتذاله - أعني حداً نهائياً! لأنني في الأمس، اليوم، وغداً، لديّ محبوب واحد، وحش واحد، حزن واحد، وفرح واحد.»

«يمكننا لملمة دموعك في وقت لاحق»، قال، «لا أستطيع

الانتظار». كانت قبلتها المفتوحة حارة ومحمومة، ولكنه عندما أراد نزع ثوبها، أحجمت متمتمة باستنكار ونفور، لأنها سمعت حركة وراء الباب: قبضتان صغيرتان طرقتا فوقه من الخارج، بإيقاع يعرفه كلاهما جيداً.

«أهلاً لوسيت»، قال فان، «أنا أبدّل ملابسي، انصرفي الآن!»

«مرحباً يا فان، إنهم يريدون آدا وليس أنت، إنهم يريدونك في الطابق السفلي يا آدا.»

لآدا إيماءة مألوفة - تستخدمها للتعبير الصامت عن مأزق كبير (أرأيت، لقد كنت محقة، لا يمكن فعل شيء حيال الأمر nichego ne podelaesh) تنفّذها بشكل مجازي، إذ ترسم بيديها الاثنتين محيط كأس مدوّرة، من الحافة نزولاً نحو القاعدة، حانية كتفيها بحزن. وهذا ما فعلته قبل مغادرة الغرفة.

بعد عدّة ساعات، كررت تلك الحركة في مواقف تحمل من المتعة أكثر مما حمل الموقف الأول. لتناول العشاء، ارتدتْ آدا فستاناً آخر، قطنياً قرمزياً، وعندما التقيا ليلاً (في مستودع العتاد القديم وتحت توهّج مصابيح الكربيد) بدأ بحلّ ثوبها بقوة كادت تمزقه قطعتيْن ليكشف كامل جمالها. كانا في غمرة عناق عنيف (فوق الديوان ذاته الذي وقعت فوقه شملته الطرطانية الاسكتلندية - التي كان قد ارتداها عمداً) عندما فُتح الباب الخارجي من دون ضجيج، وانزلقتْ بلانش كشبح طائش. كان لديها مفتاحها الخاص، وكانت قد أنهتْ لتوّها موعدها الغرامي مع الحارس الليلي، البورغندي[1] الحزين، وتوقفتْ كمجنونة، تحدق في العاشقيْن.

---

(١) بورغندي: نسبة إلى بورغندي، أو بورغوني هي منطقة فرنسية تاريخية ومحافظة في وسط شرق فرنسا. (مترجم).

«اقرعي الباب من الآن فصاعداً»، قال فان مبتسماً، غير متضايق من التوقف، لا بل كان في الواقع مستمتعاً بذلك الظهور المفاجئ والخلّاب: كانت ترتدي عباءة بفراء أبيض، كانت آدا قد أضاعتها في الغابة. أوه، كم أصبحت بلانش جميلة! وكانت تأكله بعينيها - ولكن آدا أطفأت المصباح، فتلمّست «المومس» طريقها نحو الممر الداخلي، متمتمة بهمهمات اعتذارية. لم تستطع محبوبته التوقف عن الضحك، أما فان فقد استأنف مهمته الشغوفة.

بقيا معاً طوال الليلة، غير قادريْن على الافتراق، متأكديْن من قدرتهما على إيجاد الحجج المقنعة، في حال تساءل أي كان عن سبب بقاء غرفتيْهما فارغتيْن حتى الفجر.

ربّت أول شعاع شمس فوق صندوق عُدّة قد طُلي مؤخراً بالأخضر، عندما نهضا وتهيآ للذهاب إلى مخزن الطعام، يدفعهما جوع فتاك.

«Chto, vïspalsya, Vahn (هل نمت كفايتك يا فان)؟»، مقلّدة ببراعة صوت أمها، مكملة تقليدها ولكن بالإنكليزية: «يمكنني الحكم من خلال شهيتك للفطور، الذي يبدو لي أنه مجرّد فطور أولي.»

تابع فان باللهجة ذاتها: «آخ! رضفتاي تؤلمانني! كان ذلك المقعد صلباً جداً، كما أنني جائع.»

جلسا إلى طاولة الطعام متقابليْن، يمضغان الخبز الأسود المدهون بالزبدة، مع شرائح الخنزير المقددة، فيرجينيا، وشرائح جبن إيمينثالر أصلي، وبجانب كل ذلك، جرّة عسل شفاف: أبناء عمومة مبتهجين، يغيران على ثلاجة الطعام كأطفال الحكايات الخرافية القديمة، وكانت طيور السمنة في الحديقة الخضراء المتألقة، قد بدأت تغريدها الزاهي، حين وصلت الظلال الخضراء الداكنة نحو مخالبها.

قالت آدا: «إن أستاذي في مدرسة الدراما يعتقد أنني في مسرحيات الكوميديا أبرع مني في التراجيديا. لو أنهم فقط قد علموا!»

«لا يوجد ما يجب معرفته»، ردّ فان حاسماً. «لا شيء! لا شيء تغير! لقد كان المكان معتماً جداً لرؤية التفاصيل، التي سأعاينها غداً، فوق جزيرتنا الخاصة: 'أختاه! هل ما زلت تذكرين. . .'»

«صه! لقد ابتعدتُ عن كل ذلك - بيوت الشعر القصيرة، ديدان القز . . .»

«كفاك كفاك!»، صاح فان، «كان لبعض تلك القوافي أثرها البهلواني الساحر، في عقلينا كطفليْن آنذاك: 'من يعيد لي لوسيل، والسنديانة والبحر والتل'»، وأضاف محاولاً تبديد تجهمها بدعابة، «لقد استوى خوخ لوسيل الصغيرة خاصتنا، وأعتقد أنني سأستبدلك بها إن بقيتِ بهذا المزاج. أذكر المرة الأولى التي أغضبتك فيها، عندما رميتُ تمثالاً بحجر فأجفلتُ به عصفور. هكذا تكون الذاكرة.»

لم تكن آدا آنذاك، في مزاج جيد للاستذكار. قالتْ إن الخدم قريباً ما سيصلون، فيمكنهما عندها تناول شيء ساخن، إذ إن تلك الثلاجة لا تحوي سوى الحلويات، حقاً.

«لِمَ هذا الحزن المفاجئ؟»

نعم، لقد كانت حزينة، أجابتْ. لقد كان واقعة في ورطة رهيبة، وكان هذا المأزق ليدفعها نحو الجنون، لو لم تكن متأكّدة من نقاء قلبها. أمكنها شرح ذلك بواسطة استعارة مجازية: هي بطلة فيلم سيراه هو قريباً، يدور حول أهوال مأساة ثلاثية، عليها هي كممثلة أن تخفيها، خوفاً من أن تفقد حبها الوحيد والحقيقي، رأس الحربة، مكمن الألم. في الوقت ذاته، كانت تصارع سراً عذابات ثلاثة - كانت تحاول الخلاص من علاقة مملة وكئيبة تربطها برجل متزوج،

كانت تشفق عليه؛ تحاول القضاء على مغامرة ما زالت في مهدها (مهد أحمر ودبق) مع شاب مجنون وجذاب، تشفق عليه أكثر من الأول؛ وتحاول الحفاظ على سلامة حبها الوحيد الذي تكنّه لرجل واحد، هو معنى كل حياتها، إنه حبيب أسمى من الشفقة، أسمى من بؤس شفقتها الأنثوية، لأنه، وكما يقول نص الفيلم، أكثر غنىً وفخراً، مما يمكن للدودتيْن الفقيرتيْن أن تتخيلا.

بالعودة إلى الواقع، ما الذي فعلته حقاً بالدودات المسكينات، بعد نهاية كروليك المبكّرة والصاعقة؟

«أوه! أطلقي سراحها (إيماءة كبيرة مبهمة)، أخرجيها وأعيديها إلى نباتات مناسبة، أو ادفنيها في طور الخادرة، أو اطلبي منها أن تعدو هاربة، عندما لا تكون العصافير تحدق باحثة عنها، أو للأسف، عندما تتظاهر أنها لا تفعل.»

«حسناً، لننسَ أمر مثالك المجازي هذا، إذ إنك موهوب في مقاطعة أفكاري وتحويلها، فأنا أيضاً، بمعنىً ما، أرزح تحت عذابات ثلاثة خاصة، طموحي هو الأساسي فيها، طبعاً. أعرف أني لن أكون يوماً عالمة طبيعة، يجذبني شغف عظيم نحو الكائنات الزاحفة، ولكن ليس لدرجة الاستحواذ. أعرف أني سأعشق دائماً الأوركيد والبنفسج وكل فصائل الفطر، وستراني دائماً أخرج للتنزه وحيدة، والتجوّل وحيدة في الغابات، لأعود وحيدة في المساء مع زنبقة صغيرة ووحيدة؛ ولكن عليَّ أيضاً صرف النظر عن الأزهار، رغم سحرها الذي لا يقاوم، ما إن أقوى على ذلك. يبقى لي طموحي الأكبر، الرعب الأكبر: حلمي بالوصول إلى المسرح، الحلم الأصعب، الأبعد، الأتعس - ربما سأنتهي كواحدة من مئات العناكب العوانس، أدرّس التمثيل للطلاب، وأعرف تماماً، كما زعمتَ، بإصرار شرير، أننا لن نستطيع الزواج يوماً، ولدي أمامي

دائماً مثال حي، مثير للشفقة، مارينا الشجاعة، ممثلة من الدرجة الثانية.»

«حسناً، لم تعجبني فكرة العانس»، قال فان، «فلنغفلها! سنجد طريقة لتذليل تلك العقبة. سألجأ إلى تزوير الأوراق الرسمية، لنصير أقارب بعيدين جداً، إلى أن نصير، تزويراً تلو آخر، مجرد أسماء متشابهة. أو بأسوأ الحالات سنعيش معاً، أنت كمدبرة منزلي، وأنا كمصابٍ بالصرع، ثم، وكما قال تشيخوف خاصتك: 'سنرى السماء كلها مرصعة بحبات الألماس'».

«هل وجدتها كلّها، أيها العم فان[1]؟» سألتْ متنهّدة، مرخية رأسها بكل الأسى الذي يحويه فوق كتفه. أخبرته كل شيء.

«تقريباً كل شيء»، أجاب دون أن يدرك أنها قد فعلتْ حقاً. «بكل الأحوال، لقد درست مطوّلاً أمر الأرضية التي يأكلها الغبار، والتي لم تطأها شخصية شاعرية. تمكن قاطع طريق صغير من التدحرج تحت السرير، حيث نمتْ غابة عذراء من الزغب والفطريات. سأجمعها وأعيدها إلى لادور عند عودتي إليها يوماً ما. عليّ شراء الكثير من الأشياء - رداء حمام فخم على شرف حوض سباحتك الجديد، مرهم يدعى كريسانثموم، زوج مسدسات مبارزة، فراش شاطئ قابل للطي، ويفضل أن يكون أسود - ليس بهدف جلبك إلى الشاطئ، بل جلبك فوق الفراش، فوق لادور جزيرتنا.»

«باستثناء أني لا أوافق على أن تجعل من نفسك أضحوكة في بحثك عن مسدسات مبارزة في حوانيت التذكارات، خاصة عندما تكون عزبة آرديس مليئة بكل أنواع البنادق القديمة، بالمسدسات، بالأقواس والسهام - أتذكر، لقد تدربنا على كل ذلك حين كنّا أطفالاً.»

---

(١) العم فان: تلميح إلى عنوان مسرحية تشخيوف «العم فانيا».

أوه، طبعاً إنه يتذكر. إنه يتذكر. نعم، كانا طفلَيْن، أجل. إنه في الحقيقة لأمر مشوِّش، أن يستمر بالكلام عن ذلك الماضي القريب بمصطلحات الطفولة. إذ إنه لا شيء تغير على الإطلاق - أنت معي، أليس كذلك؟ - لا شيء، باستثناء التحسينات البسيطة التي طالت الحدائق والمربية.

أجل! ألم يكن ذلك حدثاً جللاً؟ أن تبرعم زهور الآنسة لاريفيير، لتصير واحدة من أهم كتّاب عصرها! كاتبة كندية حساسة، صاحبة الروايات الأكثر مبيعاً! أصبحت روايتها «القلادة» (نهر الألماس) من الأعمال الكلاسيكية المدرجة في مدارس البنات، كما أن اسمها المستعار الرائع غيوم دو مونبارناس Guillaume de Monparnasse (غياب حرف t من الاسم جعله أكثر حميمية[1]) أصبح مشهوراً جداً من كيبيك إلى كالوغا. وكما كانت تقول بلغتها الإنكليزية الغريبة: «لقد ضربت الشهرة ضربتها، فتدفقَت الروبلات وأمطرت الدولارات» (كلتا العملتين كانتا تستخدمان آنذاك في إيستوتيلاند)؛ ولكن إيدا الطيبة، التي من المستحيل أن تتخلى عن مارينا التي وقعت في غرامها على نحو أفلاطوني لا يمكن أن يتبدّل، منذ أن رأتها في بيليتيس[2]، اتّهمتْ نفسها بإهمال لوسيت حين انغمست في الكتابة الأدبية؛ ونتيجة لذلك، غمرت الطفلة، تحت

---

(١) Guillaume de Monparnasse: تلميح آخر إلى صاحب رواية «العقد»، الكاتب الفرنسي غي دو موباسان، أما ما لمح إليه بغياب حرف t من كلمة Monparnasse، فهو حي من أحياء باريس يحمل الاسم ذاته مع زيادة الحرف الناقص: Montparnasse. (مترجم)

(٢) «بيليتيس»: تلميح إلى علاقة مثلية بين لاريفيير ومارينا، إذ إن بيليتيس هي تسمية لأغان فرنسية اشتهرت عام ١٨٩٤، تدور حول السحاق، كتبها الشاعر بيير لويس، ولحنها كلود ديبوسي. (مترجم)

تأثير طفرة عاطفية حماسية، اهتماماً لافتاً يفوق الاهتمام الذي تلقّته آدا، الصغيرة المسكينة (قالت آدا) حين كانت في الثانية عشرة، بعد أول فصل لها (بائس) في المدرسة. كم كان فان غبياً: حين اشتبه بـ«كوردولا»، «كوردولا دو براي» الصغيرة، العفيفة اللطيفة، الغبية، حين شرحتْ له آدا، مرتيْن، لا بل ثلاث، وبرموز مختلفة، أنها هي - آدا - من ابتكر تلك الصحبة البذيئة والرقيقة، حين مزّقها - حرفياً - فراقه، وأنها قد افترضت - بشكل مسبق، إن صحّ التعبير - وجود فتاة ككوردولا. وكأنها أرادته أن يوقّع شيكاً على بياض؛ «حسناً، لقد حصلت عليه»، قال، «ولكنه الآن قد تمزّق تماماً، ولا يمكن تجديده؛ ولكن لماذا تسعين وراء بيرسي السمين، هل كان أمره مهماً لهذه الدرجة؟»

«أوه أجل، مهم جداً»، قالت آدا وهي تلعق قطرة من العسل عن شفتها السفلى، «كانت أمه على الهاتف، ورجاني كي أقول لها إنه في طريق العودة إلى البيت، ولكني نسيت كل ذلك، وأسرعت إلى غرفتك لأقبّلك.»

«في ريفرلاند، ندعو ذلك بحقيقة على شكل كعكة الدونات: الحقيقة فقط، والحقيقة كاملة، مع ثقب في وسطها.»

«أكرهك»، صاحت آدا، ولبست ما كانت تسميه: وجه الضفدع التحذيري، لأن بوتيبان قد ظهر عند عتبة الباب، حالقاً شاربه، خالعاً سترته، وربطة عنقه، تشد سرواله الأسود الممتلئ حمالاتٌ قرمزية. اختفى، واعداً بجلب قهوتهما.

«ولكن دعني أسألك يا عزيزي فان! دعني أسأل عن أمر! كم مرة خانني فان منذ سبتمبر ١٨٨٤؟»

«ست مئة وثلاث عشرة مرة»، أجاب فان. «مع ما لا يقل عن مئتيْ عاهرة، انقضى الأمر معهن بالمداعبة فقط. لقد بقيت مخلصاً

لك تماماً، إذ يمكن اعتبار كل تلك النزوات مجرد تحايل مخيّب للآمال (يا للعار! مداعبات وضيعة بأيدٍ باردة، لم أعد أذكرها).»

وصل الخادم الآن بكامل لباسه، حاملاً القهوة والخبز المحمّص، وجريدة لادور، تحوي صورة لمارينا، يتودد إليها ممثل شاب لاتيني.

«باه!» صاحت آدا، «لقد نسيت تماماً، سيأتي اليوم، مع صانع أفلام، وسوف يعطّلون علينا مشاريع بعد الظهر. لكني أشعر بالحيوية واللياقة»، أضافت، بعد ثالث فنجان قهوة. «ما زال الوقت مبكراً جداً، إنها السابعة إلا عشر دقائق، سنذهب في نزهة لطيفة في المتنزه؛ لا بد أن هنالك مكاناً أو اثنين سوف تتعرف عليهما.»

«يا حبي»، قال فان، «يا زهرة الأوركيد الوهمية، يا شجرة «السنّا» التي أحبها! أنا لم أنم منذ ليلتيْن - في الأولى سهرت أتخيل الثانية، التي حملت أكثر مما تخيلت. لدي ما يكفي منك للوقت الراهن.»

«ليست بمجاملة جيدة»، قالت آدا بينما رنَّت الجرس بعصبية، طلباً لمزيد من الخبز المحمّص.

«لقد وهبتك ثماني مجاملات الليلة الفائتة، كرجل من البندقية[١].»

«أنا لا أهتم بشباب البندقية المبتذلين، لقد أصبحت جلفاً جداً، يا عزيزي فان، غريباً جداً ـــ»

«أنا آسف»، قال عند نهوضه، «لست أدري ما أقول، أنا مرهق جداً، أراك عند الغداء.»

«لن يكون هناك غداء لليوم، بل بعض الوجبات الخفيفة الفوضية فقط عند المسبح، مع مشروبات لزجة، طوال النهار.»

---

(١) رجل من البندقية: تلميح إلى جاكومو كازانوفا. (مترجم)

انحنى فوقها، أراد تقبيل رأسها الحريري، ولكن بوتييان قد دخل عند تلك اللحظة، وبينما كانت آدا توبخه مازحة لقليل الخبز الذي أحضره، هرب فان.

٣٢

كان نص مشهد إطلاق النار قد أصبح الآن جاهزاً. مارينا، بثوب من الموسلين الهندي المذهّب وقبعة كولي مخروطية، استأنفَت القراءة فوق كرسيها الطويل في الفناء. مدير مارينا، غ. أ. فرونسكي، رجل مسنّ، أصلع، مع انتشار مشوّه وقبيح للفراء فوق صدره الدهني، كان يتناوب ما بين احتساء الفودكا مع التونيك، ومناولة مارينا صفحات مطبوعة من مجلد كان بحوزته. من الجهة الثانية لمقعدها، جلس ممثل شاب (ذو جمال لافت، عملياً شبه عارٍ) متصالب الساقيْن فوق حصيرة. وكان لبيدرو (الكنية مجهولة، الاسم الفني منسي)، عينان مائلتان، أذنا ساتير، وأنف وشَق، وكانت مارينا قد جلبته من المكسيك واحتفظت به في فندق في لادور. كانت آدا، المتمددة على حافة المسبح، تقوم بأقصى جهودها لتدفع كلبها لأخذ وضعية قائمة ومقبولة في مواجهة آلة التصوير، بينما كان فيليب راك (موسيقي شاب عديم الأهمية ولكن لطيف، يرتدي ثوب سباحة فضفاض، قد بدا أكثر شناعة وعدم ملاءمة من بزته الخضراء المخملية التي كان يعتقدها مناسبة لإعطاء دروس الموسيقى للوسيت) يحاول التقاط صورة للحيوان الحرون الذي كان يلعق شفتيه، تجمعه بصاحبته آدا، بصدرها المفتوح، وبوضعية نصف الاستلقاء، التي

ساهمت في كشفه أكثر فأكثر. إن أدرنا الآلة الآن نحو مجموعة أخرى تبعد قليلاً وتقف تحت الأكاليل الأرجوانية لقوس الفناء، يمكننا الحصول على «لقطة متوسطة» لزوجة المايسترو الحامل بثوب بولكا منقّط، تعيد ملء طاسة صغيرة باللوز المملح، ولقطة لروائيتنا المميزة، وكانت تجبر لوسيت على ارتداء سترة مخططة، ما انفكت الطفلة ترفضها متذمرة بكلمات فظّة كانت قد تعلّمتها من الخادمة، ولكنها قالتها بنبرة لا تصل مجال سمع لاريفيير، التي كانت مشغولة بأناقتها البنفسجية: كشاكش بنفسجية، قبعة بنفسجية، وحذاء بنفسجي.

بقيت لوسيت عارية الصدر. كانت بشرتها الناعمة المشدودة بلون شراب الدراق المكثّف. كانت أَلْياتها تحت سروال قصير قطني أخضر، تتمايلان على نحو مضحك. مسّدت الشمس حرير شعرها الخمري، وصدرها المنتفخ، الذي لم يُظهر إلا لمحة ضعيفة من أنوثة. تذكر فان، بمزاجه المتعكّر، وبخليط من المشاعر، كيف كانت أختها، بعمر الثانية عشرة، تزيدها نضجاً ونمواً. كان قد قضى معظم نهاره نائماً في غرفته، وقد عاوده حلم قاسٍ، طويل وكئيب، كمحاكاة ساخرة وغير مجدية، لليلته الكازانوفية المجهدة التي قضاها مع آدا، لذاك الحديث الذي، بشكل أو بآخر، ينذر بالسوء. والآن بعد أن كتبتُ كل ذلك، بعد خوض المرتفعات والحفر فوق مسار الزمن، أجد من الصعب عليّ أن أفصل بين حديثنا، المكتوب بشكل منمق، وهذا أمر مفروغ منه، وبين الطنين المزعج لشكوك فان، التي حوّلت الخيانات الدنيئة إلى كوابيس رهيبة، تقضّ مضجع الشاب، الذي أصبح مهووساً. أتراه كان يحلم بأنه يحلم؟ هل تراها حقاً المربية الغريبة قد ألّفتْ رواية بعنوان: «أطفال ملعونون»؟ وستصير فيلماً تلعب أدواره دمى تافهة؟ والآن تتم مناقشة التفاصيل؟ لتصير،

بعد ذلك، أشدّ ابتذالاً من «كتاب الأسبوعيْن»، مع كل دعايته المبالغ فيها والرخيصة؟ أتراه يكره آدا الآن كما فعل في حلمه؟ أكرهها حقاً؟

الآن، في عامها الخامس عشر، صارت على قدر من الجمال المزعج، ما أوصله لليأس؛ حتى أنه جمال أشعث، أيضاً. قبل اثنتي عشرة ساعة فقط، وفي مستودع العتاد، كان قد همس في أذنها لغزاً لتحلّه: كلمة تبدأ بـ de وتنتهي باشتقاق من نهر سيليسيان[١]. كانت قد أصبحتْ غريبة في عاداتها وملابسها. لم تعد تهتم لحمّامات الشمس، ولا يمكن لمح أثر لسُمرة (كالذي تحمله لوسيت) فوق أطرافها الطويلة ذات البياض المخجل، وفوق عظام كتفيها النافرة.

مجرد ابنة عم بعيدة، لم تعد شقيقة رينيه[٢] (ولا حتى نصف شقيقته التي حالتْ رعاية مونبارناس الشديدة بينه وبينها) تجاوزت فان، كما لو كان جذع شجرة، وأعادت الكلب المرتبك إلى مارينا. أما الممثل، الذي يبدو أنه سيكون ضحية قبضة أحدهم في المشهد القادم، فقد أبدى ملاحظة بذيئة بلهجة فرنسيّة مكسّرة.

«Du sollst nicht zuhören[٣]»، تمتمتْ آدا في أذن كلبها ذاك التوتوني[٤]، قبل أن تضعه في حضن مارينا، تحت «أطفال ملعونون». «نحن لا نتفوه بكلام كهذا أمام كلب»، أضافتْ آدا دون

---

(١) نهر سيليسيان: هو نهر أولزا، يمتد بين بولندا وتشيكيا، أما الاشتقاق المقصود فهو مصب النهر، والذي هو نهر «أودر». لتصير الكلمة اللغز: deodorant (مزيل تعرق). (مترجم)

(٢) شقيقة رينيه: عودة إلى التلميح لـ«رينيه» في رواية إميلي - شاتوبريان. (مترجم)

(٣) Du sollst nicht zuhören: «عليك أن لا تسمع»، بالألمانية. (مترجم)

(٤) التوتونيون: قبائل جرمانية (القرن الثاني قبل الميلاد). يستخدم الآن مصطلح الشعوب التوتونية للإشارة إلى الشعوب المتحدثة بلغات جرمانية، وخصوصا الألمانية. (مترجم)

أن تتنازل وتنظر إلى بيدرو الذي، متجاهلاً ما قالتْ، نهض، عدّل ما بين فخذيه، وسبقها إلى حوض السباحة بقفزة نورينسكية[1].

هل كانت حقاً جميلة؟ أو على الأقل جذابة، كما يُقال؟ لقد كانت لعنة، كانت تعذيباً. كانت الفتاة السخيفة قد لفّت كل شعرها تحت قلنسوة مطاطية، وهذا ما أعطى عنقها مظهراً بارداً، غامضاً، وغير مألوف، مع بعض الخصلات السوداء الفالتة على نحو غريب، كما لو أنها قد حصلت على وظيفة ممرضة، ولن ترقص أبداً بعد الآن. كان زي السباحة الخاص بها قطعة واحدة، قصيراً جداً ولا يبدو مريحاً، مفتوحاً فوق أحد الردفيْن (وكأن يرقة نهمة للشحوم قد قضمته، كما قد يتهيّأ للرائي) باهت اللون، رمادياً مزرقاً، وتظهر فوقه بقعة دهنية. كانت رائحتها كقطعة قطن رطبة، مع رابية تحت إبطيها، نبت فوقها النيلوفر، كأوفيليا المجنونة. لم تكن تلك الأمور التافهة لتزعج فان، لو أنهما كانا سوية، بمفردهما؛ ولكن وجود ذلك الممثل الذكر قد أضفى على كل شيء أثراً فاحشاً، داعراً، ولا يُحتمل. نعود مرة أخرى إلى حافة حوض السباحة.

صديقنا الشاب، الذي كان بطبيعة الحال brezgliv (شديد الحساسية، سريع الاشمئزاز)، لم يشعر برغبة في مشاركة بضعة أمتار مكعبة من السيليستو المضاف إليه كلور (الزرقة في حوض استحمامك) مع رجليْن غريبيْن. لم يكن يابانياً بكل تأكيد. لطالما بقي يتذكر، مع قشعريرة اشمئزاز، حوض السباحة المغلق في مدرسته الإعدادية، الأنوف المتهافتة، الصدور الممتلئة بثوراً، فرصة مس

---

(١) قفزة نورينسكية: تورية يقصد بها التلميح إلى راقصَي الباليه الشهيريْن: فاسلاف نيينسكي (١٨٩٠-١٩٥٠) ورودولف نورييف (١٩٣٨-١٩٩٣). (مترجم)

لحم ذكريّ بغيض ومقرف، الفقاعات المشبوهة التي تنفجر كقنابل نتنة صغيرة، ولا سيما، لا سيما، الوغد سيّئ السمعة، الزاهي بنصره، وقطعاً الصعلوك المقزّز، الذي نزل في الماء حتى كتفيْه، وبال سرّاً (وحده الله يعرف كيف ضربه فان، رغم أن فير دو فير[١] هذا، كان يكبره بثلاث سنوات). إنه يحرص الآن على إبقاء نفسه بعيداً عن أي رذاذ محتمل من بيدرو وفيل[٢]، اللذيْن كانا يهرجان ويمرجان ثمليْن في حمامهما الوسخ. توّاً، قام عازف البيانو، الطافي مظهراً لثته الشنيعة بضحكة خسيسة، بمحاولة شدّ آدا المتمددة فوق الحافة، لتنزل في الحوض، ولكنها تمكّنت من الإفلات من قبضته اليائسة، باحتضانها للطابة البرتقالية الكبيرة، التي كانت قد انتشلتها من الماء للتو، واستعملتها كدرع أبعدته به عنها، ثم رمتها صوب فان، الذي ضربها بعيداً بغضب، رافضاً تلك المناورة السخيفة، متجاهلاً اللعبة، مزدرياً اللاعبة. رفع بيدرو الشعراني نفسه فوق الحافة، وبدأ بمغازلة الفتاة البائسة (كان اهتمامه المبتذل بها، حقاً، أدنى مشاكلها).

«يجب ترقيع تلك الفتحة في زيّك»، قال بيدرو.

«ما الذي ترمي إليه بحق الآلهة؟»، سألته، بدل أن تصفعه بقفا كفها.

وأصر بغباء: «اسمحي لي أن ألمس منافذك الساحرة»، ثم وضع إصبعه المبللة فوق خاصرتها المكشوفة.

---

(١) فير دو فير: Lady Clara Vere de Vere، عنوان قصيدة للشاعر الإنكليزي ألفريد تنيسون (١٨٠٩-١٨٩٢) وتدور القصيدة حول «كلارا فير دو فير»، التي أصبح اسمها لاحقاً رمزاً للأرستقراطية المتغطرسة. (مترجم)

(٢) بيدرو وفيل: Pedro - Phil، تلميح إلى «بيدوفيليا» (اشتهاء الأطفال) أو الغلمانية. (مترجم)

«أنت يا هذا!»، هزّت كتفها مستهجنة، ثم نهضت لتعدّل حمالاتها التي مالت، ثم أضافت، «لا تشغل لك بالاً. ربما في المرة القادمة سأرتدي البيكيني الجديد والرائع.»

«ربما في المرة القادمة، لن يكون هناك بيدرو.»

«يا لها من مصيبة!» قالتْ آدا، «والآن اذهب وأحضر لي كوك[1]، ككلب مطيع.»

«وأنت يا مارينا؟»، سأل بيدرو بينما مرّ بكرسيها، «أتريدين المزيد من الفودكا مع البرتقال؟»

«أجل، أجل يا عزيزي، ولكن مع الزنباع (غريب فروت)، وليس البرتقال، ومع قليل من السكر. إنني لا أستطيع أن أفهم» (ملتفتةً نحو فرونسكي) «لمَ يبدو عمري في تلك الصفحة مئة عام، وخمسين في الصفحة التالية؟ لأنه إن كان فلاش باك flashback - وهو كذلك على ما أفترض» (لفظت الكلمة fleshback) «فإنه لا يُفترض بريني أو رينيه، أياً كان اسمه، أن يعرف ما يبدو أنه يعرفه.»

«إنه لا يعرف»، صاح غ.أ.، «إنه ليس مجرد فلاش باك فاتر. بكل الأحوال، إن ريني العاشق رقم واحد، لا يعرف طبعاً، أنها تحاول التخلص من العاشق رقم اثنين، بينما كانت تتساءل طوال الوقت، إن كانت تجرؤ على مواعدة العاشق رقم ثلاثة، المزارع النبيل، واضح؟»

«Nu, eto chto-to slozhnovato (حسناً إن الأمر لمعقد) يا غريغوري أكيموفيتش»، قالت مارينا بينما كانت تخدش خدها. لطالما كانت تنسى، عن طيب خاطر، مدفوعة بغريزة الحماية الذاتية، أحداث ماضيها الأكثر تعقيداً.

---

(١) كوك: المقصود بها كوكا كولا، وهنا إشارة إلى أول صناعة للكوكا كولا في أتلانتا جورجيا ١٨٨٦. (مترجم)

«تابعي القراءة، اقرأي، ستتضح الأمور أكثر»، قال غ. أ.، مقلّباً صفحات نسخته الخاصة.

«بالمناسبة»، لاحظتْ مارينا، «أتمنى أن لا تعترض إيدا، على جعلنا منه ليس فقط شاعراً، بل راقص باليه أيضاً. يمكن لبيدرو أن يؤدي ذلك بروعة، ولكن لا يمكنه إلقاء الشعر الفرنسي.»

«فلتعترض!»، أجاب فرونسكي، «ولتحشر عمود تلغراف في... أي مكان مناسب!»

كلمة «تلغراف» غير اللائقة، قد جعلت مارينا التي كانت مولعة بالنكات غير المحتشمة، تنفجر ضحكاً، وتنهار في موجة قهقهة مدوّية، على طريقة آدا.

«ولكن لنكن جديين، ما زلت لا أفهم ولم وكيف قبلت زوجته بهذا الوضع (polozhenie)، طبعاً أعني زوجة الرجل الثاني.»

فرشخ فرونسكي ما بين أصابعه العشرين.

«هنا يكمن التعقيد، إنها ولحسن حظّها تجهل علاقتهما، كما أنها سمينة وقبيحة، وتعرف بكل بساطة، أنه لا يمكنها أن تنافس هيلين الرشيقة والأنيقة.»

«واضح بالنسبة لي، ولكن ليس للجميع»، قالت مارينا.

أثناء ذلك، عاد هير[1] راك للسباحة، ثم انضم إلى آدا عند حافة الحوض، وكاد يفقد سروال السباحة الفضفاض، عند وثبته البرمائية.

«اسمح لي يا إيفان أن أجلب لك أيضاً كوك روسية باردة ومنعشة»، قال بيدرو - إنه حقاً شاب لطيف وطيب القلب. «اذهب وأحضر لنفسك جوز الهند»، ردّ فان البغيض، ليختبر ذكاء ذلك

(١) هير: سيد بالألمانية. (مترجم)

الغزال الرشيق، الذي لم يفهم ما رمى إليه فان، نهائياً، وعاد إلى حصيرته يضحك جزلاً. على الأقل، لم يتمكن كلاوديوس من مغازلة أوفيليا.

أما الشاب الألماني التعيس، فكان في مزاج فلسفي يوحي بالانتحار. كان عليه العودة إلى كالوغانو مع ألسي، التي وفقاً لتوقعات الطبيب إيكسريهير[1]، ستجعله أباً لتوأم ثلاثي خلال ثلاثة أسابيع. لطالما كره كالوغانو (بلده الأم، وكذلك بالنسبة لزوجته) حيث، وفي لحظة انحراف متبادلة، قطف زهرة ألسي، فوق مقعد في حديقة عامة، بعد مغادرتهما لحفلة رائعة أقامتها جمعية أعضاء موزاكوفسكي[2]، التي حصل فيها ذلك المخبول، المثير للشفقة والمهووس بالجنس، على وظيفة محترمة.

«متى ستغادر؟»، سألت آدا.

«بعد الغد.»

«حسناً، هذا جيد، الوداع سيد راك.»

أحنى «فيليب» المسكين ظهره، هزّ رأسه الثقيل، راسماً برؤوس أصابعه أشكالاً لا معنى لها فوق حجر مبلل، ونطق مع تقلصات واضحة في حلقه:

«يشعر أحدنا... يشعر أنه يلعب شخصية في فيلم، لا أكثر ولا أقل، وقد نسي نص المشهد التالي.»

«أعرف كثيرين قد قالوا مثل قولك»، قالتْ آدا، «لا بدّ أنه إحساس فظيع.»

---

(١) الطبيب إيكسريهير: تلميح إلى أشعة X (X ray). (مترجم)

(٢) أعضاء موزاكوفسكي: تلميح إلى شركة Muzak Holdings الموسيقية، التي أسسها «فورت ميل»، جنوب كارولاينا، ١٩٣٤.

«إذاً! ألا تستطيعين شيئاً حيال ذلك؟ لا أمل أبداً؟ أنا أموت. أجل.»

«أنت ميت سيد راك»، أجابتْ.

كانت قد ألقت بنظرات جانبية خلال تلك المحادثة الرهيبة، وشاهدت فان الغاضب، وحده تحت شجرة التوليب، بعيداً كلياً، سانداً رأسه إلى الشجرة، واضعاً يداً فوق خصره، وبالأخرى يمسك زجاجة جعة. تركتْ حافة البركة، بكل جثتها، ومشت نحو شجرة التوليب، مع التفافة استراتيجية ما بين الكاتبة - التي (ما زالت تجهل ما فعلوا بروايتها) كان النعاس يغلبها فوق كرسيها الهزّاز (وقد نمت أصابعها السمينة من بين أذرعه الخشبية وكأنها فطر وردي) - وبين النجمة الرئيسية، التي كانت لا تزال تتساءل محتارة، عن تفاصيل مشهد عاطفي قد ذُكر فيه «الجمال المشع»، للسيدة الشابة.

«ولكن»، اعترضتْ مارينا، «كيف يمكن تمثيل كلمة «مشع»، وماذا يعني جمال مشع؟»

«جمال أبيض»، اقترح بيدرو، بينما كان ينظر إلى آدا أثناء مرورها، «الجمال الذي لأجله سيقطع الرجال أعضاءهم.»

«حسناً»، قال فرونسكي، «دعونا ننهي أمر هذا النص اللعين، يغادر الممثل الفناء المتاخم للمسبح، وبما أننا قررنا اللون ـــ»

غادر فان الفناء المتاخم للمسبح وأسرع في خطواته مبتعداً. حوّل مسيره نحو شرفة توصل إلى جزء من الحديقة مزروع بشجيرات، يمهد للانتقال منها إلى المتنزه، دون أن يشعر العابر بذلك. توّاً، لاحظ أن آدا قد سارعتْ بدورها للحاق به. رافعة إحدى كوعيْها، كاشفة عن نجمة إبطها السوداء، أمسكت بالقلنسوة المطاطية ونزعتها عن شعرها، الذي انسدل فوق كتفها محرّراً. لوسيت بكامل ألوانها، خبّت وراءها. مأخوذاً بالشفقة على قدمَي أختيه العاريتيْن، انتقل فان

من مسار الحصى، إلى المرج المخملي (عاكساً الفعل الذي قام به الطبيب أرو، الملاحق من قِبل ألبينو[1] غير المرئي، في واحدة من أعظم روايات الأدب الإنكليزي). أمسكتا به في الأيكة الثانية. أثناء هرولتها، توقفت لوسيت لالتقاط قلنسوة أختها ونظاراتها الشمسية عن الأرض - «نظارات النجمة الصاعدة، من العار أن تُرمى أرضاً، يا صغيرتي لوسيت المرتبة» - ثم وضعت الغرضيْن عند جذع شجرة، قرب زجاجة جعة فارغة، عادت للهرولة، ثمّ عادت لمعاينة باقة من الفطر الوردي، نابت عند جذع شجرة تشخر[2]. شهيق مزدوج، زفير مزدوج.

«هل أنت غاضب لأني ــ»، بدأت آدا بالكلام ما إن تجاوزته (كانت قد هيأت عبارة تشرح فيها عن اضطرارها لبقائها مهذبة مع مدوْزن البيانو، الذي هو عملياً مجرد خادم، مع علة غامضة في قلبه وزوجة مبتذلة ومثيرة للشفقة) - لكن فان قاطعها:

«أنا أعترض»، مطلِقاً صوته كصاروخ، «لسببين. على الفتاة السمراء، حتى وإن كانت عاهرة، أن تحلق إبطيها قبل أن تعرضهما، كما أن الفتاة حسنة التربية لا تسمح لفاسق أن يلكزها بين ضلوعها، حتى لو اضطرت لارتداء ثياب قد أكلها العث، ذات رائحة كريهة، لا تتناسب وجمالها الفتان.»

«آآآخ»، أضاف، «لمَ عدت إلى آرديس بحق الجحيم!»

«أعدك، أعدك أن أكون أكثر حذراً من الآن وصاعداً، ولن أدع بيدرو القذر يقترب مني»، قالت، مع إيماءات توكيدية سعيدة، وزفير ارتياح عميق، قد أضحى سبباً في تعذيب فان بعد زمن طويل.

---

(١) الطبيب أرو ألبينو: إشارة للمرة الثانية إلى رواية الرجل الخفي لـ«هربرت جورج ويلز». (مترجم)

(٢) شجرة تشخر: لاريفيير نائمة فوق كرسيها الهزاز. (مترجم)

«انتظراني»، هتفتْ لوسيت.

(عذاب يا حبي المسكين! عذاب! ولكن كل هذا العذاب قد غرق ومات. ملاحظة لاحقة بخطّ آدا).

شكّل ثلاثتهم مزيجاً أركادياً[1] جميلاً، عندما سقطوا متمددين فوق العشب، تحت أرزة هائلة باكية، تمتدّ أطرافها ثم تتدلى كقبة شرقية (متكئة هنا وهناك على عكاكيز مصنوعة من لحم الشجرة ذاتها، تماماً كحال هذا الكتاب) فوق رأسيْن أسودين وواحد أحمر ذهبي، كما آوتنا أنا وأنت في الليالي المظلمة الدافئة، حين كنا طفليْن، سعيديْن، لا همّ يشغل بالنا.

استلقى فان على ظهره، كسولاً، مريضاً بالذكريات، شبك كفّيه تحت عنقه، وشقّ عينيْه ليرى السماء بزرقتها اللبنانية، وقد طرزتها خضرة الأرز. تأملت لوسيت رموشه الطويلة بإعجاب شديد، بينما رثت لحال بشرته الرقيقة التي هيجتها بقع ملتهبة، انتشرت ما بين العنق والفك، المكان الأكثر تعرضاً لمشاكل الحلاقة. آدا، وقد أمالت وجهها لتعدّل تأطير صورتها التذكارية، وسمحت لشعرها بحداده المجدلي (عطفاً على الظلال الباكية) أن يتدلى فوق ذراعها الشاحبة، جلست تتفحص بعناية الحلق الأصفر لزهرة أفيبقطس بيضاء كانت قد قطفتها. كرهتْه. أحبّتْه. كان مهاجماً وحشياً. كانت عاجزة عن الدفاع . لوسيت، بطباعها المعتاد كطفل دبق، مدلّع ومتطلب، وضعت كلتا راحتيها فوق صدر فان الشعراني وسألته عن سبب غضبه.

«لست غاضباً منك»، ردّ فان أخيراً.

قبّلت لوسيت يده وبدأت بمضايقته.

---

(١) أركاديا: نسبة لأركاديا نبراسكا المعروفة بخليط الأعراق فيها. (مترجم)

«توقفي!»، قال لها حين بدأت بالتمعّج فوق صدره العاري، «أنت طفلة باردة ومزعجة.»

«هذا ليس صحيحاً»، ردت، «أنا حارّة.»

«باردة كنصفَي دراقة معلّبة. والآن! انصرفي من فضلك!»

«لمَ نصفين؟ لمَ؟»

«أجل، لمَ؟»، دمدمتْ آدا، مع ارتعاشة متعة، ثم مالتْ فوقه، وقبّلتْ فمه. كافح للنهوض. كانت الفتاتان قد بدأتا التناوب على تقبيله، ثم تقبيل بعضهما بعضاً، ثم عادتا للانشغال به سوية - آدا بصمت حذر، لوسيت بتأوهات خفيفة من المتعة . لست أذكر ما فعله أو قاله «الأطفال الملعونون» في رواية مونبارناس. لقد عاشوا في قصر براين، على ما أعتقد، وقد بدأت القصة يوم طارت الخفافيش، واحداً تلو الآخر، من البرج، من نافذة عين الثور (كوة مستديرة)، نحو الشمس الغاربة، ولكن هؤلاء الأطفال (الذين لا تعرفهم الكاتبة حق المعرفة، التفصيل اللذيذ) كان من الممكن تصويرهم (وكانت النتيجة لتكون مثيرة) لو أن كيم المتطفل، فتى المطبخ المهووس بالتصوير، كان يمتلك الآلة المناسبة. الكتابة عن مثل تلك الأمور مرعبة، فإن الوصف غالباً ما يكون غير لائق، وأقصد من الناحية الجمالية، ولكن كيف يمكن نسيان لحظة ذروة ذلك الشفق (حيث تضيع الأخطاء الفنية البسيطة، في سماء برتقالية مقفرة - لا شيء يُرى فيها إلا خفافيش هاربة، وحشرات هزيلة) حين لم تثبط مساهمات لوسيت الندية ردة فعل فان الثابتة، بل على العكس، ضاعفت إحساسه بأخفّ لمسة يد، حقيقية أو متخيلة، لمسة الفتاة الوحيدة والرئيسية، في قلبه. بدتْ آدا، بلبدتها التي كنست حلمتيْه والسرّة، تستمتع بأي شيء تفعله لهزّ قلمي الحالي، وتدفع أختها الصغيرة البريئة (في ذلك الماضي البعيد الباعث على السخرية)

لملاحظة وتسجيل ما لم يستطع فان كبح جماحه. عشرون إصبع مدغدغة، تسلّلت إلى ما تحت الحزام المطّاطي لسرواله القصير الأسود، لتطحن زهرته المتضخمة. إن كانت للزينة فإنها ذات فخامة. وإن كانت لعبة، فإنها خطيرة وربما غير ملائمة. انقضى عذابه الجميل، ثم ابتعد ماشياً رأساً على عقب، مع لثام أسود فوق أنفه الكرنفالي. بعد ذلك، وصلت المربية إلى مسرح الحدث، صارخة لاهثة. «ولكن ما الذي فعله ابن عمّك وجعلك تبكين؟»، سألت قلقة، بينما اندفعت لوسيت - التي كانت تذرف الدموع ذاتها التي سبق أن ذرفتها آدا - نحو الأجنحة البنفسجية.

٣٣

بدأ اليوم التالي برذاذ المطر، ثم صفت السماء بعد الغداء. أعطى هير راك الكئيب آخر درس بيانو للوسيت. وصل رنين الرطم إلى مسمع آدا وفان خلال جولة استطلاع في ردهة الطابق الثاني. كانت الآنسة لاريفيير في الحديقة، ورفرفتْ مارينا بعيداً نحو لادور، فاقترح فان استغلال «غياب لوسيت صوتياً» واللجوء إلى غرفة الملابس في الطابق العلوي. كانت أول دراجة ثلاثية العجلات ركبتها لوسيت مركونة في إحدى الزوايا؛ حمل الرف، القائم فوق أريكة مغطاة بقماش الكريتون، بعض كنوز الطفلة القديمة، والمحظور لمسها، ومن بينها كتيّب المختارات البالي، الذي أعطاه لها قبل أربع سنوات. لم يكن إقفال الباب ممكناً، ولكن فان كان فاقداً لصبره، وكانت الموسيقى، كحاجز صلب، لتستمر عشرين دقيقة على الأقل. دفن فمه في عنق آدا، التي تصلّبتْ ورفعتْ إصبعها التحذيري. سمعت صوت خطوات ثقيلة وبطيئة فوق الدرج. «اخرج للتفقد!»، تمتمت. «اللعنة»، شتم فان بينما عدّل ملابسه، ثم خرج لمهمته. كان فيليب راك يصعد الدرج متثاقلاً، وكانت هيئة المرض تبدو على مظهره الحليق والشاحب. كانت لثته مكشوفة، وتفاحة حلقه ترتجف، وكان يضع يداً فوق صدره، ويحمل بالأخرى لفافة

ورق وردي، بينما استمرت الموسيقى من تلقاء نفسها، كما لو كانت صادرة من جهاز ميكانيكي.

«هنالك أحدهم في ردهة الطابق السفلي»، قال فان، مفترضاً، أو متظاهراً بالافتراض، أن الرجل تعيس الحظ، مصاب بتشنجات معدة وغثيان. ولكن السيد راك لم يرد إلا «أن يقوم بوداع» - إيفان ديمونوفيتش (مع مدّ الـ«واو» الثانية على نحو بائس)، فرولاين[١] آدا، الآنسة إيدا، وطبعاً السيدة. للأسف، كان عم فان وخالته في المدينة، ولكن توجب على فيل، بكل تأكيد، إيجاد صديقته إيدا، التي كانت تكتب في حديقة الورود. هل كان فان متأكداً؟ يا للعنة كم كان متأكداً! صافح السيد راك يد فان مع تنهيدة أسى عميقة، نظر إلى الأعلى، ثم إلى الأسفل، ربّت فوق الدرابزين بأنبوب الورق الوردي الغامض، ثم عاد إلى غرفة الموسيقى، حيث بدأ موزارت بالشطط. انتظر فان للحظة، استمع للموسيقى مكشّراً، بشكل لاإرادي، ثم انضمّ إلى آدا. جلست مع كتاب في حضنها.

«عليّ أن أغسل يدي اليمنى قبل أن ألمسك أو ألمس أي شيء آخر»، قال فان.

لم تكن تقرأ فعلياً، ولكنها كانت، شاردة الذهن، تقلّب الصفحات بغضب، بعصبية، من الكتاب الذي وبالصدفة اتّضح أنه كتيّب المختارات القديم - وهي التي اعتادت - في أي وقت كان - أن تغطس في أي كتاب يقع تحت يدها، «من الجلدة للجلدة»، كما لو كانت سمكة صغيرة أعيدت إلى نهرها.

«في كل حياتي، لم أصافح يداً بتلك الرطوبة، الترهل والقرف»، قال فان مطلقاً اللعان (توقفت الموسيقى) ثم ذهب إلى

(١) فرولاين: آنسة بالألمانية.

دورة مياه الحضانة. من النافذة، شاهد راك يضع حقيبته، كثيرة الكتل، في السلة الأمامية لدراجته، ويشق طريقه مبتعداً، بعد أن رفع قبعته محيياً البستاني، الذي لم يردها. لم يصمد توازن راكب الدراجة عند تلك الحركة، التي لم تؤتِ ثمرها: اندفع بخشونة نحو السياج الذي حوّط الجانب الآخر من الطريق، وارتطم به. بقي راك، لدقيقة أو دقيقتيْن، في شراكة لا فكاك منها، مع شجيرات السياج، وتساءل فان ما إذا كان عليه أن ينزل ليمدّ له يد العون. التفت البستاني نحو الموسيقي المريض أو ربما الثمل، الذي، بفضل الآلهة، تمكن من الخلاص، وأعاد حقيبته إلى السلة. قاد الدراجة ببطء، وانطلق بعيداً. تصاعد اشمئزاز فان على نحو غامض، ولم يجد نفسه إلا يبصق في كرسي المرحاض.

عندما عاد، كانت آدا قد غادرتْ غرفة الملابس. اكتشف أنها في الشرفة، تقشّر تفاحة للوسيت. اعتاد عازف البيانو اللطيف أن يجلب لها دائماً تفاحة، أو أحياناً، إجاصة غير صالحة للأكل، أو خوختيْن صغيرتيْن. بكل الأحوال، كانت تلك هديته الأخيرة.

«الآنسة تناديكِ»، قال فان للصغيرة.

«حسناً، عليها أن تنتظر»، قال آدا، متمّة طقسها على مهلها: «التقشير المثالي»، قشرة لولبية صفراء- حمراء، راقبتها لوسيت مفتونة.

«عليّ القيام بأمر»، أعلن فان بحدّة، «أشعر بسأم فظيع، سأكون في المكتبة.»

«حسناً»، قالتها لوسيت بصوت واضح دون أن تلتفتْ، وأطلقتْ صيحة ابتهاج، مع نهاية إكليل القشور ذاك.

قضى فان نصف ساعة بحثاً عن كتاب كان قد أعاده إلى غير مكانه الصحيح. عندما وجده في نهاية المطاف، رأى أنه كان قد

انتهى من الحواشي، وعليه، لم يعد بحاجة إليه. استلقى لبرهة فوق الديوان الأسود، ولكن ذلك لم يزد هوسه الشغوف إلا إلحاحاً. قرّر العودة نحو الطابق العلوي، متسلقاً الدرج الحلزوني. بكرب، عادت له الذكريات، التي لا يمكن استعادتها، وكأنها مجرد خيال ساحر. تذكر، كيف صعدت مستعجلة ليلة الحريق، وكيف كانت تحمل شمعدانها، إنها الليلة التي ستبقى محفورة في ذاكرته للأبد. هو وراءها، مع أنفاسه الملتهبة الراقصة فوق ردفيْها، فخذيْها، كتفيْها الصاخبتين وشعرها المسترسل، وقد غطّت كل ذلك، ظلال الطفليْن المرتفعة، كرسم هندسي أسود لولبي، على طول الجدار الأصفر. وجد الآن باب الطابق الثالث مقفلاً من الجهة الثانية، واضطر للعودة إلى المكتبة (الذكريات التي طمسها الآن سخطٌ تافه) لاستخدام الدرج الكبير. مع اقترابه من باب الشرفة الذي تسطع الشمس فوقه، سمع آدا تشرح أمراً لأختها. كان شيئاً مسلياً، يدور حول . . . لا أتذكر الآن ولا أستطيع التأليف. كانت لآدا طريقة في استعجال إنهاء جملتها قبل أن يغلب عليها الضحك، ولكن أحياناً، كالمرة تلك، تسبّبت شظية مبكّرة بتفجير كلماتها، ثم التقطتها وأنهت جملتها بتسرع أكبر، مرجئة قهقهتها، لتُتبع كلمتها الأخيرة بارتداد ثلاثي لضحكة رنانة، مبحوحة، إيروتيكية، ودافئة إلى حد ما.

«والآن يا حلوتي»، أضافتْ، مقبّلة لوسيت فوق غمّازة خدها، «قدّمي لي معروفاً: انزلي وأخبري بيل السيئة، أنه حان وقت تناولك لكأس حليب مع البسكويت. Zhivo (بسرعة)! وفي هذه الأثناء، سوف أنسحب مع فان إلى الحمام - أو أي مكان آخر توجد فيه مرآة كبيرة - لأقصّ شعره؛ إنه في حاجة شديدة إلى حلاقة. أليس كذلك يا فان؟ أوه! أعرف أين سنذهب. هيا اركضي! اركضي يا صغيرتي!»

٣٤

أثبتتْ حفلة السمر التي جرتْ تحت أرزة السيليهام[١] خطأها. تحولت لوسيت إلى مصدر إزعاج، يلاحق فان كلما تسنى لها الإفلات من رعاية مربيتها الشيزوفرينية، أو من جلسة قراءة، أو نزهة، أو سرير. عند هبوط الليل (وعندما تكون مارينا مشغولة، لنقل مثلاً، بالشرب مع ضيوفها، تحت الكرات الذهبية المتدلية من مصابيح الحديقة الجديدة، التي تتوهج هنا وهناك، وفي بقع خضراء غير متوقعة، ليختلط بخار الكيروسين المحترق مع أنفاس الياسمين وزهر رقيب الشمس) كان العاشقان ينسلّان إلى عمق الظلمة، ويبقيان هناك إلى أن يصل نسيم منتصف الليل اللاذع، ضارباً أوراق الشجر، أو «ناكحاً الأشجار»، كما كان يقول سور، الحارس الليلي الفاسق. ذات مرة، مع فانوسه الزمردي، وقع ذلك الأخير عليهما، كما تسلل عدة مرات شبح بلانش الطائش من أمامهم، وكانت تضحك بعذوبة، لتلتقي عند ركن وضيع، بتلك الدودة اللامعة، الحارس العجوز ذي البنية الضخمة، والذي يمكن رشوته بسهولة وأمان. ومع ذلك، فقد

---

(١) سيليهام: سلالة كلاب قزمة هجينة منحدرة من كلاب «تيرير»، التي نشأت أصلاً في ويلز. (مترجم)

كان انتظار ليلة كتلك طوال نهار كامل، يستنفد صبر عاشقيْنا. غالباً ما كان يصل وقت العشاء وهما منهكان، كما لو أنهما قضيا نهاراً كاملاً في عملهما المحموم. وكانت لوسيت، أينما وُجدا، تراها مندسّة وراء أي ستار، أي مرآة، لتتلصص عليهما.

جرّبا العلية، لكنهما لاحظا، في الوقت المناسب، شقّاً في الأرضية يسمح برؤية إحدى زوايا غرفة الغسيل، حيث يمكن رؤية فرنش، الخادمة الثانية، تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهي لا ترتدي إلا مشدّاً وبيتيكوت[1]. نظرا حولهما، ولم يفهما لماذا كان عليهما دائماً أن يمارسا حبهما الرقيق بين الصناديق المهترئة والمسامير الصدأة، أو أن ينزلقا من خلال كوة العلّية نحو السطح، حيث يمكن بسهولة لأي عفريت أخضر بأطراف نحاسية، أن يراقبهما من خلال أسنان شوكة الدردار العملاقة.

ما زال هناك معرض الرماية، حيث الخلوة الشرقية المكسوة بالأجواخ، تحت سقف مائل، ولكن، ومع رائحة الجعة القديمة النتنة التي تكتسح الغرفة، لا يمكن لأي كان أن يستخدم ديوانها الصغير أو حتى يحلم بالتعري فوقه، وقد جاءه البقّ غازياً. لم يرَ فان هناك من آدا الجديدة إلا فخذيْها ووركيْها العاجييْن، اللذيْن احتضنهما بشدة، لمرته الأولى، بينما، وفي خضمّ حماس متعته، أدارت آدا رأسها بنصف التفاتة، عبر عتبة النافذة، التي أمسكت بها مع انحسار إعصار رعشتها، فلمحت لوسيت، تقفز فوق حبل السياج، وتقترب من ممر الشجيرات.

تكرّر ذلك التطفل في مناسبتيْن أخريين أو ربما ثلاث. وكانت

---

(١) بيتيكوت: تنورة قصيرة جداً داخلية، ولها كشاكش، ترتديها المرأة تحت تنورة أخرى، أو ثوب سهرة طويل. (مترجم)

لوسيت تصبح أقرب فأقرب، تلتقط الفطر وتدّعي أنها تأكله نيئاً، أو تتربص بجندب، بمعنى آخر، تقوم بكل الحركات الطبيعية لمسرحية مملة أو مطاردة غير جدية. تقدّمت نحو وسط الملعب المعشوشب أمام الجناح المحظور، وهناك، بروحها الحالمة والبريئة، بدأت بهزّ لوح أرجوحة قديمة، كانت معلقة من الطرف الطويل الشامخ للصلعاء، سنديانة عجوز قد فقدت الكثير من أوراقها ولكنها لا تزال بصحة جيدة (والتي قد ظهرت على شكل عملاق- أوه! أتذكر يا فان - لوحة حجرية لآرديس تعود إلى قرن من الزمن نحتها بيتر دو راست[1]، تأوي تحت ظلالها أربع بقرات وراعٍ فقير، وقد أظهرت أسماله البالية كتفه العارية). عندما ألقى عاشقيْنا (أنت تحب صيغة الملكية في كتابتك يا فان، أليس كذلك؟) نظرة ثانية، كانت لوسيت تلاعب داك المتجهم دائماً، أو تنظر إلى نقار خشب متخيّل، أو، مع كثير من الحركات البهلوانية الجميلة، تتسلق اللوح الرمادي المعقود بأنشوطة متينة، وتتأرجح بفرح وحماسة وكأنها تفعل ذلك لمرتها الأولى، بينما كان داك الغبي ينبح أمام باب الجناح المقفل. حشدت زخمها بعناية شديدة، لدرجة أن آدا وفارسها، في لحظة عمياء من المتعة المتصاعدة التي يمكن مغفرتها، لم يشهدا ولا حتى لمرة واحدة، اللحظة التي انقضّ فيها، ذلك الوجه المدوّر الوردي، من خلال النافذة، بكل نمشاته المشتعلة، لتصوّب نحوهما نظرات عينيْها الخضراوين، بترادف رائع.

تبعتهما لوسيت، الظل، في كل مكان، من المرج إلى مخزن

---

(١) بيتر دو راست: تلميح إلى الـ«تسار» (إمبراطور) بيتر العظيم، في لوحة للفنان الروسي فالنتين سيروف (١٨٦٥-١٩١١)، موجودة حالياً في معرض تريتياكوف موسكو. (مترجم)

الغلال، من غرفة الحراسة إلى الإسطبلات، من حجرة الاستحمام الحديثة جانب حوض السباحة إلى الحمامات القديمة في الطابق العلوي. عفريت بنابض مخبّأ في صندوق من الحيل التي لا تنضب. رغبتْ بنزهة معهما. أصرت على أن يلعبا معها ثانية «العلجوم القافز» - تبادل فان وآدا نظرات غامضة.

وضعت آدا خطة، لم تكن بالبسيطة ولا بالحكيمة، وعلاوة على ذلك، جاءت نتيجتها عكسية. ربما تعمدتْ ذلك. (امحها يا فان! امحها أرجوك!) لخداع لوسيت، طلبتْ آدا من فان أن يقوم بحضورها (أي آدا) وأثناء احتضانها وتقبيلها، بملاطفة الصغيرة، بينما، وحين تدعي آدا أنها ذاهبة للغابة لدراسة النباتات، فعليه عندها أن يداعب لوسيت ويقبّلها. وقد أكدت آدا أن تلك الخطة تحقق هدفيْن: تهدأ في المقام الأول من غيرة الطفلة الغاضبة، وتوفر ثانياً حجة مناسبة في حال قبضت عليهما متلبّسيْن بقصْف ملتبس.

على نحو متكرر ومكثّف، تعانق الثلاثة وتداعبوا، حتى أنهم ذات عصر، وفوق الديوان الأسود (الذي طالت معاناته تحتهما) لم يستطع فان وآدا كبح حماس شهوتهما، وبالذريعة التافهة للعبة الغميضة، قاما بحبس لوسيت في دولاب صغير مخصص لتكديس صحف كالوغا ولوغانو، ثم مارسا حبهما بجنون، بينما استمرَّت الطفلة بالصياح وطرق الباب وركله إلى أن أوقعت المفتاح أرضاً، وعندها ملأ لونٌ أخضر غاضب فراغَ ثقب القفل.

لم تكن نوبات مزاج لوسيت الخسيس هي ما يُفقد آدا صبرها، ولكن تعبير النشوة التي كان يكتسح وجهها، حين كانت تتشبث بفان بيديها، وركبتيها، وذيلها الكُلّاب، حين يكون فان متسلقاً جذع شجرة، حتى ولو كان الجذع متحركاً، وما كانت لتفلته من دون صفعة من أختها الكبرى.

«عليَّ أن أعترف»، قالت آدا، بينما كانت في قارب أحمر مع فان، يعوم بهما، مع التيار، نحو ستار الصفصاف الذي يحجب جزيرة صغيرة في لادور، «عليَّ أن أعترف يا فان، بكل خزي وأسى، أن خطتي المذهلة قد فشلت. أعتقد أن لها عقلاً قذراً. أعتقد أنها تحبك بإجرام. ربما علي أن أخبرها أنك أخوها من أمها وأن الأمر برمّته غير شرعي، وأن المغازلة بين أخوة الرحم بغيضة جداً وشائنة. الكلمات البشعة والشريرة تخيفها، أعرف ذلك؛ أخافتني عندما كنت في الرابعة؛ ولكنها في الأساس طفلة غبية، ويجب حمايتها من الكوابيس والفحول[1]. إن لنمتكفّ عن ذلك فسأشتكي لمارينا، وأدّعي أنها تلهينا عن دراستنا وتأملاتنا. ولكن لا يبدو أنك تمانع وجودها! أتثيرك؟ أجل؟ إنها تثيرك! اعترف!»

«هذا الصيف هو أكثر حزناً من الآخر»، قال فان بهدوء.

(١) الفحول: حادثة الحصان الذي رأتها آدا الطفلة في حالة انتصاب وهياج. (مترجم)

٣٥

ها نحن الآن فوق جزيرة الصفصاف، وسط أهدأ تفرع للادور الأزرق، ببراريها الرطبة من جهة، وإطلالتها، من الجهة الأخرى، على قلعة بريانت البعيدة بلونها الأسود الشاعري، فوق رابية تغزوها أشجار السنديان. في تلك العزلة البيضوية، أخضع فان آدا الجديدة لبحث مقارن؛ كانت مجاورة صورتيْها (القديمة والحديثة) سهلة، باعتبار أن الطفلة التي عرفها بأدق تفاصيلها، أربع سنوات خلتْ، قد بقي نورها متّقداً وحاضراً في ذهنه، وبالخلفية ذاتها، الزرقاء المتدفقة. بدا مدى جبينها وقد تناقص، ولا يعود سبب ذلك إلى زيادة نموها، بل لأنها قد غيرت تسريحة شعرها، فصارت له غرّة متدلية فوق الجبين؛ اكتسب بياضه، الذي أصبح الآن نقياً من كل ما كان يشوبه، مسحة خاصة لا لمعة فيها؛ تخبر بعض تجاعيده الناعمة أن المسكينة آدا، كثيراً ما كانت تقطّب جبينها في السنوات الأخيرة.

كانت الحواجب فخمة وسميكة كما كانت دائماً.

العينان. ما زال لجفنيها ذلك التغضّن الطفيف الشهواني، الرموش مطلية بعادم طائرة نفاثة، القزحية عالية كقزحية هندوسي منوَّم، أما أجفانها فقد فقدت القدرة على البقاء مفتوحة باتساع وحذر عند عناق وجيز. ولكن تعابير تلك العينيْن - عند أكل تفاحة، أو

تفحُّص شيء قد عثرت عليه، أو الإصغاء إلى حيوان أو شخص - قد تغير، كما لو طبقات متعاقبة من الصمت والحزن قد تراكمتْ، وحجبتْ نصف البؤبؤ؛ وتناوب مع لمعة مقلتيْها، الغائرتيْن في محجريْن متطاوليْن بروعة، حركةٌ أكثر اضطراباً من تعبير عينيها في الماضي: الآنسة هيبنوكوش (الهندوسية المنوّمة) «العيون التي لا تمنحك طرفها أبداً، ومع ذلك قادرة على اختراقك». لم تكتسب خطوط أنفها السماكة الإيرلندية كأنف فان، بينما أصبحت قصبته لديها أكثر بروزاً، ورأسه أكثر ارتفاعاً، مظهراً أخدوداً رأسياً طفيفاً، لا يتذكر أنه قد رآه قبلاً في وجه الفتاة ذات الاثني عشر عاماً.

تحت إضاءة قوية، يظهر ظل زغب أسود حريري (متحالف مع ذراع ساعدها) بين فمها وأنفها، ولكن تمّت إزالته، كما قالتْ، في أول جلسة تجميلية لموسم الخريف. أعطى أثر أحمر الشفاه الآن مسحة من نكد ساخر، مُظهراً تبايناً، يزيد من صدمة جمالها، إن كشفت، في حالة شراهة أو فرح، عن اللمعان الرطب فوق أسنانها الكبيرة، وعن الثروات الحمراء في مغارة فمها. كان عنقها وما زال، مصدر بهجته القاتلة، والأكثر رقة، وخاصة حين تسمح لشعرها أن يتدفق بحرية، فيتخلّل بريقَ سواد خصلاته، جلدُها الدافئ، الأبيض والبديع. توقف قرص البعوض وظهور الدمامل عن مضايقتها، ولكنه اكتشف أثراً لندبة بطول إنش، تحت خاصرتها، بموازاة عمودها الفقري، قد نتجتْ عن خدش عميق سببه في أغسطس الماضي دبوس قبعتها، أو على الأصح غصيْن شائك في أكوام التبن المغرية.

(إنك عديم الرحمة يا فان).

فوق تلك الجزيرة السرية (محرمة على أزواج يوم الأحد - إنها ملك آل فيين، وهنالك لوحة تعلن بلطف: «قد يتعرّض المتسللون لإطلاق النار من قِبل رجال عزبة آرديس»، صيغة العم دان) تألف

الغطاء النباتي من ثلاث صفصافات بابليات، صف من شجر جار الماء، وعديد الأعشاب، نبات البوط، قصب الذريرة العطري، وبعض النيوتيا ذات حواف بنفسجية، دندنتْ لها آدا كما كان تدندن للقطط والكلاب.

تحت مأوى تلك الصفصافة العصبية، تابع فان دراسته الاستقصائية.

لم يكن جمال كتفيْها محتملاً: لن أسمح لزوجتي أبداً أن ترتدي ما يظهر كتفيْها، ولكن كيف يمكن لها أن تصبح زوجتي؟ قال ريني لنيل في النسخة الإنكليزية من قصة مونابارناس، الهزلية إلى حد ما: «إن الظلال الشائنة لعلاقتنا غير الطبيعية ستتبعنا حتى أعماق الجحيم، الذي يشير إليه بإصبعه العظيم 'أبونا الذي في السموات'.» لسبب غريب، لم تكن الترجمة الصينية هي الأسوأ، بل الفرنسية بكل بساطة.

أحاط بحلمتيْها، وقد أصبحتا الآن أكثر احمراراً ووقاحة، زغب أسود ناعم، ستتم أيضاً إزالته قريباً، باعتباره، كما قالت، unschicklich[1]. وتساءل أين أمكن لها التقاط تلك المفردة البشعة! كان ثدياها جميليْن، فاتحَي اللون وممتلئيْن، ولكنه، بشكل أو بآخر، فضّل هاتيك الانتفاخات الصغيرة اللينة، ببراعمها الباهتة، التي حملتها آدا الطفلة.

تعرّف على بطنها المسطّح، المألوف، الفريد، والجميل، لعبته الفاتنة، ابتسامة سرّتها، التعبير الصريح والتوّاق لعضلاتها المائلة - مفردات مستعارة من معجم فن الرقص الشرقي.

ذات يوم، أحضر عدة حلاقته وساعدها في التخلص من ثلاث بقع شَعرية في جسمها:

---

(١) unschicklich: غير لائق، بالألمانية. (مترجم)

«أنا الآن شهريار»، قال، «وأنت آدا خاصتي، وهذه سجادة صلاتك الخضراء.»

بقيتْ زياراتهما لتلك الجزيرة محفورة في ذاكرة ذلك الصيف، بتشابك لن يمكن فكاكه لاحقاً. وجدا نفسيْهما واقفيْن هناك، متعانقيْن، لا يرتديان إلا الظلال المورقة، ويراقبان الزورق الأحمر، بزينة متحركة من انعكاس المويجات، وقد حملهما بعيداً، يلوّحان، ويلوّحان، بمنديليْهما؛ عززت بعض الأمور غموض ذلك التعاقب المختلط: كالقارب الطافي الذي كان يبتعد بينما كان في طريق عودته إليهما؛ انكسار الضوء فوق المجاذيف؛ أشعة الشمس المرقطة المتماوجة فوق الاتجاه المعاكس، التي يمكن رؤيتها بذات التأثير الستروبوسكوبي[1]، الذين يجعلنا نرى عجلات العربات، عند مرورها، تدور نحو الخلف.

لقد خدعهما الزمن، جعل أحدهما يطرح سؤالاً مُتَذَكّراً، يسبب في إعطاء الآخر إجابة منسية، كما أنهما ذات مرة، وفي أجمة جار الماء، وقد ضاعفها ظلها الأسود المنعكس فوق التيار الأزرق، وجدا رباط جورب كان لها بكلّ تأكيد، لم تستطع إنكاره، ولكن فان كان متأكداً بشكل قاطع أنها لم ترتدِ أي جورب خلال رحلاتها الصيفية إلى الجزيرة السحرية.

ربما قد زادتْ ساقاها الطويلتان القويتان طولاً، ولكنهما لا تزالان محافظتيْن على ملاسة البياض، والمرونة المكتسبة منذ أن كانت آدا في عمر «الحورية العذراء». ما زالتْ قادرة على مصّ إبهام قدمها. يحمل كل من مشط قدمها الأيمن والجزء الخلفي من ساعدها

---

(١) ستروبسكوب: أو مصطربة، جهاز كهربائي يستعمل لقياس سرعة الدوران والتردد. (مترجم)

الأيسر الوحمة ذاتها والتي لم ولن تُمحى أبداً، الواضحة واللافتة للنظر رغم صغرها، التوقيع المقدس ذاته، الذي تركته الطبيعة فوق قدم فان اليسرى وساعده الأيمن. حاولت أن تغطي أظافرها بـ«طلاء شهرزاد» (بدعة الثمانينيات السخيفة) ولكنها لم تكن تولي الأمر العناية والترتيب الكافيين، فقد كان هناك بعض بقع غير لائقة بسبب الطلاء المقشّر، فطلب منها فان أن تعيد أظافرها إلى حالة «دون لمعة». ومن باب التعويض، اشترى لها من لادور (التي هي أقرب إلى كونها منتجعاً) خلخالاً ذهبياً، ولكنها للأسف قد أضاعته في أحد لقاءاتهما العنيفة، وقد انفجرت بالبكاء على نحو غير متوقع حين قال لها: «لا تهتمي! سيجده لك يوماً ما عاشق آخر.»

تألقها، عبقريتها. من المؤكد أنها قد تغيرت خلال السنوات الأربع، ولكنه قد تغير بدوره أيضاً، وبمراحل متزامنة، وبذلك بقي كل من عقليْهما، كما حواسهما، متناغمين، وكما سيبقيان دائماً، رغم كل الانفصالات اللاحقة. لم يعد أي منهما ذلك «الطفل الأعجوبة» الذي كانه عام ١٨٨٤، أما في مجال المعرفة الكتابية، فقد تجاوزا أبناء عصرهما، إلى مرحلة أشد إذهالاً من تلك الخاصة بطفولتيْهما؛ وبصورة رسمية، فإن آدا (المولودة في ٢١ يوليو ١٨٧٢) كانت قد أنهتْ مراحل مدرستها الخاصّة، بينما كان فان الذي يكبرها بسنتيْن ونصف، يأمل بحصوله على درجة الماجستير مع نهاية عام ١٨٨٩. ربما فقدتْ محادثتها بريقها المرح، والمتفائل. تنبأتْ بالظلال الأولى الباهتة (كما صارت تراها بنظرة استعادية، على الأقل) لما سمّته لاحقاً «قدري العقيم» (pustotsvetnost)؛ ولكن فطنتها الفطرية قد أصبحت أكثر عمقاً، وتضاعفت داخل عقلها اتجاهات فلسفية «تجريبية» (كما سماها فان)، مما أثرى قدرتها على التعبير عن أبسط الأفكار بأبسط المفردات؛ طالع كل منهما بالنهم

ذاته وعلى نحو عشوائي، ولكن بميول مختلفة إلى حدّ ما - اهتمّ هو بالشقّ المتعلق بتيرا من الطب النفسي، أما هي فالمسرح (تحديداً الروسي)، الميل الذي رأى فيه فان مضيعة لمقدراتها، وتمنى أن يكون مجرد نزوة عابرة. دام ولعها بعالم الأزهار لفترة طويلة، للأسف؛ ولكن بعد وفاة الدكتور كروليك (عام ١٨٨٦) جرّاء نوبة قلبية في حديقته، وضعتْ كل خادرات يرقاناتها الحية في تابوته المفتوح، حيث كان ممدداً، حسب قولها، ممتلئاً ومتورداً كما لو كان حياً.

بغضّ النظر عن كآبتها واضطرابها، في عمرها الحالي، إلا أن آدا العاشقة المراهقة هي الآن أكثر عدوانية وأكثر جاذبية مما كانت عليه في طفولتها العاطفية، الخارجة عن الطبيعة. لم يتمكن أبداً الطبيب فان فيين، الدارس المجتهد للحالات الشهيرة، من مضاهاة آدا في الثانية عشرة من عمرها، بتوقدها وحماسها، بأية طفلة إنكليزية طبيعية (ضمن ملفاته)، سعيدة روحياً، متطورة ذهنياً، غير جامحة، غير شبقة، رغم أن الكثير من الفتيات الصغيرات المشابهات، قد أزهرن - ثم بذرن - في القصور القديمة، في فرنسا وإيستوتي لاند، كما أخبرت الروايات الرومانسية الرنانة، وفي مذكرات العجائز.

كم وجد صعوبة في دراسة وتحليل شغفه الخاص بها! عندما تذكر، مداعبة بمداعبة، كل حفلات الصخب في فيلا فينوس، أو زياراته السابقة لبيوت الدعارة في رانتا أو ليفادا، تأكد برضى أن ردود أفعال جسمه تجاه آدا هي أسمى من كل ذلك، حيث إنها كانت قادرة بأدنى لمسة من إصبعها، أو شفتيها، على امتداد عرقه المتضخم، أن تولّد متعة لم تكن أقوى فقط، بل متعة مختلفة جوهرياً عن أبطأ المداعبات التي تمنحها أكثر العاهرات شباباً وتمرّساً. ما الذي، إذاً، قد رفع الفعل الحيواني إلى مستوى أرفع من أكثر الفنون

إتقاناً، وأعلى من أعلى مستوى طيران وحشي، قد توصلك إليه العلوم الصافية؟ لن يكون كافياً أن يقول إنه في ممارسة الحب مع آدا قد اكتشف المعنى الحقيقي للقلق، النار، والعذاب المبرح، لـ«واقع» الأسمى. أو لنقل، إن الواقع قد تجرّد من كل الاقتباسات التي كان يرتديها كمخالب - في عالم تتشبّث فيه العقول المستقلة والمبدعة بأشياء أو تنبذ أخرى، كي تدرأ عن نفسها الجنون أو الموت (والذي هو سيد الجنون). لرعشة أو اثنتيْن، بقي في أمان. لا يحتاج «الواقع» الجديد إلى مجسّ ولا إلى مرساة، فهو لم يستغرق غير لحظات، ولكنه كان قابلاً للتكرار بقدر ما كان العاشقان قادريْن جسدياً على ممارسة الحب. اعتمد لون ووهج حريق ذلك الواقع اللحظي فقط على هوية آدا بعين فان. لم تكن لذلك علاقة بالفضيلة أو غرور الفضيلة بالمعنى الواسع؛ في الواقع، توصل فان لاحقاً إلى أنه لم يشكّ يوماً، خلال ذلك الصيف المتوقّد، في أنها كانت، وبقيتْ، غير صادقة معه بشكل كامل؛ كما عرفت هي بدورها، وقبل فترة طويلة، ما سبق أن أخبرها به، وهو أنه خلال فترات فراقهما، استخدم آليات حيّة، عادة ما يستأجرها الرجال المتشنجون لدقائق قليلة، والتي تمّ وصفها مع كثير من نقوش خشبية وصور فوتوغرافية، في ثلاثة مجلدات عن «تاريخ البغاء»، كانت قد قرأتْها في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، وكانت موضوعة ما بين هاملت وميكروغلاكسيز للكابتن غرانت[١]. سأذكر التالي احتراماً لطالبي العِلم الذين سيقرأون هذه الذكرى المحظورة، وتعتريهم أثناء ذلك ارتعاشات جنسية سرية (إنهم في النهاية بشراً) في الخلوات السرية

---

(١) الكابتن غرانت: تلميح إلى رواية أطفال الكابتن غرانت للروائي الفرنسي جول فيرن، وقد صدرتْ بين عامَي ١٨٧٦ و١٨٦٨. (مترجم)

للمكتبات (حيث، بقيت تلك الأمكنة، بورع، تحتفظ بكل الثرثرات، المضاجعات، وكل الانحرافات المتعفنة): توجب على المؤلف إضافة هامش من البراهين يراجعها رجل عجوز طريح الفراش (إذ إن تلك الأفاعي الطويلة الفاسقة تضيف اللمسة الأخيرة فوق عذابات الكاتب) ويجري عليها، وببطولة، بعض التصحيحات. [لا يمكن فكّ تشفير نهاية الجملة، ولكن لحسن الحظ، تمت كتابة الفقرة التالية على عجل، فوق صفحة كتابة منفصلة. ملاحظة المحرّر].

... عودة إلى ما يخصّ هويتها. الحمير التي قد تظن أن اقتراني، أنا فان فيين منها هي، آدا فيين، في مكان ما من أمريكا الشمالية، في القرن التاسع عشر، لا يقدم في ضوء الأبدية، إلا الجزء المليار من الجزء المليار من الاعتبار العام لهذا الكوكب الذي لا يتجاوز حجمه رأس دبوس، يمكن لها أن ترحل للنهيق "ailleurs, ailleurs, ailleurs"[١] (لن يُشبع العنصر الصوتي بالكلمة الإنكليزيّة. فيين العجوز لطيف جداً)، لأن النشوة التي منحتها هويتها، تكشف، تحت مجهر الواقع (الذي هو الواقع الوحيد)، عن منظومة معقدة من الجسور الدقيقة التي تعبرها الحواس - ضاحكة، متعانقة، رامية زهور في الهواء - بين الجسد والروح، بين النسيج والعقل، الذي لطالما كان، وما زال، شكلاً من أشكال الذاكرة، حتى في لحظة إدراكه الحسّية. أنا ضعيف. أكتب بشكل سيّئ. قد أموت الليلة. لم تعد سجادتي السحرية تطفو فوق القبب التاجية، وأعشاش الطيور، وفوق حقول الأوركيد النادرة، خاصتها. إدراج.

(١) ailleurs, ailleurs, ailleurs: بعيداً بعيداً بعيداً (بالفرنسية). (مترجم)

٣٦

مكتبة
t.me/t_pdf

ذات مرة، قالت آدا المتحذلقة إن بحثها عن كلمات في المعجم، بغير غرض العلم أو الفن، هو أشبه بصنع باقة زهور اصطناعية وزخرفتها (الأمر الذي قد يحمل، كما اعترفتْ، إغراءً رومنسياً إلى حدّ ما على نحو مغناج)، أو لوحة كولاج لأجنحة فراشات مختلفة (الأمر المبتذل دائماً وغالباً ما يحمل نفحة إجرامية). وبالمقابل، اقترحتْ على فان نظرية جديدة مفادها أن ذلك التهريج اللفظي، واستعراض المفردات، والجناسات التافهة وما إلى ذلك من هزل، يمكن لنوعية معينة من عمل العقل أن تستهلكها، بغرض خلق تلاعب لفظي عظيم، أو العثور على تورية مستوحاة، شريطة أن لا تحول دون اللجوء إلى المعاجم، الفظّة والسلسة على حد سواء.

وهكذا وافقتْ على فلافيتا. الكلمة مشتقة من ألفافيت[١]، لعبة روسية قديمة تعتمد على الحظ والمهارة، قائمة على بعثرة حروف الأبجدية وإعادة ترتيبها. كانت رائجة في إيستوتي وكانادي حوالي عام ١٧٩٠، وأعيد إحياؤها من قِبل مادهاترز (الاسم الذي أطلق ذات مرة على سكان أمستردام الجديدة) مع بداية القرن التاسع عشر،

(١) ألفافيت: الأبجدية بالروسية.

وقد عادت بقوة بعد ركود وجيز، بدأ في عام ١٨٦٠. والآن بعد قرن من الزمن، عادت للرواج مرة أخرى، كما قيل لي، تحت اسم سكرابل، الاسم الذي لا يمتّ إلى شكلها أو بالأحرى إلى أشكالها الأصلية بصلة، وقد اخترعه رجل عبقري. كانت النسخة الروسية الرئيسية، خلال طفولة آدا، تُلعب في البيوت نبلاء الريف، وكانت تضم مئة قطعة، تحمل كل منها حرفاً. كان على اللاعب تأليف كلمات، في خطوط عمودية أو أفقية، فوق رقعة من مئتين وخمسة وعشرين مربعاً؛ أربعة وعشرون مربعاً باللون البني، اثنا عشر باللون الأسود، ستة عشر باللون البرتقالي، ثمانية مربعات حمراء، أما الباقي فأصفر ذهبي (بعبارة أخرى «فلافيد»، اعترافاً بامتياز الاسم الأصلي للعبة). كل حرف من الحروف الأبجدية الكيريلية[1] يقابل عددًا معينًا من النقاط (حرف "F" الروسي النادر، كان يعادل عشر نقاط، أما "A" الشائع، فنقطة واحدة). يعطي اللون البني ضعفي قيمة الحرف، والأسود ثلاثة أضعاف. يمنح البرتقالي ضعفي مجموع قيمة الكلمة بأكملها، والأحمر ثلاثة أضعاف. ستتذكر لوسيت لاحقاً، الحمى الشديدة التي أصابتها في كاليفورنيا، في سبتمبر ١٩٨٨، والتي صارت خلالها تهذو بالمضاعفة الوحشية الرقمية للكلمات التي جعلت أختها تنتصر في مضاعفة ثنائية، ثلاثية، وحتى تساعية (عند مرورها فوق مربعيْن أحمريْن).

في كل دورة من اللعبة، يأخذ اللاعب سبع قطع عشوائية من الصندوق الذي احتواها، بوجهها مقلوب نحو الأسفل، وعند دوره،

---

(١) الأبجدية الكيريلية: السيريلية أو الكيريلية، أبجدية مستخدمة في بعض الدول السلافية الشرقية والجنوبية، كما كانت تستخدم في العديد من لغات جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة، وكذلك استخدمت في الماضي في عدّة مناطق من أوروبا الشرقية، والقوقاز، وسيبيريا وغيرها. (مترجم)

يرتب كلمته فوق الرقعة. من يفتتح اللعبة، ويحصل على فرصة البدء فوق حقل فارغ، يتوجب عليه صفّ حرفين على الأقل من حروفه السبعة، أو كلها، بطريقة يشغل بها المسبّع المزخرف، الذي يزين مركز الرقعة. ثمّ، يستخدم لاعب آخر أحد الحروف التي أصبحت فوق الرقعة كمحفز لتأليف كلمة، من اليسار إلى اليمين، أو من الأعلى إلى الأسفل. الرابح هو من يجمع أكبر عدد نقاط، حرفاً حرفاً، كلمة كلمة.

المجموعة التي أرسلها لأطفالنا الثلاثة عام ١٨٨٤ البارون كليم آفيدوف، «صديق العائلة القديم» (كما كان يُطلق على كل عشاق مارينا السابقين) تألّفت من رقعة كبيرة قابلة للطيّ، مصنوعة من السختيان[١]، وصندوق مليء بمستطيلات وازنة من خشب الأبنوس، وقد حُشرت فيها الحروف البلاتينية، وكان واحد منها فقط يحمل حرفاً لاتينياً، تحديداً الحرف "J"، يمكن وضعه فوق رقعتي الجوكر (قطعة مرعبة بيد أحد اللاعبين، كـ«شيك على بياض»، يحمل توقيع جوبيتر وجيروجين[٢]). بالمناسبة، لقد كان «الصديق القديم» هو آفيدوف اللطيف ذاته ولكن الحساس (المذكور في العديد من مذكرات عصره طيبة الذكر) الذي، في فينيسا روزا، قذف بلكمة قوية السائح الإنكليزي تعيس الحظ، من غرفة فندقه غريتز نحو نزل البواب، بسبب ملاحظته المازحة، التي سخر فيها من فطنة من يسقطون الحرف الأول من أسمائهم[٣]، ليصيروا مجرد نكرة.

---

(١) السختيان: جلد الماعز المدبوغ. (مترجم)

(٢) جيروجين: آلهة عند الصينين القدماء، واحد من آلهة السعادة السبعة. (مترجم)

(٣) إسقاط الحرف الأول من الاسم: والمقصود هنا إسقاط "de" أو "d`" والتي هي بمثابة ال التعريف الذي يسبق الكنية، وتحديداً كنية النبلاء. وكان

بحلول شهر يوليو، تضاءلت القطع العشر التي تحمل الحرف A لتصير تسعة، وصارت القطع الأربعة التي تحمل حرف D ثلاثاً. في النهاية، ظهر A المفقود تحت وسادة كرسي بذراعين، ولكن D، قد ضاع بالفعل، كما ضاعت عظمته وفخامته المتخيّلتين في ذهن الشهيد والتر سي كايواي[1]، المحترم، قبل هبوطه المفجع، مع بطاقتين بريديتين غير ممهورتين، وقد رسا بين ذراعي حارس متعدد اللغات ولكن معقود اللسان، يرتدي معطفاً طويلاً بأزرار نحاسية. (لا حدود لخفة دم آل فين، ملاحظة هامشية بخط آدا).

لم يفهم فان، لاعب الشطرنج من الدرجة الأولى - فاز في مباراة في تشوز عام ١٨٨٧ أمام بات ريشين المولود في مينسك (بطل أندرهيل وويلسون، كارولاينا الشمالية) - عدم قدرة آدا الفَطِنة على رفع مستواها في لعبة الشطرنج - شطرنج بنّاتي إن جاز التعبير- فوق المستوى الذي يمكن أن يرضي شابة خارجة من رواية قديمة، أو من إحدى صور إعلانات مستحضرات التجميل التي تُظهر عارضة جميلة (خُلقت لألعاب أخرى غير الشطرنج) تحدق في كتف خصمها - المستعد والمعصوم من الخطأ - عبر ازدحام مروري سببته أحجار شطرنج بيضاء وقرمزية، نحتها «لالا روك» بطريقة معقّدة ومزينة إلى الحد الذي جعل التعرف عليها صعباً؛ أحجار سيرفض حتى المعتوه أن يلعب بها، حتى لو كان سيحصل على مكافأة ملكية، لقاء إفساد أبسط خطة تدور تحت فروة الرأس الأكثر روعة في العالم.

تمكنت آدا، بين الحين والآخر، أن تستحضر أضحية تكتيكية،

السائح الفرنسي يسخر من اسم آفيدوف الذي لا يحمل رمز النبالة. (مترجم)

(١) والتر سي كايواي: اسم السائح الإنكليزي. (مترجم)

في سبيل، لنقل، إنقاذ الوزير، محققة انتصاراً حاذقاً، بعد نقلتيْن أو ثلاث، في حال أُخذت منها القطعة الضحية؛ ولكنها لم تكن ترى إلا جانباً واحداً من المسألة، مفضّلة أن تتجاهل - وكأنها فكرها مخدّر بطريقة عجيبة - الحركات المضادة الممكنة، رغم وضوحها، والتي ستؤدي حتماً إلى هزيمتها، في حال رفضت تقديم أضحيتها. ولكن فوق رقعة السكرابل، كانت آدا نفسها، الهمجية والضعيفة، تتحول إلى آلة حاسوبية مذهلة ورشيقة، كما كانت علاوة على ذلك، مدعومة بحظّ استثنائي يمكّنها من التغلب بعظمة على فان المرتبك، معتمدة على فطنتها، بصيرتها، واستغلال الفرص، حين تتمكن، بخردة الحروف غير الواعدة، من تشكيل كلمات طويلة ومغرية.

وجد اللعبة مرهقة إلى حدّ ما، ولكي ينهيها لعب سريعاً وبلا مبالاة، متنازلاً عن اختيار كلمات «نادرة»، أو «عفى عليها الزمن»، أمام اختيار المقبولة منها، زوّده بها قاموس المخلص. أما بالنسبة للوسيت الطموحة، غير الكفؤة والمزاجية، فقد كان على فان، حتى في عمرها ذي الاثني عشر عاماً، أن يستمر في توجيهها عن طيب خاطر، لأن ذلك يختصر الوقت، ويقرّب قليلاً من اللحظة المباركة، التي تُرسل عندها الطفلة إلى حضانتها، تاركة آدا للفترة المزهرة القصيرة، الثالثة أو ربما الرابعة من يوم صيفي حار. لم يكن شيء ليضجر فان أكثر من شجار الفتاتين عند جدالهما حول شرعية كلمة ما: لم يكن الخطأ مسموحاً بأسماء العلم أو أسماء الأماكن، فقد كانت تابو، ولكن حملتْ بعض الحالات كلمات مشكوكاً في أمرها، مسببة إزعاجاً لا ينتهي، وكم كان مثيراً للشفقة رؤية لوسيت متمسكة بحروفها الخمس الأخيرة (عند نفاد كل ما في الصندوق) مشكّلة كلمة آرديس الرائعة، التي قالت لها مربيتها إنها تعني رأس السهم، ولكن باليونانية فقط، للأسف. ولكن ما كان مثيراً للغضب، هو رؤية

الأختيْن، غاضبتيْن ورافضتيْن، تبحثان وتتحققان من الكلمات الملتبسة، في عدد من المعاجم، الواقفة، الملقيّة أرضاً، والمترامية حول الطفلتين، تحت كرسي لوسيت الذي ركعتْ فوقه، فوق الأريكة، فوق الطاولة الكبيرة المستديرة التي حملَت الرقعة والحروف، وفوق خزانة مجاورة بأدراج. المنافسة بين آزييغوف، قاموس غبي (مجلّد كبير، أزرق، سيّئ التصميم، يحتوي على ٥٢٨٧٢ كلمة) وبين أيدموندسون[١]، قاموس صغير، جاف ومثير للغط، أعاد نشره بنسخة مبجلة الدكتور غيرسشيزفكسي[٢]، وبين مجلدات دال[٣] الأربعة، المتضمنة اختصارات عجماء، وكرم فائض غير مألوف («حبيبتي داليا»، تنهّدت آدا حين وقعت على كلمة بائدة من المجلّد الإثنوغرافي، اللطيف، الطويل والملتحي[٤]). كان كل ذلك ليكون بالنسبة لفان، باعثاً لا يحتمل على السأم، لو لم يكن كعالم قد لسعه الفضول لاكتشاف وجه الشبه ما بين رقعة السكرابل والبلانشيت[٥]. كان قد رأى السكرابل للمرة الأولى في إحدى ليالي أغسطس ١٨٨٤، فوق شرفة الحضانة، تحت سماء الشمس الغاربة،

---

(١) معجم إيدموندسون: تلميح إلى إيدموند ويلسون (١٨٩٥-١٩٧٢) صحفي، شاعر، كاتب مسرحي، ناقد أدبي، وكاتب، من الولايات المتحدة الأمريكية، وكان قد كتب مرة منتقداً أسلوب فلاديمير نابوكوف. (مترجم)

(٢) الدكتور غيرسشيزفكسي: تسمية تحمل تلميحين إلى اثنين من أساتذة جامعة هارفرد ، ديمتري إيفانوفيتش شيزفسكي، ووآلكساندر غيرسشينكرون، وكان الاثنان قد تناولا الكاتب بنقد أدبي سلبي. (مترجم)

(٣) معاجم دال: فلاديمير دال (١٨٠١-١٨٧٢) وكان واحداً من أعظم مؤلفي المعاجم في اللغة الروسية. (مترجم)

(٤) المجلد الإثنوغرافي الملتحي: ويقصد به «دال» نفسه. (مترجم)

(٥) بلانشيت: لوح خشبي للكتابة يستخدمه محضرو الأرواح. (مترجم)

خيط النار الأخير الذي تلوى كأفعى فوق زاوية البركة، مثيراً طيور السمامة، ومكثّفاً مسحة النحاس في جعدات شعر لوسيت. كان اللوح المغربي مفتوحاً فوق أكثر طاولات المنزل الخشبية المزينة ببقع الحبر، المونوغرامات، والأثلام. وصلت لوسيت الجميلة، العابقة بعطر تسمّيه الخادمات مسك مينيفر، والتي قد لحق بها أثر من لون المساء الورديّ، فوق أظافرها، وفوق شحمة أذنها، وقد أحضرتْ مصباحاً لم يكن ضرورياً. أقيمت قرعة، وفازت آدا بحق البدء، فبدأت، على نحو آليّ وبديهي، بتجميع قطع حروفها السبع، المحظوظة، واحدة تلو الأخرى، من الصندوق المفتوح، حيث وُضعت القطع مقلوبة على قفاها، لا يظهر منها سوى ظهورها السوداء الغامضة، المكسوة بالمخمل الناعم. قالتْ آنذاك بشكل عرضي: «أفضل مصباح البنزين على الكيروسين، ارفعي الضوء كي أرى جيداً يا حبيبتي (متوجهة إلى لوسيت)، فليأتِ حظي! استجيبي أيتها السموات!»

الحروف السبعة التي التقطتها هي S,R,E,N,O,K,I، ثم فرزتها في الـ spektrik الخاص بها (حامل من الخشب الياباني، يوضع أمام كل لاعب)، ثم، وبحركة سريعة وعفوية، بدأت بتشكيل، وإعادة تشكيل، الكلمة المفتاح للجملة غير المتوقعة، التي كان ذلك التجميع العشوائي ليسمح بتدشينها.

مرة أخرى، فوق شرفة المكتبة، في ليلة عاصفة (قبل احتراق الحظيرة بساعات قليلة)، سحبتْ لوسيت حروفها السبعة التي كان تواليها العشوائي كلمة ظريفة، VANIADA[1]، ثم شكلت بها كلمة DIVAN، الديوان الذي أشارت إليها بصوت منخفض ونكِد:

(١) VaniAda : "Van i Ada" وتعني بالروسية فان وآدا. (مترجم)

«ولكن، ربما أرغب أنا أيضاً في الجلوس فوق ذلك الديوان[1].»

وبعد ذلك بفترة قصيرة، وكما هي الحال حين يعدنا كثيرٌ من الألعاب واللعب وصداقات العطلات بمستقبل من المرح الذي لا ينتهي، ضاعتْ فلافيتا في ضباب الخريف، الذي يكنس الأوراق البرونزية، المتساقطة من أشجار الدم الأحمر؛ ثم ضاع الصندوق الأسود، ونسوه جميعاً - عُثر عليه عن طريق الصدفة (بين صناديق الفضة) بعد أربع سنوات، قبيل زيارة لوسيت إلى البلدة في منتصف يوليو ١٨٨٨، حيث أمضت أياماً قليلة مع والدها. وهكذا كانت اللعبة الأخيرة التي لعبها أبناء آل فيين الثلاث، هي آخر عهد الفلافيتا، المباراة التي بقيت تفاصيلها حية في ذاكرة فان للأبد، ربما بسبب انتصار آدا الساحق الذي لا يُنسى، أو ربما بسبب الملاحظات التي كان هو يدونها فوق دفتره الصغير، آملاً (وهذا ما لم يتحقق تماماً) لو يتسنى له «خطف نظرة إلى بطانة ثوب الزمن» (وهذا، كما وصفه لاحقاً، «أفضل تعريف غير رسمي للنبوءات والنُذر»).

«لا أستطيع تركيب أي كلمة»، اشتكت لوسيت منتحبة، «ولا أي كلمة مع تلك الحروف الغبية، REMNILK، LINKREM...»

«انظري»، همس فان، «الأمر في غاية البساطة، بدّلي موقع

---

(١) جلوس لوسيت فوق الديوان: تلميح إلى ديوان المكتبة الذي مارس الطفلان فوقه الجنس لمرتهما الأولى. في بعض الدراسات التي تناولت شرح هذه الرواية، كُتب عن هذه الجملة تحديداً:

"But I, too, perhaps, would like to sit on the divan":

أن حرف I فيها قد لا يحمل معنى (أنا)، إذ إن حادثة الحريق لم تكن قد وقعتْ بعد؛ ربما، وحسب التفسير، يُقصد به معناه الحرفي كحرف أبجدية، قصدت به الطفلة أن الحرف I يودّ الجلوس فوق الـ divan، أي أن يكون ضمن أحرف تلك الكلمة، وبذلك تكون جملة الطفلة تنبؤاً بكل ما سيجري لاحقاً، وبتلك العلاقة الثلاثية المعقدة. (مترجم)

المقطعين الصوتيين، وستحصلين على اسم قلعة في موسكوفي القديمة.»

«أوه لا»، قالت آدا وهي تهزّ سبابتها وترفعها - بطريقتها المعتادة - نحو أعلى عقصة شعرها. «أوه لا، هذه الكلمة الجميلة غير موجودة باللغة الروسية. لقد اخترعها رجل فرنسي. لا يوجد مقطع ثانٍ.»

«ارحمي تلك الطفلة»، قاطعها فان.

«لا رحمة!»، صاحت آدا.

«حسناً»، قال فان، «شكّلي ما يشبه الكريما، KREM، أو حتى KREME، أو أدلك على ما هو أفضل؟ KREMLI، والتي هي سجون في يوكون. قاطعي كلمتها ORHIDEYa[(١)]!»

«أوركيدها السخيف»، قالتْ لوسيت.

«أما الآن»، قالت آدا، «ستريكم آدوشكا ما هو أكثر سخافة». أطلقتْ تنهيدة عميقة، ثم استفادتْ من الحروف الرخيصة المنثورة بتهوّر فوق الحجرة السابعة من الصف العلوي الخصب، لتشكّل صفة TORFYaNUYu[(٢)]، الكلمة التي مرت خلال مربع بني عند الحرف F، وخلال مربعين أحمرين (٣٧×٩ = ٣٣٣ نقطة) وحصلتْ أيضاً على خمسين نقطة إضافية كونها قد استخدمت الحروف السبعة مرة واحدة، مما رفع نقاطها إلى ٣٨٣، المجموع الذي لم يحصل عليه أي لاعب سكرابل روسي قبلها. «إليكم بتلك الضربة!»، قالت، «أووف! لم يكن ذلك سهلاً أبداً»، وقد سرّحت بكفها البيضاء خصلة سوداء برونزية قد انزلقت من عقصتها، لفّتها حول مفاصل أصابعها

(١) ORHIDEYa: أوركيد بالروسية. (مترجم)

(٢) Torfyanaya: خثّ بالروسية.

الوردية، أرجعتها وراء ظهرها، ثم أعادت عدّ نقاطها الرهيبة، بنبرة شجية ومتعالية، كأميرة تروي كيف دفعت أحد عشاقها الفائضين عن حاجتها لتجرّع كأس السم، بينما حدقت لوسيت بفان، بنظرة صامتة وغاضبة، تحمل احتجاجاً على ظلم الحياة، ثم، وبعد نظرة أخرى إلى رقعة اللعب، أطلقتْ صرخة أمل فجائيّة:

«إنه اسم مكان! لا يمكن استخدامه! إنه اسم أول محطة صغيرة بعد جسر لادور!»

«هذا صحيح يا حبيبتي»، صاحت آدا، «أوه يا حبيبتي، أنت محقة فعلاً. أجل، Torfyanaya، أو كما تقول بلانش، Tourbière[1]، هو اسم القرية الجميلة ولكن الرطبة، حيث تعيش عائلة سندريلا خاصتنا. ولكن للأسف يا صغيرتي، في لغتنا الأم، في الواقع، لغة جدتنا والدة والدتنا، التي نتشاركها جميعاً - اللغة الجميلة والغنية والتي على حبيبتي الصغيرة أن لا تهملها كي لا تتأثر بالكندية والفرنسية - فإن تلك الصفة العادية لا تحمل غير معنى «خثّة»، بصيغة التأنيث، في حالة المفعول به. أجل، إن تلك الضربة قد أكسبتني ما يقارب ٤٠٠ نقطة. أمر مؤسف - ne dotianoula (كادت تكون)».

«كادت تكون»، غمغمت لوسيت مشتكية إلى فان، بأنف يسيل، وكتفيْن تهتزان غضباً.

أمال فان كرسي الطفلة ليساعدها على الانزلاق ثم الذهاب. كان مجموع الطفلة النهائي، بعد ما يُقارب خمس عشرة دورة، أقل من نصف مجموع أختها الساحق، ولم يكن فان أوفر حظاً، ولكن هل كان ذلك حقاً مهماً! ذراع آدا الناعمة التي كانت تضرب بها فوق

---

(١) Tourbière: الأراضي الخثة بالفرنسية. (مترجم)

الرقعة، الزرقة الشاحبة لعروقها النافرة، رائحة الفحم في شعرها البني الذي كان يلمع تحت الإضاءة الخافتة لمصباح جانبي (مغطى بقماش قد رسمت فوقه بحيرة وتنانين يابانية)، كل ذلك قد كان أكثر قيمة من أي رقم استطاعت أبداً أصابعُ متصالبة فوق رأس قلم رصاص، أن تكتبه في الماضي، في الحاضر، أو حتى في المستقبل.

«الخاسرة ستذهب إلى السرير»، قال فان مرحاً، «ولا يُسمح لها بالخروج منه تحت أي ذريعة، وبعد عشر دقائق بالضبط، سننزل لنجلب لها كوباً كبيراً (الكوب الأزرق الغامق!) من الكاكاو (كاكاو «كادبوري»، حلو، غامق، ومن دون رغوة!)».

«لن أذهب إلى أي مكان»، قالت الخاسرة لوسيت بعد أن صالبتْ ذراعيها. «أولاً، لأنها لم تتجاوز الثامنة والنصف، وثانياً، لأنني أعرف جيداً لماذا تريدان التخلص مني.»

بعد صمت طفيف قالت آدا: «فان! هل تتكرّم باستدعاء الآنسة؟ إنها مشغولة مع والدتي بالعمل على نص أكثر غباء من تلك الطفلة المزعجة.»

«أودّ لو أعرف ما تعنيه بملاحظتها المثيرة للاهتمام تلك. اسأليها يا عزيزتي آدا!»، قال فان.

«تظن أننا سنلعب سكرابل من دونها»، قالت آدا، «أو ربما سنقوم بتمرينات الجمباز الشرقية، التي، وكما تذكر يا عزيزي فان، كنتَ قد بدأت بتعليمي إياها.»

«أجل أذكر! لقد عرضت أمامك الدروس التي تلقيتها من معلم ألعاب القوى، أتذكرين اسمه؟ كينغ وينغ.»

«يبدو أنك تذكرين الكثير»، قالت لوسيت ضاحكة، وقد وقفت أمامهما بملابس نومها الخضراء (بيجاما)، كاشفة عن صدرها العاري

الذي دبغته الشمس، مباعدة بين فخذيها، وواضعة قبضتيْها فوق ركبتيْها.

«ربما أذكر أبسط الـ. . . . . »، أجابت آدا.

«الجواب الأبسط هو أن تعترفا كلاكما، لماذا تريدان التخلّص مني»، قالت لوسيت.

«قد يكون الجواب الأفضل»، تابعت آدا، «هو أن تعطيها أنت يا فان، ضربة على قفاها، مدوّية ومؤلمة».

«إياك أن تجرؤ!»، قالت لوسيت، ثم، وبطريقة خلابة، أدارت له ظهرها.

بكل نعومة، قبّل فان قمة رأسها الحريرية، ثم وراء أذنها، فغابت في نوبة من التأوهات، ثم هرعت خارجة من الغرفة. قفلت آدا الباب وراءها.

«إنها حقاً لمجنونة، غجرية فاسدة، طبعاً»، قالت آدا، «علينا أن نكون أكثر حرصاً من أي وقت مضى. . . يا إلهي كم أنها رهيبة! رهيبة! رهيبة! . . . أوه، بحذر يا حبيبي!».

٣٧

كانت تمطر. بدت المروج أكثر خضرة، والبحيرة أكثر ارمداداً، في اللوحة التي تؤطرها نافذة المكتبة. ببزة تدريبه السوداء، استلقى فان واضعاً تحت رأسه وسادتيْن صفراوين، وبدأ بقراءة «راتنير فوق تيرا»، كتاب صعب ومحبط. بين الحين والآخر، كان ينظر إلى ساعة الحائط العالية، التي تتكتك على إيقاع الخريف، فوق رأس طارطاريا الأجرد، المرسوم فوق مجسم ضخم وقديم للكرة الأرضية، وقد عكست إضاءة العصر الباهتة النورَ الذي كان ليتوافق مع بدايات أكتوبر، أكثر منه مع بدايات يوليو. ارتدت آدا ما لم يكن يعجب فان، معطف الماكنتوش ذا الحزام، غير العصري، مع حقيبة يد قد علّقتها فوق كتفها، وذهبتْ إلى كالوغا لقضاء يوم كامل - بحجة رسمية وهي زيارة الخياط، أما غير الرسمية فكانت استشارة ابن عم الدكتور كروليك، سيتز، الطبيب النسائي (أو زاياتس كما نسخت اسمه بالحروف اللاتينية، وصنفته ذهنياً، ضمن الألفاظ الروسية، في المجوعة الأرنبية، التي ينتمي إليها أيضاً الطبيب رابيت[1]). كان فان

(١) الطبيب رابيت: ويقصد الطبيب لابينيه المذكور في بداية الرواية. (rabbit-lapin) أسماء الأرنب بالإنكليزية والفرنسية. من الجدير بالذكر أن كروليك (اسم عالم الطبيعة) هو أيضاً أرنب ولكن بالروسية. (مترجم)

واثقاً على نحو قاطع بأنه وخلال مدة شهر كامل من ممارسة الحب، لم يهمل مرة واحدة أخذه بالاحتياطات اللازمة، ربما بطريقة غريبة، أحياناً، ولكن مضمونة بما لا يقبل الشك؛ حتى أنه كان مؤخراً قد حصل على وسيلة لمنع الحمل على شكل غمد، لم يُسمح ببيعها إلا في لادور، داخل بعض محلات الحلاقة، لأسباب غريبة ولكن قديمة. بقي قلقاً، ومنزعجاً من قلقه ذاك، أما راتنر - الذي نفى في كتابه، عن غيرما قناعة تامة، أي دليل على وجود كوكب شقيق - قد بدا له مملاً وكئيباً أكثر من الصوت المطر الذي أمكن سماعه يضرب بخطوط مائلة ومتوازية، فوق الخلفية القاتمة لأشجار الآركس، المقترَضة، حسب ادّعاء آدا، من مانسفيلد بارك.

عند الخامسة إلا عشرة، دخل بوت بهدوء، حاملاً مصباح كيروسين مضاء، ودعوة من مارينا لدردشة في غرفتها. عندما مرّ بوت بالكرة الأرضية، لمسها ثم نظر باستهجان إلى الغبار فوق إصبعه. «إنه لعالم مغبر»، قال. «يجب إعادة بلانش إلى قريتها، إنها مجنونة، وشريرة، تلك الفتاة!»

«حسناً، حسناً»، قال فان ثم عاد إلى كتابه. غادر بوت الغرفة وهو لا يزال يهزّ رأسه السخيف الحليق، أما فان، المتثائب، فقد سمح لراتنر أن ينزلق من الديوان الأسود نحو السجادة السوداء.

عندما رفع نظره ثانية إلى ساعة الحائط، كانت تحشد قواها للضربة الكبرى. نهض على عجالة من أريكته، متذكراً أن بلانش قد دخلتْ لتوّها لتطلب منه أن ينقل إلى السيدة مارينا شكوى مفادها أن الآنسة آدا قد رفضتْ أن تقلّها إلى "Beer Tower"[1]، كما كان المهرجون المحليون يطلقون على قريتها. للحظات قليلة، بقي ذلك

---

(١) Tourbière : Beer Tower في الفصل السابق. (مترجم)

الحلم المقتضب والغامض، مندمجاً بقوة مع الحدث الواقعي، لدرجة أنه حتى عندما تذكر بوت وقد وضع إصبعه فوق شبه الجزيرة بشكلها شبه المعيّن، حيث كانت سفن الحلفاء قد رستْ لتوّها (كما أعلنت صحيفة لادور الموضوعة فوق طاولة المكتب، والتي قد رُسم فوقها نسر باسط الجناحين[1]) كان لا يزال يرى، وبوضوح، بلانش تمسح جزيرة القرم النظيفة بواحد من مناديل آدا المفقودين. بدأ بتسلق الدرج الحلزوني صاعداً نحو حمامات الحضانة؛ سمع من على بعد مسافة صوت المربية تردد مع تلميذتها البائسة مقاطعاً من الشنيعة بيرينيس[2] (نعيب كونترالتو متناوب مع صوت طفلة خال من الإحساس)؛ قرّر أن بلانش، أو بالأحرى مارينا، قد ترغب في معرفة ما إذا كان جاداً حين قال ذات يوم، إنه سيتطوع في الجيش ما إن يبلغ التاسعة عشرة، أصغر عمر لقبول التطوع. كما أنه أيضاً قد فكّر لدقيقة في الواقع المحزن (الذي عرفه جيداً بفضل دراساته) للنظرية التي تقول إن الخلط بين حقيقتيْن، الأولى بين علامات اقتباس مفردة، والأخرى مزدوجة، ما هو إلا عارض جنون وشيك.

بوجهها العاري، وشعرها المتلبّد، لفّت مارينا نفسها بالكيمينو القديم خاصتها (كان بيدرو قد غادر فجأة إلى ريو) واضطجعتْ فوق سريرها الماهوغني، تحت لحاف أصفر ذهبي، تشرب الشاي مع حليب الفرس، وهي إحدى بدعاتها.

«اجلس! وتناول كوب شاي!»، قالت. «حليب البقر في الإبريق الصغير، على ما أعتقد. أجل، إنه كذلك». ثم قالت بعد أن قبّل فان

---

(١) النسر المرسوم فوق الصحيفة: تلميح إلى علم الإمبراطورية الروسية. (مترجم)

(٢) بيرينيس: من مسرحيات جان راسين. (مترجم)

يدها المنمّشة، وجلس فوق الـ ivanilich[1] (بوفة قديمة منجدة بالجلد، تطلق صفيراً كلما جلس أحدهم فوقها): «عزيزي فان! أودّ أن أخبرك اليوم بأمر، وأعرف أني لن أضطر إلى تكراره فيما بعد. إن بيل، بحسن انتقائها المعتاد لما تقول، قد ذكرت أمامي القول المعثور، أعني المأثور، دائماً أخطئ بهذه الكلمة، ومفاده أن ابن العم جار خطير. كما قالت إنها شهدتكما تتبادلان القبل في كل زاوية. أهذا صحيح؟»

كان عقل فان متقدماً على خطابه. إنها مبالغة خيالية يا مارينا. لقد لاحظت المربية المجنونة ذلك حين حمل آدا وعبر بها الغدير، فقبّلها لأنها قد آذت إصبع قدمها. أنا المتسوّل المشهور في أكثر القصص حزناً.

"Erunda!" (هذا هراء)، قال فان. «لقد رأتني مرة أحملها عبر الجدول، وأخطأت في تفسير احتضاننا وتعثرنا (spotïkayushcheesya sliyanie).»

«أنا لا أقصد آدا، أيها السخيف!»، قالت مارينا مع نخير طفيف، بينما كانت تتناول إبريق الشاي. «الكوميدي الروسي آزوف، هو من اشتق كلمة Erunda من الألمانية: hier und da، والتي تعني هنا وهناك. آدا فتاة كبيرة، وللفتيات الكبيرات، وللأسف، ما يكفيهن من الهموم الخاصة. إن الآنسة لاريفيير كانت تعني لوسيت، طبعاً. فان! على الألعاب الناعمة تلك أن تتوقف! إن لوسيت في الثانية عشرة، وهي ساذجة، وأنا أعرف أن كل ذلك هو عبارة عن مرح بريء، ومع ذلك (odnako)، فإنه لا يمكنك التصرف بتلك النعومة

---

(١) ivanilich: تلميح إلى رواية تولستوي: موت إيفان إيليتش. صدرت عام ١٨٨٦. (مترجم)

الفائقة مع امرأة صغيرة لا تزال في مهدها. أما بالنسبة للزوايا، فكما قد ورد في مسرحية «يا ويلتاه من الفطنة» لألكسندر غريبايدوف: من الغباء أن تكون بهذا الذكاء، أظن أنها مسرحية شعرية قد كُتبت في زمن بوشكين، ويذكّر فيها البطلُ صوفي بألعاب طفولتهما، فيقول:

كم جلسنا سوية في تلك الزاوية
وما كان الضير في ذلك؟

ولكن المعنى بالروسية بقي ملتبساً، مزيداً من الشاي يا فان؟» (هزّ رأسه ورفعه يده في الوقت ذاته تماماً كما يفعل والده) «لأنه، كما ترى، - لا، لقد نفد الشاي - فإن البيت الثاني، i kazhetsya chto v etom، يمكن تفسيره أيضاً على أنه: 'يبدو أنه في هذه'، وكان يشير بإصبعه إلى زاوية الغرفة. تخيل كيف كان الأمر، عندما كنت أتدرب على ذلك المشهد مع كاشالوف[١]، فوق مسرح النورس[٢]، في يوكونسك، حيث طلب منه ستانسفلاسكي، قسطنطين سيرغيفيتش، أن يقوم بتلك اللفتة الصغيرة (uyutnen'kiy zhest).»

«يا للطرافة الممتعة!»، قال فان.

دخل الكلب، نظر إلى فان بعينيْن بنيتيْن متجهّمتيْن، وقف مترنحاً أمام النافذة، نظر إلى المطر كشخص صغير، ثم عاد إلى وسادته القذرة، الموجودة في الغرفة المجاورة.

«لا يمكنني أبداً أن أحتمل تلك السلالة. إنها فوبيا الداشهاند»، أبدى فان ملاحظته.

---

(١) كاشالوف: فاسيلي كاشالوف (١٨٧٥-١٩٤٨) من أهم الممثلين الروس في عصره. (مترجم)

(٢) مسرح النورس: تلميح إلى مسرحية النورس، تشيخوف. (مترجم)

«ولكن ماذا عن الفتيات؟ أيعجبنك؟ فان! ألديك العديد من الفتيات؟ أنت لست شاذاً، كعمك المسكين، أليس كذلك؟ كان بين أسلافنا عدد من المنحرفين الشنيعين، ولكن - ولكن لماذا تضحك؟»

«لا شيء»، قال فان، «ولكني أريدك أن تأخذي بعين الاعتبار أنني أعشق الفتيات. وكنت مع أول فتاة في الرابعة عشرة من عمري. ولكن من يعيد إليّ هيلين[١]؟ كان لها شعر غراب أسود، وبشرة بلون الحليب مقشود الدسم. وفي وقت لاحق، حصلت على الكثير من الدسمات. I kajetsia tchto v etom?[٢]»

«يا له من أمر غريب! ومحزن! محزن لأنني بالكاد أعرف عن حياتك يا حبيبي (moy dushka). كان رجال آل زيمسكي فسّاقاً (razvratniki)، أحبّ أحدهم صغار الفتيات، وتولّع آخر بواحدة من أفراسه، وقد قيّدها بطريقة خاصة - لا تسألني كيف (مع حركة من كفيها تعبّر عن جهلها التام) - عندما واعدها في مربطها. Kstati (بالمناسبة)! حتى الآن لم أتوصل لفهم كيف تمكن العزّاب من توريث جيناتهم عبر الأجيال، لعلها كانت تقفز مثل فرسان الشطرنج. كدت أضربك في آخر مرة لعبنا فيها، علينا أن نلعب ثانية، ولكن ليس اليوم، رغم - رغم أنني حزينة جداً اليوم. كم وددتُ لو أني أعرف كل شيء، كل شيء، عنك! لكن الوقت قد تأخر الآن. غالباً ما تكون ذكرياتنا منمّطة (stilizovani)، كما كان والدك - الساحر والبغيض في آن - يقول، فحتى وإن كنت الآن ستريني دفتر يومياتك القديم، فإنه لم يعد بإمكاني أن أظهر أية ردّة فعل عاطفية تجاهها،

---

(١) ولكن من يعيد إليّ هيلين: عودة إلى قصيدة شاتوبريان المذكورة آنفاً. (مترجم)

(٢) I kajetsia tchto v etom: إعادة الجملة المقتبسة للمرة الثانية ولكنها أتت هذه المرة بمعنى: وماذا في ذلك؟ (مترجم)

على الرغم من أن كل الممثلات يستطعن ذرف الدموع، كما أفعل أنا الآن. أترى (تبحث عن منديلها تحت الوسادة)؟ عندما يكون أطفالنا صغاراً جداً (takie malyutki) فإن مجرد التفكير في إمكانية العيش من دونهم يكون مستحيلاً، ولو لبضعة أيام، ولكننا فيما بعد نقدر على ذلك، يبدأ الأمر بأسابيع، بعدها شهور، ثم سنوات رمادية، فعقود سوداء، ثم الختام بالأوبرا الهزلية للأبدية المسيحية. أعتقد أن حتى أصغر فراق هو شكل من أشكال 'ألعاب الفردوس[1]' - من يا تراه قال ذلك؟ أنا من قاله. وحتى زيّك، مهما كان يناسبك، فإنه، يوماً ما سيصير traurnïy (جنائزيّاً). إنني أسهب في الهراء. اغفر لي دموعي الغبية... قل لي! أيمكنني أن أقدم لك أية خدمة؟ فكر في شيء! ما رأيك بوشاح من البيرو، جميل وجديد - عملياً -، قد خلفه وراءه ذاك الفتى المجنون؟ لا ؟ لا يطابق ذوقك؟ اذهب الآن! ولكن تذكر - إياك أن تذكر كلمة للآنسة لاريفيير، فهي لم تتحدث إلا عن طيب نيّة».

عادت آدا قبل وقت العشاء بقليل. أهناك ما يدعو للقلق؟ التقى بها أثناء صعودها الدرج الكبير. بدتْ منهكة، وكانت تجرّ وراءها حقيبتها من حزامها الجلدي. أهناك ما يدعو للقلق؟ كانت رائحة تبغ تفوح منها، ربما لأنها (كما قالت) قد أمضت ساعة في مقصورة للمدخنين، أو لأنها دخنت (كما أضافت) مرة أو مرتين في غرفة الانتظار عند الطبيب، أو حتى ربما (وهذا ما لم تقله أبداً) كان عشيقها المجهول مدخناً عتيداً، يغصّ فمه الأحمر بدوائر الضباب الأزرق.

---

(١) ألعاب الفردوس: Elysian Games، ورد في إحدى الدراسات التي تناولت الرواية أن المقصود بتلك العبارة هو الموت. (مترجم)

«ماذا إذاً؟ كل شيء على ما يُرام؟»، سأل فان بعد قبلة سطحيّة. «لا قلق؟»

بحلقتْ فيه، أو ربما تظاهرت بذلك.

«فان! كيف أمكنك الاتصال هاتفياً بسيتز؟ حتى أنه لا يعرف اسمي. لقد وعدتني!»

صمت.

«ولكني لم أفعل»، أجاب فان بهدوء تام.

«هذا أفضل»، قالت آدا بذات الصوت الزائف، بينما كان يساعدها على خلع معطفها، بعدما وصلا إلى ممر الغرف. «أجل، كل شيء على ما يرام. هلّا توقفت عن استنشاقي، عزيزي فان؟ في الواقع، إن الأمر المبارك(١) قد بدأ أثناء طريق العودة. اسمح لي بالمرور! لو سمحت!»

أكانت مخاوفها هي؟ أم تلك التي لا تنفكّ والدتها تختلقها؟ أيكون الأمر مجرد عارض تافه؟ «لكل منا مشاكله الخاصة».

«آدا!»، هتف فان.

نظرتْ إلى الخلف قبل أن تقفل بابها (كما كانت دائماً تفعل).

«ماذا؟»

«Tuzenbakh(٢)، لم يدر ما يقول: لم أشرب القهوة اليوم. اذهبي وقولي لهم أن يهيئوها لي... يخرج مسرعاً.»

«مضحك جداً!» قالتْ آدا، ثم أقفلتْ باب غرفتها.

---

(١) الأمر المبارك: الحيض. (مترجم)

(٢) Tuzenbakh: البارون Tuzenbakh، إحدى شخصيات مسرحية الأخوات الثلاث لتشيخوف. والجملة كاملة («Tuzenbakh، لم يدر ما يقول: لم اشرب القهوة اليوم. اذهبي وقولي لهم أن يهيئوها لي... يخرج مسرعاً.») ما هي إلا اقتباس تام من نص المسرحية ذاتها. (مترجم)

٣٨

في منتصف يوليو، اصطحب العم دان لوسيت إلى كالوغا، حيث كان مقرّراً لها أن تبقى لخمسة أيام مع بيل وفرنش. كانت هنالك فرقة باليه من لياسكا، وسيرك ألماني، ولم يكن أي طفل ليرغب في أن تفوته مشاهدة ملاعب الهوكي ومباريات السباحة، الخاصة بمدرسة البنات، وقد كان العم دان، الذي يحمل قلب طفل، حريصاً على حضورها، بكل ورع، في ذلك الوقت من كل عام؛ وعلاوة على كل ما ذُكر، اضطرت لوسيت أن تخضع لسلسلة من الفحوصات في مشفى تاروس، لمعرفة ما الذي يقف وراء التقلبات غير الطبيعية لوزنها وحرارة جسدها، بغضّ النظر عن شهيتها الجيدة للطعام، وعدم شكواها من أي مرض.

بعد ظهر يوم الجمعة، عندما قرر والدها العودة معها، كان من المتوقع أن يُحضر معه محامياً من كالوغا إلى آرديس، حيث كان ديمون ليحضر أيضاً، وهذا حدث غير اعتيادي. كان الأمر يتعلق بمناقشة بيع بعض من الأراضي «الزرقاء» (مستنقعات)، التي كان يمتلكها كلاهما، والتي رغب كل منهما، لأسباب مختلفة، في التخلص منها. ولكن دان المسكين، مهما أحسن تخطيط مشاريعه، فإنها غالباً ما تفشل: لم يتمكن المحامي من القدوم إلى دان إلا في

ساعة متأخرة من ذلك المساء، فأبرق الأخير إلى زوجته، قبل وصول ديمون، طالباً منها أن تقدم العشاء للضيف، من دون انتظار دان وميلر.

ذلك الحدث غير المرغوب فيه (kontretan[1] المصطلح المضحك الخاص بمارينا) قد أسعد فان أيما سعادة، إذ لم يكن قد رأى والده ذاك العام إلا قليلاً. كان متفانياً في حبه له على نحو مرح، عبده في طفولته، واحترمه بشدة في شبابه المتسامح، والطافح معرفة وعلماً. في وقت لاحق، لحق بذلك الحب والاحترام مسحة من النفور (كالنفور الذي كان يعتريه أمام أموره اللاأخلاقية)؛ ولكن من ناحية أخرى، كان كلما كبر، يتأكد من كونه قادراً، في أي لحظة، وتحت أي ظرف يمكن تخيله، على بذل حياته أمام والده، بكل رضىً واعتزاز. في أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر، عندما بدأت مارينا، في خرفها البائس، بتلخيص وقصّ جرائم ديمون المتوفى، لم يشعر فان سوى بالشفقة عليه، وعليها، أما لامبالاته بأمر مارينا وعشقه لوالده، فقد بقيا على حالهما من دون أدنى تغيير، وكما سيستمران، بالتعاقب الزمني الذي لا يُصدق، حتى ستينيات القرن العشرين. لن يكون أي شخص لعين ممن يحبون التعميم، بعقل يزن نصف بنس، وقلب كحبة تين جافة، قادراً على شرح (وهذا انتقامي من كل من حاول أن يحط من قدر أهم عمل في حياتي) تطور النزوات الفردية لدى كليهما، أو شرح أي أمر مشابه. لن يكون هناك أي فنّ أو عبقرية من دون مثل تلك النزوات، وهذا هو التصريح الأخير، الكافي لإدانة المهرجين والأغبياء.

متى قام ديمون بزيارة آرديس خلال السنوات الأخيرة؟ في

---

(١) kontretan: بالفرنسية comtretemps (حدث غير مرغوب فيه) ولكن بلكنة مارينا الروسية والخاصة. (مترجم)

الثالث والعشرين من أبريل ١٨٨٤ (اليوم الأول المقترح، المخطط والموعود، لإقامة فان الصغير هناك). مرتان خلال صيف ١٨٨٥ (عندما كان فان يتسلق الجبال في الولايات الغربية، بينما كانت فتيات فيين في أوروبا). عشاء خلال عام ١٨٨٦، في يونيو أو ربما يوليو (أين كان فان؟). لأيام قليلة من شهر مايو، خلال عام ١٨٨٧ (كانت آدا تدرس علم النبات مع امرأة ألمانية في إيستوتيا أو كاليفورنيا. كان فان يزني في تشوز).

استغل فان غياب لاريفيير ولوسيت، وقضى أوقاتاً طويلة في مغازلة ومداعبة آدا في غرفة الحضانة المريحة؛ تدلّى من النافذة غير المناسبة، التي لم تكن تكشف كامل الزقاق الرئيسي، عندما سمع هدير محرك سيارة والده. هرع نحو الطابق السفلي مزلقاً يده فوق الدرابزين، الذي رفعت السرعةُ من حرارته، مسببة حرقاً في باطن كف فان، سيبقى ليذكّره، فرحاً، بمناسبات مماثلة في طفولته. لم يكن هنالك أحد في البهو. كان ديمون قد دخل من رواق آخر، ثم استقر في غرفة الموسيقى، المغمورة بأشعة الشمس. كان يمسح نظارته الأحادية بـ zamshinka خاصة (قطعة من الشاموا)، وكان ينتظر وصول أول كؤوس البراندي، ما قبل البراندي (نكتة قديمة). كان شعره مصبوغاً بالأسود الغامق، أما أسنانه فبيضاء كأسنان كلب صيد. بلمعة وجهه الأسمر الناعم، وشاربه الأسود المشذّب، وعينيه القاتمتين الرطبتين، نظر إلى ولده مبتهجاً، معبّراً عن حبه المشع، الذي استجاب له فان، والذي سعى كلاهما عبثاً لإخفائه تحت قناع المزاح المعتاد.

«Hullo يا أبي!»

«أوه! Hullo فان!»

أمريكي صرف. ها قد وصلنا إلى فناء مدرسة ريفرلاند. هناك

يصفق باب السيارة، هناك يعبر فوق الثلج. مرتدياً قفازاته دائماً، أما المعطف فأبداً. هل تريد الذهاب إلى الحمام، أيها الأب؟ إنه بلدي، إنها أرضي، أرضي الجميلة.

«أتريد الذهاب إلى الحمام؟»، سأل فان، بعينين تتقدان حبوراً.

«لا، لقد أخذت حمامي عند الصباح». تنهيدة سريعة تعترف بمرور الزمن: هو أيضاً يتذكر، كل التفاصيل التي حدثت خلال أعشية «الوالد وولده» في ريفرلاند: العرض المباشر والمهذب للذهاب إلى دورة المياه، مودة الأساتذة، الوجبة الشائنة، كرات اللحم بالقشدة، «فليحفظ الرب أمريكا»، الأبناء المحرجون، الآباء المبتذلون، البريطانيون ذوو الألقاب والنبلاء اليونانيون، يتفاخرون بمناقشة يخوتهم وعرباتهم وحفلات صيدهم، في الباهاموداس. «أتسمح لي يا بنيّ أن أنقل بسرية تامة، تلك التركيبة الجليدية الوردية الرائعة، من طبقي إلى طبقك؟»، «ألم يعجبك يا أبي!» (متظاهراً بإهانة فظيعة). فليحفظ الرب حليمات التذوق الأمريكية البائسة!

«إن الأصوات التي تصدرها سيارتك الجديدة لرائعة يا أبي»، قال فان.

«أليست رائعة؟ بلى»، قال فان مشيراً إلى الـ gornishon (لفظة عامية فرنسية - روسية، تُطلق كلقب خسيس على الخادمات الظريفات kameristochka).

«وكيف هي أمورك، يا فتاي العزيز؟ كانت آخر مرة رأيتك فيها حين عدت من تشوز. لقد هدرنا عمراً في الفراق. لسنا سوى دمىً

---

(١) gornishon: والأصل فيها يعود للكلمة الفرنسية cornishon ولها عدّة معان: ساذج/ مغفل/ مخلل الخيار. أما المقصود بها فهو الإشارة إلى الخادمة بلانش. (مترجم)

في يد القدر! فلنمضِ شهراً سويةً في لندن أو باريس قبل فصل مايكلماس (Michaelmas[١])!»

خلع ديمون نظارته ومسح عينيْه بمنديل دانتيل عصري، كان قد وضعه في عمق جيب سترة التوكسيدو. كانت إثارة غدده الدمعية سهلة ما لم يكن هنالك ألم حقيقي يجبره على إخفاء مشاعره.

«تبدو وكأنك تشبه شيطاناً أنيقاً يا أبي، وخاصة بتلك القرنفلة في عروة ياقتك. أفترض أنك مؤخراً لم تزر مانهاتن كثيراً - اشرح لي كيف اكتسبت مقطعها الصوتي الأخير[٢]؟»

التورية (صناعة منزلية) تمشي في عروق آل فيين.

«في الحقيقة، لقد منحت نفسي رحلة إلى أكابولكوفو»، أجاب ديمون، مستحضراً على مضض، ودونما سبب يدعو لذلك (مع هزة الرأس تلك التي تسببها صدمة الاستذكار الفوري للتفاصيل، الهزة التي أورثها أيضاً لذريته)، صورة سمكة في وعاء مخططة بالأبيض والبنفسجي، أريكة بتخطيط مماثل، أشعة شمس شبه استوائية تبرز العروق الصغيرة في منفضة سجائر منحوتة من العقيق اليمني، موضوعة فوق أرضية حجرية، مجموعة من مجلات Povesa (بلاي بوي) قديمة، ملطخة بعصير البرتقال، المجوهرات التي أحضرها، صوت أنثوي حالم منبعث من الفونوغراف في أغنية «زنجي صغير في

---

(١) فصل Michaelmas: هو أول مصطلح أكاديمي للعام الدراسي في عدد من الجامعات والمدارس الناطقة باللغة الإنجليزية في نصف الكرة الشمالي، وخاصة في المملكة المتحدة. التسمية مستمدة من عيد القديس مايكل وجميع الملائكة ، الواقع في ٢٩ سبتمبر، وتطلق على الفترة الممتدة بين أواخر سبتمبر وحتى عيد الميلاد. (مترجم)

(٢) المقطع الصوتي الأخير في كلمة مانهاتن: tan (السمرة أو الاسمرار). (مترجم)

حقل مزهر»، والبطن الفاتن للشابة الكريولية[1]، باهظة الثمن والخائنة، والتي كان كل ما فيها جدير بالعبادة.

«وهل كانت، ذات الاسم المجهول، قد ذهبتْ معك؟»

«أتعرف يا بني؟ إن تذكري للأسماء آخذ في التراجع عاماً بعد عام. فلنتحدث عن أمور أكثر بساطة! أين هو المشروب؟ لقد وعدوني بملاك عابر.»

(ملاك عابر؟)

سحب فان حبل جرس أخضر، ليرسل رسالة ملحنة إلى حجرة المؤونة، تسبب بنغمة مضادة تصدر عن فقاعات سمكة بلطية سجينة في حوض صغير قديم الطراز، مؤطر بالبرونز، ومركون في غرفة الموسيقى (ردة فعل غريبة ومخيفة، ربما كانت مجرد فعل تهوية ذاتية، وحده كيم بوهارنيه، فتى المطبخ، قادر على فهمها).

«هل كان من الأنسب إرجاء قرع الجرس إلى ما بعد العشاء؟»، تساءل ديمون. متى سيتم تقديمه؟ إنه ليس بتلك الأهمية كما أنه مضر بالقلب.

«لا أعرف إن كنت تعرف»، استأنف فان حديثه بعد جثومه فوق ذراع كرسي والده المريحة، «أن العم دان سيكون هنا مع المحامي ولوسيت بعد العشاء.»

«عظيم!»، أجاب ديمون.

«ستحضر كل من مارينا وآدا خلال دقائق، سيكون عشاء لأربعة أشخاص.»

«عظيم!»، كرّر، «تبدو رائعاً، يا فتاي العزيز، العزيز - ولست

---

(١) كريولية: يطلق مصطلح الكريول على الأطفال المولودين في المستعمرات من آباء أجانب. (مترجم)

مجبراً على الإطراء كما يفعل بعض من يتملقون رجلاً مسناً ذا شعر يلمع بصباغ الأحذية. سترة عشائك أنيقة جداً - أو، ربما يسر المرء أن يتعرف من جديد على لمسة خياطه القديم في ملابس ولده - كشكل من أشكال إحياء تقاليد الأجداد - على سبيل المثال، هذه الحركة (مدوّراً سبابته اليسرى ثلاث مرات على ارتفاع قمة رأسه) التي كانت أمي تعبّر بها عن استنكار سلمي؛ لقد فاتك هذا الجين، ولكني رأيته في المرآة عند حلاقي، عندما رفض وضع كريميلين على البقعة الصلعاء في رأسي؛ أتعرف من يحملها أيضاً؟ - عمتي كيتي، التي تزوجت من المصرفي بولنسكي، بعد طلاقها من القواد العجوز المقرف، ليوفكا تولستوي، الكاتب.»

كان ديمون يفضل والتر سكوت على ديكنز، ولم يقدّر عالياً الكتّاب الروس. وكالعادة، اعتقد فان أنه من المناسب أن يعلّق مصححاً:

«كاتب فني خيالي، يا أبي».

«أنت من هو ساحر على نحو خيالي»، قال ديمون، ذارفاً دمعة عذبة أخرى. ضغط كف فان الرشيقة والقوية فوق خده. قبّل فان قبضة والده الشعرانية، التي كانت قد أطبقتْ على كأس خمر غير مرئي. على الرغم من البصمة الفحولية المتوارثة من أجدادهم الإيرلنديين، إلا أن رجال آل فيين، الذين حملوا دماً روسياً، كانوا أقدر على الكشف عن مشاعرهم بطقوس من الفيضان العاطفي، أكثر منه بالتعبير اللفظي، الذي لم يكونوا كفؤاً له.

«ولكن!»، صاح ديمون، «ما الذي يجري هنا؟ إن قسوة عظام كفك أشبه بكف نجار! أرني يدك الأخرى! يا للسماء! (متمتماً:) حدبة فينوس مشوهة، خط الحياة طويل رغم الندبة التي تقطعه. . .، (مقلّداً ترتيل الغجر:) ستعيش إلى أن تبلغ تيرا، لتعود رجلاً أكثر

حكمة وحبوراً، (عاد إلى صوته الطبيعي:) ما يحيّر في قراءة كفك، هو تلك الغرابة في خط 'الأخت في الحياة'، وتلك الخشونة التي تمتلكها!»

«ماسكوداغاما»، همس فان، رافعاً حاجبيْه.

«أوه، طبعاً! يا لفظاظتي! أخبرني الآن! هل أحببت عزبة آرديس؟»

«لا بل عشقتها»، أجاب. «إنها بالنسبة لي قلعة تستحم في بحيرة لادور، كم أودّ، من كل قلبي، لو أقضي بقية حياتي المخيفة والغريبة هنا. ولكن هذا مجرد خيال لا أمل في تحقيقه.»

«لا أمل! ولكن اسمع! أعرف أن دان كان يرغب في ترك آرديس للوسيل، ولكنه رجل جشع، ومن ناحية أخرى، فإن أعمالي تزدهر على نحو قادر على إرضاء أي جشع مهما عظم. عندما كنت في عمرك، ظننت أن أجمل الكلمات هي تلك المقفّاة مع كلمة 'بليار'، واليوم ثبتت صحة نظريتي. إن كنت حقاً، ابناً، حريصاً على اقتناء هذه الملكية، فقد أحاول شراءها لك. يمكنني ممارسة ضغط معيّن على مارينا. إنها تطلق التنهيدات، كسجادة صلاة، عندما تجلس فوقها، إن جاز التعبير. اللعنة! إن الخدم هنا ليسوا زئبقيين[1]! اسحب هذا الحبل مجدّداً! أجل! ربما يمكننا حمل دان على البيع.»

«يا لك من «أسود» يا أبي»، قال فان سعيداً، مستخدماً عبارة عامية كان قد تعلمها من حاضنته روبي، الشابة الرقيقة، التي وُلدت في منطقة المسيسيبي، حيث كان القضاة، المحسنون الشعبيون، كبار الكهنة، وأولئك الذين يندرجون تحت مسمى ملّة، وغيرهم من شرفاء

---

(١) خدم زئبقيون: Mercuries، إشارة إلى رواية المنزل الكئيب لتشارلز ديكنز، والتي كان فيها خدم آل ديدلوك ملقبين بـ Mercuries. (مترجم)

الرجال المعطاءين، كانوا جميعاً يتمتعون بتلك البشرة السوداء الداكنة، التي ورثوها عن أسلافهم في غرب أفريقيا، أوائل الملاحين الذين وصلوا خليج المكسيك.

«من يدري!»، قال ديمون متأملاً، «قد تكلفني بالكاد مليونيْن، إذا ما اقتطعنا ما يدين لي به ابن العم دان، ومراعي لادور التي تحولت إلى مستنقعات، والتي يجب التخلص منها تدريجياً، إن لم يفجّر السكان المحليون مصفاة الكيروسين الحديثة، عار قريتنا (stïd i sram). لست مولعاً بآرديس على نحو خاص، ومع ذلك ليس لدي أي شيء ضدها، رغم أني أكره الضواحي. لقد أصبحت بلدة لادور شعبية ومبتذلة (honky-tonky[1])، ولم يعد القمار كما السابق. صار زوارها غريبين، قادمين من كل أنحاء الجوار. لقد أصبح اللورد إرمينين المسكين مجنوناً عملياً. ذات مرة، وخلال فترة السباقات، تحدثت إلى امرأة، كانت إحدى طرائدي عدة سنوات خلتْ[2]، قبل أن يخدع موسى دو فيير زوجها، في غيابي، وبعد أن أرداه قتيلاً في حضوري - إنها قصة تحمل عبرة ساخرة، لا بدّ أنك سمعتها قبلاً، من شفاهي هذه ــــ»

(سيكون ما يلي عبارة عن «ما لا ينفك الآباء عن تكراره»).

«ــــ ولكن على الابن الصالح أن يتحمل قليلاً ما لا يتوقف الآباء عن تكراره - حسناً، لقد أخبرتني أن ابنها وآدا يلتقيان كثيراً، وما إلى ذلك. أهذا صحيح؟»

---

(١) honky-tonk: صنف من الحانات يعرض موسيقى الريف. وهذا النوع من الحانات شائع في مناطق جنوب وجنوب غربي الولايات المتحدة، حيث تزداد شعبية موسيقى الريف. (مترجم)

(٢) كانت إحدى طرائدي عدة سنوات خلتْ: تلميح إلى الكونتيسة «دي براي» (prey: طريدة) المذكورة في الفصل الرابع عشر. (مترجم)

«ليس حقاً»، أجاب فان. «إنهما يلتقيان بين الحين والآخر - في الحفلات المعتادة. كلاهما يهوى الأحصنة، والسباقات، وهذا كل شيء. ليس هناك 'ما إلى ذلك'، هذا غير وارد بالمطلق».

«جيد! آه، صوت خطى رزينة تقترب، ها أنا أسمعها. تحمل براسكوفي دو براي أسوأ عيوب المتكبرين، ألا وهو المبالغة. مساء الخير يا بوتيبان. تبدو أحمر الوجه كنبيذك المحلي، ولكننا، كما يقول اليانكيون، لن نعود شباباً كما كنا، وقد قاطع طريق مبعوثتي الجميلة والصغيرة، عاشقٌ يفوقني شباباً وحظاً.»

«Proshu, papochka (أرجوك يا والدي)» تمتم فان، الذي لطالما خاف من أن يهين والدُه خادماً، بنكاته المبهمة - بينما كان هو ذاته يذنب بحقهم أحياناً، حين يفرط في فظاظته. ولكن - لاستخدام صيغة روائية موقرة - كان الرجل الفرنسي العجوز يعرف سيده جيداً، وما كانت فكاهته النبيلة لتزعجه. كان لا يزال يستشعر وخزاً في كفه، جراء صفعه لمؤخرة بلانش، المكتنزة والشابة، عقوبة على تأخرها في تلبية طلب السيد فيين البسيط، وكسرها لإناء الزهور. بعد أن وضع الصينية فوق طاولة منخفضة ثم تراجع بضع خطوات، بقيت أصابعه متقوسة بوضعية حمل الصينية، وعندئذ فقط، رحب بديمون، مع انحناءة حنونة. «هل ما زالت صحة السيد جيدة؟» أجل. جيدة بالفعل.

«كنت حقاً أرغب لعشائي في زجاجة من نبيذك château-latour-d'estoc»، قال ديمون؛ ألقى كبير الخدم تحية أخرى ثم انسحب من الغرفة، ملتقطاً في طريقه منديلاً مجعّداً منسياً فوق البيانو.

«أتتفق جيداً مع آدا؟ كم عمرها الآن؟ ستة عشر ربما؟ أهي رومانسية وتحب الموسيقى؟»

«نحن صديقان مقرّبان»، قال فان (الذي أعدّ الإجابة بعناية عن

سؤال كان يتوقع طرحه بشكل أو بآخر). «بيننا بالفعل كثير من الاهتمامات المشتركة، أكثر مما بين، على سبيل المثال، عاشقيْن عاديين، أو أبناء عمومة، أو حتى أشقاء. أعني، نحنا حقاً لا ننفصل أبداً. أنا كثير المطالعة، وهي قد ثقّفت نفسها على نحو مذهل، بفضل مكتبة جدها. إنها تعرف جميع أسماء الزهور والعصافير المحيطة بالجوار. إنها فتاة مسلية للغاية.»

«فان...»، بدأ ديمون ثم توقف - كما كان يبدأ ثم يتوقف في العديد من المرات، خلال السنوات الأخيرة. يوماً ما، عليه أن يقول ما يجب قوله، ولكن هذه ليست باللحظة المناسبة. وضع نظارته الأحادية وبدأ باختبار القوارير. «بالمناسبة يا بني، أترغب في تلك المشهيات؟ كان والدي يسمح لي بـ Lilletovka و Illinois Brat - نبيذ شنيع، antranou svadi[1]، كما كانت مارينا لتقول. أعتقد أن لدى عمك مخبأ سرياً وراء كتبه المزيفة في مكتبه، حيث يخفي ويسكي فاخراً، أثمن من usque ad Russkum هذا. حسناً، فلنحصل على الكونياك! كما هم مخطط. إلا إن كنت ابن الماء[2].»

(تلاعب لفظي لم يكن مقصوداً، ولكن الحماس يوقعنا أحياناً في الخطأ).

«أوه، أفضل النبيذ الأحمر. سأركز على الـ latour لاحقاً. تأكد من أنني لست بمن ينهون أنفسهم عن الشرب، كما أنه لا يُنصح بشرب ماء آرديس.»

---

(١) antranou svadi: بالفرنسية: entre nous soit dit أي فليكن الأمر سراً بيني وبينك. (مترجم)

(٢) ابن الماء: ويقصد بها الجين. العبارة وردت في النص الإنكليزي على الشكل الآتي: filius aquae، ما يحمل تلميحاً إلى آكوا التي يفترض أنها والدة فان، ولكنها لم تكن كذلك. (مترجم)

«يجب أن أحذّر مارينا»، قال ديمون بعد أن شطف لثته ببلعة بطيئة من الشراب، «عليها منع زوجها من إفراطه في تناول الجين، وإلزامه بشراء أنبذة كاليفورنية - خاصة بعدما أصيب بجلطة صغيرة. لقد التقيته في البلدة مؤخراً، قرب ماد آفينيو، ورأيته يمشي نحوي بشكل طبيعي، ولكنه ما إن لمحني، على بعد مبنى، بدأ زنبركه بالتباطؤ ثم توقف - يا للأسف! - قبل أن يصل إليّ. أمور كتلك تحدث. 'فلنأمل أن لا تلتقي عشيقاتنا'، كما اعتدنا أن نقول، في تشوز. وحدهم اليوكانيون من يعتقدون أن الكونياك مضر بالكبد، لأنهم لا يملكون سوى الفودكا. جسناً، يروق لي طيب علاقتك مع آدا. أمر حسن. منذ قليل، عندما كنت في مركن السيارات، واجهت خادمة جميلة بشكل لافت. لم ترفع رموشها أبداً، كما أنها أجابتني بالفرنسية عندما - أرجوك يا بني، اسحب تلك الستارة قليلاً، أجل، هكذا جيد، إن طعنة الغروب، وخاصة ما بعد عاصفة رعدية، لا تناسب عينيَّ المسكينتيْن. ولا حتى بطيْن قلبي المسكين. أيعجبك مثل نمطها يا فان؟ - الرأس المنحني الصغير، العنق العاري، الكعب العالي، الغندرة، التمايل، أتعجبك؟ لا؟»

«في الحقيقة يا سيدي ـــــ»

(أأخبره أنني أصغر مرتادي فيلا فينوس؟ تراه هل كان يرتادها بدوره؟ أألمّح؟ من الأفضل أن لا أفعل. سأخترع رداً)

«ـــــ أنا الآن في فترة نقاهة بعد علاقة ساخنة في لندن، جمعتني مع شريكتي في رقص التانغو، التي رأيتها معي عندما جئت لحضور عرضي الأخير - أتذكر؟»

«أذكرها بالفعل. كم أنني فضولي! هذا ما تقوله في سريرتك.»

«أعتقد أنك شربت ما يكفي من البراندي.»

«بالتأكيد، بالتأكيد»، قال ديمون متصارعاً مع سؤال حساس لم يجرؤ على طرحه، حول مارينا ما إذا كانت - بحماقتها - قد سمحت لحقيقة الرابطة التي تجمع آدا وفان بالخروج من رأسها المزدحم، وافترضَ أنها إن فعلتْ فسيدّعي أنها إحدى مسرحياتها الفاشلة؛ فالحماقة غالباً ما تكون مرتبطة بالشهرة، ولا شيء أكثر ملاءة من رأس مثقوب. «بطبيعة الحال»، تابع ديمون، «هنالك صفقة ستعقد من أجل قضاء صيف هادئ في هذا الريف. . .»

«حياة الهواء الطلق، وما إلى ذلك»، قال فان.

«إنه لأمر لا يُصدق، أن يتحكم فتى في كمية شرب أبيه»، قال ديمون بينما راح يصب الكأس الرابعة. «ومن ناحية أخرى»، تابع، مداعباً الحرف الذهبي في أعلى الكأس الرقيقة، «الحياة في الهواء الطلق قد تبدو مملة إن لم تتخللها مغامرة عاطفية صيفية، وليس هناك الكثير من الزائرات اللائقات لهذا الحي، كما أعرف تماماً. كانت هنالك تلك الفتاة من آل إرمينين، يهودية صغيرة أرستقراطية جداً، ولكن وصلني أنها مرتبطة. بالمناسبة، لقد أخبرتني تلك المرأة، دو براي، أن ابنها سيلتحق بالتجنيد، وسيشارك عما قريب في تلك الأعمال المؤسفة التي تجري في الخارج، والتي كان على بلادنا تجاهلها. تراه سيخلّف منافسين وراءه؟»

«لا! يا إلهي!» أجاب فان الصادق، «إن آدا شابة جدية جداً. ليس لديها رفاق شباب، ما عداي. أمر محسوم . ذكرني يا أبي! من، من هو الذي قال 'أمر محسوم'؟»

«إنه كينغ وينغ، عندما سألته ما إذا كان يحب زوجته الفرنسية. إنها لأخبار جيدة عن آدا. أخبرتني أنها تحب الأحصنة، صحيح؟»

«إنها تحب»، أجاب فان، « كل ما تحبه الشابات الجميلات،

مثل - الطابات[1]، الأوركيد، وبساتين الكرز.»

وها هي آدا تدخل غرفة الموسيقى. أجل، أجل، أجل. لقد وصلتُ، بكامل تألقي.

رفع ديمون العجوز جناحيه الملونين بألوان قوس قزح، ارتفع قليلاً عن مقعده ثم عاد ليغرق فيه، حضن آدا بذراع واحدة، ممسكاً كأسه باليد الثانية، قبّل الفتاة فوق عنقها، فوق شعرها، غارقاً في حلاوتها، مانحاً من الحماسة والحنان ما لا يمنحه عم.

«Gosh يا إلهي»، هتفتْ باندفاع (بلهجة عامية مكتسبة منذ أيام حضانتها، أذابت بها قلب فان أكثر مما فعلت بوالده). «كم جميل أن أراك، تشق طريقك بين الغيوم، وتنقضّ على قلعة تمارا!»

(اقتباس من قصيدة ليرمانتوف، أعاد صياغتها لاودن).

«آخر مرة استمتعت برؤيتك»، قال ديمون،« كانت في أبريل، يوم كنت ترتدين معطفاً مطرياً ووشاحاً باللونيْن الأبيض والأسود، قد فاحتْ منه رائحة مواد زرنيخية، بعد زيارتك لطبيب أسنانك. ربما يسرك أن تعرفي أن الطبيب بيرلمان قد تزوج من موظفة الاستقبال. والآن هيا إلى أشغالنا، يا حبيبتي. موافق على ما ترتدينه (ثوب أسود ضيق بلا أكمام)، وسأتغاضى عن تسريحة شعرك الرومانسية، أفضل أن تكوني حافية القدمين على انتعالك لهذا الحذاء، أما عطرك Beau Masque - فلا بأس به، ولكن، يا غاليتي، أنا أمقت وأرفض أحمر شفاهك الشاحب هذا. ربما كان رائجاً في لادور القديمة. ولكن ليس في مانهاتن أو لندن.»

«Ladno (حسناً)»، قالت آدا كاشفة عن أسنانها الكبيرة، ثم أخرجت منديلاً صغيراً من بين نهديها، ومسحت به شفتيها بقوة.

---

(١) الطابات: balls بالنص الإنكليزي الأصلي، وتحمل تلميحاً جنسياً إلى الخصيتيْن. (مترجم)

«هذا أيضاً سلوك ريفي. عليك أن تحملي محفظة حريرية سوداء. والآن! سأريك كم أنني عرّاف ماهر: أنت تحلمين بأن تكوني عازفة بيانو!»

«أنت مخطئ»، قال فان ساخطاً. «يا للهراء المثالي! حتى أنها لا تجيد عزف نوطة واحدة!»

«حسناً، لا يهم!»، قال ديمون. الملاحظة ليست دائماً أماً لاستنتاج صحيح. بكل الأحوال، ليس معيباً أنني انتبهت لمنديل ملقى فوق بيشستاين (Bechstein[1]). لا عليك يا حبيبتي، لا داعي لاحمرارك خجلاً لهذه الدرجة. دعوني أقتبس، كفاصل هزلي:

«عندما ذهب خطيبها إلى الحرب
حزنتْ إيرين دو غرانديف
الفتاة النبيلة المسكينة
أغلقت البيانو
وباعت الفيل»[2]

«النبيلة للكاتب أما الفيل فهو لي.»

«لا تقل هذا»، قالت آدا ضاحكة.

«إن كوبيه العظيم شاعر شنيع طبعاً»، قال فان، «ولكن له قصيدة ساحرة جداً، حاولت آدا، النبيلة غرانديف هنا، تحويلها إلى الإنكليزية عدّة مرات، وكانت ترجمة مقبولة إلى حدّ ما.»

---

(١) Bechstein: كارل بيشستاين (١٨٢٦-١٩٠٠)، أشهر صانع بيانوهات في ألمانيا. (مترجم)

(٢) عندما ذهب خطيبها إلى الحرب: إشارة إلى قصيدة «اليقظة» (La Veillée) للشاعر والروائي الفرنسي فرنسوا كوبيه. (مترجم)

«أو فان!»، هتفتْ آدا بنبرة غير اعتيادية، ملتقطة حفنة من اللوز المملّح.

«هيا! فلنسمعها»، صاح ديمون، منتزعاً حبة من كفها المفتوحة.

التبادل النقي للمشاعر المتناغمة، الابتهاج الواضح لأسرة مجتمعة، خيوط الدمى التي لا تتشابك أبداً - أمور يسهل وصفها ويصعب تخيلها.

«وحدهم الفنانون العظماء، وغير البشريين، قادرون على محاكاة الأساليب الروائية القديمة». قال فان. «ولكنه مسموح لأفراد العوائل المقربين فقط، أن يعيدوا فيما بينهم إعادة صياغة القصائد الشهيرة. دعوني أقدّم لجهد ابنة عمي - أو اي ابن عم آخر - باقتباس لبوشكين، حباً بالقوافي ـــ»

«حباً بتسميم القوافي! هتفت آدا. إن إعادة الصياغة، حتى وإن كنت أنا من قام بها، لا تشبه إلا الأفعى التي تلتف حول كأس الدواء. إنها بقايا عشبة زراوند، رقيقة وصغيرة.»

«وهذا كافٍ»، قال ديمون، «لاحتياجاتي البسيطة واحتياجات أصدقائي البسطاء.»

«حسناً!»، تابع فان (متجاهلاً ما رأى فيه تشبيهاً غير لائق، باعتبار أن سكان لادور القدماء كان يعرفون عن تلك العشبة المشؤومة قدرتها على تسهيل الولادات، أكثر مما يعرفونه عن قدرتها على شفاء لدغات الزواحف السامة؛ ولكن ذلك لم يكن مهماً).

«إليكم القصيدة! في الواقع، لقد احتفظت بها بالصدفة. ها هي! سأبدأ: من يراقب سقوطهما البطيء والـ . . .»

«أوه! أعرفها!» قاطعه ديمون:

من يراقب سقوطهما البطيء
سيعرفهما من نظرة

السنديانة بأوراقها النحاسيّة
والقيقب بأوراق بلون الدم
«إنه لعمل عظيم.»

«نعم. هذا ما كتبه كوبيه. والآن إليك ما كتبته ابنة العم»، قال فان، ثم بدأ:

«سقطتا بلطف. ومن ينظر إليهم سراً
يمكن لنظراته أن تتبعهما حتى الأرض
فيعرفهما
السنديانة بأوراقها النحاسية
والقيقب بلون الدم في أوراقه»

«ترجمة بشعة»، قالت آدا.

«على الإطلاق!»، صاح ديمون، «استعارتك لـ'مسترق النظر' رائعة يا فتاة». شدها نحوه، أجلسها فوق ذراع مقعده، ومن خلال خصلات شعرها الأسود، ألصق شفتيْه السميكتين الرطبتين بأذنها المتوهجة الحارة. اعترتْ فان رعشة من البهجة.

حان دور مارينا في الدخول، وهذا ما فعلته في لحظة chiaroscuro[1] ممتازة، مرتدية ثوباً مطرّزاً لتحويل الأنظار عن وجهها، كما تفعل كل النجمات الناضجات. مدّت ذراعيها لمعانقة ضيفها، يتبعها خادم، جونز، يحمل مشعليْن على شكل تنين ملتف، محاولاً ضبط نفسه ضمن حدود اللباقة، بعدما اضطر لركل الكلب البني المهتاج، الذي اعترض طريقه في الظلال.

---

(١) Chiaroscuro: أو الجلاء والقتمة (كياروسكورو) وهو مصطلح فني إيطالي يشير إلى التدرج ما بين العتمة والضوء. (مترجم)

«مارينا!» هتف ديمون بفتور، وربّت فوق يدها عندما جلست إلى جانبه فوق أريكة ثنائية.

بلهاث إيقاعي، وضع جونز مشعلاً فوق الطاولة الجانبية حيث وُضعت زجاجات المشروب البراقة، وكان على وشك أن ينقل الثاني إلى البقعة حيث كان ديمون ومارينا يستعدان لمحادثة تمهيدية، ولكن مارينا أشارت سريعاً إلى القاعدة القريبة من حوض السمكة المخططة. بمزيد من اللهاث، فتح الستائر، لا لشيء وإنما لرؤية بقايا النهار الخلابة. كان جونز خادماً جديداً، ذا كفاءة عالية، رصيناً وبطيئاً، وكان على سكان آرديس أن يعتادوا تدريجياً على إيقاعه ولهاثه. بعد عدّة سنوات، أسدى إليَّ خدمة لن أنساها في حياتي.

«إنها شابة ذات جمال أبيض قاتل، جمال قاهر للقلوب»، أفضى ديمون بذلك إلى عشيقته السابقة، دون أن يقلق ما إذا كان أحد آخر قد سمع مديحه (هي قد فعلتْ) من الطرف الآخر للغرفة، حيث كانت تساعد فان بربط الكلب إلى الزاوية - كاشفة في سبيل ذلك عن ساقيها أكثر فأكثر. كان صديقنا القديم قد دخل الصالة راكضاً وراء مارينا، قابضاً على خفّ فراء قديم بفمه المرح. كان الخف يخص بلانش، التي طُلب منها جرّ داك إلى غرفتها، ولكنها، كالعادة، لم تحسن حجزه. أحس الطفلان بقشعريرة الـ déjà-vu[1] (déjà-vu مضاعف في الحقيقة، إن نظرنا في الماضي من الناحية الفنية).

«Pozhalsta bez glupostey (أرجوك، توقف عن السخافات)، وخاصة أمام الناس»، قالت مارينا التي أغدق عليها ديمون بإطراءات لا تنتهي (لافظة حرف السين بطريقة جداتها)؛ وعندما ابتعد جونز

(١) déjà-vu: مصطلح يعبر عن وهم الرؤية المسبقة. (مترجم)

البطيء، والذي له فم سمكة، حاملاً بعيداً داك المنبطح مع لعبته البائسة، أكملتْ:

«حقيقيةً، مقارنة مع الفتيات المحليات، مع غرايس إرمينين على سبيل المثال، أو كوردولا دو براي، فإن آدا هي واحدة من عذراوات تورغينيف، أو حتى آنسات جين أوستين.»

«إنني فاني برايس[١]، في الواقع»، علّقتْ آدا.

«في مشهد الدرج»، أضاف فان.

«لا تشغل بالك بنكاتهما الخاصة»، قالت مارينا لديمون. «لا أستطيع أبداً فهم ألعابهما وأسرارهما. بكل الأحوال، كتبت مؤخراً الآنسة لاريفيير نصّاً رائعاً عن أطفال غامضين يقومون بأمور غريبة في المتنزهات القديمة - لكن أرجوك لا تسمح لها باستعراض نجاحاتها الأدبية الليلة، وإلا سيكون ذلك خطأ قاتلاً.»

«آمل أن لا يتأخر زوجك»، قال ديمون. «فهو لا يكون بأفضل حالاته بعد الثامنة مساءً، وخاصة في الصيف، أنت تعرفين. بالمناسبة، كيف حال لوسيت؟»

في تلك اللحظة دفع بوتييان بمصراعَي الباب، ليفتحه بأسلوبه المهيب الخاص، فقدّم ديمون ذراعه المتقوسة kala-chikom (على شكل هلال روسي) لمارينا. أما فان الذي كان في حضور والده ميالاً إلى المزاح المزعج إلى حدّ ما، فعرض على آدا مرافقتها، ولكنها صفعت معصمه وأبعدت يده بلؤم أخوي، ما كانت فاني برايس لتتصرف بمثله.

قام برايس آخر، وهو خادم نموذجي، نموذجي جداً (قد أطلق عليه كل من مارينا و غ. أي. فرونسكي خلال قصة حبهما القصيرة،

---

(١) فاني برايس: بطلة رواية مانسفيلد بارك لجين أوستين.

ولأسباب غير معروفة، لقب «غريب Grib»)، بوضع منفضة سجائر من العقيق اليمني على رأس الطاولة، من أجل ديمون، الذي كان يحب أن يدخن في فترات الاستراحة خلال تناول الطعام - عادة أسلافه الروس. فوق طاولة جانبية، وعلى الطريقة الروسية أيضاً، وضعت تشكيلة كاملة من المقبلات الحمراء، السوداء، الرمادية والبيج، مع الكافيار والمحار، في طبق واحد، تفصل بينهما العصارة الفاخرة البيضاء لفطر البولطيس المحفوظ، بينما، وفي تشكيلة أخرى، يتنافس اللون الوردي في طبق السلمون المدخّن، مع نظيره في طبق لحم الخنزير الوستفالي[1]. توهجت زجاجات الفودكا بنكهاتها المختلفة فوق صينية منفصلة. بطبق الـ chaudfroid، وفطائر الإوز، ساهم المطبخ الفرنسي في ذلك العشاء. كان هنالك نافذة مفتوحة، وكانت هسهسة صراصير الليل المشؤومة تتعالى بين أوراق الشجر السوداء الساكنة.

لقد كان - لاستكمال البنية الروائية - عشاءً طويلاً، مبهجاً ولذيذاً، وعلى الرغم من أن الحديث الجاري كان قائماً على دعابات العائلة الساخرة، والتفاهات البارعة، إلا أن ذلك العشاء كان ليبقى معلقاً في ذاكرة كل من كان حاضراً كحدث جليل على نحو غريب، وليس كتجربة سارة تماماً. صورة لذكرى يثمّنها أحدنا، كالواقع في حب لوحة في معرض، أو كمن يتذكر أسلوب حلم رآه، تفاصيل حلم رآه، معنى الثراء التعبيري للون والخط، ولكن برؤية أخرى خالية من أي معنى. لا بدّ أن جميع الحاضرين قد لاحظوا، وليس فقط القرّاء، وليس فقط بوتيبان (الذي تعثّر، للأسف، محطّماً زجاجة نبيذ فاخرة) أن كلاً منهم لم يكن في أفضل حالاته خلال ذلك

(١) وستفاليا: مقاطعة ألمانية سابقة.

الاحتفال الاستثنائي. مسحة الهزل والزيف التي تخلّلته، كانت لتمنع ملاكاً - إن كانت الملائكة تزور آرديس - من أن يكون بكامل ارتياحه؛ ومع ذلك، كان عرضاً رائعاً، لا يرغب فنانٌ في أن يفوته.

بياض مفرش الطاولة ولهب الشموع، قد جذبا عثّات خجولة وطائشة، قد حاولت آدا، بوجود الشبح[1] الذي كان يشير إليها لتراقبها، أن تتعرف على فصائل «صديقاتها القدامى المرفرفات»، ولكنها لم تفلح. حشرات متطفلة وشاحبة، لا يعنيها سوى رفرفة أجنحتها الهشّة فوق الأسطح اللامعة؛ حشرات أرستقراطية بملابس من الفرو ترتطم بالأسقف، محركات لا تهدأ ذات مجسات زغبية، إنها عثات أبو الهول، مفسدة الحفلات، ببطونها المخططة بالأحمر والأسود، بصمتها أو بأزيزها، قد أشرعت أجنحتها وسمحت للريح أن تحملها من رطوبة الليل الحار المظلم، إلى صالة العشاء المنيرة.

دعونا لا ننسى كم كانت حارة، رطبة ومظلمة، ليلة النصف من يوليو تلك في آرديس، في مقاطعة لادور! دعونا لا ننسى أبداً أفراد العائلة الأربعة الذين جلسوا إلى طاولة عشاء بيضاوية، يلمع فوقها الكريستال وتزينها الزهور - ليس كمشهد في مسرحية، كما كانت لتبدو - لا بل بدتْ كذلك حقاً - لناظر (يحمل آلة تصوير أو ما شابه) يقف فوق رقعة مخملية وسط الحديقة. ستة عشر عاماً قد مرّت على انقضاء علاقة ديمون بمارينا، التي دامت لثلاث سنوات. أما فترات انفصالهما (على اختلاف طول مددها) التي تخللت مغامرتهما - هجر لشهرين في ربيع ١٨٧٠، وآخر لأربعة أشهر تقريباً، في منتصف ١٨٧١ - فلم تكن حينذاك، إلا لتزيد من رقة حبهما وعذابه. ملامح

---

(١) الشبح: شبح الدكتور كروليك (أستاذ آدا في علوم النباتات والعثّات) الذي كان قد توفي بسكتة قلبية. (مترجم)

وجهها الخشنة والفريدة، رداؤها، ذلك الثوب المطرّز، الشبكة اللماعة فوق عقصة شعرها المصبوغ بالأشقر المائل إلى لون الفراولة، صدرها الذي دبغته الشمس، زينة وجهها الميلودرامية، بكثير من ألوان البني المحمر والمصفر، كل ذلك، لم يذكّر الرجل الذي أحبها كما لم يحب أية امرأة غازلها في حياته، بأيّ من حيويتها، تألقها، أو حتى القليل من سحر جمال مارينا دورمانوف الغنائي. لقد آلمه ذلك الانهيار الكامل للماضي، الذي سقط فبعثر كل شيء، الذكريات، الأروقة، الموسيقى؛ آلمته تلك الاستحالة المنطقية لربط واقع الحاضر الملتبس بواقع، منزّه عن الشك، لذكرى عناق واحد. حتى المقبلات فوق الطاولة الجانبية، وغرفة الطعام بسقفها المطلي في عزبة آرديس، لم تذكّره بأعشيتهما الحميمة القديمة، رغم أن العشاء قد بدأ - وحده الله يعلم - بثلاثي المقبلات الرئيسية كما الماضي: مخلل حبات الفطر الصغيرة مع مظلاتها الثخينة الصفراء اللامعة، خرزات الكافيار الرمادية الطازجة، وكبد الأوز بصلصة الكمأة البريغوردية(١). ازدرد ديمون كسرة أخيرة من الخبز الأسود مع قطعة سلمون لدنة، تمزّز بآخر بلعة فودكا، وأخذ مكانه إلى رأس الطاولة مواجهاً لمارينا، وبينهما سلطانية برونزية كبيرة، تملأها منحوتات تفاح كالفيل Calville الفرنسي، وعناقيد عنب بحبات بيضاوية. كان جهازه القوي قد امتصّ الكحول بالفعل، مساعداً، كالعادة، في إعادة فتح ما كان يطلق عليه مصطلح «الأبواب المحظورة». عندما تثاءب لاشعورياً، كما يفعل كل الرجال حين يفردون منديلاً، تأمل تسريحة مارينا الفخمة «نجمة السماء»، وحاول أن يدرك (بالمعنى الكامل والنادر للكلمة) حاول أن يسيطر على

(١) بيريغورد: مقاطعة فرنسية سابقاً. (مترجم)

حقيقة الواقع من خلال إجباره على الوصول إلى المركز الحسيّ، وإقناع ذاته بأنه كانت هنالك امرأة قد أحبّها بجنون، عشقته بشكل هيستيري ومتقلّب، أصرّت على أن تمارس معه الحب فوق البسط والوسائد المرمية فوق الأرض (كما يفعل الناس المحترمون في وادي دجلة والفرات)، انزلقت بجنون فوق المنحدرات بمزلاج ثنائي بعد أسبوعيْن من الولادة، أو حملها قطار الشرق السريع، مع خمس حقائب، جدّ داك، وخادمة، إلى مشفى الطبيب ستيلا أوسبينكو، حيث كان يتعافى من خدش أصابه أثناء مبارزة بالسيوف (وبقي مرئياً كندبة بيضاء تحت ضلعه الثامن، بعد مرور ما يقارب سبعين عاماً). ما أغرب أننا حين نلتقي، بعد فترة انفصال طويلة، بصديق حميم أو عمة سمينة كنا مولعين بهما في طفولتنا، فإن دفء الصداقة الإنساني يعود إلى واجهة مشاعرنا دفعة واحدة، ولكن مع عشيقة قديمة، فإن ذلك لا يحصل أبداً - بدا أن الجزء البشري من عاطفته الإنسانية، قد جُرف بعيداً مع غبار الشغف اللاإنساني، أثناء عملية هدم شاملة. نظر إلى وجهها، مُثنياً على الحساء. ولكنها، تلك المرأة - غليظة البنية، طيبة القلب، بلا شك، المضطربة ذات الوجه الفظ، الذي لمع كالزجاج وخاصة فوق الأنف والجبهة وقد مسحته بنوع من أنواع الزيت البنيّ معتبرة أنه أقدر من المسحوق على منحها لمحة شبابية - كانت عنه غريبة أكثر مما كان بوتييان ذاته، الذي حملها بين ذراعيْه، حين ادّعت الإغماء بعد أداء آخر مشهد، آخر مشاهد أمسية زفافها، ووضعها في سيارة أجرة، ذاهباً بها خارج فيلا لادور.

مارينا، التي هي في الأساس دمية بقناع بشري، لم تختبر يوماً تبكيت ضمير أو قلقاً من هذا النوع، تفتقر، كما افتقرت هي، إلى بعد البصيرة (المخيلة الفردية، السحرية والمفصّلة) التي يمتلكها العديد من الأشخاص العاديين والأكثر اتزاناً، والتي من دونها تكون ذواكرنا

(حتى تلك الخاصة بمفكر عميق أو تقني أو عبقري) - ولنواجه حقيقة الأمر - مجرد منديل نَمَطي لمسح الدموع. نحن لا نرغب في أن نكون قساة على مارينا؛ ففي النهاية، فإن دمها يجري في عروق معصمينا ورأسينا، كما أن كثير من أسباب الشقيقة التي نعاني منها تعود لها وليس له. ومع ذلك لا يمكن التغاضي عن فظاظة روحها. الرجل الجالس عند رأس الطاولة، وقد انضمّ إليها مع زوج من الشباب المبتهجين، الممثل الشاب (في فيلم تعبيري) إلى يمينه، والشابة الساذجة إلى يساره، لم يختلف بأية حال عن ديمون ذاته، وبالبدلة السوداء ذاتها (ولكن ربما من دون تلك القرنفلة التي يبدو واضحاً أنه قد انتشلها من إناء للزهور، كانت بلانش قد أُمرت بقطفها من الحديقة) الذي جلس إلى جانبها في آخر أمسية عيد ميلاد، قضياها في براسلين[1]. تلك الروعة الرهيبة للحياة مع الفوضى الشاذة لخلل جيولوجي، تلك الهوة المسببة للدوار التي كان يشعر بوجودها كلما رآها، لم يكن عبورها ممكناً فوق جسر لم يكن بالنسبة لها سوى خطّاً منقّطاً من اللقاءات الرتيبة: ديمون، «المسكين العجوز» (كل شركاء فراشها قد تقاعدوا بهذا اللقب) قد ظهر أمامها كشبح مسالم، في ردهات المسارح، «بين المرآة والمروحة»، أو في غرف الرسم عند أصدقاء مشتركين، أو ذات مرة في لينكولن بارك، مشيراً بعصاه إلى قرد ذي مؤخرة نيلية اللون، متجاهلاً إلقاء التحية عليها، حسب قواعد «الأوساط الراقية»، لأنه كان برفقة مومس. تلك السنوات الثلاث من مواعيدهما الغرامية المحمومة والمتباعدة، قد تحولت في ذاكرتها بأمان، من خلال شاشة ذهنها المشوشة، إلى ميلودراما بالية. ورغم ذلك، وفي مكان ما، بعيد جداً، وُجدت تلك العلاقة، علاقتها

(١) براسلين: جزيرة في السيشل. (مترجم)

مع ديمون، وكانت «مغامرة محمومة» (عنوان فيلمها الوحيد الذي لاقى رواجاً)، شغفاً في كل الأماكن، تحت النخيل والآركس. «إخلاصه المطلق»، مزاجه النزق، انفصالاتهما، مصالحاتهما، «القطارات الزرقاء»، الدموع، الغدر، الرعب، تهديدات أخت مجنونة، تهديدات عديمة الحيلة بكل تأكيد، ولكنها، كمخالب نمر، تركت أثرها فوق ستارة أحلامهما الرقيقة، خاصة عندما تصيبك ظلمة الليالي الرطبة بالحمى، وظلال القصاص هناك، مرمي فوق الجدار الخلفي (مع تلميحات شرعية سخيفة)، كل ذلك كان مجرد مشهد، تمت تعبأته بسهولة، حمل اسم «الجحيم»، ليُشحن بعيداً؛ كانت ذاكرتها تفاجئها في حالات نادرة جداً على سبيل المثال - تلك الخدعة السينمائية التي تُظهر يدين يساريتين لجنسيْن مختلفيْن، - ماذا كانا يفعلان؟ لم يعد بإمكانها أن تتذكر (على رغم من مرور أربع سنوات فقط) - هل كانا يلعبان البيانو بأربع أيدٍ؟ لا، لم يتلقّ فان ولا حتى آدا دروساً في البيانو - هل كانا يحرّكان ظلال الدمى الصينية فوق الحائط؟ - أقرب؟ أكثر دفئاً؟ ولكن ما زالت الصورة مشوشة؛ هل كانا يقيسان شيئاً؟ ولكن ماذا؟ أتسلّقا شجرة؟ جذع الشجرة المصقول؟ ولكن أين؟ متى؟ يوماً ما، قالت لنفسها، على المرء أن يرتب ذاكرة ماضيه؛ تنميق، استئناف؛ بعض «الحذف» الضروري وبعض «الإضافات»؛ إزالة الطبقة البالية عن سطح الصورة؛ القيام بالتصحيحات اللازمة؛ وللحصول على ضمانات محددة، يجب إلغاء بعض المشاهد وتشذيب اللقطات المحرجة وغير المرغوب فيها من أخرى؛ أجل، يوماً ما - قبل أن يصفّق الموت للمشهد الأخير.

اكنفتْ هذه الليلة بالطقوس الآلية لتقديم الأطباق التي خصصتها لديمون، والتي لا زالت تذكر (على نحو صحيح إلى حد ما) أنها المفضّلة عنده: zelyoniya shchi، حساء الحمّيض والسبانخ، أخضر

ناعم، تنزلق فيه قطع من البيض المسلوق، يقدم إلى جانبه أصابع pirozhki محروقة، طرية إلى حدّ لا يُقاوم، محشوّة باللحم، أو الجزر، أو الملفوف، أصابع بيراشكيه، هكذا تُلفظ، هكذا يُحتفل فيها هنا، منذ الأزل وإلى الأبد. وبعد الحساء، قررتْ مارينا تقديم سمك الفرخ المقرمش (sudak)، مع البطاطا المسلوقة، طيور طيهوج البندق المحمرة (ryabchiki)، وذلك الهليون الخاص (bezukhanka)، الذي لا يثير العوارض التي تثيرها قراءة بروست[1]، كما تقول كتب الطبخ.

«مارينا!»، همس ديمون في نهاية الجولة الأولى. «مارينا!»، أعادها بصوت أعلى. «أبعد ما يكون عن تفكيري (عبارته المفضّلة) أن أنتقد ذوق دان في المشاريب البيضاء، أو قواعد السلوك المفروضة على خدمكم. أنت تعرفينني، أنا أسمى من كل تلك التفاهات، فأنا . . . (إيماءة توضيحية). ولكن يا عزيزتي (مكملاً بالروسية)، الـ chelovek الذي قدّم لي الـ pirozhki، الرجل الجديد، ذلك الخادم ذو العينيْن (s glazami) ــــ»

«كلهم لهم عيون»، علّقت مارينا باقتضاب.

«حسناً، كانت نظرته كأيدي أخطبوط تريد أن تنقضّ على الطبق الذي يقدمه. ولكن ليست هذه نقطتي. إنه يلهث يا مارينا! إنه يعاني مما يعرف بـ odïshka (النفس القصير). عليه أن يرى الدكتور كروليك. أمر مسبب للكآبة. إنها أنفاس بإيقاع مضخة، جعلتْ سطح الحساء يتموّج.»

---

(١) عوارض قراءة بروست: عودة إلى الفصل الأول: «في السنوات اللاحقة، لم يعد قادراً على إعادة قراءة «بروست» (كما لم يعد قادراً على الاستمتاع براحة الحلقوم التركيّة العطرة) دون أن يشعر بما يشبه غثيان التخمة وألم حرقة المعدة». (مترجم)

«اسمع يا أبي!»، قال فان، «لا أعتقد أن الدكتور كروليك يستطيع أن يقدّم له الكثير، لأنه، وكما تعلم جيداً، قد مات، ولا تستطيع مارينا أن تأمر خدمها بعدم التنفّس، لأنهم، وأيضاً كما تعلم، ما زالوا أحياء.»

«فطنة آل فيين، فطنة آل فيين»، تمتم ديمون.

«بالضبط. أنا أرفض بكل بساطة فعل أي شيء حيال الأمر. إضافة إلى أن ذلك الخادم المسكين، لا يعاني أبداً من الربو، بل يسعى فقط للإرضاء وهذا ما يجعله عصبياً. إنه يتمتع بصحة جيدة كثور، لقد نقلني فوق مركب التجديف - مستمتعاً بذلك - عدة مرات هذا الصيف، من آرديسفيل إلى لادور، ذهاباً وإياباً. أنت قاسٍ يا ديمون! لا أستطيع أن أقول له 'ne pïkhtite' (لا تتنفس) ولا أستطيع أن آمر كيم، فتى المطبخ، بالتوقّف عن مكره باستراق صور فوتوغرافية - إنه مدمن تصوير، ولكنه، وعلى الرغم من ذلك، فتىً دمث، لطيف وصادق؛ كما أنني لا أستطيع منع خادمتي الفرنسية الصغيرة، عن تلقي الدعوات - إذ إنها بارعة في ذلك بطريقة ما - لحضور أفخم الحفلات التنكريّة في لادور.»

«هذا مثير للاهتمام» أبدى ديمون ملاحظته.

«إنه عجوز حقير»، هتف فان مرحاً.

«فان!»، قالت آدا.

«بل شاب حقير»، أجاب ديمون متنهداً.

«أخبرني يا بوتييان»، سألت مارينا، «ماذا لدينا بعد من أنبذة بيضاء؟ - بم تنصحنا؟». ابتسم كبير الخدم وهمس باسم مذهل.

«أجل! أجل! أجل!»، قال ديمون، «ما كان يجب يا عزيزتي أن تديري أمر العشاء بمفردك. أما عن التجديف، باعتبارك ذكرت الأمر، فهل تعلمين، أن «أنا»، من يحدثك الآن، كنت بطل تجديف

عام ١٨٥٨؟ فان يفضل كرة القدم. ولكنه بطل على مستوى الكلية فقط، أليس كذلك يا فان؟ حتى أنني أفضل منه في التنس - ليس فوق العشب، بالطبع، كالتنس الخاص برجال الدين - بل فوق «ملاعب التنس»، كما نسميها في مانهاتن. ماذا أيضاً يا فان؟»

«ما زلت تغلبني في المبارزة، ولكنني أمهر في الرماية. إن هذا ليس بسمك فرخ حقيقي يا أبي، أؤكد لك ذلك، رغم مذاقه الرائع.»

(مارينا، التي فشلت في الحصول على المنتج الأوروبي في الوقت المناسب لتحضير العشاء، قد استبدلته بأقرب شبيه له، سمك الكركي، أو الضوري، مع صلصة التارتار حبات البطاطا الصغيرة المسلوقة).

«أوه»، قال ديمون حين تذوق نبيذ Lord Byron's Hock. «هذا ما سيواسي دموع سيدتنا.»

ثم استأنف رافعاً صوته (لأنه توّهم أن سَمْعَ مارينا قد أصبح ثقيلاً): «كنت أخبر فان منذ لحظة عن زوجك. إنه يسرف يا عزيزتي في شرب الفودكا المصنوعة من العرعر، وللحق، إنه يتحوّل إلى ثمل مثير للضحك والسخرية. لقد صادفته في ذلك اليوم حين كنت أمشي في Pat Lane، قرب الجادة الرابعة، وهناك لمحته قادماً، يقود، بسرعة مريعة، سيارته البدائية التي تعمل على البترول، القبيحة ذات المقعديْن، والمقود الكبير. حسناً، لقد رآني من بعيد، ولوّح، ثم بدأت تلك الآلة الغريبة تهتز بأكملها، ثم توقّفت بعد مسافة قصيرة، فبدأ بهز وركه قليلاً فوق المقعد محاولاً تحريكها، كطفل عالق في دراجة ثلاثية لا يستطيع الخروج منها، وعندما مشيت صوبه، تولّد عندي إحساس جليّ، بأن العطل كان في آلية دماغه وليس في آلية 'حوضه الصلب'». لكن ما فعله ديمون، بطيبة قلبه المكار، هو أن أغفل إخبار مارينا، هو أن ذلك المغفل، وبالسر عن مستشاره الفني

السيد آكس، قد اكتسب، بمباركة ديمون، بضعة آلاف الدولارات من أحد أصدقاء ديمون المقامرين، ولوحتين مزيفتيْن لكوريدجيو، ليبيعهما لاحقاً، بضربة حظ لا تغتفر، إلى جامع تحف لا يقل عنه غباءً، مقابل نصف مليون دولار، المبلغ الذي اعتبره ديمون بدوره قرضاً لن يتوانى ابن عمه عن سداده، إن كان حقاً للنزاهة أيّ وجود فوق هذا الكوكب التوأم. وبالمقابل، أحجمت مارينا عن إخبار ديمون عن ممرضة المشفى الشابة التي كان دان يلهو معها منذ مرضه الأخير (لقد بدأ الأمر، بالمناسبة، حين سأل فان تلك الشيطانة الفضولية، في مناسبة خاصة جداً، أن تساعده في إيجاد «شيء جميل لطفلة نصف روسية تهتم بالبيولوجيا»).

«لقد أترعت كأسي!»، قال ديمون حين تناول كأس البورغنديّ لتذوقه. «Pravda (حقاً)!، لو أن جدي لأمي رآني أحتسي النبيذ الأحمر بدل الشمبانيا مع فراخ الطيهوج، لآثر مغادرة الطاولة. رائع! (نافخاً قبلة في الهواء، عبر اللهب والفضة).»

كان طيهوج البندق المشوي (أو طيهوج الجبل كما يُسمى محلياً في «الأوساط الراقية») يُقدّم مرفقاً بالتوت البرّي الأحمر المعلّب (يسمى محلياً بالتوت البري الجبلي cranberrie). قطعة بنية عصارية مميزة، من ذلك الطائر الشهي، قد أثارت لعابه، ما بين لسانه الأحمر وأنيابه القوية:

«بذرة ديانا[1]»، قال ديمون واضعاً القطعة بتأنٍّ فوق حافة طبقه. «كيف حال السيارة يا فان؟»

«ليس واضحاً حتى الآن. لقد أرسلت بطلب روسيلي كسيارتك يا أبي، لكني لن أستلمها قبل عيد الميلاد. حاولت عبثاً إيجاد دراجة

(١) ديانا: آلهة الصيد والقمر والولادة عند الرومان. (مترجم)

نارية بمحرك صامت، لم أفلح، ربما بسبب الحرب، علماً أن العلاقة ما بين الدراجات النارية والحروب هي سر غامض. ولكننا تدبرنا أمرنا أنا وآدا، فنحن نقود الدراجات، نركبها، كما نركب البساط السحري أحياناً.»

«يا للغرابة!»، أعرب ديمون مندهشاً،«لمَ أتذكر الآن أبيات شاعرنا الكنديّ[١] العظيم التي كتبها عن احمرار وجنتَي إيرين؟:

توهّج نقائها الرقيق
الذي . . . (لا أعرف ماذا) . . . فوق جبهتها

بكل الأحوال، يمكنك شحن سيارتي إلى إنكلترا، شريطة ـــ»

«بالمناسبة يا ديمون! كيف يمكنني الحصول على ليموزين قديمة وفسيحة، مع سائق عجوز، كتلك التي كانت لـ براسكوفيا، على سبيل المثال، لسنوات طويلة؟»

«مستحيل يا عزيزتي، لقد أصبحت جميعها في السموات أو فوق Terra. ولكن ما السيارة التي ترغب فيها آدا؟ علام تود حبيبتي الصامتة الحصول كهدية في عيد ميلادها؟ إنه السبت القادم، po razschyotu po moemu (حسب تقديري)، أترغب في نهر من الألماس؟»

«Protestouïou (أنا أعترض)!»، صاحتْ مارينا. «أجل! إنني أتكلم seriozno (بجدية). أنا أعترض على جلبك لها kvaka sesva (أي شيء كان)، أنا ودان سنعتني بكل تلك الأمور.»

«إضافة إلى أنك ستنسى»، قالت آدا ضاحكة، ومظهرة بحذاقة

---

(١) الشاعر الكندي: عودة أخرى إلى كوبيه الذي كان فرنسياً في Terra وكندياً في antiterra.

طرف لسانها لفان، الذي كان ينتظر ردة فعلها المشروطة على كلمة «ألماس».

«شريطة ماذا؟»، سأل فان.

«شريطة أن لا يكون هناك من تنتظرك في مرآب جورج، عند Ranta Road». ثم تابع: «ستركبين عما قريب البساط السحري وحدك يا آدا، فإني سآخذ ماسكوداغاما ليقضي عطله في باريس. أوه لقد تذكرت، يلوم الجمال فوق جبهتها!»

وهكذا مضت الثرثرة التافهة. من منا لا يؤوي في أحلك خلجان عقله، ذكريات مضيئة كتلك؟ من منا، حين يتفاجأ بإنارة الماضي المبهرة، لا يرتجف ويغطي وجهه بكفيْه؟ من؟ في رعب ووحدة ليله الطويل —

«ما كان ذلك الوميض؟»، هتفتْ برعب مارينا، التي كانت تخشى العواصف أكثر مما يفعل معادو الكهرباء في مقاطعة لادور.

«إنها ومضة برق»، اقترح فان.

«إن أردت رأيي»، قال ديمون، مستديراً فوق كرسيه نحو النافذة، متأملاً الستائر المتلاطمة كأمواج البحر، «فإني أعتقد أنه وميض آلة تصوير فوتوغرافي. ولا تنسي أننا في النهاية، لدينا هنا ممثلة مشهورة، وبهلواني عظيم.»

ركضت آدا نحو النافذة. وفي عتمة الماغنوليا القلقة، ظهر شاب بوجه الأبيض، محاطاً بخادمتيْن مبحلقتين، وقد صوّب آلته نحو العائلة المبتهجة والمسالمة. لكنه كان مجرد سراب ليلي، وهذا ليس بغريب على شهر يوليو. إنه بيرون بلا شك، ولا أحد سواه، إله الرعد الذي لا يصحّ ذكره اسمه. بانتظار ضربة الرعد القادمة، بدأت مارينا بالعد بصوت منخفض، كمل لو كانت تتلو صلاة، أو تتحسّس نبض شخص في غاية المرض. كان يفترض بضربة قلب واحدة، أن

تمتدّ لمسافة ميل واحد من الليل الحالك، ما بين القلب الحيّ، والراعي المسكين الذي أسقطته الصاعقة في مكان ما - أوه، بعيداً جداً - فوق قمة جبل. وصل الرعد، ولكنه بدا هزيلاً نوعاً ما. وميض آخر كشف عن هيكل النافذة الفرنسية.

عادت آدا إلى مقعدها. التقط فان منديلها من تحت الطاولة، فلامس برأسه ركبتها أثناء غوصه الخاطف ذاك.

«هل أستطيع أن أحظى بقطعة أخرى من طيهوج بترسون[١]، Tetrastes bonasia windriverensis[٢]»؟، سألت آدا بصوت مرتفع.

ضربت مارينا جرساً برونزياً صغيراً. وضع ديمون باطن كفه فوق كفّ آدا، وطلب منها أن تمرّر ذلك الشيء المثير للمشاعر على نحو غريب. امتثلت لذلك، مصدرة ستاكاتو[٣] بانحنائها. وضع ديمون نظارته الأحادية، معصّباً لسان الذاكرة، وتأمل الجرس؛ إنه ليس بالجرس الذي كان موضوعاً فوق صينية السرير، في غرفة النوم المعتمة، داخل شاليه الدكتور لابينيه؛ حتى أنه ليس بصناعة سويسرية؛ إنه أشبه بترجمة عذبة المفردات، لإعادة صياغة تامة التزييف، يكشفها المرء بمجرد إلقائه نظرة واحدة على النص الأصلي.

لم يُكتب للطير، وللأسف، أن يبقى حياً حتى يرى «التشريف

(١) طيهوج بيترسون: تلميح إلى روجر توري بيترسون (١٩٠٨-١٩٦٩) عالم طبيعة من الولايات المتحدة الأمريكية. (مترجم)

(٢) Tetrastes bonasia windriverensis: Tetrastes bonasia هو اسم لنوع أوروبي من طيهوج البندق، أما تتمة الاسم فهي من تأليف الكاتب. (مترجم)

(٣) ستاكاتو: تقنية موسيقية تقوم على عزف النوتات بشكل متقطع. (مترجم)

الذي قُدّم به»، فبعد تشاور قصير مع بوتييان، تم تقديم نقانق آرل[١]، اللذيذة جداً والمستساغة رغم تضارب نكهتها مع تلك الخاصة بالطيهوج، وقد أضيفت إلى طبق الشابة إلى جانب جذور الهليون الطرية، التي تشارك الجميع في متعة تذوقها. كم كانت مهيبة، رؤية كل تلك المتعة التي دعك فيها كل من مارينا وديمون شفاههما التي كانت تلمع اشتهاءً، والطريقة ذاتها التي رفع بها كل منهما نحوه فمه الفاغر، وعلى ارتفاع سماوي، ذلك الحليف الشهيّ لزنابق الوادي المدلّلة، حاملَيْن الملاقط الخاصة المماثلة، مع تطابق تشابك أصابع كل منهما حولها، أشبه بتشابكها عند «رسم إشارة الصليب» المصححة[٢]، التي احتج عليها كثير من الروس (محدثين انشقاقاً تافهاً وسخيفاً، بحجم المسافة بين الإبهام والسبابة) الذين تم حرقهم منذ قرنين، على يد روس آخرين، فوق ضفاف بحيرة السلافيين العظيمة. تذكر فان الصديق العظيم لمعلمه آ.آ.آ.، الشاب العالم ولكن المفرط في حشمته، سميون آفانازيفيتش فينغروف (١٨٥٥-١٩٥٤)[٣]، مساعد بروفيسور ومشهور بتعصّبه لبوشكين، وتذكر ما

---

(١) نقانق آرل: آرل مدينة فرنسية وقد اشتهرت بتصنيع نقانق خاصة من لحم العجل، الحصان والخنزير، مضافاً إليها شحم الخنزير. (مترجم)

(٢) إشارة الصليب المصححة: من جملة الإصلاحات التي قام بها البطريرك نيكون الروسي (١٦٠٥-١٦٨١)، البطريرك السابع في تاريخ الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. وقد أجرى تصليحات عديدة قد أحدثت انشقاقاً في الكنيسة، وكانت إشارة رسم الصليب إحداها، إذ كانت تتم في العهد الذي سبقه بإصبعين فقط، ثم جاء أمره باستخدام الأصابع الثلاث كفتيل فتنة بين تابعيه وبين «المؤمنين القدامى»، أسفرت عن فوضى وجرائم كثيرة. (مترجم)

(٣) سميون آفانازيفيتش فينغروف: مؤرخ أدبي بارز في الإمبراطورية الروسية (١٨٥٥-١٩٢٠)، ولكن تاريخ الذي أورده الكاتب في النص ليس حقيقياً،

اعتاد قوله عن أن المقطع المبتذل الوحيد في عمل شاعره المفضل، هو ذلك النشيد غير المنتهي في «أوجين أونيجين»، حيث يصف به متعة أكل اللحم البشري، التي أحس بها مجموعة من الشباب الشرهين، الذين كانوا يخرجون المحار اللحيم من بيوته الصدفية، ليأكلوه حياً. ثم بعد ذلك، «لكلّ ذوقه الخاص»، كما أخطأ الكاتب البريطاني بالفرنسية بترجمة العبارة البائخة (chacun à son goût[1])، وقد فعلها مرتيْن في سياق روايته التي تدور حول زعيم من القرم، معروف لدى رجال الشرطة ولدى الصحفيين بـ«الرجل الطيب العظيم[2]»، وذلك بالطبع، تبعاً للقب الذي أطلقه عليه، الحقود والمتحامل، الذي كانت آدا الجديدة في عالم الشهرة، وأثناء غمسها بيد واحدة لتويجات الهليون في وعاء الصلصة، تتحدث عنه إلى ديمون، الذي كان يقوم بالطقس ذاته وبالأسلوب الرشيق ذاته.

تناولت مارينا سيجارة من الصندوق الكريستالي، حيث سجائر آلباني التركية، التي تحمل بتلة حمراء كعلامة. ثم مرّرت الصندوق إلى ديمون. أشعلت آدا أيضاً واحدة، واعية لما تقوم به.

«أنت تعرفين جيداً أن أباك يرفض تدخينك على طاولة الطعام» قالت مارينا.

قد يكون المقصود به التلميح إلى أمنية نابوكوف الذي كان يجل فينغروف ويتمنى لو أنه عاش لعمر أطول. أو قد يعود ذلك إلى تخيّل فينغروف آخر فوق الكوكب التوأم وبعمر مختلف. (مترجم)

(١) chacun à son goût: وتعني كل على هواه، والخطأ المقصود وقع في ترجمة à على أنها a، مما يحوّل معنى العبارة إلى: لكل ذوقه الخاص. (مترجم)

(٢) الرجل الطيب العظيم: تلميح إلى اللقب الذي أطلقه وينستون تشرشل على ستالين. (مترجم)

«أوه، لا بأس بذلك!»، تمتم ديمون.

«الأمر يخصّ دان»، شرحت مارينا بصرامة، «لا أظنه متساهلاً في ذلك.»

«حسناً، ولكني لست كذلك» أجاب ديمون.

لم يستطع كل من فان وآدا التوقف عن الضحك. كل ذلك كان مزاحاً - ليس بالمستساغ، ولكنه يبقى مزاحاً.

ومع ذلك، أبدى فان ملاحظته بعد لحظات قليلة: «أعتقد أنني أريد لنفسي أيضاً آلبيي، لا، أقصد آلباني.»

«انصتوا إليَّ جميعاً لو سمحتم!»، قالت آدا، «لقد كانت زلّته مقصودة. أنا أحب تدخين سيجارة حين أخرج لقطف الفطر، ولكن هذا المزعج البغيض، يصر على اتهامي بأني قابلت عاشقاً تركياً أو ألبانياً في الغابة، وعدت برائحته تعبق مني.»

«حسناً»، قال ديمون، «أرى أن فان محق في اهتمامه بملاحقة أمر سلوكياتك.»

حلوى البروفيترول (من دون التشديد على حرف اللام) الأصلية التي كان الروس هم أوّل من أعدّها، قبل عام ١٧٠٠، في غافانا، تقوم في أساسها على فطيرة مغطاة بالشوكولا الكريمية، وهي أكبر بحجمها من تلك الفطيرة، قاتمة اللون والعجفاء، التي تقدم في المطاعم الأوروبية بالاسم ذاته. أنهى أصدقاؤنا وجبة التحلية الغنية تلك المغمورة بصلصة شوكولا الحليب، وكانوا قد أصبحوا جاهزين للفاكهة، عند الدخول الفخم والمثير للخادم بوت، متبوعاً بوالده، وجونز المتعثر.

صدرت فجأة عن كل أنابيب المياه في المنزل قرقعة تشبه التشنجات المعوية. هذا دائماً ما يدل، ويقدّم، لوصول مكالمة من مسافة بعيدة. كانت مارينا التي لم تكن لتتحكم بقلّة صبرها الشغوفة،

قد جلست في الصالة عند أقرب نقطة إلى الدوروفون[١]، فهي تنتظر، ومنذ عدّة أيام، مكالمة من كاليفورنيا ردّاً على رسالتها الحارة. دخل بوت مسرعاً ساحباً وراءه حبلاً أخضر طويلاً (يهتز بشكل واضح في سلسلة من التموّجات والتقلّصات، كأفعى تبتلع فأر حقل) ممسكاً به من سماعته المزينة بلوني النحاس واللؤلؤ، تناولتها مارينا وألصقتها بأذنها، هاتفة بوحشيّة: "A l'eau!"[٢]. لم يكن سوى دان العجوز المتطلب، وقد اتصل لإعلام الجميع بأن ميلر ذاك، في نهاية الأمر، لم ولن يتمكن من القدوم إلى آرديس في تلك الليلة، ولكنهما سيصلان معاً في الغد، مع الصباح المبكّر.

«سيصلان قبل طلوع الشمس»، أبدى ديمون ملاحظته، الغارق في نشوته العائلية، بينما كانت مسحة طفيفة من الانزعاج قد أصابته، لكونه قد فاته النصف الأول من ليلة القمار في لادور، في سبيل تلبية تلك الوليمة التي أمكنه اعتبارها جيدة ولكن ليست من الدرجة الأولى.

«سنتناول القهوة في غرفة الرسم الصفراء»، قالت مارينا بحزن، كما لو كانت تستحضر صورة مكان في منفى كئيب. «أرجوك يا جونز، لا تمشِ فوق حبل الهاتف. ليس لديك أدنى فكرة يا ديمون، كم أخشى أن ألتقي من جديد، بعد كل تلك السنوات، بذلك البغيض نوربرت فون ميلر، الذي لا بدّ أنه أصبح أكثر تعجرفاً وتملّقاً، وعلاوة على ذلك، فهو لا يعرف أنني أكون زوجة دان، أنا متأكدة من ذلك. إنه روسي من البلطيق (ملتفتة نحو فان)، ولكنه ألماني حقيقي، رغم

---

(١) الدوروفون: التلفون في Terra يقابله الدوروفون في Antiterra. (مترجم)

(٢) "A l'eau!": هي Allo، ولكن بكتابة فرنسية مختلفة تحمل تورية بمعنى: للماء. (مترجم)

أن أمه قد ولدت في إيفانوف، أو رومانوف، شيء من هذا القبيل، وقد امتلكتْ مصنعاً للنسيج في فنلندا أو الدانمارك. لا يمكنني تخيّل كيف أصبح باروناً؛ عندما التقيته منذ عشرين عاماً، كان مجرد السيد ميلر لا أكثر.»

«ما زال كذلك»، ردّ ديمون بفتور، «فلقد اختلط عليك الأمر بين اثنيْن يحملان اسم ميلر. المحامي الذي يعمل لمصلحة دان هو صديقي القديم نورمان ميلر، من مكتب محاماة «فينلي- فيهلر- ميلر»، وهو يحمل بشكله شبهاً كبيراً بـ ويلفريد لورييه[1]. أما الآخر، نوربرت، فله، إن كانت ذاكرتي تسعفني، رأس طابة، يعيش في سويسرا، ويعرف تماماً من يكون زوجك، وهو وغد لا يستحق حتى أن يُذكر اسمه.»

بعد فنجان قهوة سريع، وبضع قطرات من ليكور الكرز، نهض ديمون.

«الرحيل هو موت قليل، والموت هو رحيل أكثر بقليل[2]. أخبري دان ونورمان أنني جاهز لتقديم الشاي والكعك لهما متى أرادا، في فندق برييانت. بالمناسبة، كيف حال لوسيت؟»

قطّبت مارينا حاجبيها وهزّت رأسها، ممثلة تعبير الأم الحنونة والقلقة، رغم أنها في حقيقة الأمر، لم تمنح ابنتيْها، ولا حتى دان المثير للشفقة، العاطفة التي كرّستها لكلبها الظريف داك.

«لدينا تخوف كبير»، أجابت وأخيراً، «تخوف سيئ للغاية. ولكن الآن، يبدو ـــ»

---

(١) ويلفريد لورييه (١٨٤١-١٩١٩): رئيس وزراء كندي سابق.

(٢) الرحيل هو موت قليل: الجملة الأولى في قصيدة غنائية للشاعر الفرنسي، ومؤلف الأغاني، إدموند هاروكورت، (١٨٥٦-١٩٤١). وقد كان شهيراً جداً في عصره.

«فان!»، قال الوالد، «أَسْدِ إليَّ خدمة! لقد وجدت قبعتي ولم أجد قفازاتي. اذهب إلى بوتيبان واطلب منه البحث عنها في المركن، فربما تكون قد سقطت مني هناك. لا! انتظر! تذكرت. لقد تركتها في العربة، إذ تذكرت الآن برودة الزهرة التي التقطتها من الإناء الذي مرّت تحمله . . . »

كان في تلك اللحظة قد رماها بعيداً، وتخلّص معها من ظلال تلك الرغبة الطارئة والملحة، التي دفعته لإغراق يديْه الاثنتيْن في صدر غضّ.

«تمنيتُ لو أنك بقيت للنوم هنا»، قالت مارينا (التي لم تكن مهتمة بالفعل)، «ما هو رقم غرفتك في الفندق، لا تقل إنه ٢٢٢!»

كانت تحب الصدف الرومانسية. راجع ديمون الرقم فوق مفتاحه: ٢٢١ - الصدفة الكافية للإنذار بالشؤم. وبالطبع، استرقت آدا الشقية النظر إلى فان، الذي قبض جناحيْ أنفه، محاكياً بذلك انحراف فتحتَي أنف بيدرو، الضيقتين والرائعتين.

«إنهما يسخران من عجوز مسكينة»، قالت مارينا بلهجة لا تخلو من الغنج، ثم قبّلت ضيفها بالطريقة الروسية فوق جبينه المنحني، ما إن رفع يدها نحو شفتيه: «اعذرني!»، أضافت، «لعدم خروجنا إلى الشرفة. لدي حساسية تجاه الرطوبة والظلام، وهي آخذة في ازدياد؛ وأنا متأكدة أن حرارتي كانت قد ارتفعتْ مسبقاً قبل عشائنا، سبع درجات فوق السبع والثلاثين، على الأقل.»

نقر ديمون البارومتر بجوار الباب. نقره عدّة مرات للتأكد مما كان يشير إليه، ومع ذلك، بقي ثابتاً عند الثالثة والربع. وقف كل من فان وآدا لوداعه. كانت ليلة دافئة جداً، تقطر ما كان مزارعو لادور يدعونه بالمطر الأخضر. بين أشجار الغار، أومضت مصابيح عربة ديمون السوداء الأنيقة، وقد تحلّقت حولها العثّات كرقائق ثلج

ناعمة. قبّل الطفليْن بحنان، الفتاة فوق خد، والصبي فوق الآخر، ثم عاد إلى آدا - إلى تجويف إبطها الأبيض، الذي التف حول رقبته. لم يولِ أحد اهتماماً كبيراً لمارينا، التي وقفت في نافذة مشربية صفراء الإضاءة، تلوّح بشال مطرّز، رغم أن كل ما أمكنها رؤيته هو سطح العربة البراق، وخيوط المطر الناعمة فوق مصابيحها الأمامية.

شدّ ديمون قفازاته، ثم أقلع، بهدير قوي فوق الحصى الرطبة.

«شيء من المبالغة في القبلة الأخيرة!»، علّق فان ضاحكاً.

«أوه حسناً! لقد انزلقت شفاهه وحسب»، ردّت آدا ضاحكة، ثم تعانقا في الظلام، ضاحكيْن، بينما طافا حول المنزل.

توقفا للحظة تحت مأوى شجرة متسامحة، لطالما وقف تحتها الضيوف المدخنون بعد العشاء.

بهدوء، ببراءة، وجنباً إلى جنباً، لا يفصل بينهما إلا فارق طولهما، أضافا على أصوات المطر الاحترافية مزيداً من الدلف والتدفق، مكثا، يداً بيد، عند شعرية مركن السيارات، ينتظران أضواء النوافذ لتلفظ أنفاسها الأخيرة.

«ما كانت النغمة النشاز خلال الأمسية بأكملها؟»، سأل فان بهدوء، «ألم تلاحظي؟»

«طبعاً لاحظت. ولكني أعشقه رغم كل شيء. أعتقد أنه مجنون بالكامل، لا مكانَ ينتمي له في الحياة، ولا مهنة، بعيد كل البعد عن السعادة، عديم المسؤولية على نحو فلسفي - ولا شبيه له، هذا مؤكد.»

«ولكن ما كان خطبك الليلة؟ لقد كنت معقودة اللسان، وبدا كل ما كنا نقوله fal'shivo (خاطئاً). أتساءل ما إذا كان بأنفه الداخلي قد شمّ رائحتك فيَّ، ورائحتي فيكِ! لقد حاول أن يسألني . . . أوه، لم

يكن اجتماعاً عائلياً جميلاً. ما كان بالتحديد الخطأ الذي حدث عند العشاء؟»

«آه يا حبيبي! كما لو أنك لا تعرف! ربما سنضطر لارتداء أقنعتنا للأبد، إلى أن يفرقنا الموت، ولكننا لن نتمكن أبداً من الزواج - طالما بقي كلاهما على قيد الحياة. نحن ببساطة لا نستطيع التحايل على الأمر، فهو عُرف أقوى من القانون ومن الرواسب الاجتماعية. لا يمكن رشوة الوالديْن، أو انتظار موتهما لأربعين، خمسين سنة. إن مجرد تخيّل ذلك لأمر فظيع - أعني أن انتظاراً كهذا خارج عن الطبيعة، شرير ووحشيّ!»

قبّل شفتيها نصف المغلقتين، بوداعة، و«أخلاق»، المصطلح الذي اعتمداه كتعريف للحظات العميقة، لتمييزها عن لحظات الشغف اليائسة.

«على أية حال»، قال، «من المسلّي أن نكون عميليْن سريين في بلد غريب. لقد صعدت مارينا نحو الطابق العلوي. شعرك مبلل.»

«جواسيس من تيرا؟ أتصدق؟ أتصدق بوجود تيرا؟ أوه! إنك تفعل! لقد أقررْت بها. أنا أعرفك!»

«أقرّ بها كحالة ذهنية. وهذا أمر مختلف.»

«لكنك تريد إثبات أنها ليست مجرد حالة ذهنية.»

لامس شفتيها بقبلة عفيفة أخرى، ومع ذلك، لم تنته قبل أن تشعل ناراً.

«يوماً ما»، قال، «سأطلب منك تكرار المسرحية. ستجلسين كما فعلت منذ أربع سنوات، إلى الطاولة ذاتها، تحت الأضواء ذاتها، ترسمين الزهرة ذاتها، وأنا سأعود إلى المشهد ذاته، بذات النشوة، ذات الفخر، وذات - لا أعرف، ربما الامتنان. انظري! لقد أظلمت كل النوافذ. أنا أيضاً يمكنني الترجمة، عند الضرورة:

انطفأت أضواء الغرف
عبقت بأنفاسها الـ rozi
وجلسنا سوية في الظلال الوافرة
لشجرة الـ beriozy[(١)]»

«أجل، إن المترجم العادي سيكتب بتولا بدل beriozy، وعندها سيضطر لانتقاء كلمات مقفاة سخيفة. أليس كذلك؟ إنها قصيدة قصيرة ورهيبة لـ قنسطنطين رومانوف، صحيح؟ لقد انتُخب مؤخراً رئيساً لأكاديمية لياسكا الأدبية، صحيح؟ شاعر بائس، وزوج سعيد. زوج سعيد!»

«أتعلمين؟ أعتقد أن عليك البدء بارتداء سراويل داخلية عند المناسبات الرسمية.»

«يداك باردتان. ولِمَ تدعو عشاءنا بالرسمي؟ لقد قلتَ إنه مجرد شأن عائلي.»

«حتى ولو! لقد كنت معرضة للخطر عند كل انحناء أو استرخاء في جلستك.»

«أنا لا أسترخي في جلستي أبداً!»

«أنا متأكد من أن ذلك ليس بالأمر الصحي. أو لربما كان غيرة من جانبي. مذكرات الكرسي السعيد. أوه يا حبيبتي!»

«على الأقل»، همست آدا، «بدأ الأمر يؤتي ثماره الآن، أليس كذلك؟ أم لا؟»

«بلى، فقط لهذه المرة»، قال فان.

---

(١) انطفأت أضواء الغرف: إشارة إلى قصيدة بلا عنوان للدوق الكبير قنسطنطين قنسطنطينوفيتش رومانوف (١٨٥٨-١٩١٥). والـ beriozy هي شجر البتولا. أما الإبقاء على كلمات بالروسية فكان مقصوداً من قبل فان الذي لم يشأ تغيير القافية. (مترجم)

٣٩

رغم أن موضة الأزياء في لادور عام ١٨٨٨ ، كانت انتقائية، إلا أن إقطاعيي آرديس لم يأخذوها على محمل التبني.

للنزهة الكبرى الخاصة بعيد ميلادها السادس عشر، ارتدت آدا بلوزة كتان بسيطة، وسروالاً بلون الذرة الصفراء، وانتعلتْ موكاسين بالي. أراد لها فان لو ترخي شعرها؛ اعترضت، متحججة بطوله الذي لن يكون مريحاً بنزهة قروية كتلك، ولكنها أخيراً وافقت على تسوية، بربطه من منتصفه، بشريط مجعّد من الحرير الأسود. تقيّد فان بالأناقة الصيفية، بارتدائه قميص بولو أزرق، وسروالاً رمادياً خفيفاً يصل حتى الركبتيْن، وحذاء رياضياً بنعل من الكاوتشوك.

بينما كان يتمّ إعداد الوليمة الريفية، وتوزيعها بين لطخات الشمس المسلّطة فوق الفرجة التقليدية بين أشجار الصنوبر، تسللت الفتاة البرية وعشيقها، بدافع من النهم المتوحش، نحو وادٍ سرخسي صغير، حيث انحدر جدول متدفق، من القمة وحتى القعر، بين شجيرات التوت البري الطويلة. كان الحرّ في ذلك اليوم يقطع الأنفاس، ولم تخل شجرة صنوبر صغيرة من زيز البراري فوق أغصانها.

قالت: «إن أردت التحدث كشخصية في رواية قديمة، فسأقول

إنني منذ زمن قديم، قديم جداً، davnïm davno، لم ألعب لعبة الكلمات مع غرايس، وفتاتيْن جميلتيْن أخريْين. 'Insect, incest, nicest'. »

وبصفتي عالمة نبات، وامرأة مجنونة، أستطيع القول إن الكلمة الإنكليزية الأكثر غرابة هي "husked" (مقشر)، إذ إنها تحمل معنيين مضاديْن: مغطى ومكشوف، مقشر أي له قشرة محكمة ومقشر أي يمكن انتزاع قشرته بسهولة. إنها معانٍ يمكن تقشيرها بسهولة. ليس عليك أن تمزّق حزامي، أيها المتوحش!

«متوحش مقشر بعناية»، قال فان بحنان. كل ما فعله مرور الزمن هو أن زاد من حنانه لذلك المخلوق الذي يحتضنه الآن، لتلك الأنثى الفاتنة، التي أصبحت عواطفها الآن أكثر سكوناً، وأظافرها أكثر طولاً، والتي، قد وصل فان الآن إلى عقصة شعرها، وحلّها.

ركعا، هو وراءها، فوق حافة إحدى الضفتيْن الكرستاليتيْن، حيث توقف الجدول، قبل هبوطه، ليلتقط صوراً وليتم تصويره أيضاً، وعند ذروة رعشتهما، لمح فان في انعكاس نظرة آدا، إشارة إلى خطر وشيك. سبق أن حدث موقف مماثل: ربما لم يملك فان الوقت الكافي لتذكره، ولكن مع ذلك، استطاع تحديد صوت الخطوات المتعثرة وراءه. وجدا لوسيت بين الصخور الوعرة. حاولا مواساة الطفلة التي انزلقت بها قدمها فوق لوح من الغرانيت نحو شجيرات متشابكة. مهتاجة وغاضبة، كانت لوسيت تفرك فخذها، مبالغة في إظهار ألمها. قبض كل من آدا وفان يداً من يدَي الطفلة، وعادا بها، مبتهجيْن، نحو الفرجة، حيث ضحكت، قفزت، ثم توجهت مباشرة نحو فطائرها المفضلة، التي كانت تنتظرها فوق طاولة قابلة للطي. وهناك، خلعت عنها قميصها الغارق في العرق، رفعت سروالها

الأخضر القصير، جلست القرفصاء فوق التراب الأحمر، ثم انقضّت على الطعام الذي جمعته.

رفضت آدا دعوة أحد إلى نزهة عيد ميلادها باستثناء التوأم إرمينين؛ ولكن لم يكن لديها أية نية بدعوة الأخ وحده من دون شقيقته. تبيّن أن الأخيرة لم تتمكن من القدوم، فقد ذهبت إلى نيو كرانتون لوداع عازف الإيقاع الشاب، حبيبها الأول، قبل إبحاره مع فوجه، عند الصباح الباكر. وفي النهاية، لبّى غريغ الدعوة وحيداً: في اليوم السابق، كان قد اتصل بها مستأذناً القدوم لإحضار «طلسم»، جمل صغير من العاج الأصفر منحوت في كييف، ما قبل عصر تيمور ونابوك. كان والده المريض جداً هو من أمر بإرسال تلك الهدية إلى آدا، آملاً أن تقدّرها، كما فعلت جدّته.

لم يخطئ فان باعتقاده أن آدا لم تكن متأثرة بتفاني غريغ في إرضائها. ها هو الآن يقابله ثانية بكل سرور - ذلك النوع من السرور غير الأخلاقي وغير النقيّ في صميمه، الذي يضفي مسحة جليدية على المشاعر الودية التي يحملها مبارز بارع، تجاه منافسه المحترم.

ما إن رأى فان، قال غريغ، الذي ركن دراجته النارية الجديدة الرائعة (سيلينتيوم سوداء) في مكان مخصص في الغابة:

«لدينا صحبة إذاً.»

«بالطبع!»، أجاب فان مؤكّداً، «Kto sii (من هم هؤلاء)؟ ألديك فكرة؟»

لا أحد يملك فكرة. تقدمت مارينا، بمعطفها المطري، بوجهها المتجهّم، غير المطلي، وحدّقت في الشجرات الموجودة في الاتجاه الذي أشار إليه فان.

بعد فحص دقيق للسيلينتيوم، قامت دزينة من القرويين العجائز، بثيابهم الكالحة، البالية والخشنة، بالدخول إلى الغابة للتحلّق حولها،

مع صرر غدائهم المؤلف من الجبن، الكعك، السلامي، السردين والشيانتي[١].

كانوا بعيدين بما يكفي لعدم إزعاج أصدقائنا. لم يحملوا معهم صناديق موسيقى ميكانيكية. كانوا يتحدثون بأصوات خافتة، أما تحركاتهم فلم تكن أكثر سرية. اقتصرت إيماءاتهم المتكررة التي بدت شعائرية، على تجعيد ورقة بنية في قبضة أحدهم، أو ورقة صحيفة، أو ورقة خباز (من النوع الخفيف جداً والرديء)، ثم رميها بطريقة هادئة لا تلفت الأنظار، بينما تقوم أيدٍ رسولية حزينة أخرى بفضّ الورق الذي لُفّت به المؤن، أو ربما، لسبب أو لآخر، لفها مجدداً، تحت الظلال النبيلة لشجر الصنوبر، والظلال المتواضعة للآكاسيا الزائفة.

«يا للغرابة!»، قالت مارينا بينما كانت تخدش البقعة الصلعاء في رأسها المعرّض للشمس، ثم أرسلت خادماً لاستطلاع الأمر، ولإخبار أولئك، سياسيي الغجر أو عمال كالابريا[٢]، بأن السيد فين الإقطاعي سيغضب إن اكتشف أن المتسللين يخيمون في غاباته.

عاد الخادم يهز رأسه. إنهم لا يتحدثون الإنكليزية. ذهب فان إليهم:

«اذهبوا بعيداً رجاءً، إنها ملكية خاصة»، قال فان بمزيج من مبتذل اللغات اللاتنية، الفرنسية، الكندية الفرنسية، الروسية، اليوكونية الروسية، وكرر مرة أخرى باللاتينية المبتذلة جداً: proprieta private.

وقف ينظر إليهم، ولكنهم لم يعيروه أي انتباه، رغم عدم وقوفه

---

(١) شيانتي: تسمية متخيلة من قبل الكاتب.

(٢) كالابريا: إقليم في إيطاليا. (مترجم)

في ظلال الأشجار. كانوا رجالاً حليقين بشكل سيّئ، ذوي فكوك زرقاء، يرتدون بدلات يوم الأحد القديمة. واحد أو اثنان منهما لم يضعا أطواقاً، ولكنهما أبقيا زر الياقة ذا الرأسين محكماً. كانت لأحدهم لحية وحوَل رطب في عينيْه. جزمات لامعة مع شقوق تحوي تراباً، أو أحذية بنية برتقالية، إما أنها مربعة جداً، أو مستدقة جداً، كانت قد تم خلعها وحشرها تحت جذوع الأشجار، أو وضعها فوق جذل شجرة قديمة، في تلك البقعة التي تنتشر فيها الأشجار المقطوعة. يا للغرابة حقاً! عندما كرّر فان طلبه، بدأ الدخيلون بالهمهمة فيما بينهم برطانة غير مفهومة كلياً، محركين كفوفهم باتجاه فان بطريقة من يهش بعوضة مزعجة، ولا يريد أن يتكلّف عناء ضربها.

سأل مارينا ما إذا كانت تريد منه استخدام القوة، ولكن مارينا الطيبة والعزيزة قد قالت، بينما كانت تملّس شعرها، واضعة يداً فوق وركها: «لا! فلنتجاهلهم!»، خاصة وأنهم كانوا قد بدأوا بالانسحاب إلى عمق الغابة، «انظروا، انظروا!»، جرّ بعضهم مختلف بقايا الأطعمة وراءهم، فوق ما يشبه غطاء سرير قديم، قد سُحب كزورق صيد فوق الرمال والحصى، بينما قام آخرون، بكل أدب، بإزالة أغلفة طعامهم المجعدة، وإخفائها في بقع بعيدة، منقاة من خط المسير العام: مشهد حزين إلى أبعد حدّ، محمّل بالمعاني، ولكن ما هي؟ ما هي؟

توصّل فان تدريجياً إلى إقصائهم عن ذهنه. بدأ جميع الحاضرون بالاستمتاع بأوقاتهم. خلعت مارينا معطفها الواقي من المطر، أو بالأحرى الغبار، كانت قد ارتدته للنزهة (في النهاية، لم يكن زهو فستانها ووشاحها الحريري الوردي ليناسب سيدة مسنة، حسبما صرّحت)، ثم رفعت كأساً فارغة، وبدأت الغناء بصوت شجيّ

وقوي، أغنية «منطقة العشب الأخضر»: «أترع أترع كؤوس النبيذ! لنشرب في صحة الحب! في صحة نشوة الحب! »

بهلع وشفقة، ومن دون أدنى إحساس بالحب، استمر فان في تأمل تلك البقعة الصلعاء البائسة في رأس المغنية الهرم والمسكين، وفروة رأسها المطلية بلون صنوبري صدئ شنيع، أكثر لمعاناً من شعرها الميت. كم حاول، كما في المرات السابقة العديدة، أن يستعصر من نفسه بعض الإعزاز لها، ولكن عبثاً، كالعادة، وكالعادة أخبر نفسه أن آدا بدورها لم تحب أمها أيضاً؛ عزاء مبهم وجبان.

افترض غريغ ببساطة مؤثرة أن آدا قد لاحظت ووافقت على تصرّفه تجاه الآنسة لاريفيير، التي أغدق عليها باهتمامات صغيرة: ساعدها بخلع سترتها البنفسجية، صبّ بدلاً منها الحليب للوسيت من الزجاجة الحافظة للحرارة، ومرّر الفطائر للطفلة، أترع كأس الآنسة بالنبيذ، ثم جدّده ثانية، مستمعاً، بابتسامة جذلة، لخطبتها اللاذعة ضد الإنكليز، الذين قالت إنها تكرههم، أكثر من الطرطاريين، أو حتى الآشوريين.

«إنكلترا!»، هتفت بقوّة، «إنكلترا هي الأرض التي تجد فيها لكل شاعر تسعين برجوازياً دنيئاً يدعمونه، وبعضهم مشكوك في نسبهم! إنها بلد يجرؤ على تقليد فرنسا! أحمل في سلتي تلك رواية إنكليزية ذائعة الشهرة، تحكي عن سيدة قد تلقّت عطراً كهدية - عطر باهظ الثمن! - يدعى "Ombre Chevalier"[1] (فارس الظلام)! والذي هو ليس إلا اسم سمكة - وللحق، إنها سمكة لذيذة، ولكن ليس لحدّ أن تشم رائحتها فوق منديل سيدة! في الصفحة التالية، ذُكر على لسان فيلسوف مزعوم، 'العمل' بصيغة المؤنث، ثم في صفحة

---

(١) Ombre Chevalier: الاسم الفرنسي لسمكة «الشار القطبي». (مترجم)

أخرى، كُتب على لسان عامل فندق 'أعتذر لنفسي' بدل 'أنا أعتذر'، تخيّلوا الفظاعة!»

«ولكن»، قال فان مدلياً بمداخلته، «ماذا تقولين بشأن فظائع الترجمة من الإنكليزية إلى الفرنسية مثل ـــ»

لسوء الحظ، وربما لحسن الحظ، أطلقت آدا في تلك اللحظة زفير تعجب على الطريقة الروسية، كما سُمع فجأة هدير عربة رمادية فولاذية قد وصلت فرجة الغابة. ولم تتوقف عن ذلك إلا وكانت محاطة بمجموعة القرويين ذاتهم، الذين بدا وكأنهم تضاعفوا بطريقة غامضة، بعد أن ارتدوا معاطفهم وصداراتهم. بكل غضب وازدراء، شق الشاب بيرسي دو براي طريقه عبرهم نحو كرسي مارينا، مرتدياً ثوباً مكشكشاً وسروالاً أبيض. ورغم نظرات آدا التحذيرية، وهز رأسها بحركات صغيرة رادعة، أصرّت أمها السخيفة على دعوته للانضمام إلى الحفلة.

«لم أجرؤ على الأمل بذلك. . . أوه، يسرني قبول الدعوة»، أجاب بيرسي، وعندئذ، في اللحظة ذاتها، مشى الإقطاعي البخيل الوضيع، بقناع التسامح، عائداً نحو عربته (التي تحلّق حولها معجبون آخرون) لإحضار باقة من الورود الطويلة، كانت موضوعة في الصندوق.

«يا للأسف! أنا أبغض الورود!»، قالت آدا ثم قبِلتها على مضض.

حُررت قارورة نبيذ العنب المسكي (muscat) من سدّادتها، وشرب الجميع بصحة آدا وإيدا. «ثم بدأت الأحاديث العامة»، كما أحبّت مونبارناس أن تكتب.

تحول بيرسي دو براي فجأة إلى إيفان ديميانوفيتش فيين:

«أصحيح أنك بارع في الوضعيات الشاذة؟»

نصف سؤال كذاك، يستوجب نصف سخرية. نظر فان إلى الشمس من خلال كأس نبيذه، فرآها عسلية اللون.

«وما تقصد بذلك؟» سأل مستفسراً.

«حسناً، أعني مشيك على يديك. إحدى خادمات خالتك تكون شقيقة خادمة لدينا، وفتاتان جميلتان تكفيان لتشكيل فريق ثرثرة خطير(ضاحكاً). تقول الأسطورة إنك قادر على المشي رأساً على عقب في أية زاوية كانت، وعلى مدار نهار كامل. تهانينا! (حانياً رأسه)»

«لا بد أن الأسطورة تبالغ. في الحقيقة، إنني أتدرب على ذلك لبضع دقايق، كل ليلتين، أليس كذلك يا آدا؟ (ناظراً إليها) أتسمح لي أيها الكونت بتقديم كأس من الـ mouse-and-cat(1)؟ إنها تورية سيئة، أنا اخترعتها.»

«فان أيها العزيز!»، قالت مارينا التي كانت تصغي بتلذّذ إلى حيوية الشابيْن وهذرهما اللامبالي. «أخبره عن نجاحك في لندن! Zhe tampri(2) (أرجوك)!»

«أجل، بدأ الأمر كدعابة، في تشوز، كما تعرف، ولكن بعد ذلك ــ»

«فان!»، نادته آدا بصوت حاد، «لدي ما أقوله لك، تعال أرجوك!»

دورن متوجّهاً إلى تريغورين(3) (مقلباً في صحيفة أدبية) : «هنا،

---

(١) mouse-and-cat: تورية تحمل تلميحاً إلى أمرين، الأول نبيذ الـ muscat، باعتبار أن mus هو قط باللاتينية، والآخر لعبة الفأر والقط وما تحمل من أبعاد. (مترجم)

(٢) Zhe tampri: هي je t'en prie بالفرنسية أي أرجوك، ولكن بلهجة مارينا التي تغلب عليها الروسية. (مترجم)

(٣) دورن وتريغورين: أسماء شخصيات في «طائر النورس» - تشيخوف.

ومنذ بضعة أشهر، طُبع مقال معيّن، رسالة من أمريكا. وقد أردت، بالمناسبة، أن أسألك (ممسكاً بتريغورين من خصره ليقوده نحو مقدمة المسرح) لأنني مهتم حقاً بهذا السؤال...»

وقفتْ آدا مع ظهرها مسنود إلى جذع شجرة، كجاسوس جميل قد خلع عنه لتوّه عصابة عينيْه.

«وقد أردت بالمناسبة أن أسألك»، أكمل فان هامساً (مع ضربة صغيرة برسغه تنمّ عن غضب) «كفاك لعباً لدور المضيف الأبله؛ لقد جاءك غارقاً في ثمالته، ألم يكن ذلك جلياً؟»

حال وصول العم دان من دون إتمام الأداء. كانت له طريقة خاصة بالقيادة المتهورة، كما هي الحال - وحدها الآلهة تعرف لمَ - لدى أغلب الرجال العندين والفظّين. تماوج بعربته الصغيرة بين شجيرات الصنوبر، ثم توقّف فجأة أمام آدا، ليقدّم لها هدية مثالية، صندوقاً كبيراً من النعناع، الأبيض، الورديّ، و..أوه، الأخضر أيضاً! كما أحضر لها أيضاً aerogram، قال غامزاً.

فتحت آدا الرسالة، ورأت أنها ليست برسالة واصلة من كالوغانو الكئيبة، كما كانت تخشى، بل كانت رسالة تخص أمها، وقد وصلت من لوس أنجلوس، مكان أكثر بهجة، على الأقل. ما إن قرأت مارينا الرسالة، حتى علا وجهها تدريجياً، تعبير غبطة شبابية غير لائقة. عرضتها، مع إيماءة انتصار، على لاريفيير- مونبارناس، التي قرأتها مرتيْن، ثم مالت برأسها مع ابتسامة لا تنم عن كامل الرضا. ضربت قدمها بالأرض فرحاً:

«بيدرو عائد!»، هتفت مارينا (مقرقرة، مترقرقة) أمام ابنتها الهادئة.

«وأفترض، أنه سيبقى حتى نهاية الصيف»، علّقت آدا، ثم

جلست مع لوسيت وغريغ، للعبة الكلمات، على غطاء مفروش فوق نمل صغير وإبر صنوبر جافة.

«أوه لا ! da net zhe، لأسبوعيْن فقط» (قهقهة بناتية). «وبعدها سنذهب إلى Houssaie, Gollivud-tozh[1] (كانت مارينا بالتأكيد في حالة ممتازة)، أجل سنذهب جميعاً، الكاتب، والأطفال، وفان - إن رغب في ذلك.»

«بالتأكيد أرغب ولكن لا أستطيع»، قال بيرسي من باب الدعابة.

في تلك الأثناء، كان دان (المتأنق بسترته الكرزية المخطّطة، وقبعة القش متعددة ومضحكة الألوان) قد شعر بعدم الارتياح لوجود متنزهين مجاورين لهم، فقرر الذهاب إليهم، حاملاً بيد كأس نبيذ Hero، وباليد الأخرى قطعة من الخبز المحمص المدهون بالكافيار.

«الأطفال الملعونون»، أجابت مارينا عن أمر أراد بيرسي الاستفسار عنه.

كنت لتموت مبكراً يا بيرسي، وليس بسبب تلك الرصاصة التي تلقيْتها في فخذك السمينة، فوق عشب وادٍ في القرم، فتسببت بموتك بعد قليل، بعد أن فتحت عينيك في ملجأ في ماتشيا، وشعرت بالارتياح والأمان؛ لا، بل أبكر من ذلك. كان موتك وشيكاً يا بيرسي، في ذلك اليوم من شهر يوليو، وفي مقاطعة لادور، حين كنت متمدّداً باسترخاء تحت أشجار الصنوبر، ثملاً على نحو ملكي بعد بعض الاحتفالات المبكّرة، مع شهوة في قلبك وكأس دبقة في يدك القوية ذات الشعر الأشقر، مستمعاً إلى أدب أجوف، مدردشاً مع ممثلة مسنة وغامزاً ابنتها النكدة، وكنت خلال كل ذلك مستمتعاً،

---

(١) Houssaie, Gollivud-tozh : التسمية الروسية والفرنسية لهوليوود. (مترجم)

معربداً، ومستفيداً من ذلك الوضع المثير - أحييك أيها الصديق القديم! - ولا عجب في ذلك. متين البنية، وسيم، كسول ومتوحش، لاعب رغبي قوي، مطارد الفتيات الريفيات، لقد جمعت بين سحر الرياضي في فترات عطلاته، وبين النبرة المؤثرة لحمار متعجرف. أعتقد أن أكثر ما أكرهه في وجهك الوسيم المستدير، هو بشرة الأطفال التي تكسو كفيْك الناعمتيْن، وذقتك الملساء التي يمكن حلاقتها بسهولة. أما أنا فأنزف عند كل حلاقة، كل يوم، وعلى مدى سبعين عاماً.

«ذات مرة»، قالت مارينا لمعجبها الشاب، «كان هنالك في ذلك العش المثبت فوق جذع الصنوبر 'هاتف'. لو يمكنني الاتصال به الآن للترحيب بقدومه! آه! ها هو!»

تهادى زوجها عائداً يحمل أنباء جديدة، وقد تخلص من كأسه وقطعة الخبز المحمص. لقد كانوا «جماعة مهذبين للغاية». لقد استطاع التعرف على عشر كلمات إيطالية على الأقل. إنهم مجموعة من الرعاة حسبما فهم، وقد ظنّ أنهم ظنوا أنه راعٍ مثلهم. قد يكونون كالنماذج التي خدمتْ رسم لوحة من مجموعة الكاردينال كارلو دي ميديتشي، رسام غير معروف. بحماس، بحماس مفرط، أصرّ الرجل الصغير على إرسال اللحم والنبيذ مع الخدم إلى أصدقائه الجدد الرائعين. بقي منشغلاً، مستولياً على زجاجة فارغة، وسبَت يحوي عدّة خياطة، ورواية إنكليزية لـ كيغلي[1]، ولفافة ورق الحمام. شرحت مارينا أن الالتزامات المهنية تتطلب إجراء اتصال مباشرة مع كاليفورنيا، من دون تأجيل، فوافق دان بسهولة على إيصالها إلى القصر، ناسياً مشروعه.

---

(١) إيزابيل كيغلي (١٩٢٦-٢٠١٨): كاتبة وناقدة إسبانية، خريجة جامعة كامبريدج. (مترجم)

بعد أمد طويل، أخفى ضباب الزمن تسلسل الأحداث المتعاقبة، ولكن بقي فان يتذكر صورته - بينما انطلق دان ومارينا عائديْن، تقريباً، أو ربما بعد ذلك بقليل - واقفاً على حافة الجدول (الذي عكس صورة زوجيْن من العيون المتراكبة بعضها فوق بعض، بعد ظهر ذلك اليوم) يرمي الحصى مع غريغ وبيرسي، على بقايا لافتة عند الضفة الأخرى، قديمة، صدئة ومهترئة.

«حسناً، nado passati (عليَّ أن أبول)!»، قال بيرسي بالعامية السلافية التي تأثر بها، نافخاً وجنتيْه، ملمساً سحّاب سرواله على نحو محموم. أخبر غريغ، متلبّد الإحساس، فان، أنه طوال حياته لم يرَ مثل ذلك المحرك البشع، المختون جراحياً، الكبير إلى حدّ مرعب، ذي الرأس الملون، والذي له شكل استثنائي يشبه قلب الثور؛ وأنه لم يسبق لأي من الفتيان الصاخبين والأشقياء أن شهدوا مثل هذا التدفق اللامنتهي لتياره المتواصل، شديد التقوّس.

زفر الشاب أنفاس الارتياح، ثم وضّب سرواله.

كيف بدأت المشاجرة؟ هل عبر الثلاثة الجدول دائسين فوق حجارته الملساء؟ هل قام بيرسي بدفع غريغ؟ هل دفع فان بيرسي؟ هل كان هنالك شيء؟ عصا مثلاً؟ تم انتزاعها من قبضة حاملها؟ معصم يمسك و يرخي؟

«أووه، أنت لعوب يا فتاي!»، قال بيرسي.

غريغ، بسروال الغولف المبلل تماماً، نظر إليهما عديم الحيلة - كان يحب كل منهما - حين بدآ بالصراع فوق الضفة. كان بيرسي يزيد فان ثلاث سنوات عمراً، وبعض الكيلوغرامات وزناً، لكن الأخير، سبق له أن غلب ضخام البنية المتوحشين بسهولة. بلحظة، وجد الكونت وجهه الموشك على الانفجار محصوراً تحت إبط فان. بظهره المحدودب، طاف الكونت الناخر فوق العشب. تمكن من

تحرير إحدى أذنيه، كانت قرمزية اللون، استردها فان، وأطاح به بركلة من ساقه، ثم انبطح فوقه، مثبتاً فوقه «شفرات الكتف»، na lopatki، كما كان كينغ وينغ ليقول برطانته الرياضية. تمدد بيرسي لاهثاً كمصارع محتضر، وقد ضغط معذبه شفرات كتفيْه إلى الأرض، ثم بدأ يتلاعب، على نحو مرعب، بقفصه الصدري المرتفع. أنذرت صرخة ألم مفاجئة أطلقها بيرسي، بأنه لقي ما كفاه. طالب فان بصيحة استسلام أكثر وضوحاً، وحصل عليها. خوفاً من أن يكون فان لم يسمع همهمة طلب الرحمة، كررها غريغ، بشكل تفسيري. أطلق فان سراح الكونت تعيس الحظ، ثم جلس، بصق، لمّس فوق حنجرته، أعاد ترتيب قميصه الأشعث حول جذعه الصلب، سائلاً غريغ بصوت أجش أن يساعده في العثور على أزرار الأكمام التي فُقدت في المعركة.

غسل فان يديه في بركة صغيرة متفرعة من الجدول، وتعرف هناك، باستمتاع محرج، على ذلك الشيء الأنبوبي الشفاف، الشبيه ببخّاخات البحر(١)، وكان قد رماه التيار على حافة أجمة forget-me-not(٢)، اسم مناسب، أيضاً.

كان قد بدأ المشي في طريق العودة إلى مكان فرجة النزهة، عندما سقط فوقه جبل من الخلف. رفع كتفيْه الغاضبتيْن بسرعة وشقلب مهاجمه رأساً على عقب. ارتطم بيرسي بالأرض وانطرح متلاشي القوى لدقيقة أو دقيقتيْن. حدّق فيه فان ملياً، مع مخالبه

(١) بخاخات البحر: الغَلَالِيّات أو بَخّاخَاتُ البَحْر أو القَمِيصِيّات، وهي حيوان بحري على شكل زجاجة. أما الشيء الأنبوبي الشفاف الذي ذكره الكاتب فهو الواقي الذكري. (مترجم)

(٢) forget-me-not: المعنى الحرفي «لا تنساني»، أما التسمية فهي لنوع من زهور البراري: أذن الفأر. (مترجم)

مفتوحة على أهبّة استعدادها، آملاً بذريعة مناسبة للانقضاض عليه، بنوع غريب من التعذيب، لم تتح له الفرصة سابقاً لاستخدامه في معركة حقيقية. حاول بيرسي النهوض: «لقد كسرت كتفي»، قال متذمّراً، بينما كان يمسّد ذراعه السميكة. «عليك بضبط نفسك أكثر، أيها الشيطان الصغير!»

«انهض! هيا انهض!»، قال فان، «أترغب في المزيد أم في العودة معي إلى جمع السيدات؟ ما قولك؟ حسناً، ولكن لو سمحت، امشِ أمامي!»

ما إن اقترب من الفسحة يتقدّمه أسيره، لعن فان الجولة الأخيرة التي لم يكن مخططاً لها، فقد كلّفته زعزعة في مشيته؛ زفيراً لاهثاً مكتوماً، أعصاباً مشدودة، مع عرج في مشيته ما انفكّ يحاول تقويمه - بينما مشى بيرسي دو براي مرحاً بكامل أناقته، بسرواله الأبيض النقي على نحو ساحر، وقميصه المكشكش، ممارساً بعض التمرينات الرياضية بذراعيه وكتفيْه، وبدا هادئاً جداً لا بل في مزاج عال جداً.

بعد قليل، انضم إليهما غريغ، بعد أن جلب الزرّ المفقود - معجزة بحثه الدقيق. «أحسنت أيها الفتى»، قالها بيرسي بابتذال، عاقداً بالزرّ سوار كمّه الحريري، مكملاً به ترميمه الوقح.

استمر رفيقهما المطيع بالركض وكان أول من وصل إلى الاحتفال المنتهي؛ رأى مقابله آدا، تحمل بيد حبّتين من فطر البوليطس الأحمر المرقط وثلاث حبّات في اليد الأخرى؛ وعندما أساء فهم ملامح المفاجأة التي بدت على وجهها، والتي لم يكن لها سببٌ سوى جلجلة عدوه كفارس يشقّ الضباب، صرخ من بعيد محاولاً التفسير: «إنه على ما يرام! إنه على ما يرام يا آنسة فين!» - تعاطف أعمى قد منع الفارس الشاب من إدراك أنها قد لا تكون قد عرفت شيئاً بعد عن الصدام الذي حصل ما بين الجميل والوحش.

«أنا بخير فعلاً»، قال الأول، وقد أخذ من يدها بضع حبات الفطر، طعامها الأشهى والمفضّل، مداعباً قبعتها الحمراء الملساء. «ولِم لا أكون كذلك؟ لقد درّبنا ابن عمك، غريغ وأنا، خادمك المتواضع، على أقوى عروض 'سكروتوموف الشرقي'، أو شيء من هذا القبيل.»

طلب نبيذاً - لكن الزجاجات المتبقية قد وُهبت للرعاة الغامضين الذين كانوا فقدوا أية مراعاة لحسن الجوار: ربما قد أعدموا ودفنوا أحد رفاقهم، وقد تركوا طوقه القاسي، وربطة عنقه التي تشبه الزواحف، متدليين من جذع شجرة الخرّوب. وكذلك اختفت باقة الورود؛ كانت آدا قد أمرت بإعادتها إلى صندوق السيارة، زاعمة أن إهداءها إلى أختها البيضاء الجميلة، سيكون أفضل من إهدارها عليها بشخصها. صفّقت الآنسة لاريفيير بيديها لتوقظ تيم، سائق العربة ذات العجلتيْن، المستغرق في قيلولته، وتروفيم، الحوذيّ صاحب اللحية الشقراء، المسؤول عن إيصال الفتيات. أعادت آدا تجميع حبات الفطر، ولم يجد بيرسي في اليد التي تناولها لتقبيلها إلا بروداً وخشونة.

«كم أسعدتني رؤيتك يا فتى!»، قال مربّتاً برفق فوق كتف فان، وهي حركة محظورة في وسطهم الاجتماعي. «آمل أن تتاح لنا الفرصة للعب سوية مرة أخرى. أتساءل؟»، أضاف بصوت منخفض، «إن كنت بارعاً في الرماية براعتك في المصارعة.»

تبعه فان نحو سيارته المكشوفة.

«فان! تعال إلى هنا يا فان! غريغ يريد أن يودعك»، صاحت آدا، لكنه لم يلتفت.

«أهذا تحدٍّ؟ أتريد مبارزتي؟»، استفسر فان.

ابتسم بيرسي، ممسكاً بعجلة القيادة، شقّ عينيْه، ثم انحنى فوق

لوحة القيادة، ابتسم مجدداً، لكنه لم يقل شيئاً. هدر المحرك، ثم رعد، وشدّ بيرسي قفازاته.

«متى شئت يا صغيري، Quand tu voudras, mon gars»، قال فان صافعاً رفرف السيارة، مستخدماً صيغة المخاطب غير الرسمية[١]، المعتمدة بين مبارزيْن، في فرنسا القديمة.

قفزة نحو الأمام ثم اختفَت العربة.

عاد فان إلى أرض النزهة، بقلب يخفق بغباء؛ أثناء مروره، ألقى التحية على غريغ، الذي كان واقفاً إلى جانب الطريق يتحدّث إلى آدا:

«تلك هي الحقيقة صدقيني! لا يقع اللوم على ابن عمك، فقد دافع عن نفسه أمام بيرسي البادئ، وكانت مباراة نظيفة من مصارعة 'كورتوم'، الشهيرة في تيريستان وسوروكات. بإمكان والدي أن يشرح لك عنها أكثر مني.»

«أنت لديك قلب طيب»، أجابت آدا، «ولكني أشك في سلامة عقلك.»

«كيف له أن يكون سليماً في حضورك، للأسف!»، علّق غريغ ممتطياً فحله الأسود الساكن، كارهاً له، ولنفسه، ولذينك الثوريْن الهائجيْن.

عدّل نظاراته الواقية للشمس، وانطلق بهدوء. صعدت الآنسة لاريفيير بدورها إلى عربتها، التي نقلتها خلال ظلال الغابة المرقّطة إلى المنزل. ركضت لوسيت نحو فان، شبه راكعة، حضنت ابن عمها الضخم من وركيْه، وتشبّثت به للحظة.

---

(١) صيغة المخاطب غير الرسمية: أي استخدام tu (أنت) للمخاطبة بدل vous (أنتم). (مترجم)

«تعالي!»، قال فان وهو يرفعها، «لا تنسي قميصك! لا يمكنك العودة عارية.»

«يا بطلي!» قالت آدا بينما كانت تتهادى، طغى على نبرتها ذلك الغموض الذي لا يسمح لك بالتخمين ما إذا كانت تعبّر عن نشوة أو سخرية، أو محاكاة لأحد الأمرين.

حملت لوسيت سلة فطرها، وراحت تغني بينما كانت تأرجحها:

«فكّ الحلمة
تركها مشوّهة...»

«لوسي فيين! توقّفي!»، صرخت آدا لتسكت العفريتة؛ هزّ فان بقوة الرسغ الصغير الذي كان ممسكاً به، مظهراً غضباً عظيماً، بينما غمز آدا ضاحكاً.

وهكذا، توجّه الثلاثي اللامبالي نحو عربة فيكتوريا[1]، التي كانت تنتظرهم. صفع الحوذي فخذيه بطريقة مفزعة، كإشارة تأنيبية غاضبة أرسلها للخادم الأشعث الذي ظهر من تحت أجمة. كان قد أخفى نفسه هناك للاستمتاع منفرداً بمطالعة نسخة ممزقة من تاترساليا، التي تحوي صوراً رائعة عن سباق الأحصنة، مكبّرة وممدودة على نحو مذهل، وقد تخلّف عن عربة العودة المخصصة لنقل الصحون المتسخة والخدم النعسين.

صعد فوق الصندوق، بجانب تروفيم، الذي بدأ بنقر السياط فوق ظهور الأحصنة، بينما نظرت لوسيت بعينيْها الخضراويْن العابستين، إلى مكانها المعتاد وقد احتلّه أحدهم.

---

(١) عربة فيكتوريا: عربة بأربعة دواليب تجرها الأحصنة وهي مخصّصة لراكبيْن فقط لا أكثر. (مترجم)

«عليك أن تجلسها فوق ركبتيْك بطريقة أخوية»، قالت آدا بصوت محايد.

«ولكن ألن تعترض لاريفيير الملعونة؟»، سأل فان بذهول، محاولاً الإمساك بذيل ذلك الإحساس لمشهد قديم، يعيده القدر إليه.

«يمكن للارفيير أن . . . » (كررت آدا بشفتيْها الشهيتيْن الشاحبتيْن نكتة غافرونسكي البذيئة). . . «وهذا ينطبق على لوسيت أيضاً»، أضافتْ.

«لقد أصبحت تعابيرك أكثر تحرّراً»، علّق فان. «هل أنت غاضبة مني؟»

«لا أبداً، أنا مسرورة لفوزك. ولكن اليوم عيد ميلادي السادس عشر. ستة عشر! أكبر من جدتي حين حصلت على طلاقها الأول. إنها نزهتي الأخيرة، على ما أعتقد. لقد ولى عهد الطفولة. أحبك. وأنت تحبني. غريغ أيضاً يحبني. كلهم يحبونني. أنا غارقة في الحب. انتبه وإلا فإنها ستسحب هذا القضيب. لوسيت! اتركيه حالاً!»

وأخيراً انطلقت العربة في رحلة العودة.

«آخ!» صرخ فان ما إن جلست الحمولة اللحيمة فوق ركبته - أوضح باستياء أن ركبته كانت قد ارتطمت بصخرة.

«طبعاً، هذا ما يجري عندما تشارك في ألعاب الشغب»، تمتمت آدا، ثم حلّت الشريط الزمرّدي، لتفتح كتابها الصغير ذا الغلاف البني المزيّن بالذهب (مشهد رائع تحت أشعة الشمس المارّة) والذي كانت قد بدأت بقراءته أثناء رحلة الذهاب إلى النزهة.

«أنا أحب تلك الألعاب، قليلاً»، قال فان، «وقد تركت لي ذلك الألم الطفيف، والذي يعود لعدّة أسباب.»

«لقد رأيتك - أيها المشاغب»، قالت لوسيت ملتفتة برأسها نحو الوراء.

«صه!»، أسكتها فان.

«أعني أنت وهو.»

«لسنا مهتمين بمعرفة انطباعاتك أيتها الفتاة! وتوقفي عن الالتفات بنظرك إلى الوراء طوال الوقت! ستصابين بالغثيان إذا ما ـــ»

«يا للصدفة! إن جان[1] الذي يحاول أن يدير رأسها . . .»، تدخّلت آدا بإيجاز.

«ـــ شعرتِ 'أنك في اتجاه والطريق في اتجاه آخر'، كما قالت أختك مرة حين كانت في عمرك.»

«هذا صحيح»، أكّدت لوسيت بصوت حالم.

كانت ثيابها تكسو جسداً بلون العسل الداكن. أصبح قميصها بلونه الأبيض خلفيةً لكثير مما قد علق فيه مؤخراً: أكواز صنوبر صغيرة، قليل من الطحالب، فتات الكعك، وعثة حديثة الولادة. ترك توت العلّيق لطخات بنفسجية فوق سروالها الأخضر القصير، الذي امتلأ بوركيْها على نحو لافت للغاية. كان شعرها البرّاق يرفرف فوق وجهه ناشراً رائحة صيف قد مضى. رائحة تخص عائلة؛ أجل، يا للصدفة: مجموعة من صدف قد بدلت أشخاصها، أمكنتها، وظروفها؛ إنه ببساطة فن التباين. جلست في حضنه، ثقيلة، حالمة، تفوح منها رائحة كبد الإوز، وعصير الخوخ، تكاد ذراعاها العاريتان، ذاتا السمرة القزحية، أن تلامسا وجهه - وقد لامستاه كلما نظر إلى الأسفل، يمنة ويساراً، ليتأكد أن الفطر هناك. أجل، كان هناك. كان

---

(١) جان: تقصد به فان وهي تناديه بهذا الاسم حين تتكلم بالفرنسية. Jean qui tâchait de lui tourner la tête. (الجملة كما وردت في النص الأصلي).

الخادم الصغير ينكش أنفه أثناء القراءة - وهذا ما كان ظاهراً من حركة كوعه. مؤخرة لوسيت المكتنزة، وفخذاها الرطبان، كانا آخذين في الغوص أكثر فأكثر في الرمال المتحركة، لما يشبه الحلم؛ حلم معاد الصياغة، ماض مشوّه على نحو أسطوري. أما آدا الجالسة بجواره، والتي كانت تقلّب صفحات كتابها الصغير بسرعة أكبر من تلك التي قلّب بها الخادم صفحاته، فقد كانت ساحرة، استحواذية، معشوقة أبداً، وقد زادت فتنتها كآبة أكثر مما كانت عليه منذ أربع سنوات خلت - ولكنها ذكرى النزهة القديمة التي عادت للحياة الآن، وهذا ورك آدا الناعم الذي يملأ حضنه الآن، كما لو كانت حاضرة في نسختيْن، لكل منهما لونها المختلف. نظر جانبياً إلى آدا عبر خيوط النحاس التي تطير فوق وجهه، فزمّت شفتيها بما يشبه قبلة في الهواء (وأخيراً سامحته على الشجار الذي وقع) ثم عادت إلى كتيّبها الصغير، «ظلال وألوان»، مجموعة قصص قصيرة لشاتوبريان صادرة عام ١٨٢٠، وقد حوت صوراً ملونة، وزهرة شقائق النعمان، يابسة ومسطحة. ظلال وألون الغابة الحرشية التي عبرت فوق كتابها، فوق وجهها، فوق ذراع لوسيت العارية، التي لم يستطع منع نفسه عن تقبيلها فوق لدغة ناموسة، كدفع جزية نقية لهاتيك الازدواجية. اختلسَت المسكينة لوسيت نظرة إليه خاطفة، ثم صرفت نظرها بعيداً لتتأمل من جديد - عنق الحوذي الأحمر - أو الحوذي الآخر، الذي بقي يطارد أحلامها لعدّة أشهر.

لا يهمنا الآن متابعة الأفكار التي أثارت اضطراب آدا، التي كان انتباهها لكتابها أقل بكثير مما بدا عليه؛ نحن لا نريد، ولا نستطيع أن نلاحق بنجاح، أفكاراً لم تعد في الذاكرة أكثر من مجرّد ألوان وظلال، أو خفقان شهوة شابة، أو أفعى خضراء في جنة مظلمة. لذا نجد أنفسنا مرغمين أن نجلس داخل فان، الذي جلستْ آدا خاصته

داخل لوسيت، وقد جلستا كلتاهما داخل فان (وجلس الثلاثة داخلي، أضافت آدا).

تذكّر بانقباض ممتع التنورة المتساهلة التي ارتدتها آدا يومذاك، «النشوة البالونية»، التعبير الذي سمعه في تشوز، وأسف (مبتسماً) لارتداء لوسيت سروالاً محتشماً اليوم، ولارتداء آدا (ضاحكاً) سروالاً بلون الذرة «المقشرة». في المراحل القاتلة لأكثر الأمراض فتكاً (مع تنكيسة رأس كئيبة) يحدث أن تكتنف بعضَ الأصباح الحلوة راحةٌ مثالية - لا يعود سببها لحبة أو جرعة دواء (الأدوية المنتشرة بفوضى فوق منضدة السرير الجانبية) أو لنقل أن يد اليأس الحنونة، قد أخفت الأدوية من دون علم منا. أغمض فان عينيه لمزيد من التركيز على ذلك الطوفان الذهبي لبهجة متخمة. بعد العديد من السنوات، العديد العديد من السنوات، تذكر متعجّباً (كيف يقدر المرء على تحمّل تعذيب نشوة؟) السعادة الكاملة لتلك اللحظة، الكسوف الكامل لذلك الابتلاء المدمر المؤلم، منطق الثمالة، الحجة الدائرية لحقيقة الفتاة الأكثر غرابة، التي لا تستطيع حمل نفسها على الإخلاص إن أحبت شاباً بقدر ما يحبها. كان يشاهد سوار آدا الذي عاد إلى ذاكرته في ومضات إيقاعية، تتمايل مع العربة المتأرجحة؛ النظرة الجانبية إلى شفتيها الممتلئتيْن، المشقوقتين طفيفاً، وقد أظهرت تحت الشمس لقاح الزهور الأحمر، المتبقي من مرهم شفاه قد جفّ فوق خطوط نسيجها الناعمة جداً. فتح عينيْه : كان سوارها يلمع بالفعل ولكن شفتيْها قد فقدتا أي أثر لحمرة وفقد معه يقينه بأنه كان في أية لحظة أخرى ليلمس لبّهما الشاحب الملتهب، القادر على إطلاق العنان لأزمة تنمو سراً تحت حمولة حضنه الرصينة. ولكن عنق البديلة الصغيرة، الناضح عرقاً متلألئاً، وثباتها الواثق والواعي، قد أثارا في نفس فان حناناً مرفقاً بالشفقة. كما أنه لا يمكن لأي

احتكاك عابر أن ينافس ما كان ينتظره في سرير يجمعه بآدا. وخزة في رضفته قد أنقذت الموقف، وقرّع فان نفسه لمحاولته اللحاق بخادمة فقيرة بدل أميرة القصر في حكاية خرافية - «التي لا يجوز ليدٍ معنّفة أن تمتد إلى جلدها الثمين وتجعله متهيّجاً»، كما قال بيرو في نسخة بيترسون[1].

تغير مزاجه مع تلاشي تلك الشعلة الوجيزة. يجب قول شيء، إعطاء أمر، فالأمر جديّ جداً، أو يكاد يكون كذلك. كانوا في تلك اللحظة على وشك دخول غامليت، القرية الروسية الصغيرة، التي يصلون من خلالها إلى آرديس، عبر طريق مزروع بشجر البتولا. عبر غيضة صغيرة، مرّ موكب من عذراوات الفلاحات المتوشّحات، غير نظيفات، ولكنهن بلا شك رائعات الجمال، بأكتافهن اللامعة العارية، وأثدائهن الممتلئة والمنقسمة، وقد رفعتها المشدات إلى أعلى صدورهن كأزهار خزامى. كن يغنّين أناشيد قديمة بلهجتهن الإنكليزية المؤثرة:

الأشواك والقرّاص
للفتيات المجنونة
أوه! لقد مزّقن البتلات
أوه! وفرطن حبات اللؤلؤ!

«لديك قلم صغير في جيبك الخلفي»، قال فان للوسيت. «أتسمحين باستعارته؟ أريد أن أدوّن تلك الأغنية.»

---

(١) بيرو في نسخة بيترسون: تلميحان: الأول إلى شارل بيرو (١٦٢٨-١٧٠٣)، شاعر وكاتب قصص خرافية فرنسي، والتلميح الثاني إلى هانز كريستيان بيترسون الدانماركي (١٨٠٥-١٨٧٥)، أشهر كتّاب القصص الخرافية والتي أصبحت عالمية. أما الجملة المذكورة فمقتبسة من حكايته «الأميرة وحبة البازلاء». (مترجم)

«بشرط أن لا تدغدغني!»، قالت الطفلة.

تناول فان كتاب آدا، وتحت نظراتها المستهجنة والمحذّرة، كتب ما يلي:

لا أرغب في رؤيته مجدّداً
أنا جاد
أخبري مارينا أن لا تستقبله وإلا سأرحل
لا داعي للإجابة

قرأت، وبقمة قلم الرصاص، محت السطور بصمت وبطء، ثم مررته إلى فان الذي أعاده إلى حيث كان.

«أنت مضطرب للغاية»، لاحظت لوسيت دون أن تلتفت. «في المرة القادمة»، أضافت، «لن أسمح له أن يأخذ مكاني.»

توقفت العربة أمام الرواق، وكان على تروفيم صفع القارئ الصغير ذي المعطف الأزرق، كي يضع كتابه جانباً ويهبّ لإمساك يد آدا وإنزالها من العربة.

مكتبة
t.me/t_pdf

٤٠

كان فان مستلقياً في عشّه الشبكي تحت شجرة القيثاري، يقرأ مقالاً لأحد المؤمنين بأنتيتيرا يرد به على راتنر. لم يفارقه وجع ركبته طوال الليلة الفائتة؛ الآن، بعد الغداء، بدا أن حاله قد تحسنت قليلاً. كانت آدا قد ذهبت على ظهر حصانها إلى لادور، حيث أمل أنها ستنسى شراء زيت التربنتين القذر لمارينا التي أوصتها بجلبه.

تقدم خادمه نحوه عبر العشب، متبوعاً برسول، شاب نحيل يرتدي جلداً أسود من عنقه وحتى كاحله، وقد أفلتت من تحت قبعته بعض لفائف كستنائية. بالمغالاة التي يمثّل بها هاوٍ مسرحي مبتدئ، نظر الطفل حوله مدققاً في المحيط، ثم سلّم فان رسالة تحمل كلمة «سرية».

العزيز فان،

في غضون يومين، عليّ الالتحاق بالخدمة العسكرية خارج البلاد. إن كنت ترغب في رؤيتي قبل رحيلي، فيسرّني أن ألبي رغبتك وأرفّه عنك (وعن أي نبيل قد تودّ إحضاره معك) فجر الغد، عند تقاطع طريقَي مايدنهير وتوربيير. في حال رفضت، أرجو كتابة رسالة قصير بخط يدك تؤكد فيها

أنك لا تكنّ لي أية ضغينة، تماماً كما لا أكنّها تجاهك، يا سيدي. خادمك المخلص

بيرسي دو براي

لا، لم يرغب فان في رؤية الكونت. هذا ما قاله للرسول الجميل الذي وقف منتظراً، مع ركبة على الأرض والأخرى مثنية، ويد فوق وركه، كراقص ريفي من من كالابارو ينتظر إشارة لينضمّ إلى الحلبة.

«لحظة!»، أضاف فان، «يهمني أن أعرف، وهذا ما يمكن اختباره وراء هذه الشجرة، ما إذا كنت فتىً مربّياً للخيول أم فتاة مربية للكلاب؟»

أخفى بوت ضحكته بينما قاد بعيداً الرسول الذي لم يرد بكلمة. من وراء أشجار الغار التي تحجب طريق الخروج، جاءت صرخة ناعمة توحي بقرصة تحرّش غير محتشمة.

كان من الصعب التمييز ما إذا كانت تلك الرسالة الخرقاء والمتعالية قد أملاها خوفه من أن رحيله للقتال في الخارج دفاعاً عن وطنه قد يفسر على أنه تهرّب من التزاماته الخاصة، أو أن تلك الحركة الاسترضائية، قد يكون بيرسي قد قام بها بناء على طلب أحدهم، امرأة ربما (والدته على سبيل المثال، التي كان اسمها عند الولادة براسكوفيا لانسكوي)؛ بكل الأحوال، لم يكن شرف فان على المحك. مشى ببطء حتى أقرب حاوية للقمامة، وبعد أن تخلص من الرسالة التي تحمل شعاراً أزرق فوق غلافها، طرد الحادثة برمّتها من ذهنه، معزّياً نفسه بفكرة أن آدا لن تعير في المستقبل أية أهمية لمجاملات ذلك الفتى.

عادت في وقت متأخر من فترة ما بعد الظهر - من دون المراهم المطلوبة، thank Log. كان لا يزال مدلياً قدميه من أرجوحته

الشبكية. بدت عليه هيئة العاشق المهجور والبائس، ولكن، ما إن نظر إليها متفحصاً (بنظرات أكثر طبيعية وعفوية من تلك الخاصة بالرسول ذي اللفائف الكستنائية) رفعتْ آدا وشاحها، ركعت إلى جانبه، وبدأت بتهدئته.

عندما ضرب البرق بعد يومين (استعارة قديمة تشعل في الذاكرة ومضات تعود لليلة حريق الحظيرة)، شعر فان أن الوميض قد وضعه في مواجهة حية مع شاهدين سريين، كانا قد علقا في ذهنه منذ اليوم الأول من عودته المشؤومة إلى آرديس: الأول كان يتمتم، متفادياً النظر في عينيْ فان، بكلمات مفادها أن بيرسي دو براي كان، وسيبقى دائماً، مجرد شريك في الرقص، كتابع تافه ولعوب؛ أما الثاني فقد استمر في التلميح، مع إصرار طيفيّ، إلى أن شراً مجهولاً يهدد استقامة عشيقته البيضاء وغير الوفية.

في صبيحة اليوم الذي سبق أسوأ يوم في حياته، صار بإمكانه ثني ركبته دونما تكشيرة من وجهه، ولكنه قد أخطأ حين انضم إلى آدا ولوسيت في غداء مرتجل فوق عشب ملعب الكروكيت المهمل منذ أمد طويل، إذ اضطر للمشي بصعوبة، ذهاباً وإياباً. كان للسباحة في البركة ولحمام الشمس أيما فائدة. وبكل الأحوال، كان الألم قد زال تماماً عندما عادت آدا، في فترة الحرّ الطري لفترة بعد الظهر الطويلة تلك، من نزهة قطف توت العليق، وكان الحزن مخيماً على هيئتها، لأن النباتات لم تعد تثمر كما السابق، باستثناء بعض الفصائل المألوفة والمفضلة. أمرت مارينا بإخراج منضدة زينتها إلى الحديقة فوق العشب، حيث جلست أمام مرآتها البيضاوية، بثيابها الفاخرة، لتستقبل مصفف شعرها العجوز الخرف، ولكن المبدع في صنعته، السيد فيوليت الخاص بـ ليون ولادور. وقد أوضحت أن ذلك النشاط الغريب في الهواء الطلق، يعود في أصله إلى تقليد ما

كانت جدّتها تقوم به، كي لا يفوتها النسيم العليل (كمبارز يحاول تثبيت يده التي تحمل بشكوراً بينما يتجوّل أمام الحشود).

«أقدم إليك أعظم فنان»، توجهت مارينا إلى فيوليت مشيرة نحو فان. ولكن فيوليت قد ظنّه مخطئاً بيدرو، وانحنى له على هذا الأساس. كان فان يتطلع إلى نزهة نقاهة مع آدا قبل أن تتجهز للعشاء، ولكنها قالت، بينما جلست باسترخاء فوق مقعد في الحديقة، إنها كانت متعبة وتشعر بالوساخة، وإن عليها غسل وجهها وقدميْها، للتحضر لابتلائها بواجب مساعدة أمها في الترفيه عن ضيوفها، العاملين في الفيلم، الذين كان حضورهم متوقعاً في وقت متأخر من الأمسية. «سبق أن رأيته في سيكسيكو»، قال فيوليت بصوت منخفض، بينما كان يطبق بكلتا يديه على أذنَي مارينا، محرّكاً انعكاس رأسها في المرآة، في حركة نصف دائرية.

«لا، لقد تأخر الوقت»، تمتمتْ آدا، «وعلاوة على ذلك، فقد وعدت لوسيت ــ»

أصر بهمس غاضب، علماً أنه كان على ثقة تامة أنه عبثاً يحاول تغيير رأيها، لا سيما حين يتعلق الأمر بشؤون غرامية؛ ولكن، وعلى نحو عجيب وغير مفهوم، تلاشى التردد في عينيها ليتحول إلى نظرة غبطة لطيفة، كمن يقع على نجاة مفاجئة. هكذا عندما يستطيع طفل التحديق في الفضاء، بابتسامة تطلع إلى الشمس، عند إدراكه أن الحلم السيّئ قد انتهى، أو أن الباب ليس مقفلاً، وأنه أصبح قادراً على التجديف في السماء الدافئة، دون أن يعاقبه أحد. وضعت آدا حقيبة كتفها جانباً، تحت المراقبة حسنة النية لنظرات فيوليت، الذي تبعهما فوق انعكاس رأس مارينا في المرآة، بينما سارعا بعيداً، سعياً نحو ما يعتبر نسبياً عزلة، في أحد أزقة المتنزه، حيث عرضت عليه مرة لعبتها «الشمس والظلال». حملها، قبّلها، ثم قبّلها مجدّداً، كما لو كانت قد

عادت لتوّها من رحلة طويلة ومحفوفة بالمخاطر. كانت لابتسامتها عذوبة خاصة وغير متوقعة. لم تكن ابتسامة شيطان خبيثة تتذكر رغبة حارقة أو تعد بأخرى، بل ذلك التوهج البشري المبهر للسعادة والعجز. كل شغف مفرح قد أجهدا له، منذ حريق الحظيرة وحتى جدول توت العليق، ما كان ليقارن بهذا الإشعاع لروح مبتسمة. سترتها السوداء، وتنورتها السوداء، بجيبين مئزريين، قد فقدتا كل معنى «الحداد على زهرة مفقودة»، الوصف الذي تخيلته مارينا ما إن نظرت إلى ملابس ابنتها («nemedlenno pereodet'sya اذهبي للتبديل فوراً!» صرخت في وجه المرآة التي عكست بريقاً أخضر)؛ وبدلاً من ذلك، اكتسبتا سحر الطراز القديم، لزي مدرسة ترتديه تلميذة من لياسكا. وقفا، جبهة مقابل جبهة، أبيض مقابل أسود، أسود مقابل أسود، هو، ممسكاً بها من كوعيها، وهي، عازفة بأصابعها الخفيفة فوق ترقوته. أخبرها كم كان «يعشق» أريج شعرها الداكن والممزوج بعبير سيقان زنابق مهروسة، سجائر تركية، ورائحة الكسل التي تعبق بها «المعشوقات». «لا! لا تفعل!» قالت، «عليّ الاغتسال، سريعاً سريعاً، على آدا أن تغتسل»؛ ولكنهما وقفا هناك للحظة خالدة أخرى، متعانقيْن في صمت المكان، مستمتعيْن، كما لم يفعلا قبلاً، بشعور «الأبدية السعيد»، في نهاية قصة خيالية لا نهاية لها.

إنه مقطع رائع جداً يا فان! لن تجف دموعي هذه الليلة. (إدراج متأخر)

عندما سقط آخر شعاع شمس فوق آدا، لمع لعاب فان فوق فمها وذقنها، الغارقيْن في قبله المسكينة، التي لا أمل يُرجى منها. هزّت رأسها وقالت إن الأوان قد آن لفراقهما؛ قبّلت يديه كما اعتادت أن تفعل في لحظات الحنان الجارف فقط، ثم ابتعدت سريعاً، وها هما حقاً يفترقان.

زهرة أوركيد عادية، من فصيلة «نظيرات خف السيدة»، كانت هي كل ما ذوى في حقيبة الكتف خاصتها التي تركتها فوق طاولة الحديقة، ليتم جرّها فيما بعد نحو الطابق العلوي.

لم تعد مارينا هناك، وكذلك مرآتها. نزع عنه ملابس التدريب، وقام بغطس أخير في حوض السباحة، الذي وقف كبير الخدم عند حافته، ينظر متأملاً في زرقة مياهه الزائفة، مع يديه وراء ظهره.

«أنا أتساءل»، قال مستغرباً، «إن كان ما رأيته شرغوفاً!»

بدءاً من الآن، سيكون للموضوع الروائي الخاص بالرسائل الكتابية نقلة نوعية. عندما صعد فان إلى غرفته، لاحظ، بصدمة تحقّقِ نذير حدسه، بروز قصاصة ورق من جيب سترته السموكينغ. كانت الرسالة المكتوبة بقلم الرصاص، بأحرف كبيرة مموجة ومفصّلة بعناية كبيرة، تحمل تحذيراً مجهول المصدر: «لا يجب أن يخدعك أحد[1]». كان من الواضح أن كاتب الرسالة يتحدث باللغة الفرنسية. كان أكثر من خمسة عشر خادماً ينحدر من أصول فرنسية - أحفاد المهاجرين الذين استقروا في أمريكا بعد أن استولت إنكلترا على بلدهم الجميل والمؤسف، عام ١٨١٥. أن يحقق معهم جميعاً - يعذب الذكور ويغتصب الإناث - سيكون أمراً سخيفاً ومهيناً. بردة فعل صبيانية غاضبة، هرس فراشة عنقه تحت عجلة غضبه[2]. الألم الذي خلفته عضة ناب الأفعى قد وصل الآن إلى قلبه. عثر على ربطة عنق أخرى. أكمل ارتداء ملابسه ثم ذهب للبحث عن آدا. وجد

---

(١) لا يجب أن يخدعك أحد: وردت في النص الأصلي: "One must not berne you"، بحشر فعل berner الفرنسي ضمن جملة إنكليزية. (مترجم)

(٢) هرس فراشة تحت عجلة غضبه: تعبير إنكليزي يستخدم للدلالة على اللجوء غير الضروري للعنف. أما فراشة العنق المذكورة فهي ربطة العنق على شكل فراشة. (مترجم)

الفتاتيْن مع مربياتهما في واحدة من قاعات الاستقبال في قسم الحضانة، غرفة جلوس مبهجة مع شرفة جلست فيها الآنسة لاريفيير إلى طاولة Pembroke مزخرفة على نحو ساحر، تقرأ السيناريو الثالث لـ «الأطفال الملعونون» بخليط من المشاعر مصحوب بكثير من الحواشي المغيظة. فوق طاولة مستديرة أكبر، موضوعة في الغرفة الداخلية، كانت لوسيت، تحت توجيه آدا، تحاول تعلم رسم الزهور؛ كثير من الأطالس النباتية، الكبيرة والصغيرة، كانت هناك أيضاً، فوق الطاولة. كل شيء بدا على حاله المعتادة؛ الحوريات الصغيرة والماعز في لوحة السقف، الضوء اليانع لنهار ينضج ليصبح ليلاً، الإيقاع البعيد لصوت بلانش الحالم الواصل من غرفة الغسيل، بينما كانت تغني «مالبروغ» (. . . لا أعرف متى يعود، لا أعرف متى يعود. . .) والرأسان الجميلان، الأسود البرونزي، والأحمر النحاسي، منحنيان فوق الطاولة. أدرك فان أن عليه أن يهدّئ من غليان دمه قبل أن يطلب شرحاً من آدا - أو حتى قبل أن يخبرها أن هنالك ما يستوجب الشرح. بدت مرحة وأنيقة؛ كانت تلبس عقد الألماس الذي أهداها إياه، لمرتها الأولى؛ ارتدت فستاناً جديداً للسهرة، مطرّزاً بالأسود البراق، وأيضاً للمرة الأولى، جوارب حريرية شفافة.

جلس فوق أريكة صغيرة، وتناول بشكل عشوائي أحد الكتب المفتوحة فوق الطاولة، وحدّق باشمئزاز في مجموعة من الصور الملونة التي تصور فصائل كبيرة من الأوركيد لها بين النحل - كما يقول الكتاب - «شعبية تعتمد على قدرة الأوركيد على محاكاة وإصدار مختلف الروائح الجذابة، ابتداءً من رائحة عمال النحل الميتين إلى رائحة المسك». قد يكون للجنود الميتين رائحة أفضل.

في تلك الأثناء، استمرت العنيدة لوسيت بإصرارها على أن

أسهل طريقة للرسم هي وضع ورقة شفافة فوق الصورة المطلوبة (في حالتها، زهرة بوغونيا بلحية حمراء، مع تفصيل للبنية يبدو بذيئاً، نبتة غريبة تنمو في مستنقعات لادوغا) وتتبّع الخطوط العريضة للشيء بالأحبار الملونة. لم تقبل الصبورة آدا بالنسخ الآلي، بل «من العين لليد ومن اليد للعين»، وأن تستخدم كنموذج عينة حية من نوع آخر من الأوركيد، لها جيب بني مجعّد، وسبلة أرجوانية؛ ولكن بعد قليل، أعلنت استسلامها بروح مرحة، وأزاحت جانباً إناء الزهور الكريستالي الذي كان يحتضن زهور «نظيرات خف السيدة»، التي كانت قد قطفتها. ثم بدأت، على نحو بسيط وخفيف، بشرح كيفية عمل الجهاز التناسلي لدى الأوركيد - ولكن كل ما أرادت الطفلة غريبة الأطوار معرفته، كان: هل يمكن لذكر نحل أن يلقّح زهرة أنثى بواسطة شيء ما؟ من خلال جواربه، سترته الصوفية، أو أي شيء يلبسه؟

«أتعرف»، قالت آدا مصدرة صوتاً كوميدياً من أنفها، «أتعرف»، ملتفتة نحو فان، «أن للطفل أقذر مخيلة؟ وها هي الآن ستغضب من قولي هذا وستذهب للبكاء فوق صدر لاريفيير وستقول شاكية إنها قد تم تلقيحها يوم جلست فوق ركبتيك.»

«ولكني لا أستطيع البوح لـ بيل بالأمور القذرة»، قالت لوسيت بلطف وعقلانية.

«ما خطبك يا فان؟» استفسرت آدا بنظرات حادة.

«ولِمَ تسألين؟»، استفسر فان بدوره.

«أذناك تهتزان، وحنجرتك ترتجف.»

«هل انتهيت من زهورك الرهيبة تلك؟»

«أجل، سأذهب الآن لغسل يديّ. سنلتقي في الأسفل. ربطة عنقك ليست مستوية.»

«حسناً، حسناً»، قال فان.

«يا فارسي الجميل! يا فارسي الجميل!
ميرونتون، ميرونتون، ميرونتون!
يا فارسي الجميل! يا فارسي الجميل. . . »

في الطابق السفلي، في الدهليز الكبير، شدّ جونز حبل جرس العشاء.

«حسناً، أخبرني الآن!»، سألت آدا عندما التقيا بعد دقيقة، فوق شرفة غرفة الرسم.

«وجدت هذه في جيب سترتي»، قال فان.

فركت آدا واجهة أسنانها الأمامية بسبابة عصبية، بينما كانت تقرأ الملاحظة وتعيد القراءة.

«وكيف عرفت أنك المعني؟» سألته، بعدما أعادت له تلك القصاصة المقتطعة من دفتر.

«باعتباري أخبرك فأنا متأكد»، صاح عالياً.

«أخفض صوتك!»، قالت آدا.

«لقد وجدتها هنا»، مشيراً إلى قلبه.

«مزقها وانس أمرها»، قالت آدا.

«خادمك المطيع!»، أجاب فان.

٤١

لم يكن بيدرو قد عاد من كاليفورنيا. لم تحسّن حمى القش[١] ولا النظارات الداكنة، من مظهر غ.أ. فرونسكي. أحضر أدورنو، نجم الكراهية، زوجته الجديدة، التي تبيّن أنها كانت واحدة من أقدم زوجات ضيف آخر (وأحبهن إلى قلبه)، وهو ممثل كوميدي أكثر أهمية، قد رشا بوتيبان بعد العشاء، لادعاء وصول رسالة مستعجلة تستلزم رحيله الفوري. ذهب غرغوري أكيموفيتش معه (باعتباره جاء معه بذات الليموزين المستأجرة) تاركاً وراءه مارينا، آدا، آدورنو، وماريان خاصته التي كانت تتنشق بطريقة ساخرة، تركهم جميعاً متحلقين حول طاولة لعب الورق. كانوا يلعبون الـ بريوش، شكل من أشكال لعبة الـ ويست، وقد استمروا في ذلك حتى أمكن الحصول على سيارة أجرة في لادور، أي بعد الواحدة صباحاً.

في تلك الأثناء، بدّل فان ملابسه، عاد إلى سرواله القصير، لف نفسه برداء الطرطان، وانسحب نحو غيضته الصغيرة، حيث لم تكن

---

(١) حمى القش: حمى القش والمسمى أيضًا بالتهاب الأنف التحسسي أو حساسية الأنف له أعراض تشبه تلك الناتجة عن نَزْلَة البَرد كالرشح وحكة العين والاحتقان والعطس وضغط الجيوب الأنفية. (مترجم)

المصابيح الإيطالية مضاءة طوال تلك الليلة التي ثبت أنها لم تكن احتفالية كما توقّعت مارينا. تسلّق أرجوحته، وقبل أن يغلبه النعاس، بدأ بمراجعة أسماء الخدم المتحدثين بالفرنسية، الذين دسّ أحدهم في سترته تلك الرسالة المشؤومة، التافهة، وفقاً لرأي آدا. بطبيعة الحال، كانت بلانش الهيستيرية والرائعة هي المتهم الأول - ما لم يُؤخذ خجلها في الحسبان، وخوفها من أن تطرد (ما زال يذكر مشهداً مروعاً، عندما تذلّلتْ متوسلة الرحمة، منكبّة على قدمَي لاريفيير التي اتهمتها بسرقة حلية، اتضح لاحقاً أنها كانت قد سقطت في إحدى فردات أحذية لاريفيير). كان تورّد وجه بوتيبيان، وتبسّم وجه ابنه، هما ثاني ما ظهر لفان في مركز خيالاته؛ حين تمكن أخيراً من النوم، رأى نفسه فوق جبل قد طمرته الثلوج، وبدأ يهتز بانهيار ثلجي، فجرفه كما جرف أناساً آخرين، وأشجاراً، وبقرة أيضاً.

شيء ما قد أيقظه من سباته المضطرب ذاك. اعتقد بداية أنه برد الليلة المميتة، ثم أدرك أنه الصرير الطفيف (الذي وصل كصراخ إلى كابوسه). رفع رأسه فرأى ضوءاً خافتاً بين الشجيرات حيث كان باب مستودع العتاد، المفتوح جزئياً، يُدفع من الداخل. لم يسبق لآدا أن ذهبت مرة هناك من دون سابق تخطيط محكم من قبلهما معاً، لكل خطوة أثناء مواعداتهما الليلية المعدودة. تمكن من الخروج من أرجوحته ومشى بخطى ثابتة نحو المدخل المضاء. انتصبت أمامه صورة مغبشة لبلانش. عرضتْ مشهداً غريباً: بثوب نسائي، عارية الذراعيْن، فردة من جاربيْها مرفوعة، الأخرى مسدلة إلى الكاحل؛ لا وجود لخف؛ إبطان يلمعان بالعرق؛ وكانت ترخي شعرها في محاولة بائسة لغواية رديئة.

«C'est ma dernière nuit au château إنها ليلتي الأخير في القصر»، قالتها برقّة، ثم أعادت صياغتها بالإنكليزية الخاصة بها،

الرثائية والمتكلفة، كتلك التي لا توجد إلا في الروايات القديمة. ''Tis my last night with thee''.

«ليلتك الأخيرة؟ معي؟ ماذا تعنين بذلك؟»، وراح ينظر إليها بعدم ارتياح غريب، كذلك الذي نشعره عند سماع كلام صادر عن هذيان، أو ثَمَل.

ولكن وعلى الرغم من الجنون الذي بدت عليه، كانت صورة بلانش واضحة جداً. قبل بضعة أيام، كانت قد قررت بينها وبين نفسها مغادرة آرديس. كانت قد أزلقت طلب استقالتها، مع حاشية عن سوء سلوك الآنسة الشابة، تحت باب غرفة «السيدة». سترحل في غضون ساعات. لقد أحبته، لقد كان «جنونها وشغفها»، وأملت لو أنها تعيش بضع لحظات سرية معه.

دخل المستودع وأغلق الباب ببطء. كانت لذلك البطء أسبابه غير المريحة. وضعت فانوسها فوق درجة السلم، وبدأت بعجل رفع تنورتها الضيقة. التعاطف، المجاملة المرفقين بمساعدة من قِبلها، قد ساعدا في إثارة الرغبة التي اعتبرتها هي مكتسباً، أما هو فقد أخفى غيابها بعناية تحت طرطانه؛ ولكن بغض النظر عن خوفه من التقاط عدوى ما (كان بوت قد لمّح للبعض عن مشاكل الفتاة المسكينة الطبية) فإن أمراً آخراً، لا بل أكثر خطورة قد شغله. أبعد يدها الجسورة وجلس إلى جانبها فوق المقعد.

أكانت هي من دسّ الورقة في جيبه؟

أجل. لم تكن قادرة على تحمّل رحيلها والسماح للآخرين أن يستمروا في خداعه، غشّه، وخيانته. وأضافت، بين قوسيْن سخيفيْن، أنها كانت متأكدة أنه لطالما رغب فيها، وأنه يمكن لهما لاحقاً تعويض ما فاتهما. أنا ملكك الآن، أوشك الفجر على البزوغ، لقد تحقق حلمك.

«تكلمي عن حلمك»، أجاب فان. «لا مزاج لي لممارسة الحب، كما أني سأخنقك، أؤكد لك ذلك، إن لم تخبريني بكل تفاصيل القصة، وفوراً.»

هزت رأسها موافقة. اختلط الخوف مع العشق في عينيْها اللتيْن حاولت إخفاءهما. متى وكيف بدأ الأمر؟ أغسطس الماضي، أجابت. بينما ذهبت آنستك لقطف الزهور، رافقها هو خلال نزهتها في حقل العشب الطويل، حاملاً ناياً في يده. من هو؟ وأي ناي؟ ولكنه الموسيقي الألماني طبعاً! السيد راك! ولأن الواشية المتحمسة كانت بنفسها هناك في موعد غرامي، على الجانب الآخر للتحوّط، مع عشيق لها، فقد تمكنت من مراقبة الحدث. كيف يمكن لأية فتاة أن تفعل ذلك مع شخص قذر مثل راك، الذي نسي مرة صاريته في كومة القش؟ كان الأمر أبعد من أن تفهمه مخبرتنا. ربما لأنه ألّف لها أغنية، أغنية جميلة جداً قد عزفها مرة في إحدى الحفلات العامة الكبيرة، في كازينو لادور، ولقد. . . لا يهم ذاك، أكملي القصة. ومرة، ذات ليلة تشعّ بالنجوم، كان السيد راك في قارب فوق النهر، وقد سمعته المخبرة مع اثنين من عشاقها (كانت معهما بين شجيرات الصفصاف) يروي قصة طفولته البائسة، وكيف أمضى حياته في الجوع والموسيقى والوحدة، فبدأت حلوته بالبكاء، فأرجع رأسها إلى الخلف، وبدأ يتغذّى على عنقها العاري، لقد أكله بقبلات مقرفة. لم يحصل على الشابة أكثر من اثنتي عشرة مرة، لم يكن بقوة رجل نبيل آخر - توقفي! قاطعها فان - ثم عرفت الشابة في الشتاء أنه كان متزوجاً، ويكره زوجته القاسية، وعندما عاد في أبريل لإعطاء دروس بيانو للوسيت، استأنفا علاقتهما، ولكن عندها ـــ

«هذا كافٍ»، صرخ فان، ضارباً جبينه بقبضته، ثم خرج يمشي متعثراً في ضوء الشمس. كانت ساعة يده المعلقة بطرف الأرجوحة

تشير إلى السادسة إلا ربعاً. كانت قدماه حجارة باردة. بحث عن خفّه، ثم بقي لفترة يمشي بلا هدف بين شجيرات الأيكة، حيث كانت طيور السمنة تغرد بوفرة، بقوة رنانة، كناي يصدر نغمات سريعة ومتعاقبة، لها من الروعة ما يجعل المرء غير قادر على تحمّل عذاب وعيه، رجس الحياة، الخسارة، الخسارة، الخسارة. استعاد تدريجياً ما يشبه السيطرة على الذات من خلال طريقة سحرية تقضي بعدم السماح لصورة آدا بالاقتراب من وعيه، ولا بأي شكل من الأشكال. خلق ذلك فراغاً قد تدفقت إليه العديد من الأفكار التافهة. تمثيلية إيمائية لفكرة عقلانية.

في مقصورة الحمامات التابعة للمسبح، أخذ حماماً فاتراً. كان متأنياً في كل ما يفعل، بطيئاً على نحو هزلي، حذراً، خوفاً من أن يكسر فان الجديد، المجهول والهشّ، والذي وُلد منذ دقيقة. شاهد أفكاره تدور، ترقص، تتبختر كمهرج صغير. وجد متعة كبيرة، على سبيل المثال، في تخيل الصابونة كوليمة إلهية للنمل الذي كان يغمرها، ويا لصدمة تلك الحشرات، حين ستجد نفسها غارقة في خضم ذلك الطقس. ارتأى أن بعض التعديلات يجب أن تطرأ على قانون الشرف الذي يمنع منازلة رجل لا يعود لأصول نبيلة، ليشمل، استثناءً، الفنانين، عازفي البيانو، عازفي الناي، وإن رفض جبان ما، يجب السماح بصفعه إلى أن تنزف لثته، أو ما هو أفضل من ذلك، جلده بخيزران قوية - لا يجب أن أنسى اختيار واحدة من خزانة الدهليز قبل أن أرحل إلى الأبد، الأبد. مرح عظيم! كان يتلذذ بما يتخيّله كما لو كان يرى راقص جيغ عار بساق واحدة، يقفز مركّزاً على سروال يحاول إدخاله. مشى بتؤدة خلال مركن العربات. صعد الدرج الكبير. كان المنزل فارغاً، وبارداً، يعبق برائحة القرنفل. صباح الخير، ووداعاً، يا غرفة نومي الصغيرة. حلق فان ذقنه، قلّم

فان أظافر قدميه، ارتدى فان ملابسه بعناية فائقة: جوارب رمادية، قميص حريري، ربطة عنق رمادية، بدلة بلون الرمادي الغامق، حديثة الكيّ - الحذاء، أوه أجل، الحذاء، لا يجب نسيان الحذاء! ومن دون أن يكلّف نفسه عناء ترتيب ما بقي من متاعه، حشر بعض الدولارات الذهبية من فئة العشرين في محفظة شاموا، ونثر حول شخصه الجامد منديلاً، دفتر شيكات، جواز سفر، ماذا بعد؟ لا شيء، ثم كتب ملاحظة وعلقها فوق الوسادة، طالباً فيها توضيب متاعه وإرساله إلى عنوان والده. ابن مات تحت انهيار ثلجي، لا أثر لقبعة، تبرع بوسائل منع الحمل إلى دار المحاربين القدماء. بدا كل ذلك بعد مرور ثمانية عقود تقريباً، مسلياً وسخيفاً، ولكن عند ذلك الصباح، كان فان مجرد رجل ميت، يؤدي حركات حالم متخيل. انحنى ناخراً، لاعناً ركبته، لتثبيت مزلاجه؛ هطلت الثلوج كثيفة فوق حافة المنحدر، فوق ممرات القيادة، ولكن المزلاج قد اختفى، وكان ما يربطه مجرد حذاء، أما المنحدر، فكان الدرج.

نزل إلى الاسطبلات، وطلب من سائس شاب، يماثله نعساً، إيصاله إلى المحطة. ارتبك السائس، فشتمه فان معنّفاً.

ساعة يده! عاد إلى الأرجوحة حيث كانت الساعة مربوطة بشبكتها. في طريق عودته نحو الإسطبلات، حول المنزل، صدف أن نظر إلى الأعلى ورأى فتاة بشعر أسود، في عامها السادس عشر أو ما يقاربه، في سروال أصفر وبوليرو سوداء، واقفة فوق شرفة الطابق الثالث، وكانت تومئ إليه، بإشارت تلغرافية، وإيماءات خطية فسيحة تشير لسماء صافية (ما معنى سماء صافية!). رفعت قدمها العارية عالياً ووضعتها فوق الدرابزين، التي وصلت إليها قمة شجرة الجكراندة المزهرة (زرقاء! براعم!).

«انتظرني حتى أنتعل صندلي!»

برعب وعار، كان فان يشاهد فان أثناء انتظاره لنزولها.

مشت نحوه بخفة عبر العشب المتلألئ بألوان الطيف. «فان»، قالت، «عليَّ أن أخبرك بحلمي قبل أن أنساه. كنا أنا وأنت فوق قمة الألب... لماذا بحق الله ترتدي ملابس المدينة؟»

«حسناً، سأخبرك»، قالت فان بصوت خامل، «سأخبرك لماذا. عرفت من مخبز متواضع وموثوق، أعني مخبر، أرجو معذرة لهجتي، أنه كان هنالك من يشقلبك وراء كل تحويطة. أين يمكنني إيجاد ذلك البهلوان؟»

«ولا في أي مكان»، أجابت بهدوء تام، بتجاهل أو حتى ربما بعدم ملاحظة فظاظته، إذ إنها لطالما عرفت أن تلك الكارثة آتية لا محالة، اليوم أو الغد، إنها مسألة وقت أو بالأحرى توقيت قد وضعه القدر.

«ولكنه موجود، موجود!»، همهم فان، ناظراً نحو العشب، نحو ألوان الطيف المنعكسة فوق شبكة عنكبوت.

«أفترض ذلك»، قالت الطفلة المتعجرفة، «بكل الأحوال، لقد سافر بالأمس إلى ميناء تركي أو ربما يوناني. ليس هذا فقط، بل كان مستعداً لفعل أي شيء قد يسبب في هلاكه، إن كانت تلك المعلومة تهمك. اسمعني الآن! اسمعني! لم تكن تلك النزهات في الغابة لتعني شيئاً. انتظر يا فان! لم أضعف أمامه إلا مرتين، حين آذيته بشدّة، ربما ثلاث مرات بالمجمل. أرجوك! لا يمكنني شرح ذلك دفعة واحدة، لكنك في النهاية ستفهمني. ليس هناك عاشقان أسعد منا. إنه صبي مسكين، تائه وأخرق. كلنا محكوم علينا بالفشل، ولكن بتفاوت. إنه لا يعني لي شيئاً. لن أراه مجدداً أبداً. لا قيمة له عندي، أقسم لك. إنه يعشقني حدّ الجنون.»

«أعتقد أنك تتحدثين عن العشيق الخاطئ. لقد سألتك عن السيد راك، صاحب أشهى لثة في العالم، وقد عشقك حد الجنون أيضاً.»

بهذه الكلمات، أدار كعبيه - كما يقولون - وسار نحو المنزل. أقسم إنه حين ابتعد لم يلتفت إلى الوراء، ولم يتمكن - من خلال أية فرصة بصرية أو أي موشور - من رؤيتها في شكلها الجسدي؛ ومع ذلك، فقد احتفظ للأبد بصورة لها مركبة، وواضحة إلى حدّ مريع، واقفة هناك حيث تركها. تلك الصورة التي اخترقته من خلال عين في مؤخرة رأسه، من خلال عموده الفقري الزجاجي، ولا يمكن نسيانها أبداً، أبداً، تتألف من مجموعة مختارة وعشوائية من صورها وتعابيرها التي أصابته بطعنة من ندم لا يُطاق، على كثير من لحظات عشقهما الماضية. كانت مشاجراتهما نادرة جداً، وجيزة للغاية، ولكن كافية لتركيب فيسفسائها الخاصة، غير القابلة للتلف؛ وقفت ذات مرة إلى جذع شجرة تنتظر عقوبة الخيانة. ومرة حين رفض أن يريها بعض الصور السخيفة لرحلاته فوق قارب البنط مع الفتيات حين كان في تشوز، ومزّقها غاضباً، فعقدت الحاجبيْن وأشاحت بنظرها عنه، ثم استدارت نحو النافذة، لتتأمل، بعينيْن بالكاد مشقوقتيْن، مشهداً في الخارج غير مرئي. ربما تلك المرة حين ترددتْ، طرفتْ بعينيها، وشكّلت كلمة لا معنى لها، متوقعة من فان ثورة مفاجئة ضد حشمة خطابها الغريبة، بعد أن كان قد تحدّاها بفظاظة كي تجد قافية منتهية بـ "Patio"، ولم تكن تدري ما إذا كان يلمّح إلى كلمة بذيئة، وما قد تكون تلك الكلمة، إن كان حدسها صحيحاً. أو ربما، المرة الأسوأ على الإطلاق، حين وقفتْ تداعب حزمة من الزهور البرية، مع نصف ابتسامة لطيفة وحيادية في عينيها، وشفتيْن مزمومتيْن، وحركات صغيرة وغير دقيقة تقوم بها برأسها كما لو كانت تتخذ قرارات سرية وتوجهها إلى ذاتها، وتضع بنوداً صامتة في عقد تبرمه

مع نفسها، معه، ومع أطراف آخرين سيطلق عليهم فيما بعد «الإزعاج، اللاجدوى، الظلم»، بينما كان فان قد أطلق العنان لغضبه، حين اقترحتْ عليه، بلطف ودونما إلحاح (كما لو كنت تقترح نزهة عند طرف مستنقع، لتتأكد من إزهار نوع معيّن من الأوركيد) زيارة قبر الراحل كروليك في أحد المدافن التي صدف مرورهما بقربها، فما كان منه إلا أن بدأ فجأة بالصراخ («أنت تعرفين أنني أحتقر المدافن، أكره الموت وأدينه، الجثث فكرة هزلية، أنا أرفض التحديق في حجر يتعفن تحته بولندي عجوز سمين. دعيه يطعم ديدانه بسلام! ربط الموت بالحشرات يصيبني بالقشعريرة، أنا أمقت، أنا أكره ـــ»)؛ وبقي على تلك الحال عدّة دقائق، ثم سجد، حرفياً، عند قدميها، يقبّلهما، متوسّلاً عفوها، وبقيت هي لأبعد من ذلك الوقت بقليل، تحدّق في وجهه، بنظرات تأملية وكأنها تدرسه.

تلك كانت شظايا الفسيفساء، وهنالك مزيد، أكثر تفاهة؛ ولكن في التجميع، شكّلت الأجزاء غير المؤذية شكلاً من أشكال الكينونات المهلكة، ولكن صورة الفتاة بسروالها الأصفر والبوليرو السوداء، التي وقفت تشبك يديها خلف ظهرها، تهز كتفيْها برفق، تميل بظهرها قليلاً، ثم تميله أكثر، إلى جذع الشجرة، ثم تداعب شعرها - تفاصيل كاملة لصورة قد أدرك تماماً أنه لم يرها أبداً في الواقع - قد بقيت في ذهنه أكثر واقعية من أي صورة فعلية أخرى.

وقفت مارينا بالكيمينو ولفائف الشعر، أمام الشرفة، محاطة بالخدم، وكانت تطرح أسئلة لم يقدر أحد على إجابتها.

قال فان:

«أنا لا أنوي الفرار مع خادمتك، مارينا. إنه خداع بصري. ستهجركم لأسباب لا تخصني. كنت كأحمق أرجئ بعض الأعمال منذ مدة، وعليَّ الآن الاهتمام بها، قبل ذهابي إلى باريس.»

«إن أمور آدا تقلقني كثيراً»، قالت مارينا بتجهّم كئيب، وارتجاف «روسي» في خدّيها. «أرجوك أن تعود بأسرع ما يمكن، فتأثيرك عليها قوي جداً. إلى اللقاء. أنا غاضبة جداً، ومن الجميع.»

رفعتْ رداءها قليلاً وصعدت درجات الشرفة. كان للتنين الوديع المطرّز بالفضة فوق ظهر ردائها، لسان آكل النمل، كما وصفته ابنتها الكبرى، العالمة. ما عساها الأم المسكينة قد عرفت عن أمر بيرسي وراك؟ لا شيء تقريباً.

صافح فان كبير الخدم المفجوع، شكر بوت لإحضار عصا بقبضة فضية وزوجاً من القفازات، حيّا الخدم بإيماءة من رأسه، وسار نحو الحصانيْن اللذيْن سيجران العربة. أما بلانش التي وقفت هناك، بتنورة رمادية طويلة، قبعة قش، وحقيبة رخيصة بلونَي الأحمر والماهوغني، يحميها حبل قد لفّ حولها عشرين مرة، فقد بدت بالضبط كشابة مسافرة إلى مدرسة للتعليم في أحد أفلام الغرب المتوحش. استأذنتْ للجلوس فوق الصندوق إلى جانب الحوذي الروسي، ولكنه أشار لها كي تدخل العربة.

عبروا حقول سنابل القمح المتماوجة، وقد تخللتها أزهار الخشخاش والهصطونية. بطبقة غنائية رتيبة ومنخفضة، كما لو كانت في جلسة تحضير أرواح تتواصل مع روح شاعر ميت، استمرت طوال الطريق في حديث واحد عن الإقطاعية الشابة وعشيقيْها الأخيريْن. ذات يوم وراء ذلك الصف السميك من أشجار التنوب، انظر هناك، إلى يمينك (لكنه لم ينظر - جالساً بصمت، كلتا يديه فوق مقبض العصا)، تمكنت وأختها مادلون، مع زجاجة نبيذ ما بينهما، من مشاهدة الكونت يغازل الشابة فوق الطحالب، يتمعج فوقها كدبّ ينخر، كما تمعّج - لكثير من المرات - فوق مادلون التي قالت إن عليها، أي بلانش، أن تحذره، أي فان، لأنها كانت تغار قليلاً،

ولكنها قالت أيضاً - إذ إنها طيبة القلب - من الأفضل تأجيل الأمر حتى يذهب مالبروغ إلى الحرب، وإلا سوف يتقاتلان؛ كان يمضي صباح كل يوم بإفراغ مسدسه على فزاعة الحقل، وهذا ما دفعها للتريّث، وكان تأجيل إخباره بناء على طلب مادلون وليس هي. استمرت في ذلك الرغاء حتى مشارف توربيير؛ صفان من الأكواخ، وكنيسة سوداء صغيرة بنوافذ زجاجية ملونة. فتح فان لها الباب لتنزل. اندفعتْ أصغر أخواتها الثلاث - شابة جميلة بلفائف شعر كستنائية، عينين شهوانيتيْن، وصدر عارم (أين رآها سابقاً؟ لقد رآها مؤخراً، ولكن أين؟) - لتحمل حقيبة بلانش وقفص العصافير خاصتها، إلى كوخ فقير قد تسلقت فوقه الورود حتى دفنته، ما عدا ذلك، فإن كلمة موحش لا تفيه حقّه. عاد إلى مقعده في العربة بعد أن قبّل يد سندريلا الخجولة، تنحنح، عدّل ثنية سرواله، ثم لف ساقاً فوق أخرى. فان فيين المعتد بنفسه.

«القطار السريع لا يتوقف في تورفيانكا، أليس كذلك يا تروفيم؟»

«سأمضي بك خمسة فرستات عبر المستنقع، فولوسيانكا هي المحطة الأقرب.»

فولوسيانكا! الترجمة الروسية السوقية لـ مايدينهير؛ صافرة توقف؛ لا بد أن القطار مزدحم.

Maidenhair(١) (القذر). الأحمق! كان على ذلك الولد، بيرسي، أن يكون مدفوناً الآن! الساقط! !Maidenhair يعود مصدر

(١) Maidenhair: التسمية الي أطلقها الكاتب على مكان، هي في أصلها تحمل معنين، الأول اسم نبات (برشاوشان أو شعر الغول)، والثاني عانة المرأة. (مترجم)

اسم المكان إلى وجود شجرة صينية ضخمة عند نهاية رصيف المحطة، كان الناس يخلطون بينها وبين كزبرة البئر. مشت حتى نهاية الرصيف في رواية تولستوي. مبتدع المونولوج الداخلي، والذي نسبه الفرنسيون والإيرلنديون لأنفسهم لاحقاً. ليست خضراء، ليست خضراء، ليست خضراء! الشجرة ذات الأربعين تاجاً، في الخريف على الأقل. أبداً أبداً، لن أسمع صوتها «النباتي» ثانية، يهبط فوق شجرة الجنكة. «عفواً، إنني أستعرض لغتي اللاتينية». Ginkgo, gingko, ink, inkog. كما أنها معروفة بـ adiantofolia خاصة سالزبوري[1]، infolio خاصة آدا، سالزبوريا مسكينة: اسم لم يعد متداولاً؛ تيار الوعي الضعيف؛ تسرب نفطي، حتى هذه اللحظة. من يرغب في قصر آرديس!!

"Barine, a barine!" قال تروفيم ملتفتاً بوجهه ذي اللحية الشقراء إلى راكبه.

«da (ماذا)؟»

"Dazhe skvoz' kozhanïy fartuk ne stal-bï ya trogat' etu frantsuzskuyu devku."

Bárine: سيدي. Dázhe skvoz' kózkanïy fártuk: حتى لو من خلال مئزر جلدي. Ne stal-bï ya trógat': لن أفكر في لمس. Étu: هذه (تلك). Frantsúzskuyu: بالفرنسية (صفة: المكتنزة). Dévku: العاهرة. Úzhas, otcháyanie: رعب ويأس. Zhálost: شفقة. Kóntcheno, zagázheno, rastérzano: انتهى، ملوث، ممزق.

(١) سالزبوري: مدينة في إنجلترا. (مترجم)

٤٢

كثيراً ما كانت آكوا تقول إن الأشخاص شديدي القسوة أو شديدي الغباء، أو الأطفال البريئين، هم وحدهم القادرون على العيش بسعادة، فوق كوكبنا الرائع، ديمونيا. بالنسبة لفان، فإن العيش فوق أنتيتيرا، الكوكب الرهيب، وفي هذا العالم متعدّد أوجه الشر الذي وُلد فيه، يتطلب تدمير أو على الأقل إفساد حياة رجليْن. عليه أن يستعجل في إيجادهما إذ إن أي تأخير بسيط قد يضعف من قدرته على الاستمرار حياً. لن تشفي نشوة إبادتهما قلبه، ولكنها ستغسل دماغه حتماً. تواجد الرجلان في بقعتيْن مختلفتيْن، لم تحمل أي منهما موقعاً محدداً، أو رقم شارع محدد، أو حتى اسم معسكر غير محدد. لم يكن فان واثقاً ما إذا كان القدر، الذي يهيئ له طريق الانتقام ويقحمه فيه، سيكون متعاوناً معه في عرض تلك الحماسة المبالغ فيها على نحو هزلي.

قرر الذهاب أولاً إلى كالوغانو لتسوية حساباته مع السيد راك. في إحدى زوايا المقصورة، المزدحمة بسيقان وأصوات غريبة، غفا فان رغم حزنه الكبير، في القطار المهترئ الذي كان يتجه شمالاً، بسرعة مئة ميل في الساعة. بقي نائماً حتى الظهر، ثم نزل في محطة لادوغا، حيث، وبعد انتظار دام طويلاً، استقلّ قطاراً أكثر

اهتزازاً وازدحاماً من سابقه. صعد فان وبدأ يشقّ طريقه بصعوبة عبر الممرات. راح بينه وبين نفسه يشتم الأشخاص الجالسين والمحملقين في النوافذ، الذين ما كانوا ليزيحوا مؤخراتهم عن طريقه، فاسحين له المجال بالمرور. وبينما كان يفتّش يائساً عن ركن منعزل ومريح، داخل مقصورات الدرجة الأولى التي تحوي كل منها أربعة مقاعد، رأى كوردولا ووالدتها، تجلسان متقابلتيْن إلى نافذة. أما المكانان الآخران فقد شغل أحدهما رجلٌ سمين عجوز بشعر مستعار بني غير عصري، مع فِرق في الوسط، وشغل الآخر صبي يرتد بزّة بحارة ويضع نظارات، وكان يجلس بجوار كوردولا التي كانت في تلك اللحظة تعرض عليه نصف قطعة الشوكولا خاصتها. لمعت في ذهن فان فكرة مفاجئة دفعته لدخول المقصورة، ولكن والدة كوردولا لم تتعرف عليه فوراً. الهياج الذي سببته طقوس إعادة تقديم الذات، بالإضافة إلى ترنح القطار، قد سببا بدوْس فان فوق قدم الراكب العجوز، المنتعل حذاء برونيلا، فأطلق صرخة مدوّية وقال بصوت غير واضح لا يخلو من التهذيب: «احترس فأنا أعاني من النقرس (أو انتبه، أو افتح عينيك جيداً) أيها الفتى!»

«لا أحب أن يناديني أحد بالفتى!»، أخبر فان الرجل العاجز بانفجار صوتي لا مبرر له.

«هل آذاك يا جدّي؟»، سأل الغلام مستفسراً.

«أجل»، أجاب الجد، «ولكني لم أقصد إهانة أحد بصرخة ألمي التي أطلقتها.»

«لا يعفينا الألم من الكياسة»، تابع فان (بينما فان الطيب في داخله قد شدّه من طرف كمه، مذهولاً وخجلاً).

«كوردولا!»، قالت الممثلة العجوز (بذات الاهتمام التي أظهرته يوماً حين التقطت، وداعبت، قط رجل إطفاء كان قد ضل طريقه في

مهرجان Fast Colors، بينما كانت تلقي أفضل خطبها)، «لم لا ترافقين ذلك الشيطان الغاضب إلى مقصورة الشاي؟ أعتقد أنه قد حان وقت قيلولتي.»

«ما خطبك؟»، سألت كوردولا ما إن استقرا في مقصورة الشاي والحلوى، الفسيحة والفخمة، crumpeter، كما اعتاد طلاب كلية كالوغانو أن يطلقوا عليها، في الثمانينات والتسعينات.

«أنا في أسوأ حالاتي»، أجاب فان، «ولكن لمَ تسألين؟»

«حسناً، تجمعنا بالسيد بلاتونوف معرفة بسيطة، ولم يكن هنالك على الإطلاق ما يدفعك لتتصرف بتلك الفظاظة مع الرجل العزيز العجوز.»

«أنا أعتذر، دعينا الآن نطلب الشاي التقليدي!»

«هذا ليس كل ما يبدو اليوم غريباً. لقد لاحظت وجودي، علماً أنك منذ شهرين، تجاهلتني تماماً.»

«لقد تغيرتِ. لقد أصبحت أكثر نحولاً، وأكثر جمالاً من ذي قبل. لم تعد كوردولا تلك الفتاة العذراء! أخبريني الآن! أيصدف أنك تعرفين عنوان بيتر بيرسي؟ أعني أننا جميعاً نعرف أنه ذهب في حملة غزو طارطاريا، ولكن كيف يمكن لرسالة أن تصله؟ لن أتردد في تقديم خدماتي كوسيط لعمتك المتكبرة.»

«أكاد أجزم أن آل فراسر لديهم العنوان، سأجده لك. ولكن ما هي وجهة فان؟ أين عساني العثور عليه؟»

«في المنزل، بارك لاين ٥، خلال يوم أو يومين. أما للوقت الراهن، فأنا ذاهب إلى كالوغانو.»

«إنه لمكان بشع جداً. فتاة؟»

«رجل. ماذا تعرفين في كالوغانو؟ طبيب أسنان؟ أفضل فندق؟ قاعة حفلات موسيقية؟ أستاذ ابنة عمي للموسيقى؟»

هزت رأسها بخصلات شعرها الملفوفة والقصيرة. لا - لم تذهب هناك إلا ما ندر. مرتان لحضور حفلة موسيقية، في غابة صنوبر. لم تكن تعرف أن آدا تتلقى دروساً في الموسيقى. كيف حال آدا؟

«بل لوسيت»، قال فان،« إنها لوسيت من تأخذ، أو أخذت، دروساً في البيانو. لننسَ أمر كالوغانو الآن. إن تلك الكرومبيت تمتّ بعلاقة ضعيفة جداً إلى نظيرتها في تشوز. أنتِ محقة. لدي أمور تقلقني. يمكنك مساعدتي في نسيانها. أخبريني ما يجعلني أفكر في أمر آخر، مع العلم أن وجودك وحده كفيل بالأمر، تعرية، أقصد تورية. أخبريني عن مغامرتك العاطفية!»

ربما لم تكن تلك الفتاة الصغيرة ذات الذكاء الحاد، ولكنها كانت فتاة مثيرة حقاً تعشق الثرثرة. بدأ فان بمداعبتها تحت الطاولة، ولكنها أزاحت يده بلطف، هامسة «الحيض»، بذات الطريقة الغريبة التي همستْ بها طفلة أخرى، الكلمة ذاتها، في أحد مناماته الخيالية. تنحنح بصوت عال، ثم أمر النادل أن يأتيه بنصف زجاجة كونياك، وأن يفتحها أمام عينيه، كما أوصاه ديمون. لم تتوقف كوردولا عن الكلام، وكان خيط حديثها يضيع تارةً، أو يتماهى ما تقول مع المشاهد الطبيعية المتسارعة التي كان فان ينظر إليها من فوق كتفيها، تارة أخرى: ظهر واد بشكل مفاجئ ليكون شاهداً على ما قال جاك عندما اتصلتْ به زوجته، أو شجرة وحيدة في حقل البرسيم لتنتحل شخصية جون المهجور، أو جدول شاعري يهرول نحو أسفل المنحدر، عاكساً بريق علاقتها القصيرة بالماركيز كييز كويزانا.

تلاشت غابة الصنوبر وحلّت مداخن المصانع مكانها. بقعقعة مزعجة، مرّ القطار من أمام منزل دائري، ثم تباطأ متأوهاً. حجبت محطة بشعة ضوء النهار.

«يا إلهي!»، صاح فان، «هذه محطتي.»

وضع نقوداً فوق الطاولة، قبّل شفتَي كوردولا الراغبة، ثم هبّ للخروج. وبينما أوشك على الوصول إلى المخرج، نظر إليها ثانية ملوحاً بقفازاته التي كان يحملها، وإذا به يرتطم بشخص كان قد انحنى لالتقاط حقيبة، «هنالك حدود للبلاهة»، قال الأخير، وهو عسكري شديد البنية، بشارب أحمر، وشارة تدل على رتبة نقيب.

تخطاه فان بحركة خشنة غير مبالية، وعندما لحق به فوق رصيف المحطة، صفعه بفردة قفازه. التقط النقيب قبعته عن الأرض، ثم اندفع نحو الشاب الغندور المتأنق، ذي الوجه الأبيض والشعر الأسود. في الوقت ذاته، شعر فان بأحدهم يحتضنه من الخلف، عرقلة غير عادلة حتى ولو كانت صادرة عن حسن نية. دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات، أبطل تلك الحركة بـ«ضربة مكبس» طفيفة من كوعه الأيسر، بينما أعاد النقيب المترنح نحو حقيبته بضربة واحدة من يده اليمنى. تحلّق حولهم هواة حضور العروض المجانية؛ اخترقهم، ثم مشى نحو الرجل، ساعده في النهوض، ورافقه حتى غرفة الانتظار. وصل وراءهم حمالٌ بوجه مكفهر، وأنف ينزف بشدة، يحمل حقائب النقيب الثلاث، إحداهن تحت إبطه، وكانت الأحدث بينهن ملطخة بالعديد من الملصقات التكعيبية الملونة، القادمة من أماكن بعيدة وجميلة.

تبادلا بطاقات الزيارات. «أنت ابن ديمون؟»، نخر النقيب تابر، المقيم في مسكن «البنفسج البري» - كالوغا. «هذا صحيح» قال فان، «أعتقد أني سأنزل في فندق ماجستيك. في حال لم أفعل، ستكون هنالك ملاحظة متروكة لشاهد المبارزة خاصتك، أو ربما شهودك. عليك أن ترسل لي واحداً أيضاً. من المعيب طلب ذلك من الحمال.»

وبينما كان يتحدث بتلك الطريقة، التقط فان قطعة عشرين دولاراً من قبضة مليئة بالذهب، وأعطاها، مبتسماً، للحمال العجوز المتأذي.

«عليك بوضع القطن الأصفر فوق فتحتيْ أنفك»، قال فان، «عذراً يا صاحبي.»

عبر الساحة نحو الفندق، واضعاً يديه في جيبيْ سرواله، مسبباً لعربة انحرافاً فوق الأسفلت الرطب، مصدرة صوتاً حاداً. ترك العربة مقلوبة على جانبها فوق المسار المرسوم، وشق طريقه متجهاً نحو باب الفندق الدوّار، شاعراً أنه، إن لم يكن أكثر سعادة فهو على الأقل أكثر مرحاً، مما كان عليه خلال الساعات الاثنتي عشرة الماضية.

فندق ماجستيك، صرح قديم هائل، متسخ من الخارج، نظيف ومؤثثٌ بالجلد في الداخل. طلب غرفة متضمنة حماماً، فقيل له إن كل الغرف المماثلة محجوزة لمصلحة مؤتمر المقاوليين، رشا موظف الاستقبال بطريقة آل فين التي لا تُقاوم، وحصل على جناح مقبول بثلاث غرف، مع حوض استحمام مكسو بألواح الماهوغني، كرسي هزاز قديم، بيانو آليّ، وظلّة بنفسجية فوق سرير مزدوج. بعد غسل يديه، نزل فوراً للاستفسار عن مكان إقامة راك. لم يكن لدى آل راك هاتف؛ قد يكونون مقيمين في غرفة مستأجرة في الضواحي؛ نظر البواب إلى الساعة، وأعطى فان عنوان مكتب يعنى بإيجاد الأشخاص المفقودين. بقي مغلقاً حتى الصباح التالي. فاقترح عليه الذهاب إلى متجر للموسيقى في الشارع الرئيسي.

طوال طريقه إلى هناك، كان فان ممسكاً بعصاه الجديدة الثانية، فالعصا ذات القبضة الفضية التي أخذها من قصر آرديس، كان قد نسيها في مقهى محطة مايدنهير. أما هذه فقوية وغليظة مع قبضة

مريحة بطرف ألبيني[١]، قادر على قلع العيون الجاحظة والمزعجة. من متجر مجاور، حصل على حقيبة، ومن المتجر التالي، قمصان، سراويل قصيرة، جوارب، سراويل، بيجامات، مناشف، رداء استلقاء، كنزة صوفية وخفّ خاص بغرفة النوم، قد وُضبت فردتاه بشكل جنيني داخل مغلف جلدي. وُضعت مشترياته في الحقيبة، وأرسلت فوراً إلى الفندق. كان على وشك دخول متجر الموسيقى حين تذكّر أنه لم يترك لشهود تابر أي ملاحظة في الفندق، فما كان منه إلا أن عدّل مسار خطواته وقفل عائداً. وجدهما جالسيْن في الصالة، فطلب منهما الاستعجال فيما أتيا لأجله - لديه أمورٌ أكثر أهمية عليه متابعتها. "Ne grubit' sekundantam" (لا تكن يوماً فظاً مع تابع) سمع صوت ديمون في رأسه. كان آروين بيردفوت، ملازم أول في الحرس، أشقر ورخواً، بشفتين ورديتين رطبتين، وحاملة سيجارة بطول قدم على الأقل. أما الثاني، جوني رافين، فكان صغير الحجم، أسمر ورشيقاً، وقد انتعل حذاءً أزرق من جلد الظباء، وبزّة باهتة مريعة. سرعان ما اختفى بيردفوت، تاركاً فان لإنهاء الأمر مع جوني، الذي ورغم كل ما أبداه من حرصه على مساعدة فان، إلا أنه كان واضحاً في تضامنه وولائه لنقيبه، خصم فان.

كان النقيب من رماة الصف الأول، قال جوني، وعضواً في نادي دو-ري - لا - الريفي. لم يشب عرقه البريطاني أي ميل وحشي لسفك الدماء، ولكن تصنيفه العسكري والأكاديمي يطالبه بالدفاع عن شرفه. كان خبير خرائط، خيول وبستنة. كان مالكاً ثرياً. كان أبسط إبداء اعتذار من قبل البارون فيين ليحسم المسألة برمّتها بطريقة رمزية ونهائية.

---

(١) عصا ألبينية: عصا ذات قبضة برأس حاد جداً خاصة بتسلق الجبال. (مترجم)

«إذا كان النقيب الطيب يتوقع اعتذاري»، قال فان، «فيمكنه أن يحشر المسدس في شرجه الرشيق.»

أجفل جوني الرد: «ليست هذه بطريقة لطيفة للتحدث، ولن يوافق عليها صديقي. علينا أن نتذكر أنه شخص راق جداً.»

أكان جوني بصفة شاهد لفان أم للنقيب؟

«أنا في خدمتك»، قال جوني مع نظرة متخاذلة.

هل كان جوني أو نقيبه الراقي يعرف شيئاً عن عازف بيانو ألماني الأصل، فيليب راك، متزوج، وله ثلاثة أطفال (على الأرجح)؟

«أخشى أنني لا أعرف الكثير من الأشخاص ممن لهم أطفال في كالوغانو»، قال جوني بلهجة ازدراء.

أيوجد بيت دعارة جيد في الجوار؟

أعلن جوني بازدراء متزايد، أنه متزمت في عزوبيته.

«حسناً، هذا جيد»، قال فان، «عليَّ الآن الخروج قبل أن تغلق الأسواق. أعليّ أن أحضر زوجاً من المسدسات معي أم سيجلب لي النقيب 'روجر' من أسلحة الجيش؟»

«يمكننا تأمين الأسلحة»، قال جوني.

عندما وصل فان أمام متجر الموسيقى، وجده مغلقاً. حدّق للحظات في القيثارات والغيتارات، والأزهار في أوان فضية، فوق مناضد تنحسر في غبش المرايا، وتذكّر فتاة المدرسة التي أحبها منذ ست سنوات خلت - روز؟ روزا؟ ما كان اسمها؟ ترى من كانت لتجعله أكثر سعادة؟ هي أم شقيقته الشاحبة القاتلة؟

بقي لفترة يمشي في الشارع الرئيسي - واحد من ملايين الشوارع الرئيسية - وبعد ذلك، دخل مطعماً بدا جذاباً إلى حد مقبول، بعد أن ضربه جوع مفاجئ. أمر بشريحة لحم عجل مع بطاطا مشوية، فطيرة تفاح ونبيذ أحمر. في أقصى نهاية الغرفة، وفوق مقعد أحمر من

مقاعد المشرب متوهّج الإضاءة، جلست عاهرة رشيقة ترتدي مشدّاً أسود ضيقاً، تنورة واسعة، قفازات طويلة، وتعتمر قبعة مخملية سوداء، وكانت تمصّ شراباً ذهبياً بواسطة قشة. وسط اللمعان الملون في المرآة خلف البار، لمح صورة مغبشة لجمالها الأشقر الروسي؛ اعتقد أنه سيتمكن من معاينتها لاحقاً، ولكنه عندما ألقى نظرة ثانية كانت قد اختفت.

أكل، شرب، وفكر في مكيدة.

كان يتطلع إلى النزال بحماس شديد. لا يمكنه تخيل أمر أكثر إنعاشاً. أن يتبادل إطلاق النار مع ذلك المهرج الذي جاء في طريقه على نحو عرضي، إنها لراحة أكبر من توقعاته! خاصة وأن مبارزته مع راك لن تكون بتلك الصعوبة والأهمية. تصميم وإعادة تصميم مختلف الاحتمالات المتعلقة بهذه المبارزة الصغيرة، يمكن تشبيههما بتلك الهوايات المفيدة التي تقوم المؤسسات الخيرية، والإداريين المتنورين، بتلقينها، بواسطة أطباء نفسيين بارعين، إلى مرضى شلل الأطفال، والمجانين ومجرمي السجون - كتجليد الكتب، ووضع الخرز الأزرق في محاجر عيون الدمى والتي صنعها مجرمون آخرون، مقعدون آخرون، ومجانين آخرون.

بداية، كان يدرس فكرة قتل خصمه، النقيب، من عدّة نواح: من ناحية الكم، سيمنحه أكبر إحساس بالارتياح. من ناحية النوع، سيراعي كل التعقيدات الأخلاقية والقانونية. بدا له أن إلحاق جرح به لن يفي بالغرض. قرر القيام بحيلة فنية وصعبة، كأن يرمي المسدس من يد خصمه، أو يطلق رصاصة تفرق شعره المتلبد الكثيف في الوسط.

في طريق عودته إلى فندق ماجستيك المغم، اشترى توافه مختلفة: ثلاث قطع من الصابون المدوّر موضوعة في صندوق

مستطيل، معجون حلاقة في أنبوب ليّن وبارد، عشر شفرات حلاقة، إسفنجة كبيرة، وواحدة مطاطية أصغر خاصة بالصابون، غسول شعر، مشط، بلسم سكينر، فرشاة شعر في حافظة بلاستيكية، معجون أسنان، مقص، قلم حبر، كتيّب يوميات - ماذ أيضاً؟ - أجل، ساعة منبه صغيرة، لم يمنع حضورها المريح من تأكيده على البواب كي يوقظه عند الخامسة فجراً.

كان الوقت حينذاك التاسعة مساءً؛ لو قيل له إن هذا منتصف الليل في أوكتوبر، لما تفاجأ. لقد كان يومه طويلاً إلى حدّ لا يصدق. بالكاد يمكن للعقل إدراك حقيقة أنه في ساعة مبكرة جداً من صباح هذا اليوم، عند الفجر، خرجت شخصية تافهة من رواية تدعى دورميلونا تدور حول الخادمات، وجلست تتحدث إليه شبه عارية، مرتعشة، في مستودع العتاد في قصر آرديس. تساءل ما إذا كانت الفتاة الأخرى لا تزال هناك، منتصبة كالسهم، معشوقة وممقوتة، قاسية ومكسورة القلب، واقفة إلى جذع شجرة متمتمة. وتساءل ما إذا كان عليه، في ضوء حفلة الصخب التي تنتظره في الغد، أن يجهّز لها «عندما تصلك هذه الرسالة»، بأسلوب وقح، قاسٍ، حاد كالجليد. ولكن لا، من الأفضل أن يكتب لديمون.

أبي العزيز،

نتيجة لمشادّة سخيفة مع النقيب تابر، من مسكن «البنفسج البرّي»، كنت قد دست فوق قدمه من دون قصد في ممر القطار، درا بيننا نزال مسدسات عند صباح اليوم، في الغابات المجاورة لكالوغانو، وأنا الآن لم أعد حياً. وعلى الرغم من أن الطريقة التي أنهيت بها حياتي يمكن اعتبارها نوعاً من الانتحار السهل، إلا أن مواجهة النقيب ذي الرفعة

لا علاقة لها البتة بأحزان الشاب فيين. خلال أول صيف لي في آرديس عام ١٨٨٤، أغويت ابنتك التي كانت آنذاك في الثانية عشرة من عمرها. استمرت علاقتنا الحارة حتى عودتي إلى ريفرلان، واستأنفت في يونيو الماضي، بعد أربع سنوات. كانت تلك السعادة أعظم حدث في حياتي، ولست نادماً عليها. ورغم ذلك، اكتشفت في الأمس أنها لم تكن مخلصة لحبي، ولهذا افترقنا. أعتقد أن تابر هو شاب سبق له أن طُرد من أحد نوادي القمار خاصتك، لأنه حاول القيام بجماع فموي مع خادم الحمام، والذي هو بدوره أحد محاربي حرب القرم القدماء، عجوز بلا أسنان. الكثير من الزهور! رجاءً!

ابنك المحب، فان

أعاد قراءتها بعناية، ثم مزقها بعناية، وكانت الرسالة التي وضعها في جيبه أكثر إيجازاً بكثير.

أبي

حصل شجار تافه بيني وبين غريب قمت أنا بصفعه، وقد قتلني اليوم في مبارزة بالقرب من كالوغانو. آسف.

فان

أيقظ بواب الليل فان عند الخامسة، ووضع فوق منضدة السرير الجانبية فنجان قهوة وكعكة بالبيض على الطريقة المحلية، والتقط، بقبضة خبير، قطعة الشيرفونتس الذهبية المتوقعة. كان إلى حد ما يشبه بوتييان كما كان منذ عشر سنوات، أو كما ظهر مرة في حلم، يحاول فان الآن إعادة بنائه بأية تفاصيل يمكن استرجاعها: وفيه

يشرح وصيف ديمون السابق لفان أن ''dor'' في كلمة ''adored''، ويقصد النهر، يشوه الكلمة كتشويه ''hydro'' لكلمة ''dorophone''.
لطالما حلم فان بالكلمات. حلق ذقنه، وألقى بشفرتين ملطختيْن بالدم في منفضة سجائر برونزية ضخمة، تبرز برازاً ذا بنية مثالية، أخذ حماماً سريعاً، ارتدى بخفة، ترك حقيبته مع البواب، دفع فواتيره، وعندما دقت الساعة السادسة، حشر نفسه إلى جانب جوني ذي الذقن الزرقاء والرائحة الكريهة، في عربته الصغيرة والرخيصة. لميليْن أو ثلاثة، شقا طريقهما عبر ضفة البحيرة القاتمة أكوام من الفحم، أكواخ، منازل قاربية، شريط طويل من الطين الأسود المحصب، وفي المسافة، فوق الضفة المتقوسة لبحيرة يغشى ماءها ضبابُ الخريف، أبخرة مصفرة تتصاعد من المصانع الهائلة.

«أين نحن الآن، أيها العزيز جوني؟»، سأل فان حين بدأ الابتعاد عن مدار البحيرة والإسراع على طول شارع في إحدى الضواحي، تتوزع على جانبيه أكواخ خشبية، وأشجار صنوبر تمتد أحبال الغسيل فيما بينها.

«طريق دوروفي»، صرخ السائق فوق ضجيج المحرّك، «إنه متاخم للغابة.»

وصلت العربة. شعر فان بوخز خفيف في ركبته التي ارتطمت بالحجر، حين تمت مهاجمته من الخلف، منذ أسبوع، في غابة أخرى. ما إن داست قدمه طريق الغابة المكسوّ بإبر الصنوبر، مرّت فراشة بيضاء شفافة، وعرف فان، بيقين مطلق، أنه لم يتبق أمامه إلا دقائق معدودة للعيش.

التفت نحو شاهده وقال:

«هذه الرسالة المختومة، في مغلف فندق ماجستير الأنيق، موجهة، كما ترى، لوالدي. سأنقلها إلى جيب سروالي الخلفي. إن

حدث وتمكن النقيب، الذي أراه قد وصل في ليموزين ذات مظهر جنائزي، من ذبحي، أرجو منك الاهتمام بإرسالها.»

وجدوا فسحة مناسبة، حمل كل من الخصمين مسدساً، ووقفا متواجهين على مسافة ثلاثين خطوة، كواحدة من النزالات الاستثنائية التي وصفها معظم الرواة الروس، وتقريباً كل الرواة الروس ذوي الأصول النبيلة.

حين صفق آروين، ليعلن بطريقة غير رسمية الإذن بإطلاق النار، لاحظ فان إلى يمينه ألواناً متحركة: متفرجان صغيران - فتاة سمينة وفتى يرتدي بزة بحرية، وكانا يضعان نظارات، مع سلة مليئة بالفطر بينهما. إنه ليس بفتى الشوكولا في مقصورة كوردولا، ولكنه يشبهه كثيراً، وما إن لمعت صورته في ذهنه، شعر باهتزاز طلقة رصاص، أو هذا ما أحسه على الأقل، وقد مزقت يسار صدره. ترنح، ولكنه استعاد توازنه، وبكرامة جميلة، أطلق مسدسه في ضباب الصباح الذهبي. كان قلبه ينبض باطراد، ولم يبصق دماً، وشعر برئتيه سليمتيْن، ولكن حريق الألم كان يحتدم في مكان ما تحت إبطه الأيسر. رشح الدم من خلال ملابسه، وصار يقطر من ساق سرواله. جلس ببطء، وبحذر، متكئاً على ذراعه اليمنى. خاف أن يفقد وعيه، ولكنه ربما قد فقده حقاً لفترة وجيزة، إذ انتبه في الدقيقة التالية، أن جوني قد أخرج الرسالة من جيبه، وكان على وشك وضعها في جيبه الخاص.

«مزقها أيها الأحمق!»، قال فان بأنين لاإراديّ.

اقترب النقيب وتذمر بتجهم: «أراهن أنك لست في حال يسمح لك بإكمال ما بدأناه، أليس كذلك؟»

«أراهن أنك لا تستطيع الانتظار ـــ»، بدأ فان، وكان ينوي أن يقول: «لا تستطيع الانتظار لكي أصفعك ثانية»، ولكنه ضحك عند

كلمة «الانتظار»، فتقلصت عضلات الضحك في وجهه مسببة ألماً مبرحاً، مما أجبره على التوقف وإحناء جبينه المتعرق.

في هذه الأثناء، تحولت الليموزين إلى سيارة إسعاف يقودها آروين. وُضعت صحف منسية لحماية التنجيد، وأضاف إليها النقيب النيّق ما يشبه كيس بطاطا أو ربما قماش متعفن من الصندوق، وبعد أن فتشوا أكثر في صندوق العربة، متذمرين من «فوضى الدم» (بيان حرفي دقيق) قرّر التضحية بمعطف الماكنتوش خاصته، القديم والقذر، سبق أن مات فوقه كلبه، أثناء نقله إلى طبيب بيطري.

لنصف دقيقة، كان فان على يقين أنه ما زال مستلقياً في العربة، بينما كان في حقيقة الأمر، في الجناح العام لمستشفى ليْكفيو (Lake-view!) بين مجموعتين من مختلف الرجال المضمدين، الشاخرين، النواحين، والهاذين. كانت ردة فعله الساخطة الأولى حين أدرك الأمر، أن طلب بنقله فوراً إلى أفضل مستشفى خاصة في المكان، وبإحضار حقيبته وعصاه الألبينية من الفندق. ثم طالب بإخباره عن مدى خطورة جرحه، وبالمدة المتوقعة لبقائه معاقاً. أما ردة فعله الثالثة فكانت قراره باستئناف الأمر الوحيد الذي دفعه لزيارة كالوغانو (زيارة كالوغانو!). كان مكان إقامته الجديد، حيث مرّ كل الملوك محطمو القلوب قبل عبورهم نحو العالم الآخر، نسخة طبق الأصل، ولكن بيضاء، عن جناحه في الفندق المعتم - أثاث أبيض، سجاد أبيض، ستائر بيضاء. أما الإضافة، إن جاز التعبير، فكانت تاتيانا، ممرضة شابة، جميلة ومتفاخرة على نحو لافت، بشعر أسود وجلد شفاف (بعض تصرفاتها وحركاتها، وذلك الانسجام بين العنق والعينيْن الذي هو سر النعمة الأنثوية الذي ما زال غامضاً، كل ذلك قد دفعه لتذكر آدا متألماً، فسعى للهروب من صورتها إلى الاستجابة القوية لسحر تاتيانا، ملاك تعذيب آخر، على طريقته الخاصة. جموده

القسري قد منعه من مطاردة والإمساك بالحيوانات المرسومة فوق ثيابها. ترجاها لتمسيد ساقيه ولكنه اختبرته بنظرة من عينيها الرصينتيْن القاتمتيْن - وفوّضت المهمة إلى دوروفي، ممرض بقبضة من حديد، كانت قوية بما يكفي لرفعه من السرير، بينما تعلّق، كطفل مريض، برقبته. نجح فان مرة في مسّ ثدييْها، ولكنها حذرته أنها ستتقدم بشكوى إن تجرأ على تكرار ما وصفته بالجسارة على الرغم من أنها رأت فيه «مداعبة لطيفة». لم يفلح العرض المباشر لحالته المرفق بمناشدة متواضعة للمسة شافية في استمالة تاتيانا التي استنتجت ساخرة أن سادة متميزين جداً قد قضوا سنوات طويلة في السجن عقوبة على قيامهم بمثل تلك الأمور في الحدائق العامة. ولكنها بعد فترة طويلة كتبتْ له رسالة ساحرة وحزينة، بالحبر الأحمر، فوق ورقة وردية؛ كثير من الأحداث والمشاعر المتداخلة آنذاك قد حالت دون رؤيته لها مجدداً).

وصلت حقيبته من الفندق من دون تأخير، ولكنهم لم يجدوا عصاه (لا بد أنها تساعد أحدهم في أيامنا هذه في تسلق جبل ويلينغتون، أو ربما سيدة في نزهتها لجمع النباتات في أوريغون)؛ وهكذا زوّدته المستشفى بالعصا الثالثة، وقد كانت أفضل من سابقتها، أشدّ، تملأ العُقدُ خشبَها كرزي اللون، وكان لها قبضة منحنية، وكعب مطاطي أسود صلب. هنأ الطبيب فيتزبيشوب مريضه لكونه انسحب من المبارزة في اللحظة المناسبة، مع جرح في العضلة السطحية، بعد أن حفرت الرصاصة، أو بالأحرى خدشت، العضلة المنشارية الكبيرة. أثنى الطبيب فيتز على استجابة فان الرائعة للشفاء (إحدى الصفات الأصيلة في شخصيته)، ووعد بأنه سيتخلص من المطهرات والضمادات خلال حوالي عشرة أيام، إن صمد بلا حراك كجذع شجرة، للأيام الثلاثة الأولى. هل أحب فان الموسيقى؟ عادة

ما يحبها الرياضيون، أليس كذلك؟ هل اهتم بوجود مذياع بجانب سريره؟ لا، كان يمقت الموسيقى، ولكن أليس من الممكن أن يعرف الطبيب، مرتاد الحفلات الموسيقية، أين يمكن إيجاد موسيقي يُدعى راك؟ «عنبر رقم خمسة»، أجاب الطبيب فوراً. فهم فان من الإجابة، مخطئاً، أنها عنوان مقطوعة موسيقية معينة، وأعاد سؤاله. تراه سيجد عنوان راك في متجر هاربر للموسيقى! حسناً، اعتاد آل راك استئجار فيلا ريفية أسفل طريق دوروفي، قرب الغابة، ولكن أشخاصاً آخرين قد انتقلوا للإقامة فيها مؤخراً. كان عنبر رقم خمسة مخصصاً للحالات المرضية الميؤوس منها. لطالما عانى المسكين من كبد سيّئ وقلب لامبالٍ، ولكن علاوة على ذلك، سمّ ما قد تسرّب إلى نظامه، لم يتمكن المخبر المحلي من التعرف عليه، وكانوا آنذاك ينتظرون تقريراً مفصلاً من لوغا، عن تحليل برازه الغريب الأخضر كبراز الضفادع. لو كان راك هو من سمم نفسه، فإنه ما كان ليشتكي، ولكن الأمر كان على الأرجح من تدبير زوجته، التي كانت تمارس طقوس الفودو الهندوسي - الهندي، وكانت قد عانت مؤخراً من إجهاض عسير في جناح التوليد؛ أجل، توائم ثلاثة - ولكن كيف عرف؟ بكل الأحوال، إن كان فان متشوقاً لزيارة صديقه القديم، فعلى ذلك أن يتم في أقرب وقت يمكن له فيه أن يطلب من دورفي نقله فوق كرسي متحرك إلى العنبر الخامس، لذا، من الأفضل أن يبدأ نفسه بتطبيق بعض ممارسات الفودو (ها ها ها!) على جسده ولحمه الخاصيْن. جاء ذلك اليوم سريعاً بما يكفي. خلال رحلة طويلة في الممرات، رأى فان أشياء صغيرة جداً (ممرضات وممرضين يهزون موازين حرارة)، وبعد صعود وهبوط في مصعديْن مختلفيْن، كان ثانيهما فسيحاً مع أغطية معدنية سوداء جنائزية مسنودة إلى الحائط، مع بعض أوراق بهشية أو غار مرمية هنا وهناك فوق

الأرضية العابقة برائحة الصابون، قال دورفي، كما قال حوذي أوجين: "priehali" (وصلنا)، ثم دفع فان برفق، عبر سريرَيْن مغطيين بالكامل وصولاً نحو ثالث بقرب النافذة. ترك فان هناك، بينما اتخذ لنفسه مقعداً عند زاوية الباب، حيث جلس يقلّب بروية صفحات صحيفة غولوس (لوغوس)[١] الصادرة باللغة الروسية.

«أنا فان فين، في حال لم يعد ذهنك صافياً بما يكفي للتعرف على شخص لم تره إلا لمرتيْن فقط. تذكر سجلات المشفى أن عمرك ثلاثون عاماً؛ ظننتك أصغر سناً، لا يهم، إنها لسن مبكرة جداً على الموت، حتى وإن كنت، يا ابن الساقطة، عبقرياً تافهاً أو نذلاً مهماً، أو كلاهما معاً. وكما يمكنك أن تخمن من التجهيزات البسيطة ولكن المدروسة لتلك الغرفة الصامتة، فإنك حالة غير قابلة للشفاء، كما يقال بلغة الطب، ولكن بلغة أخرى، أنت جرذ يتعفن. لا يمكن لآلة أوكسجين في العالم أن تجنبك «عذاب العذابات» - وفقاً لإطناب البروفيسور لامورت[٢]. على التعذيب الجسدي الذي ستختبره، أو ربما تعاني منه الآن، أن يكون هائلاً، ولكنه مهما عظم، لن يُقارن بما ينتظرك في الآخرة المحتملة. لا يمكن لعقل الإنسان، الأحادي[٣] بطبيعته، أن يتقبل فكرة عدميْن؛ إنه يقرّ بعدم واحد،

---

(١) غولوس Golos لوغوس Logos: الأولى بالروسية وتعني الصوت والثانية بالإنكليزية وتعني الكلمة أو العقل الأول. غولوس هو اسم جريدة كانت تصدر في سانت بطرسبورغ ١٨٦٣-١٨٨٣، وكان الكاتب سبق أن أشار في الفصل ذاته إلى «صحف منسية». (مترجم)

(٢) البروفيسور لامورت: ويقصد به الموت la mort بالفرنسية. (مترجم)

(٣) الأحادية: الأحادية والواحدية والوحدانية هي نظرية فلسفية تقول إن الأشياء المتنوعة الموجودة في الكون تتكون من مادة واحدة وبهذا تكون خاصية الكون الأساسية هي الوحدة. تتعارض هذه النظرية مع الثنائية التي تقول

وجوده البيولوجي في ماضٍ لامتناهٍ، الكامن في فراغ ذاكرته المطلق. وباعتبار أن هذا العدم سيكون، كما كان في الماضي، فإن تحمّله لن يكون صعباً. ولكن العدم الثاني - والذي أيضاً قد لا يكون تحمله صعباً - فإنه منطقياً غير مقبول. عندما نتحدث عن الفضاء، يمكننا تخيّل ذرّة حية في وحدانية الفضاء اللامتناهية؛ ولكن هذا التصور لا يقدم أي تشابه مع المفهوم الزمني لحياتنا الوجيزة، لأنها مهما كانت وجيزة (ثلاثون عاماً! إنه لعمر وجيز بشكل فاحش!) فإن إدراكنا لوجودنا ليس نقطة في الأبدية، بل شقاً، صدعاً، فجوة تمتد على اتساع الزمن الميتافيزيقي بأكمله، تشطره نصفين - لا يهم مدى دقتها - لتلمع الحقيقة بين اللوحة الأمامية، واللوحة الخلفية. لذلك يا سيد راك، يمكننا التحدث عن الزمن الماضي، وعن المستقبل، بأسلوب أكثر غموضاً ولكنه مألوف، ولكننا ببساطة لا يمكننا توقع عدم ثان، فراغ ثان. النسيان هو عرض «الليلة الواحدة»، شهدنا أداءه مرة واحدة، ولكنه لن يتكرر. علينا إذاً أن نواجه إمكانية وجود أشكال مطوّلة للوعي غير المنظم، وهذا يقودني نحو نقطتي الرئيسية، وهي أن السيد راك، راك الأبدي واللامتناهي، قد يفنى كله ما عدا شيئاً مؤكداً: الوعي الوحيد الذي يستمر في الآخرة هو وعي الألم. عذاب راك الصغير اليوم، هو عذابه اللامنتهي غداً - ich bin ein unverbesserlicher Witzbold[1] - أعتقد أن علينا أن نتخيل، مجموعات صغيرة جداً من الجسيمات المحتفظة بشخصية راك،

بوجود واقعين (مادي وفكري) أو التعددية التي تقول بوجود أكثر من مادتين. (مترجم)

(١) ich bin ein unverbesserlicher Witzbold: أنا جوكر عنيد، بالألمانية. (مترجم)

تتجمع هنا وهناك، ثم هنا وهناك، تلتصق بعضها فوق بعض، بطريقة ما، في مكان ما، شبكة من آلام أسنان راك هنا، حزمة من كوابيس راك هناك، كمجموعات صغيرة من لاجئين مجهولين، قادمين من وطن متهالك، يتجمعون بعضهم فوق بعض بحثاً عن دفء برائحة نتنة، عن صدقة تافهة، أو عن ذاكرة مشتركة تحمل صور تعذيب، لا اسم له ولا وصف، في معسكرات طرطاريا. لا بد أن يكون التعذيب الخاص برجل عجوز، هو جعله ينتظر في طابور طويل جداً جداً قبل وصوله إلى مبولة بعيدة. حسناً يا سيد راك، أسلّم أن الخلايا التي بقيت على قيد الحياة من المعمر راك، ستشكل خطوط التعذيب ذاتها، ولكن لن تصل أبداً، أبداً، في رعب وألم الليلة اللامتناهية، إلى الهوة القذرة التي ترغب فيها. يُسمح لك أن تجيب، طبعاً - إن كنت متضلعاً من الروايات المعاصرة، وإن كنت مولعاً بمصطلحات الكتاب الإنكليز الخاصة - بأن عازف بيانو قادم من أدنى الطبقات الوسطى، يقع في حب فتاة من الطبقة العليا، مدمراً عائلته الخاصة، لا يكون قد ارتكب جريمة تستحق عقاب زائر عابر ــ»

بحركة مألوفة، مزّق فان مسودة خطابه وقال:

«سيد راك! افتح عينيْك! أنا فان فين. زائر.»

للحظات، بقي الوجه الأصفر ذو الحنك الطويل، الخدّين المجوّفيْن، الأنف اللحيم والذقن الصغيرة المستديرة، خالياً من التعبير؛ ولكنه فتح عينيْه الجميلتيْن، الفصيحتيْن، اللامعتيْن بلون الكهرمان، بين رموش طويلة إلى حد مثير للشفقة. ثم أومضت ابتسامة باهتة حول أجزاء فمه، ومدّ يداً واحدة، دون أن يرفع رأسه عن الوسادة ذات الغطاء الشمعي (لم الغطاء الشمعي؟)

من على كرسيه، مدّ فان طرف عصاه، الذي التقطه راك بيده الضعيفة وجسّه بلطف، ظاناً أن المقصود بمدّها تقديم الدعم لا أكثر.

«كلا، لم أعد قادراً على المشي حتى لخطوات قليلة»، قال راك بصوت واضح، وبلهجة ألمانية ستشارك على الأرجح في تكوين المجموعة الأكثر ديمومة من خلاياه الشبحية.

سحب فان سلاحه غير المجدي، محاولاً السيطرة على نفسه، ثم ضرب بها موطئ القدم في كرسيه المتحرك. ألقى دوروفي نظرة من فوق الصحيفة التي كان يحملها، ثم عاد إلى المقال الذي أثار اهتمامه - «خنزير صغير ذكي (من مذكرات مدرب الحيوان[1])» أو مقال آخر «حرب القرم: عصابات التتار تقدم المساعدة للقوات الصينية». في الوقت ذاته، خرجت ممرضة ضئيلة من وراء ستار أحد الأسرّة، ثم اختفت ثانية.

أسيطلب مني أن أنقل له رسالة؟ هل سأرفض؟ أأبدي موافقتي - ثم لا أنقلها؟

«هل ذهبوا جميعاً إلى هوليوود؟ أرجوك أخبرني، بارون فون وين von Wien!»

«لست أدري»، أجاب فان، « أجل على الأرجح. أنا حقاً ـــ»

«لأنني أرسلت آخر مقطوعات الناي خاصتي، ورسالة موجهة لكل أفراد الأسرة، ولم يصلني أي رد. عليّ أن أتقيّأ الآن. سأرنّ الجرس بنفسي.»

قامت الممرضة الضئيلة المنتعلة حذاءً أبيض بكعب عال جداً، بفرد الستار الخاص بسرير راك، لتحجبه عن الشاب الأنيق، الحزين، حليق الذقن، والمصاب بجرح طفيف ومضمّد؛ والذي دفع دوروفي القوي كرسيه المتحرك خارج الغرفة.

---

(١) مذكرات مدرب الحيوان: إشارة إلى رواية «مزرعة الحيوان» للكاتب البريطاني جورج أورويل (١٩٠٣-١٩٥٠).

عندما عاد إلى غرفته الباردة المشرقة، مع نافذة نصف مفتوحة تعكس الشمس الممتزجة بالمطر، مشى بفان بقدمين لم يكن قد استعاد إحساسه بهما كاملاً، نحو المرآة، ابتسم لنفسه مرحباً، ثم عاد إلى سريره دون مساعدة دوروفي. دخلت تاتيانا الساحرة الغرفة وسألت ما إذا كان يرغب في كوب من الشاي.

«حبيبتي، أنا لا أرغب سواكِ»، قال فان، «انظري إلى هذا البرج الصلب!»

«لو أنك تعرف»، أجابت تاتيانا من فوق كتفها، «كم من المرضى الشهوانيين قد أهانوني - بذات طريقتك.»

كتب لاحقاً رسالة إلى كوردولا، أخبرها أنه تعرّض لحادث بسيط، وأنه موجود داخل جناح خاص بالأمراء في مستشفى ليْكفيو - كالوغانو، وأنه سيكون عند قدميها يوم الثلاثاء القادم. كذلك وكتب رسالة أقصر إلى مارينا، بالفرنسية، ليشكرها على الصيف الرائع الذي أمضاه في ضيافتها، لكنه بعد تفكير، قرر أن يرسلها من مانهاتن إلى فندق بيسانغ بالاس في لوس أنجلوس. وجّه رسالة ثالثة إلى برنارد راتنر، صديقه المقرّب في تشوز، ابن أخ راتنر العظيم إياه. «يعتمد عمّك أكثر المعايير صدقاً»، كتب في جزء من الرسالة، «ولكني قريباً ما سأدحض زعمه.»

يوم الاثنين، حوالي الظهر، سُمح له بالجلوس فوق مقعد في الحديقة، سبق أن تأملها بتوْق من نافذة غرفته، عدة أيام خلت. قال الطبيب فيتزبيشوب، وهو يحكّ يديه، إن النتيجة الواصلة من المختبر في لوغا أفادت عن وجود مادة arethusa[1]، والتي ليست قاتلة

---

(١) Arethusoides: تورية تحمل إشارتين. الأولى إلى عثة تتبع لفصيلة بالاسم ذاته، والثانية arethusa، إحدى فصائل الأوركيد. تسمية يُقصد بها السم الذي دسته آدا (معنوياً) في جسم راك. (مترجم)

دائماً، ولكن ذلك لم يعد مهماً، لأنه لم يعد متوقَّعاً لأستاذ الموسيقى المشؤوم، والمؤلف، أن يعيش فوق ديمونيا ليلة أخرى، وسيكون فوق تيرا، عند صلاة المساء. كان الطبيب فيتز من النوع الذي يُطلق عليه بالروسية poshlyak (مبتذل جداً)، وبردة فعل غامضة، كان فان مرتاحاً لعدم تمكنه من الشماتة في استشهاد راك الشقي.

ألقت شجرة صنوبر كبيرة بظلها فوقه وفوق كتابه. كان قد استعاره من فوق رفّ يحمل كتيّبات طبية، ألغاز مهترئة، والمجموعة القصصية «نهر الألماس» لـ مونبارناس، ومجلد غريب لمجلة العلوم الحديثة، مع مقال صعب كتبه ريبلي[1]، «بنية الفضاء». بقي لعدّة أيام يتصارع مع صيغ المقال المشبوهة ورسومه البيانية، وقال إنه لن يتمكن من استيعابه بالكامل قبل أن يُطلق أسره من المستشفى، في اليوم التالي. وصله شعاع شمس حارق، وسقط فوق المجلّد الأحمر بجانبه، فنهض عن مقعده. مع استعادة صحته، بقيت صورة آدا ترتفع داخله كموجة مُرة ومشرقة، مستعدة لابتلاعه. أزيل الضماد؛ لُفّ جذعه بصدار تحتي من قماش الفانيل؛ كان محكماً بشدة إلى صدره، وسميكاً جداً، ولكن ليس بما يكفي لحمايته من السمّ في رأس آرديس[2]. عزبة رأس السهم. قصر السهم. قصر اللحم (Le Château de la Flèche, Flesh Hall).

تجوّل فوق العشب المخطّط، شاعراً بدفء شديد بسبب ما كان يرتديه: بيجاما سوداء، وثوب مشفى أحمر داكن. فَصَلَ جدار قرميدي بين جهته من الحديقة وبين الشارع، وكانت هنالك بوابة

---

(١) روبرت ريبلي (١٨٩٣-١٩٤٩): رسام كاريكاتير أمريكي قضى حياته باحثاً عن الأخبار الغريبة، وهو أول من أطلق عبارة «صدق أو لا تصدق». (مترجم)

(٢) السم في رأس آرديس: آرديس في اليونانية تعني رأس السهم. (مترجم)

مفتوحة عند ممر آخر من ممرات الحديقة، تسمح لمعبر أسفلتي بالانعطاف والوصول نحو المدخل الرئيسي لمبنى المستشفى الطويل. كان على وشك العودة إلى مقعده عندما وصلت سيارة سيدان، أنيقة، رمادية، بأربعة أبواب، وتوقّفت أمامه. ترجّل السائق (عجوز في سترة قصيرة وسروال قصير)، فتح الباب الخلفي، وأمسك بيد كوردولا التي خرجت لتركض كراقصة باليه نحو فان. عانقها في نوبة من الترحيب، مقبّلاً وجهها الحار الوردي، مدلّكاً، من فوق فستانها الحريري الأسود، جسدها الطريّ كجسد قطة: يا لها من مفاجأة لذيذة!

جاءت من مانهاتن، بسرعة مئة كيلومتر في الساعة، خوفاً من احتمال مغادرته، رغم أنه كتب لها أن ذلك سيكون في اليوم التالي.

«جاءتني فكرة!»، هتف. «أعيديني معك، فوراً! أجل، بالحال التي أنا عليها!»

«حسناً»، قالت، «تعال وابقَ في شقتي، لديّ غرفة ضيوف رائعة ستعجبك.»

كم كانت فتاة مرحة، كوردولا دو براي الصغيرة تلك! في اللحظة التالية، كان جالساً إلى جانبها في السيارة، التي كانت تعود إلى الخلف، عابرة البوابة. ركضت ممرضتان نحوهما ملوحتيْن، فسأل السائق، بالفرنسية، ما إذا كانت الكونتيسة تأمر بالتوقف.

«لا، لا، لا!»، صاح فان بصوت عال مغتبط، ثم انطلقوا مبتعدين.

قالت كوردولا المتلهفة:

«اتصلتْ بي أمي من مالوروكينو (ملكيتهم في مالبروك - ماين)، وأخبرتني أن الصحف المحلية تذكر نبأ خوضك لمبارزة. تبدو وكأنك برج من الصحة. أنا سعيدة لأجلك. كنت متأكدة أن أمراً سيئاً

سيحصل، فلقد رآك روسل الصغير، حفيد الطبيب بلاتونوف، أتذكره؟ لقد رآك من جانب نافذته في القطار تضرب نقيباً فوق رصيف المحطة. ولكن وقبل كل شيء يا فان، net pozhaluysta, on nas vidit (لا، أرجوك، إنه يرانا) لدي أخبار سيئة جداً لك. فريزر الشاب، الذي عاد للتوّ من يالطا، وجد بيرسي مقتولاً في اليوم الثاني من الغزو، بعد مرور أقل من أسبوع على مغادرتهما من مطار غود-صان Good-son. سيخبرك بنفسه بكامل القصة، التي تتزايد فيها التفاصيل المرعبة أكثر فأكثر في كل مرة يقصّها. لا يبدو أن فراسر قد شارك في مجد المعركة، لذلك أفترض أنه يضيف إلى الرواية كثيراً من التوابل.»

(بيل فريزر، نجل القاضي فريزر، من ويلينغتون، شهد نهاية الملازم الأول دو براي، في خندق مبارك تغطيه أزهارالقرانيا وشجر الزعرور، ولكنه بالطبع، لم يستطع تقديم المساعدة لقائد فصيله وذلك يعود لمجمل أسباب قد أدرجها بإخلاص في تقريره، ولكن تفصيلها هنا سيكون مملاً ومحرجاً جداً. كان بيرسي قد أصيب في فخذه، أثناء مناوشات مع مقاتلي خازار في واد ضيق بالقرب من تشوفوت كاليه Chew-Foot-Calais، اللفظ الأمريكي لـ شوفوتكال[1] Chufutkale، صخرة عالية محصّنة. أكّد لنفسه على الفور، بتلك الراحة الغريبة التي يشعر بها المحكومون بالموت، بأنه قد أفلت مع جرح سطحي. تسبب نزيف دمه بإصابته بالإغماء، كما أصبنا بها نحن أيضاً (قال فريزر) عندما بدأ بالزحف، أو بالأحرى الفرفرة،

(١) شوفوتكال: Chufutkale، حصن بين جبال القرم، لم يجزم علماء الآثار ما إذا كان ظهوره يعود للقرن الخامس أو العاشر الميلادي، ولكن السجلات التاريخية تذكر أن الحصن الذي ما زالت بقاياه قائمة حتى اليوم، كان يُطلق عليه في القرون الوسطى اسم «صخرة اليهود». (مترجم)

باتجاه ملجأ من شجرات سنديان قصيرة، وشجيرات شوكية، استند إليها مصاب آخر ليرتاح. بعد مرور عدّة دقائق، وعندما استعاد بيرسي - الذي لا يزال الكونت دو براي - وعيه، اكتشف أنه لم يكن وحده فوق سرير قاس من الحصى والعشب. كان يجلس مقرفصاً إلى جانبه عجوز طرطاري، بوجه مبتسم، يرتدي، بأسلوب غير متناسق ولكنه ليس بالسيّئ، سروال جينز أمريكي تحت رداء البشمت التقليدي. "Bednïy, bednïy" (أيها الفتى المسكين)، تمتم الرجل الطيب، هازاً رأسه الحليق، ومقرقراً: «أتتألم؟»، فأجاب بيرسي بروسيته البدائية على حدّ سواء، بأنه لم يشعر بأن إصابته بالغة. "Karasho, karasho ne bol'no" (جيد، جيد)، قال العجوز اللطيف، ثم التقط المسدس الآلي الذي كان بيرسي قد أسقطه، تفحّصه بسرور ساذج، ثم أطلق النار على رأسه. (يتساءل المرء، يتساءل دائماً، ما هي سلسلة الانطباعات السريعة والوجيزة، التي يشعر بها شخص لحظة إعدامه، كما تم حفظها في مكان ما، بطريقة ما، في مكتبة ضخمة تحتفظ بالتسجيلات المصغرة للأفكار الأخيرة، بين لحظتيْن أساستين، من الحالة التي نحن بصددها الآن: الأولى حين رأى صديقنا تلك التجاعيد الودية، الهندية الحمراء إلى حدّ ما، تبثّ تبسّمها من خلال سماء رائقة لا تختلف كثيراً عن سماء لادور، والثانية عندما شعر بالدفع العنيف للفولاذ عبر بشرته الطرية وعظامه التي انفجرت. يفترض المرء أن ذلك أشبه بمتابعة عزف منفرد لناي يؤدي عرضاً تحت عنوان: أنا حي - مَن هذا - مدني - تعاطف - أنا عطش - ابنة مع إبريق - هذا مسدسي اللعين - لا تفعل - إلى آخره أو بالأحرى لا آخر يمكننا الوصول إليه... بينما يدعو بيل ذو الذراع المكسورة، إلهه الروماني في نوبة من الخوف، كي ينهي الطارطاري وظيفته ويمضي. ولكن بالطبع، كان المضي في سلسلة

الأفكار تلك - ربما بعد فكرة الابنة مع إبريق - ليوصل إلى تفصيل لا يقدر بثمن: لمحة، أو ظل لطعنة آرديس).

«يا للغرابة، يا للغرابة!» تمتم فان حين أنهت كوردولا نسختها الأقل تفصيلاً من التقرير الذي حصل عليه فان لاحقاً مباشرة من فريزر.

يا للمصادفة الغريبة! لقد كان سهما آدا القاتلان فعّالَيْن جداً، أو ربما، بطريقة أو بأخرى، تمكن هو من التخلّص من عاشقيْها البائسين في مبارزة وهمية.

ما كان غريباً أيضاً، أنه عندما كان يستمع إلى قصة كوردولا الصغيرة، لم يشعر بأي شيء خاص، ما خلا، طبعاً، بعض تعجّب حيادي. الغريب ابن الغريب، فان، ذو الوجهة الواحدة في المسائل العاطفية الرقيقة، لم يكن في تلك اللحظة متشوقاً للاستمرار في رثاء مصير شاب بالكاد كان يعرفه، بقدر تلهفه للاستمتاع بكوردولا بأقرب فرصة بشرية وإنسانية، وأنسب فرصة شيطانية وقدسية؛ وعلى الرغم من أن الدموع قد تلألأت مرة أو مرتين في عينيّ كوردولا الزرقاويْن، إلا أنه كان على أتم المعرفة أنها نادراً ما كانت ترى ابن عمها الثاني، لا بل إنها، في الحقيقة، قد مقتته.

قالت كوردولا لإدموند: «توقف قرب، ماذا يسمونه، أجل، آلبيون، المتجر الرجالي، في لوغا»؛ وعندما اعترض فان مغتاظاً: «لا يمكن العودة إلى المدنية بالبيجاما»، أجابته حازمة: «سأشتري لك بعض الثياب، بينما يشرب إدموند فنجاناً من القهوة.»

اشترت له زوجاً من السراويل ومعطفاً مطرياً. بقي ينتظرها بفارغ الصبر في السيارة المركونة جانباً، ثم، وتحت ذريعة تبديل ملابسه، طلب منها القيادة نحو مكان منعزل، بينما كان إدموند، حيث كان، يرتشف فنجان قهوته الثاني.

ما إن وصلا إلى منطقة مناسبة، شد فان كوردولا إلى حضنه، أجلسها فوقه، وامتلكها بارتياح، مع كل تأوهات المتعة التي أطلقتها ما إن شعرت بلمسه ومداعباته.

«كوردولا المتهورة»، قالت كوردولا المتهورة بمرح؛ «لا بدّ أن ذلك سيؤدي إلى إجهاض آخر - شبح جنين آخر، كما اعتادت خادمة عمتي، المسكينة، أن تنتحب في كل مرة يحدث لها ذلك. هل أزعجك ما قلته؟»

«لا أبداً»، أجاب فان بينما كان يقبّلها بنعومة؛ ثم عادا إلى العشاء.

٤٣

أمضى فان شهر نقاهة في شقة كوردولا في مانهاتن، جادة ألكسيس. بدافع الواجب، زارت أمها مرتين أو ثلاث أسبوعياً في قصر مالبورك. لم يرافقها فان إلى هناك ولا إلى العديد من نشاطاتها الاجتماعية في المدينة، كونها مجرّد تسالٍ تافهة في نظره؛ ولكنها ألغت بعض الحفلات، وتجنبت نهائياً رؤية عشيقها الأخير (المعالج النفسي التقني العصريّ، الطبيب د. ف. فريزر، نسيب الجندي البائس الراحل، بيرسي دو براي). تحدث فان عدة مرات عبر الدوروفون إلى والده (الذي كان مشغولاً بدراسة مكثّفة للمنتجعات المكسيكية والتوابل) وقضى له عدّة أمور في المدينة. غالباً ما كان يأخذ كوردولا إلى مطاعم فرنسية، أفلام إنكليزية ومآسٍ اسكندينافية. كان كل شيء معه مبهجاً ومشبعاً، فقد استمتعت بكل لقمة، كل رشفة، كل ضحكة، كل دمعة، أما هو فقد كان مفتوناً بمخمل خدّيها الوردي، وزرقة صافية في بؤبؤيها تزيد من جمال زينة عينيها الاحتفالية، تحدّهما رموش نيلية السواد كثيفة، ترتفع بطولها لتزيد جفنيها تقوّساً، لتشبه ما كان يُطلق عليها : نمط «قبعة المهرج».

ذات يوم أحد، في حين كانت كوردولا لا تزال مسترخية في حمامها المعطر (مشهد ساحر، جديد وغريب بالنسبة لضيفها، الذي

كان يستمتع برؤيته مرتيْن يومياً)، حاول فان «المعرّى» (الكلمة المضحكة التي هذّبتْ بها حبيبته الجديدة كلمة «عاري») لأول مرة بعد توقف قسري لمدة شهر، أن يمشي على يديْه. ظنّ أنه استعاد قوته ولياقته، وبدأ مرِحاً بـ«الوضعية الأولى»، في وسط الشرفة الغارقة في أشعة الشمس. سقط على ظهره في اللحظة التالية. حاول ثانية ففقد توازنه فوراً. تولّد عنده شعور مرعب وإن كان وهمياً، بأن ذراعه اليسرى قد باتت أقصر من اليمنى، وتساءل ما إذا كان سيتمكن من الرقص على يديه ثانية. وكان كينغ وينغ قد حذره أن البقاء لشهر أو شهرين من دون ممارسة قد يؤدي إلى خسارة هذا الفن النادر، خسارة لا يمكن تعويضها. في اليوم ذاته (حدثان صغيران سيئان سيبقيان في ذهنه للأبد) حدث أن أجاب فان على مكالمة هاتفية - صوت غائر ظنه فان صوت رجل يريد كوردولا، ولكن تبيّن أن المتصلة كانت زميلة مدرسة قديمة، تظاهرت كوردولا بالسرور لسماعها، ولكنها في الوقت ذاته أوحت لفان بعكس ذلك من خلال نظرات مستهجِنة، واعتذرت عن لقائها باختراع العديد من الارتباطات غير المقنعة.

«إنها لفتاة شنيعة!»، هتفت بصوت عال بعد التوديع الشجي. «اسمها فاندا برووم، ولقد عرفت عنها مؤخراً ما لم أشتبه به في المدرسة، وهي أنها Tribadka[1] حقيقية. أخبرتني غرايس إرمينين المسكينة، أن فاندا اعتادت المرور باستمرار للقائها - ولقاء فتاة أخرى. إليك صورتها!»، تابعت كوردولا بتغيير سريع في لهجتها، مظهرة ألبوم حفلة تخرج ربيع ١٨٨٧، يحوي صوراً مطبوعة على نحو جيد، سبق لفان أن رآها في آرديس، ولكنه لم يلاحظ حينذاك وجود تلك الفتاة بالذات، بوجهها الكئيب وحاجبيْها الكثّيْن، ولكن ذلك لم

(١) Tribadka: سحاقية بالروسية (مترجم)

يعد مهماً، كما أن كوردولا سريعاً ما انتشلت الكتاب وأخفته في درج؛ ولكنه تذكر تماماً أن بين صفحاته التي تحمل مساهمات متنوعة ومحتشمة إلى حدّ ما، كان الكتاب يحوي محاكاة أدبية ذكية تحمل توقيع آدا فيين، تقلّد فيها توزيع الفقرات عند تولستوي والطريقة التي يختم بها فصلاً؛ لمعتْ في ذهنه صورتها الفوتوغرافية الرصينة، وقد أضافت تحتها قصيدة غنائية، بأسلوبها الخاص:

في العزبة القديمة، ألّفت باروديا[١]
فوق كل شرفة، في كل غرفة،
وزهر الجكراندة في رأس السهم
كان خارقاً للطبيعة.

لا أهمية لذلك، لا أهمية. مزّقْ كل شيء وانس الأمر! ولكن مجرد فراشة في حديقة، زهرة أوركيد في نافذة متجر، كانت قادرة على إحياء كل شيء، بيأس عنيف، قادرعلى هزّ كيانه.

استغلّ فان معظم أوقاته في المكتبة العامة، ذلك البناء الرائع بأعمدة غرانيت هائلة، والذي لم يكن يبعد عن شقة كوردولا المريحة سوى بضعة مبان. كيف يمكن للمرء أن لا تغريه مقارنة العذابات الغريبة والشكوك المؤلمة، التي تدخل في تركيب النشوة المعقدة المصاحبة للتأليف الأدبي البكر لكاتب شاب، بعذابات الولادة؟ لم يكن فان قد تخطى مرحلة الزفاف؛ بقي عليه أن ينتظر (من باب تطوير المجاز) وصول عربة بسرير لتأتي مرحلة فضّ البكارة الفوضوية، ثم الشرفة الأولى وإفطار شهر العسل، مع أول دبور. لا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنة كوردولا بالمتعة التي كان يحصدها من الكتب،

(١) باروديا: محاكاة ساخرة. والمقصود بها هنا رسم آدا للأوركيد. (مترجم)

ولكنه كان يمشي عائداً عند المساء، مشبعاً بضوء الشفق، وبصدى المهمة المنجزة، والأخرى التي تنتظره في شقة كوردولا المتلهفة لمداعاباته؛ كان يتطلع بشكل خاص إلى تلك الأمسيات عندما كانت كوردولا تأمر بإحضار أطباق مختارة من مطعم موناكو، وهو مطعم حسن ضمن البناء العالي الذي تتوّجه شقتها، بشرفتها الفسيحة جداً. حملت التفاهة الحلوة لعيشهما سوية طمأنينةً لفان، أكثر مما فعلت صحبة أبيه دائم الاهتياج والحماس، أثناء لقاءاتهما النادرة التي تخللت إقامة لمدة أسبوعين في باريس، قبل بدء الفصل الدراسي التالي في تشوز.

خارج عن النميمة (الثرثرة التافهة)، لم يكن ممكناً إجراء محادثة مع كوردولا، وهذا بشكل أو بآخر جعل الحياة معها أسهل. أدركت بغريزتها، وبسرعة فائقة، أنه لا يجب عليها أبداً، ذكر اسم آدا أو آرديس. أما هو، فقد قبل من جانبه، الحقيقة الواضحة لعدم حبها العميق له. كان جسدها الصغير، النقي، الغض والمكتنز، شهياً للمداعبة. كان إبداء ذهولها الصريح وإكبارها لتنوع أدائه وقوته في ممارسة الحب، كبلسم على ما تبقى من كبرياء فحولته. كان النعاس ليأخذها ما بين قبلتيْن. حين لم يجد للنوم سبيلاً، كحاله الآن، كان ينسحب إلى غرفة الجلوس، ويدوّن الحواشي فوق الكتب التي كان مهتماً آنذاك بقراءتها، أو كان يذرع المكان جيئة وذهاباً، من وإلى الشرفة المفتوحة، تحت ضباب النجوم، غارقاً في تأمل مكثّف ومحدود، إلى أن يسمع صرير أول ترام، يلمع خافتاً في غور هاوية فجر المدينة.

حين، في مطلع شهر سبتمبر، غادر مانهاتن إلى لوت، كان فان حاملاً.

القسم الثاني

١

في إحدى المرايا المؤطرة بلون الذهب داخل غرفة الانتظار قديمة الطراز في مطار غوود-صان، لمح فان القبعة الحريرية لوالده الذي جلس ينتظره فوق مقعد بذراعيْن يحاكي مقاعد الخشب الرخامي، وقد أمسك بصحيفة قد أظهرتْ حروفها المعكوسة في المرآة العنوان التالي: «استسلام جزيرة القرم». في اللحظة ذاتها، ظهر رجل بمعطف مطري، ووجه لطيف، وردي، خنزيري بشكل أو بآخر، وبادر فان التحية. كان ممثلاً لوكالة عالمية شهيرة، تعرف ر.خ.ج. (V.P.L.)، اختصاراً لـ: رسائل خاصة جداً. بعد أول وهلة مفاجأة، تبيّن لفان أن آدا فيين، عشيقته السابقة، لم يكن بمقدورها اختيار طريقة أذكى (بكل معنى الكلمة) لتوصل إليه رسالة بسرية فائقة ومضمونة. كانت عملية نقلها ثمينة، ومثمّنة. لم يتمكن التعذيب ولا التنويم المغناطيسي من تقويض منهج عمل الوكالة السري، حتى في أحلك أيام عام ١٨٥٩، عام الشر[١]. سرت الشائعات أنه حتى غاماليل أثناء رحلاته (لم تعد متكررة، للأسف) إلى باريس، والملك فيكتور أثناء زياراته التي ما زالت منتظمة إلى كوبا وهيكوبا، وطبعاً،

(١) عام الشر: عام اختراع الكهرباء.

اللورد غول[1] القوي، نائب الملك في فرنسا، حين كان يستمتع بسلطاته الممتدة فوق جميع أنحاء كانادي، كانوا جميعاً يفضلون التكتم المذهل، أو بالأحرى، العصمة الغريبة، لتلك المنظمة التي وضعوا أسرارهم تحت تصرفها، والتي قدمت كامل التسهيلات المكتبية لنقل الرسائل الجنسية للحكام الراغبين بخيانة زوجاتهن. أطلق المراسل الحالي على نفسه اسم جايمس جونز، الصيغة التي جعل منها الافتقار الكامل للدلالة اسماً مستعاراً مثالياً، على الرغم من أنه اسمه الحقيقي. عكست المرآة نفاد صبر أبيه الذي بدأ بهياج تقليب صفحات الجريدة، ولكن فان رفض التصرف على عجل. من أجل كسب الوقت (إذ إنه قد رأى شعار آدا فوق بطاقة منفصلة فكان عليه أن يقرر ما إذا كان سيستلم الرسالة أم لا) تفحّص عن قرب الشارة التي كانت عبارة عن قلوب صغيرة، قد عرضها ج.ج. بفخر مبرر. طلب من فان فتح الرسالة، ليتأكد من أصالتها، ويوقع البطاقة التي عادت بعد ذلك إلى حفرة أو ربما جعبة سرية، في ملابس المحقق الشاب، أو ربما في جسمه. وأخيرا علا صياح ديمون المتلهف، مرحِّباً بولده (كان يرتدي لرحلته إلى فرنسا معطفاً أسود مبطّناً بحرير قرمزي) ومقاطعاً حديثه مع جايمس، فما كان من فان إلا أن حشر الرسالة في جيبه (قرأها في المرحاض بعد عدّة دقائق، قبل أن يستقل الطائرة).

«أسهمنا آخذة في ارتفاع»، قال ديمون، «انتصارات إقليمية وما إلى ذلك. سيتم تنصيب صديقي بيسبورودكو حاكماً أمريكياً جديداً في بيسارابيا، وآخر بريطاني، آرمبوروغ، سيحكم أرمينيا. رأيتك تعانق الكونتيسة الصغيرة خاصتك قرب باحة انتظار السيارات. إن تزوجتها فسأحرمك الميراث. إنها تقل رفعة عن طبقتنا.»

---

(١) اللورد غول: تلميح إلى شارل ديغول. (مترجم)

«في غضون عاميْن»، قال فان، «سأصل إلى ملاييني الخاصة (وقد عنى بذلك الثروة التي تركتها آكوا)، ولكن لا داعي لقلقك يا سيدي، لقد قطعنا علاقتنا في الوقت الحاضر - إلى أن أعود في المرة القادمة للعيش في الـ girlinière[1] خاصتها (كلمة عامية كندية).»

أراد ديمون، متباهياً بفطنته، أن يعرف ما إذا كان فان، أو «دجاجته»، قد تورطا في مشاكل مع الشرطة (مشيراً بإيماءة من رأسه نحو جيم أو جون الذي كان عليه أن يسلم رسالة أخرى لشخص آخر، فجلس فوق مقعد يختلس النظر إلى عنوان: جريمة جنس في بيسارمينيا).

«دجاجة؟»، أجاب فان بذات التحفظ المراوغ الذي لجأ إليه الحاخام الروماني ليحمي باراباس.

«ولم الرمادي؟»، سأل ديمون مشيراً إلى معطف ولده. «لم هذه التفصيلة العسكرية؟ لقد فات الأوان على تجنيدك.»

«لم أستطع - إن مجلس التجنيد سيرفضني بكل الأحوال.»

«كيف أصبح الجرح؟»

«يوم لي ويوم عليّ. تبدّى لي الآن أن جرّاح كالوغانو لم يقم بمهمته على أتم وجه. لقد كبرت الندبة، بلا سبب، حمراء مسلوخة الجلد، وهنالك كتلة في إبطي. عليّ أن أعيش معاناة الجراحة مرة أخرى، ولكن هذه المرة في لندن، حيث الجزارون بارعون في التقطيع أكثر. أين المراحيض هنا؟ أوه. إنها هناك. لقد رأيتها. (زهرة جنطانيا مرسومة فوق باب، وخنشار أنثى[2] فوق الآخر: عليك الذهاب إلى المعشبة).»

---

(١) girlinière: كلمة من اختراع الكاتب ويقصد بها شقة بناتية. (مترجم)

(٢) خنشار أنثى: من السرخسيات، يعرف أيضاً بالفوجير. (مترجم)

لم يرد على رسالتها. بعد أسبوعين، قام جون جايمس، وقد تحول إلى سائح ألماني يرتدي من رأسه حتى قدميه نسيج تويد زائفاً مخططاً على شكل مربعات، بتسليم فان رسالة ثانية، في متحف اللوفر، بالضبط أمام لوحة المركب السكران لـ بوس[١]، تلك التي يظهر فيها مهرج يشرب جالساً فوق حبال الأشرعة (لطالما اعتقد العجوز دان المسكين، أن للوحة علاقة بقصيدة برانت[٢] الساخرة!). لم يرغب فان في الرد، على الرغم من أن الوكيل الأمين قد أشار إلى أن قسيمة الإرجاع تتضمن تكلفة الرد المرسل.

بدأ الثلج بالانهمار، ومع ذلك، وصل جايمس بكامل أناقته التجريدية، ومع رسالة ثالثة، أمام باب فيلا فان الريفية المزخرفة، فوق ضفاف رانتا، بالقرب من تشوز. طلب منه فان أن يتوقف عن إحضار الرسائل بعد تلك المرة. في غضون العامين التاليين، وصلته رسالتان أخريان، كلتاهما في لندن، وكلتاهما في قاعة فندق ألبانيا بالاس، بواسطة عميل ر.خ.ج. آخر، عجوز نبيل بقبعة سوداء مستديرة، وقد أوصى به المتواضع والحساس جيم، ظاناً أن العجوز بمظهره الخشن وطريقته العملية، سيكون أقل إزعاجاً للسيد فان فين من محقق خاص بالقصص الغرامية. وصلت سادسة بالوسائل الطبيعية إلى بارك لاين. جميعها (ما عدا الأخيرة فقد كان تحمل الدعايات المسرحية والسينمائية الخاصة بآدا) سنوردها أدناه. لقد أهملتْ آدا تدوين التاريخ، ولكن يمكن تحديده بشكل تقريبي:

---

(١) هيرونيموس بوس (١٤٥٠-١٥١٦): رسام هولندي. أما المركب السكران فهو اسم يحمل تلميحاً صريحاً إلى الشاعر الفرنسي رامبو. أما اللوحة المقصودة فموجودة في متحف اللوفر. (مترجم)

(٢) سبستيان برانت (١٤٥٨-١٥١٢): شاعر ألماني. القصيدة المقصودة تحمل عنوان: مركب المجانين. (مترجم)

[لوس أنجلوس، الأيام الأولى من سبتمبر، ١٨٨٨]

عليك أن تعذرني للجوئي لتلك الوسيلة الفاخرة (والمبتذلة) لإيصال رسالتي إليك. ولكني لم أعثر على خدمة أكثر أماناً.

عندما قلت لك إني غير قادرة على الكلام وسأشرح كل شيء كتابة، عنيت بذلك أني لم أكن قادرة على النطق بالكلمات المناسبة على التوّ. أتوسل إليك. شعرت أني لم أكن قادرة على وضعها بالترتيب الشفهي المناسب. أتوسل إليك. شعرت أن أي كلمة خاطئة، أو في غير محلها، ستكون قاتلة، وأنك ببساطة ستتركني، كما فعلت، وتبتعد، مرة أخرى، وأخرى، وأخرى. أتوسلك أن تفهمني [ك . محرر] ولو قليلاً. أظن عليّ الآن، بغض النظر عن العاقبة، أن أتكلم، أتلعثم، إذ اكتشفت أنه لا يوجد ما هو أصعب من أن تبرر قلبك وشرفك في رسالة واحدة - وما يجعلها أكثر صعوبة، هو أننا عند التحدث مباشرة يمكننا الاستعانة بتلعثمنا، كحجة نتلمس بها تمويه كلماتنا العرضية، كأرنب ينزف دماً من أحد جانبَي فكّيه؛ نتلعثم، نتراجع، نأخذ وقتنا لتصويب كلماتنا؛ ولكن فوق الثلج، حتى وإن كان أزرق كثلج تلك الورقة، فإن الأخطاء تكون حمراء ونهائية. أتوسل إليك.

أمر واحد مؤكد، وثابت، عليك أن تعرفه مرة واحدة وإلى الأبد. لم أحب، ولا أحب، ولن أحب رجلاً سواك. أناشدك وأحبك بألم وعاطفة لا ينضبان، يا حبيبي. Ty tout stoïal (أنت دائماً هنا)، في هذا الـ karavansaray، أنت في قلب كل شيء، دائماً، حتى عندما كنت في السابعة أو الثامنة من عمري، أليس كذلك؟

[لوس أنجلوس، منتصف سبتمبر، ١٨٨٨]

عويل آدا الثاني (من العالم السفلي). لقد علمت في اليوم ذاته، ومن مصادر ثلاثة مختلفة، نبأ مبارزتك في ك.، نبأ وفاة ب.، ونبأ

نقاهتك في شقة ابنة عمه (تهان[١] كما اعتدما أنا وهي أن نقول). اتصلت بها فأخبرتني أنك غادرت إلى باريس، وأن ر. قد مات أيضاً - ليس بتدخل منك كما ظننت لوهلة، ولكن من زوجته. لم يكن هو أو ب. عشيقاً لي من الناحية التقنية، لكنهما وقد أصبحا فوق تيرا، لم يعد للأمر أهمية.

[لوس أنجلوس، ١٨٨٩]

ما زلنا في الفندق ذي اللونين الوردي (بلون الحلوى) والأخضر الشاحب (بلون موز الجنة[٢])، حيث أقمت مرة مع والدك. بالمناسبة، إنه لطيف للغاية معي. أحب السفر معه. لقد لعبنا القمار سوية في نيفادا، البلد الذي يحمل قافية اسمي، كما يحمل النهر الأسطوري في روسيا القديمة قافية اسمك. أرجوك يا فان، اكتب لي رسالة ولو صغيرة. إنني أسعى جاهدة لإرضائك. أتريد سماع أخبار أخرى (يائسة)؟ المدير الجديد لوعي مارينا الفني يعرّف «اللامحدودية» على أنها أبعد نقطة في بؤرة الضوء عن آلة التصوير. لقد أُعطيت مارينا دور الراهبة الصماء فارفارا (التي، بطريقة ما، تكون أهم شخصية بين الأخوات الأربع لتشيخوف). التزمتْ بتعاليم ستان التي تتطلب من الممثل أن يدرس شخصيته إلى أن تسيطر على تفاصيل حياته اليومية، أصرّت على تطبيقها في مطعم الفندق، شربت شاي v prikusku (تقضم السكر بين الرشفة والأخرى)، وادّعت

---

(١) تهان: congrats كما وردت في النص الأصلي اختصاراً لـ congratulations. (مترجم)

(٢) موز الجنة أو plantain: نبات من جنس الموز، وتُستخدم الفاكهة التي ينتجها لأغراض الطهو والحلويات، على عكس الموز اللين الحلو. الفندق المقصود هو الخاص بالمسرح الصيني في هوليوود. (مترجم)

إساءة فهم كل سؤال لتقليد طريقة فارفارا الغبية في ادّعاء الغباء - سوء فهم مزدوج، قد يزعج الغرباء ولكن، بطريقة ما، يدفعني للشعور بأنني ابنتها، أكثر بكثير مما كنت عليه في عصر آرديس. بالمجمل، إنها تحصد نجاحاً هائلاً هنا. لقد أعطوها منزلاً من طابق واحد (ليس مقبولاً كفاية، كما أخشى) في يونيفرسال سيتي[1]، مسجلاً باسمها. بالنسبة لي، فأنا نادلة من الدرجة الرابعة، قليلة الظهور في فيلم رعاة بقر (ويسترن)، بوركيْن يتأرجحان بين رجال مخمورين يضربون الطاولات، ولكنني مستمتعة في أجواء هوليوود، الفن المتقن، طرق التل المتعرجة، إعادة بناء الشوارع، الساحة العامة الإلزامية، وعلامة متجر بنفسجية فوق واجهة خشبية مزينة، وحوالي الظهيرة، يصطف كل ممثلي الكومبارس بملابس عصرية أمام كشك زجاجي، ولكن أنا بمن سأتصل؟

بالحديث عن المكالمات، لقد شاهدت في تلك الليلة مع ديمون فيلماً مذهلاً عن الطيور. لم أكن قد أدركت قبلاً أن طيور التمير الاستوائية وشبه الاستوائية (ابحث عنهم في المعاجم) هي mimotypes (النموذج المقابل) لطيور الطنان في العالم الجديد. آه يا حبيبي! كل أفكاري هي mimotypes لأفكارك. أعرف أعرف! أعرف أنك توقفت عن القراءة عند كلمة «أدركت» - كما في الأيام الخوالي.

[كاليفورنا ؟ ١٨٩٠]

لا أحب أحداً سواك، ولا سعادة لي إلا حين أراك في أحلامي، أنت فرحي، وعالمي، إنها حقيقة مؤكدة، كحقيقة بقائي على قيد الحياة، ولكن . . . أوه ! لا! أنا لا أتهمك! - ولكن، يا

---

(١) يونيفرسال سيتي: مدينة في سان فرناندو فالي، كاليفورنيا، بنيت لصنع الأفلام. (مترجم)

فان أنت مسؤول (أو قد يكون القدر من خلالك هو المسؤول، والنتيجة واحدة) كونك فتحت داخلي باباً للجنون منذ كنا أطفالاً، أطلقت جسداً هائجاً ومتطلباً، نهِماً لا يمكن إشباعه. الحريق الذي أضرمته قد ترك نيرانه فوق أضعف، أرق، وأخبث نقطة في جسدي. والآن، قريباً جداً، عليّ أن أكفّر عن كشطك العنيف لطفح لحمي الأحمر، كما يدفع الخشب المتفحّم ثمن الحريق. عندما أفتقد مداعباتك، أفقد توازن أعصابي. لا شيء سوى نشوة الاحتكاك، هي وحدها الموجودة، التأثير المستدام للدغتك، لسمومك اللذيذة. أنا لا أتهمك، ولكني أشرح لك سبب اشتهائي وضعف مقاومتي أمام اللحم الغريب؛ لذا يشع ماضينا المشترك بتموجات لا حدّ لها من الخيانات. لك مطلق الحرية في تشخيص كل ذلك على أنه حالة إيروتومانيا[١] متطورة، ولكن هذا ليس بكل شيء، إذ هنالك علاج بسيط لكل آلامي وآثامي، مستخرج من الثمرة القرمزية، لحم شجرة الـ yew[٢]، لا شيء سوى Yew.

Je realize[٣] - كما اعتادت جميلتك سندريلا دوتورف (والآن زوجة تروفيم فارتوكوف) أن تقول - أنني محتشمة وفاحشة في الوقت ذاته. ولكن هذا يؤدي إلى اقتراح هام، هام جداً ! فان! je suis sur la verge[٤] (أيضاً أقتبس عن بلانش) مغامرة عاطفية مقزّزة. يمكنك

---

(١) إيروتومانيا: هوس شبقي. (مترجم)

(٢) Yew: تورية تشير إلى اسم شجرة الطقسوس، وهي شجرة تحمل ثمراً توتي اللون يعرف عنه أنه منشط جنسي فعال، وإلى you أي أنت. (مترجم)

(٣) Je realize: أدركت بالفرنسية. (مترجم)

(٤) je suis sur la verge: النسخة الفرنسية الخاصة ببلانش من العبارة الإنكليزية on the verge، وتعني على وشك. في الوقت ذاته تعني كلمة verge بالفرنسية القضيب الذكري. (مترجم)

إنقاذي فوراً. استقل أسرع طائرة يمكنك استئجارها وأدركني في إل باسو، ستكون آدا خاصتك بانتظارك هناك، تلوّح كمجنونة، وسنكمل الرحلة، فوق قطار «العالم الجديد» السريع، في جناح سيكون لي، نحو طرف باتاغونيا المحترق، بلاد الكابتن غرانت، فيلا في فيرنا، جواهري، أحزاني. أرسل لي رسالة تحمل كلمة روسية واحدة - نهاية اسمي[١].

[أريزونا، صيف ١٨٩٠]

إنها الشفقة فقط، الشفقة التي تحملها كل فتاة روسية، هي ما دفعني نحو ر. (الذي لم يكتشفه نقاد الموسيقى إلا الآن)؛ كان يعلم أنه سيموت شاباً، وللحق، لم أكن أرى فيه غير جثة. أقسم أنه لم يستطع ولو لمرة واحدة أن يرتقي لما هو أسمى من ذلك، حتى عندما عرضت عليه علناً عدم ممانعتي الحنونة، لأنني للأسف مذ حرمت منك، فضت بحيوية مرضية، حتى أنني فكرت بشراء خدمات muzhik[٢] شاب عنيف (عنف أكثر، متعة أكبر).

بالنسبة لـ ب. أستطيع شرح سبب رضوخي لقبلاته (رقيقة وبسيطة بدايةً، ثم تزايدت عنفاً وخبرة، وانتهت تحمل رائحة شبقي في كل مرة عاد فيها إلى فمي - حلقة خبيثة ما انفكت عن الدوران في أوائل ثارجليون[٣] ١٨٨٨) فلقد هدد بإخبار أمي بعلاقتي مع ابن عمي وفضحها في حال رفضت حبه، وقال إن لديه شهوداً، كشقيقة حلوتك بلانش مثلاً، وفتى الإسطبل، الذي أظن أن صغيرة الأخوات تورب

(١) نهاية اسم آدا: دا بالروسية تعني أجل.

(٢) muzhik: رجل بالروسية.

(٣) ثارجليون: الشهر الحادي عشر في التقويم اليوناني (أواخر مايو- أوائل يونيو). (مترجم)

الثلاث (اللعينات بما يكفي) قد انتحلت شخصيته. فان! من السهل عليّ لو وددت أن أضخّم أكثر من أمر تلك التهديدات لتبرير سلوكي. طبعاً أنا لن أذكر أن نبرة تلك التهديدات لم تكن جدّية كتلك الخاصة بمبتز حقيقي. ولن أذكر أيضاً أن ب. حتى وإن ضمن تواطؤ مخبريه المجهولين، فإن إقدامه على هكذا أمر سيكلفه سمعته الخاصة، بمجرد أن تنكشف دوافعه الحقيقية، المحكومة بالفشل على الخراب البعيد [كـ. المدى البعيد. تركضه بجوربها الأزرق. محرر]. باختصار، يمكنني إخفاء معرفتي بأن تلك التهديدات الكوميدية لم يُقصد بها إلا إخافة آدا حبيبتك الضعيفة - إذ إن ب.، وبالرغم من غلظته، إلا أنه كان يمتلك إحساساً عالياً بالشرف؛ أمر أكثر غرابة وتعقيداً مما قد يبدو لنا نحن الاثنين. لا، أودّ التركيز بشكل كامل على تأثير تهديدات كتلك على فتاة جاهزة لتخضع لفعل مخزٍ، بدل تعريض نفسها لإفشاء قاتل، لأن صدمة إعلان علاقة بين أبناء عمومة من الدرجة الأولى قد يبدو (وهذا ما لا يعرفه لا هو ولا حتى مخبريه) نهجاً سارت عليه العائلة قبلاً، وأنا أرفض (كما سبق أن رفضنا أنا وأنت دائماً) أن أتخيل كيف ستكون ردّة فعل مارينا وديمون على «علاقتنا». هذا التركيب العشوائي والمضطرب للجمل التي أكتبها الآن، سيُظهر لك كم أنني عاجزة عن التبرير بشكل منطقي. لا أنكر أنني واجهت ضعفاً غريباً خلال مواعيدي الغرامية معه المحفوفة بالمخاطر، كما لو أن رغبته الوحشية لم تكن تفتن حواسي الفضولية فقط، بل عقلي الممانع أيضاً. على أي حال، يمكنني أن أقسم، آدا الرصينة تقسم لك، إني، خلال مواعيدي معه في الغابة، قد نجحت في تجنّب، إن لم يكن التلوّث، فهو تجنّب امتلاكه لي على الأقل، قبل وبعد عودتك إلى آرديس - ما عدا مرة في مناسبة فوضوية، تمكن مني عنوة بنصف إيلاج، ذلك المحموم الميت!

أكتب الآن من مزرعة مارينا - ليس بعيداً جداً عن الجدول الذي ماتت فوق ضفته آكوا، والذي أشعر أنني يوماً سوف أزحف إليه أيضاً. ولكن الآن، سأعود لقضاء فترة في فندق بيسانغ.

تحية لمن قرأ بتمعّن.

استردّ فان عام ١٩٤٠ حزمة الرسائل الخمس تلك، من خزنة في مصرفه السويسري، حيث بقيت محفوظة لنصف قرن بالضبط. كانت كل منها في غلاف ر.خ.ج. الحريري الوردي الخاص بها، وقد ارتبك متفاجئاً من عددها القليل ذاك، إذ كان لتمدد الماضي، والتضخم المترف لنمو الذكريات، أثر في مضاعفة عددها ثلاث مرات على الأقل في ذهنه. تذكر أنه كان يستخدم كمخبأ أيضاً، درجاً في طاولة مكتبه في استوديو بارك لاين، لكنه عاد واستدرك أنه كان قد أودعه الرسالة السادسة البريئة (أحلام الدراما) ١٨٩١، مع رسائلها المشفرة العائدة لـ (١٨٨٤-١٨٨٨)، عندما احترق القصر الصغير الذي لا يمكن تعويضه، عام ١٩١٩. وقد عزت الشائعات ذلك الفعل المشرق إلى شيوخ المدينة (عجوزان ملتحيان وعمدة شاب بعينيْن زرقاويْن وأسنان أمامية كبيرة وبارزة) الذين لم يحتملوا - كما قيل - رغبتهم العارمة باقتناء قطعة الأرض التي كان يشغلها مجسّم قزم بين عملاقيْن من المرمر؛ ولكن فان قد خيب آمالهم، وبدل أن يبيعهم الأرض التي أحرقوها لاحقاً، فقد شيّد فوقها فيلا لوسيندا الشهيرة، وهي متحف صغير بارتفاع طابقيْن فقط، يحوي في السفلي مجموعات متنامية للوحات مصغرة من كل صالات العرض الخاصة والعامة، ومن كل أنحاء العالم (بما فيها طارطاريا)، وخلية حجيرات مظلمة لعرض الأفلام على الجدران، في الطابق العلوي:

والأكثر روعة نصب تذكاري صغير منحوت من مرمر باروسي[١]، يرعاه عدد كبير من الموظفين، يحرسه ثلاثة رجال أشداء مسلحون، ويُسمح للعامة برؤيته أيام الاثنين فقط، مقابل رسم دخول رمزي، دولار ذهبي، بغض النظر عن قدمه أو حالته.

لا شك في أن ذلك التكاثر الاستثنائي للرسائل، في نظرة استعادية، يمكن تفسيره من خلال أن كل واحدة منها، وعلى امتداد أشهر طويلة من حياته، قد ألقت ظلّاً مبرّحاً، كظل بركان فوق سطح القمر، لا يبدأ بالتناقص إلا في اللحظة التي يظهر فيها ظل رسالة أخرى، لا تقل إيلاماً عن سابقتها. ولكن بعد عدّة سنوات، عندما بدأ بالعمل على «نسيج الزمن» الخاص به، وجد فان دليلاً إضافياً على ارتباط الزمن الحقيقي بالفاصل الزمني بين الأحداث، وليس مع مرورها، ليس مع تماهيها، ليس مع تظليل الفجوة التي يظهر فيها نسيج الزمن النقي، والمنيع.

وعد نفسه أن يكون قوياً، وأن يتألم بصمت. كان تقديره لذاته عالياً: يحمل الموت أثناء مبارزة سعادة لن يعرفها الخصم الذي بقي حياً. ومع ذلك، دعونا لا نلم فان على فشله في المثابرة على قراره، عندما وصلت الرسالة السابعة (وصلته من آدا وأخته غير الشقيقة، في كينغستون، ١٨٩٢) وطرحته مستسلماً. لأنه عرف أنها ستكون الأخيرة. لأنها وصلت من آرديس، من أرض شجر القيقب الذي يغلي الدم في عروقه. لأن أربع سنوات من الفراق، مليئة بالأسرار، قد مرت، كفترة انفصالهما الأولى. ولأنه تبين أن لوسيت، خلافاً لكل سبب، خلافاً لأي إرادة، ستبقى أبداً الإشبينة المعصومة من أي دنس.

---

(١) باروس: جزيرة في اليونان. (مترجم)

٢

الرسائل التي كتبتها آدا، قد تنفسّت، تلوّت، وعاشت؛ «رسائل فان من تيرا»، رواية فلسفية، لم تحظَ بأدنى علامات الحياة.

(لا أوافقك الرأي. إنه كتاب صغير ولطيف! ملاحظة آدا)

كان قد كتبه لاإرادياً، إن جاز التعبير، ولم تعنه في ذلك الشهرة الأدبية مطلقاً. كما أن الاسم المستعار لم يمنحه الرضى الذي حصل عليه حين كان يرقص على يديه. وعلى الرغم من أن غرور فان فيين قد أشبعته ثرثرة المعجبات الجالسات في غرف الرسم اللواتي يحملن مراوحهن، إلا أن ريش كبريائه الأزرق الطويل بقي مطوياً؛ ما الذي دفعه إذاً لتأليف رواية حول موضوع مهدّد بالانقراض، فوق كل نجوم الكواكب، وفي كل ذرّات الفضاء؟

نحن - بغض النظر نحن من - قد نعرّف الدافع على أنه إلحاح ممتع، للتعبير من خلال مجازات لغوية عن خلاصة وافية لبعض الأوهام المرتبطة بأخرى، على نحو لا يفسّر، وقد لاحظ فان وجودها عند مرضى عقليين، بنسب متفاوتة، منذ عامه الأول في تشوز. كان له شغف كبير بموضوع الجنون كما كان لغيره شغف بالعناكب والأوركيد.

كانت هنالك أسباب وجيهة للتغاضي عن التفاصيل التكنولوجية

التي ينطوي عليها تحديد التواصل بين تيرا الجميلة وكوكبنا الرهيب، أنتيتيرا. لم تكن معرفته في الفيزياء وعلوم الميكانيك تتجاوز ما خربشه فوق اللوح في صفوف الإعدادية. عزّى نفسه قائلاً إن الرقابة في أمريكا أو بريطانيا العظمى، لن تكون متساهلة مع أي تلميح للأجهزة المغناطيسية الملعونة. بهدوء، غرف من النظرية التي تخيلها أحد الروّاد العظماء (كاونترستون[١])، على سبيل المثال) عن دفع الكبسولة المأهولة بالبشر، المتضمّنة فكرة ذكية قائلة بتزايد السرعة الأولية من عدة آلاف كيلومترات في الساعة، تحت تأثير وسيط بيئي مضاد من النوع الكاونترستوني، بين مجرّتيْن توأمين، لتصل إلى عدّة تريليونات من السنين الضوئية في الثانية الواحدة، قبل أن تتضاءل على نحو غير مؤذٍ، لتصير بسرعة هبوط باراشوت. كل التفصيلات الحديثة التي وُضعت لافتراءات غير عقلانية، كل الـ«سيرانيانات»[٢]، كل الخيال الفيزيائي، كل ذلك لم يكن مملاً فحسب، بل مجرد سخافة، إذ لم يكن ممكناً لأحد تحديد المدى الذي تبعد فيه تيرا، أو غيرها من كواكب لا تحصى تحمل أشجاراً وأبقاراً، عن الفضاء الداخلي أو الخارجي: وأقول داخلي لأنه لا يوجد سبب يمنعني من افتراض وجودها الكونيّ المصغّر في تلك الفقاعات الصغيرة التي تتصاعد بسرعة عند فتح زجاجة شمبانيا، أو ربما في الكريات التي تجري في دمي، أنا فان فيين - (أو أنا، آدا فيين) - أو حتى في صديد بثرة ناضجة فوق جلد السيد نيكتو[٣]، تم تشريطها حديثاً في

---

(١) كاونترستون: آينشتاين فوق أنتيتيرا. Einstein بالألمانية: تعني حجرا بالعربية، و stone بالإنكليزية. (مترجم)

(٢) سيرانيانات : تلميح إلى سيرانو دي بيرجاك الفرنسي (١٦٢٠-١٦٥٥) وكتابه : التاريخ الهزلي لدول القمر. (مترجم)

(٣) نيكتو: بالروسية: «لا أحد». (مترجم)

نيكتور، أو نيكتون. وعلاوة على ذلك، وبالرغم من وجود مراجع متاحة فوق رفوف المكتبات، وبوفرة غزيرة، إلا أنه من غير الممكن الوصول مباشرة إلى الكتب المحظورة، والمحروقة، الخاصة بعلماء الكون الثلاثة، Xertigny، Yates و Zotov (أسماء مستعارة) الذين كانوا قد بدأوا بحوثهم المتهورة قبل نصف قرن مضى، مسببين، ومصدّرين، الرعب، الجنون، وروايات وحشية ملعونة. العلماء الثلاثة قد اختفوا الآن: X قد انتحر؛ Y خطفه أحد عمال الغسيل وأرسله إلى طارطاريا؛ أما Z، عجوز أنيق متورّد البشرة، أبيض الشاربين، فقد دفع حراس سجنه إلى الجنون من خلال فرقعات غير مفهومة، واختراعات متواصلة لأحبار غير مرئية، تمويهات جسدية، إشارات عصبية، إضاءات لولبية، ومآثر في التكلم من البطن، يقلد به أصوات إطلاق النار من مسدس، أو صفّارة إنذار.

المسكين فان! بغرض أن يبعد صورة آدا عن وحي كاتب «رسائل من تيرا»، قام بتزيين صورة تيريزا وطلائها بالذهب، لتصبح نموذجاً للبلاهة. تيريزا تلك، قد أثارت جنونَ عالم فوق كوكب يمكن اقتياده بسهولة إلى الجنون، بواسطة رسائلها المجنونة؛ اشتق فان جزئياً اسم ذلك العالم من اسم آخر أطباء آكوا، وأضفى عليه جناساً تصحيحياً، ليصير سيغ ليمانسكي[1]. عندما تحول هوس ليمانسكي إلى حب، وتحول معه تعاطف القارئ نحو زوجته الساحرة، الكئيبة والخائنة (أنتيليا جيمز، اسمها عند الولادة) واجه الكاتب مهمة محبطة، تتطلب محو أي أثر لآدا من أنتيليا، السمراء بطبيعتها، وهذا ما تتطلب تقليصها لتصير نموذج دمية قزم بشعر أشقر.

---

(١) سيغ ليمانسكي: تلميح إلى كينغسلي آميس شاعر وروائي إنكليزي (١٩٢٢-١٩٩٥).

بعد أن نقلتْ إلى سيغ عشرات الرسائل من كوكبها، طارت تيريزا نحوه، وكان عليه أن يزلقها فوق شريحة في مختبره، تحت مجهر قوي، ليتمكن من ملاحظة الشكل الضئيل - على الرغم من كونه مثالياً - الخاص بحبيبته القزم، الكائن المجهري الرشيق، الذي يمدّ زوائده الشفافة نحو العين الرطبة التي تتفحصه. للأسف، فإن هذا الأنبوب (أنبوب الاختبار، ولا أقصد به الأنبوب الجنسي أو الأوركيد) الذي كانت تيريزا تسبح داخله كحورية بحر، قد رمته «عن طريق الخطأ» مساعدة الدكتور ليمان (كان قد اقتطع جزءاً من اسمه آنذاك)، فلورا، وهي في الأساس شابة ذات بشرة لؤلؤية بيضاء، بشعر داكن يتوّج جمالها الفتّاك، وقد حوّلها الكاتب، في الوقت المناسب، إلى مسخ بكعكة شعر صغيرة وباهتة.

(استعادت أنتيليا زوجها لاحقاً، وتم استبعاد فلورا. إضافة آدا)

فوق تيرا، كانت تيريزا مراسلة رحالة لمصلحة مجلة أمريكية، مما منح فان الفرصة لوصف الوضع السياسي فوق الكوكب الشقيق، الجانب الأقل مشقة أثناء تأليف الرواية، حيث قدم فسيفساء من ملاحظات قد جمعها بعناية في تقاريره عن «الهذيان المتسامي» لمرضاه. لم تكن التسجيلات الصوتية ذات جودة عالية، غالباً ما وصلت أسماء العلم مشوّهة، والتقويم الفوضوي قد أفسد ترتيب الأحداث، ولكن على وجه العموم، شكّلت النقاط الملونة رسوما جيومانتيكية للأنواع الموجودة هناك. وكما تكهّن المجربون السابقون، فإن سجلّات أحداثنا قد تخلّفت عن تلك الخاصة بتيرا بما يقارب نصف قرن، وكأنها تعرج وراءها متعثرة، عبر جسر الزمن، ولكنها بطريقة ما قد سبقت بعض تياراتها تحت الماء. جرت أحداث روايتنا المأساوية، عندما كان «جورج» آخر، يحكم إنكلترا الخاصة بتيرا (وتبيّن أنه كان هنالك على الأقل نصف دزينة من الحكام

يحملون الاسم ذاته)، أو ربما كان قد توقّف لتوّه عن حكم إمبراطورية مشكّلة من رقع هنا وهناك (مقاطعات غير مأهولة وبقع أجنبية تمتد بين الجزر البريطانية وجنوب أفريقيا) أكثر من عدد نظيرتها التي كانت متكتّلة بصلابة فوق كوكبنا أنتيتيرا. كان غرب أوروبا عبارة عن فجوة واضحة على نحو استثنائي: في أواخر القرن الثامن عشر، عندما قامت ثورة بيضاء افتراضية بإزاحة الكابيتيونيين[1] وصدّ الغزاة، ازدهرت فرنسا الخاصة بتيرا تحت حكم اثنين من الأباطرة، وسلسلة من الرؤساء البرجوازيين، انتمى إليهم الرئيس الحالي، دوميرسي، والذي بدا محبوباً أكثر بكثير من ميلورد غول، حاكم لوت! في الشرق، وبدل الحكم السوفييتي الجائر لخان سوسو، حكَمَ «روسيا» الخارقة، المهيمنة على منطقة الفولغا ومجمّعات مائية مشابهة، اتحادُ جمهوريات سيادية (أو ما نجا منها) التي حلّت محل القياصرة، حكام طارطاريا وترست. أخيراً وليس آخراً، قيل إن أتاهولف[2] المستقبل، عملاق بتسريحة شعر جميلة وبزّة أنيقة، الشعلة السرية للعديد من نبلاء بريطانيا، الزعيم الفخري للشرطة الفرنسية، الحليف الخيري لروسيا وروما، سيحول ألمانيا، كعكة الزنجبيل، إلى بلد عظيم بطرقات سريعة، جنود طاهرين، عصبات نحاسية، وثكنات حديثة لإيواء غير القابلين على الاندماج مع صغارهم.

مما لا شك فيه أن كثيراً من تلك المعلومات التي التقطها اختصاصيو المعالجة خاصتنا (أو تيرابيست كما كان يطلق على زملاء فان) قد شكّلت قالباً معيوباً؛ ولكن روحاً من السعادة الحلوة كانت

---

(١) الكابيتيون: سلالة مالكة في فرنسا، أطاحت بها ثورة القرن الثامن عشر الفرنسية. (مترجم)

(٢) أتاهولف: اسم يجمع بين آدولف هيتلر وأتاوالبا آخر ملوك الإنكا. (مترجم)

تنشر جناحها بوضوح فوق كل ملاحظة. كان تأليف الرواية يهدف إلى الإيحاء بأن فكرة تيرا هي خدعة، إذ لا وجود للفردوس فوقها، وأن العقول البشرية والأجساد البشرية هناك، قد تعرّضت بطريقة ما، لعذابات أسوأ بكثير من تلك التي عاشها البشر فوق ديمونيا، الكوكب الشرير. في رسائلها الأولى، وقبل مغادرة تيرا، لم تقم تيريزا إلا بالثناء على الحكام - وخاصة الروس والألمان. ثم اعترفت في رسائل بعثتها من الفضاء أنها بالغت في وصف النعيم؛ لقد كانت في الواقع، «أداة البروبوغاندا الكونية»، اعتراف يتطلّب الشجاعة، إذ إن عملاء تيرا كانوا قادرين على إعادتها إلى مجالهم قسراً، أو تدمير رحلتها، لو أنهم تمكنوا من اعتراض بثّها الصادق، الذي كانت ترسله في اتجاه واحد، اتجاهنا، لا تسألوا فان بأي طريقة، ولا وفقاً لأي مبدأ. للأسف، لا يمكن القول إن عمله ذاك الذي قد برع فيه، قد كان قائماً على الآلية فقط، بل «الأخلاقيات» أيضاً؛ وما صغناه هنا بعبارات سهلة، قد تطلّب منه مئتي صفحة من التوسّع والتنميق. علينا أن نتذكر أنه لم يكن قد تجاوز العشرين؛ أن روحه الفخورة كانت في حالة من التشويش المفجع؛ أنه كان قد قرأ الكثير وألّف القليل؛ وأن السراب اللامع الذي أشرق أمامه عندما شعر بأولى طعنات آلام «ولادة كتاب» قد داهمته فوق شرفة كوردولا، كان قد بدأ يتلاشى تحت تأثير الحذر، كما كان مسكتشفو العصور الوسطى العائدون من كاثاي يخافون الكشف عن العجائب التي شهدوها، أمام كاهن فينيقي، أو فلمنكي جاهل.

كرّس بضعة أشهر في تشوز ليعيد نسخ خربشته المفزعة بخط نظيف، ثم إعادة تصحيح النتيجة، لتبدو نسخته النهائية كمسودة أولى، أخذها إلى وكالة غامضة في بيدفورد، ليتم طبعها سراً في نسخ ثلاث. حتى تلك النسخة قد شوّهها خلال رحلة العودة إلى أمريكا،

على متن «الملكة غينيفير». وفي مانهاتن، تم إعادة ضبط ألواح الطباعة مرتيْن، ليس بسبب عدد من التعديلات الجديدة فحسب، بل أيضاً الانحرافات اللامحدودة لتدويناته الهامشية.

«رسائل من تيرا»، لـ فولتماند، رواية قد رأت النور عام ١٨٩١، وتحديداً يوم عيد ميلاد فان العشرين، مدموغة من قبل داريْن للنشر مزيفيْن، آبنسيراج في مانهاتن، وزيغريس في لندن.

(لو قُدّر لي رؤية نسخة لكنت تعرّفت فوراً على أثر شاتوبريان ومن ثم أثر مخلبك الصغير.)

كان محاميه الجديد، السيد غروموِيل[1]، الذي كان اسمه النباتي يتناسب بشكل أو بآخر مع عينيه البريئتيْن ولحيته الجميلة، ابن أخ غرومبشفسكي[2] العظيم، الذي أدار خلال السنوات الثلاثين الأخيرة بعض أعمال ديمون، بكثير من العناية والفطنة. بحنان لا يقلّ عن حنان عمه، رعى غروموِيل ثروة فان الشخصية؛ ولكنه لم يمتلك الخبرة الكافية في حلّ تعقيدات مسائل النشر، التي كان فان فيها يزيده جهلاً، لدرجة أنه، على سبيل المثال، لم يكن على دراية بأنه يُفترض بـ«النسخ المراجعة» أن توجّه إلى النقاد الأدبيين في مختلف المجلات الدورية، وأن عليه أن يدفع لقاء الإعلانات، دون أن يتوقع ظهورها من خلال ظاهرة التناسل العفوي، لتشغل عموداً على طول صفحة كاملة، بين إعلانات مماثلة تعرض بيع ممتلكات الآنسة لوف Love، أو سفينة السيد ديوكس.

مقابل رسوم ربحية بسيطة، كانت غوين، إحدى موظفي السيد غروموِيل، موكلة ليس فقط بالترفيه عن فان، بل وتزويد مكتبات

---

(١) غروموِيل: Gromwell، اسم نبات: بزرة القلب. (مترجم)

(٢) غرومبشفسكي: تلميح إلى Bronislav Grombchevski، مستكشف روسي، (١٨٥٥-١٩٢٦). (مترجم)

مانهاتن أيضاً بنصف النسخ المطبوعة، بينما كان أحد عشاقها القدماء ملزماً بتوزيع النصف الآخر على مكتبات لندن. مجرد فكرة أن يكون شخصاً لطيفاً بما يكفي لينشغل ببيع كتبه دون أن يستبقي لنفسه الدولارات العشرة، كلفة طباعة كل نسخة، بدت لفان فكرة غير منطقية وغير عادلة. ولذلك فإنه عندما أحيط علماً من خلال تقرير مفصّل عن المبيعات قد أُرسل إليه في فبراير ١٨٩٢، بأن ست نسخ فقط قد بيعت على مدار اثني عشر شهراً (اثنتيْن في إنكلترا وأربعة في أمريكا)، فقد شعر بأسف كبير تجاه بائعات الكتب الصغيرات، السمراوات الشاحبات، المتعبات، ذوات الأذرع العارية، اللواتي لم يتقاضيْن ما يستحقنّه مقابل العذاب الذي تكبّدنه في سبيل محاولاتهن غير المجدية لإغراء الشاذين جنسياً بقراءة كتابه («رواية خيالية نوعاً ما عن مغامرات فتاة تُدعى تيرا»). من الناحية الإحصائية، وبالنظر إلى الظروف غير التقليدية التي تم خلالها توصيل رسائل تيرا المسكينة، لم يمكن توقّع أي مقال نقدي. ومع ذلك، وبكل غرابة، ظهر اثنان. أولهما، بقلم «المهرج» الأوّل، في نشرة Elsinore، مجلة أسبوعية متميزة في لندن، وقد ظهر تحت عنوان قد اختير بعناية، ليخدم ذلك الهوس البريطاني بالتلاعب اللفظي: "Terre à terre, 1891"[1]، وأدرج ضمن قسم «أفضل الروايات الفضائية لهذا العام»، الأدب الذي كان وقتذاك قد بدأ بأفوله. اعتبر الناقد أن مساهمة فولتماند هي الأفضل بين تلك الروايات، ودعاها (بفطنته المتبصّرة، للأسف) «أسطورة غامضة، مفرطة في الاستعراض حدّ الملل والتفاهة، مع عدد قليل من الاستعارات الرائعة، التي لم تأتِ متلائمة وسخف الحكاية.»

---

(١) Terre à terre: عبارة فرنسية وتعني «أمراً واقعاً وليس متخيلاً». (مترجم)

الثناء الآخر الوحيد الذي أمكن لفولتماند المسكين أن يحظى به، كان في مجلة مانهاتن الصغيرة (The Village Eyebrow) وقد أدلى به الشاعر ماكس ميسبل (اسم نباتي آخر، وهو "medlar" بالإنكليزية، أي شجرة المشملة) عضو في الدائرة الألمانية من جامعة غولوبا. هير ميسبل، الذي يحب إظهار كتّابه، قد رأى في «رسائل من تيرا»، التأثر بأسلوب أوسبرغ[1] (إسباني يكتب حكايات خرافية طنانة، ونوادر غامضة مجازية، قد حظي بتقدير عالٍ من قبل الصحفيين الذين يعملون بعجالة ضمن مناوبتهم القصيرة جداً) وكذلك بعالم عربي قديم وفاحش، مفسر أحلام ومنجم، ابن سيرين، الاسم الذي تُرجم إلى كابتن دو رو Captain de Roux، كما نقله بورتون في كتابه المعدّل عن دراسة النفزاوي حول أفضل طرق الجماع مع النساء البدينات أو الحدباوات (الروض العاطر في نزهة الخاطر، طبعة Panther، ص. ١٨٧، نسخة قد وصلت إلى البارون العجوز فان فين، في عامه الثالث والتسعين، وقد أهداها له طبيبه الداعر، البروفيسور لاغوس).

انتهى النقد كما يلي: «إن كان السيد فولتماند (أو فولتيماند أو ماندالاتوف) طبيباً نفسياً، كما أعتقد، فإنني أشعر بالشفقة على مرضاه، بينما أثمّن موهبته.»

عند ضغطٍ معيّن، وشتْ غوين (فتاة صغيرة وسمينة، دائمة البهجة) بأحد معجبيها الجدد، واعترفتْ أنها قد رجته لكتابة ذلك المقال، إذ إنها لم تحتمل رؤية الحزن على وجه فان، عندما عرف أن كتبه، بأغلفتها المصممة على نحو رائع، قد بقيت حبيسة الصناديق

(١) أوسبرغ: تلاعب لفظي يُقصد به التلميح إلى Borges بورخيس الذي كتب عنه النقاد في مطلع ستينات القرن الماضي أنه متأثر بروح فلاديمير نابوكوف. (مترجم)

ومهملة. وأقسمت إن ماكس لم يعرف من يكون فولتماند حقاً، حتى أنه لم يقرأ الرواية.

دغدغت فان فكرة تحدي السيد ميدلار (آملاً أن يختار السيف كسلاح) في مبارزة، عند الفجر، في ركن منعزل من المتنزه الذي كان يتمكن من رؤية حديقته المركزية الخضراء، من شرفة شقته العالية، حيث كان يمارس المبارزة مرتيْن أسبوعياً، مع مدربه الفرنسي، وهو التمرين الوحيد، إضافة لركوب الخيل، الذي كان لا يزال قادراً على الانغماس فيه؛ جاء ردّ Mushmula (الاسم الروسي لـ medlar) على تحدّي فان المتردد، حاملاً لفان الدهشة والارتياح معاً (إذ إنه كان يخجل قليلاً من الدفاع عن روايته، وكان كل ما أراده هو أن ينساها، كما كان فان آخر، لا يمتّ إليه بصلة، ليشجب ويستنكر - لو قدّر له أن يعيش حياة أطول - حلمه البالغ عن بيوت الدعارة المثالية) إذ وعده وبكل ودّ، بأن يرسل إليه مقالته التالية، «الأعشاب الضارة تقتل الزهور» (ميلفيل ومارفيل).

الإحساس بالفراغ واللاجدوى، كان ذلك كل ما جناه فان من علاقته بالتأليف الأدبي. وحتى أثناء التأليف، وخلال محاولة تجميعه لتلك القطع المسننة المنثورة هنا وهناك في العقول المضطربة، كان فان قد أدرك تماماً، متألماً، كم هو صغير هذا الكوكب. وقرر أنه بعد الانتهاء من دراسته الطبية في كينغستون (التي وجدها أكثر ملاءمة من تشوز القديمة) سيشرع بالقيام برحلات طويلة في أمريكا الجنوبية، أفريقيا والهند. كفتى في الخامسة عشرة من عمره (عمر تفتّح إيريك فيين) كان قد درس بشغفٍ شاعر، الجداول الزمنية لثلاثة قطارات أمريكية عظيمة، عابرة للقارات، ووعد نفسه بأنه سيستقلها يوماً ما - برفقة أحد ما (برفقة لا أحد، اليوم).

من مانهاتن، عبر ميفيستو، إل باسو، مكسيكانسك، وقناة

باناما، وصل قطار العالم الجديد السريع، بلونه الأحمر الداكن، إلى البرازيل وويتش (أو فيدما، التي أسسها أميرال روسي). وهناك تفرعت الرحلة إلى وجهتين، الأولى شرقية نحو غرانت هورن، والثانية غربية تعود نحو الشمال عبر فالباريزو وبوغوتا. في أيام تناوب التبديل، كانت الرحلة الرائعة تبدأ في يوكونسك، مسار باتجاهين نحو ساحل المحيط الأطلسي، بينما كان قطار الرحلة الأخرى يمور في الأورغواي بعد عبوره كاليفورنيا وأمريكا الوسطى.

بدأ قطار أفريقيا السريع، بلونه الأزرق الداكن، رحلته منطلقاً من لندن ليصل كيب تاون من خلال ثلاثة طرق مختلفة، عبر نيغيرو، رودوسيا وإفيوبيا. وأخيراً، لعب قطار الشرق السريع بلونه البنيّ، دور همزة الوصل بين لندن، سيلان وسيدني، عبر تركيا وعدة مسارات أخرى. أنت لا تفهم، عندما تغرق في النوم، لم كل القارات، باستثنائك أنت، تبدأ بحرف «أ».

يضم كل من تلك القطارات الثلاثة المذهلة مقطورتيْن على الأقل، يمكن لمسافر يصعب إرضاؤه أن يستأجر غرفة نوم فيها مع دروة مياه وحوض استحمام، وغرفة للرسم تحوي بيانو أو قيثارة. تغيّر طول الرحلة تبعاً لمزاج فان ما قبل الغرق في النوم، عندما تخيّل (وكان حينذاك في عمر إيريك) المناظر الطبيعية تنعكس واضحة على طول أريكته، لا بل أريكتيْه، المريحتيْن جداً. من خلال الغابات المطيرة والوهاد الجبلية، أو غيرها من الأماكن الخلابة (أعطها اسماً الآن! لا! لا أستطيع - أنا أغرق في النوم) كانت الغرفة تمشي بطيئة بسرعة خمسة عشر ميلاً في الساعة؛ ولكنها حين كانت تعبر أراضي صحراوية أو زراعية مخيفة، فإن سرعتها كانت تصل إلى سبعين، سبعة وتسعين، ليلة وتسعين، ماسة، مئة، ألف، تلف، كلف، كلب أحمر.

٣

في ربيع ١٨٦٩، تمكن دافيد فان فيين، مهندس ثري من أصول فلمنكية (لا علاقة له بآل فيين خاصة روايتنا الجوالة) من النجاة جريحاً عندما انفجر الإطار الأمامي من عربته الآلية التي كان يقودها من كان إلى كاليه فوق طريق متجلّد، لتتحول إلى مجرد خردة مركونة جانباً؛ لحظة الحادث، طارت حقيبة الإبحار التي كانت في مؤخرة العربة لترتطم بعنق ابنته التي كانت تجلس إلى جانبه، وتقتلها على الفور. انتحر زوجها (رسام غير متوازن، وغير ناجح، يزيد حماه عمراً، يمقته ويحسده في آن واحد) في مرسمه في لندن، على إثر تلقيه برقية تحمل النبأ، وصلت من إحدى قرى النورماندي التي تحمل اسماً مروّعاً، Deuil (حِداد). لم يتوقف بؤس الكارثة عند هذا الحد. فعلى الرغم من الرعاية والحب الكبير الذي أحاط الجد بهما حفيده اليتيم، إيريك، ذا الخمسة عشر عاماً، إلا أنه لم ينج من مصير عجيب، لا يقلّ غرابة عن مصير أمه.

بعدما تمّ استبدال مدرسته نوت بأخرى خاصة وصغيرة في فود كانتون، وبعد قضاء صيف في ماريتايم الألب، منتجع خاص بمرضى السل، تمّ إرساله إلى إيكس آن فاليز حيث كان يفترض بالهواء البلّوري أن يقوّي رئتيْه الضعيفتيْن؛ ولكن بدل ذلك، حدث آنذاك أن

ضرب إعصار لم تشهد المنطقة بسوئه، فأسقط السقف فوق رأسه، مما أدى إلى تشويه جمجمته. بين ممتلكات الصبي، وجد دافيد فان فيين عدداً من القصائد ومسودة مقالة بعنوان: «فيلا فينوس، حلم منظّم».

بعبارة صريحة، سعى الولد للتخلّص من عذاباته الجنسية الأولى عن طريق تخيل وتفصيل مشروع (استقاه من خلال كثرة قراءته لكتب إيروتيكية قد عثر عليها في منزل مفروش بالقرب من فينس، كان جدّه قد اشتراه من الكونت تولستوي، من أصول روسية أو بولوندية) وهو سلسلة من بيوت الدعارة الفخمة سيسمح له ميراثه بتأسيسها فوق «نصفَي الكرة البيضاوية».

كان رجلنا الصغير يرى في الأمر شكلاً عصرياً من تأسيس النوادي الليلية، له عدّة فروع، أو «زهور الحب»، بلغته الشاعرية، تكون على مقربة من المدن والمنتجعات الصحية. كانت العضوية مقتصرة على النبلاء، «الوسيمين والأصحّاء»، والذين لا يتجاوزون عامهم الخمسين (علينا الإشادة بذلك التسامح من قبل الطفل المسكين)، مقابل رسم سنوي وقدره ٣٦٥٠ جنيهاً، غير متضمنة باقات الورود، المجوهرات، والتبرعات السخية. على الطبيبات المقيمات، الحسناوات والشابات (من نمط أمينات السر الأمريكيات، أو مساعدات أطباء الأسنان) التواجد دائماً هناك للتحقق من الحالة الجسدية الحميمة «للمداعِب والمداعَب» (صيغة شاعرية أخرى) ومن حالة الطبيبات ذاتهن، إن «دعَت الحاجة». بيّن أحد بنود «قواعد النادي» أن إيريك، ورغم كونه مغايراً للجنس، إلا أنه قد استمتع ببعض الملامسات الرقيقة البديلة، مع زملاء الدراسة في نوت (في الحديث عن نوت، إنها مدرسة تحضيرية سيئة السمعة): في «زهور الحب» الرئيسية، يجب أن يكون هناك فَتَيان جميلان على

الأقل، من أصل خمسين عاملاً وعاملة بالمجمل، يرتديان أثواباً قصيرة، ويضعان العصابات فوق الجبين، ولا يزيد عمر أحدهما عن الأربعة عشر عاماً في حال كان أشقر، أو اثني عشر في حالة السُّمرة. ولكن بكل الأحوال، ومن أجل الحؤول دون الارتياد المنتظم للـ«راسخين في شذوذهم الجنسي»، يحق للمغرم أن يتمتع بـ«فتى الحب»، شريطة أن يكون ذلك متخللاً للقائه بمجموعتيْن من ثلاث فتيات، وخلال الأسبوع ذاته - أمر هزلي إلى حدّ ما، ولكنه شرط لا يخلو من الدهاء.

يتم اختيار المرشحين لكل «زهرة حب» من قبل لجنة لأعضاء النادي، يأخذون بعين الاعتبار التقرير السنوي لمجموع الانطباعات والرغبات التي دوّنها الزبائن، ضمن كتاب وردي صدفي الغلاف. «الجمال والحنان، الطلاوة والمطواعية» هي الصفات الأساسية للفتيات المطلوبات، والتي تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، في حال كنّ «دمى نحيلة من الشمال»، وبين العاشرة والعشرين، في حال كنّ «فاتنات بدينات من الجنوب». عليهن، بكامل عريهن، وكامل استعدادهن للممارسة الحب، أن يتفنّن في الوثب والاستلقاء داخل «المخادع والغرف ذات الجدران الزجاجية»؛ لا ينطبق الأمر على خادماتهن، المتأنقات على نحو لافت، الجذابات على نحو غريب، و«غير متوفرات لتلبية رغبات الأعضاء، إلا بإذن خاص من مجلس الإدارة». بندي المفضل (باعتباري أمتلك نسخة عن مسودة الطفل المسكين) ينصّ على أن كل فتاة في «زهرة الحب»، يمكنها أن تُنتخب كرئيسة (بترونة) خلال فترات حيضها (لم ينجح الأمر طبعاً، وتوصّلت اللجنة إلى تسوية أخرى تقضي بتعيين سحاقية جميلة المحيا، تترأس إدارة الفتيات، وتعمل من جهة أخرى كحارس، الأمر الذي فات إيريك).

الانحراف هو أعظم علاج للحزن. قام جدّ الصبي مباشرة بوضع الحجر الأساس، الخرسانة الأساس، الرخام، اللحم، والمرح الأساس، لخيال حفيده. وقرر أنه سيكون العيّنة الأولى، لأول حورية سيوظّفها في بيته الأخير، وإلى أن يتمّ الأمر، سيعيش في حرمان شديد. لا بدّ أن كان ذلك ليكون مشهداً مؤثراً ورائعاً (بمساعدة يساريين مختصين بالتصميم الداخلي، رسم الهولندي العجوز ولكن القوي، ذو الوجه الوردي كوجه الزواحف والشعر الأبيض، مخطّط ألف «زهرة حب وزهرة» تذكارية، كان قد عزم على تشييدها في كل أرجاء العالم) حتى في طارطاريا الوحشية، التي كان يعتقد أن «يهوداً متأمركين» يحكمونها، وإن يكن! ليس ذلك بالمهم! فـ«الفن يكفّر عن ذنوب السياسة» - المفاهيم الأصيلة العميقة التي يجب أن نتغاضى عنها عند الحديث عن نزوة عجوز لطيف.

بدأ في ريف إنكلترا، وساحل أمريكا. كانت أبنية شبيهة بأسلوب «روبيرت آدم» (بيوت دعارة قد أشير إليها لاحقاً من قبل نقاد محليين باسم: "Madam-I'm-Adam")، في محيط نيوبورت، جزيرة رودوس، وكان أسلوباً خزفياً إلى حد ما، مع أعمدة رخامية قد جرفتها البحار الكلاسيكية ولا تزال مرصعة بأصداف المحار الإيتروسكانية، وقد حاول، أثناء مشاركته ذات مرة في البناء، أن يساعد في دعمها، ولكنه سقط بسكتة دماغية قاتلة. لم يكن ذلك إلا البيت رقم مئة فقط!

كان وريثه ابنَ أخيه، وهو تاجر أقمشة في مدينة رونن الهولندية (بالقرب من مدينة زفولا كما أُخبرت)، نزيه ولكنه مفرط في التحفّظ، ذو عائلة كبيرة وتجارة صغيرة، قد خسر ملايين القطع الذهبية ليس بسبب خداع أحدهم، ولكن بسبب تبذيره الكبير والواضح، الذي اضطره خلال السنوات العشر الأخيرة، أو ما يقارب ذلك، إلى استشارة الكثير من الأطباء العقليين.

تمّ تدشين كل «أزهار الحب» في يوم واحد، ٢٠ سبتمبر ١٨٧٥ (من قبيل المصادفة الممتعة، أن كلمة ryuen، والتي تعني في الروسية القديمة شهر سبتمبر، تتشابه باللفظ مع ruin الإنكليزية والتي تعني الخراب، وتبدو كل منهما وكأنها ترجيع صدى مثير للدهشة لاسم المدينة الأم، لصاحبنا الهولندي). مع بدايات القرن الجديد، تدفّقت عائدات فينوس من كل الجهات (للحق، كانت تلك طفرة الأخيرة). حوالي عام ١٨٩٠، ذكرت إحدى الصحف الشعبية المختصة بالفضائح، أن «المخملي» فيين، بدافع من الفضول والامتنان، قد سافر مرة، مرة واحدة - إلى أقرب «زهرة حب» برفقة كامل عائلته - كما قيل أيضاً إن غيوم دو مونبارناس، قد رفضت بشكل قاطع عرضاً مقدّماً من هوليوود، لتأليف نصّ سينمائي يروي أحداث تلك الرحلة الهزلية. مجرد شائعات، لا شكّ في ذلك.

كان نطاق جدّ إيريك واسعاً - من الـ دودو وحتى الـ دادا[١]، من القوطية المتدنية وحتى العصرنة السامية. في محاولاته لمحاكاة الفردوس، سمح لنفسه، بضع مرات، أن يعبّر عن خطوط التكعيب الفوضوية («تجريد ممثَّل بما هو ملموس») من خلال تقليده - بالمعنى الدقيق الذي تمّ وصفه في كتاب فولنير عن تاريخ الهندسة المعمارية الإنكليزية، أعطاني إياه الطبيب الطيب لاغوس - لمثل هاتيك الصناديق المصنوعة من القرميد، ذات النفعية الفائقة، كالمنازل المغلقة الخاصة بـ«إل فرويد»[٢] في لوبتكين[٣]، النمسا؛ أو

---

(١) دودو ودادا: دودو هو اسم طائر، ودادا هي تسمية حركة ثقافية انطلقت في زيورخ إبان الحرب العالمية الأولى. (مترجم)

(٢) إل فرويد (١٨٩٢-١٩٧٠): معماري شهير في النمسا. (مترجم)

(٣) لوبتكين: تلميح إلى برثولد لوبتكين (١٩٠١-١٩٩٠)، معماري شهير إنكليزي. (مترجم)

المنازل، ذات الضرورة القصوى، الخاصة بـ «دودوك»، في فريزلاند[1]. ولكن على العموم، كانت الأنماط الشاعرية والمبهجة، هي ما يفضّل. وجد النبلاء الإنكليز المحترمون جداً كل وسائل الراحة المرغوبة في ليشوورث لودج، منزل ريفي بسيط، مجصّص حتى كوة عين الثور، أو إيتشينور تشات، الشهير بمدافئه الكبيرة، وعلّياته الجملونية. لا يمكن لأحد أن لا يُؤخذ ببراعة دافيد فان فيين، حين استطاع أن يجعل من قصره الجديد، «ريجينسي»، أن يبدو كمزرعة قد تم تجديدها، أو كدير فوق جزيرة صغيرة قد تمّ تحويله بطريقة ساحرة لدرجة يستحيل فيها على الناظر أن يعرف ما إذا كان يرى روضة أم أرابيسك، وهجاً أم فناً، أحزاناً أم وروداً. علينا أن نتذكر دائماً ليتيل ليمانتري قرب رانتشستر، وبسيدوثيرم في نهاية الطريق المسدود والرائع، جنوب الجسر الذي يوصل إلى باليرمونتوفيا الساحرة. نحن قد ثمنا موهبته العظيمة في الخلط بين التفاهات المحلية (قصر تطوقه أشجار الكستناء، وآخر يحرسه السرو) وبين الزخارف الداخلية التي روّجت لشتى طقوس العربدة، المنعكسة فوق مرايا سقف إيريك الصغير، المهووس بالجنس. ولكن الأكثر نجاحاً من الناحية العملية، كانت وسائل الحماية التي وفّرها المهندس لـ «زهور الحب»، بكل عناية، كما لو كانت بيته الخاص. سواء كانت الـ «زهرة» عشاً مخفياً في واد داخل غابة صغيرة، أو محاطاً بمتنزّه كثيف الأشجار، أو مطلاً على بساتين وحدائق متدرجة، إلا أن الوصول إلى أحد بيوت فينوس كان يبدأ بطريق خاص، ويكمل ضمن متاهة من أسوار وجدران، ذات أبواب غير جلية، ولا يملك مفاتيحها إلا الضيوف والحراس. بطريقة فنية

---

(١) دودوك: وليام دودوك معماري هولندي (١٨٨٤-١٩٧٤)، أما فريزلاند فهي مقاطعة في شمال هولندا. (مترجم)

ولائقة، وُزعت الكشافات لتنير دروب المتجولين النبلاء، المتخفين تحت أقنعتهم ومعاطفهم، عبر متاهات الغيضات المظلمة؛ أحد الاشتراطات التي تخيّلها إيريك تفرض «على كل 'زهرة' أن تفتح أبوابها عند حلول الظلام وتغلقها مع شروق الشمس». نظام الأجراس الذي اخترعه إيريك بنفسه (لا يقل قدماً عن فكرة التخفي في المعاطف ذوات الأقنعة، ولا عن فكرة تعيين حراس) منع الزائرين من أن يتقاطع طريق أحدهم مع الآخر، ضمن المباني، بحيث إنه وبغض النظر عن عدد النبلاء الذي كانوا داخل «زهرة» واحدة، ينتظرون أو يقصفون، فإن كلاً منهم كان يشعر بأنه ديك القنّ الوحيد، لأن الحارس، الرجل الصامت والمهذب كباعة المحلات في مانهاتن، لا يُؤخذ في الحسبان: تراه حاضراً أمامك في حال حصول عقبة تخصّ أوراق اعتمادك أو بطاقات ائتمانك، ونادراً ما يُضطر إلى استخدام قوته المبتذلة أو استدعاء مساعد.

وفقاً لخطة إيريك، كانت مجالس النبلاء المسنين هي المسؤولة عن جمع الفتيات. السلاميات الناعمة والدقيقة، الأسنان الجيدة، البشرة الخالية من الشوائب، الشعر غير المصبوغ، الأثداء والأرداف التي لا عيب فيها، وحرارة لا يمكن ادعاؤها لشبق نهِم لا يشبع، كانت تلك هي الشروط التي لا تساهل فيها، والتي طالب بها الأعضاء، كما أوصى إيريك. تم التسامح مع العذراوات منهن في حال كانت شابة صغيرة جداً. من ناحية أخرى، لا يمكن أبداً قبول امرأة قد وضعت طفلاً (حتى لو كان ذلك أثناء طفولتها) حتى وإن كان ثدياها لا يُظهران أي عيب.

بقيت مكانتهن الاجتماعية غير محددة، ولكن اللجان في البداية كانت تميل من الناحية النظرية إلى الفتيات اللواتي يحملن شيئاً من النبالة. بنات الممثلين كنّ، بشكل عام، مفضلات على بنات

الحرفيين. تبيّن أن عدداً كبيراً وغير متوقع منهن، كنّ بنات نبلاء غاضبين على المجتمع ومنعزلين في قلاع باردة، أو بنات بارونات مفلسات قد انتهى بهن المطاف في فنادق رثّة. في ١ يناير ١٨٩٠ (أعظم عام في تاريخ فيلا فينوس)، وضمن قائمة ضمّت حوالي ألفي فتاة ممن يعملن في «زهور الحب»، أحصيت ما لا يقل عن اثنتين وعشرين فتاة، يرتبطن بشكل مباشر بالعائلات الملكية في أوروبا، ولكن من ناحية أخرى، ما لا يقل عن ربع المتبقيات، ينتمين إلى عامة الشعب. بسبب بعض الاضطرابات الطفيفة في الخريطة الوراثية، أو ربما أنه مجرّد حظ، أو ربما من دون سبب على الإطلاق، فإن بنات الفلاحين والباعة المتجوّلين والسبّاكين، لم يقلّن جمالاً عن صاحباتهن من بنات الطبقة الوسطى، أو حتى العليا، وسيرضي هذا الاكتشاف الغريب قرّائي غير الأرستقراطيين الذين لن تعجبهم معرفة أن الخادمات اللواتي كن «أدنى» مرتبة من الفاتنات الشرقيات (ساهمن في تحضير طقوس أحواض الاستحمام الفضية، طرّزن المناشف، وابتسمن باستمرار في وجه الضيف مع فتاته) كثيراً ما كنّ منحدرات من أصول أميرية عالية.

والد ديمون (وسرعان ما لحق به ديمون نفسه)، واللورد إرمينين، والسيد ريتفوك، والكونت بيتر دو براي، ومير دو مير المبجّل، والبارون آروزوسكودو، كانوا جميعاً أعضاء في مجلس فيلا فينوس الأول؛ ولكنها الزيارات التي قام بها السيد ريتفوك العفيف، البدين، ذو الأنف الوردي، هي ما كان يثير الرعب في نفوس الفتيات، كما تملأ الجوار بالمحققين الخاصين، المخلصين في عملهم، الذين كانوا ينتحلون شخصيات بستانيين، ساسة خيول، خيول، حلابات بقر طويلات، تماثيل جديدة، عجائز ثملين، وما إلى ذلك، بينما كانت تتم مداعبة جلالته، في مقعد صُنع خصيصاً

ليتلاءم مع وزنه ونزواته، مع هذا أو ذاك من فتيان المملكة الوسيمين، البيض، السود، أو السمر.

ولأن «زهرة الحب» الاستثنائية التي زرتها لمرتي الأولى ما إن أصبحت عضواً في نادي فيلا فينوس (قبل فترة قصيرة من صيفي الثاني مع آدا في روضة آرديس) قد أصبحت اليوم، بعد تقلبات عديدة، المنزل الريفي الساحر لرئيس كلية تشوز الذي أكنّ له الاحترام، ولعائلته الرائعة (زوجة ساحرة، وتوأم فتيات ثلاثي بعمر الثانية عشرة، آلا، لولا و لالاج - وتحديداً لالاج)، فإنني لهذا السبب لا أستطيع الكشف عن مكانها - على الرغم من أن أعزّ قرائي يؤكّد أني قد ذكرته في مناسة ما.

ترددت على كثير من بيوت الدعارة منذ عامي السادس عشر، وعلى الرغم من أن بعض أفضلها، وخاصة في فرنسا وإيرلندا، قد حصل على ثلاث نجوم حمراء في دليل نوغ، إلا أن لا شيء فيها يمكن مقارنته بفخامة ورقة «زهرتي» الأولى في فيلا فينوس. لقد كانت المعنى الحقيقي للفرق بين الـ «عدم» و«عدن».

ثلاث فتيات مصريات، ملتزمات بمراقبة احتياجات الضيف (عيون طويلة بلون الأبنوس، أنف أفطس محبب، ضفيرة سوداء كلبدة لبوة، ثوب ضيق فرعوني بلون العسل، أذرع عنبرية نحيلة، أساور وحلي زنجية، أقراط ذهبية مدلاة على شكل دائرة و قد أخفت الضفيرة نصفها، عقصة شعر خاصة بالهنود الحمر، ومريلة مزخرفة) تفاصيل قد استقاها إيريك فين، بولع، من لوحة جصية في ثيفا، قد أعيد ترميمها (لا شك أنها تعود إلى عام ١٤٢٠ قبل الميلاد)، ثم طبعت في ألمانيا (بطاقة بريدية، رقم ٦٠٣٤، يقول الطبيب لاغوس الساخر)، وقد قامت تلك الفتيات بإعدادي لما دعاه إيريك بـ «التلاعب المثير ببعض الأعصاب التي لا يعرف موضعها وقوتها إلا

بعض خبراء الجنس»، مصحوباً بما لا يقل روعة، تطبيق بعض مراهم معيّنة - ليست مذكورة بشكل خاص في أورينتاليا إيريك الفاحشة - تمكّن عذراء صغيرة وخائفة، من استقبال سليل ملك إيرلندي، كما أخبر إيريك في آخر حلم له في إيكس- سويسرا، منظّمُ حفلات الزنى، أو بالأحرى، سيد الجنائز.

وتواصلتْ تلك التحضيرات في إيقاعات مضبوطة، ولذيذة إلى الحد الذي لا تعود معه محتملة. لم يستطع إيريك الميّت أثناء نومه، ولا حتى فان النابض بالحياة والحيوية فوق أريكة روكوكو (على بعد ثلاثة أميال جنوب بيدفورد) أن يتخيّل كيف تمكنت الشابات الثلاث، اللواتي تجرّدن فجأة من ملابسهن (حيلة الأحلام المعروفة) من إطالة مقدّمة قادرة على إبقاء أحدنا على شفا الذروة. استلقيتُ على ظهري وقد شعرت بحجمي وقد تضاعف أكثر من أي وقت مضى (هراء لا معنى، كما يقول العلم!)، عندما حاولت ست أيدٍ إزاحة آدا، الطفلة المرتجفة فوق أداتي الرهيبة. الشفقة السخيفة - شعور نادراً ما راودني - قد أثبطت من رغبتي، وصار عليّ أن أبعد الطفلة وآخذها نحو عيد فطائر الدراق والقشدة. بدت المصريات قلقات، ولكن سرعان ما عدن لطبيعتهن. استُدعيتْ مومسات البيت العشرين (بمن فيهن محبوبتي ذات الشفتين الحلوتين اللماعتين) لحضور قيامتي. بعد فحص دقيق، وبعد مداعبتي لكثير من الأفخاذ والأعناق، اخترت ألمانية ذهبية، أندلسية شاحبة، وسوداء جميلة من نيو أورلينز. انقضّت الخادمات عليهن كالنمور، وصرن يمسحن عليهن بالعطور، بتلذذ ليس غريباً على السحاقيات، ثم أعدن النعم الثلاث - النعم التي بدتْ كئيبة إلى حدّ ما - إليّ. كان يمكن للمنشفة التي أعطيت لي لمسح العرق الذي غشى وجهي وأحرق عينيّ أن تكون أنظف. رفعت صوتي مطالباً بفتح النافذة على

مصراعيها. علقت شاحنة في وحل طريق غير مكتمل ومحظور، فبدّد هديرها الوجوم الغريب الذي كان سائداً. واحدة منهن فقط قد سرقت لبّي، ولكني ضاجعت الثلاث، بعنف وبتمهّل، وبـ«تغيير الامتطاء في منتصف طريق الصعود إلى القمة» (نصيحة إيريك) قبل أن أنتهي كل مرة في قبضة الأرديلوسية[1] التي قالت حين افترقنا، بعد آخر رعشة (علماً أن أي حديث خارج الإثارة الجنسية يُعتبر مخالفاً للقانون) إن أباها هو من بنى حوض السباحة في منزل ابن عم ديمون فيين.

انتهى الصخب، والشاحنة إما أنها رحلت أو أنها غرقت، أما هيكل إيريك فكان جاثماً في واحدة من أثمن زوايا مقبرة إيكس («ولكن الآن، كل القبور هي إيكس X»، كما علّق كاهن بروتستانتي مرح)، بين متسلق مجهول لجبال الألب، وبين توأمي الجهيض.

كان شيري هو الفتى الوحيد في «زهرة حب» أخرى (في أمريكا)، غلام من شروبشاير، يبلغ من العمر أحد عشر أو ربما اثني عشر عاماً، وكان يبدو مسلياً جداً مع خصائل شعره المجعّدة والنحاسية، عينيه الحالمتيْن، وعظام وجْنية كتلك الخاصة بجنّ الحكايات الخرافية، وقد أصرت ذات ليلة محظيتان خليعتان على فان، أثناء حفلة إمتاعه، كي يجربه. بكل الأحوال، فشلت جهودهم المشتركة في إثارة الغلام الجميل، الذي كانت قوته قد استُنفدت في العديد من المشاركات الأخيرة. كان مظهره البنّاتي النحاسي مشوهاً بفعل بصمات مخالب متعددة الألوان فوق لحمه الطري؛ ولكن الأسوأ من كل ذلك، أن الفتى الصغير لم يتمكّن من إخفاء حالة عسر الهضم الحادة التي كان يعاني منها، والتي كانت مرفقة بأعراض

(١) أرديلوسية: مزج بين آرديس وأندلس. (مترجم)

زحارية غير شهية، قد أرخت فوق قضيب عشيقه طبقة من الخردل والدم، مما يؤكد، بلا شك، أنه تناول الكثير من التفاح الأخضر. في النهاية كان هنالك حل من اثنين، إما أن يُقضى عليه، أو أن يُسرّح.

بشكل عام، كان على مشاركة الفتيان أن تتوقف. إحدى «زهور الحب» في فرنسا قد فقدت شهرتها بعد أن وجد فيها الكونت دو لانغبورن ابنه (له عينان خضراوان وباهتتان) المخطوف، بينما كان يتمّ فحصه من قبل طبيب بيطري، قد أرداه الكونت برصاصة، عن طريق الخطأ.

وُجهت إلى هيبة فيلا فينوس عام ١٩٠٥، ضربة أخرى مفاجئة، من جانب آخر. الشخص الذي أطلقنا عليه اسم ريتكوف أو فروتيك، قد أرغمته توعكات الشيخوخة أن يقلّل كثيراً من زياراته. ومع ذلك، وصل فجأة ذات ليلة، متورّد ككمان على أهبّة العزف؛ استمر طاقم عمل «الزهرة» (قرب مدينة باث) بأكمله بواجب المحاولات اليائسة، إلى أن ظهر وحي السخرية في السماء الحليبية التي تجلّت للرجل المضجر، فطلب العاهل البائس الكتاب الوردي صدفيّ الغلاف، الخاص بواحد من نصفَي الكرة الأرضية، وكتب فيه شطراً من قصيدة لسينيكا[1]:

Subsidunt montes et iuga celsa ruunt

الجبال تهبط والقمم تنهار

ثم غادر، باكياً. في الوقت ذاته، كانت هنالك سحاقية محترمة تدير سوفونير، منتجع فيلا فينوس الرائع في ميسوري، وقد خنقت بيديها اثنتيْن من أهم وأجمل مساعداتها. كان أمراً محزناً للغاية.

---

(١) سينيكا: لوكيوس أنايوس سينيكا (٤ ق.م - ٦٥م)، فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحي روماني.

ما إن بدأ تدهور النادي، حتى انتشر بسرعة مهولة وعلى عدة خطوط. كانت بعض الفتيات ذوات الأنساب التي لا يمكن المساس بها، مطلوبات من قبل الشرطة إذ تبيّن أنّهن العاهرات اللواتي يؤوين رجال العصابات ذوي الفكوك الغليظة، أو أنّهن مجرمات بذاتهن. تغاضى بعض الأطباء الفاسدون عن بعض الشقراوات الباهتات اللواتي أنجبن نصف دزينة من الأطفال على الأقل، بعضهم كان يتحضّر للالتحاق بـ«زهور حب» نائية. وصار بعض أطباء التجميل العباقرة يعيدون تأهيل أمهات بعامهن الأربعين ليبدونّ ويُشمّنّ كطالبات مدرسة في حفل تخرجهن الأول. تبين أن السادة النبلاء، القاضة المشهود لهم بالاستقامة، والعلماء ذوي الأخلاق الحميدة، كانوا ينكحون بوحشية وعنف، لدرجة أن بعض أصغر ضحاياهم قد نُقلوا إلى المشافي، ثم إلى مواخير عادية، بعد أن تم شفائهم. صار بعض المسؤولين عن حماية المحظيات (لم تُعرف هويهتم) يرشون المفتشين الصحيين، وكان راجا الكاجو مصاباً بمرض تناسليّ معدٍ قد التقطه من حفيدة حفيدة ابنة أخ (أصلية) الإمبراطورة جوزفين. في تلك الأثناء، كانت الأوضاع الاقتصادية آخذة بالتدهور أيضاً (دون أن تطال الثروات المنيعة الخاصة بفان وديمون، المالية والفلسفية، ولكنها أثرت في كثير ممن كانوا من طبقتهم الاجتماعية ذاتها) وبدأت معها معالم الجمال والرفاه تتغير في فيلا فينوس. قوادون مقرفون بتكشيرة ذليلة تكشف عن أسنان كبيرة تباعد بينها فراغات أكبر، صاروا يظهرون فجأة من وراء أجمات الورود ليعرضوا عليك منشورات مصوّرة. ثم وقعت حرائق وزلازل، وفجأة، ومن أصل مئة قصر، لم يبق إلا اثنا عشر قصراً، سرعان ما انخفض مستواهم أيضاً، إلى مجرد يخوت راكدة، وبحلول عام ١٩١٠، كان على كل الإنكليز المدفونين في إيكس، أن ينقل رفاتهم إلى مقبرة جماعية.

لم يندم فان على زيارته الأخيرة لآخر فيلا فينوس. كانت شمعة على شكل القرنبيط تحترق بقذارة في كوب القصدير الخاص بها، فوق حافة النافذة، بالقرب من باقة ورود طويلة، ملفوفة على شكل غيتار، لم يجد لها أحدٌ، أو بالأحرى لم يزعج أحد نفسه ليجد لها إناء. فوق سرير، أبعد بقليل، استلقت امرأة حامل، تدخّن، وتراقب خيال حلقات الدخان فوق السقف، رافعة إحدى ركبتيْها، وتحك بنعومة أربيتها السمراء. بعيداً عنها، باب مفتوح جزئياً يكشف عما يشبه شرفة يضيئها القمر، ولكنها لم تكن غير غرفة استقبال، واسعة، مهجورة ونصف مهدّمة، مع جدار خارجي مكسور، وشقوق متعرّجة في الأرضية، وشبح أسود لبيانو كبير، تُسمع منه، كما لو كان هو الفاعل، ضربات غليساندو مخيفة، في منتصف الليل. من خلال صدع كبير بين الجصّ والطوب الرخاميّيْن، جرى بحر عار، لا يمكن رؤيته وإنما سماعه كتنهيدة ممتدة، معزولة عن الزمن؛ هدر بكآبة، تراجعت أمواجه عن الحصى بكآبة، ومع فتات الأصوات تلك، وصلت الغرفةَ التي لا جدران لها، نسائمُ كسولة قد بثّتها ريح دافئة، فشوشت ظلال حلقات الدخان فوق المرأة، وهزت قليلاً من زغب قذر أسفل بطنها الشاحب، كما هزّت انعكاس الشمعة فوق الدرفة المتصدعة من النافذة الزرقاء. استلقى تحتها فان فوق أريكة تدغدغ الأرداف بخشونتها، مبرطماً، متأملاً ومفكّراً، بينما كان يداعب الرأس الفاتن فوق صدره وقد غمره الشعر الأسود الخاص بأصغر شقيقة أو ربما ابنة عم لفلوريندا البائسة، الجاثمة فوق السريرالمهدّم. كانت عينا الطفلة مغمضتيْن، وكلما قبّل فان أجفانها الرطبة المحدّبة، كان إيقاع حركة ثدييها الصغيريْن جداً يتغيّر، أو يتوقّف تماماً، ليعود بعد هنيهة.

شعر بالعطش، ولكن زجاجة الشمبانيا التي أحضرها، مع باقة

الورود التي كان يُسمع حفيف أوراقها الناعم، قد بقيت مختومة، ولم يطاوعه قلبه لإزاحة الرأس الحريري العزيز عن صدره وينشغل عنه بعمل صاخب كفتح الشمبانيا. كان قد داعبها وانتهكها عدّة مرات وعلى مدى عشرة أيام، ومع ذلك لم يكن متأكداً ما إذا كان اسمها آدورا حقاً، كما أكد له الجميع - هي، وفتاة أخرى، وأخرى ثالثة (وصيفة، أميرة كاشورين) بدت وكأنها قد وُلدت بثوب سباحة باهت لم تغيّره أبداً وستبقى ترتديه حتى موتها الذي وبلا شك سيداهمها، قبل أن تبلغ سن رشدها - أو بدايات الشتاء القارسة - فوق فراش الشاطئ، حيث هي الآن، تتأوه في حالة من الخدر والذهول. إن كانت الطفلة تُدعى آدورا حقاً، فمن أين تكون؟ - ليست رومانية، ولا ديلماسية، ولا صقليّة، وليست بإيرلندية، رغم أنها تحمل شيئاً من اللهجة البروغية[1] في إنكليزيتها المكسّرة، والتي لا يمكن اعتبارها أجنبية تماماً. أكان عمرها أحد عشر أم أربعة عشر عاماً؟ أو ربما حوالي خمسة عشر؟ أكان حقاً عيد ميلادها، في ذلك اليوم الحادي والعشرين من يوليو؟ ١٩٠٤؟ أم ١٩٠٨؟ أم بعد ذلك بكثير فوق شبه جزيرة صخرية في البحر المتوسط؟

جرس الكنيسة البعيدة جداً، والذي لم يكن ليُسمع إلا ليلاً، دقّ مرتيْن، ثم مرّة بعد ربع ساعة.

"Smorchiama la secandela" (أطفئ الشمعة)، تمتمت المومس فوق السرير، باللهجة المحلية التي فهمها فان أكثر من الإيطالية. ارتجفت الطفلة بين ذراعيه، فغطاها بعباءته. في قلب الظلام العابق برائحة الزيوت، رمى خيط من ضوء القمر نوره فوق الأرضية الحجرية، بجانب بزّته المخلوعة، التي لم يعد فان أبدا

---

(١) لهجة بروغية: brogue إحدى اللهجات المعروفة في إيرلندا. (مترجم)

لارتدائها، وحذائه اللامع. لم تكن آرديس، لم تكن المكتبة، حتى أنها لم تكن غرفة بشرية، بل مجرد خلوة قذرة كان ينام فيها الحارس قبل أن يعود إلى مهنته كمدرّب رغبي في مدرسة عمومية، في مكان ما من إنكلترا. البيانو الكبير الذي بدا وكأنه يعزف من تلقاء نفسه، في الغرفة الكبيرة وشبه الخالية، تبين أن فئراناً هي ما كان يركض فوق مفاتيحه بحثاً عن نفايات عصارية قد تركتها الخادمة هناك، إذ إنها كانت تحب سماع الموسيقى عندما كان ألم السرطان الذي أكل رحمها يوقظها قبل الفجر، بطعنة من نور مألوفة.

لم تعد الفيلا المتهالكة تحمل أي تشابه مع «حلم إيريك المنظم». ولكن المخلوق الصغير والناعم الذي كان فان يحتضنه بيأس، لم يكن إلا آدا.

٤

ما هي الأحلام؟ إنها سلسلة عشوائية من المشاهد، تافهة أو درامية، ساكنة أو حيوية، رائعة أو مألوفة، تعرض أحداثاً تتفاوت بعقلانيتها مصحوبة بتفاصيل غرائبية، وتعيد إحياء الموتى بأوضاع جديدة.

بمراجعة أحلامي التي لا يمكن نسيانها، إلى حدّ ما، والتي حلمت بها خلال عقودي التسعة المنصرمة، يمكنني تصنيفها حسب الموضوع تحت عدّة فئات، تتفوّق اثنتان من بينها وتتمايز عن سائر الفئات. الأحلام المهنية، والأحلام الشهوانية. في عشرينياتي، كانت الأولى تتكرّر كما الثانية وبشكل مواز إلى حد ما، وتبدأ كل منهما بذات المقدمات التمهيدية، أرق مشروط قد سببه إما فائض عمل قد استمر لما يزيد على عشر ساعات عمل، أو ذكرى من آرديس، سهم جرح نهاري وأحيا جنون ليلي. كان عليَّ بعد نهار من العمل، أن أحارب سلطة حالتي الذهنية: دفق التأليف، بطش الجملة التي تطالب بإكمال تشكيلها الذي ما كان ليتوقف خلال ساعات الظلام، غير المريحة، وعندما كنت أصل إلى نتيجة ما، يبقى التيار مهتاجاً، ويستمر في هديره وراء الجدار، حتى وإن أغلقت على دماغي بفعل التنويم المغناطيسي الذاتي (الإرادة، حبوب المنوم، لم

يعد أي من ذلك نافعاً) ضمن صورة أخرى أو تأمل ما - ولكن ليس صورة آرديس، ولا آدا، لأن ذلك سيعني ما هو أسوأ: غرق في شلال من الكآبة، مصحوب بغضب وندم، برغبة ويأس، يرمونني جميعاً في هاوية، حيث يكون الإرهاق البدني الشديد، وحده في نهاية المطاف سيد الموقف.

في الأحلام المهنية، وخاصة تلك التي استحوذتني أثناء تأليفي لقصتي الخيالية الأولى وتضرعي الذليل لوحي الكتابة («راكعاً وضارباً يديّ فوق الأرض» كـ مارمالاد بسرواله المغبر راكعاً أمام مارمالاد الخاص بديكنز[1]) كنت أحلم، على سبيل المثال، أنني أصحح البراهين فوق ألواح الطباعة، ولكن بطريقة ما (الـ«طريقة ما» العظيمة خاصة الأحلام!) يخرج الكتاب، حرفياً، من سلة مهملات، تناولنيه يد بشرية، ويكون في مرحلة الكمال، غير الكاملة على نحو مخيف - مع خطأ مطبعي فوق كل صفحة، كـ«فرشة»، الكلمة الوضيعة، بدل «فراشة»، و«نووي»، الكلمة التي لا معنى لها، بدل «نوري». أو أحلم أن عليّ الإسراع للحاق بمحاضرة سألقيها - أشعر بالغضب من رؤية زحمة المرور والناس الذين يقطعون طريقي، ثم أدرك بشعور من الراحة المفاجئة أن كل ما كان عليّ فعله هو شطب عبارة «شارع مزدحم» من مخطوطتي. الأحلام التي صنّفتها على أنها «مشاهد سماوية» (ولا أقصد ناطحات السحاب كما سيفهمها ثلثا طلابي على الأرجح) تنتمي إلى قسم فرعي من من رؤياي المهنية، أو ربما قد تمثل مدخلاً استهلالياً لها، لأني خلال بلوغي المبكر، نادراً ما كانت تفوتني ليلة من دون رؤية انطباعات قديمة أو حديثة قد خلّفتها

---

(١) مارمالاد بسرواله المغبر راكعاً أمام مارمالاد الخاص بديكنز: تلميح إلى ديستويفسكي وشخصية مارمالادوف في «الجريمة والعقاب» والتي كان نابوكوف يرى فيها تأثراً واضحاً بأعمال ديكينز. (مترجم)

فترات الصحو، مؤسسة بذلك علاقة وطيدة ورقيقة مع العبقري الذي كان ما زال صامتاً داخل فان (لأننا، «فان»، نتناغم لفظاً ومعنىً مع كلمة ''one'' حين تلفظها مارينا بلهجتها الروسية). وجود الفن، أو ما يعد به، في تلك الأحلام سيأتي على هيئة سماء ملبدة مع غيوم تختلف بأنواع كتّانها، جامدة بلا حراك، بيضاء مفعمة بالأمل، رمادية ميؤوس منها ولكن زلقة، تظهر علامات نقاء فنية، ثم يظهر وهج شمس باهتة فوق الطبقة الأكثر هشاشة، سرعان ما تركض السحب الرمادية لإخفائه، إذ إنني لا أكون بعد جاهزاً للاستيقاظ.

للأحلام المهنية حليف، ألا وهو رؤى «الدرك الأسفل»: كوابيس بإشارت تنبؤية، كوارث مِهادية، ألغاز تحذيرية. في أغلب الأحيان، يكون التهديد مخفياً، وسيتبين لاحقاً، بعد تدوين الحلم على عجالة والنظر إليه فيما بعد، أن للأحداث البريئة تلك النكهة المعرفية المسبقة، التي سماها ديون[1] بظاهرة «الذاكرة المعكوسة»؛ ولكن للوقت الحالي، لن أتوسع في شرح عنصر الأحلام الغامض والخارق للطبيعة - سأكتفي بالقول إن على بعض الأحكام المنطقية، في مجال معيّن، أن تساعد على تحديد عدد المصادفات المقبولة، العدد الذي تتوقف معه تلك المصادفات عن كونها مجرد مصادفات، وتشكّل بدلاً من ذلك الهيكل الحيّ لحقيقة جديدة («أخبرني!» تقول الغجرية الصغيرة خاصة أوسبرغ للبربري، مومس النزل، «ما هو الحدّ الأدنى الدقيق لشعر جسد ما، ليُقال عنه شعراني؟»).

بين أحلام «الدرك الأسفل» وبين تلك الحادّة بإثارتها الشهوانية،

---

(١) جون ويليام ديون (١٨٧٥-١٩٤٩): مهندس طيران بريطاني ومصمم طائرات لاحقاً، وقد تحوّل مع بدايات القرن العشرين إلى التأليف الفلسفي. (مترجم)

تأتي «انهيارات» الحنان الجنسي وبهجة فطر القلوب، على شكل فرص وشيكة ووجيزة للاحتكاك بفتيات مجهولات خلال حفلات، بنصف ابتسامة، نصف إغراء ونصف خضوع - نذر أحلام معذِّبة أو أصداء ندم، قد بدأت بالتزامن مع مسلسل تلاشي صورة آدا المبتعدة، مع عتاب صامت؛ ودموع، أشدّ سخونة من تلك التي كنت لأذرفها في حياتي اليقِظة، تهزّ بحرقتها نوم فان المسكين، وتبقى ذكراها لتطارده عند لحظات غريبة، لأيام ولأسابيع.

من المحرج أن أصف أحلام فان الجنسية ضمن سجل تاريخ عائلة، قد يقرأه صغار السن بعد موت الرجل العجوز. يبنغي بعيّنتيْن، بصيغة لفظية حسنة، أن تكونا كافيتيْن. في ترتيب معقّد لتذكّر الأحلام الموضوعية، والأوهام التلقائية، تصل آكوا المنتحلة شخصية مارينا، أو أن مارينا قد تبرّجت لتبدو شبيهة آكوا، لتخبر فان، بفرح، أن آدا قد أنجبت طفلة، سيرى جسدها فوق مقعد حديقة صلب، بينما كان والده، تحت شجرة صنوبر قريبة، أو ربما والدته مرتدية معطفاً، تحاول إجراء مكالمة عبر المحيط الأطلسي لاستدعاء سيارة إسعاف فورية من فينس - فرنسا. حلم آخر، متكرر في شكله الأساسي الذي لا يُذكر، منذ عام ١٨٨٨ وحتى هذا القرن، يقوم على فكرة ثلاثية، تجمع بشكل أو بآخر، فان مع سحاقيتيْن. آدا الخبيثة ولوسيت الخليعة، تجدان كوز ذرة ناضجاً، ناضجاً جداً. حملته آدا من طرفيه كما لو كان عضواً فموياً، على شكل آلة موسيقية، وصارت تمرّغ شفتيها على طوله، تاركة لعابها يلمع فوقه، وبينما كان ذلك العضو يئن ويرتجف تحت لسانها، جاءت لوسيت لتبدأ بابتلاعه من أحد أطرافه. بدأ وجها الطفلتيْن، الجميليْن والشرهيْن، بالاقتراب أحدهما من الآخر، بحزن وتوق، بفتور وبطء، ليلتقي لساناهما كسهميْن ناريين، ثم يتراجعان، فترى شعرهما المشعّث وقد اختلط على نحو

مبهج، أحمر نحاسي مع أسود برونزي، وبينما انحنت الطفلتان لإرواء عطشهما من بركة دمه، ارتفعت مؤخراتهما عالياً جداً.

لدي بعض الملاحظات هنا حول طابع الأحلام الخاص. إحدى الميزات المحيّرة هي وجود أولئك الغرباء المثاليين بملامح واضحة، يظهرون لمرة واحدة فقط لا تتكرر، يصاحبونني، يلتقون بي، يرحبون بي، ويزعجونني بتلك الحكايات الطويلة والمملة عن غرباء آخرين - يجري كل ذلك في أماكن مألوفة وفي وسط أناس آخرين، أعرفهم جيداً، أمواتاً كانوا أم أحياء؛ أو الحيل الفضولية التي تعمل لمصلحة كرونوس[1] - وعي دقيق جداً بالوقت، وبكل دقات الساعة (لعلها عقارب مثانة ممتلئة قد جاءت على شكل ساعة) التي تنذر بعدم وصولي إلى مكان ما في الوقت المناسب، مع ساعة يد تركض أمامي، تبدو ظاهرياً تعمل بشكل آليّ، تحمل أرقاماً ذات معنى، ولكن كل ذلك يأتي مختلطاً - وهنا يكمن الجزء المحيّر - مع شعور ضبابي، يكاد لا يكون حقيقياً، بمرور الوقت (سأرجئ أيضاً هذا الموضوع لفصل آخر). تتأثر جميع الأحلام بتجارب وانطباعات الحاضر، وكذلك ذكريات الطفولة؛ كلها تعكس، من خلال صورة أو إحساس، مشروعاً، ضوءاً، وجبة فخمة أو اضطراباً باطنياً رهيباً. يجب من دون أدنى شك (وأؤكد ذلك لطلابي) أن نلحظ تلك السمة الأكثر شيوعاً من الناحية العملية لأحلامنا، سخيفة كانت أم عميقة، ونتأكد أنها، رغم ما تحمله - على امتداد أزمنتها وأمكنتها - من أشكال الوعي المنطقي (سخيفاً بالغالب) بأحداث جرت في ماضي الحلم ذاته، ليست إلا عنصراً ضعيفاً يوهن ملكات الحالم الذهنية،

---

(١) كرونوس: أحد الآلهة الإغريقية وقد ورد في الفلسفة السقراطية والآداب اللاحقة كدلالة على الزمن. (مترجم)

الذي لا يصدمه تواجده الحاضر مع صديق قد توفي منذ زمن بعيد. في أحسن حالاته، يضع الحالم فوق عينيه غمامة نصف شفافة؛ ويكون في أسوئها مغفّلاً. الطلاب خلال الأعوام ١٨٩١، ١٨٩٢، ١٨٩٣، ١٨٩٤، إلخ... قد لاحظوا بعناية (ودوّنوا ذلك بعجالة) أن الأحلام وبسبب طبيعتها، وطبيعة حالتها الذهنية المتواضعة، والتي غالباً ما تكون متلعثمة، لا يمكن لها أن تُسفر عن أي ما يمكن تشبيهه بالفضيلة، أو الأمثلة، أو الحكايات، أو حتى الأساطير الإغريقية، ما لم يكن الحالم، بطبيعة الحال، إغريقياً أو أسطورياً. التحولات في الأحلام شائعة كما الاستعارات في الشعر. فعلى سبيل المثال، الشاعر الذي يتناول واقع حال ذواكرنا التي تضعف قبل خيالنا، ويقارنه بقلم الرصاص الذي تذوب الممحاة في رأسه بأسرع مما قد تفعل بروته، فإنما هو يقارن بين أمريْن موجوديْن وملموسيْن. أتريدون مني تكرار ما ذكرته؟ («أجل أجل!» يصيح الجميع). حسناً! قلم الرصاص الذي أمسكه الآن، طويل بما يكفي، رغم أنه خدمني لوقت طويل، ولكن رأسه المطاطي قد محّ جراء الاستخدام الكثير. لا يزال خيالي قوياً وقابلاً للاستخدام في حين أن ذاكرتي تصبح أضيق فأضيق. إنها مقارنة لتجربة حقيقية بحالة ذلك الشيء الحقيقي والتافه. أي من هذين الواقعين، ليس برمز للآخر. تماماً كما يحصل عندما يشير أحد مهرجي الصالونات إلى قطعة حلوى مخروطية الشكل تعلوها حبة كرز مضحكة ويقول إنها تشبه هذا أو ذاك (ضحكات مكتومة بين الحاضرين)، محوّلاً الحلوى الوردية إلى أثداء وردية (ضحكات صاخبة) تعلوها ياقة الفراولة[1]، أو تلفّها جملة

(١) ياقة الفراولة: أو ياقة هنري الرابع باعتباره كان أول من أطلقها، وهي مشهورة بطبقات كشاكشها الكثيرة والعالية التي تغطي كامل العنق فيبدو الرأس فوقها كحبة فراولة. (مترجم)

مزركشة (صمت). إنها أشياء حقيقة، لا يمكن استبدالها، ولا تأتي تشخيصاً لأمر آخر، فهي على سبيل المثال، ليست تشخيصاً لصورة جذع والتر راليه، بعد أن قُطع رأسه، وقد بقيت ياقة الفراولة تعتليه (ضحكة مكتومة واحدة). والآن الخطأ - الخطأ الفاسق، البشع والمبتذل في تحليلات سيغني مونديو[1] يكمن في اعتباره رؤية شيء حقيقي في الأحلام، يقطينة على سبيل المثال، أو زهرة أضاليا (وهذه رؤية حقيقة لأحد مرضاه)، تجريداً بليغاً لشيء حقيقي آخر، كسكاكر الأطفال أو نصف تمثال، إن كنتم تفهمون ما أعني (انفجار قهقهة). لا يمكن أن يكون هنالك أي ترميز أو حكاية في هلوسات أحمق القرية أو في أي حلم قد رآه البارحة أحد الموجودين في تلك القاعة. في تلك الرؤى المضطربة، لا شيء - مع التشديد على كلمة «لا شيء» - (صرير أقلام ترسم خطوطاً أفقية) لا شيء يمكن له أن يُفسّر من قبل مشعوذ يدّعي أنه قادر على شفاء رجل مجنون، ويعطي، بتفسيراته، الراحة لمجرم قاتل، من خلال إلقاء اللوم على ذويه شديدي الطيبة، أو شديدي الشر، أو شديدي اللامبالاة. تقيّحات سرّية يتظاهر الراعي الدجال بعلاجها من خلال طقوس اعتراف باهظة التكلفة (ضحك وتصفيق).

(١) سيغني مونديو: مرة أخرى سيغموند فرويد. (مترجم)

٥

في خريف ١٨٩٢، أمضى فان الفصل الدراسي في جامعة كينغستون - ماين، حيث كان هناك مشفى للمجانين من الدرجة الأولى، فضلاً عن قسم خاص بالعلاج ذائع الصيت أيضاً، حيث عاد إلى أحد مشاريعه القديمة، والذي يدور حول فكرة «الأبعاد وفقد الرشاد» («فان! إنك ستموت يوماً بجناس فوق شفتيك!»، قالها مازحاً ذات مرة البروفسور العجوز راتنر، أحد عباقرة التشاؤم في كينغستون، لم يكن يرى في الحياة إلا «لخبطة» في ترتيب الأشياء الموضوع أساساً وفق منطقه الخاص).

فان فيين [باعتباره أيضاً، بكل تواضع، محرّر آدا] رغب في تغيير إقامته في نهاية كل قسم، كل فصل، أو حتى كل فقرة، وكان قد انتهى تقريباً من صعوبة التعامل مع فكرة الطلاق بين الزمن ومحتوى الزمن (أثر الفعل على المادة، في المكان، وطبيعة المكان بذاتها). كان يفكر في الانتقال إلى مانهاتن (هذا النوع من التبديل هو انعكاس ذهني لـ«تبديل الخط»، أكثر منه خضوع لـ«ظروف بيئة» هزلية، كما أقرّ الأب ماركس، المؤلف الشهير لمسرحيات «تاريخية») عندما تلقى مكالمة دوروفونية، قد أوقفتْ للحظات، الهواء في رئتيه، والدم في عروقه.

لا أحد، ولا حتى والده، كان يعرف أنه اشترى شقة كوردولا، القائمة بين مكتبة مانهاتن والمتنزه. كانت الشقة مكاناً مثالياً للعمل، بشرفتها المعلقة في فراغ سماوي مثالي لعزلة عالم، وبالمدينة ذات الصخب المناسب، التي تداعب في الأسفل أساسات صخرة ذهنه المنيع، كما أنها كانت، إضافة إلى كل ما ذكر، باللغة العصرية، «عش العزوبية المجنون»، حيث كان يستمتع سراً بأي فتاة، فتيات، تعجبه (إحداهن أطلقت على الشقة اسم «جناحك نحو تيرا»). ولكن فان كان لا يزال في شقّة تشوز المفروشة، الكئيبة إلى حد ما، في كينغستون، عندما وافق على زيارة لوسيت له، في ذلك العصر المشرق من نوفمبر.

لم يكن قد رآها منذ ١٨٨٨. في خريف ١٨٩١، كانت قد أرسلت له من كاليفورنيا، رسالة من عشر صفحات، مجنونة، متلعثمة، غير لائقة، تكاد تكون وحشية، تعترف فيها بحبها له، لم يناقشها في مذكراته [ومع ذلك، انتظروا ما سيأتي لاحقاً! المحرر]. كانت آنذاك تدرس تاريخ الفنون («ملاذ الفقراء الأخير»، كما اعتادت القول) في كلية كوينستون القريبة، الخاصة بالفتيات «الرائعات والـ Glupovatїh» (بكلمة أخرى، المغفلات). عندما اتصلت به ورجته للقائها (بصوت جديد، أكثر قتامة، يذكّر بحزن آدا) صرّحت أنها تحمل إليه رسالة. اشتبه فان في كون الأمر حجة لاستكمال مسلسل حب من طرفها وحدها، ولكن أدرك في سريرته، أن زيارتها ستشعل حرائق محتملة.

بينما كان ينتظرها، جيئة ورواحاً على طول أرضية جناحه المغطاة بالسجاد البني، متأملاً، من خلال نافذة في نهاية الممر المفتوحة على الشمال الشرقي، الأشجارَ الملتهبة احمراراً وكأنها تتحدّى الخريف، ثم عائداً إلى الصالة المطلّة على محكمة

غرينكلوث، لم يتوقف عن محاربة آرديس ورياضها وأوركيدها، معدّاً نفسه للابتلاء القادم، متسائلاً ما إذا كان عليه إلغاء زيارتها، أو أن يعرب عن اعتذاراته الشديدة لاضطراره إلى المغاردة الفورية، مع علمه التام أنه لن يفعل أياً من ذلك. لم تكن تربطه بلوسيت إلا مشاعر غير مباشرة من القلق: كانت تسكن في هذه أو تلك من رقاقات الشمس الهائمة، ولكن لا يمكن فصلها عن بقية أشعة آرديس المرقطة. تذكّر، أثناء مروره، حلاوتها في حضنه، مؤخرتها الصغيرة المدوّرة، عينيها العقيقيتين حين كانت تنقّلهما بينه وبين الطريق الهارب. تساءل أيضاً ما إذا كانت قد أصبحت سمينة يملأها النمش، أو ما إذا كانت انضمت إلى مجموعة الحوريات الرشيقات خاصة زيمسكي. كان قد ترك باب الردهة مفتوحاً جزئياً، ولكن بطريقة ما، فاته أن يسمع نقر كعبيها العاليين وهي تصعد فوق الدرجات (أو ربما لم تسمح له دقات قلبه بسماعه) بينما كان ذاهلاً، يخوض في ذكرياته

«عائداً نحو الرياض والحريق
يرافقه إيروس[1] طوال الطريق
الفن ملجأنا الرخامي
إيروس هو الوردة والموت.»

أنا مريض بتلك الأرقام، وأعرف أن قصائدي سيئة، ومع ذلك، أجد من الأسهل عليّ

«أن أدحض الماضي
بنثر صامت»

من كتب ذلك؟ فولتيماند أم فولتماند؟ أم سوينبورن؟ قواف

(١) إيروس: إله الحب. (مترجم)

شنيعة! «كل حبيباتنا القدامى أصبحن جثثاً أو زوجات». كل أحزاننا إما عذارى وإما مومسات.

دبّ أسود بخصلات شعر روسية براقة (كانت الشمس قد وصلت إلى أول نافذة في الردهة)، وقف ينتظره. أجل! لقد انتصرت جينات ز. كانت نحيلة وغريبة، وقد نمت عيناها الخضراوان. في عامها السادس عشر، بدت أكثر فجوراً من أختها في تلك السنّ الفتّاكة. كانت ترتدي فراءً أسود، من دون قبعة.

«يا لفرحي! (moya radost')»، قالت لوسيت - بهذه البساطة؛ كان يتوقع ترحيباً أكثر رسمية: بكل الأحوال فإنه بالكاد يعرف عنها قبلاً، باستثناء كونها جنيناً أحمر.

عينان سابحتان، فتحتا أنف مرجانيتان ومتورّمتان، فم أحمر زاه، وشفتان مشقوقتان توحيان بخطر مداهم، وتفضيان إلى فتحة مواربة تظهر اللسان والأسنان (حيوان مروّض لِيلْتهم برقّة).

تقدّمت بذهول نشوة على شفا ذروة، بذهول عناق لا يُكبح - ربما يكون فجراً جديداً، من يدري؟ (هي) فجر حياة جديدة لكل منهما.

«عظام وجنتيك!» قال فان للشابة محذراً.

«أنت تحب الهياكل العظمية الصغيرة»، تمتمت، بينما كان فان يلصق شفتيه (اللتين فجأة قد أصبحتا أكثر جفافاً من أي وقت مضى) فوق الوجنة الحارة، لأخته غير الشقيقة. لم يستطع منع نفسه من تنشّق عطرها «دو غراس» الأنيق، رغم كونه، من دون أدنى شك، يشبه عطور المومسات الراقيات، وعبر ذلك العطر، عادت له شعلة الـ ''la Rousse''، كما أطلقا عليها، هو وشخص آخر، عندما اختارا سجنها في حوض الاستحمام. أجل، لقد كانت عصبية جداً ومغالية في عطرها. الصيف الهنديّ قائظ جداً لارتداء فراء. تدلى صليب من

أكثر الرؤوس الحمراء أناقةً. صليب بأربع حواف محترقة، إذ لا يمكن لأحد أن يُفتتن (كما هي الحال الآن) بالنحاس العلوي، دون أن يتخيّل على الفور، الثعلب السفلي الصغير، ولون الجمرتيْن القائظتيْن.

«إنه يعيش هنا إذاً!»، قالت لوسيت وصارت تنظر حولها، وتدور حول نفسها، بينما كان يساعدها، بتعجّب وأسىً، على خلع معطفها الناعم، العميق والداكن، محدّثاً نفسه (كان يحب الفراء): أتراه دب بحر (kotik)؟ لا إنه دسمان (vïhuhol')! أعجب المساعد فان بنحولها الأنيق، ببدلتها الرمادية المفصّلة خصيصاً لها، بشالها بلونه الداخن الذي حين رفرف بعيداً كشف عن عنق طويل أبيض. اخلعي سترتك، قال لها، أو ظنّ أنه فعل (ببدلة بلون فاحم، واحتراق عفوي، كان واقفاً يمد يديه، في ردهة كئيبة، في سكن إنكليزي كئيب يُدعى قاعة فولتماند في جامعة كينغستون، في خريف ١٨٩٢، حوالي الرابعة عصراً).

«أعتقد أني سأخلع سترتي»، قالت لوسيت بعبوس طفيف عادة ما يرافق أفكار أنثى عند اضطرابها. «لديكم تدفئة مركزية هنا؛ نحن الفتيات ليست لدينا إلا مواقد صغيرة.»

كشفت بعد أن خلعتها عن بلوزة بيضاء مزركشة، من دون أكمام. رفعت ذراعيها لتمرّر أصابعها بين خصلات لفائف شعرها البراقة، فرأى غوريْن فاتنيْن، تماماً كما توقع.

قال فان: «كل النوافذ هنا يُمكن فتحها على نطاق أوسع، ولكن فقط على جهة الغرب، وتلك الباحة الخضراء التي تريْنها في الأسفل، هي السجادة التي تصلي فوقها شمس المساء، مضفية مزيداً من الدفء على الغرفة. فظيع أن تكون نافذة مشلولة الحركة ولا يمكن فتحها على الجانب الآخر من المنزل ورؤية ما يخفيه.»

«فيين» لمرة واحدة، «فيين» للأبد!

حلّت حقيبة يدها المصنوعة من الحرير الأسود، أخرجت منديلاً، ثم تركت الحقيبة على طرف لوح جانبي، مشت نحو أبعد نافذة ووقفت أمامها، ترتجف على نحو لا يحتمل، بكتفيها الضعيفتين.

لاحظ فان بروز مغلف رسالة طويل من حقيبتها، وكان أزرق اللون ممهوراً بلون بنفسجي.

«لا تبكي يا لوسيت، فالأمر سهل جداً!»

عادت نحوه، تمسح أنفها بالمنديل، وتكبح رطوبته الطفولية، منتظرة عناقاً يحسم الموقف.

«لديّ بعض البراندي هنا»، قال، «اجلسي! والآن أخبريني! أين بقية العائلة؟»

جعّدت لوسيت منديلها وأعادته إلى الحقيبة، المنديل الشاهد على عديد غرامياتها القديمة، والتي، ومع ذلك، ما زالت معلّقة. حتى كلاب التشاوتشو لها ألسنة زرقاء.

« أمي تسبح في فلكها الخاص. أبي يتعافى من سكتة دماغية أخرى. أما «الأخت» فعادت إلى زيارة آرديس. »

«أقلتي الأخت؟ كفّي لوسيت! لا نريد اللعب مع صغار أفعى هنا!»

«صغيرة الأفعى تلك، لا تعرف بأي لهجة عليها أن تتوجه إلى الدكتور فان فيين. أنت لم تتغيّر مقدار ذرّة، يا حبيبي الشاحب، ما عدا كونك صرت أشبه بشبح يحتاج إلى حلاقة، وفوق ذلك، لا أثر لشمس الصيف فوق بشرته. »

لا شمس لذلك الصيف المنصرم ولا حبيبة.

لاحظ أن الرسالة، في ظرفها الأزرق الطويل، قد تُركت الآن

فوق طاولة جانبية ماهوغنية. وقف في وسط الردهة، يفرك جبينه، لا يجرؤ، لا يجرؤ على مدّ يده، فقد علم أنها من آدا.

«أترغبين في بعض الشاي؟»

هزّت رأسها. «لا أستطيع المكوث طويلاً. إضافة إلى أنك ذكرت شيئاً خلال المكالمة عن نهار مليء بالانشغالات. وكيف لا تكون مشغولاً بعد أربع سنوات خالية تماماً؟» (كان سيبدأ بالتباهي لو أنها لم توقفه).

«أجل. لست متأكداً. ربما لدي موعد عند السادسة.»

كانت فكرتان، حبيستان، في اتجاهيْن معاكسين، تقتربان من بعضهما في رقصة صامتة، بطيئة، تنحني كل منهما للأخرى لإلقاء التحية؛ تقول الأولى: «لدينا الكثير لنقوله»؛ وتقول الثانية: «ليس لدينا مطلقاً ما نقوله». ولكن هذا النوع من الحالات يمكن له أن يتغير في لحظة.

«أجل، يجب عليّ لقاء راتنر عند السادسة والنصف»، تمتم فان، مقلّباً في مفكرته التي لم ينظر إليها.

«راتنر فوق تيرا!» هتفت لوسيت. «فان يقرأ 'راتنر فوق تيرا'، وعليك يا صغيرتي المدللة أن لا تزعجينا أنا وهو أثناء قراءتنا سوية لـ راتنر!»

«أتوسل إليك عزيزتي! دعينا من التمثيليات! دعينا لا نحوّل لَمَّ شملنا اللطيف إلى تعذيب متبادل!»

ماذا كانت تفعل في كوينستون. لقد أخبرته منذ قليل. طبعاً. أكان شارداً لهذا الحد؟ لا. بين اللحظة والأخرى، كان كل منهما يرمق الرسالة بنظرة ريبة، ليرى ما إذا كانت جالسة بأدب - دون أن تدلي قدميها، أو تنكت أنفها.

أيعيدها مختومة؟

«أخبر راتنر!»، قالت بينما كانت ترتشف كأسها الثالثة بكل بساطة كما لو كانت كأس ماء ملونة. «أخبره..» (ما زال لسان الأفعى الجميل يتلمظ بالخمر) ــ

(أفعى؟ لوسيت؟ حبيبتي العزيزة الميتة)

«ــ أخبره أنني في الأيام الخوالي، حين كنتَ وآدا ــ»

فتح الاسم باب فمها على مدخل أسود، ثم أغلقه.

«ــ تتركانني من أجله، ثم تعودان إليّ، كنت أعرف أنكما كنتما vsyo sdelali (تطفئان لظى اشتهائكما).»

«إننا نتذكر أمور كتلك بوضوح كبير يا لوسيت! أرجوك توقفي!»

« إن تلك الأمور الصغيرة هي أوضح في ذواكرنا يا فان من الكبيرة المميتة. على سبيل المثال، الملابس التي كنت ترتديها في لحظة معينة، لحظة سخية، حين كانت الشمس قد أرخت أشعتها فوق المقاعد والأرضية. كنتُ عملياً عارية، طبعاً، كوني طفلة صغيرة بريئة ومحايدة. بينما كانت هي ترتدي قميصاً صبيانياً وتنورة قصيرة، وكل ما ارتديته أنت كان ذلك السروال القصير المجعّد، المغبر والملطخ، صار أقصر بسبب تجعيده، يعبق برائحة لطالما عبقتَ بها حين كنت تتواجد فوق تيرا مع آدا، مع راتنر فوق آدا، مع آدا فوق آنتيتيرا في غابات آرديس - أوه! لا أقصد أنها كانت رائحة سيئة، أعني، الخزامى، وطعام القطط، العالق بثياب آدا، وفتات كعك الخروب العالق بسروالك!»

أينبغي بتلك الراسالة، الموجودة الآن بالقرب من البراندي، أن تسمع كل ذلك الحديث؟ أكانت حقاً من آدا (إنها لا تحمل عنواناً)؟ أوليس الناطق هنا هو رسالة حب لوسيت، المجنونة والصادمة؟

«إنها ستجعلك تبتسم يا فان!» [كذلك وردت في المخطوطة. المحرر]

«إنها يا فان»، قالت لوسيت، «ستجعلك تبتسم» (لم تفعل، فالتوقعات لا تتحقق إلا ما ندر)، «ولكن إن كنت ستطرح عليَّ سؤال فان الشهير، فسأجيب بالإيجاب.»

ماذا تراه قد سأل كوردولا الصغيرة؟ في المكتبة وراء قاعدة الرفوف الدوارة التي تحمل كتب الجيب، «الغجرية»، «سيداتنا»، «كليشي كليشه»، «الطعنات الست»، «الإنجيل غير الموجز»، «ميرتفاغو للأبد»، الغجرية ... لقد كان معروفاً عنه في الأوساط الراقية أنه كان يطرح سؤالاً واحداً معيّناً في أول لقاء له مع شابة.

«أوه! طبعاً! ليس الأمر بالسهل! ليس من السهل تجنّب التحرشات وصدّها في السيارات المركونة وخلال الحفلات القذرة. في الشتاء الماضي فقط، في الريفييرا الإيطالية، كان هنالك عازف كمان شاب عصابي، خجول إلى حد لا يطاق، ولكن موهبته قد نضجت قبل أوانها، قد ذكّر مارينا بأخيها ... حسناً، خلال فترات ما بعد الظهر، ولمدة استمرت حوالي الثلاثة أشهر، كان يلمسني، وكنت أبادله الفعل، وبعد ذلك، استطعت وأخيراً أن أنام من دون تناول حبوب، وما عدا ذلك، لم أقبّل شفتي رجل في كل حبي - أعني كل حياتي. انظر! أستطيع أن أقسم بـ ... بشكسبير (وبحركة درامية، مدّت يدها نحو رف يحمل مجموعة كتب حمراء) ــــ»

«حذار!»، صاح فان، «إنها المجموعة الكاملة لأعمال فالكنيرمان، وقد قام سلفي في منصب الجامعة بإغراق المكان بها.»

«أوه!»، قالت لوسيت.

«وأرجوك! لا تستخدمي تلك العبارة التي أمقتها!»

«سامحني! أوه! أنا أعرف! لن أعيدها ــــ»

«طبعاً تعرفين. ولكن لا يهم. هذا لا يمنع أنك فتاة طيبة وأني مسرور بقدومك.»

«وأنا أيضاً يا فان. ولكن إياك والظن أني جئت هنا لملاحقتك وتذكيرك بحبي لك اليائس والمجنون، وأنك لا تستطيع شيئاً حيال ذلك. ما دفعني ببساطة لعدم الضغط على الزر وإعتام المشهد من خلال إسقاط تلك الرسالة في شق صندوق البريد اللعين، هو أنني كنت بحاجة إلى رؤيتك، لأن هناك أمراً آخر عليك أن تعرفه، حتى وإن كان سيدفعك لكره آدا والاشمئزاز منها. Otvratitel'no trudno (إنه لمن الصعب حدّ القرف) أن تشرح ذلك فتاة عذراء، أقصد عذراء من الناحية العملية، لنقل، عاهرة عذراء، نصف مومس، ونصف عذراء. إنني مدركة لخصوصية الموضوع، وللمسائل الغامضة التي لا ينبغي لي أن أناقشها مع أخي المهبلي - لم أقصد بكلمة غامضة الجوانب الأخلاقية والروحية المتعلقة ـــ»

قرابة رحم - ولكن قريبة أكثر مما ينبغي. لا بدّ أن الكلمة جاءت من أخت لوسيت. إنه يعرف ذلك الظل الأزرق الكئيب، وذلك الشكل. «ظلك الأزرق، شكلك يا حبيبي» (أغنية شعبية على إذاعة سونورولا). وجه أزرق غاضب جرّاء تكرار طلب RSVP (يرجى الرد).

«ـــ ولكن أيضاً الجانب الجسدي المباشر. فيما يخص الجانب الجسدي، يا عزيزي فان، فإنني أعرف عن آدا خاصتنا بقدر ما تعرف أنت.»

«انطقي بما لديك حالاً!»، قال فان متنهداً.

«ألم تكتب لك أبداً عن الأمر؟»

صوت نحنحة سلبية.

«أمر اعتدنا نحن أن نسميه 'ضغط الرفاس'.»

« من تقصدين بنحن؟»

«هي وأنا.»

لا كلام يُقال.

«أتذكر الـ scrutoir الخاص بجدتنا، بين مجسّم الكرة الأرضية، والـ gueridon؟ في المكتبة؟»

«لا أعرف حتى ما هو الـ scrutoir، ولا أذكر شكل المنضدة.»

«ولكن ألا تذكر المجسّم؟»

طارطاريا المغبرة مع إصبع سندريلا فوق البقعة التي سيسقط فيها الغازي.

«أجل أذكره. وأذكر منضدة بقائمة واحدة، قد رسم فوقها تنانين ذهبية.»

«هذا ما عنيته بـ gueridon. لقد كانت حقاً منضدة صينية رائعة، تلفت النظر بأحمرها الفاقع. أما الـ scrutoir، فهو طاولة الكتابة الخاصة بجدتنا، والقائمة بين المجسم والـ gueridon.»

«صينية أم يابانية؟ عليك أن تقرري! ما زلت حتى الآن لا أفهم كيف تركبين ألغازك. كيف ركّبتِ ألغازك، عام ١٨٨٤ و١٨٨٨؟»

Scrutoir. لغز لا يقلّ سوءاً عن لغزيْها الآخريْن، Blemolopias، و Molospermas.

«فان! فانيشكا! نحن نتحايل على النقطة الرئيسية، والتي هي أن طاولة الكتابة، أو طاولة المكتب، إن أحببت ــــ»

«أكره التسميتيْن، ولكني أجل أذكرها، كانت في الجهة المقابلة للديوان الأسود.»

لأول مرة يُذكر الديوان ما بينهما. رغم أن كلاً منهما قد استخدمه، ضمنياً، كموجّه، أو كذراع يمنى مطلية فوق لوح شفاف، يراه معلقاً من فضاء لامتناهٍ، فيلسوفٌ بعينه المقلوعة[1] من محجرها،

---

(١) فيلسوفٌ بعينه المقلوعة: اقتباس من «مقدمات لأي ميتافيزيقا في المستقبل» لإيمانويل كانت، الفيلسوف الألماني (١٧٢٤-١٨٠٤). مترجم

كبيضة مسلوقة، مقشّرة، تبحر في العالم بكل حرية، وتبدو أشبه بأنف وهمي؛ وعندئذ، وبفضل النعمة الجرمانية، تبحر العين الحرة حول اللافتة الزجاجية، وترى من خلالها يداً يسرى تسطع - هذا هو الحل! (قال بيرنارد عند السادسة والنصف، ولكني قد أتأخر قليلاً).

لطالما أطّر العقلُ حواسَ فان: مخمل ناعم، خشن، زغبي، ديوان لا يُنسى.

«فان! أنت تتعمّد تضليل القضية ـــ»

«لا يمكن تضليل القضايا.»

«ـــ لأنه عند الطرف الآخر، الطرف المائل من ديوان فانيادا - أتذكر؟ - كانت تلك الخزانة موجودة، الخزانة التي أقفلتماها عليَّ، ما لا يقلّ عن عشر مرّات.»

«Nu uzh i desyaf (مبالغة). مرة واحدة. لا أكثر. لم يكن المفتاح موجوداً في مكانه، تاركاً ثقباً كبيراً بحجم عين 'كانت'. كان مشهوراً بقزحيته متعددة الألوان.»

«حسناً، كانت طاولة المكتب تلك»، قالت لوسيت (متأملاً حذاءها اليساري، حذاءها 'الزجاجي' الأنيق المصنوع من الجلد الخالص، بينما كانت تلف ساقاً فوق أخرى)، «تحوي لوحاً للّعب قابلاً للطيّ، ودرجاً شديد السرية. وقد ظننتَ أنت، كما أعتقد، أنه كان يعجّ برسائل غرامية تخص جدتنا، كتبتها حين كانت في الثانية أو ربما الثالثة عشرة من عمرها. وقد عرفتْ آدا خاصتنا، أوه، لقد عرفت بأمر الدرج، ولكنها نسيت كيف يمكن لها أن تحرر الرعشة، أو أي كلمة مشابهة في لغة ألواح اللعب، وطاولات المكاتب.»

أي كلمة مشابهة.

«تحديناك أنا وهي لمعرفة مكان chuvstvilishche (النقطة

الحساسة) لتحرير الدرج. كان ذلك في الصيف الذي رحلت عنا فيه بيل، وتُرك لنا أمر تدبير تسلياتنا الخاصة، التي كانت لا تزال بريئة ونقية في حالتي، وفاسدة في حالتك مع أختي. بقيت تتلمس الجهاز الصغير، وتتحسسه وتتحسسه، إلى أن تبيّن أنه شريحة قابلة للضغط، محفورة داخل طاولة اللعب، تحت ما كنت تتحسسه. لقد كان رفاساً صغيراً، ولقد صاحت آدا ضاحكة عندما فُتح الدرج.»

«لقد كان فارغاً.» قال فان.

«ليس تماماً. لقد احتوى على بيدق أحمر صغير، لا يزيد طوله عن هذا» (مظهرة بسباباتها مقدار حبة شعير، مشيرة بها إلى - إلى ماذا؟ معصم فان!) «لقد احتفظتُ به لجلب الحظ؛ لا بدّ أني خبأته في مكان ما. بكل الأحوال، الحادثة بكل تفاصيلها، قد وقعت قبل الخطب الجلل، كما يقول أستاذ الفنون خاصتي، حين تمّ بنجاح تلويث لوسيت المسكينة في آريزونا. كانت بيل قد عادت إلى كانادي غاضبة، بعد أن شوّه فرونسكي روايتها 'أطفال ملعونون'؛ ثم هربت المربية التي خلفتها إلى حضن ديمون؛ كان والدي في الشرق، وكانت والدتي بالكاد تعود إلى المنزل عند بزوغ فجر كل يوم، أما الخادمات فكنّ ينضمّن إلى عشاقهن عند ارتفاع النجوم في السماء، وكنت أكره النوم وحدي في غرفة الزاوية المخصصة لي، حتى وإن لم أطفئ المصباح الوردي الخزفي، الذي رُسم فوقه حملٌ ضال، لأنني كنت أخاف من الكواجر والثعابين..» [من المحتمل أن هذا المقطع لم يكن مجرّد استذكار عفوي بلهجة محكية، بل كان مقتبساً من رسالة أو رسائل لوسيت. المحرر] «... التي كانت آدا تقلّد أصواتها وفحيحها ببراعة، عن قصد كما أعتقد، تحت نافذتي في الطابق الأول. حسناً..» [يبدو أن الاقتباس قد انتهى هنا]، «لاختصار قصتي الطويلة قليلاً ــــ»

العبارة التي قالتها الكونتيسة دو براي في مديحها لفرس عرجاء في إسطبلاتها عام ١٨٨٤، حين وهبتها لابنها، الذي وهبها لفتاته، التي وهبتها لأختها غير الشقيقة. عبارة قد أعاد صياغتها على الفور، فان الذي يجلس، مكتّفاً ذراعيه، فوق كرسي منجّد بالمخمل الأحمر.

«ـــ أخذتُ وسادتي واتجهت إلى غرفة آدا، حيث كانت ذات الإضاءة الليلة الشفافة، تظهر دباً بثوب الحمّام يعانق الحمل الذي لم يعد ضالاً. كانت ليلة قائظة جداً، وكنا بكامل عرينا، ما خلا بعض الضمادات الطبية التي ألصقها الطبيب بذراعي بعد أن داعبها وحقنها، أما آدا فكانت أشبه بجمال حالم، بالأسود والأبيض، مع لمسة بلون الفراولة فوق أطرافها الأربعة، كملكة قلوب شاعرية في ورق اللعب.»

في اللحظة التالية، بدأ عراك جسديهما اللذيذ. متعة مبهجة اختبرتاها سوية وستقومان بتكرارها على نحو ممنهج، لغرض صحي، في فترات الشبق، التي تخلو من وجود فتيان.

«علّمتني ممارسات لم أكن لأتخيّلها في حياتي.» اعترفت لوسيت بذهول العرض الأول. «انجدلنا كثعبانين، ونشجنا ككواجر. كنا كبهلوانتين مغوليتين، كجناس ناقص، كنا 'آدالوكينادا'. قبّلتني فوق صليبي الصغير، وقبّلت صليبها. وكان رأس كل منا في وضعية غريبة، ظنّت معها بريجيت، خادمة صغيرة غبية قد دخلت الغرفة تحمل شمعة، رغم كونها داعرة بحدّ ذاتها، أن كلاً منا تضع مولوداً أنثى في اللحظة ذاتها، أنت يا آدا تضعين فتاة بشعر أحمر، ومولود لوسيت فتاة بشعر بني. تخيّل المشهد!»

«انفصال جانبي»، قال فان.

«استمر ذلك، عملياً، لكل ليلة في مزرعة مارينا، وغالباً ما كان

في فترات ما بعد الظهر؛ أو في الفترات الفاصلة بين 'غيبوبات' (تعبير خاص بها) كل منا، أو أيام تدفق حيض إحدانا، التي، صدّق أو لا تصدّق ـــ»

«بإمكاني تصديق أي شيء»، قال فان.

«ـــ كانت تأتي متزامنة. لقد كنا مجرّد أختيْن عاديتيْن، تتبادلان التوافه الروتينية، لديهما القليل من القواسم المشتركة؛ كانت هي تهوى جمع الصبّار، أو تعيد كل يوم بعجالة دورها التمثيلي لتتقدم به إلى امتحان القبول في ستيرفا؛ وكنت أنا أهوى المطالعة، ونسخ الصور الإيروتيكية الجميلة، من مجلّد 'الروائع المحظورة'، الذي وجدناه، بالصدفة المناسبة، في أسفل صندوق يحوي لـ korsetov i khrestomatiy (مشدّات نسائية ومقتطفات أدبية)، حيث نسيته بيل الغالية، وأستطيع أن أؤكد لك أنها كانت أكثر واقعية من لوحات مونغ مونغ المرسومة بالمحدلة، الرسام الذي كان شهيراً عام ٨٨٨، أي قبل ألفية كاملة من عثوري عليها بالصدفة في أحد مخابئي السرية، وقد أخبرتني حينها آدا أنها مجرد رسوم توضيحية لبعض حركات الجمباز الشرقية. وهكذا انقضى النهار، وهبط الليل، ومشت عثّات هائلات الحجم، بقوائمها الست، فوق زجاج النافذة، وتشابكنا حتى غرقنا في النوم . كان كل ذلك عندما تعلّمت ـــ» اختتمت لوسيت، مغمضة عينيها، زافرة أنيناً ضئيلاً - ورصيناً، قد ذكّر فان، المتلوي، بتنشجات ذروة آدا.

في تلك اللحظة، وكما تتخلل المواقف الهزلية مشهداً مسرحياً درامياً متين التركيبة، رنّ الهاتف النحاسي، تبعته قرقرة الرادياتور، وليس ذلك فقط، بل أيضاً فار ماء الصودا من زجاجته، مضيفاً عذوبة إلى المشهد.

ردّ فان (بضيق): «لم أفهم الكلمة الأولى. . . ماذا قلت؟

L'adorée[1]؟ انتظري لحظة! (متوجّهاً إلى لوسيت)، هدوء لو سمحت يا لوسيت!» (هسهست لوسيت بكلمة طفولية قصيرة جداً، تحمل حرفيْ P[2]). «حسناً» (أشار لها نحو الممر). «آسف يا بولي. ما كانت الكلمة؟ L'adorée؟ لا؟ أعطني السياق! آه ! la durée، تعنين la durée. ولكن... عفواً ماذا تقولين؟ جناس مع ماذا؟ لا عليك، آسف مرة أخرى. عليَّ أن أعيد سدّ زجاجة الصودا. ابقي معي على الخط! (هرع نحو الـ'كوري دور'، كما كانوا يطلقون على الممر في طابق آرديس الثاني) «بولي في ثيابك يا لوسيت، من سيهتم لذلك!»

صبّ لنفسه كأساً أخرى من البراندي، ثم، وللحظة سخيفة، لم يتذكر ما الذي كان مشغولاً به - أجل! إنها المكالمة!

لم تصدر من السماعة إشارة على الحياة. أعادها إلى مكانها، فوق الهاتف الذي استأنف رنينه ثانية، تزامناً مع طرق لوسيت فوق الباب وقد عادت إلى الغرفة.

«la durée ... بحقّ الآلهة لا داعي لقرع الباب. ادخلي! لا يا بولي، الكلام ليس موجهاً إليك - إنها ابنة عمي الصغيرة. لنكمل ما بدأناه. la durée ليست مرادفاً لـ duration[3] والتي هي معنى ناقص للمدة، في أفكار فيلسوف استثنائي. ما الخطب الآن؟ أنت لا تعرفين ما إذا كانت الكلمة dorée أم durée؟ الثانية تُكتب

---

(١) L'adorée و la durée: كلمتان فرنسيتان تعني الأولى المحبوبة والثانية المدة. (مترجم)

(٢) كلمة طفولية بحرفيْ P: أي Pipi. (مترجم)

(٣) Duration: مدة بالإنكليزية. والمقطع بأكمله يحمل تلميحاً إلى فكرة «المدة» الفلسفية التي طرحها هنري برغسون الفيلسوف الفرنسي (١٨٥٩-١٩٤١) في كتابه المدة والتزامن. (مترجم)

بالـ U وليس بالـ O. ظننتك تتقنين الفرنسية. حسناً فهمت. إلى اللقاء. موظفة الطباعة خاصتي تلك، شابة شقراء، متواضعة الجمال ولكن متوافرة دائماً، لا يمكنها فهم خط يدي الواضح جداً، متواضعة في كل شيء حتى في فرنسيتها.»

«في الواقع»، قالت لوسيت مبدية ملاحظتها، بينما كانت تسمح لطخة تركتها الصودا فوق مغلف الرسالة، «برغسون مخصص فقط للشباب الصغار جداً، أو التعساء جداً، كتلك الروسية المتوافرة أمامك الآن.»

«إن أردنا وضع درجة لبريغسون»، قال المساعد الفاسق، «فإنها ستكون ناقص B، مقارنة مع حالتك معك، لا أكثر. أم عليّ أن أكافئك بطبع قبلة فوق صليبك - أياً كان ما عنيتِه بتلك التسمية؟»

أعاد الشاب الفانديماني[(١)] خاصتنا ترتيب وضعية ساقيْه، لاعناً بينه وبين نفسه الحالة الحرجة التي سبّبتها له فكرةُ تخيّل صليب ثعلبي، محترق من جهاته الأربع. أحد مرادفات «الحالة» هو «الوضع»، والصفة «إنساني» يمكن أن يقوم مكانها «آدمي» (باعتبار أن الجنس البشري ابتدأ مع ذكر: آدم!)، وهي الصفة التي استخدمها العزيز لاودن لترجمة رواية بومبييه الحزينة والتافه «الحالة الإنسانية»[(٢)]، محوّلاً عنوانها إلى «الوضع البشري»، والتي فيها، ومن باب الصدفة، أورد فيها الكاتب مصطلح «الفانديماني»، وفسّره على أنه «فلاح تاسماني من أصول هولندية». اطرق الحديد قبل أن يبرد!

---

(١) الفانديماني: Van Diemen هو اسم جزيرة تاسمانيا حين كانت مستعمرة هولندية. (مترجم)

(٢) الحالة الإنسانية: La Condition humaine (١٩٣٣) كتبه أندريه مالرو، فيلسوف فرنسي (١٩٠١-١٩٧٦) وقد ترجم إلى الإنكليزية تحت عنوان Man's Estate. (مترجم)

مررت لوسيت لسانها فوق شفتيها، أرختْ أجفانها قليلاً وقالت: «إن كنت جاداً يا حبيبي، فعليك أن تفعل ذلك حالاً. ولكن إن كنت تسخر مني، فأنت مجرّد فانديماني قاسٍ وبذيء، لا أكثر.»

«كفاك، كفاك يا لوسيت! أتعني كلمة صليب شيئاً آخر أجهله؟ أتقصدين تميمة مثلاًّ؟ أيكون البيدق الأحمر الذي ذكرته منذ قليل؟ أهو شيء ترتدينه؟ أو تعلقينه في سلسال حول عنقك؟ أيكون حبّة جوز مرجانية؟ تمثال عذراء في روما القديمة؟ ماذا؟ قولي يا عزيزتي!»

استمرت في مراقبته بحذر. «سأجرب فرصتي، وأشرح لك»، قالت، «على الرغم من أنه واحدٌ من مصطلحات أختنا، مصطلحاتها البرجية الرقيقة، التي ظننت أنك تألفها.»

«أوه! أعتقد أني عرفته»، هتف فان (بصوت تهزه سخرية شيطانية، يغلي بغضب غامض، وقد صبّه، انتقاماً من آلامه، على كبش الفداء، لوسيت الساذجة، التي كانت كل جريمتها أنها تحمل شفتين مخضّبتين بخيالات قُبل لا تعدّ ولا تحصى). «طبعاً! لقد تذكّرته الآن. يمكن لوصمة خبيثة في صيغة المفرد أن تصير علامة مقدسة في صيغة الجمع. أنت تشيرين بالطبع إلى الأثر الذي تركه كاهن متحمس، فوق جبين راهبة شابة مفرطة في نقائها، وقد بالغ في مسحه بالزيت، كما ترك آثاراً في أماكن أخرى، جرّاء ضرب جسدها بفرشاة على شكل صليب.»

«لا، إنه أبسط من كل ذلك»، قالت لوسيت الصبورة. «لنعد إلى المكتبة، حيث وجدت ذلك الشيء الذي كان لا يزال قابعاً في درجه ــ»

«أنت تحملين دم زيمسكي حقاً. كما أملت. أنت شديدة الشبة بدوللي، في صورتها المعلقة في المكتبة فوق أدراجها السرية، والتي

بدت فيها ترتدي سروالاً جميلاً وتحمل بين أصابعها قرنفلة وردية اللون.»

«لا، لا، إن تلك اللوحة الزيتية القبيحة كانت معلقة في الطرف الآخر من الغرفة، بالقرب من خزانتنا، فوق خزانة كتب زجاجية، وكانت الجدة من مكانها هناك تراقب دراستك كما قصفك.»

متي سينتهي هذا العذاب؟ لا أستطيع فتح الرسالة في حضورها، وقراءتها بصوت عال احتراماً للمستمعين. لست فناناً في كتم أنيني.

«ذات يوم، كنتُ في المكتبة راكعة فوق وسادة صفراء موضوعة فوق كرسي شيباندال، أمام طاولة بيضاوية قائمة على ما يشبه مخالب أسد ـــ»

[الأسلوب الجاد لهذه الجملة، يقترح وبقوة أن الخطاب مستوحى من مصادر رسولية. المحرر]

«ـــ وجدت نفسي، في نهاية جولة من جولا فلافيتا، في طريق مسدود، مع حروفي الستة. تذكر أني كنت في الثامنة من عمري، ولم أكن بعد قد درست علم التشريح، ولكني استمررت في محاولة القيام بأفضل ما عندي، في مواجهة 'الطفل الأعجوبة'. عاينتَ أنت الأحرف الموجودة أمامي ثم حركتها بأصابعك، ثم أعدت، عدة مرات، ترتيب التتابع العشوائي، لتصير الكلمة، لنقل، LIKROT، أو ROTIKL، ولكن آدا كانت تنظر إلينا شزراً بعيني الغراب السوداويْن، وعندما انهيتَ الترتيب، وقعتما أنت وآدا في الوقت ذاته فوق السجادة السوداء، في نوبة مزعجة من ضحك لم أفهم لها سبباً؛ في النهاية، قمتُ بكل هدوء، بتأليف كلمة ROTIK (فم صغير)، مبقية في يدي حرف اسمي الأساسي. والآن يا فان! أتمنى أن أكون قد قلبت عالمك رأساً على عقب، إذ يمكن للفتاة الأكثر بشاعة في

العالم، أن تفاجئك بما لديها. فلنقل الآن وداعاً، خذ الرسالة، إنها لك للأبد!»

«في حين أن هذه الآلة هي له»، تمتم فان.

«هاملت»، قالت مساعدة المحاضر، الأذكى بين طلابه.

«حسناً، حسناً»، قال مذعناً لها ولجلاده، «ولكن لاحظي أن لاعب سكرابل إنكليزي، تسيطر المصطلحات الطبية على عقله، يستطيع بمساعدة حرفين إضافيين أن يركّب، لنقل، STIRCOIL، وهو محفّز غدد عرَقية معروف، أو CITROILS، ما يستخدمه السائسون لفرك المهور.»

«أرجوك توقف أيها الفانديماني!» قالت متذمرة. «اقرأ رسالتها وناولني معطفي!»

ولكنه استمر، مع تشنجات ظاهرة على محياه.

«أنا مندهش! لم أتخيّل أبداً أن سليلة الملوك الاسكندينافيين، أمراء الروس العظماء، والبارونات الإيرلنديات، قد تستخدم لغة العوام المبتذلة. أجل، أنت محقة، فأنت يا لوسيت، تتصرفين كعاهرة حقيقية.»

بتأمّل حزين، أجابت لوسيت: «كعاهرة منبوذة، يا فان!»

«O moya dushen'ka (حبيبتي العزيزة)!» صاح فان، وقد صعقته خشونته وقسوته. «سامحيني أرجوك! فأنا رجل مريض. إني أعاني منذ أربع سنوات من مرض الـ consanguineocanceroformia[1] - داء غامض قد شخّصه Coniglietto. لا تضعي يدك الصغيرة الباردة فوق كفّي! فإن ذلك سيعجّل من نهايتك، ونهايتي. أنهي قصّتك!»

---

(١) consanguineocanceroformia: تسمية من تأليف الكاتب تحوي consanguine تعني قرابة العصب أو زواج ذوي القربى، وCancer أي السرطان. (مترجم)

«حسناً، بعد أن علّمتني ممارسات اليد الواحدة، البسيطة والتي يمكنني القيام بها وحدي، هجرتني، آدا المتوحّشة. للحقيقة، نحن لم نتوقف عن فعل ذلك سوية بين الحين والآخر - في مزرعة بعض معارفنا بعد حفلة ما، في سيارة صالون كبيرة حيث كانت تعلمني القيادة، في عربة نائمة تشق البراري، في آرديس الحزينة، الحزينة جداً، حيث أمضيت معها ليلة كاملة قبل رحيلي إلى كوينستون. كم أحب يديها يا فان! لأنهما تحملان ذات الـ rodinka (الوحمة الصغيرة)، لأن أصابعها طويلة جداً، لأنها، في الحقيقة هي انعكاس لأصابع فان في مرآة تصغيرية، تصغير ناعم، شكلٌ v laskatel'noy[١].» (كان الحديث - كما يحدث في كثير من اللحظات العاطفية بين أفراد «زيمسكي فيين»، فرع العائلة الغريبة، أنبل من في إيستوتي لاند، الأسمى فوق أنتيتيرا - مطعّماً بالروسية، الأثر الذي لن تتم إعادة إنتاجه بشكل ثابت في الرواية. سيتعب القراء معنا هذه الليلة).

«هجرتني»، استطردت لوسيت، مصدرة طقّة من جانب فمها، ممسّدة، نحو الأعلى ثم نحو الأسفل، جوربها الشفاف بلون اللحم. «أجل، كانت قد بدأت علاقة، حزينة إلى حدّ ما مع جوني، ممثل شاب من فويرتي فينتورا، إنه ميل عائلي متوارث، من ذات odnoletok (فئتها العمرية)، وُلد في عامها ذاته، اليوم ذاته، اللحظة ذاتها، وكان يبدو وكأنه توأمها ــــ»

الحماقة التي نطقت بها لوسيت السخيفة.

«لا يمكن لذلك أن يكون»، قاطعها فان المتجّهم، الذي هزّت فيه لوسيت جانباً خطيراً. أطبق كفّيه بقوة، مقطّباً جبينه (كم كان

---

(١) v laskatel'noy: معتنى به، بالروسية. (مترجم)

يتمنى لو يتمكن من وضع Wattebausch[1]، كما كان راك البائس يقول عن عزفها النشاز، منقوعة بالماء المغلي، فوق تلك البثرة الناطقة إلى يمينه، التي بدأت تخرج قيحها) وقال: «مستحيل! لا يمكن لتوأم الولادة في اللحظة ذاتها، ولا حتى ذلك التوأم الذي رأته بريجيت، المهرجة التي دخلت المشهد، كما أتخيلها، تحمل شمعة تتمايل شعلتها بين حلمتيْها المكشوفتيْن. من النادر أن يكون الفرق الطبيعي في العمر بين التوائم (كابحاً الغضب في صوته فبدا مفرطاً في حذلقته) أقل من ربع ساعة، الوقت الذي يحتاج إليه رحم امراة ليرتاح ويسترخي، ويقرأ مجلة نسائية، قبل أن يستأنف تقلصاته الرهيبة. في حالة نادرة فقط، عندما تستمر «المصفوفة» في دفعها الآلي، يمكن للطبيب أن يستغلّ الحالة لتسهيل إخراج الشقي الآخر، ويمكن عندئذ أن يُقال إنه يصغر الأول بثلاث دقائق، على سبيل المثال، الحدث السعيد الذي إن وقع في العائلات الحاكمة - سعادة مضاعفة، مصحوبة في هرج ومرج في كل أنحاء مصر، ربما - يُمكن اعتباره أكثر أهمية من نهاية ماراتون. ولكن التوائم، وبغض النظر عن عددها، لا يُمكن أن تنبثق من رحم الأم، الواحد تلو الآخر، بتلك البساطة. التوائم المتزامنة، مصطلح متناقض.»

«Nu uzh ne znayu (حسناً أنا لا أدري)»، تمتمت لوسيت (وفي صوتها ترديد صدى لتنغيم أمها المفزع، عند نطقها بتلك العبارة، التي تحمل ضمنياً اعترافاً بالجهل والخطأ، ولكنها تميل بشكل أو بآخر - مصحوبة بإيماءة تدلّ على التعالي أكثر من الموافقة - إلى تخفيف وتمييع حقيقة الردّ التصحيحي، الذي نطق به محاورها).

---

(١) Wattebausch: كرة القطن بالألمانية.

«كل ما عنيته»، تابعت، «أنه كان شاباً هيسبانياً إيرلندياً وسيماً، ذا سمرة شاحبة، وكان الناس يظنون أنهما توأم. لم أقل أنهما توأم حقيقي، أو توأم سلاسي.»

«سلاسي؟ تقصدين ثلاثي؟ من بحق السماء يلفظها هكذا؟ من؟ من؟ نعجة في حلم تقطّرت من قطّارة؟ ثلاثي؟ ترى هل عاش الأيتام؟ ومع ذلك علينا أن نستمع للوسيت. تابعي!»

«بعد سنة، اكتشفت أن له علاقة مع لوطي عجوز، فتخلّت عنه، فما كان منه إلا أنه أطلق الرصاص على نفسه فوق الشاطئ أثناء مدّ عال، ولكن راكبي الأمواج وأطباء الجراحة أسعفوه، وهو الآن حي مع رأس معطوب؛ لن يتمكن أبداً من الكلام.»

«يمكن الاستفادة من البكم أيضاً»، قال فان بصوت حزين، «يمكنه أن يلعب دور المخصي الأخرس في 'اسطنبول، يا بلبلي'، أو دور فتى الإسطبل، متنكّراً في زيّ فتاة مربية للكلاب، يحمل رسالة.»

«فان! هل أُضجرك؟»

«لا أبداً، إنه سرد تاريخي حافل. لا يمكن اعتبار الأمر بهذا السوء: أن تُرْدي آدا ثلاثة شبان خلال سنوات ثلاث، إضافة إلى رابع قد جرحته قبل إقصائه. ضربة موفقة هزلية، وكأنها مسرحية. أتساءل من سيكون التالي!»

«أرجو أن لا تضغط عليَّ لمعرفة تفاصيل غرامياتنا العذبة، ولياليـنا الفظيعة سوية، قبل وخلال علاقتها مع ذلك المسكين، والدخيل التالي. لو كان جلدي لوحة، وشفتاها فرشاة، لما بقيت مسامة في جسدي من دون لون، والعكس صحيح. هل أنت مرعوب يا فان؟ هل اشمأززت منا؟»

«على العكس»، أجاب فان، ناجحاً في تزييف بهجة فاسقة. «لو لم أكن رجلاً مغايراً للجنس لكنت سحاقياً بكل تأكيد!»

جاء ردّه مبتذلاً وتافهاً، أمام عظمة مشهدها، أمام مكرها اليائس، مما دفعها للاستسلام، والسقوط، كما لو كانت فوق خشبة، أمام ثقب أسود، يُسمع خلاله سعال مريع هنا وهناك، بين الجمهور اللامرئي، والأبدي. للمرة المئة، اختلس فان النظر إلى المغلف الأزرق: لم يكن حرفه الطويل متوازياً مع حرف الطاولة الماهوغنية اللامعة؛ زاويته العلوية اليسرى نصف مخفية وراء الصينية التي تحمل زجاجتَي البراندي والصودا؛ الزاوية السفلى اليمينية تشير إلى رواية فان المفضّلة، الملقية فوق المنضدة، «العلامة التافهة».

«أودّ رؤيتك مرة أخرى، قريباً»، قال فان قاضماً إبهامه، لاعناً لحظات السكينة التي عمّت، توّاقاً إلى فتح المغلّف الأزرق. «عليك أن تأتي وتمكثي عندي في شقتي الجديدة، في جادة آليكس. لقد أثثت غرفة للضيوف بالأرائك والمصابيح اللازمة، وكرسي هزّاز، لتبدو وكأنها مخدع والدتك.»

أبدت زاويتا فم لوسيت الحزين انفراجاً مقوّساً، على الطريقة الأمريكية.

«هل ستأتين لتمضية بضعة أيام؟ أعد بأن أكون لبقاً. موافقة؟»

«ليس بالضرورة أن يتوافق مفهومي للباقة مع مفهومك. وماذا عن كوردولا دو براي؟ ألن تمانع؟»

«الشقة الآن لي»، قال فان، «إضافة إلى أن كوردولا قد أصبح اسمها السيدة ج. توباك، زوجة السيد إيفان. إنهما يرتكبان الحماقات في فلورنسا. وهذه آخر بطاقة بريدية وصلتني منها. صورة لفلاديمير كريستيان من الدانمارك، الذي، وكما تدّعي، يبدو كنسخة شبه الأصل عن إيفان جيوفانوفيتش، خاصتها. انظري!»

«ومن يأبه الآن بـ سوسترمانز[1]؟»، وجاء ردّها حاداً، بإيقاع

---

(١) يوستوس سوسترمانز (١٥٩٧-١٦٨١): رسام بلجيكي. (مترجم)

فارس مشاة (الطريقة الخاصة بأختها الرحِمية)، أو لاعب كرة قدم لاتيني أثناء ركلة مرتدة.

لا. إنها شجرة دردار. وُلدت قبل نصف قرن خلا.

«إن جدّه» قال فان، «يكون الأدميرال الروسي الشهير الذي بارز بالسيف جان نيكوت[1]، وقد سميت جزيرة التبغ أو ربما التبغوف، لست متأكداً، على اسمه، وكان ذلك قبل خمسمئة عام مضى.»

«لقد أتيتُ على ذكرها لأنني أعرف أن التحليلات الخاطئة قد تزعج بسرعة حبيبة قديمة، فتراها تقفز كقطة فوق سياج ثم تبتعد دون حتى أن تلقي نظرة إلى الخلف.»

«ومن أخبرك عن هذا الفصل الماجن والعابر من حياتي؟»

«إنه والدك يا عزيزي. كثيراً ما قابلناه في الغرب. افترضتْ آدا في البداية أن تابر هو اسم مزيف، وأنك بارزت شخصاً آخراً، وأن ذلك قد وقع قبل أن يسمع أي أحد بنبأ وفاة الشخص الآخر في كالوغانو. يرى ديمون أنه قد كان كافياً لو أنك ضربته.»

«لم أستطع»، قال فان، «فذلك الجرذ قد قضى متعفّناً فوق سرير في المستشفى.»

«لقد عنيْت تابر الحقيقي»، هتفت لوسيت (التي كانت تعيد خلط كل الأوراق في زيارتها تلك) «وليس أستاذي للموسيقى، المسكين، المخدوع، والمقتول سمّاً، التي لم تستطع حتى آدا، ما لم تكن كاذبة، أن تشفيه من عنّته.»

«وماذا عن التوأم الثلاثي!»، قال فان.

«ليس بالضرورة أن يكون هو الوالد». أجابت لوسيت. «كان

---

(١) جان نيكوت (١٥٣٠-١٦٠٠): سفير فرنسا في لشبونة وقد اشتهر بكونه مناصراً لزراعة التبغ واستخدامه، وقد اشتقت تسمية نيكوتين من اسمه. (مترجم)

عشيق زوجته عازف كمان. اسمع! سأستعير أحد كتبك (ماسحة بنظرها الرف الذي يحمل الغجرية، «كليشي كليشه»، «ميرتفاغو للأبد»، «النيوإنغلاندي القبيح[١]») وأنطوي على نفسي، Komondi[٢]، في الغرفة المجاورة لدقائق قليلة، بينما تقوم أنت - أوه كم أحب 'العلامة التافهة'!»

«لا داعي للعجلة»، قال فان.

صمت (بقي أمامنا خمس عشرة دقيقة أخرى قبل انقضاء الأمر).

«في سنّ العاشرة»، استدركت لوسيت، « كنت ما زلت في مستوى 'فيو روز ستوبشين[٣]'، ولكن أختنا (سمحت لوسيت لنفسها ذاك العام، ذاك اليوم بالتحديد، أن تستخدم، في حديثها عن أختها، صيغة الجمع غير المتوقّعة، الممنوعة، والهزلية، والتي لا يستخدمها الكتّاب عادة إلا في حالات دقيقة) كانت قد قرأت في السن ذاته، وبلغات ثلاث، أكثر بكثير مما قرأته أنا في الثانية عشرة من عمري. بكل الأحوال، بعد إصابة مروّعة بالمرض في كاليفورنيا، استعدت عافيتي وقمت ببعض التعويضات: تغلّبت جيناتي على الجراثيم. لا أودّ أن أبدو كمتباهية، ولكن أصدف أن قرأت لأعظم كتّابي المفضّلين، هيروداس[٤]؟»

---

(١) النيوإنغلاندي القبيح: تلميح إلى رواية الأمريكي القبيح، السياسية، للكاتب الأمريكي ويليام ليدير (١٩١٢-٢٠٠٩) و أستاذ العلوم السياسية، الأمريكي يوجين بورديك (١٩١٨-١٩٦٥). (مترجم)

(٢) Komondi: أي comme on dit، العبارة الفرنسية التي تعني: كما يقولون، ولكن بلهجة لوسيت الروسية. (مترجم)

(٣) فيو روز ستوبشين: مرة أخرى كتاب أحزان صوفي للكاتبة صوفي روستوبشين، الكونتيسة دي سيجور، ولكن التلميح هذه المرة موجه إلى النسخة الصادرة عن دار نشر "Rose". (مترجم)

(٤) هيروداس: شاعر يوناني، ٣٠٠ عام قبل الميلاد. (مترجم)

«طبعاً»، أجاب فان بلامبالاة، «شاعر فاحش من عصر جاستن[1]، العالم الروماني. أجل، شاعر عظيم. مزيج رائع ما بين الرقة والخشونة. لقد قرأتِه، يا عزيزتي، بالترجمة الفرنسية الحرفية، المراعية لليونانية الأصلية، أليس كذلك؟ ولكن أحد رفاقي قد أراني بعض السطور المقتطعة من نص قد عُثر عليه حديثاً، يحكي عن طفليْن، فتاة وصبي، كثيراً ما كانا يقومان بذلك، فانتهى بهما الأمر ميتين في وضعية متشابكة، ولم يتمكّن أحد من فصلهما - عند كل محاولة شدّ، كان جسد كلّ منهما يمطّ ويمطّ ثم يعود إلى ما كان عليه، بعد أن يفلت من أيدي الأهل المرتبكين. فضيحة كبيرة. إنه حقاً لأمر مأساوي، وفي الوقت ذاته، مضحك جداً.»

«لا، لم أر ذلك المقطع»، قالت لوسيت. «ولكن يا فان، لمَ ــ»

«حمى القش، حمى القش!»، قاطعها فان، باحثاً في جيوبه الخمسة عن منديل. بحثه غير المثمر إضافة إلى نظرة لوسيت المتعاطفة قد زادا من تورّم وجهه حزناً، ما دفعه إلى انتزاع الرسالة بحركة سريعة، أسقطها، ثم التقطها، وقفز خارج الغرفة منسحباً نحو أبعد غرفة في الممر (التي ما زالت تعبق بعطر دو غراس)، ليقرأها، جرعة واحدة.

«آه يا فان العزيز! إنها محاولتي الأخيرة. يمكنك تسميتها وثيقة جنون، أو عشب الحسرة والندم، ولكني أتمنى لو أني آتي لأعيش معك، للأبد، أينما كنت. إن خيّبت رجاء الخادمة التي تقف عند عتبتك الآن، فسوف أرسل برقية فورية تحمل موافقتي على عرض زواج قد قُدم للبائسة آدا قبل شهر في ولاية فالنتين. إنه روسي

(١) جاستن: جاستن مارتر (١٠٠ - ١٦٥ م)، المعروف أيضاً بالقديس جاستن أو «يوستينوس الشهيد»، فيلسوف روماني مولود في نابلس. (مترجم)

آريزوني، محترم ولطيف، ليس بشديد الذكاء، وليس عصرياً تماماً. الأمر الوحيد المشترك ما بيننا هو الاهتمام الشديد بالنباتات الصحراوية، عسكرية المظهر، وبشكل خاص مختلف فصائل نبتة 'الباهرة'، مضيفة يرقانات أنبل حيوان في أمريكا، الفراشة النطاطة العملاقة (كما ترى، إنه كروليك ينقّب مرة أخرى). يملك خيولاً ولوحات تكعيبية، وآباراً نفطية (لا أعرف الكثير عنها، ولكني عرفت أن أبانا الذي في الجحيم يملك مثلها ولم يرد إخباري؛ أفلت مع بعض التلميحات المبهمة، كعادته). لقد أخبرت المريض بعشقي، فالنتينيان، أني سأعطيه جوابي بعد أن أستشير الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي، وسأحبه للأبد. حاول أن تتصل بي الليلة. هنالك عطل في خطوط لادور، ولكني متأكدة من أنه سيعالج قبل ساعة مدّ النهر. Tvoya, Tvoya, Tvoya (إليك). A.»

أخرج فان منديلاً نظيفاً من الكدسة المرتبة في الدرج، ثم، وبحركة مماثلة، نتش ورقة من دفتر للكتابة. لكم هو رائع ذلك التكرار الإيقاعي لبعض الأمور التي تأتي متزامنة ومتشابهة (مستطيل، لون أبيض) إذ يكون قادراً على مساعدتنا في لحظات فوضوية كتلك. كتب رسالة قصيرة وعاد إلى غرفة الاستقبال. وجد لوسيت هناك وقد لبست معطف الفرو، وخمس زملاء يفتقرون إلى اللياقة، سمح لهم البوّاب المغفل بالدخول، قد تحلّقوا صامتين حول النموذج الرشيق لعروض أزياء الشتاء القادم. استقبله برنارد راتنر، شاب قصير بدين، متورّد الوجه، غزير الشعر الأسود، بشيء من الراحة الأنيسة.

«ولكن ماذا أرى!» صاح فان متعجّباً، «ظننت أننا سنلتقي في منزل عمك.»

بإيماءة سريعة، أشار لهم للتوجه إلى مقاعد غرفة الانتظار، ورغم اعتراضات ابنة عمه (لا داعي لمرافقتي، إنها مسافة مشي

لنصف ساعة فقط) رافقها حتى عربته. مشى في أعقابها، خافقاً بنعليه، فوق الدرجات الضيقة والمعتمة، katrakatra (أربعة بأربعة). أرجوكم يا أطفال، لا تمشوا katrakatra (مارينا).

«أنا أيضاً أعرف»، قالت لوسيت كما لو كانت تستمر في حديث خاضاه مؤخراً، «من يكون.» وأشارت إلى نقش «صالة فولتماند» فوق واجهة المبنى الذي خرجا منه. رماها فان بنظرة خاطفة، فقالت إنها تعني قاضي هاملت[1].

مرّا تحت قبوة مظلمة، وحين خرجا منها إلى الهواء الملوّن بأشعة الغروب الرقيقة، أوقفها وأعطاها الرسالة التي كتبها، والتي أخبر فيها آدا أن تستقلّ أوّل طائرة تحملها إلى مانهاتن لتكون عنده في أي وقت من اليوم التالي. كان سيرحل بعربته عن كينغستون حوالي منتصف الليل. أمل أن يتم إصلاح خط الدوروفون في لادور قبل مغادرته. القلعة التي استحمّ فيها الدوروفون[2]. بكل الأحوال، افترض أن الرسالة ستصلها في غضون ساعات. تنحنحت لوسيت وقالت: «ستطير الرسالة أولاً إلى مونت - دور، عفواً أقصد لادور، وإن حملت إشارة 'طارئة' فسوف تصل عند بزوغ الفجر مع ساع قد أبهرته أشعة الشمس، يجوب الطرقات شرقاً فوق جواد رديء تملأه البراغيث، يخصّ مدير مكتب البريد، إذ لا يمكن استخدام الدراجات الآلية أيام الآحاد، مرسوم محلي قديم، لا قيادة مع الثَّمَل، مفاهيم أيام العطل. ومع ذلك، سيكون لديها الوقت الكافي لحزم أمتعتها، وإيجاد صندوق أقلام التلوين الهولندية، الذي طلبت

(١) قاضي هاملت: اسم القاضي في مسرحية هاملت هو فولتماند. (مترجم)
(٢) القلعة التي استحمّ فيها الدوروفون: القلعة المستحمة في لادور، في بداية الفصل ٢٢. (مترجم)

منها لوسيت إحضاره في حال أتت، والوصول عند موعد الفطور في غرفة نوم كوردولا الأخيرة. لن يكون أحد من أنصاف الأشقاء أو الشقيقات، في أحسن حالاته في يوم كهذا.»

«بالمناسبة»، قال فان، «لنحدد موعد زيارتك. رسالتها قد غيّرت برنامجي. لنتناول العشاء في أورزوس الأسبوع القادم. سأبقى على تواصل معك.»

«كنت أعرف مسبقاً أن الأمر ميؤس منه»، قالت، بينما مالت بنظرها إلى البعيد. «لقد فعلت أقصى ما أمكنني. قلّدت كل shtuchki (الأفعال الصغيرة) خاصتها. أنا أبرع منها في التمثيل ولكن ليس هذا بكاف، أعرف. عد الآن، وإلا فإن زجاجة الكونياك ستغرقهم في الثَّمَل.»

أقحم يديه في فراء سوار كميْها الدافئين، وأمسك بها للحظة من مرفقيْها الرقيقيْن العاريين، متأملاً في شفتيْها المطليتيْن.

«قبلة واحدة، أرجوك»، قالت متوسلة.

«أتعدين بأن لا تفتحي فاك؟ وألّا تذوبي؟ ألّاترتعشي ولا تنتفضي؟»

«لن أفعل، أعدك.»

تردد. «لا»، قال فان. «إنه لإغراء جنوني، ولكن لا يجب أن أستسلم. لن أستطيع إكمال حياتي مع كارثة أخرى، أخت أخرى، ولا حتى نصف واحدة.»

« Takoe otchayanie (يا للخيبة!)»، ناحت لوسيت، ثم أعادت إحكام المعطف، بعد أن كانت قد فتحته غريزياً لاستقباله.

«أيعزّيك أن تعرفي أني لا أنتظر سوى العذاب من عودتها؟ وأني لا أرى فيك إلا طائراً من الجنة؟»

هزّت رأسها.

«وأن إعجابي القوي بك مؤلم جداً؟»

«ما أريده هو فان»، بكت، «وليس إعجاباً معنوياً ــ»

«معنوياً؟ أمغفلة أنت؟ يمكنك لمسه لمعرفة كم أصبح قياسه؟ يمكنك تفريشه لمرة واحدة بخفة، بأصابعك الرقيقة في قفازها. قلت لك قفاز. قلت مرة واحدة. كفى. لا يمكنني تقبيلك. ولا حتى تقبيل وجهك المشتعل. إلى اللقاء، يا حلوتي. أخبري إدموند أن يأخذ غفوة بعد أن يعود من توصيلك. سأحتاج إليه عند الثانية فجراً.»

مكتبة
t.me/t_pdf

٦

دار النقاش الهام ذاك حول مقارنة ملاحظات مسألة معينة، كان فان يحاول حلّها بطريقة أخرى، منذ عدّة سنوات. تمت معاينة العديد من حالات رهاب المرتفعات في عيادة كينغستون، لتحديد ما إذا كانت تحمل شكلاً أو أثراً من رهاب الزمن. أسفرت الاختبارات عن نتائج سلبية تماماً، ولكن ما بدا مثيراً للفضول أن الحالة الوحيدة المتوفرة لرهاب الزمن، كانت تختلف بطبيعتها - النكهة الميتافيزيقية، الطابع النفسي، وما إلى ذلك - عن تلك الخاصة بالخوف من المسافات. مما لا شك فيه أن ملاحظة مريض واحد قد فقد رشاده ممسوساً بنسيج الزمن، لم تكن إلا عينة قليلة جداً، وأصغر من أن تنافس الكوارث الكثيرة والعاتية التي سجلها رهاب المرتفعات، والقراء الذين اتهموا فان بالتهور والجنون (في مصطلحات راتنر الشاب المهذبة) سيكوّنون عنه رأياً آخر عندما سيعلمون أن محققنا الشاب قد بذل قصارى جهده لمنع السيد ت.ت. (المصاب برهاب الزمن) من الشفاء الكامل والعاجل، من مرضه النادر والمهم. كان فان مقتنعاً أن لا علاقة للمرض بالساعات والتقاويم، أو أي قياسات أو محتويات للوقت؛ بينما شكّ آملاً (كما لا يأمل إلا باحث نقي، شغوف، ولا إنساني في عمقه) أن يدرك زملاؤه في النهاية، أن رهاب

المرتفعات يقوم بشكل أساسي على تقدير خاطئ للمسافات، وأن السيد آرشين، أفضل مرضى هذا النوع، غير القادر على القفز من فوق كرسي، سيلقي بنفسه بكامل إرادته من قمة برج، إن استطعنا إقناعه من خلال بعض الحيل البصرية، أن شبكة رجال الإطفاء الموجودة في الأسفل، والممدودة على نطاق خمسين ياردة، هي بساط موضوع بضعة إنشات تحت قدميه.

قدّم لهم فان قطعاً من اللحم البارد، وغالوناً من بيرة غالووز - ولكن ذهنه كان في مكان آخر، ولم يشارك بشكل فعّال في المناقشة، التي ستبقى غير محسومة حتى آخر يوم في عمره، كلوحة مشوشة ومملّة.

غادروا حوالي منتصف الليل؛ كانت أصوات ثرثرتهم وصخبهم لا تزال مسموعة من فوق الدرج، حين بدأ محاولته للاتصال بآرديس - عبثاً، عبثاً. استمر في المحاولة من وقت إلى آخر، إلى أن استسلم عند الفجر، تبرّز برازاً مثالي البنية (تناظره صليبي الشكل قد ذكّره بالصباح الذي سبق مبارزته)، ثم، ودون أن يكلّف نفسه عناء وضع ربطة عنق (كل ربطاته المفضّلة كانت تنتظره في شقته الجديدة) بدأ قيادته نحو مانهاتن، دون أن ينتظر إدموند الذي أخبره أنه يحتاج إلى خمس وأربعين دقيقة بدل نصف الساعة، حتى يصل إلى ربع الطريق.

كل ما أراد قوله لآدا لا يزيد عن ثلاث كلمات بالإنكليزية، اثنتين بالروسية وواحدة بالإيطالية(١). ولكن بالنسبة لآدا، فإن محاولاته العديدة للاتصال بها في آدريس عبر الدوروفون بخطوطه المائية، هي ما أدى إلى اضطراب وهياج المدّ الذي سبب انفجار المرجلة في الطابق السفلي، وبالتالي انعدام وجود ماء ساخن في

(١) I love you، lyublyu tebya، teamo. (مترجم)

المنزل طوال الليل، ولا حتى عند الصباح، عندما استفاقت وطلبت من بوتييان (بوتييان العجوز المتحفظ في إبداء سروره!) أن يحملها مع أمتعتها إلى المطار.

في تلك الأثناء، وصل فان إلى جادة آليكس، استلقى في سريره لساعة، ثم قام للحلاقة والاستحمام، وكاد يكسر بقبضته الوحشية مقبض الباب المفضي إلى الشرفة، حين سمع صوت دوي محرّك سماوي.

على الرغم من القوة الرياضية التي تتمتع بها إرادته، وازدرائه للعاطفة المفرطة، ومقته لبكاء الضعف، إلا أن فان كان على أتمّ الدراية بكونه قد أصبح عرضة للانفجار في نوبات بكاء لا يمكن منعها ولا الشفاء منها (تشتّد في بعض الأحيان لتصير أشبه بنوبات الصرع، مع ولولات مفاجئة تهزّ جسده، وسوائل أنفية لا تنضب) منذ أن بدأت عذاباته بعد انفصاله عن آدا، العذابات التي منعه كبرياؤه ووعيه من أن يتوقّعها، حينما كان غارقاً في ملذات الماضي.

كانت طائرة أحادية السطح (مستأجرة، وهذا واضح من لون أجنحتها الصدفي، ومحاولات ربّانها غير الشرعية والمخفقة، للهبوط في وسط المركز الأخضر البيضاوي للمتنزه، للتلاشى في ضباب الصباح، وكأنه حلّق إلى مكان آخر بحثاً عن مجثم آخر) وقد انتزعت من فان أول تنهيداته عند صباح ذلك اليوم، بينما كان يقف، بثوب الحمام، فوق شرفته (التي أصبحت منمقة بشجيرات سبيريا "spiraea" المزهرة دائماً). بقي واقفاً في الشمس الباردة إلى أن أحس أن جلده جسده قد تحوّل إلى صفائح سميكة، كتلك الخاصة بالمدرّع[1]. شاتماً، وهازاً قبضتيه على مستوى صدره، عاد إلى دفء

---

(١) المدرع: أو الأرماديللو حيوان يعيش في جنوب الولايات المتحدة وأمريكا الوسطى والجنوبية حتى أورغواي، تغطي جسمه صفائح صلبة. (مترجم)

شقته، شرب زجاجة شمبانيا، ثم اتصل بروز، خادمة زنجية رشيقة، كان قد تشاركها، وبعدّة طرق، مع عالم الشيفرات الشهير، الذي تم مؤخراً تقليده وساماً، والذي يقطن في طابق أدنى، السيد النبيل، ديين. بمشاعر ملتبسة، واشتهاء لا يُغتفر، راقب فان كيف كانت مؤخرة روز الجميلة تتكور وتنقبض تحت عقدة الدانتيل الكبيرة، أثناء تسويتها السرير، بينما كانت همهمات سعيدة، صادرة عن عشيقها الأول في الطابق الأدنى، تُسمع من خلال أنابيب الراديātور (قام مجدداً بفك شيفرة برقية واصلة من طارطاريا، تخبر الصينيين عن مخطط هبوطنا القادم!). سرعان ما أنهت روز ترتيب الغرفة، ومهمة المغازلة. وعندما تحوّلت همهمات عالمنا (تحويل بسيط بالنسبة لرجل بمهارة ديين) إلى كريشندو زعقات دولية يمكن لطفل أن يفك شيفرتها، رنّ جرس المدخل، وفي اللحظة التالية، كانت آدا، تكبر آدا التي يعرفها بأربع سنوات، وتزيد عليها في بياض الوجه، وحمرة الفم، واقفة أمام فان المراهق أبداً، المتشنج والمختنق بدمعه، وكانت قد أرخت شعرها فوق فراء معطفها، الذي كان أغنى وأكثف من فراء أختها.

كان قد أعدّ واحدة من تلك العبارات، التي تبدو صحيحة في الأحلام، متلعثمة وركيكة في الحياة الواعية: «رأيتك تحلّقين في الفضاء فوق أجنحة يعسوب»؛ انهار عند الكلمة الأخيرة، وسقط فوق قدميها، عند مشطيها العاريين في حذاء أسود لامع، بذات الموقف - ذات ركام الحنان اليائس، ذات الإيثار، ذات الشجب لحياة شيطانية - الذي كان يستسلم له، بأثر رجعي، كلما أوغل في أبعد نقاط دماغه وأكثرها سرية، وتذكّر نصف ابتسامتها العصية على النسيان، عندما عدّلت وقفتها وأسندت كتفيها إلى جذع الشجرة النهائية. وضع الآن عامل مسرح خفي مقعداً لآدا كي تجلس. بكت، داعبت

خصلات شعره السوداء، بينما كان لا يزال رازحاً تحت نوبة من الحزن، الامتنان والندم. كان ذلك الوضع ليستمر طويلاً لو لم يتدخل جنون جسدي آخر كان يغلي في دمه منذ يومه السابق، ليهب العاشقيْن إلهاءً مباركاً.

كما لو أنها قد هربت للتو من قصر محترق ومملكة متهالكة، كانت ترتدي قميص نوم مجعّداً بنياً داكناً، معطفاً أشيباً لامعاً من فراء قضاعة بحرية، الـ kamchatstkiy bobr بلغة تجار إستوتيا القدماء، ويعرف أيضاً بـ lutromarina فوق ساحل لياسكا: «فرائي الطبيعي»، قالت مارينا، زاهية، عن معطفها الذي ورثته عن إحدى سالفاتها من آل زيمنسكي، عندما، وعند الانصراف من حفلة راقصة شتوية، علّقت سيدة ترتدي معطفاً من فراء المنك، أو الكيب[1] (coypou)، أو ربما معطف كاستور قصير (قندس، ne-metskiy bobr)، بشهيق ذاهل، على الـ bobrovaïa chouba[2] «Staren'kaya (شيء بسيط قديم)»، أضافت مارينا بلهجة متعالية ولكن رقيقة («شكراً»، نطقت بها سيدة بوسطن من بطن المنك البالي، ردّاً على ثناء مهذّب - لم يمنعها فيما بعد من شجب تبجح تلك الممثلة المتكبرة، التي كانت في الواقع، أقل المخلوقات ولعاً بالتفاخر). أما الـ bobri (صيغة الجمع الأميرية لـ bobr) خاصة آدا، فكان هدية من ديمون الذي، كما نعرف، كان في الآونة الأخيرة يلتقي بها في الولايات الغربية أكثر مما فعل في شرق إيستوتي لاند، عندما كانت طفلة. تلك الحماسة الغريبة قد طوّرت لديه تجاهها ذات الحنان الذي كنّه دائماً وأبداً لولده فان. كان تعبيره الجديد عن مشاعره تجاهها يحمل من

---

(١) المنك والكيب: أسماء حيوانات ثديية ذات فراء. (مترجم)

(٢) bobrovaïa chouba: معطف الفراء.

الاهتمام الزائد ما يكفي لدفع الحمقى الفضوليين للشك في كون ديمون العجوز «يضاجع ابنة أخيه» (كان في الواقع يزداد انشغالاً بالشابات الإسبانيات، اللواتي بتن يصغرن أكثر فأكثر، كل عام، وحتى نهاية القرن؛ وحين أصبح في الستين من عمره، بشعر مصبوغ بالأسود الكالح، كانت عشيقته حورية عذراء في العاشرة من عمرها، لا تُحتمل). قليلون هم من أدركوا الوضع الدقيق والحقيقي لتلك العلاقات، حتى أن كوردولا توباك، من آل براي، وغرايس ويلينغتون من آل إرمينين، كانتا تقولان عن ديمون فيين، بلحيته العصرية وقميصه المكشكش: «خلف فان».

لم يتمكن أي من الشقيقيْن فيما بعد، من تذكّر (وكل ما ذكر آنفاً، عن قضاعة البحر وغيرها من الأمور، لا يمكن اعتباره مراوغة من قبل الراوي - لقد قمنا، في الوقت المتاح لنا، بأمور أكثر صعوبة) ما قالاه، كيف تبادلا القبل، كيف سيطرا على دموعهما، كيف مشى بها نحو الأريكة، فخوراً بإظهار ردّة فعله المباشرة تجاه ثوب نومها الضيّق (تحت فرائها الملتهب) كالذي رآها ترتديه، حاملة شمعتها، في لوحة النافذة السحرية.

كان على وشك الانتقال إلى المرحلة التالية من نفاد الصبر المجنون، بعد أن أولم، بشراسة، على عنقها وحلمتيْها، ولكنها أوقفته، متذرّعة بوجوب أخذها لحمامها الصباحي (إنها حقاً لآدا جديدة)، كما أنها، علاوة على ذلك، كانت تتوقع وصول حقائبها في أي لحظة، يحملها مغفّلو صالة «موناكو» (كانت قد أخطأت المدخل - في النهاية أعطى فان بوّاب كوردولا المخلص بقشيشاً ليحمل الحقائب إلى الطابق العلوي). «أسرع، أسرع!»، قالت آدا، «da، da، ستخرج آدا من الرغوة خلال ثوانٍ». أسقط فان المجنون، والعنيد، ثوب حمامه عنه، ولحق بها إلى الحمام، حيث

كانت قد مدّت جسدها، عبر الحوض، لفتح الصنبورين، ثم انحنت أكثر لتحرير السدادة ذات السلسلة البرونزية، التي علقت فوق البالوعة من تلقاء نفسها، بينما كان هو يثبّت قيثارة آدا، متحمساً بذكره جذر لسانها الطري كجلد الظباء، لتبتلعه، دفعة واحدة، بين شفتيها القرمزيتيْن، المألوفتيْن، اللتين لا يمكن مقارنتهما بشفاه أخرى أبداً. أمسكت آدا بصليبَي الصنبورين، مما أدى إلى ارتفاع غير مقصود في هدير الماء المتدفق والحنون، ونفث فان تأوهات ذروة طويلة. كانت عيونهما الأربع تنظر مجدداً إلى نقاء مياه جدول «باينديل»، وإذ بلوسيت تفتح الباب، بعد أن نقرته خفيفاً، ثم توقّفت، مفتونة برؤية مؤخرة فان الشعرانية، والندبة المخيفة فوق خاصرته من جهة اليسار.

أغلقت آدا الصنبورين. كانت الحقائب قد بُعثرت في كل مكان في الشقة.

«أنا لا أنظر»، قالت لوسيت، «لقد مررتُ فقط من أجل صندوقي.»

«أعطهم بقشيشاً يا عزيزتي»، قال فان السخي، «وناوليني تلك المنشفة»، أضافت آدا، ولكن الخادمة كانت مشغولة بالتقاط القطع المعدنية، التي وقعت أرضاً بسبب عجالتها. جاء دور آدا الآن لرؤية السلالم القرمزية لقطب جرح فان الكبير - «أوه يا حبيبي المسكين!»، قالت باكية، ثم سمحت له، مدفوعة بتعاطف نقي، أن يكرر الأداء الذي هدّد دخول لوسيت بمقاطعته.

«لست متأكدة من أني أحضرت لها أقلامها الملعونة»، قالت آدا بعد لحظات، بوجه ضفدع ممتقع.

كان يراقبها بإحساس من النعيم له رائحة صنوبر زاكية، عندما

كانت تضغط قارورة Pennsilvestris[1] في ماء الحوض. رحلت لوسيت (تاركة ملاحظة مقتضبة تحمل رقم غرفتها في فندق وينستر، الخاص بالشابات) عندما جلس عاشقانا، المرهقان والمحتشمان الآن بأثواب الحمام، لتناول فطور رائع (لحم الخنزير المقدّد الهش الخاص بآرديس! عسل آرديس الشفاف!)، وقد حمله نحو الأعلى فاليريو، عجوز روماني له شعر بلون الزنجبيل، سيّئ الحلاقة دائماً ومتجهّم، ولكنه عجوز طيب جداً (وهو أيضاً القواد الذي وظّف روز النظيفة، وقبض مبلغاً محترماً لإبقائها مخصصة لفيين وديين فقط).

يا للضحكات، يا للدموع، يا للقبل الدبقة، يا لضوضاء العديد من الخطط! يا للأمن، ويا لحرية الحب! كان هنالك في حياة فان محظيتان غجريتان لا تربطهما صلة؛ فتاة برية بزي لوليتا مبهرج، بفم بلون الخشخاش وبزغب أسود، وقد التقطها من مقهى بين غراس ونيس، وأخرى، تعمل عارضة بدوام جزئي (رأيتموها في إعلانات Fellata تداعب أحمر شفاه ذكري)، لها لقب يناسبها: Swallowtail[2]، أطلقه عليها العاهرات المقيمات في «زهرة حب» نورفك، وكانت كل منهما قد قدمت لبطلنا البرهان ذاته، غير المذكور في سجل الأسرة، على كونه عقيماً رغم فحولته. مأخوذاً بذلك التشخيص الهيكاتيني[3]، خضع فان لعدة فحوص، خوفاً من أن يكون فحصاً واحداً محكوماً بمصادفة ما، ورغم ذلك أكّد كل الأطباء أن باستطاعة فان أن يكون عاشقاً ممتازاً ولكن من دون أدنى أمل بالإنجاب.

---

(١) Pennsilvestris: Pinus silvestris أي صنوبر بري، ولكن الاسم يحمل تورية تشير إلى أمرين: الأول Pinus أي عضو ذكري، والثاني Pine أي صنوبر. (مترجم)

(٢) Swallowtail: فراشة خطافية الذيل. (مترجم)

(٣) هيكات: أو هيكاتي، آلهة السحر والشقاق عند الإغريق. (مترجم)

بأي فرح صفّقت آدا يديها!

أرغبتْ بالبقاء في الشقة حتى الفصل الدراسي الربيعي (كانت معايير الوقت كلها قد اختلفت بوجودها) ثم بمرافقته إلى كينغستون؟ أم أنها فضّلت السفر إلى الخارج لبضعة أشهر - إلى أي مكان، باتاغونيا، آنغولا، غولولو في جبال نيوزيلاند؟ أتبقى في هذه الشقة؟ تراها أحبتها؟ باستثناء بعض أغراض تخص كوردولا التي كان يفترض بفان أن يتخلص منها - كألبوم الصور الخاصة بثانوية براون هيل، والذي بقي مفتوحاً على صورة فانادا المسكينة، التي ماتت مقتولة برصاصة على يد صديقة إحدى صديقاتها، تحت سماء رغوس المرصعة بالنجوم. كان أمراً محزناً، قال فان. أتكون لوسيت قد أخبرته عن أمر مغامرة لاحقة؟ ملمّحة، من خلال تورية ما، وفي نوبة من الجنون الأورفيلي، إلى حشفة أنثوية؟ هاذرةً بمتع انتصاب البظر؟ «دعنا من المبالغة، فأنت تعرف»، قالت آدا، مشيرة إلى فان بكفّيها المبسوطتين في الهواء كيّ يهدّئ من حماسته. «لقد أكّدت لي لوسيت»، قال فان، «أن الشابة (آدا) كانت تقلّد أسود الجبال.»

كان منفتحاً على كل العلوم، أو بالأحرى، على كل العلاقات حتى السفاح.

«هذا صحيح»، قالت ذات الذاكرة المعصومة.

وبالمناسبة، كانت غرايس، أجل غرايس، هي المفضّلة عند فانادا، وليس أنا، الصغيرة بثديين صغيرَيْن. لقد عرفتْ (آدا) كما لم يعرف أحد فن كيّ ثنايا الماضي المزعجة، ألم تكن هي من جعلت من عازف الناي عنيناً (ما لم يكن مع زوجته)، وسمحت للمزارع النبيل بعناق واحد فقط، مع eyakulyatsiya[1] سريع سابق لأوانه؟ أجل إنها لكلمة روسية دخيلة بشعة.

---

(١) eyakulyatsiya: قذف بالروسية. (مترجم)

كم كانت شنيعة! ولكنها وبكل بساطة، ستعود إلى لعب السكرابل بعد أن يستقر وضعها مع حبيبها مجدداً. ولكن أين؟ وكيف؟ ألا يمكن لهما أن يقدما نفسيهما على أنهما زوجان في أي مكان؟ وماذا عن «عازب/ة» في جواز سفر كل منهما؟ كان عليهما الذهاب إلى أقرب قنصلية ليصرخا اعتراضاً، أو يقومان برشوة أحدهم، لتبديل الكلمة إلى «متزوج/ة»، إلى الأبد.

«إنني حقاً لفتاة طيبة. ها هي أقلامها الخاصة. كان اهتماماً رائعاً من لدنك، وساحراً، أن تدعوها للعشاء في عطلة الأسبوع القادم. أظن أنها مغرمة بك أكثر من غرامها بي، تلك الصغيرة المسكينة. لقد أحضر ديمون لها تلك الأقلام من ستراسبورغ. في النهاية، إنها الآن نصف عذراء» («لقد سمعت أنك وأبي ـــ»، قال فان، ولكن مقدّمة موضوعه الجديد قد تمّ إسقاطها) «ولن نخشى من أن تشهد حفلات سمرنا[1]» (تعمّدت أن تنطق الكلمة الأخيرة بلهجة روسية، وبهمجية منتصر، مضيفة بذلك قيمة إلى النثر الذي أكتبه).

«أنت ستلعبين دور البوما، أما هي، وبغرض الوصول إلى كمال المشهد، ستلعب دور سوردينا[2] الكمان خاصتي. إنها بالمناسبة مقلّدة بارعة، ولو أنك كنتِ أفضل ـــ»

«سنتحدّث عن مواهبي وحيلي في وقت آخر.» قالت آدا. «إنه موضوع مؤلم. والآن، دعنا ننظر إلى تلك اللقطات!»

---

(١) حفلات سمرنا: وردت الكلمة في النص الأصلي باللغة الفرنسية ébats، والكلمة ذاتها ebat' بالروسية تعني مضاجعة. (مترجم)

(٢) سوردينا: جِهاز يُخفِّف به صَوت الآلات الموسيقيّة. (مترجم)

٧

ذات مرة، خلال إقامتها الكئيبة في آرديس، جاء كيم بوهارنيس، الذي كان قد تغير بشكل ملحوظ، وتضخّم، مطالباً برؤية آدا. حمل تحت ذراعه ألبوم صور قد لفّه بشريط قماشي برتقالي، بدرجة اللون التي كرهتها طوال حياتها. لم تكن قد رأته خلال السنتين الأخيرتيْن أو ربما الثلاث. الفتى الرشيق، النحيل، ذو البشرة الشاحبة، الذي كان شكله قد تحول إلى تمثال ضخم، يشبه قليلاً إنكشارياً في أوبرا غريبة، يدخل المشهد ليعلن عن غزو أو إعدام. العم دان، الذي خرج لتوّه فوق كرسي عجلات تجره ممرضة أنيقة ومغرورة إلى الحديقة حيث تساقطت الأوراق النحاسية والحمراء بلون الدم، كان قد طالب غاضباً بحصوله على ذلك الكتاب، ولكن كيم أجابه «ربما لاحقاً»، ثم انضمّ إلى آدا في ركن قاعة الاستقبال.

كان قد أحضر لها هدية، مجموعة من الصور التي التقطها في الأيام الخوالي السعيدة. كان يأمل لو أن تلك الأيام تعود لعهدها، وتستأنف مسارها. كان يعرف أن السيد ابن عمها (تحدث بلهجة كريولية غليظة، معتقداً أنها تُستخدم في ظروف خاصة ونادرة، إذ إنها تليق بها أكثر مما تفعل الإنكليزية اليومية في لادور) لن يعود إلى زيارة القصر قريباً، وعليه فإن لا تعديلات ستطرأ على الألبوم، وبذلك قد

يكون الحل الأفضل لكل من تجمعهم هالة واحدة (المحاطين بالظلال، أو بالأحرى، المعنيين)[1] أن تحتفظ آدا بالوثيقة المصوّرة (أو تمزقها أو تنساها، وبذلك لن يتأذى أحد)، التي أصبحت الآن بين يديها. نقرت آدا الغلاف الجميل، ثم فتحت الألبوم على صفحة حيث وُضعت واحدة من علامات كثيرة، كستنائية اللون، قد حشرت عمداً بين صفحات معيّنة. ألقت نظرة سريعة واحدة، أعادت قفل المشبك، سلّمت المبتز المبتسم ألف دولار كانت تحملها بالصدفة في حقيبتها، ثم استدعت بوتييان وطلبت منه رمي كيم خارجاً. بقي سجل القصاصات ذاك، بغلافه طيني اللون، فوق المقعد، تحت وشاحها الإسباني. بركلة من نعله، أزاح الخادم العجوز ورقة خزامى قد جرفها تيار الهواء من منطقة المستنقعات، أغلق الباب الأمامي ثانية، ثم قال متمتماً في طريق عودته إلى المطابخ:

«ما كان يصح للآنسة أن تستقبل ذاك الوغد أبداً.»

«هذا بالضبط ما كنت على وشك قوله»، قال فان عندما انتهت آدا من روايتها السيئة.

«أكانت صوراً قذرة؟»

«آخ!»، زفرت آدا.

«كان يمكن لذلك المال أن يخدم قضية أكثر استحقاقاً، مأوى لعميان المهور، أو السندريلات العجائز.»

«يا لغرابة ما تقول!»

«لمَ؟»

---

(١) لكل من تجمعهم هالة واحدة (المحاطين بالظلال، أو بالأحرى، المعنيين): تلاعب لفظي في النص الأصلي بين cernés الفرنسية، أي المحاطين بهالة، و concerned الإنكليزية، وتعني المعنيين. (مترجم)

«غير مهم، ما يهم هو أن ذلك الشيء المشؤوم قد أصبح في مأمن الآن. كان عليّ أن أدفع ثمنه، وإلا لكان عرض على مارينا المسكينة صور فان أثناء غوايته لابنة عمه الصغيرة آدا - وهذا لن يسعدها أبداً؛ في الواقع، ربما يكون، باعتباره الصقر العبقري، قد عرف الحقائق كاملة.»

«هل حقاً تعتقدين، باعتبارك قد دفعت له ذلك المبلغ السخيف، أنه قد أتلف كل الأدلة، وأن الأمر قد سُوّي بالكامل؟»

«لم؟ أجل. أتظنه مبلغاً تافهاً؟ أيجب عليّ إرسال المزيد؟ أعرف أين أجده. إنه يحاضر، من بعد إذنك، في فن قنص الحياة، في مدرسة كالوغانو للتصوير.»

«مكان جيد للقنص»، قال فان. «إذاً، أمتأكّدة أنك تملكين ذلك الشيء الوحشي؟»

«طبعاً، إنه معي، في قاع تلك الحقيبة. سأريك إياه في لحظات.»

«قولي يا حبي! ما كان معدلك لما يعرف بـ .I.Q[1] عندما التقينا لمرتنا الأولى؟»

«أعلى من مئتيْن. رقم فلكي.»

«حسناً، يبدو أنه الآن قد تقلّص إلى حد رهيب. ذلك المتلصص قد احتفظ بكل المسودات، إضافة إلى كثير من الصور التي سيلصقها، أو ينشرها لاحقاً.»

«أتعني أنه انخفض إلى مستوى ذكاء كوردولا؟»

«لا بل أدنى. والآن دعينا نلقي نظرة على تلك اللقطات - قبل أن نقرّ راتبه الشهري.»

---

(١) .I.Q: نسبة الذكاء. (مترجم)

الصورة الأولى في تلك السلسلة الشريرة، قد عكست أحد أول انطباعات فان عن قصر آرديس، من زاوية تختلف عن تلك التي يتذكرها. التُقطت بين ظلال عربة قد وقع فوق أرضية الحصى فأعتمها، وبين الدرجة البيضاء لشرفة الأعمدة، المتوهجة تحت أشعة الشمس. مارينا، بذراع لا تزال في كم المعطف، مع خادم (برايس) يساعدها في خلعه، كانت واقفة، بذراع حرة واحدة، مرحّبة به بإيماءة مسرحية (بتباين كلّي مع تكشيرة حبور ميؤوس منه، قد زادت من تجاعيد وجهها)، بينما ارتدت آدا سترة هوكي سوداء - تعود فعلاً لفانادا - وقد سكبت شعرها فوق ركبتيْها المثنيتيْن والعاريتيْن، مع داك في حضنها، وكانت تربّت فوقه بباقة زهور قد حملتها بين يديها، لتخفف من هياج نباحه.

ثم جاءت عدة مناظر تمهيدية للأماكن المحيطة: بستان القنصور، جادة، مغارة O الأسود، والتل، والسلسلة الكبيرة حول جذع السنديانة النادرة، سنديانة قط رسلان[1]، وعدد من البقع التي التقطها جامع الكتيبات المصورة، بهدف إظهار سحرها، ولكنها بدت سيئة ومشوشة، بسبب قلة خبرته في التصوير آنذاك.

تحسّنت تدريجياً.

فتاة أخرى (بلانش) انحنت مقرفصة كآدا تماماً (وبالحقيقة لا تختلف عنها بالسمات أيضاً) فوق حقيبة فان المفتوحة فوق الأرض، وكانت «تلتهم بعينيْها» الصورة العارية لإيفوري ريفوري في إعلان عطر. ثم الصليب وظلال الأغصان فوق قبر مدبرة منزل مارينا، العزيزة آنا بيمينوفنا نبراسلينوف (١٧٩٧-١٨٨٣).

---

(١) سنديانة قط رسلان: تلميح إلى رسلان ولودميلا لبوشكين، والقط المذكور في بداية القصيدة الطويلة. (مترجم)

لن نشرح بالتفصيل لقطات الطبيعة - الظربان ذو الرائحة الكريهة، السمكة المخطّطة في خزان من الفقاعات، والكناري في سجنه الجميل.

صورة للوحة بيضاوية، وقد تقلّصت إلى حدّ كبير، تظهر فيها الأميرة صوفيا زيمسكي في عامها العشرين، ١٧٧٥، تحمل طفليْن (جدّ مارينا المولود عام ١٧٧٢، وجدة ديمون، المولودة عام ١٧٧٣).

«لا يبدو أني أذكر هذه اللوحة. أين تراها كانت معلقة؟» سأل فان.

«في مخدع مارينا، وهذا السكير المرتدي عباءة، هل عرفت من يكون؟»

«تبدو وكأنها صورة سيئة مقتطعة من مجلة، من يكون؟»

«ذلك الـ Sumerechnikov[١]، قد أخذ صوراً للعم فانيا عدّة سنوات خلت.»

«الشفق قبل طلوع الضوء. انظري هنا! إنه ألونسو، خبير أحواض السباحة. التقيت بابنته الحلوة الحزينة في حفلة مجون. كانت تشبهك في الملمس، في الرائحة، وفي الذوبان. سحر الصدف القوي.»

«لا يهمني الأمر. هنا يأتي صبي صغير.»

«Zdraste[٢]، إيفان ديمينتيفيتش!»، قال فان مرحباً بصورته في

---

(١) Sumerechnikov: الاسم مشتق من sumerki الكلمة الروسية التي تعني الشفق، ويحمل الاسم تلميحاً إلى الأخوين lumieres، المصورين الفرنسيين، الكنية التي أيضاً تعني الضوء بالفرنسية. (مترجم)

(٢) Zdraste: مختصر zdravstvouïté وتعني صباح الخير بالروسية. (مترجم)

الرابعة عشرة من عمره، بسروال قصير، من دون قميص، يصوّب قذيفته مخروطية الشكل، ليرسم لوحة تنبُّئية، تظهر فيها فتاة من القرم، محكوم عليها أن تسقي جندياً يموت رشفةَ مياه مرمرية من جرتها الفخارية المتصدّعة.

تجاوزا صورة قفز الحبل من دون تعليق.

آه! صورة عصفور الدوري الشهير.

«كلا، إنها kitayskaya punochka (لوحة قماش صينية)، كانت مثبتة فوق عتبة باب القبو. الباب مفتوح قليلاً. في الداخل كثير من أدوات البستنة ومضارب الكروكيت. أنت تذكر طبعاً كم من الحيونات الغريبة، الأبية والقطبية قد اختلطت مع تلك العادية الخاصة بمنطقتنا.»

وقت الغداء. آدا منحنية تلتهم حبة دراق تقطر عسلاً، مقشرة بطريقة سيئة (لقطة مأخوذة من الحديقة، من خلال النافذة الفرنسية).

دراما وكوميديا. بلانش تعبث مع عاشقيْن غجرييْن، تحت تعريشة القنصور. العم دان يقرأ صحيفة بهدوء في سيارته الحمراء الصغيرة، العالقة في الطين الأسود فوق طريق لادور، من دون أمل بخلاصها. اثنتان من عثّات الطاووس العملاقة، أثناء تزاوجهما. كان الرعيان والبستانيون يجلبون لآدا كل سنة تلك الأصناف الشائعة؛ التي، بشكل أو بآخر، تذكرنا بالفراشات التي رسمتها أنت، الجميل ماركو آندريا، أو أنت، دومينيكو بينتشي ذو الشعر الأحمر، أو أنت، جيوفاني ديل برينا، الأسمر الحالم (الذي كان يظن أنها خفافيش) أو ذلك الذي لا أجرؤ على ذكر اسمه (إذ كان مساهمة لوسيت العلمية - كم تسهل الإساءة إلى أمور كتلك بعد موت الباحث) الذي، بالمثل أيضاً، في صباح أحد أيام مايو عام ١٥٤٢، بالقرب من فلورنسا، قد وجد عند أسفل جدار بستان، تتدفق فوقه

سيول من الوستارية[1] المستوردة (إضافة لوسيت) عثّتيْ طاووس تتزاوجان، مع قرون استشعار زغبية عند الذكر، وخطوط واضحة عند الأنثى، فالتقطهما ورسمهما بإخلاص (من جملة حشرات أخرى هزيلة وغير مرئية) فوق الدرفة المغلقة من نافذة «غرفة العناصر» في قصر فيكيو.

الشروق في آرديس. تهانينا: فان لا يزال مشرنَقاً في أرجوحته الشبكية، الـ"lidderons"، كما اعتادوا أن يطلقوا على شجرة القيثاري في آرديس، وليس lit d'édredon[2]، رغم استحقاقها لتورية شفقية، إذ كانت تساعد في التمويه عن مشاعر المراهق الحالم، التي لم يلحظها أحد بفضل شباكها.

«تهانينا»، كرّر فان بلهجة رجل. «أول بطاقة بريدية بذيئة. ذلك الشبق الدنيء لا بد أنه يحتفظ بنسخة خاصة أخرى في رصيده.»

عاينت آدا خطوط شبكة الأرجوحة بمساعدة عدسة مكبّرة (يستخدمها فان عادة لفكّ رموز بعض التفاصيل الخاصة برسومات مرضاه المجانين).

«أخشى أن هنالك المزيد»، قالت آدا بصوت من اكتشف أمر ما؛ مستفيدة من استعراضهما للألبوم داخل السرير (الأمر الذي نعتبره في أيامنا هذه مفتقراً للذوق العام) وجّهت غريبة الأطوار آدا العدسة المكبرة إلى فان «الحي»، الأمر الذي كانت تفعله مراراً مدفوعة بفضول طفولي علمي، منحرف فنياً، في ذلك العام الفضيل، المؤطر في تلك الصور.

«سأجد لصاقة لإخفائه»، قالت آدا بينما عادت لتنظر شزراً إلى

---

(١) وستارية: نبات مزهر متسلق. (مترجم)

(٢) lit d'édredon: سرير بلحاف، بالفرنسية. (مترجم)

النامية اللحمية العارية، الناتئة من بين الشباك. «بالمناسبة، لديك مجموعة من الأقنعة السوداء في خزانتك».

«للحفلات التنكرية»، تمتم فان.

صورة تخدم المقارنة: فخذا آدا الأبيضان والمكشوفان (كانت تنورة عيد ميلادها قد تشابكت مع الأغصان والأوراق) يمتطيان طرفاً أسود من شجرة عدن.

بعد ذلك: عدّة لقطات من نزهة عام ١٨٨٤، كتلك التي ظهرت فيها آدا ترقص مع غرايس على أنغام لياسكانية، أو تلك الملتقطة لفان أثناء مشيه رأساً على عقب، يقضم عشباً تحت شجرة الصنوبر (تحديد تخميني).

«هذا ما لن نراه مرة أخرى»، قال فان؛ «فالعصب اليساري الثمين، قد توقف عن العمل. ما زال بإمكاني تسديد لكمات قوية، ولكن عهد المشي على اليدين قد ولّى. غير مسموح أن تنْشِقي. آدا لن تبكي وتنوح. يقول كينغ وينغ إن فيكشيلو العظيم قد عاد ليصير شاباً عادياً في ذات سني، فالأمر طبيعي إذاً. آه! بن رايت المخمور يحاول اغتصاب بلانش في الإسطبلات. لم تكن هي الحمل الوديع في تلك المهزلة.»

«إنه لا يقوم بأمر من هذا القبيل. ألا ترى أنهما يرقصان؟ إنهما يبدوان كالجميلة والوحش في الحفلة التي أضاعت فيها سندريلا جوربها، وأضاع الأمير حزامه الزجاجي. ويمكن لك أن تلاحظ السيد وارد والسيدة فرينش في brueghelish kimbo (رقصة فلاحية) في أبعد زاوية من الصالة. كل قصص الاغتصابات الريفية التي وصلتنا مبالغ فيها. بكل الأحوال، كانت تلك آخر المفرقعات التي أطلقها السيد بن رايت في آرديس.»

آدا في الشرفة (التقطها المصور البهلواني من حافة السطح)

ترسم إحدى زهراتها المفضلة، ساتريون[1] من لادور، منتصب، لحمي، يغطيه المخمل. ظنّ فان أنه تذكر ذلك المساء المشمس، تذكّر الإثارة، النعومة، وبعض الكلمات العارضة التي تمتمت بها (تتعلق بتوافه نباتية): «زهرتي تتفتح عند الغسق فقط». الزهرة التي كانت دائماً تلوّنها بالبنفسجي.

صورة رسمية، فوق صفحة منفصلة: آدوشكا، جميلة وخليعة في ثوبها الرقيق، وفانيشكا في بزة رمادية، مع ربطة العنق المخططة خاصة المدرسة، جنباً إلى جنب في مواجهة آلة التصوير، مع ظلال تكشيرة إجبارية فوق فم فان، أما هي، فبوجه خال من التعابير. تذكّر كل منهما مناسبة التقاط تلك الصورة وزمنها (بين أوّل صليب، ومقبرة كاملة من القبل): أمرت بها مارينا، التي أطّرتها واحتفظت بها في غرفة نومها بجانب صورة أخيها في عامه الثاني أو ربما الرابع عشر، مرتدياً bayronka (قميص مفتوح)، يحمل بين يديه خنزيراً هندياً[2]؛ كان الناظر ليظن أن ثلاثتهم أشقاء، لولا وجود صورة الأخ، كحجة مشوهة.

التُقطت صورة أخرى في ذات الظروف ولكن لسبب ما، رفضتها مارينا المزاجية: آدا جالسة تقرأ إلى طاولة ثلاثية القوائم، تخفي قبضتها المشدودة الجزءَ السفلي من الصفحة، وقد ظهرت فوق شفتيها البربريتيْن ابتسامة نادرةجداً، مشعة، لا مبرر واضح لها. عبر ترقوتها، انساب شعرها جزئياً فوق ظهرها. وقف فان برأسه المائل صوبها، ناظراً، دون أن يرى شيئاً، إلى كتابها المفتوح. في كامل وعي متعمّد، وعند صوت النقر تحت الآلة ذات الغطاء، جمع في

(١) ساتريون: من أصناف الأوركيد. (مترجم)

(٢) خنزير هندي: أو كابياء خنزيرية، من القوارض. (مترجم)

ذهنه الماضي القريب مع المستقبل الوشيك، وظنّ في نفسه أن تلك اللحظة ستبقى إدراكاً موضوعياً للحاضر الحقيقي، وأن عليه أن يتذكّر للأبد نكهة، ومضة، ولحم الحاضر ذاك (كما تذكره حقاً بعد ست سنوات - وكما يتذكره الآن، في النصف الآخر من القرن التالي).

ولكن ماذا عن تلك الشفتيْن المعشوقتيْن، وإشعاعهما النادر؟ السخرية البراقة التي يمكنها أن تتحول بسهولة، عبر أقصى درجات الغبطة، إلى نظرة انتشاء:

«أتعرف يا فان أي كتاب هذا؟ - الموضوع بجانب مرآة يد مارينا وزوجيْن من الملاقط؟ سأخبرك. إنها إحدى أتفه الروايات المبهجة التي صنعت مادة الغلاف في تايمز مانهاتن. أنا متأكدة أن كوردولا تحتفظ بنسخة منها في ركنها المريح، حيث جلستما رأساً إلى رأس، بعدما هجرتني.»

«رواية القطة»، قال فان.

«لا بل أسوأ. حتى أن رواية 'قط بيكستاين[1] العجوز' تعتبر تحفة إذا ما قورنت بالرواية التي أقصدها. إنها 'حب تحت شجرة الدردار[2]'، كتبها شخص يدعى إيلمان[3] ونقلها إلى الإنكليزية توماس غلادستون، الذي كان يعمل لمصلحة دار 'باكرز آند بورترز[4]'، إذ إن

---

(١) بيكستاين : تلميح إلى جون ستاينبيك (١٩٠٢-١٩٦٨)، الكاتب الأمريكي الشهير الحائز على نوبل للآداب ١٩٦٢. (مترجم)

(٢) حب تحت شجرة الدردار: تلميح إلى رواية رغبة تحت شجرة الدردار للكاتب الأمريكي أوجين غلادستون أونيل (١٨٨٨-١٩٥٣) الحاصل على نوبل للآداب ١٩٣٦. (مترجم)

(٣) إيلمان: تلميح إلى الكاتب الألماني توماس مان (١٨٧٥-١٨٥٥). (مترجم)

(٤) باكرز آند بورترز: تلميح إلى هيلين ترايسي لوو بورتر (١٨٧٦ ١٩٦٣)، الكاتبة والمترجمة الأمريكية، والتي اشتهرت بترجمة أعمال توماس مان إلى الإنكليزية. (مترجم)

آدوشكا، آدوفا، دوشكا (فتاة من الجحيم) قد قرأت فوق صفحة كلمة 'automobile' وقد تحوّلت إلى 'wagon'. تخيل أنه كان على لوسيت الصغيرة أن تدرس إيلمان، وثلاثة نماذج على شاكلة توماس، ضمن دروس الأدب التي تلقّتها في لوس أنجلوس!»

«أنت تذكرين تلك القمامات وأنا أذكر قبلنا التي هطلت لثلاث ساعات من دون كلل 'تحت الآركس'.»

«لننظر إلى الصورة التالية»، قالت آدا بتجهّم.

«الوغد!»، قال فان. «لا بد أنه كان يزحف على بطنه وراءنا مع كامل عتاده. سأقضي عليه!»

«لا مزيد من العنف يا حبيبي! الحب فقط!»

«ولكن انظري يا فتاة! أنا في هذه الصورة ألتهم لسانك، وفي تلك يلتصق لساني بحلقك، و ــ»

«استراحة!»، قالت آدا متوسّلة. «سريعة، سريعة.»

«أنا رهن رغباتك إلى أن أصير في التسعين من عمري»، قال فان (كانت بذاءة الصورة جذابة ومثيرة)، «تسعين مرة في الشهر، وبحرارة عنيفة.»

«فلتكن أكثر عنفاً! وأكثر عدداً! لنقل مئة وخمسين! وهذا يعني، هذا يعني ــ»

ولكن في غمرة العاصفة المفاجئة، طارت الحسابات نحو شياطين الجحيم.

«حسناً»، قال فان عندما عاد إلى رشده، «لنعد إلى طفولتنا المشوّهة. يقلقني هذا العبء (ملتقطاً الألبوم عن السجادة جانب السرير) وأريد التخلّص منه. آه! شخصية جديدة. تقول الكتابة: الدكتور كروليك.»

«انتظر لحظة! ربما يكون الخط متلاشياً، إنه غير واضح على الإطلاق. حسناً، أجل! هذا هو المسكين، أستاذي للطبيعة.»

بسروال قصير، وقبعة باناما، يسعى وراء babochka (فراشة بالروسية) شغوفاً، لا بل مريضاً بها. وما يمكن لديانا أن تعرف عن مطاردة كهذه؟

«يا للغرابة، في الوضعية التي التقطها له كيم، يبدو أقل شعرانية وسمنة مما كنت أتخيّل. في الواقع يا حبيبتي، إنه كأرنب آذار بري قوي، كبير، أنيق وعجوز! اشرحي لي!»

«لا يوجد شيء للشرح. لقد سألت كيم مرة أن يساعدني في نقل الصناديق إلى هناك ثم العودة بها، وهذا هو الدليل المرئي. إضافة إلى أن هذا ليس بكروليك، بل أخيه، كارول، أو كاراباراس، كروليك. بروفيسور في الفلسفة، وُلد في تركيا.»

«كم أحب عينيك حين تضيقان عند تأليفك لكذبة ما! سراب بعيد لوقاحة تافهة.»

«أنا لا أكذب!» - (قالتها بعنفوان جميل) «إنه بروفيسور في الفلسفة.»

«فان أيضاً»، تمتم فان، بلهجة مارينا الروسية.

«حلمنا الغالي!»، استطردت آدا، «أقصى ما حلمنا به أنا وكروليك هو أن نصوّر ونصِفَ مراحل النمو المبكّرة، من البويضة إلى الخادرة، لكل فراشات الـ Fritillaries المعروفة، كبيرها وصغيرها، بداية مع تلك الموجودة في العالم الجديد. كنت سأصبح المسؤولة عن argynninarium[1] (عبارة عن مبنى حاضن لتكاثر

---

(١) argynninarium: مشتق من Argynnini، الاسم العلمي لفراشات Fritillaries. (مترجم)

الحشرات، مع منظمات حرارية وغيرها من التحسينات، كبثّ رائحة ليلية معيّنة، وأصوات حيوانات ليلية أيضاً، لخلق جو طبيعي عند بعض الحالات الصعبة) فاليرقانات كما تعرف تحتاج إلى رعاية فائقة. هنالك مئات الأصناف في نصفي الكرة الأرضية، ومئات الأصناف المتفرعة عنها، ولكن، وأكرر، كنا سنبدأ من أمريكا. كانت الخطة أن تُرسل إلينا عبر الطائرات، ومن أكثر الأماكن تنوّعاً، بدءاً من محطات القطب الشمالي، لياسكا، برادور، وجزيرة فيكتور، إناثُ الفراشات الحية، واضعات البيوض، مع الطبقة النباتية الحية تحتها. كانت مزرعة الحرير تلك لتكون مشتلاً لأكثر أصناف البنفسج سحراً، من بنفسج المستنقعات الشمالية، وصولاً إلى البنسفج الكروليكي، الصغير ولكن الساحر، الذي وصفه البروفيسور هال من خليج غود- صان. كنت سأشارك برسوم ملونة تصوّر العديد من الهياكل، وفي كل المراحل، مزوّدة بخطوط تبرز الأعضاء التناسلية المثالية الخاصة بتلك الحرشفيات. كان ليصير عملاً عظيماً.»

«تحفة حب»، قال فان، ثم قلب الصفحة.

«للأسف، مات شريكي العزيز دون أن يترك وصية، وكل مجموعاته، بما فيها مساهماتي الصغيرة، قد تنازل عنها أقرباء كروليك، لمصلحة وكلاء في ألمانيا، وتجار في طارطاريا. أمر مشين، وحزين جداً. ليس عدلاً.»

«سنجد لك مدير علوم آخر. فلننظر الآن إلى ما يحدث هنا!»

ثلاثة من الخدم، برايس، نوريس ووارد ببزات غريبة وكأنهم رجال إطفاء. بوت الشاب يقبّل بإخلاص مشط القدم الجميل، العاري والمعرّق، والمرفوع فوق الدرابزين. لقطة ليلية خارجية لشبحيْن أبيضيْن يضغطان أنفيْهما فوق نافذة المكتبة، من الخارج.

سبع fotochki أخر (صور طبيعة صغيرة)، كانت ملصقة فوق

صفحة واحدة ومرتبة بطريقة فنية، على شكل مروحة، تم التقاطها في غضون دقائق معدودة - من زاوية متوارية وبعيدة بما يكفي - في محيط من العشب الطويل، الأزهار البرية، وأوراق الأشجار المتدلية، وقد موّهت ظلالها، وظلال سويقات الزهور، التفاصيل الأساسية، ولكنها تقترح تشابكاً بين طفليْن، ليسا بكامل ملابسهما.

العضو الوحيد الظاهر من آدا في إحدى المنمنمات، كان ذراعها المرتفع عن العشب المرصع بالأقحوان، ممسكاً بفستانها المخلوع، وكأنها تحمل لوحة إعلانية.

أظهرت العدسة المكبّرة (التي استُعيدت من تحت الملاءة)، وعلى نحو واضح، في الجزء العلوي من الصورة، فوق زهور الأقحوان، نوعاً من الفطر بقبعة مستدقة، يُعرف في القانون الاسكتلندي (منذ زمن تحريم السحر) بـ«إله الانتصاب».

نبتة أخرى مثيرة للاهتمام، «شمامة مارفيل»، تشبه مؤخرة الفتى المشغول، كانت واضحة في الأفق المزهر لصورة ثالثة.

في صور الطبيعة الصامتة الثلاث الأخرى، كانت قوة الأمر الجاري («حمى الجماع») كافية لبعثرة العشب الكثيف، سامحة للناظر بتمييز تفاصيل جسدين متشابكيْن في مصارعة رومانية، معتمدة على حركات غير شرعية.

وأخيراً، وفي الصورة الأخيرة، أدنى السلسلة المروحية المتعاقبة، ظهرت آدا بيديها فوق رأسها تعيد تصفيف شعرها، بينما كان آدم، خاصتها، واقفاً فوقها، تتسلّق أوراق مزهرة فخذه، لتخفي، عن معرفة وقصد، «جهاز العظماء القديم»، محافظة على عفة واحتشام «عدن».

بنبرة صوت لا تقل عفوية، قال فان: «حبيبتي، أنت تدخنين كثيراً، لقد غطى رماد تبغك بطني. أعتقد أن بوتيبان يعرف العنوان

المفصل للبروفيسور بوهارنيس في أثينا، أو في كلية الفنون التصويرية.»

«لا يجوز أن تذبحه»، قالت آدا. «إنه غير طبيعي. ربما يكون مبتزّاً حقيراً، ولكن تلك الدناءة تحمل istoshnïy ston (أنيناً عميقاً) لفن مشلول. إضافة إلى أن تلك الصفحة هي الداعرة الوحيدة بين ما تبقى. ودعنا لا ننسى أيضاً، أن رأساً نحاسياً بعمر الثماني سنوات، كان هناك أيضاً كامناً لنا بين الأجمات.»

«يا للفن الداعر! هذا كفن للفن وليس بفن، خريطة للمشاعر(١) فوق لفافة مناديل ورقية معقمة في مرحاض ما. هذا القرد قد حطّ من قدر صور ماضينا الخاص في أذهاننا. إما أني سأفقأ إحدى عينيه، أو أني سأعيد الاعتبار إلى طفولتنا من خلال تأليف رواية: آرديس، سجل عائلة.»

«افعل أرجوك!»، قالت آدا (متجاوزة عن صورة مخزية أخرى، قد التُقطت، على ما بدا، من ثقب في ألواح العلّية)، «انظر هنا! إنها جزيرتنا الجميلة!»

«لا أريد رؤية المزيد، بدأت أشكّ في أن تجدي متعة مدغدغة في تلك القذارة، كما يرى المجانين إثارةً في صور الفتيات في أثواب السباحة.»

«أرجوك يا فان، لوهلة واحدة فقط! إنها شجرات الصفصاف خاصتنا، أتذكرها؟»

«القلعة المستحمة في لادور
بجولة أخرى أنا مأمور»

---

(١) خريطة مشاعر: تلميح إلى الكاتبة الفرنسية مادلين دي سكوديري (١٦٠٧-١٧٠١) والخريطة العاطفية التي كتبت عنها في روايتها Clelie، ذات المجلدات العشرة. (مترجم)

«عادة ما تكون ملوّنة. يبدو الصفصاف عادة مخضراً بسبب أغصانه الخضراء، ولكن تلك الأشجار لا تحمل أوراقاً، إنها بداية الربيع، ويمكنك أن ترى قاربنا الأحمر 'تذكار' طافياً. وإليك هنا الأخيرة: تمجيد آرديس بعدسة كيم.»

كل الطاقم كان واقفاً في صفوف عديدة، فوق درجات الشرفة ذات الأعمدة، وراء مقعد الرئيسة، البارونة فيين، ونائبة الرئيسة، إيدا لاريفيير، وكانت الأخيرتان محاطتيْن بأجمل طابعتيْن فوق الآلة الكاتبة، بلانش من الـ توربيير (سماوية، دائمة الدموع، رائعة بحق)، وفتاة سوداء تمّ تعيينها قبل رحيل فان ببضعة أيام، لتساعد فرينش، التي كانت تقف في صف أعلى، عند النقطة المحورية للصورة، حيث وقف بوتيبان، وكان لا يزال في بزته التي ارتداها عند توصيل فان (تم تشويه الصورة أو التخلص منها). على الجانب الأيمن لكبير الخدم، وقف ثلاثة من الخدم؛ بوت (خادم فان الشخصي) على يساره، وأيضاً الطباخ السمين ذو الوجه الطحيني الباهت (والد بلانش)، وإلى جانب فرينش، وقف رجل نبيل ببدلة تويد رهيبة، مع الكثير من حبال وعتاد سياحية فوق إحدى كتفيْه: لقد كان في الواقع (وفقاً لآدا) سائحاً قد قدم من إنكلترا ليزور قلعة بريانت، وقد قاد دراجته فوق الطريق الخاطئ، وكان، كما بدا في الصورة، واقعاً تحت ذهول الصدفة التي جمعته بمجموعة من السياح، كانوا يزورون عزبة قديمة أخرى، جديرة أيضاً بالاستكشاف. فوق الصفوف الخلفية، وقف الخدم الأقل شأناً من عمال المطبخ، البستانيين، السائسين، الحوذيين، ظلال الأعمدة، خادمات الخادمات، مساعدين، عمال الغسيل، فساتين، خلوات - يصبحون أقل وأقل وضوحاً، كما في إعلانات المصارف التي يظهر فيها، وراء المدراء، موظفون ضئيلون، خطوط أكتافهم البارزة أكثر حظاً من

ابتساماتهم المتواضعة الذائبة، التي يؤكدون وجودهم في الصورة من خلالها.

«أوليس هذا جونز اللاهث في الصف الثاني؟ لطالما أعجبني ذلك الفتى.»

«لا»، أجابت آدا، «إنه برايس. جونز جاء بعد أربع سنوات. وهو الآن رجل شرطة بارز في جنوب لادور. حسناً. هذا كل شيء.»

بلا مبالاة، عاد فان إلى صورة الصفصاف وقال: «كل صور هذا الكتاب قد التُقطت عام ١٨٨٤، ما عدا هذه. لم أحملك مرة في المركب فوق نهر لادور في أوائل الربيع. من الجميل أن ألاحظ أنك لم تفقدي قدرتك الرائعة على الاحمرار خجلاً.»

«هذه غلطة من قبله. قد تكون ملتقطة عام ١٨٨٨، وقد وضعها بين هذه المجموعة عن طريق الخطأ. يمكننا أن نستبعدها لو أردت.»

«يا حلوتي!»، قال فان، «كل صور ١٨٨٨ مستبعدة من هذه المجموعة. لا يحتاج المرء أن يكون خبيراً في حلّ الألغاز لينتبه إلى أن الصفحات التي تمت إزالتها لا تقل عن تلك المحتفظ بها. لا يهم - أعني أني ليس لدي أي رغبة برؤية الـ Knabenkräuter[1] أو ما كان يتدلى من أي من أصدقائك الذين كانوا يساعدونك في جمع النباتات؛ لكنه يحتفظ بنسخة من صور ١٨٨٨، وتأكدي أنه سيعود إلينا ما إن ينفق ثروته الأولى.»

«لقد مزقت صور عام ١٨٨٨ بنفسي»، اعترفت آدا متباهية. «ولكني أقسم، وبكل جدية، إن ذلك الرجل وراء بلانش، في صورة الشرفة، كان كما سيبقى دائماً، مجرد رجل غريب.»

---

(١) Knabenkräuter: أوركيد بالألمانية ويقصد به أستاذ الموسيقى الألماني (مترجم)

«من حسن حظه»، قال فان. «صدقيني لم يعد مهماً. إنها صور تحاكم ماضينا بأكمله وتدينه. ولتحيطي علماً بأنني لن أكتب تلك الرواية عن سجل العائلة. بالمناسبة، أين أصبحت بلانش المسكينة الآن؟»

«أوه! إنها بخير. ما زالت في الجوار. أتعرف؟ لقد عادت - بعد أن اختطفتَها. تزوجت من الحوذي الروسي، ذلك الذي حلّ محل بن البنغالي، كما اعتاد الخدم أن ينادونه.»

«حقاً فعلت؟ يا للروعة! السيدة تروفيم فارتوكوف. هذا ما لم يخطر ببالي أبداً.»

«رُزقا طفلاً أعمى»، قالت آدا.

«الحب أعمى»، قال فان.

«أخبرتني أنك تحرّشت بها في صباحك الأول في آرديس.»

«هذا ما لم يوثقه كيم»، قال فان. «أسيبقى طفلهما أعمى؟ أعني، هل اصطحبتهم نحو طبيب يُشهد له بالبراعة؟»

«طبعاً، إنها حال ميؤوس منها. ولكن، بالحديث عن الحب وأساطيره، هل أنت مدرك - إذ إنني بنفسي لم أدرك قبل أن أتحدّث إليها عدّة سنوات خلت - أن علاقتنا كانت محفوفة بالعيون المراقبة من كل الجهات؟ انس أمر كيم! إنه المهرج اللازم لكل مسرحية. هل أنت مدرك أن أسطورة حقيقية كانت تولد حولنا وتكبر، بينما كنا نلعب ونمارس الحب؟»

لم تكن قد أدركتْ أبداً، قالتها وكررتها وكررتها (كما لو كانت تحاول تبرئة الماضي من بذاءة الألبوم) أن صيفهما الأول في البساتين وبين مروج أوركيد آرديس، قد أصبح سراً مقدّساً وعقيدة في كل أنحاء الريف. الخادمات ذوات الميول الرومانسية، اللواتي يقرأن

«غيفن دو فيير» و«كلارا ميرتفاغو»[1]، قد عشقن فان، عشقن آدا، عشقن وهج آرديس وروضها. أما عشاقهن فصاروا حين يقفون تحت أشجار الخوخ المزهرة أو وسط حدائق الورود، لينقرون من أجلهن القيثارات الروسية ذات الأوتار السبع، ويغنون قصائدهم (حين كانت نوافذ القصور تُطفأ الواحدة تلو الأخرى) صاروا يضيفون أبياتاً مرتجلة - ساذجة، ولكن نابعة من القلب - إلى الأغاني الشعبية الرائجة. وقع ضباط شرطة منحرفون، في هوى فكرة سفاح القربى الساحرة. أعاد بستانيون صياغة قصائد فارسية تحكي عن السقاية وأسهم الحب الأربعة. حارب حراس الليل الأرق وحرقة السيلان وحكّته، بسيوف مغامرات فانيادا. الرعاة الذين لم تقتلهم الصواعق فوق المنحدرات البعيدة، صاروا يستخدمون أبواقهم النوّاحة الهائلة، كأذن يلتقطون بها أغاني لادور. صارت قصة عشق فان تلهب شعلة حب الخادمات العذروات، الوحيدات، في القصور ذات الأرضيات الرخامية. سيمر قرن آخر، وسيبقى الزمن يعيد بريشته التي لا ينضب زيتها، طلاء قصتنا كلما بهت وهجها.

«وكل ذلك يعني»، قال فان، «أن لا أمل لحبنا أبداً.»

---

(١) «غيفن دو فيير» و«كلارا ميرتفاغو»: تلميح إلى قصيدة Guinevere وقصيدة Lady Clara Vere de Vere (لمرة ثانية). (مترجم)

٨

لعلمه كم أن أختيه مولعتان بالمأكولات الروسية، والعروض الفنية الروسية، دعاهما مساء يوم السبت إلى أورزوس، أفضل المطاعم الفرانكو-إيستوتية في مركز مانهاتن. ارتدت كل منهما فستان سهرة قصيراً جداً ومفتوحاً، من تشكيلة الأزياء التي «ابتدعها» فاس لذلك الموسم - وللحديث عن ذلك الموسم : آدا في أسود رقيق وشفاف، لوسيت في أخضر ذراحي[1] لامع؛ تشابهت حمرة شفاهيهما بشدّتها (وليس بدرجة لونها)؛ تكحّلت أعينهما بأسلوب «طائر جنة متفاجئ»، التبرج الذي كان شائعاً في لوس أنجلوس ولوت. خليط من الاستعارات والكلمات المراوغة، كان قوام الأحاديث التي تناسب الفيين الثلاثة، أبناء فينوس.

كان وجود حساء السمك، الكباب والشمبانيا، خياراً موفقاً ومألوفاً، أما أغاني الحب الروسية القديمة التي أحياها مؤدون كونترالتو من لياسكا، وباس من بانف، فقد أضفت على الأمسية

---

(١) ذراحي: من ذراح، أو خنفساء محْرِقة، وهي حشرة من عائلة الخنافس، لها ألوان متعددة بين الأسود والأخضر والمنقط بعضها لها ألوان براقة تحذر المفترسين من التهامها بسبب إفرازاتها السامة. (مترجم)

لذعة عاطفية غريبة، تهز القلب وجعاً، بأنغام تتماوج على كلمات الأغاني الشعبية، التي كتبها غريغوريف وغلينكا. ثم دخلت فلورا، فلورا النحيلة، راقصة الصالة نصف العارية، التي بالكاد ترى لها تضاريس أنثى، متحدرة من أصل غير مؤكد (ربما رومانية؟ غجرية؟ فرعونية؟) وكان فان قد استفاد من خدماتها الوحشية، عدّة مرات خلال ذلك الخريف. كرجل ذي خبرة، نظر فان إليها بلا مبالاة (ربما مبالغ فيها)، غير مكترث لمواهبها الساحرة، التي وبالتأكيد، قد نثرت توابل سرية فوق حالة الإثارة الجنسية التي بدأت تغلي في عروقه منذ اللحظة التي خلعت فيها جميلتاه فراءيهما، لتجلسا أمامه بكامل ألوانهما البراقة؛ بطريقة أو بأخرى، تضخّم ذلك التشويق من خلال وعيه (كان ينظر إلى رقصها بعينين حذرتين) لريبة آدا وغيرتها الغريزية والماكرة. كانت كل منهما تراقب، من دون تبسّم، ردات الفعل البادية على وجهه، لتتأكدا من نظراته الرزينة التي تحمل اعترافاً مهنياً فحسب بموهبة الـ blyadushka (عاهرة لطيفة)، كما أشارت آنستانا الشابتان، بعدم اكتراث مصطنع، إلى (غالية الأجر والمبهجة للغاية) فلورا. ولكن سرعان ما هزّت تنهدات الكمان الطويلة كيان فان وآدا، حتى أنهما غصّا بالدموع: نداء عاطفي بأوتار عازف يافع، أجبر آدا على مغادرة القاعة والدموع تملأ وجهها، لتعيد مسح أنفها بالمساحيق، بينما وقف فان، يشهق متشنجاً، زافراً تنهيدات، قد لعنها ألف مرة، ولكنه لم يتمكن من كبحها.

عاد إلى ما كان يأكله، وداعب بعنف ساعد لوسيت ذا بشرة الدراق المخملية، فقالت له بالروسية: «قل عني ما تشاء، أنا ثملة، ولكن عليك أن تعرف أني لو كنت أعشق أحداً أكثر من حياتي ذاتها فهو أنت، (obozhayu) أعشقك، أعشقك، أعشقك (tebya، tebya)، ألم حبك لا يُطاق (ya toskuyu po tebe nevïnosimo)،

وأرجوك لا تسمح لي بتجرّع (hlestat) المزيد من الشمبانيا، ليس فقط لأني سأرمي نفسي في نهر غود-صان مدفوعة بيأسي من حبك لي، وليس فقط بسبب تلك القطعة الحمراء - قلبك، قلبك المجروح يا dusherika (عزيزي، بل أكثر من عزيزي) المسكين، الذي كاد يتمزق، أتخيّل أنه جرح بطول ثمانية إنشات على الأقل ــ»

«سبعة ونصف»، تمتم فان المتواضع، الذي جعله سماع الموسيقا أكثر ليناً.

«ــ ولكنك لأنك فان، كلك فان، لا شيء سوى فان، بجلده وندبته، الحقيقة الوحيدة في حياتنا التي لا حياة لنا سواها، حياتي الملعونة، فان، فان، فان.»

وقف فان هنا ثانية، عندما عادت آدا، تمشي كمروحة سوداء في حركة أنيقة، تتبعها آلاف العيون، في حين بدأت مفاتيح البيانو بأولى نوطات أغنية رومانسية (Siyala noch التي كتبها الرائع فيت) وتنحنح مؤدي الباس في قبضته (على الطريقة الروسية) قبل البدء بالغناء.

ليلة مشعة. حديقة يملأها القمر.
ينام نوره فوق أقدامنا.
غرفة الرسم، مطفأة.
كل شيء مفتوح
النوافذ، البيانو الكبير وقلبي.
يخفق كما الأوتار
ليغني لك أغنية.

ثم بدأ بانوفسكي برائعة غلينكا (كان ميخائيل إيفانوفيتش ضيفاً على عزبة آرديس عندما كان خالهم لا يزال حياً - يوجد مقعد أخضر حيث يُقال إن المؤلف كان غالباً ما يجلس، تحت شجرة الأقافيا، ليمسح جبهته العريضة).

اهدأ! يا هياج شغفي!

ثم بدأ مؤدون آخرون بأغان أكثر حزناً، «القبلات الحنونة سرعان ما تُنسى»، و«كان حبنا في أول الربيع، وكان العشب بالكاد نابتاً»، و«كم من الأغاني سمعتها في وطني، بعضها حزينة، وبعضها مبهجة»، وأخرى فلكلور مزيف:

صخرة في الوادي
تكسوها الطحالب
من الأسفل وحتى الأعلى...

وغيرها من أناشيد اللوعة والأسى، التي تتنقّل كرحالة بين القرى:

يرن الجرس بإيقاع رتيب
فوق الطريق المغبر قليلاً...

أو ذلك الجندي الفاسد على نحو غامض، الذي ألّف أغنية فريدة:

نيديزدا، سأعود إليك
عندما يقرعون أجراس الانسحاب...

ومطلع القصيدة الغنائية الوحيدة لتورغينيف:

سديم الفجر. الفجر الرمادي
والأراضي التي حصدها الحزن، غطاها الآن الثلج.

وبطبيعة الحال، قصيدة الغجري والغيتار التي كتبها آبولون غريغوريف (صديق آخر للخال إيفان):

أنت يا صديقي، على الأقل، تتحدث معي

يا رفيقي ذا الأوتار السبعة
توقي إليك يغزو روحي
كما يغزو الوادي ضوءُ القمر.

«أؤكد لك أننا مشبعون بضوء القمر وحلوى الفراولة، أخشى أن الأخيرة لم ترتق إلى مستوى تلك القصائد»، قالت آدا بأسلوب فتيات جين أوستين. «فلنذهب جميعنا إلى السرير! أرأيت سريرنا الكبير يا لوسيت؟ انظري! إن فارسنا بدأ يتثائب، وصار جاهزاً لخلع عتاده (عبارة عامية لادورية مبتذلة).»

«كم هذا (تثاؤب تصاعدي) صحيح!» قال فان بعد أن توقّف عن مسّ خوخ خد كيوبيد، الذي تحسسه فقط دون أن يتذوّقه.

مدير الصالة، الساقي، وطاقم من الندل، كانوا منبهرين تماماً بكمية الكافيار والشمبانيا المستهلكة من قبل الفيين الثلاثة، ذوي السحنات الضبابية، الذين استمروا الآن بالنظر إلى الطبق الذي طار عائداً إلى فان، محملاً بصرافة من القطع الذهبية، وفاتورة مصرفية.

«ولمَ؟»، سألت لوسيت بينما كانت تقبّل وجنة آدا حين نهضتا عن المقاعد (مع حركات سباحة وراء ظهرها طلباً لجلب المعاطف الفرائية من خزانة مغلقة في القبو أو مكان آخر)، «فسّري لي لماذا أثّر فيك سماعك للأغنية الأولى Uzh gasli v komnatah ogni، وشمك لعطر فان الفواح، أكثر فعلت أغنية فيت، المفضل عندك، وأكثر من عزف الآخر، عازف الترومبيت، ذي الكوع الحاد؟»

«فان أيضاً كان مضطرباً»، أجابت آدا بطريقة مبهمة، قبل أن تمسّ بأحمر شفاهها المجدد، النمشات الفاخرة فوق خدّ لوسيت الثملة.

بطريقة منفصلة، ولمسية بحتة، كما لو أنه التقى لأول مرة بتلك

«النعمتيْن» اللتين تمشيان على مهل، بوركيْن متمايليْن، في الأمسية ذاتها، وبينما كان يقودهما من خلال المخرج (لتتسلما معطفَي الشنشيلة[1] اللذين ركض بهما نحوهم مجموعة من البشر المتلهفين، المعدمين على نحو غير عادل وغير مفهوم)، وضع فان راحة كفه اليسرى فوق ظهر آدا الطويل والعاري، والأخرى فوق عمود لوسيت الفقري، الطويل والعاري بالمثل (هل قالت درج أم فرج؟ زلّة شفاه ثملة). بطريقة منفصلة، سبر غور إحساسه الأول، وتذوّقه، ثم الآخر. كان خصر جميلته حاراً وعاجياً؛ كانت لوسيت رطبة وزغبية. هو أيضاً كان قد حصل على حصة الأسد من الشمبانيا، أي أربع زجاجات من أصل ست ناقص rizzom (كما كنا نقول في تشوز)، الأمر الذي دفعه كمجنون، بينما كان لا يزال يتبع فراءيهما الضاربيْن إلى الزرقة، ليستنشق كفّه اليمنى، قبل أن تغرق في قفازها.

«أقول يا فيين!»، صهل صوت بالقرب منه (كان الجوار مليئاً بالصاخبين)، «أنت لا تحتاج إلى اثنتيْن، أليس كذلك؟». غيّر فان اتجاهه مستعداً لصفع القائل الوقح - ليكتشف أنها لم تكن سوى فلورا. مازحة مزعجة، مزحة طريفة. جرّب الوصول إليها ليعطيها شيكاً مصرفياً، ولكنها أفلتت، بأساور ونجوم تلمع فوق صدرها، تلوّح بوداع رقيق.

ما إن أوصلهم إدموند إلى البيت (ليس بإدموند ذاك، الذي ولأسباب أمنية - إذ إنه يعرف آدا - قد أُعيد إلى كينغستون)، نفخت آدا خديها، ووسّعت عيناها، ثم اتجهت إلى حمام فان. استولت الضيفة المترنحة على حمامها. أما فان، البعيد عن آدا جغرافياً مسافة ظل، لجأ إلى حوض مستدام التدفق، مستفيداً من وسيلة الراحة المتواضعة

---

(١) شنشيلة: قوارض ذات فراء. (مترجم)

التي توفرها الـ vessie[1] (W.C كما يقول عوام كانادي) القريبة من غرفة ملابسه. نزع عنه سترة البدلة وربطة العنق، فكّ طوق قميصه الحريري، ووقف جامداً للحظة، يتنازعه كل من التردد والتوتر: آدا غارقة في حوض استحمامها، خلف غرفة نومهما، وخلف غرفة الجلوس؛ كان يسمع إيقاع تدفّق الماء القيثاري، البطيء، غير المنقطع (إحدى المناسبات النادرة التي ستذكر فان بها وبحديثها العقلاني، الذي سمعه منها في آخر مصحة زارتها في آغافيا).

مرر لسانه فوق شفتيه، تنحنح، مقرراً ضرب عصفورين بحجر واحد، سار نحو الآخر، في طرف شقته الجنوبي، عبر الغرفة الخاصة بالسمر، وغرفة الإطعام (لطالما مال إلى استخدام المفردات الكانادية في حالات الثَّمَل). دخل غرفة الضيوف، حيث كانت لوسيت واقفة، ظهرها له، تُزلق من عند رأسها قميص نوم أخضر باهت. عند رؤية وركيها الضيقين العاريين، وقف صديقنا الخليع البائس جامداً، فاقداً قدرته على الحركة أمام ذلك التناظر الفاتن لتكوير ساحر، وحدها الأجساد الشابة والمثالية تحصل على مثله فوق الردفيْن، عند حزام الجمال المقدس. كانا أكثر مثالية من وركيْ آدا! لحسن الحظ، استدارت نحوه، وكانت تمسّد خصلات شعرها الحمراء، بينما انخفضت حاشية ثوبها إلى مستوى الركبتيْن.

«أسدي إليَّ خدمة يا عزيزتي» قال فان. «لقد أخبرتني آدا عن مالك المزرعة في فالنتينا، ولكني لم أعد أذكر اسمه، وأكره إزعاجها بسؤالي.»

«ما كنت لتنسى لو أنها حقاً أخبرتك»، أجابت لوسيت المخلصة، «لا. لا أستطيع فعل ذلك بحبيبتك، وحبيبتي، ولأنني

(١) vessie: مثانة بالفرنسية. (مترجم)

أعرف كم ماهر أنت في الرماية، ولو أردت إطلاق رصاصة في ثقب مفتاح لأفلحت.»

«أرجوك أيتها الثعلبة الصغيرة. وسأكافئك بقبلة خاصة جداً.»

تنهّدت عميقاً وقالت: «أوه يا فان! أتعد أنك لن تخبرها أبداً بأني أخبرتك؟»

«أعدك أني لن أفعل، لن أفعل، لن أفعل»، قالها بلهجة روسية، بينما أوشكت لوسيت على الالتصاق بصدره، مدفوعة بفورة حب طائشة. «Nikak-s niet[1]: ليس فوق الشفتين، ليس فوق رأس الأنف، ولا تحته، ولا حتى فوق العينيْن السابحتيْن. بل إبط الثعلبة الصغيرة، لا شيء سواه - إلا إذا» (متراجعاً مع إيماءة شك وتردد) «إلا إذا لم تكوني قد حلقتِ شعره!»

«تنتن رائحته إن فعلت»، اعترفت لوسيت البسيطة، التي كشفت خجولة عن كتفها.

«ارفعي ذراعك! نقطة في الفردوس! تيرا! فينوس!»، أمر فان، ولبضع نبضات قلبين متزامنة، دفن فمه اللاهث في تلك الحفرة الحارة، الرطبة والمحفوفة بالمخاطر.

أرخى الذهول قوى لوسيت فجلست فوق كرسي، ضاغطة بيد واحدة فوق جبينها.

«نهاية المشهد يا لوسيت!»، قال فان، «أريد اسمه الآن!»

«فينلاندر»، أجابت.

سمع صوت آدا فينلاندر تسأل عن مكان خفّها الزجاجي الخاص بغرفة النوم (الذي، وحتى في إمارة كوردولينكا، لم يكن يميزه عن خفّ الرقص)، وبعد دقيقة، ومن دون أدنى انقطاع في توتره وقتذاك،

---

(١) Nikak-s niet: طبعاً لا، بالروسية. (مترجم)

وجد فان نفسه في حلم ثمل، يمارس حباً عنيفاً مع روز - لا مع آدا، فوق منضدة قصيرة، تحيط بهما زهور الوردية. تذمرت مدعية أنه ضاجعها بعنف «نمر تركي». ذهب إلى السرير، وفي اللحظة التي أوشك فيها أن يغفو، غادرت السرير. إلى أين تراها كانت ذاهبة. أرادت لوسيت رؤية الألبوم.

«سأعود خلال حكة» (عامية قذرة خاصة بالطالبات)، قالت. «انتظرني ولا تنم! بالمناسبة، من الآن وصاعداً، وإلى أن تصدر تعليمات أخرى، سأعتمد طريقة حبيبتنا morata[1] (مستخدمة اسم حشرة شهيرة لمصلحة جناسها)».

«ولكن من دون خطط سحاقية»، غمغم فان داخل وسادته.

«أوه فان»، قالت آدا بعد أن استدارت لتهزّ رأسها، واضعة يداً فوق مقبض الباب الأوبالي، في نهاية الغرفة التي لا نهاية لها. «لقد تحدثنا عن الأمر عدّة مرات! لقد اعترفت بنفسك أني لست سوى فتاة برية شاحبة بشعر غجري، في أغنية خالدة، فوق عالم افتراضي، رقاقة راتنر، حيث لا مبدأ يسود إلا التغيرات العشوائية. لا يمكنك. . .»، تابعت - تبحث في مكان ما بين خدّي وسادة فان (إذ أنها كانت قد أضاعت كتابها البني القاتم منذ مدة)، «لا يمكنك أن تطالب أنثى دلفين بالعفة. أنت تعرف أني في الصميم لا أحب غير الرجال، وللأسف، رجل واحد.»

كان هنالك دائماً شيء انطباعي وملوّن، ولكن أيضاً طفولي، في تلميحات آدا عن شؤون جسدها، شيء يذكر بلوحة محيّرة[2]، أو

---

(١) Morata: المقصود ذبابة Serromyia amorata، القسم الأول، الفصل ٢١، وتعني Morata باللاتينية أيضاً: التهذيب أو التمدن أوالتحضر. (مترجم)

(٢) لوحة محيرة: وردت بالنص الأصلي بـ baffle painting، وهي تسمية عادة

متاهات زجاجية صغيرة مع حبتيْ بازلاء، أو لعبة إطلاق النار في آرديس - أتذكر؟ - على حمامات مصنوعة من الطين أو على أكواز الصنوبر، أو يذكر بلعبة الـ cocka-maroo[1] (أو Biks بالروسية)، التي تُلعب بعصا فوق لوح بلياردو طويل، يحوي ثقوباً وعراقيل، أجراساً وأكواز صنوبر، على الكرة الصغيرة - صدفية اللون وبحجم طابة البينغ بونغ - أن تمر بينها، محدثة ارتجاجات bix-pix.

ما المجاز إلا أحلام اللغة. عبر المتاهة ذات الصندوق الخشبي، وأقواس باغاتيل آرديس، وصل فان إلى إغفاءته، وعندما فتح عينيه مجدداً، كانت الساعة التاسعة صباحاً. كانت نائمة، بعيداً عنه، متقوسة وكأنها هلال، مع لا شيء وراء قوسها المفتوح، الذي لم يُغلق بعد، إذ إن ما يحتويه لم ينته. وشعر الحبيبة، الجميلة، الخائنة، الشعر الأسود المزرق، لم يكن فقط عابقاً برائحة آرديس، بل ورائحة لوسيت أيضاً. «يا إله النعمة!»

تراها هاتفته؟ ألغته؟ أجلته؟ السيدة زوجة فينر - لا، فينغولفر، لا، فينلاندر - أول روسي يتذوق عنب الكرمة.

"Mne snitsa saPERnik SHCHASTLEEVOY!" (تحت أزهار العذقة البيضاء المتدلية، جلس ميخائل إيفانوفيتش على مقعده، محدودباً فوق عصاه، يرسم بها نصف دوائر فوق الرمل).

«أحلم بمُنازل محظوظ!»

في الوقت ذاته، كنت ما زلت في عيادة الطبيب Hangover[2]، أنتظر حبة الكافيين القوية.

ما تطلق على اللوحات التي تظهر فيها سفن بشكل مموه يعطيها مظهراً مخادعاً بالحجم والشكل والتمايل والحركة. (مترجم)

(١) cocka-maroo: أو باغاتيل بالفرنسية. لعبة قديمة تشبه البلياردو. (مترجم)

(٢) Hangover: الآثار المزعجة للإفراط في شرب الكحول. (مترجم)

في عامها العشرين، صارت آدا من محبي الاستيقاظ المتأخر.

أما هو، ومنذ أن بدأت حياتهما الجديدة سوية، صارت له عادات لم يتوقف يوماً عن ممارستها: يستحم قبل استيقاظها، وخلال الحلاقة، يتصل من الحمام ليأمر فاليريو بإحضار الفطور، الذي كان يصل فوق طاولة بعجلات، تخرج من المصعد لتدخل غرفة الجلوس بجانب غرفة نومهما. ولكن في ذلك الأحد بالذات، لم يكن يعرف ما تحب لوسيت أن تتناول (تذكر ولعها القديم بالكاكاو)، إضافة إلى أنه ملتزم بموعده اليومي مع آدا قبل أن يبدأ بأي شيء آخر في نهاره، حتى وإن عنى ذلك تطفله على دفء فراشها، كل تلك الهواجس قد شوشته، فما كان منه إلا أن أسرع باغتساله، تنشّف جيداً، رش مسحوق التالك فوق أربيته، ودون أن يكلف نفسه عناء ارتداء أي شيء، عاد إلى غرفة النوم فخوراً، ليجد لوسيت المتجهمة بشعرها الأشعث، وكانت لا تزال في ثوب نومها الصفصافي الأخضر، وقد جلست عند حافة السرير البعيدة، بينما كانت آدا بحلمتيْها المكتنزتيْن، تضع - لأسباب تنبُّئية وطقسية - نهر الألماس الذي أهداها إياه فان، وكانت تشهق سيجارتها الأولى لذلك اليوم، وتحاول تخيير أختها ما بين تجريب فطائر موناكو مع شراب بوتوماك، وبين لحم الخنزير المقدد الذي لا يُضاهى، بلونه العنبري الياقوتي. قام فان، الذي ومن دون أي إحجام عن إظهار وقاره الذكوري، بالجثو على ركبتيه بجاب السرير الهائل (أحضرت مرة ميسيسيبي روز إلى هناك، لأغراض تعليمية بصرية متقدمة، أختيها الصغيرتيْن السمراويْن، بلون الكاراميل، ولعبة بذات حجمهما تقريباً، ولكن بيضاء)، وعندما رأته لوسيت، هزّت كتفيها استهجاناً بإيماءة توحي بالانصراف، ولكن يد آدا النهمة قد استبقتها.

«إلى السرير يا حيواني الأليف!» (كانت آدا قد أعطتها هذه التسمية منذ أن أطلقت الصغيرة مرة العنان لريحها بينما كان الحمام

جالساً إلى المائدة، حوالي عام ١٨٨٢) «وأنت يا إله الحدائق! اتصل بخدمة الغرف - ثلاثة فناجين قهوة، نصف دزينة من البيض المسلوق، الكثير من الخبز المحمّص مع الزيدة، و ـــ»

«أوه لا!»، قاطعها فان. «فنجانان من القهوة، أربع بيضات، والبقية. لا أريد لطاقم الخدم أن يعرفوا أن لديّ فتاتيْن في سريري، واحدة تكفي (وفقاً لفلورا) لحاجاتي المتواضعة.»

«متواضعة!»، استنكرت لوسيت. «دعيني أخرج يا آدا! أنا بحاجة إلى حمام، وهو بحاجة إليك.»

«لن تخرجي من هنا يا أليفتي!» صاحت آدا بجرأة، وبحركة رشيقة، انتزعت ثوب نوم أختها. لاشعورياً، حنت لوسيت رأسها وقوقعت عمودها الفقري، ثم سقطت في إغماءة فوق الجزء الخارجي من وسادة أختها، وكأنها شهيدة الاحتشام، واشتعل لون الحريق في شعرها البرتقالي أمام المخمل الأسود في رأس السرير.

«فكي ذراعيك ولا تكوني سخيفة!»، أمرتها آدا ثم ركلت الملاءة أرضاً، التي كانت تغطي، وبشكل جزئي، ست أرجل. في الوقت ذاته، دون أن تلفت رأسها، وبحركة متملصة، أبعدت فان، المكار، من وراء ظهرها، ثم قامت بيدها الثانية بتمريرات سحرية فوق الثديين الصغيرين، ولكن المدهشين بما يكفي، اللامعيْن عرقاً، ثم مررتها فوق بطن حورية البحر المسطحة، والخافقة، نزولاً نحو عصفور النار الذي رآه فان مرة واحدة، وقد نبت ريشه كاملاً الآن، والذي كان، بطريقته الخاصة، لا يقلّ فتنة وسحراً عن غرابه الأزرق. سحر لا يمكن أن يُقاوم!

ما نحن فيه الآن لا يشبه الأوضاع الكازانوفية (كان لفارسنا المزدوج قلم رصاص أحادي اللون بالتأكيد، تماشياً مع مذكرات

عهده الوضيع) بقدر ما يشبه لوحة قديمة جداً من المدرسة الفينيسية (sensu largo) استنسخت بمهارة كافية ضمن مجلّد «روائع محرمة»، تعطي كل التفاصيل الدقيقة لماخور، يُرى من علوّ، بعين عصفور.

وهكذا كنا نُرى من فوق، كما لو كانت لوحة منعكسة في مرآة السماء، قد تخيّلها إيريك بسذاجة، في أحلامه الفاجرة (في الواقع، كل ما كان يُرى هناك هو الظلال، إذ إن الستائر الكتيمة كانت لا تزال مسدلة، حاجبة ضوء الصباح الرمادي). كانت جزيرة السرير من ناحية اليسار (يمين لوسيت) مضاءة بواسطة مصباح ذي شعلة خافتة الهسيس، موضوع فوق منضدة جانبية من جهة الغرب. الملاءة العلوية واللحاف مكوّمان من دون ترتيب عند أسفل السرير الذي لا لوح يحدّه، جنوب الجزيرة، النقطة التي بدأت منها العينان الواصلتان حديثاً بجولة استكشافية، مروراً بالشمال، وصولاً إلى فخذَي الآنسة فيين الصغيرة، المفتوحيْن عنوة. في نهاية المطاف، وحين سقطت قطرة ندى فوق طحلبها الخمري، استجابت لها بدمعة زبرجدية (aquamarine)، سالت فوق وجنتها المتّقدة. جولة أخرى من الميناء إلى الداخل، كشفت عن طول وبياض فخذ الفتاة التي كانت في الوسط؛ إننا نزور أكشاك التذكارات: مخالب آدا المطلية بالأحمر، تقود رجل متمنع إلى حدّ ما، من الشرق القاتم إلى الغرب الخمري المشع، لينتهي به الأمر خاضعاً بلين؛ بريق عقدها الألماسي، الذي، في تلك المناسبة بالتحديد، لم يكن أكثر قيمة من الزبرجد المنبعث من الجهة الأخرى (الغرب) لحارة «الرواية الجديدة». يغمر الظل نصف الذكر العاري ذي الندبة، الذي يشغل الجانب الشرقي للجزيرة، وهو، بشكل عام، أقل الموجودين إثارة للاهتمام، على الرغم من أن إثارته العارمة قد وصلت إلى الحدّ الذي يضر به أو بسائح من صنف معين. الجدار الذي جُدّد ورقه

مؤخراً، الموجود مباشرة غرب المصباح الذي خفّ هسيسه الآن أكثر (لسبب وجيه) كان قد زيّن تكريماً للجميلة الموجودة في الوسط، برسومات لـ «زهرة العسل»، يزورها (ليس فقط حباً برحيقها، كما أخشى، ولكن طمعاً بالحيونات الميكروسكوبية التي تلتصق بها) الطنان الرائع، من فصيلة Loddigesia، في حين تحمل منضدة السرير الجانبية، من هذه الجهة، علبة أعواد ثقاب شعبية، قافلة سجائر، منفضة سجائر من طراز موناكو، نسخة من رواية فولتماند الرديئة، وباقة أوركيد من صنف Oncidium، بألوان صارخة، يحويها إناء أرجواني. أما المنضدة الأخرى من الجهة الثانية، جهة فان، فكانت تحمل مصباحاً مشابهاً ولكن مطفأ، دوروفون، مناديل Wipex، عدسة مكبرة، ألبوم آرديس المعاد إلى مكانه، ومقال مقتطع من صحيفة: «الموسيقى الهادئة، أحد أسباب أورام الدماغ»، كتبه الطبيب أنبوري (الاسم المستعار لراتنر الشاب). للأصوات ألوان، وللألوان روائح. حريق عنبر لوسيت قد بسط جناحه فوق عتمة وهج آدا وعطرها، ولم يتوقف إلا عند عتبة الخزامى، عند وعل فان. بأصابعهما العشر، التواقة، المحِبة، الشريرة والطويلة، داعب الشيطانان الشابان حيوان سريرهما الأليف، المغلوب على أمره. بالصدفة، داعبت خصلةُ شعر آدا المنفلتة، التحفةَ المحلية التي كانت قد أطبقت عليها بقبضتها اليسرى، فخورة باكتسابها. تحفة غير موقعة، وغير مؤطرة.

كان ذلك ملخص ما جرى (لأن اللعبة التافهة قد زفرت سائلها فجأة، وهربت لوسيت إلى غرفة نومها بعد أن خطفت قميص نومها المرمي جانباً). لم يكن ذلك شبيهاً إلا بما يجري داخل نوع معين من المتاجر، حيث لأصابع صاغة المجوهرات لمسة الأصابع الحنونة تلك، التي تخمن قيمة النفيسة بحركة تذكّر بفرك فراشة «النحاسية»

لأجنحتها الخلفية، بعد أن تستقر فوق زهرة، أو بإبهام محضر أرواح، حين يفرك به قطعة معدنية يقوم بتذويبها؛ ولكن فقط في مثل متجر كهذا، يمكن لفنان قناص، نخبوي أو دون ذلك، مدفوعاً بنزوة أو بهدف ما، أن يعثر على لوحة مجهولة، تُنسب إلى غريللو أو أوبيتيو.

«إنها عصبية على نحو مريع، الطفلة المسكينة»، علّقت آدا بينما كانت تمدّ ذراعها عبر فان نحو مناديل الـ Wipex. «يمكنك طلب الفطور الآن - إلا إذا   أوه! يا للمنظر الرائع. الأوركيد ينتصب ثانية! لم أر رجلاً في حياتي بهذه السرعة!»

«أجل! هذا ما قالته لي أيضاً مئات العاهرات والقطط الجميلات اللواتي يتفوقن خبرة على السيدة فينلاندر.»

«أنا لم أعد ذكية كسابق عهدي، للأسف»، قالت آدا بحزن، «ولكني أعرف فتاة، ليست مجرد قطة فقط، بل قطة عاهرة، وهي كوردولا تاباكو، المعروفة بالسيدة بيرويتسكي. قرأت في جريدة الصباح أن تسعين بالمئة من القطط تموت بسبب السرطان. أتساءل ما هو الوضع في بولاندا.»

بعد قليل، عشق فان [ك. محرر] فطائر موناكو. ولكن لوسيت لم تنضم إليهما ثانية. وحينما قامت آدا، التي ما زالت تضع عقد الألماس (إشارة إلى أنها ما زالت بحاجة إلى جولة أخرى مع فان، وإلى سيجارة أخرى، قبل أن تأخذ حمامها الصباحي) لتنظر في غرفة الضيوف، وجدت أن الحقيبة البيضاء والفراء الأزرق قد اختفيا، وكانت هنالك ملاحظة متروكة فوق الوسادة، مخربشة على عجالة بقلم كحل Arlen Eyelid أخضر.

سأصاب بالجنون إن بقيت هنا لليلة أخرى. سأذهب المتزلج

في فيرما مع يرقانات صوفية مسكينة أخرى، ربما لأسابيع ثلاث بائسة.

Pour Elle(١)

اتجه فان نحو المنصة الرهبانية التي كان قد خصصها لكتابة أفكاره الفقارية في وضعية عمودية، ثم دوّن التالي:

Poor L(١)

نحن آسفان لرحيلك مبكراً جداً. لا بل إننا أكثر أسفاً لأننا دنسنا نقاء الـ إيزميرالدا والحورية، وورطناها بطيشنا الفاسق. لن نمارس أبداً ثانية ألعاباً كتلك معك. أبداً يا عزيزتي، يا عصفور النار. إننا نعتذر. الاستذكار، الجمر المتقد، وجمال نسيج الجلد، يُفقدون الفنانين والمغفلين القدرة على ضبط النفس. يحكى أن قباطنة طائرات هوائية هائلة أو حتى شراعية، وحوذيين ذوي رائحة نتنة، قد رمت بهم نحو الجنون، عيونٌ خضراء، ولفائف شعر نحاسية. كنت نتمنى لو أننا أعجبناك ومتعناك، ط. ن. (طائر النار)! لقد جنحنا كثيراً. أنا، فان فين، جنحت كثيراً. نحن نادمان لهذا المشهد المخزي، رغم كونه بريئاً في أساسه. ستمر فترة من الشدة العاطفية، والترميم. مزقي كل شيء، وانسي!

محبانك A&V

(بالترتيب الأبجدي)

«أدعو هذا عفناً تطهيرياً طناناً»، قالت آدا بعد أن قرأت رسالة

---

(١) Pour Elle: بالفرنسية تعني لها. وجناسها اللفظي بالإنكليزية Poor L، أي المسكينة L. (مترجم)

فان. «لم علينا أن نعتذر لها وقد منحناها تجربة ألذّ رعشة في حياتها؟ أنا أحبها ولن أسمح لك مطلقاً بإيذائها. أمر غريب - أتدري؟ شيء ما في لهجتك يدفعني للغيرة، ولأول مرة في ناري [هكذا وردت في المخطوطة الأصلية، ناري بدل حياتي. محرر]. فان! يا فان! يوماً ما، في مكان ما، ربما بعد حمام شمس أو رقصة، ستنام معها يا فان!»

«ما لم تستنفدي كل جرعات حبي. أتسمحين لي بإرسال هذه السطور؟»

«أجل، ولكني أرغب في إضافة بضع كلمات.»

ملاحظتها المضافة:

التصريح أعلاه قد ألّفه فان وسأضع توقيعي على مضض. تصريح طنان ومتزمت. أنا أعشقك يا صغيرتي، ولن أسمح له يوماً بإيذائك، سواء آذاك بلطف أو بجنون. عندما تسأمين من كوين، لمَ لا تطيرين إلى هولندا أو إيطاليا؟

A

«والآن! فلنخرج لاستنشاق هواء نقي!»، اقترح فان. «سآمر بسرج باردوس وبيغ.»

«تعرّف عليَّ رجلان في الليلة الماضية»، قالت. «رجلان من كاليفورنيا لا يعرف أحدهما الآخر، لم يتجرأ أي منهما على الانحناء لتحيتي - بسبب مبارز السيوف، ذي بدلة التوكسيدو الحريرية، الذي كان برفقتي. أحدهما كان آنسكار، المنتج، والآخر، بصحبة مومس، بول فينييه، أحد أصدقاء والدك في لندن. كنت آمل لو نعود إلى السرير.»

«سنذهب الآن بجولة فوق ظهور الخيل في المتنزه»، قال فان

حازماً، ثم اتصل، وقبل كل شيء، بأحد سعاة البريد الخاصين بأيام الآحاد، لنقل الرسالة إلى فندق لوسيت - أو منتجع فيرما، إن كانت قد غادرت.

«أظن أنك تعرف ما أنت فاعله؟»، قالت آدا.

«أجل، أعرف.»

«إنك تحطم قلبها»، قالت آدا.

«آدا! يا حبيبتي المعشوقة! أنا فراغ مشع»، صاح فان، «إني أتماثل للشفاء بعد مرض طويل مروّع. لقد بكيتِ حين رأيت ندوبي البشعة، ولكن، من الآن فصاعداً، لن تكون الحياة بالنسبة لي، إلا حباً ضحكاً وخموراً. لا أقدر على وزر القلوب المحطمة، بالكاد انتهيت من رتق جروح قلبي. ستضعين وشاحاً أزرق، وأنا شارباً مستعاراً، لأبدو كـ بيير لو غراند، أستاذي في المبارزة.»

«ولكن تذكر!»، قالت آدا، «أبناء العمومة من الدرجة الأولى لديهم كل الحق في ركوب الخيل معاً. وحتى الرقص والتزلج، إن رغبا في ذلك، إذ إنهما يعتبران كأخ وأخت. إنه ليوم أزرق، ثلجي، ثقيل الهواء.»

سرعان ما جهزت. تبادلا قبلات رقيقة في دهليز المبنى، ما بين المصعد والدرج، قبل أن يفترقا لدقائق قليلة.

«برج»، تمتمت رداً على سؤال عينيه، تماماً كما كانت تفعل في أصباح الماضي المعسولة، عند التحقق من مقدار سعادتهما.

«وأنت؟»

«زقورة عادية».

٩

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد بعض الجولات، اكتشفا وجود مسرح صغير جداً، متخصص بعروض «الغرب الملون[١]» (كما كان يُطلق على الصحارى التي لا وجود للفن فيها)، وكان يعيد عرض «الشابات والملعون»، ١٨٩٠، النسخة التي انحطّ إليها مستوى رواية الآنسة لاريفيير، أطفال ملعونون، ١٨٨٧. كانت أحداث قصتها تدور داخل قصر في فرنسا، حيث تقوم مراهقتان توأم، بتسميم أمهما الأرملة، التي كانت قد أغوت جارها الشاب، والذي كان بدوره حبيب إحدى الفتاتيْن. كانت الكاتبة قد قدّمت كثيراً من التنازلات أمام حدود الحرية المسموح بها في ذلك العصر، وخيال كتّاب السيناريو الرديء؛ ولكنها في النهاية، قد تنصّلت، كما فعلت السيدة القائدة، من نتيجة المؤامرة النهائية التي جعلت من القصة، وبعد كثير من التلاعبات، أشهر جريمة قتل في آريزونا، تحولت فيها الضحية إلى أرمل على وشك الزواج من عاهرة كحولية، رفضت مارينا لعب شخصيتها، وكانت محقة في ذلك. ولكن البائسة آدا قد تشبّثت بدورها الصغير:

(١) الغرب الملون: إشارة إلى ما يعرف بالصحراء الملونة أو الصحـ.ا، المرسومة في آريزونا. (مترجم)

دقيقتان في traktir (حانة صغيرة على جانب الطريق). خلال البروفات، شعرت أن أداءها لدور الساقية اللعوب لم يكن بهذا السوء - إلى أن لامها ذات يوم المخرج، مدّعياً أنها تتحرك كمراهقة خرقاء. لم تتنازل لرؤية النتاج النهائي، ولم تكن متحمسة لقرار فان بمشاهدة العرض الآن، ولكنه ذكّرها أن المخرج غ. آ. فرونسكي كان قد أخبرها أنها جميلة بما يكفي لتساهم يوماً في لعب دور بديلة لينور كولين، التي كانت في عمر العشرين، كما الأولى، جذابة وخرقاء، ترفع كتفيْها وتدوّرهما إلى الأمام بذات الطريقة، عندما تعبر غرفة. جلسا مع بدء العرض التمهيدي القصير، وصولاً حتى نهاية الفيلم الكامل، ليكتشفا أن مشهد الحانة قد اقتطع بأكمله، ما عدا لقطة يظهر فيها ظل كوع آدا الواضح جداً، كما أكدّ لها فان.

في اليوم التالي، وفي غرفة الرسم الصغيرة، بديوانها الأسود، ووسائدها الصفراء، ومشربيتها محكمة الإغلاق، التي بدا زجاجها الجديد كعدسة مكبرة لرقائق الثلج التي لم تتوقف عن الهطل (ظهرت بالمصادفة فوق صفحة الغلاف لمجلة «الجميل والفراشة»، مع فراشة وقد استقرت فوق حافتها)، هناك، ناقشت آدا مهنتها الدرامية. أثار الأمر برمّته اشمئزاز فان في سريرته (ولكن، وعلى نقيض ذلك، فإن شغف آدا بالتاريخ الطبيعي قد أثار فيه حنيناً وروعة). بالنسبة له، فإن الكلمة المكتوبة لا توجد إلا في نقائها المجرد، في جاذبيتها التي لا تتكرر لفعل لا يقل عنها مثالية. الكلمة تنتمي لكاتبها فقط، لا أحد سواه، ولا يمكن نطقها أو تمثيلها بإيماءة (كما أصرّت آدا) دون أن يتدخل عقل الآخر، الذي يقضي بطعنته القاتلة على الفنان الذي كتب، في عقر فنه. إن مسرحية مكتوبة لهي متفوقة بمراحل على أفضل عرض لها، حتى ولو أخرجها الكاتب بنفسه. خلاف ذلك، اتفق فان مع آدا على أن الشاشة الناطقة، وبكل تأكيد، أفضل من

المسرح الحي، وذلك للسبب البسيط الذي يسمح للمخرج بتحقيق معايير الكمال الخاصة به، وصيانتها من خلال عدد غير محدود من إعادة التصوير. لم يفكّر أي منهما في الفراق الذي ستجبرهما عليه الضرورات المهنية، حين يتوجّب على آدا الحضور إلى مواقع التصوير، ولم يتخيلا أنهما سيسافران معاً إلى تلك المواقع، ليستقرا في العيش سوية في هوليوود في الولايات المتحدة الأمريكية، أو إيفيديل في إنكلترا، أو فندق كوهنوريتز الأبيض في القاهرة. لقول الحق، لم يتخيلا على الإطلاق أي حياة أخرى وراء لوحة حاضرهما الحي، تحت سماء مانهاتن الزرقاء، اللطيفة والرائعة.

عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها، كان لآدا إيمان راسخ بأنها يوماً ما، وبطلقة صاروخية، ستبلغ سماء النجومية، لتفجّر فيها موشوراً من دموع الانتصار. درست في معاهد خاصة. وهناك تلقت تعليمها على يد ممثلين موهوبين، وليس بالضرورة ناجحين، كـ ستان سلافسكي (لا تربطه علاقة بمن نعرف، وليس باسْم مسرحي) الذي أعطاها دروساً خصوصية في التمثيل، اليأس والأمل. كان ظهورها الأول كارثة صغيرة؛ لم يصفق لعروضها التالية والمتلاحقة إلا الأصدقاء المقربون.

«حبنا الأول»، أخبرت فان، «هو ظهورنا الأول فوق الخشبة أمام جمهور مرحّب، وهذا ما يخلق فناناً عظيماً - هذا ما أكده لي ستان وصديقته، التي لعبت دور الآنسة سبانغل تريبانغل في مسرحية الخواتم الطائرة. التقدير الحقيقي يصل مع أكاليل الزهور، في آخر العرض.»

«بوش[1] (كلام فارغ)»، قال فان.

---

(١) بوش: تلميح آخر إلى هيرونيموس بوس، الرسام الهولندي. (مترجم)

«تماماً - بوش أيضاً قد استهجنه في البداية أغبياء أمستردام القدماء، وانظر إلى ما جرى بعد ثلاثة عقود، كل جِراء الدمى تحاول تقليده! ما زلت مؤمنة بموهبتي، ولكني قد أكون ضائعة ما بين النهج الصحيح وبين موهبتي، التي لا تأبه أبداً بالقواعد المستقاة من فن الأمس.»

«حسناً، على الأقل فإنك تعرفين ذلك»، قال فان، «ولقد شرحتِ لي الأمر مطولاً في إحدى رسائلك.»

«يبدو أني لطالما أحسست، على سبيل المثال، أن التمثيل لا يجب أن يتركز على 'الشخصية' أو هذا 'الأسلوب' أو ذاك، ولا حتى على الثيمة الاجتماعية، ولكن فقط على شاعرية الكاتب، الموضوعية والفريدة، لأن مؤلفي المسرحيات، وكما أثبتت غالبيتهم، هم أقرب للشعراء منهم للروائيين. في الحياة الواقعية، نحن كائنات الصدفة، نسبح في فراغ مطلق - ما لم نكن فنانين من تلقاء أنفسنا، طبعاً؛ ولكن في مسرحية جيدة، أشعر أني شخصية قد تم تأليفي، أشعر أني قد مررت في مجلس الرقابة، أشعر بالأمان، مع عتمة تتنفس أمام ناظري (بدل الجدارالرابع)، أشعر بحضن ويل[1] المرتبك يلفني (لقد ظنني أنت)، وأحياناً أشعر بحضن ذاك، الأقل انحرافاً، أنطون بافلوفيتش[2]، الذي لطالما كان مولعاً بالشعر الأسود الطويل.»

«وهذا أيضاً ما كتبته لي مرة.»

حصل أن تزامنت بداية حياة آدا المهنية، مع نهاية تلك الخاصة بوالدتها، والتي استمرت لربع قرن. حصل ما هو أكثر من ذلك، ظهرت الاثنتان في مسرحية «الأخوات الأربع» لتشيخوف. لعبت آدا شخصية إيرينا فوق الخشبة المتواضعة في أكاديمية ياكيما للفنون

---

(١) ويل: ويليام شكسبير. (مترجم)
(٢) أنطون بافلوفيتش: أنطون تشيخوف. (مترجم)

المسرحية. كانت المسرحية نسخة مختصرة إلى حد ما، فعلى سبيل المثال، أبقت فقط على الإشارات إلى الأخت فارفارا، الـ garrulous originalka (المرأة غريبة الأطوار، كما كانت مارشا تسميها)، بينما ألغت مشاهدها الفعلية، وبذلك كان على عنوان تلك النسخة أن يتغير إلى «الأخوات الثلاث»، وهو ما ظهر حقاً في الصفحة الساخرة لإحدى الصحف المحلية. كان دور الراهبة (الموسّع بشكل ملحوظ) هو ما لعبته مارينا في نسخة عن المسرحية، سينمائية متقنة. وقد حصلت هي والفيلم على جوائز كثيرة، ما كانا ليستحقانها.

«منذ أن قررت الوقوف فوق تلك المنصة»، قالت آدا (نستخدم هنا رسائلها)، «كنت متأثرة برداءة آداء مارينا، وهذا طبعاً رأي النقاد فيها، الذين إما تجاهلوها تماماً، أو ضموها إلى مقبرة 'الممثلين المساعدين' المقبولين؛ أما في حال أدّت دوراً بارزاً لا يمكن تجاهله، فإن سلسلة الصفات كانت تتغير من «خشبية» و«جامدة» إلى «حساسة» (أعلى إطراء قد تلقته على الإطلاق). ثم قامت، عند أكثر مراحل حياتي المهنية حساسية، بنسخ التعليقات المستفزة وإرسالها إلى الأصدقاء والأعداء: 'الدورمانوفا الرائعة في دور الراهبة، قلبت الموازين، حولت شخصية ساكنة إلى. . . إلخ، إلخ، إلخ'، لا تهتم السينما بالطبع بالمشاكل اللغوية»، تابعت آدا (في الوقت الذي كان فيه فان يكتم تثاؤبه، أو بالأحرى يبتلعه). «لم تكن هنالك حاجة إلى دبلجة دور مارينا وثلاثة آخرين من الممثلين الذكور، على عكس بقية الطاقم، الذين افتقروا إلى الرطانة المطلوبة؛ في حين كان إنتاج ياكيما البائس يعتمد على اثنين فقط من الممثلين الروس، تلميذ آلتسخولر[١]، ستان، في دور البارون نيكولاي لفوفيتش توزينباتش

---

(١) آلتسخولر: الجمع بين alt، أي عجوز، وschuler، زميل، بالألمانية. (مترجم)

كرون-ألتسخور، وأنا في دور إيرينا، طفلة بائسة ونبيلة، كانت عاملة تلغراف في الفصل الأول، أمينة سر مكتب رئيس البلدية في الثاني، ومعلمة مدرسة في نهاية المسرحية. كان لبقية الممثلين خليط من اللهجات - إنكليزية، فرنسية، إيطالية - بالمناسبة، ما هي النافذة بالإيطالية؟»

"Finestrã sestra"، قال فان، محاكياً ملقناً مجنوناً.

«إيرينا (تنشج بالبكاء): أين ذهب كل شيء؟ أوه يا عزيزي، أوه يا عزيزي! لقد نسيت كل شيء، لقد نسيت كل شيء. كل شيء مشوش في ذهني - لم أعد أذكر كيف أقول «سقف» بالإيطالية، أو نافذة!»

«لا، النافذة تأتي قبل السقف في هذا الخطاب»، قال فان، «لأنها أولاً تنظر حولها ثم نحو الأعلى؛ حركة الفكر المنطقية.»

«أجل، بالطبع: كانت لا تزال تتصارع مع 'نافذة'، ثم رفعت رأسها لترى 'سقفاً'، لا يقل غموضاً. في الواقع، أنا متأكدة من أنني لعبت الدور وفقاً لطريقتك النفسية، ولكن هل يهم ذلك الآن، هل كان مهماً حينها؟ - كان الدور بغيضاً إلى أبعد حد، وكان البارون كل سطرين يخطئ ويتلعثم - ولكن مارينا، مارينا كانت مذهلة في عالم الظلال خاصتها! 'مرّ أحد عشر عاماً منذ أن تركت موسكو' - (تلعب آدا الآن دور فارفارا، مقلدة 'نغمة صوت التقية'، كما أوصى بها تشيخوف، pevoutchiï ton bogomolki وكما أدّتها مارينا ببراعة مزعجة، في دور الراهبة)، 'ولكن في هذه الأيام، فإن شارع باسمانيا القديم، الذي وصلتِ إلى هذا العالم فيه (ملتفتة نحو إيرينا) قبل عشرين سنة خلت، قد صار اسمه طريق بوسمان، تحدّه من الجانبين ورش عمل ومرائب' (تحاول إيرينا الإمساك بدموعها). 'لم إذاً!

تريدين العودة يا إيرينوشكا؟ (تغص إيرينا بالدموع)'. وبطبيعة الحال، فعلت أمي - ليباركها الرب - ما كان ليفعله أي ممثل جيد، ارتجلت قليلاً. وعلاوة على ذلك، جاء صوتها بتلك النغمة الروسية الشجية، ليطغى على تلك الإيرلندية المبتذلة، خاصة لينور.»

كان فان قد رأى الصورة وأعجب بها. الرشيقة إلى حدّ لا يوصف، والحزينة دائماً، الإيرلندية لينور كولين ــ

من يعيد لي كولين
وسنديانتي الكبيرة
وكولين!

ــ التي بدت شديدة الشبه بـ آدا، في الصورة التي التقطت لها مع والدتها في بيلادونا، مجلة سينمائية، كان غريغ إرمينين قد أرسلها إليه، مفترضاً أنه سيُسعد لرؤية صورة خالته وابنة عمه، سوية، في فناء كاليفورنيا، قبل إطلاق الفيلم. تدخل فارفارا، الابنة الكبرى للجنرال الراحل سيرجي بورزوروف، الفصل الأول، قادمة من دير بعيد، دير تسيتسيكار، إلى بيرم (تدعى أيضاً بيرمويل) في الغابات الخلفية لخليج آكيمسك، شمال كانادي، لتشرب الشاي مع أولغا، مارشا وإيرينا، في يوم عيد الأخيرة. ما أثار استياء الراهبة، حلم أخواتها الثلاث الوحيد، بالرحيل عن الصقيع والرطوبة، وأسراب البعوض الموبوءة، رغم كونها «مقيمة دائمة لطيفة ومسالمة» - كما كانت إيرينا ساخرة تلقبها - والذهاب إلى موسكو النائية والمليئة بالخطايا، عاصمة إيستوتي لاند السابقة.

في نسخته الأولى من المسرحية التحفة التي ما إن ظهرت لم يتسن لها أن تتنفس الصعداء، قام تشيخوف Tchechoff (كما كان يلفظ اسمه حينما كان في ذلك العام قاطناً في بنسيون روسي مقيت،

٩، شارع غونود، نيس) بجمع كل المعلومات التي رغب في التخلص منها في صفحتَي المشهد السخيف، تحمل كثيراً من التواريخ، والذكريات - العبء الذي يستحيل على النساء الثلاث الإيستوتيات الحزينات حمله فوق أكتافهن الضعيفة. ثم أعاد توزيع تلك المعلومات على مدى مشهد طويل جداً، حيث يوفر وصولُ موناشكا فارافارا الجوَ المناسب لكل المحادثات اللازمة لإشباع فضول المتفرج النهم. كانت ضربة موفقة في عالم المسرح، ولكن لسوء الحظ (كما يحصل في كثير من الأحيان حين يقدم المؤلف شخصية لغرض واحد معين) فإن تشيخوف لم يتمكن من توضيب حقائب الراهبة وإعادتها إلى الدير قبل الفصل الثالث، ما قبل الأخير.

«أفترض»، قال فان (دارياً بفتاته) «أنك لم ترغبي في أي نصائح من أمك قبل أدائك لإيرينا.»

«طبعاً! ما كان الأمر لينتهي إلا بشجار. لطالما استأت من اقتراحاتها لأنها كانت تقدمها بطريقة تهكمية ومهينة. سمعت أن أمهات العصافير تبدأ سيمفونية غاضبة، متهكمة وغاضبة، عندما ترى أن صغارها المساكين (bezkh-vostie bednyachki) قد تأخروا في تعلم الطيران. دعنا من هذه السيرة! لقد اكتفيت منها. بالمناسبة، إليك جدول إخفاقي.»

نظر فان سريعاً إلى لائحة أسماء الممثلين فلفت انتباهه تفصيلان مسلّيان: شخصية فيدوتيك (ضابط المدفعية الذي يقوم دوره الكوميدي على حمل آلة تصوير تومض باستمرار)، قد أُسندت إلى كيم (مختصر ياكيم) إسكيموسوف؛ بينما أسند إلى شخص يُدعى جون ستارلينغ، John Starling، دور سكفورتسوف Skvortsov (شاهد على مبارزة رديئة في الفصل الأخير)، الاسم المشتق من

سكفوريتس skvorets[1]، Starling بالإنكليزية. وعندما ناقش فان ملاحظته الأخيرة مع آدا، احمرّت خجلاً، عادتها القديمة التي لم تتغير.

«أجل»، قالت، «لقد كان فتى جميلاً وكان بيننا ما يشبه المغازلة، ولكنه كان أضعف من أن يحتمل إجهاد وضغط ازدواجية ميله الجنسي - لقد كان، ومنذ سن بلوغه، معشوق أستاذه في الباليه السمين، دانغلوليف[2]. لقد مات منتحراً. أترى! (عاد الآن وجهها إلى شحوبه الجاف) ها أنا لا أخفي عنك شيئاً!»

«فهمت. وماذا عن ياكيم؟»

«أوه لا. لا شيء بخصوصه البتة.»

«لا. ليس هذا ما عنيته. ف ياكيم على الأقل، لم يقم، وبغض النظر عن تشابه الأسماء، بالتقاط صور لأخيك يغازل فتاته، التي لعبت دورها، داون دو لير[3].»

«لست متأكدة. ما أذكره هو أن المخرج كان يسمح لنا ببعض الاستراحات المرحة.»

«شفق يرتجف بقميصه الوردي والأخضر، في نهاية الفصل الأول.»

«أعتقد أني كنت أسمع نقراً من وراء الكواليس، وأصوات ابتهاج لا توحي بسوء. كل ما كان على ستارلينغ المسكين فعله هو

---

(١) starling و skvorets: طائر الزرزور، بالإنكليزية وبالروسية، ويلمّح الكاتب إلى شخصية Skvortsov التي لم يكن لها ظهور فعلي أو مرئي في نص المسرحية، وبالتالي فإن أي صوت ذكري يمكن أن يلعبها. (مترجم)

(٢) دانغلوليف: إشارة إلى سيرجي دياغيليف (١٨٧٢-١٩٢٩) أستاذ في رقص الباليه. (مترجم)

(٣) داون دو لير: تلميح آخر إلى بودلير. (مترجم)

أن يصرخ 'هيا' من مركب فوق نهر كاما، غير ظاهر فوق الخشبة، لإعطاء الإشارة ليتقدم نحو أرض المبارزة.»

لننتقل إلى الاستعارات المجازية التعليمية كما عند صديق تشيخوف، الكونت تولستوي.

كلنا نعرف خزانات الملابس القديمة تلك، الموجودة في فنادق العالم القديم، في المناطق المرتفعة والنائية. في البداية، يفتحها أحدنا بأقصى درجة من الحذر، والبطء، آملاً، من دون جدوى، كتم صرير أبوابها الحاد، الذي يبدأ خفيفاً ثم يتنامى عندما تصبح الدرفات في منتصف طريقها. ولكن سرعان ما نكتشف أننا لو قمنا بفتحها أو تسكيرها بسرعة خاطفة، وبحركة حازمة ومباشرة، فيمكن لنا عند ذلك مباغتة المفصلات الجهنمية، وبذلك نظفر بانتصارنا الصامت. على الرغم من حلاوة وقوة النعيم الذي أحاط بفان وآدا وأشبع سريرتهما (ولا نقصد هنا فقط الحب الإيروتيكي)، إلا أنهما قد أدركا أن على بعض الذكريات أن تبقى في خزائن مقفلة، خشية أن ينهش أنينُها الوحشي آخر عصب في الروح. ولكن إذا ما نفّذا العملية بسرعة، إذا ما تمّ ذكر الشرور، التي يصعب محوها، بين تهكمَيْن سريعين، فقد يتمكن مخدر الحياة ذاتها من تخفيف محنة عذابات الذكريات العصية على النسيان، الناجمة عن فتح باب ما. كان يحلو لآدا من وقت لآخر، أن تذكر متهمكةً، خطايا فان الجنسية الصغيرة، على الرغم من كونها بالعموم تميل إلى تجاهلها، كما لو كانت تطالبه، ضمنياً، بتساهل مماثل من قبله، تجاه خاصتها. ولكن فضول فان لم يكن ليُشبع باعترافاتها الشفوية، لذا كانت رسائلها هي الحل الأمثل. عزت آدا إلى معجبيها السابقين كل الصفات والعيوب التي بتنا جميعنا نعرفها: عدم الكفاءة، التفاهة والسطحية؛ أما عذرها الدائم فكان التعاطف الأنثوي وبعض الاعتبارات الصحية، حجتها

التي آذت فان أكثر مما كانت خيانة عاطفية مع سابق إصرار لتفعل. قررت آدا أن تتجاوز خطايا كل منهما «الحسية»، الصفة التي تحمل في مضمونها دلالة على توافه، لا تفسد ما بينهما، ولا تسمو إلى ما آمن العاشقان به سراً، وبخجل. سعى فان لاتباع خط المنطق ذاته، لكنه لم يصل إلى نسيان العار والألم، وإن بلغ ذروات جديدة من سعادة لم يذقها حتى في أسطع ساعات حياته التي عاشها قبل هاتيك الساعة الحالكة، من ماضيه معها.

١٠

اتّخذا، سدىً، الكثير من الاحتياطات، إذ لا شيء سيغيّر من نهاية الفصل الحالي (المكتوبة والمصنفة). وحدهم لوسيت، وكالة نقل الرسائل وآدا، هم من يعرفون عنوان فان. من خلال موظفة لطيفة في المصرف الذي يتعامل معه ديمون، تأكد فان من أن والده لن يحضر إلى مانهاتن قبل ٣٠ مارس. كانا يخرجان منفصلين من الشقة، وكذلك عند العودة إليها. كانا يرتبان لاجتماع في المكتبة أو في مركز تجاري، لينطلقا منه في جولاتهما اليومية. ثم جاء ذلك اليوم حين أخفقا فيه بتنفيذ قاعدتهما (علقت آدا لبعض لحظات مفزعة في المصعد، وكان فان، مدفوعاً بحبوره، يقفز فوق الدرجات، نزولاً من قمتهما المشتركة نحو الطابق السفلي)، لينتهيا مجتمعين في مرمى نظر السيدة آرفور العجوز، التي صدف مرورها أمام الباب الرئيسي، مع كلب يوركشاير صغير جداً، بشعره الحريري الطويل، بلوني البيج والرمادي. كان اجتماع الثلاثة المتزامن مباشراً وكاملاً: كانت تعرف كلتا العائلتيْن ومنذ زمن بعيد، وكانت مهتمة لمعرفتها من خلال ثرثرتها (وليس محادثتها) مع آدا أن فان، ومن قبيل الصدفة، قد عاد إلى مانهاتن في ذات الوقت التي همّت به هي، آدا، للعودة إلى الغرب؛ وأن مارينا كانت بخير؛ وأن ديمون كان في مكسيكو أو

أوكسميس؛ وأن كولين لينور لديها ذات الحيوان الأليف اللطيف مع ذات فرق الشعر الرائع على امتداد منتصف الظهر. في اليوم ذاته (٨ شباط ١٨٩٣) أعاد فان رشوة البواب، المتخم مسبقاً، لإجابة أي كان في حال سؤاله عن أبناء فيين، بتأكيد موجز لجهل مطلق، خاصة وإذا كان السائل أرملة طبيب أسنان مع كلب أشبه باليعسوب. الوحيد الذي لم يُأخذ في الحسبان كان ذلك الوغد القديم الذي عادة ما يظهر في اللوحات على شكل هيكل عظمي أو ملاك. كان والد فان قد غادر لتوّه سانتياغو إلى سانتياغو أخرى ليرى آثار زلزال، حين جاء اتصال من مشفى لادور يحمل نبأ وفاة دان. انطلق في الحال إلى مانهاتن، بعينين تحترقان، وجناحين ينتفضان. ما عادت الحياة لتعني له الكثير في ذلك الوقت. في مطار المدينة البيضاء النائمة تحت ضوء القمر، التي ندعوها نحن تنت Tent، ويدعوها بحارة تابوكوف الذين شيّدوها، بالكاتا، والموجودة شمال فلوريدا، اضطر ديمون للهبوط وتبديل الطائرة بسبب عطل في المحرك. وهناك أجرى مكالمة طويلة مع الطبيب نيكولين (حفيد عالم القوارض الشهير كونيكونيلوف - لا يمكننا التخلص من الخس) الذي نقل إليه تقريراً مفصلاً على نحو مبالغ فيه، عن وفاة دان. كانت حياة دانيال فيين خليطاً من حياة «مسبقة الصنع» وأخرى غريبة متنافرة؛ ولكن موته أظهر أثراً فنياً، يعكس (قد لاحظه ابن عمه فوراً، وليس طبيبه) شغف الراحل باللوحات الفنية، واللوحات المزيفة، المرتبطة باسم هيرونيموس بوس.

في اليوم التالي، الخامس من فبراير، حوالي التاسعة صباحاً، حسب توقيت مانهاتن الشتوي، وفي طريقه نحو محامي دان، لاحظ ديمون عند عبوره لجادة آليكسيس، مرور سيدة، تجمعه بها معرفة قديمة ليست بذات قيمة. إنها السيدة آرفور، التي تقدمت نحوه م

كلبها الصغير، لتقاطع مسيره عند جانب الطريق. من دون تردد، نزل ديمون عن الرصيف، وباعتباره لم يكن يعتمر قبعة يمكنه رفعها للتحية (لم تكن القبعات لتتناسب مع ارتداء المعاطف المطرية، كما أنه كان قد تناول حبة غريبة وفعالة، تمكنه من احتمال تعب يوم آخر بعد رحلة لم يذق خلالها النوم)، فقد لوح مظلته الضئيلة، بإيماءة مناسبة بما يكفي. تذكّر بعد ذلك، وبوميض من المتعة، إحدى المساعدات في عيادة زوجها، وكانت خبيرة غرغرة فموية، ثم شق طريقه من أمام عربة خضار يجرها حصان مرح، مبتعداً عن طريق السيدة R4[1]. ولكن لمثل هذه الحالات الطارئة، كان القدر قد أعدّ، تتمة بديلة، أكثر دقة.

عندما مشى ديمون أمام مطعم موناكو مسرعاً (أو الهوينى نسبة لشخص تناول هاتيك الحبة)، حيث كان غالباً ما يتناول غداءه، خطر في باله أن ابنه (الذي لم يكن الاتصال به ممكناً) قد يكون لا يزال يعيش مع الغبية الصغيرة كوردولا دو براي، في شقتها الواقعة في المبنى ذاته. لم يسبق له مرة أن صعد إلى الشقة. أم تراه قد فعل؟ أكان ذلك لاستشارة تجارية مع فان؟ وجلسا فوق شرفة مشمسة؟ وشراب غائم؟ (أجل لقد فعل، ولكن كوردولا لم تكن غبية آنذاك، أو بالأحرى لم تكن حاضرة). إن أردنا التحدث من الناحية القدرية التوافقية، فإن مجرد الفكرة البسيطة والمتقنة القائلة بأن الأرض صغيرة والسماء واحدة (سماء بيضاء مع شرارات ضوئية متعددة الألوان) هي ما دفع ديمون لدخول ردهة المبنى والتوجه نحو المصعد، الذي دخله للتوّ نادل بشعر زنجبيلي اللون، مع فطور معد لشخصين، فوق طاولة بعجلات، مع صحيفة مانهاتن تايمز مزلقة بين

---

(١) R4: مصطلح شطرنجي.

أطباق تغطيها قبب فضية لامعة، تظهر فوقها خدوش طفيفة جداً. هل ما زال ولده يعيش فوق، سأل ديمون تلقائياً، بعد أن دسّ رشوته المعدنية النبيلة بين القبب. أجل، اعترف المغفل المبتسم، لقد أمضى كل الشتاء هنا مع سيدته. «إذاً، الولد كأبيه»، قال ديمون متنشقاً بأنف نهم رائحة قهوة موناكو، وقد تضخمت بين ظلال الأعشاب الاستوائية التي كانت تلوح في دماغه.

في ذلك الصباح الذي لا يُنسى، وبعد أن أمر بإحضار الفطور، قفز فان خارج حوض استحمامه، وتدثّر برداء استحمام بلون الفراولة، عندما ظن أنه سمع صوت فاليريو قادماً من غرفة الاستقبال المجاورة. تهادى بخطواته، مدندناً بنغمات غير متناغمة، متطلعاً إلى يوم آخر من سعادة متزايدة (مع وجود حافة صغيرة مزعجة لم تختف تماماً، عقدة أخرى من الماضي لا تزال مؤلمة رغم محاولات إعادة تشكيلها لتتناسب وإشراق الحياة الجديدة).

بملابسه السوداء، بحذائه الأسود، بشاله الأسود، وبنظارته الأحادية المعلقة بشريط أسود أعرض من المعتاد، جلس ديمون إلى طاولة الإفطار، يحمل بيد فنجان قهوة، وبالأخرى الصحيفة مطوية على نحو مريح ومفتوحة على صفحة الشؤون المالية.

انتفض متفاجئاً بحركة خفيفة، ثم وضع فنجانه جانباً، بيديْن مرتعشتيْن إلى حد ما، ملاحظاً صدفة التطابق بالألوان، بين ثوب الحمام وتفصيل آخر لمع في ذاكرته قبل قليل، الزاوية السفلى اليسرى للوحة معينة، مستنسخة ضمن الكاتالوغ الغزير الذي يحتفظ به داخل ذهنه.

كل ما استطاع فان أن يفكر في قوله: «أنا لست وحدي»، ولكن ديمون كان محملاً بأخبار كثيرة وسيئة، لم يكن معها ليلقي بالاً إلى تلميحات ابنه الغبي، الذي كان عليه أن يعود إلى الغرفة المجاورة

بكل بساطة، ليعود بعد دقيقة (مقفلاً الباب وراءه - ساجناً سنوات وسنوات من حياة مفقودة)، ولكنه بدل ذلك بقي واقفاً إلى جانب مقعد والده.

وفقاً لـ بيس Bess (شيطان بالروسية) ممرضة دان، ذات الصدر العارم على نحو مقرف، والتي فضّلها على جميع الأخريات، واصطحبها معه إلى آرديس، إذ إنها كانت تتمكن من استخراج آخر قطرات متعة (كما كانت تقول عاهرة عجوز) من جسده البائس، فإنه كان يشتكي منذ بعض الوقت، وحتى قبل رحيل آدا على نحو مفاجئ، من رؤيته لشيطان يجمع بين صفات الضفادع والقوارض، يرغب في امتطائه وقيادته نحو بيت تعذيب الأبدية.

وفقاً لما قاله الطبيب نيكولين، فإن دان وصف ممتطيه بأنه أسود اللون، ذو كرش شاحب، مع ترس أسود وراء ظهره يلمع كظهر خنفساء الروث، وسكين يحملها بحافره الأمامي المرفوع. في أحد أصباح يناير القارسة، تمكن دان بطريقة ما من الهروب، عبر متاهة في القبو ومستودع العتاد، إلى شجيرات آرديس البنية؛ كان عارياً تماماً ما خلا منشفة حمام حمراء مزركشة تلف عجزه، وعلى الرغم من صعوبة وصوله إلى هناك، دابّاً على الأربعة، كفرس مشلول تحت راكب غير مرئي، فقد تمكن من التوغل عميقاً في الغابة. من جهة أخرى، كان على فان أن يحذّر آدا، أن لا تطلق تثاؤبها الفضائحي، وأن لا تنطق بكلمات حميمة، لا يمكن الرجوع عنها، ولكن الفرصة لم تتسنى له.

«أرجوك يا سيدي»، قال فان، «انزلْ إلى الحانة وسوف أوافيك إليها ما إن أرتدي ملابسي. أنا في وضع حساس.»

«كفاك، كفاك!»، ردّ ديمون حاسماً، معيداً نظارته الأحادية إلى مكانها بعد أن انزلقت عن أنفه. «كوردولا لن تمانع.»

«إنها فتاة أخرى أكثر حساسية» - (متلعثماً على نحو مريع) «الملعونة كوردولا! إنها الآن السيدة توباك.»

«أوه بالطبع!»، صاح ديمون، «يا لغبائي! أذكر أن خطيب آدا قد أخبرني أنه قد عمل لفترة سوية مع توباك الشاب، في مصرف فينيكس. بالطبع. شاب أشقر، عريض الكتفيْن، أزرق العينيْن، من قاطني حي باك باي- بوسطن.»

«غير مهم!»، هتف فان بنبرة حاسمة، كما لو كان علجوماً أمهق، مشوهاً ومصلوباً. «أبي أرجوك! عليّ حقاً أن ـــ»

«كم هي غريبة ردة فعلك! ما مررت هنا إلا لأخبرك أن عمك دان قد توفي على طريقة بوس. لقد تخيل أن قارضاً كبيراً قد امتطاه وقاده خارج المنزل. وجدوه بعد فوات الأوان، وقد قضى نحبه في عيادة نيكولين، بعد أن هذى مطولاً بتفاصيل اللوحة. وها أنا اواجه صعوبة في جمع كل أفراد الأسرة. اللوحة الآن محفوظة في أكاديمية فيينا للفنون.»

«يا أبي! أنا آسف، ولكني أحاول إخبارك أن ـــ»

«لو كنت أحسن الكتابة»، تابع ديمون مستغرقاً في تأمله، «لوصفت من دون شك، وبكثير من الكلمات، بأي شغف وعظمة يلتقي الفن والعلم، وكأنه تزواج محارم - أجل هذه هي الكلمة - يجتمعان في حشرة، في طائر، في شوكة داخل غيضة جميلة. ستتزوج آدا من رجل منفتح، ولكن عقلها متحف مغلق، ولقد لفتت انتباهي مرة، ولوسيت أيضاً، وبصدفة غريبة، إلى بعض التفاصيل في اللوحة الأخرى الثلاثية، حديقة المسرات الهائلة الخاصة بالمهرجين، رسمت حوالي ١٥٠٠، وتحديداً إلى الفراشات فيها - أنثى الـ Meadow Brown، في وسط يمين اللوحة، و Tortoiseshell (فراشة درع السلحفاة) في وسطها، وكانت كل منهما مرسومة كما لو

كانت جاثمة فوق زهرة، وانتبه هنا إلى كلمة 'كما لو'، إذ إننا هنا لدينا مثال على المعرفة الدقيقة، وقد قدمتاه فتاتان صغيرتان جميلتان، لأنهما قالتا إننا نرى الجانب الخطأ من الحشرة، فقد رسمت الأجنحة رأساً على عقب، ولكن من الواضح أن بوس كان قد وجد جناحاً أو اثنين من أجنحة تلك الفراشات، عالقيْن في بيت العنكبوت في زاوية إطار نافذته، فأظهر لنا السطح العلوي والأجمل، بتصوير حشرته المطوية على نحو خاطئ. كل هذا قد قصدت به أني لا أعطي أي أهمية للمعنى الباطني وراء أسطورة العثة، المرسومة في تحفةٍ كان بوس يعبّر خلالها عن بعض هراء عصره. لدي حساسية تجاه الرموز الاستعارية، وأنا متأكد تماماً أنه قام بشكل عشوائي بتهجين الدمى المولودة في خياله، فقط لأجل المرح، ومتعة الرسم والألوان. وما علينا أن ندرسه، كما أخبرت بنات عمك، هو بهجة النظر، علينا أن نشعر ونتذوق حبة الفراولة الكبيرة بحجم امرأة، بلون ثوبك الذي ترتديه، أو هاتيك المفاجأة الرائعة لفوهة غير عادية. ولكنك يا فان لن تتبعني. أنت تريد مني أن أذهب، كي يتسنى لك أن تقاطع نوم جميلتك، أيها الوحش المحظوظ! بالمناسبة، لم أتمكن من إخطار لوسيت، الموجودة في مكان ما من إيطاليا، ولكني تتدبرت أمر تعقب مارينا حتى تسيسيكار - تعبث هناك مع أسقف بيلكونسك - وستصل في وقت متأخر من عصر اليوم، ترتدي، من دون أدنى شك، ثياب الحداد، المناسبة جداً، وعلينا عندها أن نسافر ثلاثتنا إلى لادور، إذ إني لا أظن ــــ»

هل تراه كان تحت تأثير بعض الأعشاب التشيلية الحادة؟ لم يكن سيل كلامه ليتوقف أبداً. شبح مجنون، لوحة ناطقة ــــ

«ــــ لا حقاً، لا أظن أن علينا إزعاج آدا في أغافيا. إنه - أعني فينلاندر - سليل، س.ل.ي.ل. واحدة من أهم عائلات

الفارانجيون، الذين هزموا الطرطاريين النحاسيين، والمنغول الحمر - أو أياً كانوا - الذين كانوا بدورهم قد هزموا الفرسان البرونزيين الأقدمين، قبل أن نقدم الروليت الروسية، والقمار الإيرلندي لتاريخ كازينوهات الغرب، في لحظة حظ.»

«أنا آسف جداً، لا بل إني في غاية الأسف»، قال فان، «لموت العم دان، ولاضطراب حالتك يا سيدي، ولكن قهوة صديقتي ستبرد، وأنا لا يمكنني التعثر داخل غرفة النوم مع كل تلك المعدات الجهنمية.»

«سأغادر، سأغادر. في النهاية، نحن لم نلتق منذ متى؟ أغسطس ربما؟ بكل الأحوال، أتمنى أن تكون فتاتك أجمل من كوردولا السابقة، أيها العصفور الطيار!»

عصفور طيار! ربما؟ أو ربما تنين؟ لا بد أنه كان عابقاً برائحة الأثير. أرجوك، أرجوك، أرجوك ارحل!

«قفازي! عباءتي! شكراً. أأستطيع استخدام دورة المياه؟ لا؟ حسناً. سأجد أخرى في مكان آخر. احضر في أقرب وقت ممكن، وسنلتقي بمارينا في المطار حوالي الرابعة، وعندها سوف ـــ»

في تلك اللحظة دخلت آدا؛ غير عارية - أوه لا؛ في ثوب وردي ارتدته كي لا تصدم فاليريو بعريها - مسرّحة شعرها على نحو مريح؛ حلوة ونعسة. ارتكبت خطأً فادحاً حين هتفت «Bozhe moy (يا إلهي)!»، ثم قفزت عائدة نحو ظلمة غرفتها. كل شيء قد ضاع في ذاك الجزء من الثانية.

«أو ما هو أفضل، ستأتيان معي حالاً، كلاكما، لأني سألغي موعدي وأذهب مباشرة إلى المنزل.»

لقد تكلم أو ظن أنه يتكلم متحكماً في ضبط نفسه، ناطقاً كلماته

بطريقة واضحة، قد أرعبت، أربكت، ونومت مغناطيسياً، تلميذ المدرسة الفاسق، والمتبجح.

تحديداً الآن - حدث ما حدث في اللحظة التي أوشك فيها كل شيء أن يُرمى إلى كلاب الجحيم (k tchertyam sobach'im)، جحيم Jeroen Anthniszoon van Äken[1]، بسحر فنها متعدد المظاهر، كما شرح ديمون متنهداً للطبيب نيكولين، وللممرضة بيلابيستيا (بيس) التي ورثت عن دان مجموعة كبيرة من كاتالوغات المتاحف، وأفضل ثاني قسطرة لديه.

(١) Jeroen Anthniszoon van Äken اسم آخر لهيرونيموس بوس.

١١

انتهى مفعول عقار التنين، الذي لا تكون عادة آثاره اللاحقة مبهجة، حيث إنها تجمع ما بين التعب الجسدي وإرهاق ذهني معين، يجعل العقل يشعر كما لو أنه نضب من كل الألوان. تمدد الآن ديمون، تلفّه عباءة رمادية، فوق أريكة رمادية، في مكتبه القائم في الطابق الثالث. وقف ابنه أمام النافذة مديراً ظهره للصمت. آدا التي وصلت مع فان قبل دقيقتيْن، كانت تنتظر في غرفة من الطابق الثاني، تقع مباشرة تحت المكتب، تحوي أثاثاً منجداً بالأقشمة الدمشقية. في ناطحة سحاب من الحارة ذاتها، وأمام إحدى نوافذها المفتوحة، والمواجهة تماماً لنافذة المكتب، وقف رجل يرتدي مئزراً، ينصب حاملاً للرسم، يهزّ رأسه بحثاً عن الزاوية الصحيحة.

أول ما قاله ديمون:

«أصرّ على أن تواجهني عندما أتحدث إليك.»

أدرك فان أن تلك المحادثة المصيرية كانت قد بدأت بالفعل في دماغ والده، إذ إن التوبيخ قد بدأ بنبرةِ من كان جارياً في حديثه وقد تمت مقاطعته. مع انحناءة طفيفة، التفت فان واتّخذ لنفسه مقعداً.

«بكل الأحوال، قبل أن أحذرك من حقيقتيْن، أريد أن أعرف منذ متى - منذ متى قد...» ('منذ متى قد بدأ الأمر'، هذا ما كان

يُفترض أن يكون عليه سؤاله، أو شيئاً لا يقل ابتذالاً، ولكن أوليست كل النهايات مبتذلة: أن تموت مشنوقاً، أو في خزانات السنان الحديدية (Old Maid)[1] في قلعة نورنبرغ، أو منتحراً بالرصاص، أو ناطقاً كلماتك الأخيرة في مستشفى لادور الحديثة، أو ساقطاً ثلاثين قدماً في الهواء بعد أن فتحت مخطئاً باب الطائرة بدل باب دورة المياه، أو مسموماً على يد زوجتك، أو متوقعاً قليلاً من حسن ضيافةِ مواطنٍ في القرم، كل التهاني للسيد والسيدة فين - لاندر).

«سنكمل قريباً تسع سنوات»، أجاب فان. «لقد أغويتها في صيف ١٨٨٤. وباستثناء مرة واحدة، لم نعد لممارسة الحب إلا في عام ١٨٨٨. وبعد فراق طويل، عدنا هذا الشتاء لنكون معاً. في المجمل، أظن أني حظيت بها أكثر من ألف مرة. إنها كل حياتي.»

ساد صمت طويل. صمت ليس كذلك الذي يفتعله ممثل حين يخطئ أو ينسى بعضاً من خطابه الذي تدرب عليه طويلاً.

وأخيراً، نطق ديمون: «الحقيقة الثانية قد ترعبك أكثر من الأولى. حقيقة قد سببت في أعماقي الكثير من القلق - أخلاقي وليس مادياً - إذ إن علاقتي بآدا . . . وقد أخبرتْ مارينا في النهاية ديمون. . بأن. . . أعني. . .»

صمت آخر، طغى عليه صوت دلف تحت الأرض.

«سأخبرك في وقت آخر عن بلاك ميلر؛ وليس الآن؛ إنه شخص وضيع.»

---

(١) Old Maid: إحدى طرق التعذيب القديمة في قلعة نورنبرغ ألمانيا، وهي عبارة عن خزانة محكمة مقولبة على شكل إنسان، لإحدى درفتيها من الداخل سنان حديدية، تطبق على الضحية بمجرد إغلاق الخزانة على جسده. (مترجم)

(زوجة الدكتور لابينيه، الكونتيسة آلب عند الولادة، كانت قد هجرته عام ١٨٧١، لتعيش مع نوربرت فون ميلر، شاعر هاوٍ، مترجم روسي في القنصلية الإيطالية في جنوى، ومهرّب محترف للنيونغرين - موجود فقط في فاليز - وقد أخبرت عشيقها بكل التفاصيل الميلودرامية للحيلة التي لجأ إليها الطبيب - طيب القلب - معتبراً أنها ستهب نعمة لسيدة، وبركة وقداسة لأخرى. كان نوربرت متعدد المواهب يتحدث الإنكليزية بلهجة مفرطة الفخامة، قد حظيتْ بإعجاب وتقدير الناس الأثرياء، الذين إن ذُكر اسم أحدهم على لسانه، فإنه لم يكن يتوانى عن قول «الديه الكثيييييير من الأموال»، بلهجة عابد وثن مبتهج، مائلاً بظهره إلى الوراء، مقوّساً ذراعيه الممدودين، كما لو أراد أن يحتوي بهما ثروة غير مرئية. كان له رأس مدوّر، كامل الصلع كركبة، أنف جيفة، ويدان شديدتا البياض، شديدتا الرخاوة والرطوبة، دائمتا الزينة بأحجار كريمة، حمراء البريق. سرعان ما تركته عشيقته. توفي الدكتور لابينيه عام ١٨٧٢. في حوالي التاريخ ذاته، تزوج البارون من فتاة بريئة، ابنة صاحب نزل، وبدأ بابتزاز ديمون فيين؛ استمر الأمر لعشرين سنة إلى أن قُتل العجوز ميلر برصاصة على يد شرطي إيطالي، فوق طريق حدودي معروف على نطاق ضيق، يزداد وعورة وطيناً عاماً بعد عام. بحسن نية، أو بحكم العادة، أمر ديمون محاميه باستمرار الدفع إلى أرملته، ما ظنته بسذاجتها مال التأمين، في حين لم يكن سوى المبلغ الفصلي، الذي كان يتوالد من فوائد المصارف السويسرية المتزايدة. لطالما قال ديمون إنه يوماً ما سيفضح رباعية الشعر التي كتبها بلاك ميلر، وأبيات شعره القصيرة، التي كان يزيّن بها رسائله، المكتوبة فوق أوراق تقويم:

زوجتي تسمن، وأنا أنحل
سيأتينا من جديد، طفل آخر
كن خيّراً معي لأكون خيّراً معك
موقدها كبير، يلزمه حطب كثير.

يمكننا أن نضيف، لإكمال ما بين هذين القوسيْن المفيديْن، أن في الفترة الواقعة في أوائل فبراير ١٨٩٣، بعد وفاة الشاعر بقليل، كان هنالك مبتزّان آخران، أقل نجاحاً، ينتظران وراء الكواليس: كيم الذي كان سيزعج آدا ثانية لو أنه لم يُعثر عليه في كوخه مع إحدى عينيه معلقة بخيط أحمر، وأخرى تسبح في دمائها؛ وابن أحد الموظفين السابقين في وكالة الرسائل السرية الشهيرة، بعد أن أغلقتها حكومة الولايات المتحدة، عام ١٩٢٨، ولكن حينذاك، لم تعد للماضي تلك الأهمية، ولا شيء أفضل من قضبان الزنزانة لمكافأة مارقٍ طموح من الجيل الثاني).

من ظلام أطول فجوات الصمت المتعددة التي سادت، انبثق صوت ديمون، بقوة قد افتقر إليها قبلاً:

«فان! لقد تلقيتَ ما أنبأتك به بهدوء لا أستطيع فهمه. أنا لا أذكر أني سمعت بأي قصة، في الحياة الواقعية أو الخيالية، عن والد يضطر للكشف عن أمر استثنائي كهذا أمام ولده، وفي ظروف استثنائية كهذه. ولكنك لم تتوقف عن اللعب بالقلم، بكل هدوء، كما لو كنا نناقش ديون قمارك، أو مطالب عاهرة كنت قد ظفرت بها في خندق ما.»

أأخبره عن معشبة مارينا في العلية؟ تسريبات الخدم (المجهولين)؟ عن تاريخ الزفاف المزور؟ عن كل التفاصيل التي اكتشفها طفلان ذكيان بينما كانا يمرحان؟ سأفعل. وقد فعل.

«كانت في الثانية عشرة»، قال فان، «وكنت ذكراً في الرابعة عشرة من عمري. ما كنا وقتها لنأبه بأي أمر، كما أنه الآن قد فات الأوان على ذلك.»

«فات الأوان؟!»، صاح ديمون بينما انتفض واقفاً.

«أرجوك يا أبي! لا تفقد أعصابك!» قال فان. «الطبيعة، كما أخبرتك مرة، كانت لطيفة معي. يمكننا تحمّل تبعة إهمالنا، بكل ما تحمل الكلمة من معنى.»

«لا تهمني معاني الكلمات ولا حتى علم الدلالة. لا يهمني الآن إلا أمر واحد، وواحد فقط. لم يفت الأوان على إيقاف هذه العلاقة الخسيسة ـــ»

«لا صراخ، ولا نعوت بذيئة!»، قال فان مقاطعاً.

«حسناً»، قال ديمون، «سأتراجع عن الصفة التي أطلقتها، وسأطلب منك أمراً مقابل ذلك: هل فات الأوان على إيقاف تلك العلاقة التي ستحطم حياة شقيقتك؟»

كان فان يعرف أن هذا الأمر آت لا محالة. لقد عرف - قال - أنه آت. كلمة «خسيسة»، قد أحسن تدبر أمرها. ولكن كلمة «تحطم»، هل يستطيع متهمه أن يحدد ما تعنيه؟

اتخذت المحادثة الآن منعطفاً جديداً محايداً، أكثر شناعة من اعترافه التمهيدي بالأخطاء التي قد غفرها عاشقانا الشابان لذويهما، منذ زمن بعيد. كيف تخيّل فان ملاحقة أخته لمهنة المسرح؟ هل سيعترف أن حياتها ستتحطم حقاً إن أصرّا على الاستمرار في علاقتهما؟ هل كان يفكر في تمويه الأمر وعيش كلاهما سوية في منفى فاخر؟ هل كان مستعداً لحرمان آدا من حقوقها الطبيعية، وزواج طبيعي؟ وإنجاب الأطفال؟ ومتع الحياة الطبيعية؟

«يمكن تدبر الأمر على أنه 'زنى طبيعي'، لا تنسَ ذلك!»، أبدى فان ملاحظته.

«كم سيكون هذا أفضل!»، قال ديمون المتجهم، جالساً فوق حافة الأريكة، مع مرفقيه فوق ركبتيه، ممسكاً برأسه بين كفّيه: «فظاعة الأمر هو أنه كالهاوية التي تزداد عمقاً كلما فكّرتُ فيها. أنت تجبرني على تسوية الأمر مع العائلة، القانون، المجتمع، الشرف... المصطلحات المبتذلة... حسناً، لقد رشيت العديد من المسؤولين في حياتي الجامحة، ولكن لا أنا ولا حتى أنت، يمكننا أن نرشي ثقافة بأكملها، بلداً كاملاً. كما أن صدمة معرفة أنك منذ ما يقرب العشر سنوات، كنت والطفلة الساحرة تخدعان ذويكما ــــ»

هنا توقع فان أن يكمل والده مع جملة «ستقتل مارينا»، ولكن ديمون كان أحكم من يأتي بها. لا شيء يمكن أن يقتل مارينا. إن اعترضت أي شائعات عن سفاح قربى طريقها، فإن همّ الحفاظ على «سلامها الداخلي» سيدفعها لتجنبها - أو على الأقل تحويلها إلى رومانسية خارجة عن نطاق الواقع. كلا الرجلين قد أيقن ذلك. ظهرت صورتها لبرهة وسرعان ما انحرفت بعيداً.

استمر ديمون بالكلام: «لا أستطيع حرمانك من الميراث. لقد تركت لك آكوا من الممتلكات والعقارات ما يكفي للتراجع عن فكرة هذه العقوبة التقليدية. ولا أستطيع الإبلاغ عنك للسلطات وإلا ورّطت ابنتي، التي أريد حمايتها مهما كلّف الأمر. ولكن أمراً واحداً صحيحاً أستطيع فعله، يمكنني أن ألعنك، وستكون هذه آخر مرة، آخر مرة ــــ»

فان الذي كان يزلق إصبعه بلا توقف، ذهاباً وإياباً، فوق حافة طاولة المكتب الماهوغنية، الصامتة، المصقولة واللامعة، بدا الآن يسمع برعب التنهيدة التي غصّ بها ديمون وهزّت جسمه بالكامل، ثم

رأى فيضان دموعه المنهمرة تحت وجنتيه المجوفتيْن المدبوغتيْن. قبل خمسة عشر عاماً، وفي حفلة عيد ميلاد فان، حوّل ديمون نفسه، في محاكاة ساخرة، إلى بوريس غودونوف[١]، وقد ذرف دموعاً غريبة، مخيفة وسوداء، قبل أن يتدحرج فوق درجات عرش هزلي، في استسلام الموت الكامل للجاذبية. أتراها خطوط الظلمة التي تلمع الآن في العرض الحالي، قد انبثقت من مقل عينيه؟ رموشه؟ جفونه؟ حواجبه؟ لاعب القمار الذي لا يقهر... الفتاة البيضاء القاتلة في ميلودراما أخرى شهيرة... الدراما الخاصة بنا. ناوله فان منديلاً نظيفاً بدل الخرقة المتسخة. لم يُفاجأ فان بهدوئه الرخامي. سخافة دموعه التي انهمرت مع «الأب»، قد سدّت كل قنوات العاطفة المعتادة، على نحو كافي.

استعاد ديمون رباطة جأشه (إن لم يكن مظهره الشاب أيضاً)، وقال:

«أنا أثق بك، وبحسّك السليم. أنت لن تسمح لماجن عجوز أن يتبرّأ من ابنه الوحيد. إن كنت تحبها حقاً، عليك أن تتمنى لها السعادة، وإن أطلقتها، فإنك ستمنحها السعادة المطلقة. يمكنك الانصراف الآن. في طريقك نحو الأسفل أخبرها أني أنتظرها.»

نحو الأسفل. الأولى هي سيارة تدوس فوق الأقحوان التالف حول عجلاتها. والثانية هي «المال» بعامية مانهاتن القديمة. وأحجيتي كلها تصنع حفرة.[٢]

---

(١) بوريس غودونوف: من مسرحيات بوشكين، ويقول فيها بوريس لابنه عند موته: «أنت رجل، أنت قيصر، أحبب أختك، فأنت الملجأ الوحيد المتبقي لها.» (مترجم)

(٢) الأحجية التي تصنع حفرة: الكلمة الأولى عربة car، والثانية Ridge، وكانت تُطلق على المال في عامية قديمة وبائدة، ولها معنى آخر سيذكره

وبينما كان يجتاز الطابق الثاني نزولاً، رأى، من خلال الرواق المقنطر، آدا بثوبها الأسود، وقد وقفت، ظهرها له، مواجه نافذة المخدع البيضاوية. أمر خادماً بأن ينقل لها رسالة أبيه، ثم همّ بالركض، عابراً الدهليز المرصّع بالحجارة، بأصدائه المألوفة.

والثانية تعني أيضاً مكاناً بين منحدريْن حادين. الدرج السفلي الأيمن من مكتبي غير المستعمل، بالمعنى العملي، الكبير كدرج أبي (مع كل الثناء على سيغ).

اعتبر أن العثور على سيارة أجرة سيستغرق وقتاً طويلاً، كافياً لعبوره مشياً، بوتيرته السريعة المعتادة، الكتل العشر التي تبعده عن جادة آليكس. كان بلا معطف، بلا ربطة عنق، بلا قبعة؛ أضعفت ريح قوية بصره، بصقيعها المالح، وعصفها الذي كان يماوج الثعابين السوداء في شعر ميدوسا. حين سمح لنفسه، وللمرة الأخيرة، بالدخول إلى شقته المبهجة على نحو غبي، جلس على الفور إلى طاولة مكتبه الرائع وكتب ما يلي:

افعلي ما يأمرك به. قد يبدو منطقه أخرق، يفترض وجوداً غامضاً [كـ] لمنطق مستقى من الحقبة الفيكتورية، كالسائد فوق تيرا، حسبما أخبرني مرضاي [؟]، ولكن في نوبة من [غير واضح] أدركت فجاة أنه محق. أجل، محق، هنا وهناك، لا هنا ولا هناك، كما يحدث دائماً تقريباً. أنت ترين يا فتاة، كيف هو الأمر، وكيف يجب أن يكون. في النافذة الأخيرة، قد شارك كل منا [كل منا؟] في لوحة يرسمها رجل، ولكن موضعك أمام نافذة الطابق الثاني، قد

الكاتب في المقطع التالي، وهو القمة الجبلية أو النتوء الجبلي. أما كامل الكلمة الأحجية cartridge، وتعني الخرطوش. (مترجم)

يكون قد حرمك من رؤية المئزر الذي كان يرتديه، الأشبه بمئزر جزار، قد شوهته اللطخات. إلى اللقاء، يا فتاة.

مهر فان الرسالة، عثر على مسدس «ثاندربولت» في المكان الذي تصوره، عبأ خرطوشة في مخزنه، ووضع الطلقة في وضع الاستعداد. ثم بعد ذلك، وقف أمام مرآة الخزانة، موجهاً المسدس الآلي إلى جانب رأسه، عند نقطة اليافوخ الجنيحي، وضغط فوق الزند المقعّر على نحو مريح. لم يحصل شيء - ربما قد حصل كل شيء، أو ربما، بكل بساطة، تشعّب مصيره في تلك اللحظة، كما يحدث أحياناً خلال الليل، وخاصة في سرير غريب، في مراحل من السعادة العارمة، أو الأسى الشديد، عندما نموت في نومنا، ولكننا نواصل وجودنا الطبيعي، مع انعدام أي لحظة توقف مدركة في التسلسل المزوّر، للصباح التالي والمعد بعناية فائقة، مع ماضٍ مزيّف يختبئ وراءه بحذر. بكل الأحوال، ما كان يحمل في يده اليمنى، لم يعد مسدساً، بل مشط جيب صار يمرره بين خصلات شعره. الشعر الذي أصبح رمادياً، وفقاً لآدا، حين تحدّثا عن «انفصالهما الطوعي»، عندما كانت في الثلاثينات من عمرها:

«كنت لأقتل نفسي أيضاً، لو أني وجدت روز تئنّ فوق جثتك. 'الفكرة الثانية هي دائماً الأفضل'، كما اعتادت فتاتك البيضاء[١] الأخرى أن تقول برطانتها الجميلة. أما بالنسبة للمئزر، فأنت محق تماماً. وما لم تنتبه أنت له، هو أن الفنان كان على وشك الانتهاء من رسم لوحة كبيرة لقصرك الصغير الوديع، يحرسه من جانبيه عملاقان ضخمان. ربما كان يقصد نشرها كغلاف لمجلة ما، لم تقبل

(١) فتاة بيضاء: أي الخادمة بلانش. (مترجم)

بها. ولكن، أتعلم؟ إنني نادمة على أمر واحد»، أضافت: «استخدامك لعصاك الألبينية للتنفيس عن غضبك الوحشي - ليس أنت من يفعل ذلك، ليس فان الذي أحبه. ما كان يجب أن أخبرك عن شرطي لادور. ما كان يجدر بك أن تثق به، ولا أن تتواطأ معه لإحراق تلك الملفات - ومعظم غابات الصنوبر في كالوغانو. Eto unizitel'no (هذا مهين).»

«لقد قدمت كل التعويضات المطلوبة»، أجاب فان بضحكة مكتومة، ولكن واضحة. «لقد حرصت على إبقاء كيم في بيت آمن، مريح وجميل، خاص بذوي الاحتياجات الخاصة، حيث يتلقى دائماً حمولات من كتب مطبوعة بخط بريل، عن آخر ما وصل إليه فن الكروموغرافي.»

هناك تشعبات أخرى محتملة، وتتمات أخرى تحدث في الذهن الحالم، ولكن ما ذكرناه للوقت الحالي، يكفي.

القسم الثالث

١

سافر، درس، ودرّس.

تأمل إهرامات لادورا (كثيراً ما زارها بسبب اسمها) تحت نور البدر الذي فرش فضته فوق الرمال المرصعة بظلال سوداء مستدقة الرأس. ذهب في رحلات صيد مع حاكم أرمينيا البريطاني، وابنة أخيه، عند بحيرة فان[١]. من شرفة فندقه في سيدرا، راقب متعجباً، بناءً على نصيحة المدير، لون السديم البرتقالي عقب غروب الشمس، الذي يحول مويجات بحر بلون الخزامى، إلى حراشف سمكة ذهبية، المشهد الذي كان بمثابة تعويض عن غرابة الغرفة الصغيرة والمخططة، التي شاركته فيها سكرتيرته، الآنسة سكرامبل الشابة. فوق شرفة أخرى، تطل على خليج خرافي آخر، إيبيرثيلا براون، قامت الراقصة المحلية المدللة عند الشاه (كائن صغير ساذج اعتقد أن عبارة «تعميد الرغبة» تتعلق بأمر جنسي) بدلق فنجان قهوتها الصباحية فوق يرقانة عثة غير ملحوظة، بطول ستة إنشات، بأجزاء يغطيها زغب أحمر، وكانت تزحف فوق الدرابزين، وقد تقوقعت على نفسها كالمغشي عليها، حين التقطها فان - الذي بقي لساعات، وبعد أن

(١) بحيرة فان: أو بحيرة وان، تركيا. (مترجم)

أعادها إلى شجيرة، ينتزع بملقط حواجب رفيقته، شعيرات هذا الحيوان الجميل، اللامعة والواخزة.

تعلّم أن يثمّن الإثارة الفريدة والبسيطة للتجول في الطرق الفرعية المظلمة، في المدن الغريبة، مع يقين مسبق بأنه لن يكتشف شيئاً، غير القذارة، والضجر، ومعلبات فارغة مرمية تحمل لصاقات «ميري كانز» و«بيللي»، وأنغام الجاز المستوردة والهمجية، صادرة من حانات السفلس. لطالما تصوّر أن المدن الشهيرة، المتاحف، بيوت التعذيب القديمة، والجنائن المعلقة، لم تكن موجودة إلا فوق خارطة جنونه.

كان يحب تأليف أعماله («تواقيع غير شرعية» ١٨٩٥؛ «كلير مسترقة النظر» ١٩٠٣؛ «الفضاء المديد»، ١٩١٣؛ «نسيج الزمن»، بدأ عام ١٩٢٢)، في المآوي الجبلية، داخل مقطورات الرسم في القطارات السريعة، فوق مُتون السفن البيضاء، وجالساً إلى الطاولات الحجرية داخل الحدائق العامة اللاتينية. كان يدخل في غيبوبات طويلة قد تمتد لآجال غير مسماة، ثم يخرج ليلاحظ متعجباً ان السفينة قد عكست مسارها؛ أو أن ترتيب أصابع يده اليسرى قد انعكس، لتبدأ، من اليسار إلى اليمين، بإبهام اليد اليمنى؛ أو أن تمثال ميركور الرخامي، الذي كان ينظر فوق كتفه، قد تحوّل إلى مراقب من لحم ودم. سيدرك فجأة أن ثلاثة، سبعة، ثلاثة عشر عاماً، قد انقضت في دورة فراق واحدة، لينقضي بعدها، دورة أخرى من أربعة، ثمانية، وستة عشر عاماً، منذ أن عانق آدا لآخر مرة، وبكى في حضنها.

تبين أن الأرقام، الصفوف والتسلسلات - الكابوس النتن والمرعب الذي يلوث نقاء الفكر ونقاء الزمن - قد سيطرت على عقله وتحكمت به. عناصر ثلاثة، النار، الماء والهواء، قد أهلكت، بالتسلسل ذاته، مارينا، لوسيت وديمون. أما تيرا فكانت تنتظر.

بعد أن ودّعت والدة فان حياتها مع زوجها - الجثة التي ماتت بنجاح - الذي لم يكن وجوده الحي ليعنيها، وبعد أن انسحبت إلى فيلا الريفييرا الفرنسية (أهداها إليها مرة ديمون)، التي كانت لا تزال ساحرة، منظمة على نحو مبهر، من قبل طواقم خدم مثاليين، بقيت لسبع سنين تعاني من عديد الأمراض الغامضة، التي ظن الجميع أنها تختلقها، أو تدعيها بموهبتها التمثيلية، والتي أكدت أنها ستشفى منها بقوة الإرادة، وهذا ما حصل جزئياً.

زراها فان لمرات أقل مما فعلت البارّة لوسيت، التي لمحها هناك خلال مناسبتين أو ثلاث؛ ومرة، في عام ١٨٩٩، وبينما كان يدخل حديقة القُطْلب والغار في فيلا أرمينا، رأى كاهناً عجوزاً ملتحياً من الطائفة الأرثوذكسية، يرتدي ملابس حيادية السواد، يهم بالانطلاق فوق دراجته النارية، مغادراً إلى أبرشيته في نيس، القائمة قرب ملاعب التنس العامة. تحدثت مارينا إلى فان عن الدين، عن تيرا، عن المسرح، ولكن لم تأتِ أبداً على ذكر آدا. وكما أنه لم يشتبه بمعرفتها بكل قصص الرعب والهوى التي جرت في آرديس، فإنه كذلك لم يشتبه (أحد لم يفعل) بالألم الذي كانت تحسه في أحشائها النازفة، والذي كانت تحاول تبديده بالتمائم، وتمرين «التركيز الذاتي»، أو التمرين المضاد، «التذويب الذاتي».

اعترفت، بابتسامة غامضة، أقرب ما تكون إلى ابتسامة الرضى عن الذات، أنها بقدر ما أحبت النفثات الزرقاء المتصاعدة، إيقاعياً، من المبخرة، وبقدر ما أحبت الاهتزازات الغنية في ترنيمة الشماس الحزينة، والأيقونة الزيتية البنية، المحفوظة وراء حجاب مخرم، لاستقبال قبلات المؤمنين، فإنها روحها قد بقيت مكرسة، على نحو لا يمكن تغييره، لحبها لداشا فينلاندر بالدرجة الأولى، ثم للحكمة الهندوسية اللامتناهية.

في أوائل عام ١٩٠٠، وقبل أيام قليلة من رؤيته لمارينا، للمرة الأخيرة، في عيادة نيس (حين عرف لمرته الأولى اسم مرضها)، رأى فان كابوساً «لفظياً»، قد عزا سببه، غير متأكد، إلى رائحة المسك التي شمها في فيلا فينوس، القائمة في ميراماس[١] (بوش-روج- دو رون). مخلوقان شفافان، لا شكل لهما، كانا يتناقشان حول أمر ما، يردد أحدهما «لا أستطيع!» (ويعني لا أستطيع الموت - الإجراء الذي يصعب جرّ أحدهم على فعله طوعاً، من دون مساعدة خنجر، طابة أو وعاء)، وكان الآخر يؤكد «بلى تستطيع يا سيدي! You can, sir)[٢]». ماتت بعد أسبوعين، وأحرق جثمانها، عملاً بوصيتها.

بروحه النقية، اعتبر فان نفسه أشجع جسدياً منه أخلاقياً. كان عليه دائماً (وأعني حتى في ستينات القرن التاسع عشر) أن يتذكر مع كثير من التردد، كما لو أراد أن يمحي من عقله فعلاً حقيراً، جباناً وغبياً (لأنه، في الواقع، من يدري؟ قد تكون تحضيرات الحداد قد بدأت، مع مصابيح خضراء تزيد من خضرة النخيل، أمام الفندق الذي سينزل فيه السيد والسيدة فينلاندر)، ردة فعله أمام البرقية التي وصلته من لوسيت، من نيس، إلى مكان إقامته في كينغستون («ماتت أمنا صباح اليوم، ستُحرق الجثة في جنازة تُقام بعد غد، عند غروب الشمس»)، مع طلب لنصيحته («انصحني أرجوك») لاقتراح أسماء أشخاص تجب دعوتهم، وعندما أبرقتْ له ثانية على وجه السرعة لتخبره أن ديمون قد وصل مع آندريه وآدا، كان ردّه: «لا يمكنني الانضمام إليكم، آسف!».

---

(١) ميراماس: بلدية في دائرة بوش دو رون، التابعة لإقليم الألب- كوت دازور، جنوب فرنسا. (مترجم)

(٢) You can, sir : can sir، تشبه بلفظها cancer، أي سرطان. (مترجم)

تنزه داخل كاسكاديّا، متنزه كينغستون، في عذوبة غسق ربيعي يعبق بالطيوب، التي أخذته نحو عوالم سارافيمية[1]، بعيداً عن تشويش البرقيات المزعجة.

عندما رأى مارينا - الذاوية كمومياء - لآخر مرة،، وأخبرها أن عليه العودة فوراً إلى أمريكا (علماً أنه في الحقيقة لم يكن أمراً مستعجلاً - إلا أن رائحة غرفتها في المستشفى، كانت أقوى من أن يبددها نسيم عليل) سألته، بذلك التعبير الجديد، والحنون، وبقصر نظرها (إذ إن نظراتها قد أصبحت داخلية): «ألا تستطيع الانتظار حتى رحيلي؟»؛ وكان جوابه: «سأعود في الخامس والعشرين، عليَّ إلقاء محاضرة عن سيكولوجيا الانتحار»؛ فأجابت، مدركة أن النهاية قد اقتربت، بما يؤكد اعترافها برابطة الدم التي تجمعهما «فلتخبرهم عن خالتك السخيفة آكوا»؛ هزّ رأسه موافقاً، مع ابتسامة قسرية، بدل أن ينطق بما أرادت سماعه: «أجل يا أمي». انكمش على نفسه تحت آخر شعاع شمس منخفضة، فوق مقعد الحديقة الذي أغوى ولوّث فوقه مؤخراً تلميذة سوداء جميلة، طويلة، نحيلة وصعبة المراس، ثم جلس يصارع أفكاره المعذبة، مؤنباً ذاته على افتقاره للمشاعر البنوية - قصة طويلة من الاستهتار، الازدراء المسلّي، النبذ الجسدي و الرفض المعتاد. اجتاحته رغبة هائجة بإنصافها. نظر حوله، مستدعياً في ذهنه مارينا، متمنياً لو أن روحها تعطيه علامة واضحة لا لبس فيها، مقنعة حقاً، تدل على استمرار وجودها وراء حجاب الزمان، ووراء لحم المكان. لم يأت أي رد، ولم تسقط بتلة

(١) سارافيم: مجموعة من الملائكة في اليهودية والمسيحية. تعتبر في المرتبة الخامسة في التسلسل الهرمي للملائكة في اليهودية، وفي المرتبة الأولى في التسلسل الهرمي للملائكة في المسيحية. (مترجم)

فوق مقعده، ولم تلمس يده ولا حتى ناموسة. تساءل ما الذي يبقيه حياً فوق أنتيتيرا الرهيبة، حيث تيرا أسطورة، وكل فن لعبة، وحيث لم تعد هنالك قيمة لأي شيء، منذ أن صفع خدّ فاليريو الدافئ والخشن؛ وحيث، من أعمق آبار الأمل، لا يزال يرفع نجماً مرتجفاً، منذ أن أحاق الألم واليأس بكل شيء، منذ أن أصبح هنالك رجل آخر مع آدا، في كل غرفة نوم.

٢

في صباح كئيب ما بين ربيع وصيف ١٩٠١، في باريس، كان فان، بقبعته السوداء، وبيد تلعب بالقطع النقدية الدافئة في جيب سترته، وأخرى بقفاز من جلد الغزال تؤرجح نحو الأعلى مظلة إنكليزية ملفوفة، يمر مسرعاً أمام رصيف واحدة من أكره المقاهي المجاورة لجادة غيّوم بيت Guillaume Pitt، وإذا برجل أصلع وسمين، يرتدي بزة بنية، مع سلسلة ساعة تتدلى من صدارته، يقف لتحيته.

تأمل فان للحظة ذينك الخدّين الأحمرين الممتلئين، وتلك اللحية السوداء.

«Ne uznayosh' (ألم تعرفني)؟»

«غريغ! غريغوري آكيموفيتش!» هتف فان بينما نزع قفازه.

«لقد أعفيت لحيتي الصيف الفائت. ما كنت لتعرفني أبداً. أنشرب الجعة؟ أتساءل ما سر حفاظك على مظهرك الصبياني يا فان؟»

«إنها مسألة حمية»، قال البروفيسور فين، واضعاً نظارته، ومشيراً إلى النادل بمقبض مظلته. «الشمبانيا بدل الجعة، فالأخيرة لا تسرع في اكتساب الوزن وحسب، بل وتجعل كيس الصفن هشاً أيضاً.»

«أنا أيضاً سمين جداً، أجل.»
«وماذا عن غرايس؟ لا أستطيع تخيلها سمينة.»
«إنجاب واحد فقط لتوأم، دائماً توائم. زوجتي جميلة وسمينة، أيضاً.»
«Tak tï zhenat (إذاً أنت متزوج)؟ لم أكن أدري. منذ متى؟»
«سنتين تقريباً.»
«ممن؟»
«موود سويين.»
«ابنة الشاعر؟»
«لا، أمها بارونة من قلعة بروهام.»
من يدري؟ ربما كان ليجيب «آدا فيين»، لو أن القناص فينلاندر لم يخطفها قبله. أعتقد أني قابلت زوجته «المكنسة» في مكان ما. فلنغيّر الحديث. اتحاد مثير للشفقة بلا شك: هي، ضخمة ومستبدة، هو، ممل أكثر من السابق.
«آخر مرة رأيتك، منذ ثلاثة عشر عاماً، كنت تركب مهراً أسود - لا، فرساً سوداء. Bozhe moy (يا إلهي)!»
«أجل - يا إلهي! يمكنك أن تقول ذلك. تلك العذابات الجميلة، الجميلة، في آرديس الجميلة. لقد كنت absolyutno bezumno (مجنوناً) بعشق ابنة عمك!»
«أتعني الآنسة فيين؟ لم أكن أدري. كم من الوقت ـــ»
«ولا حتى هي لم تدرِ. لقد كنت ـــ»
«حتى متى أنت مقيم ـــ»
«ـــ شديد الخجل، لأنني، بالطبع، أدركت أني لا أستطيع منافسة عشاقها الكثر.»
الكثر؟ اثنان؟ ثلاثة؟ أيمكن أنه لم يعرف أبداً عن العاشق

الرئيسي؟ كل أسوار الورود قد عرفته، وكل الخدم، وفي العزبات الثلاث. يا لنبالة تحفّظ خادمات غرفنا اللواتي كتمن السر!

«كم ستبقى في لوت؟ لا، غريغ! أنا من طلب هذه الزجاجة، ستكون التالية على حسابك. أخبرني الآن ـــ»

«كم أرى الأمر الآن غريباً حين أتذكره! كان جنوناً، كان خيالاً، كان حقيقة مبالغاً فيها. بصراحة، كنت لأرضى أن يقطع رأسي طارطاريٌّ، لو سُمح لي بالمقابل أن أقبّل مشط قدمها. أنت ابن عمها، أي شقيقها تقريباً، لا يمكنك أن تفهم هوسي ذاك بها. آه من تلك النزهات! وبيرسي دو براي الذي دفعني للجنون، للحسد وللإشفاق على ذاتي، حين كان يتباهى أمامي بعلاقته بها؛ والدكتور كروليك أيضاً، الذي قيل إنه قد أحبها، أيضاً، وأيضاً فيل راك، المؤلف الموسيقي العبقري - إنهم كلهم أموات الآن، كلهم، كلهم!»

«أنا في الحقيقة لا أعرف عن الموسيقى سوى القليل، ولكني استمتعت أيما متعة حين سمعت أنين صديقك. لدي موعد بعد قليل، للأسف. Za tvoyo zdorovie (بصحتك) غريغوري آكيموفيتش!»

«آركاديفيتش»، قال غريغ، الذي سمح بالخطأ مرة واحدة في بداية اللقاء، ولكنه الآن صحّح الكنية على نحو تلقائي.

«أوه أجل! زلة تافهة من لسان قذر. وكيف هو آركادي غريغوريفيتش؟»

«لقد مات. مات قبل وفاة خالتك. أعتقد أن الصحف قد كرّمت موهبتها بشكل لائق. وأين هي آدالايدا دانيلوفنا؟ هل تزوجت من كريستوفر فينلاندر أم من أخيه؟»

«في كاليفورنيا ربما أو آريزونا. اسم الرجل آندريه، حسبما فهمت. ربما أكون مخطئاً. في الحقيقة، أنا لم أعرف نسيبتي على

نحو جيد: ففي النهاية، أنا لم أزر آرديس إلا منذ زمن بعيد، لمرتين فقط، ولأسابيع قليلة في كل مرة.»

«أخبرني أحدهم أنها أصبحت ممثلة سينمائية.»

«ليس لدي أدنى فكرة، كما أنني لم أرها أبداً على الشاشة.»

«أوه، سيكون أمراً رهيباً، أنا أعترف، أن أراها تظهر أمامي فجأة عند تشغيل الشاشة. كرجل يغرق، يرى في لحظاته الأخيرة ماضيه كله، الأشجار، الأزهار، وكلاب الداشهاند بالأكاليل فوق رؤوسها. لا بد أن مِيتة والدتها الشنيعة قد أثرت فيها بشدة.»

إنه يحب استخدام كلمة «شنيعة»، وكلمة «أنا أعترف». بزّة شنيعة. ورم شنيع. لَمَ عليَّ احتمال كل ذلك؟ أمر مقزز - ومع ذلك ساحر على نحو رائع: شبحي الثرثار، مقلّدي الهزلي.

كان فان على وشك الرحيل عندما وصل سائق ببزة أنيقة، ليخبر «اللورد» أن سيدته تأمر بحضوره حالاً، وكانت تنتظره داخل السيارة المركونة في شارع سايغون.

«آها!»، قال فان، «أرى أنك تستخدم لقبك البريطاني. كان والدك يفضل أن يُنادى بكولونيل تشيخوفي.»

«زوجتي موود إنكليزية - اسكتلندية، وهي، حسناً، تحب لقب لورد، معتقدة أن له امتيازات في الخارج. بالمناسبة، أخبرني أحدهم - أجل إنه توباك! - أن لوسيت مقيمة في ألفونس الرابع. لم أسألك عن أبيك. أصحته جيدة؟» (أحنى فان رأسه) «وكيف هي guvernantka belletristka (المربية الروائية)؟»

«آخر رواياتها 'الصديق لوك'. لقد حصلت مؤخراً على جائزة أكاديمية لوبون، تكريماً لنفاياتها الغزيرة.»

افترقا يضحكان.

بعد لحظة، كما يحصل غالباً في المهرجانات وفي المدن

الغريبة، صادف فان صديقاً آخر. برعشة من السرور رأى كوردولا، في تنورة قرمزية ضيقة، منحنية فوق صغيريْ «بطباط» حزينيْن، مربوطيْن إلى عمود خاص بانتظار الكلاب، أمام متجر للنقانق، وكانت تراضيهما بكلمات طفولية مريحة. داعبها فان بطرف أصابعه، وعندما انتصبت والتفتت غاضبة (الغضب الذي استُبدل فوراً بحبور لم الشمل) اقتبس أبيات شعر قديمة ولكن لائقة، كان رفاقه في المدرسة يضايقونه بها:

«آل فيين يتحدثون فقط إلى آل توباك
وآل توباك يتحدثون فقط إلى الكلاب.»[1]

كان مرور السنين قد صقل حلاوتها، ورغم أن الموضة قد تغيرت كثيراً منذ عام ١٨٨٩، إلا أنه قد صادفها خلال الموسم الذي كانت فيه موضة تسريحات الشعر والتنانير، قد عادت، ولفترة وجيزة، (كان أمام كوردولا جديدة تتفوق على السابقة أناقة) إلى تلك الخاصة باثنتي عشرة سنة خلت، مبطلة بذلك ما انقطع من الذكريات والسرور. انهمرت عليه بوابل من الأسئلة المهذبة - ولكن فان كان لديه حينذاك أمر أكثر أهمية - في حين اندلعت الشعلة بينهما مرة أخرى.

«دعينا لا نهدر»، قال فان، «كرم الزمن المسترد بتوافه الأحاديث. أنا أغلي طاقةً، إن كان هذا ما تودين معرفته. انظري الآن؛ قد يبدو الأمر سخيفاً ووقحاً، ولكن لدي الآن التماس طارئ. هل ستتعاونين معي بتركيب قرون لزوجك؟ إنه أمر حتمي!»

---

(١) آل فيين يتحدثون فقط إلى آل توباك: تلميح إلى إحدى قصائد الشاعر الأمريكي جون كولينز بوسيدي (١٨٦٠-١٩٢٨):
Where the Lowells talk to the Cabots
And the Cabots talk only to God

«حقاً يا فان!»، هتفت كوردولا متعجبة. «أنت تتخطى الحدود. أنا زوجة سعيدة. التوباك خاصتي يعشقني. كنا لنحظى بعشرة أطفال حتى الآن إن لم أكن حذرة معه ومع الآخرين.»

«ستسعدك معرفة أن هذا 'الآخر' عقيم تماماً.»

«وهل أنا غير ذلك أيضاً؟ للأسف! أعتقد أني قادرة على جعل أنثى النغل تلد مهراً، بمجرد النظر إليها. بكل الأحوال، لقد تواعدت مع آل غول على الغداء.»

«إنه حقاً لأمر غريب! كيف تتمكن شابة مثيرة مثلك، بقمة الرقة مع كلابها، أن ترفض فيين عجوزاً ومسكيناً، بملحقاته الكبيرة والصلبة.»

«آل فيين هم أكثر رعونة من الكلاب.»

«بما أنك بدأت بالأمثال»، تابع فان مثابراً، «دعيني أقتبس مثلاً عربياً. ما الجنة إلا قصبة واحدة جنوب حزام فتاة. ماذا قلت؟»

«إنك لرهيب. أين ومتى؟»

«أين؟ في ذلك النزل المبتذل الصغير في آخر الشارع. متى؟ حالاً. لم أرك مرة جالسة فوق حصان العصا[1]، إنها أقصى ما يمكن أن يُقدم هناك من وسائل راحة.»

«عليَّ أن أكون في المنزل في تمام الحادية عشرة والنصف، وقد قاربت الحادية عشرة الآن.»

«يلزمني خمس دقائق لا أكثر. أرجوك!»

حين اعتلت كوردولا سرجها، بدت كطفلة متشجعة لأول دورة لها فوق حصان خشبي. أطلقت صرخة حادة عندما تعامدت مع تلك

---

(١) حصان العصا: لعبة أطفال، وتستخدم في المسرح أيضاً، عبارة عن عصا برأس حصان فوق طرفها العلوي. (مترجم)

الأداة المبتذلة. العابرات الحزينات، المتجهمات، عادة ما يفعلن ذلك بوجوه خالية من التعبير، وشفاه مطبقة. ركبته مرتيْن. استمرت فورتهما السريعة، مع التكرار، خمس عشرة دقيقة في مجملها، وليس خمس دقائق. برضىً عن الذات، رافقها فان عبر غابة بيلو الخضراء والبنية، باتجاه osobnyachyok (قصرها الصغير).

«لقد تذكرت»، قال فان، «أني لم أعد لاستخدام شقة جادة آليكسيس. لقد سمحت منذ سبع أو ثماني سنوات، بإقامة أناس فقراء فيها - عائلة ضابط شرطة كان خادماً عند العم دان في الريف. إن الشرطي الآن ميت، وقد عادت أرملته مع صبيانها الثلاثة إلى لادور. أريد التنازل عن ملكي لهذه الشقة. أتقبلين بها كهدية زفاف متأخرة من أحد معجبينك؟ حسناً. علينا أن نكرر ما فعلناه يوماً ما. عليَّ غداً أن أكون في لندن، وفي الثالث من الشهر، ستحملني 'أدميرال توباكوف'، سفينتي المفضلة، إلى مانهاتن. إلى اللقاء. أخبري زوجك أن يبحث عن عتبات منخفضة، فغالباً ما تكون القرون الجديدة شديدة الحساسية. أخبرني غريع إرمينين أن لوسيت نزيلة ألفونس الرابع. أصحيح؟»

«هذا صحيح. وأين هي الأخرى؟»

«أعتقد أننا سنفترق هنا. إنها الثانية عشرة إلا ثلثاً. يفضل أن تسرعي قليلاً.»

«إلى اللقاء. أنت فتى سيّئ جداً. وأنا أشد سوءاً. ولكن الأمر كان ممتعاً - رغم أنك كنت تتحدث إليّ ليس كما تفعل مع سيدة صديقة، ولكن كما تتحدث، على الأرجح، إلى عاهرة صغيرة. انتظر! إليك هذا العنوان السري للغاية، حيث يمكنك دائماً» (تبحث في حقيبتها) - «أن تجدني» - (وجدت بطاقة أعمال [illegible] ل

شعار زوجها، ثم خربشت فوقها عنوان بريد مشفّراً) - «في مالبروك، ماين، حيث أقضي كل شهور آب.»

نظرت يمنة ويساراً، وقفت على رؤوس أصابعها كراقصة باليه، وقبّلت فمه. كوردولا الحلوة!

٣

البواب دائم الشباب، ذو الذقن البوربونية[١] والشعر الأسود الحريري، والذي كان فان يناديه أيام تشوز بـ«ألفونس الخامس»، اعتقد أنه كان قد رأى للتو الآنسة فيين في صالة ريكامييه، حيث كانت فيفيان فال تعرض أوشحتها الذهبية. طار ذيل معطفه في الهواء، لاحقاً به، وعلا صرير بوابة الفندق حيث نزل فان، عندما أُمر ألفونس بالإسراع إلى هناك ليرى ويتأكد. عبر عُقّافة مظلته، جال فان ببصره في الردهة، ورأى منضدة دوارة قد وُضعت فوقها مجموعة كتيبات لدار نشر سابسوكر (فوق أغلفتها الخلفية صور لنقار خشب صغير ومخطط): «الغجرية»، «سالزمان»، «سالزمان»، «سالزمان»، «دعوة إلى النشوة»، «القذف»، «العصابة»، «عتبة الألم»، «أجراس تشوز»، «الغجرية» - هنا مرّ زميل لديمون من وال ستريت، الموغل في أرستقراطيته، الشاعر العجوز كيثار ك.ل. سويين، وآخر يزيده عمراً، العقاريّ اللامع ميلتون إيليوت، لكنهما لم يتعرفا على فان، الذي بقي ممتناً، رغم المرايا التي بدأت بخيانته.

---

(١) بوربون: عائلة مالكة في فرنسا، نشأت عام ١٢٦٨. (مترجم)

عاد البواب يهز رأسه. بطيبة قلبه، أعطاه فان قطعة جينيه، وقال إنه سيتصل به مجدداً عند الواحدة والنصف. سار عبر الردهة (حيث كان مؤلف «أبيات احتضارية»، والسيد إليوت، غارقين في الأرائك، مع كمّ كبير من الستر فوق أكتافهم، يقارن كل منهما سيجاره بسيجار الآخر) وغادر الفندق من مخرج جانبي، عبر شارع «الشهداء الشباب» Jeunes Martyres، متجهاً إلى حانة أوفينمان، لتناول شراب.

عند دخوله، توقف للحظة لتسليم معطفه؛ ولكنه أبقى على قبعة اللباد، ومظلته نحيلة العصا، كما كان رائجاً، وكما كان يرى أباه يفعل في مكان قذر كهذا، التي لم تكن النساء النبيلات ليرتدنها ما لم يكنّ، على الأقل، بصحبة أحدهم. توجه إلى المشرب، وبينما كان يمسح عدسة نظارته ذات الإطار الأسود، اكتشف، عبر الضباب البصري (انتقام المسافات الجديد)، وجود الفتاة التي تذكر أنه كان يرى خيالها بين الحين والآخر (أصبحت أكثر وضوحاً!) منذ أن أدركه سن البلوغ، وكانت دائماً تمر وحدها، تشرب وحدها، دائماً وحدها، مثل «مجهولة» بلوك[١].

كان شعوراً غريباً - كقطعة موسيقى تُعاد عن طريق الخطأ، كجملة مكتوبة في غيرما مكانها الصحيح، مشهد يدور قبل أوانه، عيب متكرر، خطأ في مسار الزمن. أسرع في إعادة نظارته، بقوسيْها السميكيْن، فوق أذنيه، واقترب منها في صمت. لدقيقة، وقف وراءها، ناقلاً إلى ذاكرته كما إلى القارئ (من موضعها بالنسبة لنا وللمشرب) صورة عقافة عصاها الملفوفة بالحرير وقد رفعتها جانبياً حتى كادت تلمس فمه؛ جلست قبالة الخلفية الذهبية

(١) ألكساندر بلوك (١٨٨٠-١٩٢١): شاعر روسي. (مترجم)

لستار «سكاراما»، بجانب المشرب، الذي اتجهت نحوه بخطوة زلقة. كانت لا تزال واقفة، على وشك الجلوس فوق كرسي عالٍ، بعد أن وضعت كفاً بقفّاز أبيض، فوق المنضدة. كانت ترتدي فستاناً شاعرياً أسود طويلاً، طويل الأكمام، ضيقاً عند الجذع، فضفاض التنورة، مع شاحط وافر تجره وراءها؛ كان مغلقاً عند العنق بياقة مدورة سوداء، ضيقة، ذات ثنيات ناعمة، تظهر جمال عنقها. بنظرة ماجن متكدر، نتبع نحن خطّ الفخر النقي لهاتيك الحنجرة، لهاتيك الذقن المائلة. شقّت شفتيها الحمراوين، الشرهتين والساحرتين، فأطلّ البريق الجانبي لأسنانها العلوية الكبيرة. نحن كلنا بالتأكيد نحب عظام الوجنات المرتفعة (حيث يحتفظ الجلد الوردي الحار بذرة من مسحوق الوجه)، ونحب الرموش السوداء المرفوعة إلى أعلى الحاجب، وعين السنّور الملونة بالظلال - كل هذا قد رآه من نظرة جانبية، ونحن نعيده بهدوء، نعيد ما رآه. من تحت الحافة العريضة لقبعتها السوداء المتموجة، بتلك العقدة الكبيرة الحريرية، وأيضاً السوداء، التي تعلوها، انسابت دوامة من شعر نحاسي متوهج، بخصلات ملفوفة على يد خبير، ومبعثرة عن قصد، لتهبط فوق خدها المشتعل، وكانت مصابيح المشرب الصغيرة، بإضاءة متناوبة وكأنها بريق أحجار كريمة، تلعب فوق غرّتها، التي، وبنظرة جانبية، بدت وكأنها قد ألقت حمولتها المحدبة ما بين حافة القبعة العريضة على نحو مبالغ فيه، وبين خط الحاجب الرفيع والمدود. لمسة من رقة روسية قد زادت على مظهرها الإيرلندي طلاوة، كما أضفت إلى جمالها ذلك السحر الغامض، الذي يعدك بمفاجأة حزينة. جمال أتمنى على أصدقائي، والمعجبين بمذكراتي، أن يروه على أنه تحفة طبيعية أكثر جمالاً وشباباً، على نحو لا يُضاهى، من هاتيك العا...

الباريسية، بسحنة أنثى قرد، التي رسمها، بوضعية متناظرة، فوق ملصق وضيع خاص بحانة أوفينمان، رسام بائس[1].

«مرحباً إدا!»، قال فان للساقي، فالتفتت نحو صوته العزيز الخشن.

«لم أتوقع لك ارتداء النظارات. لقد أوشكت أن تحظى بصحبتي التي وعدت أن أهبها للرجل الذي يحملق في قبعتي. فان العزيز! Dushka moy!»

«إن قبعتك»، قال فان، «لوتريامونية[2] على نحو إيجابي، أقصد، لوتركاكسكية - لا، لا أستطيع إيجاد الصفة المناسبة.»

قدم إد إلى لوسيت ما سمّته «شامبيريزيت».

«جين مع الجعة لي لو سمحت.»

«أنا في غاية السعادة والحزن معاً»، تمتمت بالروسية. «Moyo grustnoe schastie. منذ متى وأنت هنا في لوت القديمة؟»

أجابها فان بأنه مغادر في اليوم التالي إلى إنكلترا، وأنه في الثالث من الشهر القادم (كان التاريخ عندها ٣١ مايو) سيبحر فوق متن آدميرال توباكوف إلى الولايات الأمريكية. ودّت لو تبحر معه، صاحت، ستكون فكرة رائعة، لم يكن لديها مانع من السفر هنا أو هناك، إلى الغرب، إلى الشرق، تولوز، لوس تيك. أشار إلى أنه كان الوقت قد تأخر على حجز قمرة (فوق سفينة ليست بالكبيرة، حتى أنها أصغر من سفينة الملكة غوينيفر) ثم غيّر الموضوع.

«كان الأمر منذ سنتين»، قال فان، «حين رأيتك للمرة الأخيرة،

---

(١) رسام بائس: تلميح إلى هنري دو تولوز لوتريك (١٨٦٤-١٩٠١)، رسام فرنسي. (مترجم)

(٢) لوترياموني: نسبة للكونت لوتريامون وهو اللقب الذي كان يكتب باسمه ايزيدور دوكاس، شاعر فرنسي (١٨٤٦-١٨٧٠). (مترجم)

في محطة للسكة الحديدية. كنت قد تركت فيلا أرمينا لتوّك، بينما كنت أنا في لحظة وصولي. كنت قد ارتديت فستاناً قد رُسمت فوقه زهور بدت مختلطة بتلك التي حملتها بيدك، إذ إنك كنت تركضين مسرعة. قفزتِ من عربة خضراء ثم إلى قطار أوسونيا السريع، الذي حملني إلى نيس.»

«معبّر جداً! لم أرك، ولو أني فعلت لأوقفتك لأخبرك بما كنت قد عرفته لتوي. تخيل! كانت أمنا على علم بكل شيء. والدك المهذار أخبرها كل شيء عنك وعن آدا.»

«ولكن ليس عنك وعنها.»

طلبت منه لوسيت عدم ذكر تلك الفتاة المثيرة للاشمئزاز، المسببة للجنون. كانت غاضبة بالنيابة عن آدا، وتتملكها الغيرة. آندريه خاصتها، أو بالأحرى شقيقته التي ادّعت أنها تعمل لمصلحته (لقد كان أغبى من أن يأتي بفكرة كتلك)، كانت مهتمة بالفنون الجميلة القديمة والمتحررة، فصارت تجمع كل ما يحمل بقعاً من دهان مسح الأحذية، ولطخات من براز، لوحات مزيفة تقلّد خربشات بعض المعتوهين، أوثاناً وأقنعة الناس البدائيين، حطباً مصقولاً بثقوب مصقولة، لقد جمعت كل ما عثرت عليه، أو بالأحرى كل ما تملأه العيوب، في عالم هاينريش هايدلاند(١). وجدت العروس آدا ساحة المزرعة وقد زينت بمنحوتة، إن كانت تلك التسمية صحيحة، صنيعة هاينريش ذاته، مع مساعديه الأربعة الضخام، وهي عبارة عن كتلة ضخمة وبشعة من خشب الماهوغني البرجوازي، بطول عشر أقدام، تحمل اسم «الأمومة»، وهي في

---

(١) هاينريش هايدلاند: تلميح إلى النحات الإنكليزي هنري مور (١٨٩٨ ـ ١٩٨٦). (مترجم)

الحقيقة أم (بالمعنى المعاكس) لكل أصنام العفاريت الجصية، ولفطر حديدي، قد زرعه أسلاف فينلاندر، أمام أكواخهم الريفية في لياسكا.

وقف الساقي يمسح كأساً بمنديله، بحركة بطيئة لا تنتهي، بينما كان، بابتسامة طفيفة، يستمع لاستنكار لوسيت، الساحر.

«ومع ذلك (odnako)»، قال فان بالروسية، «كنتِ مستمتعة بإقامتك هناك، عام ١٨٩٦، كما أخبرتني مارينا.»

«كلا لم أفعل (nichego podobnago)! لقد غادرت آغافيا في منتصف ليلة، تاركة أمتعتي، ورحلت مع بريجيت الباكية. لم أرَ مثل هذا المنزل في حياتي. لقد تحولت آدا إلى سمراء غبية. اقتصرت أحاديث المائدة على ثلاثة أمور: الصبّار، الماشية والطهي، إضافة إلى مداخلات دوروثي عن التصوّف التكعيبي. إن زوجها واحد من أولئك الروس الذين يزحفون إلى المرحاض حافيي الأقدام، يحلقون بينما يكونون بملابسهم الداخلية، يضعون أربطة للجوارب، ويعتبرون تشمير البنطال غير لائق، ولكنهم عندما يريدون استخراج قطعة نقدية من جيوبهم، فإنهم يضعون اليد اليسرى فوق الجيب الأيمن، والعكس صحيح، وهو تصرف ليس فقط بغير لائق، بل مبتذل أيضاً. ربما أصيب ديمون بخيبة أمل لأنهما لم ينجبا أطفالاً، ولكنه فعلاً قد أرعب صهره بعد أول فورة غضب له كوالد لزوجته. دوروثي هي وحش نيّق مدّعي التقوى، وقد أقامت عندهما لعدّة أشهر، كانت خلالها هي من يأمر بوجبات الطعام. كما أنها امتلكت مجموعة مفاتيح خاصة بغرف الخدم - وهذا ما كان على سمرائنا أن تعرفه - ومفاتيح صغيرة أخرى لفتح قلوب الناس. بالمناسبة، لقد حاولت أن تحول الجميع إلى ممارسة العقيدة الأرثوذوكسية، وليس فقط كل زنجي أمريكي استطاعت أن تقع عليه، ولكن أيضاً أمنا التي كانت

pravoslavnaïa (أرثوذوكسية) بما يكفي، ولكنها لم تنجح إلا في جعل الأسهم الهندوسية ترتفع أكثر. ذات ليلة حنين جميلة ــــ»

«Po-rousski (تكلمي بالروسية)!» قال فان، مشيراً إلى زوجيْن إنكليزيين، قد جلسا إلى المشرب وأمرا بالشراب، محاولين الإصغاء إلى حديثهما.

«Kak-to noch'yu (ذات ليلة)، حينما كان آندريه قد ترك المنزل لإجراء استئصال للوزتيْن أو ربما شيء آخر، قامت العزيزة دوروشكا بجولة تفقدية في غرفة خادمتي بعد أن اشتبهت في ضجيج صادر منها، فوجدت بريجيت المسكينة نائمة فوق سريرها الهزاز، بينما كنت وآدا فوق سريرها، نستعيد ألعابنا القديمة. وكان ذلك عندما أخبرتُ دورا أني لم أعد لأحتمل تصرفاتها، وغادرت فوراً إلى خليج مونارش.»

«بعض الناس غريبون حقاً» قال فان. «إن كنت انتهيت من شرابك الدبق هذا، دعينا نعود إلى فندقك لنتناول الغداء.»

أرادت سمكاً، أما هو فطلب لحومات باردة مع سلطة.

«أتعرفين من قابلت صدفة هذا الصباح؟ رفيقنا القديم الطيب غريغ إرمينين. هو من أخبرني أنك تنزلين في الجوار. زوجته متكبرة نوعاً ما. ماذا؟»

«جميع الناس متكبرون، نوعاً ما»، أجابت لوسيت.« كوردولا خاصتك، التي هي أيضاً في الجوار، لا تستطيع أن تغفر أن يكون اسم شورا توباك، عازف كمان، تحت اسم زوجها في دليل الهاتف. ما إن ننتهي من غدائنا، سنصعد إلى غرفتي، رقمها خمس وعشرون، كسنّي. لدي ديوان ياباني رائع، وكثير من الأوركيد، أرسلها أحد العشاق. يا لغبائي! لم أفكر في الأمر، عليَّ أن أستوضح، ربما تكون مرسَلة إلى بريجيت التي ستتزوج بعد غد، عند الثالثة والنصف،

من النادل الرئيسي في آلفونس الثالث، في أوتوي. بكل الأحوال، إنها زهور خضراء، بلطخات برتقالية وبنفسجية، من نوع الأونسيديوم الرقيق، أو 'ضفادع السرو'، اسمها التجاري السخيف. سأستلقي فوق الديوان كشهيدة. أتذكر؟»

«أما زلت نصف شهيدة؟ أعني نصف عذراء؟» استفسر فان.

«ربع عذراء» أجابت لوسيت. «جربني يا فان! إن ديواني أسود مع وسائد صفراء.»

«يمكنك الجلوس لدقيقة في حضني.»

«لا - إلا إذا تعرينا وسمحتَ بأن تلجني.»

«يا عزيزتي! كما قلت لك مراراً، أنت تنتمين إلى عائلة أميرية وتتفوقين على لوسيندا خلاعة حين تنطقين. أوتكون تلك الكلمات رائجة بين رفاقك يا لوسيت؟»

«لا رفاق لدي. أنا وحيدة. بين الحين والآخر، أخرج مع رجلين من السلك الديبلوماسي، أحدهما يوناني والآخر إنكليزي؛ أسمح لهما بمداعبتي بينما أراقب كيف يستمتعان بعضهما ببعض. وهناك أيضاً رسام مبتذل يقوم برسمي، وتلمسني زوجته حين أكون في مزاج لذلك. أما صديقك ديك تشيشاير فيرسل لي هدايا ونصائح للسباق. إنها حياة مملة يا فان. أوه! إني أستمتع بكثير من الأمور.» تابعت لوسيت بنبرة صوت حزينة، بينما كانت تغرز شوكتها في سمكة السلمون الزرقاء المرقطة التي يمكن أن نستنتج، بالنظر إلى شكلها الملتوي وعينيها الجاحظتيْن، أنها قد طُبخت حية، وذاقت أهوال سكرات موت رهيب. «أحب الزيوت الفلمنكية والهولندية، أحب الزهور، الطعام، فلوبير، شكسبير، التسوق، التزلج، السباحة، قبلات الجميلات والوحوش - ولكن كل ذلك، بطريقة ما، كل تلك

المتع، والصلصة، وكنوز هولندا، ليست إلا رقاقة صغيرة جداً (tonen'kiï-tonen'kiï)، قشرة رقيقة، لا شيء تحتها بالمطلق، ما عدا صورتك، طبعاً، وهذا طبعاً ما يزيد فراغي عمقاً، أضف إليه عذاب نزاع هذه السمكة. أنا مثل دولوريس - حين قالت إنها مجرد صورة مرسومة فوق الهواء.»

«لم أستطع أبداً إكمال تلك الرواية - فخامة مبالغ فيها جداً.»

«ولكنها حقيقية. أجد أنها قادرة على توصيف مشاعري تجاه وجود - تجاه الأشياء، تجاه الألوان. تعال لنسافر سوية نحو مكان بعيد، حيث توجد لوحات جدارية ونوافير. لم لا نستطيع السفر نحو أماكن بعيدة بنوافير قديمة؟ فوق متن سفينة؟ في مقطورة نوم؟»

«الطائرة أسرع وأكثر أماناً»، قال فان. «تكلمي بالروسية حباً بالإله!»

السيد سويين الذي كان يتناول الغداء مع رجل آخر له سوالف مصارع ثيران، قد مال بجلسته صوب طاولة فان ولوسيت وأحنى رأسه محيياً. ثم مرّ أمامهما ضابط بحرية ببزة حرس «تيار الخليج» زرقاء، وكان يتبع امرأة بشعر أسود وبشرة عاجية، وقال لهما: «مرحباً يا لوسيت، مرحباً يا فان.»

«أهلاً يا آلف!» قال فان، في حين تعرّفت لوسيت على الرجل بابتسامة باهتة: من فوق كفّيها المتشابكتيْن عالياً، اللّلتيْن ألقت برأسها فوقهما، تبعتْ بنظرة ساخرة خطوات السيدة المبتعدة. تنحنح فان بينما كان ينظر بطرف عينه إلى أخته غير الشقيقة.

«من المؤكد أنها لا تقل عن خمسة وثلاثين عاماً»، قالت لوسيت، «وما زالت تأمل أن تصبح مليكته.»

(والده ألفونس الأول، ملك البرتغال، العاهل الدمية التي يحركها عمه فيكتور كيفما شاء، كان قد تنازل عن العرش مؤخراً

عملاً بنصيحة غاماليال، لمصلحة نظام جمهوري، ولكن لوسيت كانت تنتقد من الناحية الجمالية، وليس السياسية).

«إنها لينور كولين. ما الخطب يا فان؟»

«لا تحدّق القطط في النجوم، غير ممكن. التشابه بينك وبين آدا يصبح أقل من المعتاد، على الرغم من أنني، طبعاً، لم أتمكن مؤخراً من مواكبة التغييرات المناظرة. بالمناسبة، كيف هو التقدم المهني؟»

«إن كنت تقصد آدا، فأرجو أن لا أخيّب أملك، فنجاحها في مهنتها كما في زواجها. كل ما حققه ديمون هو أن تركك لتقع في قبضتي. أنا لا أذهب كثيراً إلى دور السينما، ولقد رفضت التحدث إليها وإلى دورا عندما التقينا في الجنازة، وأنا أبعد ما يكون عن معرفة آخر أخبارها المسرحية أو السينمائية.»

«هل أخبرت تلك المرأة أخاها عن حفلة سمركما البريئة؟»

«طبعاً لا. إنها تخشى من زعزعة نعيم أخيها. ولكني متأكدة من أنها هي من أجبر آدا على أن تكتب لي بأنه عليّ 'أن لا أسعى لتحطيم زواج سعيد' - وهذا ما أغفره لداريوشكا، الفاسدة والمبتزة بطبيعتها، وليس لآدوشكا. لا يعجبني حجر الكابوشون في خاتمك. أعني، لا بأس به في يدك الشعرانية العزيزة، ولكن أبي كان يضع مثله في مخلبه الوردي البشع. كان أبي من نوع المستكشف-الصامت. أذكرة مرة عندما أخذني إلى مباريات هوكي للفتيات، واضطررت للصراخ في وجهه محذرة أني سأطلب النجدة إن لم يتوقف عن بحثه.»

"Das auch noch!"[1]، تنهد فان عالياً ثم خلع خاتمه الأسود الثقيل. كان ليتركه في منفضة السجائر لو لم يكن هدية مارينا الأخيرة.

---

(١) Das auch noch: وهذا أيضاً (بالألمانية).

«انظر يا فان!»، قالت (منهية مزمارها الرابع). «لم لا نخاطر بالأمر؟ الأمر بغاية البساطة. تتزوجني، وتحصل على آرديس التي أملكها. نعيش هناك، وتؤلف كتبك هناك. يرضيني أن أكون في خلفية المشهد، لن أزعجك أبداً. سندعو آدا - وحدها طبعاً - لتقيم لفترة في ملكيتها، إذ إنني لطالما ظننت أن أمي ستورث أرديس لها. وبينما تكونان هناك، أذهب أنا إلى آسبن، أو غشتاد، أو شيتو. أمارس أنا التزلج في آسبن، وتكون أنت معها داخل كرة الكريستال الصلبة، حيث يتساقط الثلج، للأبد، فوقكما. ثم أعود بسرعة الريح، ولكن يمكن لها البقاء طبعاً. إنها دائماً على الرحب والسعة. سأتسكع في الخارج إن طلبتما كلاكما مني ذلك. ثم تعود هي إلى زوجها لبضعة أشهر بغيضة. أترى كم الأمر بسيط؟»

«أجل، خطة مذهلة. المشكلة الوحيدة هي أنها لن تأتي أبداً. إنها الثالثة الآن. عليَّ مقابلة رجل يقوم بتجديد فيلا أرمينا التي ورثتها، والتي ستكون أحد قصور الحريم خاصتي. صفع شخص بالمعصم ليس بأجمل الخصال التي يُفترض أنك ورثتها من دمك الإيرلندي. سأرافقك الآن إلى شقتك. من الواضح أنك بحاجة ماسة إلى استراحة.»

«عليَّ أن أجري مكالمة هامة، هامة جداً، ولكني لا أريدك أن تستمع لها»، قالت لوسيت بينما كانت تبحث عن المفتاح في حقيبة يدها السوداء الصغيرة.

دخلا في ردهة جناحها. هناك، وكان قد عزم على المغادرة خلال لحظة، نزع نظارته وضغط فمه إلى فمها، وتذوق طعم آدا خاصة أرديس ذاتها، في ساعات العصر المبكرة؛ لعاب حلو المذاق، مع خليط من ظهارة مالحة، وكرز وبن. لو لم يكن قد أفرغ شحناته في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، ما كان ليصمد أمام

ذلك الإغراء، تلك الإثارة التي لا تُغتفر. حاولت الإمساك به من كمَّيْه، بينما حاول هو التراجع إلى الوراء.

«قبّلني ثانية! قبّلني ثانية!»، استمرت لوسيت تكررها بدلع طفولي، بصوت متلعثم بالكاد يسمع من شقّ شفتيها، في حالة من الذهول المتطلب، محاولة بأقصى ما يمكنها منعه حتى من التفكير في قول «لا».

قال لها إن ذلك كان كافياً.

«ولكن لماذا؟ أوه، أرجوك!»

أبعد أصابعها الباردة المرتجفة.

«لماذا يا فان؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟»

«أنت تعرفين لماذا. وتعرفين ذلك جيداً. أحبها هي، وليس أنت، وأنا ببساطة أرفض تعقيد الأمور وتوريط القصة بسفاح آخر.»

«نطقتَ بما يكفي»، قالت لوسيت. «أذكر أنك قد تماديت في علاقتك معي وفي عدّة مناسبات، حتى عندما كنت طفلة؛ أن ترفض الذهاب أبعد فهذا ليس إلا مراوغة من قبلك؛ وبالإضافة، بالإضافة إلى أنك قد خنتها مع آلاف الفتيات، أيها الغشاش القذر!»

«لا يحق لك التحدث إليّ بتلك النبرة»، قال فان، مستغلاً كلماتها البائسة كذريعة للابتعاد.

«أعتذر، أنا أحبك يا فان»، قالت بهمس محموم، محاولة كتم بكائها وراءه إذ إن الجدارن كانت عبارة عن أبواب وآذان، لكنه استمر في مسيره، ملوحاً بالوداع في الهواء من دون الالتفات إلى الوراء، ودون أن يكون حاملاً ضغينة، ومع ذلك، قفل مبتعداً.

٤

تطلبت مشكلة مغيظة حضور الطبيب فين إلى إنكلترا.

كان أقدم أطباء تشوز قد كتب إليه أن «العيادة» تودّ لو أنه يدرس حالة فريدة لشخص مصاب بـ«الحس المرافق للون» (chromesthesia)، ولكن فان، وبما وصله من توصيفات عديدة ومختلفة للحالة (ما دفعه للاشتباه بخداع محتمل)، فقد وجد نفسه مضطراً للذهاب هناك، حتى يقرر بنفسه ما إذا كان الأمر يستحق عناء نقل المريض إلى كينغستون لمزيد من المراقبة.

ثمة رجل يدعى «سبنسر مولدون»، وُلد بلا عينين، له من العمر أربعين عاماً، عازب، وحيد بلا أصدقاء، الأعمى الثالث بين المصابين بهذه العلة، معروف بهلوساته إبان نوبات من «جنون الارتياب» (بارانويا) كانت تصيبه، اعتاد أن ينادي الأشكال والمواد بأسمائها التي تعلمها من خلال اللمس، أو من خلال القصص الرهيبة التي عرفها عنها (أشجار ساقطة، ديناصورات منقرضة) والتي أصبحت الآن تحاصره من جميع الجهات، بالتناوب مع فترات من السبات تتبعها دائماً فترات من العودة إلى طبيعته، يعود خلالها، لأسبوع أو ربما اثنين، لوضع إصبعه فوق كتبه العمياء، أو للاستماع - مع نشوة حمراء فوق جفونه - إلى تسجيلات موسيقية، تغريد عصافير، وقصائد إيرلندية.

له قدرة على توزيع المساحة ضمن صفوف وملفات من الأشياء «القوية» و«الضعيفة»، كورق جدران بنمط معيّن، وقد بقيت قدرته تلك سراً غامضاً حتى جاء ذلك المساء، حين أراد أحد الطلاب الباحثين (ر. س. كما رغب أن يبقي اسمه) أن يتتبع بعض خطوط بيانية ذات صلة ببيانات تعريف مريض آخر، فترك، عن غيرما قصد، أمام متناول مولدون علبة طويلة تحوي أقلام تلوين جديدة (أقلام ديكسون بينك آنديل!)، غير مبرية، التي، بمجرد تذكرها، يستحضر المرء قوس قزح، إذ إن أقلامها الخشبية المصبوغة والمصقولة، قد رُتبت بالتدريج حسب ألون الطيف، داخل علبة قصدير أنيقة. لم يكن ممكناً لطفولة مولدون المسكين أن تهب له أي ذكريات قزحية، ولكنه عندما فتح الصندوق بأصابعه المتلمسة، ظهر على وجهه (الشاحب كشهادة جامعية) تعبير معيّن، يدل على تذوق وتلذذ حسي. عندما لاحظ ر.س. أن حاجب الرجل الأعمى قد ارتفع قليلاً عند اللون الأحمر، ثم أكثر عند البرتقالي، أكثر وأكثر عند الأصفر الصارخ، ثم تدرج نزولاً مع بقية ألوان الطيف، أخبره، على نحو عفوي، أن تلك الأقلام الخشبية تختلف بألوانها - «أحمر، برتقالي، أصفر، إلخ» - ولكن مولدون، وبالعفوية ذاتها، أضاف أنها تختلف بملمسها أيضاً.

في سياق العديد من الاختبارات التي أجراها ر.س. وغيره من الزملاء، أخبرهم مولدون أنه بمجرد تمرير أصابعه فوق التدرج اللوني للأقلام، فإنه يشعر بسلسلة متدرجة من «التنميلات» التي تشبه إلى حد ما الآثار التي تتركها ملامسة نبات القراص (كان قد ترعرع في جو قروي ما بين «أورماغ» و«آرماغ»، وخلال مغامرات طفولته البائسة، كثيراً ما كان قد سقط متعثراً، بجزمته السميكة، في الخنادق والوديان)، وتحدث بغرابة عن التنميل القوي الذي تتركه ملامسة ورقة تحمل لطخات من اللون الأخضر، والتنميل الضعيف الرطب

للون الوردي، خاصة أنف الممرضة لانغفورد المتعرق، وكان قد تفحّص الألوان ذاتها بين مجموعة الأقلام التي قدمها له الباحثون. ونتيجة لكل تلك الاختبارات، لا يمكن للمرء إلا أن يفترض أن لرؤوس أصابع الرجل قدرة على نقل «نسخة حسية عن موشور طيفي» إلى الدماغ، كما ورد في تفاصيل الرسالة التي وصلت إلى فان.

عندما وصولها، كان مولدون في حالة سبات قد دامت لمدة أطول من كل سابقاتها. آملاً أن يتمكن من معاينته في اليوم التالي، قضى فان يوماً ممتعاً مع زمرة من أطباء النفس الشغوفين، وكان مهتماً بالتعرف إلى إيلسي لانغفورد، الممرضة التي يميزها بين الممرضات حوَلٌ بسيط، وهي فتاة نحيلة بأسنان بارزة، دائمة الاندفاع والحماس، وكانت قد تورطت على نحو غامض، بقضية تتعلق بـ«الأرواح الشريرة»، تخص مؤسسة طبية أخرى.

كان يتناول العشاء مع الطبيب الرئيس داخل شقته في تشوز، وأطلعه عن رغبته في نقل الرجل المسكين إلى كينغستون، مع الممرضة لانغفورد، بمجرد أن يصير جاهزاً للسفر. مات البائس في تلك الليلة أثناء نومه، تاركاً الحادثة المشبوهة برمّتها معلقة في الهواء، ضمن هالة من التناقض اللامع.

قرر فان، الذي لطالما حرّضت زهورُ الكستناء الوردية في تشوز مزاجه العاطفي، أن يحسن هدر فائض الوقت المفاجئ الذي وُهب له، قبل أن يسافر إلى أمريكا، في مكافأة نقاهة تستمر لأربع وعشرين ساعة، داخل أجمل فيلا فينوس في أوروبا كلها، وأكثرها أناقة وكفاءة؛ استقل سيارة الليموزين القديمة، الفخمة، المعطرة على نحو خفيف (مسك؟ تبغ تركي؟)، التي كان عادة ما يحصل عليها من «ألبانيا»، فندقه في لندن، ليسافر فيها ضمن إنكلترا. خلال رحلته الطويلة نحو فيلا فينوس، عاودته مشاعر مضطربة، لم تبددها رغبة

الكئيبة. كان يتهدهد طوال الطريق برفق، قدماه في شبشب فوق مسند خاص، ذراعاه فوق حامل خاص أيضاً، وراح يتذكر أول رحلة قطار له نحو آرديس، وحاول - ما كان ينصح به مرضاه أحياناً، لتمرين «عضلات الوعي» - أن يعيد نفسه ليس فقط إلى الإطار الذهني الذي يكون أحدنا ضمنه قبل أن يطرأ على حياته تغيير جذري، ولكن أيضاً إلى حالة من الجهل التام تجاه هذا التغيير. كان مدركاً لاستحالة الأمر، ولا يمكن الوصول إلى تلك المرحلة، إلا أن المثابرة على المحاولة هي الشيء الوحيد الذي كان ممكناً، لأنه ما كان ليتذكر مقدمة قصته مع آدا لو أن الحياة لم تقلب إلى الصفحة التالية، مسببة بنصّها ذلك الإشعاع الذي يومض الآن، عبر كل أزمنة عقله. تساءل ما إذا كانت رحلته المبتذلة الحالية لتبقى في ذاكرته. في نسيم مسائه ذاك، انتشرت رائحة ربيع إنكليزي متأخر، تصحبه ذكريات أدبية. كانت «كانوريو» المدمجة (آلة موسيقية قديمة الطراز، كانت محظورة على الاستعمال، وقد أعادت لجنةٌ آنغلو أمريكية إطلاقها مؤخراً) تبثّ أغنية إيطالية تفطر القلوب. ماذا يكون هو؟ من يكون؟ لمَ يكون؟ فكّر في فتوره، في رعونته، في إهماله لروحه. فكر في وحدته، في قصص شغفه وما يحيط بها من مخاطر. رأى من خلال الحاجب الزجاجي، طيات عنق السائق السمينة، المفعمة بالصحة والموحية بالثقة. تداخلت مع صور كسولة - إدمووند، إدموند، كوردولا البسيطة، لوسيت المعقدة على نحو ساحر، وأيضاً، بفضل اتحاد ميكانيكي، انضمت إلى كل ما سبق صورة فتاة صغيرة فاسدة تدعى ليزيت، من مدينة كان، بثديين منتفخيْن كخرّاجيْن جميليْن، وكانت سهلة الانقياد نحو تلبية رغبات أخيها الأكبر المنتن، داخل غرفة استحمام قديمة. أطفأ الكانوريو ثم تناول البراندي المخزّن خلف لوح انزلاقي، شرب من الزجاجة مباشرة، لأن الكؤوس الثلاث كانت متسخة. أحس بأنه

محاط بأشجار كبيرة جداً، ووحوش مهام غير محققة، وربما غير قابلة للتحقيق. إحدى تلك المهام كانت آدا؛ المهمة التي كان متأكداً أنه مستسلم لفشله في تحقيقها؛ المهمة التي من أجلها سيتخلى عن كل بقايا روحه عند أول انفجار لبوق القدر. مهمة أخرى هي عمله الفلسفي، التي قد أعاقتها، على نحو غريب، أخلاق المهنة ذاتها - أصالة الأسلوب الأدبي الذي وحده يشكّل الصدق الحقيقي لكاتب ما. كان عليه أن يقوم بذلك على طريقته الخاصة، أن يتخطى ذلك التاريخ، ولكن الكونياك كان مقيتاً، وتاريخ فكره غارقاً في الكليشيهات. كان يعلم أنه لم يكن رجل علم بالكامل، بل فناناً بكل كيانه. على نحو متناقض وغير ضروري، كان هنالك في مسيرته المهنية، في مطالعاته المتعالية وغير المبالية، في إدارته للحلقات الدراسية، في تقاريره المنشورة عن العقول المريضة، تلك العبقرية، التي بدأت كشيء من الإعجاز قبل أن يبلغ عامه العشرين، وقد أكسبته في عامه الواحد والثلاثين «الألقاب» و«المناصب»، التي لا يصل إليها كثير من الرجال الكادحين في عامهم الخمسين. في أكثر لحظاته حزناً، كما الآن، عزا جزءاً من «نجاحه» على الأقل إلى رتبته الاجتماعية، ثروته، تبرعاته العديدة التي (في نوع من إطالة الإكراميات المفرطة التي قدمها للمتسولين الهزيلين الذين قاموا بتنظيف الغرف، بإدارة المصاعد، والذين ابتسموا له في أروقة الفنادق) استمر في إغداقها على المؤسسات التعليمية كما على الطلاب. ربما لم يمكن حدس فان فيين الساخر بهذا السوء؛ لأن الإدارات المحكومة بالذهنية الروتينية فوق كوكبنا أنتيتيرا (وكذلك فوق تيرا، حسب كتابات فان)، ما لم تتأثر بتشييد مبنى جديد أو زوبعة تمويلات جارفة، فإنها تفضل الرتابة الآمنة لأكاديمي متواضع، على تألق عبقرية فان فيين، المثيرة للشكوك.

غنّى عندليب، عندما وصل إلى وجهته الرائعة والخسيسة. اجتاحته كالعادة موجة وحشية من العُجْب، عندما دخلت السيارة في جادة السنديان، بين صفين من تماثيل تعرض أسلحة منحوتة على شكل الأعضاء الذكرية. كزائر مرحب به على مدار خمسة عشر عاماً، لم يكن فان مضطراً لإجراء اتصال مسبق (قانون جديد). استقبله أولاً ضوء الكشاف المبهر: للأسف، لقد جاء في ليلة «الاحتفال الكبير»!

عادة ما يركن سائقو الأعضاء سياراتهم في حديقة خاصة قريبة من مكتب الحراسة، حيث يوجد مطعم صغير خاص بالخدم، مع مشروبات غير كحولية وقليل من عاهرات قبيحات ورخيصات التكلفة. ولكن في تلك الليلة بالذات، كانت سيارات شرطة ضخمة قد شغلت كل مقصورات المرآب، وطفّت عنها حتى وصلت تعريشة مجاورة. طلب فان من كينغسلي أن ينتظره تحت سنديانة، ثم لثّم وجهه بنصف قناع وذهب ليستقصي الأمر. سرعان ما قاده مساره المفضل، بين حائطين، إلى أحد المروج الواسعة التي تحيط القصر بمخملها. كانت إضاءة عالية جداً مسلطة فوق الحديقة، وكان المكان مكتظاً كـ«بارك آفينيو» - ذكريات قفزت إلى ذهن فان فوراً، أعادتها أشكال الجواسيس، الذين يشبهون بتنكرهم الحذق نوعاً يذكّر فان ببلده الأصلي. بعض أولئك الرجال قد عرفهم بلمحة بصر - اعتادوا القيام بدوريات في نادي والده في مانهاتن، كلما طاب لغاماليل الطيب (الذي لم يُنتخب مرة أخرى بعد ولايته الرابعة) أن يتناول هناك عشاءً بصفته غير الرسمية. كانوا ينتحلون الشخصيات التي مرسوا على تقليدها: بائعو عصير الزنباع، بائعو موز، عازفو بانجو جوالون، مخلّصو معاملات يدورون بين مكاتب مقيتة (المهنة التي عفا عليها الزمن وما عادت رائجة في ذلك الوقت)، قراء جرائد

روسية يتجولون ببطء فوق الأرصفة، ثم يتوقفون فجأة ليعودوا نحو بوابة إيستوتسكيا فيستي، المفتوحة على مصراعيها.

تذكّر فان أن السيد ألكسندر سكريباتش، الرئيس الجديد للأمريكيتين الموحدتيْن، وهو روسي تقليدي، قد طار في رحلة بقصد رؤية الملك فيكتور، وخلص مصيباً أن لا بد لكليهما أن يكونا الآن منغمسيْن في الملذات. الجانب الهزلي في تصرفات المحققين (المناسِبة، ربما، لمفهوم الرصيف الأمريكي البائدة، البعيدة كل البعد عن الحيل الإنكليزية البارعة على نحو غريب) قد خفف من خيبة أمله، في حين ارتجف مشمئزاً من الفكرة المتمثلة في مشاركة الشخصيات التاريخية بحفلات السمر، وتمتيع نفسه بفتيات صغيرات شجاعات، كان أولئك الرجال هم أول من بدأ باستخدامهن ومن ثم نبذهن.

حاول تمثال ملفوف ببطانية أن يردع فان عن التقدم، ولكنه انزلق عن قاعدته الرخامية وسقط مرمياً على ظهره فوق أجمة سرخسية. متجاهلاً الآلهة المتدحرجة، عاد فان إلى «جول جويس»[1] التي كانت لا تزال تهدر. عرض عليه كينغسلي (صديق عجوز موثوق، ذو حنك بنفسجي) أن يذهب به إلى بيت آخر، على بعد تسعين ميلاً شمالاً؛ ولكن فان رفض من حيث المبدأ، وعاد إلى ألبانيا.

---

(١) جول جويس: بديل رولز رويس. (مترجم)

٥

عند الخامسة من بعد ظهر الثالث من يوليو، انطلقت سفينته من ميناء هافر دي غرايس، وفي مساء اليوم ذاته، ركب فان سفينة أخرى، في ميناء هانتسبورت القديم. كان قد أمضى معظم فترة العصر بلعب كرة المضرب في ملعب داخلي، مع ديلوربيه، المدرب الزنجي الشهير، وقد شعر بكثير من الملل والنعاس بينما كان يراقب انتكاسة شمس محترقة، آخذة بالانخفاض، تاركة بقعاً خضراء-ذهبية، على امتداد بضع ياردات من البحر المتماوج كأفعى، إلى ميمنة السفينة، فوق المنحدر الخارجي لتصل الأمواج البعيدة المتقوسة. سرعان ما قرر أن يخلد إلى النوم، سار نحو الطابق A، تناول بعضاً من فاكهة لا تزال تحتفظ برونق الحياة، كانت تنتظره في غرفة الجلوس، وحاول أن يقرأ في سريره مسودة مقالة تذكارية كان سيشارك بها في مناسبة بلوغ العالم كاونترستون عامه الثمانين، ثم وضعها جانباً، مستسلماً لإغفاءته. حوالي منتصف الليل، بدأ صفير الريح يتحول إلى تشنجات، ولكن فان، وعلى الرغم من الصرير والاهتزاز (كانت توباكوف سفينة قديمة ساخطة)، قد استغرق في نومه، أما ردة فعل عقله الحالم الوحيدة، فقد جاءت على شكل طاووس مائي، يغرق ببطء قبل أن يتشقلب متحضراً للغوص على

طريقة طائر الغطاس، قرب البحيرة التي تحمل اسمه، في مملكة آروو رووت Arrowroot القديمة. بعد مراجعته لهذا الحلم اللامع، عزا مصدره إلى زيارته الأخيرة إلى أرمينا، حيث ذهب للصيد في منطقة مخصصة لذلك، مع ذلك الرجل النبيل المفرط في تساهله، وابنة أخيه ذات المهارة العالية. أراد أن يدوّن الحلم، وكم وجد الأمر مسلياً حين اكتشف أن الأقلام الثلاثة التي كانت فوق طاولة السرير الجانبية لم تختفِ وحسب، بل كانت قد صفّت ذاتها بذاتها طولياً، جنباً إلى جنب، على امتداد العتبة السفلية للباب الخارجي، خاصة الغرفة المجاورة، بعد أن خربشت فوق مساحة لا بأس بها من السجاد الأزرق، في مسير هروبها الذي لم يكتمل.

أحضر له الخادم فطوراً خفيفاً[1]، جريدة السفينة، وقائمة بأسماء مسافري الدرجة الأولى، فوق الباخرة. تحت عنوان «السياحة في إيطاليا»، أخبرته الجريدة الصغيرة أن أحد مزارعي دومودوسولا قد كشف النقاب عن عظام أفيال هنيبعل مع سروجها المزركشة، وأن طبيبيْن نفسيين أمريكيين (لم تُذكر الأسماء) قد لاقا حتفهما بطريقة غريبة في نطاق بوكاليتو: الأكبر بينهما قد مات بسبب قصور قلبي، أما صديقه فمنتحراً. بعد أن أمعن التفكير في الاهتمام المرَضي للقيّمين على «الأدميرال» بالجبال الإيطالية، مزق فان الجريدة، ثم نظر إلى قائمة الركاب (التي تعلوها ذات الشارة التي كان تزيّن دفتر الرسائل خاصة كوردولا) ليرى ما إذا كان بينهم من عليه أن يتجنب رؤيته خلال الأيام المقبلة. أسفرت القائمة عن وجود الزوجين

---

(١) فطور خفيف: ورد في النص الأصلي باسم "Continental" breakfast، وهي التسمية التي أطلقت لمرتها الأولى عام ١٨٩٦، ويقصد بها الفطور الخفيف الخاص بالفنادق والمطاعم، ويتكون بشكل أساسي من خبز، مربى، فاكهة، قهوة وحليب. (مترجم)

روبيرت وراشيل، العجوزين الأكثر إزعاجاً في آل روبنسون (كان بوب قد تقاعد بعد أن أدار لسنوات عديدة أحد مكاتب العم دان). تعثرت نظرته المتفحصة على مهلها باسم الدكتور إيفان فيين، ثم تخطته إلى الاسم التالي. ما الذي سبب انقباض قلبه؟ لَمَ مرّر لسانه فوق شفتيه السميكتيْن؟ صيغ جوفاء تتناسب وروائيي العصور القديمة الرصينين، الذين ظنوا أنهم قادرون على تفسير كل شيء.

كان مستوى الماء في حوض الحمام يتمايل منحرفاً، مقلداً التأرجح البطيء للبحر الأزرق الساطع، المرقط بالأبيض، الذي كان يراه من كوّة مقصورة نومه. هاتف الآنسة لوسيندا فيين، التي كان جناحها في وسط السفينة الرئيسي، فوقه بالضبط، ولكنها لم تكن في غرفتها. ارتدى سترة بيضاء من طراز «بولو»، ووضع نظارته الشمسية، ثم ذهب للبحث عنها. لم تكن فوق السطح المخصص للألعاب، حيث استند إلى الدرابزين ونظر إلى الأسفل، ليرى رأساً أحمر آخر، فوق كرسي قماشي، يستحمّ بالشمس: كانت فتاة جالسة تكتب رسالة بسرعة انفعالية، وفكر فان أن لو كان له أن ينتقل من الواقع المضجر إلى خيال مرح لتحوّل إلى زوج غيور يستخدم ناظوراً ليفكّ، من موقعه العالي، شيفرة الحبر المتدفق الذي يشرح عاطفة محرّمة. ولم تكن أيضاً فوق السطح المخصص للتنزه، حيث جلس كبار السن تلفهم البطانيات، يقرأون رواية سالزمان، الأكثر مبيعاً، منتظرين، بأحشاء مقرقرة، وصول حساء اللحم الساخن عند الحادية عشرة. ذهب إلى ركن الشواء، حيث كان قد حجز طاولة لشخصين، ثم مشى نحو المشرب وألقى تحية ودية على توبي الأصلع السمين، الذي كان يخدم فوق غوينيفر، عام ١٨٨٩، ١٩٩٠ و ١٩٩١، حين لم تكن هي قد تزوجت بعد، وكان هو غبياً يملأه الغضب. كان بإمكانهما الهرب إلى لوبادوسا كالزوجين دايرز أو ساردي.

لمح أختهما غير الشقيقة فوق سطح مقدمة السفينة، وكانت تبدو فاتنة بفستان مفتوح عند الظهر، تلاعب الريح أزهاره وتماوجها، بينما كانت تتحدث إلى السيدة روبنسون، المسنة حقاً، والتي كانت الشمس قد دبغت بشرتها. التفتت نحوه، مزيحة عن وجهها خصلات شعرها المتطايرة، بمزيج من الانتصار والإحراج، ثم لم يطل الأمر بهما حتى استأذنا من راشيل وروبيرت، الذي تبعهما بنظراته، ملوحاً بيديه المرفوعتيْن على نحو متناظر، لها، له، للحياة، للموت، للأيام السعيدة الخالية، عندما دفع ديمون كل ديون قمار ولدهما، قبل أن يُقتل في حادث تصادم عربتيْن.

التهمت لوسيت شرحات اللحم المشوي بنهم وامتنان: لم يؤنبها على طريقة تنقلها الخفية تلك فوق متن الباخرة؛ بسبب لهفتها الطائشة لرؤيته، فاتتها وجبة الإفطار، بعد أن كانت قد نامت أيضاً من دون عشاء في ليلتها الفائتة. هي، من كانت تستمتع بكل حفر الأمواج وقممها، عند مشاركتها في الرياضات البحرية، كما تستمتع بتأرجح الطائرة صعوداً ونزولاً، خلال رحلاتها الجوية، كانت مريضة على نحو ظاهر جداً في ذلك اليوم، في أول رحلة مائية لها، على متن تابوكوف؛ ولكن السيدة روبنسون كانت قد أعطتها دواءً عجيباً، جعلها تنام لعشر ساعات، عشر ساعات بين ذراعي فان، وكانت تأمل أن تكون هي وفان الآن بكامل يقظتهما، على الرغم من بعض تورم في وجهها قد خلّفته حبوب المنوم.

سألها بلطف عن الوجهة التي كانت تظن أنها تقصدها.

إلى آرديس، معه - جاء الرد سريعاً - لأبد الآبدين. كان جد السيد روبنسون قد توفي في آرابي عن عمر يناهز الواحدة والثلاثين بعد المئة، لذا كان لا يزال أمام فان مئة عام أخرى ليعيشها، ستبني له خلالها في الحديقة، العديد من الأجنحة لإيواء حريمه

المتعاقبات، لتتحول، جناحاً بعد الآخر، إلى بيوت لسيدات مسنات، ثم إلى أضرحة. وأخبرته أيضاً، أنها رأت في جناح كوردولا وتوباك الذي نزلت فيه، لوحة لسباق خيل («نار شاحبة» و«توم كوكس آب») معلقة فوق سريرهما، وتساءلت ما إذا كان ذلك الرسم قد أثّر في ممارستهما للحب خلال أسفارهما البحرية. قاطع فان ثرثرة لوسيت العصبية، وسألها ما إذا كانت صنابير المياه في حمامها تحمل ذات النقوش التي رآها في حمامه: «خدمة حارة، ملح بارد». أجل، صاحت، ملح عجوز، سالزمان عجوز، خادمة تغلي، قبطان بارد!

ثم التقيا مرة أخرى بعد الظهر.

في ذلك اليوم، الرابع من يونيو ١٩٠١، في وسط المحيط الأطلسي، فوق خط طول إيسلندا وخط عرض آرديس، بدا معظم مسافري الدرجة الأولى على متن توباكوف، غير راغبين في الانخراط في أجواء الهواء الطلق: حرارة شمس تتوسط سماء كوبالتية، تتخللها هبات رياح جليدية عاصفة، مع مياه مسبح قديم ما انفكت تطف فوق بلاط أخضر، بإيقاع لم يتوقف؛ ولكن لوسيت المقدامة، كانت معتادة على مواجهة الريح العاصفة، كما الشموس الحارقة. ربيع فيالتا وشهر مايو المتقد في ميناتور (الجزيرة الاصطناعية الشهيرة)، قد أعطيا صبغة الرحيق لأطرافها، التي بدت وكأنها قد كانت مبللة حين طُليتْ به، وقد استعادت إزهارها الطبيعي ما إن جفّف النسيم بشرتها. بذلك التوهج فوق عظام وجنتيها، وبريق النحاس الذي ظهر من تحت قبعة مطاطية ضيقة قد غطت مؤخرة عنقها وجبهتها، بدت كالملاك ذي الخوذة، في أيقونة يوكونسك، التي يُحكى عن عجائب سحرها الذي حوّل عذراوات شقراوات مصابات بفقر الدم، إلى «كونسكيا ديتي»، شابات بشعر أحمر ونمش يغشى وجوههن، بنات «حصان الشمس».

عادت بعد سباحة قصيرة إلى حيث جلس فان، تحت الشمس، وقالت:

«لا يمكنك أن تتخيل» - (يمكنني تخيّل أي شيء، أصر) - «حسناً يمكنك أن تتخيل، الكم الهائل من المراهم والمستحضرات التي كنت قد وجدت نفسي مضطرة لاستخدامها - في عزلة شرفاتي أو في كهوف البحار المهجورة - قبل أن أتمكن من إظهار نفسي إلى عناصر الطبيعة. أنا أتراوح دائماً عند العتبة الفاصلة ما بين حروق الشمس وبين السمرة - أو بين الـ lobster والـ Obst، كما كتب Herb، رسامي المفضل[1] - وأنا في هذه الفترة أقرأ مذكراته التي نُشرت برعاية دوقته الأخيرة، بثلاث لغات مختلطة على نحو جميل جداً، سأعيرها لك لاحقاً. أترى يا حبيبي؟ أكنت لأعتبر نفسي غشاشة مبرقشة لو لم تكن الأجزاء الصغيرة التي أخفيها في العلن، بذات اللون الذي أظهره الآن.»

«عندما تفحصت جسدك عام ١٨٩٢، بدوت لي بلون الرمل، من رأسك حتى أخمص قدميك»، قال فان.

«إنني الآن فتاة جديدة»، همست. «فتاة جديدة وسعيدة. وحدي معك فوق سفينة مهجورة، وأمامي عشرة أيام على الأقام قبل حلول ميعاد طمثي القادم. أرسلت لك رسالة سخيفة إلى كينغستون، في حال لم أتمكن من رؤيتك مجدداً.»

كانا في تلك اللحظة مستلقيين، بوضعيات متناظرة، وجهاً لوجه، فوق حصيرة خاصة بالمسبح؛ أتكأ رأسه فوق يده اليمنى،

---

(١) lobster جراد البحر بالإنكليزية، Obst فاكهة بالألمانية، أما Herb (عشب) فتلميح إلى لوحة «غداء فوق العشب» للرسام الفرنسي إدوارد مانيه (١٨٣٢-١٨٨٣). (مترجم)

بينما استندت هي إلى كوعها الأيسر. انزلق حزام حمالة صدرها الخضراء فوق زندها النحيل، كاشفاً عن قطرات وخيوط ماء قد تجمعت عند قاعدة إحدى حلمتيها. فراغ من بعض إنشات فقط، هو ما فصل بين قميص فان وبطن لوسيت العاري، بين الصوف الأسود في سروال سباحته وقناع عانتها الأخضر الرطب. لمعت الشمس فوق حرقفتها؛ أظهر تجويفٌ مظلل أثرَ استئصال زائدتها الدودية، الجراحة التي أجرتها قبل خمس سنوات خلت. كانت تراقبه بنظرة تحمل نهماً واضحاً رغم محاولتها لإخفائه. كانت محقة حين قالت أنهما كانا هناك وحدهما، وكان قد نكح ماريون آرمبوروغ وراء ظهر عمها وفي ظروف أكثر تعقيداً، حين كان القارب الآلي يقفز مثل سمكة طائرة، وكان مضيفه يحتفظ دائماً ببندقية إلى جانب عجلة القيادة. لم يكن مسروراً حين أحسّ بثعبان رغبته اللحيم يقفز من جرته؛ ندم بمرارة على عدم استنفاد قوة شيطانه في فيلا فينوس. لم يصدّ يدها العمياء التي كانت تشق طريقها نحو فخذه، وكان في نفسه يلعن الطبيعة التي زرعت بين فخذي كل رجل شجرة صلبة تنفجر بعصارة دنيئة. فجأة، سحبت لوسيت يدها، مع زفرة غضب. كانت جنة عدن قد امتلأت بالناس. وصلت طفلتان نصف عاريتين، مغتبطتان، وكانتا تركضان بصخب نحو حوض السباحة. سعت وراءهما مربيتهما الزنجية غاضبة، ملوحة بقطعتيْ ثوبيْ سباحتهما العلويتين الصغيرتين، المنتزَعتين. على نحو عفوي وكأنه ولادة طبيعية، انبثق من الماء رأسٌ أصلع، ثم أطلق شخيراً. ظهر مدرب السباحة من غرفة الملابس. في الوقت ذاته، مرت أمام فان ولوسيت شابة طويلة فاتنة بكاحلين رشيقين وفخذين ممتلئين مشدودين، وكادت تدوس على صندوق سجائر لوسيت المرصع بالزمرد. باستثناء شريط ذهبي وعرف مشقر متدلٍّ، كان ظهرها الأسمر الفاتح، بتموجات جلده، عارياً

تماماً، من الكتفين وصولاً إلى الردفين، اللذين كشفا، في حركتهما المتناوبة، البطيئة والمثيرة، انتفاخاً سفلياً تحت سروال صغير وضيق. قبل أن تختفي وراء زاوية بيضاء مستديرة، أدارت الآلهة «التيتانية» وجهها الأسمر بنصف التفاتة وحيّت فان بصوت عالٍ.

«kto siya pava (من تكون أنثى الطاووس هذه)»، سألت لوسيت.

«ظننت أن التحية موجهة إليك»، أجاب فان. «لم أتعرف إلى وجهها، ولا أذكر أني رأيت سابقاً تلك المؤخرة.»

«منحتْك ابتسامة واسعة وسع غابة»، قالت لوسيت بينما أعادت تعديل خوذتها الخضراء، محركة ساعديها المرفوعين بحركة رشيقة أخاذة، قد أشعلت وميض زغب إبطيها الأحمر.

«أتأتي معي؟»، اقترحت عليه، أثناء نهوضها عن الحصيرة.

رفع رأسه عالياً ناظراً إليها، وقال: «إنك تشرقين مثل أورورا[١].»

«إطراءه الأول»، علقت لوسيت، مع هزة خفيفة من رأسها، كما لو كانت تتحدث إلى شخص غير مرئي.

وضع نظارته الشمسية، ثم نظر يراقبها بينما وقفت فوق لوح الغوص، وشهقت محدثة تجويفاً تحت أضلاعها، استعداداً لغوصها في ماء بلون الكهرمان. تساءل (في هامشٍ ذهني قد يكون مفيداً يوماً ما) ما إذا كانت النظارات الشمسية أو أي نوع آخر من أدوات الرؤية، التي تعمل بلا شك على تحريف مفهوم «المسافة»، تؤثر

---

(١) أورورا: آلهة الفجر عند الرومان. أما بالنسبة للجملة «تشرقين مثل أورورا»، فالفعل المستخدم في النص الأصلي هو Raise، الذي يخدم معنى «تنهضين» و«تشرقين» في وقت واحد. (مترجم)

أيضاً على أسلوبنا في الكلام. الفتاتان الصغيرتان الممتلئتان، الممرضة، الشاب مفتول العضلات، معلم السباحة، كلهم كانوا يشاركون فان بالنظر إليها.

«الإطراء الثاني قد صار جاهزاً»، قال لها عندما عادت لتجلس إلى جانبه. «إنك لغواصة إلهية. أنا لا أضاهيك براعة.»

«ولكنك أسرع مني في السباحة»، قالت متذمرة، بينما أزلقت حمالة كتفها لتنبطح فوق الحصيرة على بطنها؛ «Mezhdu prochim (بالمناسبة)، أصحيح أن البحارة على زمن توباكوف لم يكن يُسمح لهم بتعلم السباحة، كي لا يقضي أحدهم حزناً وجنوناً إذا ما نجا من غرق سفينته؟»

«بالنسبة لبحار عادي، ربما هذا صحيح»، قال فان. «ولكن بالنسبة للضابط توباكوف، عندما غرقت سفينته قبالة هاواي، فقد سبح لساعات وساعات، مرعِباً أسماك القرش بأغانيه القديمة، وهذا النوع من الأشياء، إلى أن أنقذه قارب صيد - معجزة كهذه، حسب تصوري، تتطلب تعاوناً من جميع الأطراف المعنية.»

قالت إن ديمون كان قد أخبرها، في العام الماضي أثناء الجنازة، أنه كان على وشك شراء جزيرة في هاواي («حالم لا يمكن إيقاظه»، تشدّق فان). كان قد ذرف حزنه ك «نافورة» في نيس، ولكنه هدر شلالاً من الدموع في فالنتينا، أثناء احتفال سابق، لم تتمكن مارينا المسكينة من حضوره. بدا حفل الزفاف - وفقاً للطقوس اليونانية - لو سمحت - وكأنه حلقة مزيفة بوضوح في فيلم قديم، الكاهن أبله والشماس ثمل، وأيضاً - ربما لحسن الحظ - كانت سماكة وشاح آدا الأبيض، منيعة على أشعة الشمس، كبرقع أرملة. قال فان إنه لا يود سماع ذلك الحديث.

«بل عليك أن تفعل!»، أضافت، «لسبب واحد، وهو أنه أحد

الأشابين (أحد الشباب العزاب الذين يتناوبون على حمل التاج فوق رأس العروس) قد بدا للحظات وجيزة، بمظهره الجانبي وتصرفاته الوقحة (استمر في رفع التاج المعدني الثقيل عالياً، وعالياً جداً، كما لو كان يحاول قاصداً إبقاءه بعيداً عن رأسها قدر الإمكان) وكأنه أنت، كتوأم شاحب غير حليق، مفوض من قبلك، من حيثما كنت، ليفعل ما فعل.»

كان في مكان جميل يدعى آغوني، فوق «تيرا ديل فوغو». راودته قشعريرة مزعجة عند تذكر كيف تلقى هناك دعوة لحضور الزفاف (أرسلتها أخت العريس الشريرة)، وكانت الكوابيس فترتها، وفي كل ليلة، تطارده، حلماً بعد آخر، يخفت في كل مرة (كما لو كان عليه أن يلاحق أفلام آدا، من دار عرض إلى آخر، حتى آخر يوم في حياته) يرفع فيها التاج فوق رأسها.

«كان والدك»، أضافت لوسيت، «قد استأجر مصوراً من بيلادونا - ولكن طبعاً، لا تبدأ شهرة أحدهم إلا حين يظهر اسمه ضمن الكلمات المتقاطعة في المجلات السينمائية. كلنا نعرف أن ذلك لن يحصل أبداً، أبداً. أتكرهني الآن؟»

«لا»، أجابها، ممرراً يده فوق ظهرها الحار، واستمر في مداعبة عصعصها إلى أن خرخر الماء في فرجها. «للأسف لا أكرهك! أحبك حباً أخوياً وربما أكثر رقة. هل آمر بإحضار مشروب؟»

«أريدك أن تستمر وتستمر»، تمتمت، دافنة أنفها في وسادتها المطاطية.

«ها هو النادل، فيمَ ترغبين؟ هونولولرز؟»

«اشربه مع الآنسة كوندور» (لافظة المقطع الصوتي الأول من أنفها) «بينما أذهب أنا لارتداء ملابسي. لا أرغب الآن سوى في الشاي. لا يجوز الخلط بين الكحول والعقاقير المخدرة. عليَّ أن

أتناول دواء آل روبنسون عند وقت ما من هذه الليلة. وقت ما من هذه الليلة.»

«كوبا شاي لو سمحت!»

«وكثير من الشطائر يا جورج! كبد مدهنة، لحم خنزير، أي شيء!»

«إنه لسلوك سيّئ للغاية»، علّق فان، «أن تؤلفي اسماً لنادل مسكين لا يستطيع الرد بالتالي: 'حاضر يا آنسة كوندور[1]'، أفضل تورية إنكليزية فرنسية قد سمعت بها يوماً، عن طريق المصادفة.»

«ولكن اسمه جورج. وقد كان معي بالأمس لطيفاً جداً حين تقيأت في وسط صالة الشاي.»

«الطِّيبة تجلب الطيبين»، تمتم فان.

«وكذلك كان زوجا روبنسون العجوزان معي»، استأنفت. «أعتقد أن هنالك فرصة ضئيلة لظهورهما هما الآن. إنهما يتتبعانني، بطريقة يظننان معها أنهما يرعانني، وذلك منذ أن صدف وتناولنا الغداء إلى الطاولة ذاتها في مقصورة الطعام فوق الباخرة، وقد تعرفت إليهما مباشرة، ولكني متأكدة أنهما لم يتعرفا إلى ذات الطفلة السمينة التي رأياها عام ١٨٨٥ أو ربما ١٨٨٦. إن لثرثرتهما مفعولاً منوّماً - بداية ظنناك فرنسية، سمك السلمون هذا لذيذ حقاً، في أي مدينة تقطنين؟ - وأنا مجنونة ضعيفة، والجنون والثرثرة توأمان. مرور الزمن يغير في الشباب على نحو جيد وليس كما يفعل مع العجائز الذين يزدادون تحجراً، ولا يعودون قادرين على مواكبة التغييرات الطارئة على الشباب الذين لم يروهم منذ مدة طويلة.»

«ملاحظة ذكية جداً يا حبيبتي!»، قال فان. «إلا أن الزمن بحد ذاته، هو ثابت متحجر وغير قابل للتغيير.»

---

(١) كوندور: Con d'or = Cunt of gold وتعني مهبل من ذهب.

«أجل، سأبقى دائماً جالسة في حضنك والطريق هارب من ورائنا. أتتحرك الطرق؟»

«الطرق تتحرك.»

بعد تناول الشاي، تذكرت لوسيت موعد تصفيف الشعر فغادرت في عجالة. خلع فان سترته وبقي هناك لفترة، يتأمل، ويحكّ الحجر الأخضر فوق الصندوق الذي حوى خمس سجائر روزبيتال، محاولاً الاستمتاع بدفء الشمس البلاتينية المحاطة بهالة بـ«لون الأفلام»، ولكنه لم ينجح، مع كل اهتزاز للسفينة، إلا في صب الزيت فوق نار الغواية التي أشعلتها شياطينه.

بعد لحظات، كما لو كانت تتجسس على عزلته، عادت أنثى الطاووس للظهور مجدداً - ولكن مع اعتذار، هذه المرة.

بكل تهذيب، وقف فان ورفع نظارته فوق جبينه، ثم بدأ بالاعتذار بدوره (لتضليل براءتها)، ولكن ذهولاً مفاجئاً قد قاطع خطابه الموجز، حين نظر إلى وجهها ورأى سماته التي تحمل من الغرابة المتنافرة والخشونة ما لا يمكن نسيانه أبداً. سمرة بشرتها الخلاسية الضاربة إلى الصفرة، شعرها الأشقر الفضي، شفتاها الممتلئتان البنفسجيتان، كانت كلها كنسخة تصوير سالبة بشعة، لانعكاس لونها العاجي الأصلي، سواد شعرها، وبوزها الشاحب.

«لقد أُخبرت»، شرحت، «أن أحد أصدقائي الرائعين، الخياط فيفيان فال، من المؤكد أنك سمعت به؟ - قد حلق ذقنه، مما يجعله شبيهاً بك إلى حد كبير. أليس كذلك؟»

«منطقياً لا، سيدتي!» أجاب فان.

ترددت للحظة، لعقت شفتيها، غير متأكدة ما إذا كان جوابه يشي بفظاظة أم باستعداده للمغامرة - في هذه الأثناء عادت لوسيت من أجل صندوق سجائرها.

«أراك لاحقاً»، قالت السيدة كوندور.

واكبت نظرات لوسيت ابتعاد السيدة مع كل التمايل البطيء لعضلات فلقتيْ مؤخرتها والطيات المحيطة بها.

«لقد خدعتني يا فان. إنها واحدة من فتياتك البشعات.»

«أقسم»، قال فان، «إنها غريبة تماماً عني. ما كنت لأخدعك.»

«لطالما خدعتني، ولمرات عديدة، حين كنت طفلة. إن كنت تعيد الكرة الآن، فأنت تعرف أن هذا سيقتلني.»

«لقد وعدتِني بحرملك»، زجرها فان بلطف.

«ليس اليوم! ليس اليوم! إنه يوم مقدس.»

بحركة سريعة، حل فمها المجنون مكان الخدّ الذي نوى تقبيله لتهدئتها.

«تعال لتشاهد مقصورتي»، توسلته حين صدّها بوثبته القوية، مبتعداً نحو الوراء، كما لو كان حيواناً وقد لذعته نار شفتيها ولسانها. «لا أريد إلا أن أريك الوسائد هناك والبيانو. رائحة كوردولا أيضاً، إنها في كل الأدراج. أتوسل إليك!»

«اذهبي الآن! ليس لديك أي حق لإثارتي بهذا الشكل. سأوظف الآنسة كوندور لتعتني بي إن استمررت في ذلك. سنتناول العشاء عند السابعة والربع.»

وجد في غرفة نومه دعوة، قد وصلت متأخرة، لتناول العشاء إلى طاولة القبطان. كانت موجهة إلى الطبيب والآنسة فين. كان قد سافر مرة فوق متن هذه السفينة، بين رحلتيْن فوق غوينيفر، وكان يذكر تماماً كوولي، القبطان الجاهل والممل.

استدعى الخادم وأمر بأن يعيد الرسالة، بعد أن خربش فوقها: «لا يوجد ثنائي بهذا الاسم».

استرخى في حوض استحمامه لعشرين دقيقة، حاول التركيز على أمر ما يلهيه عن التفكير في جسد العذارء الهستيري. اكتشف في المسودات التي كان يعمل عليها اختفاءً، خبيثاً، لسطر كامل، على نحو يبقي الفقرة المشوهة مقبولةً في المعنى، بالنسبة لقارئ عادي. كانت نهاية الجملة التي تم اقتطاعها، تشكل مع بداية جملة أخرى متاخمة، مقطعاً صحيحاً من الناحية اللغوية، مشوّه المعاني، حماقة ما كان فان لينتبه إليها أبداً لو أنه لم يتذكر (وهذا ما أكده أيضاً ضارب الآلة الكاتبة) أن عند هذه النقطة تماماً، كانت قد كتب اقتباساً مناسباً: Insiste, anime meus et adtende fortiter[١] (اسألك شجاعة أيتها الروح، اضغطي عليّ أكثر فأكثر!).

«أمتأكدة أنك لا تفضلين الذهاب إلى المطعم؟»، استفسر فان حين وصلت لوسيت، بثوب سهرة قصير قد أظهر عريها أكثر مما فعل ثوب السباحة، وانضمت إليه أمام بوابة ركن الشواء. «هنالك صخب لا يُحتمل، مع فرقة تستمني موسيقى الجاز. أليس كذلك؟»

هزت بحنان رأسها المزين بالجواهر. تناولا قطعاً عصارية وضخمة من قريدس grugru (اليرقانات الصفراء لسوسة النخيل)، وديسماً مشوياً على طريقة توباكوف الخاصة. ست طاولات فقط كانت قد شُغلت هناك، وباستثناء اهتزازات المحرك المزعجة، التي لم ينتبها لها أثناء الغداء، كان كل شيء هادئاً، مريحاً، وحميماً. استغل فان فرصة صمتها الرزين والغريب ليخبرها تفاصيل قصة مولدون المتوفي، متلمس أقلام التلوين، وعن حالة أخرى شهدها في كينغستون، تخص امرأة من يوكونسك، صارت فجأة تتحدث بغير لغتها، وبلهجات عدة أقرب إلى السلافية، الموجودة، ربما، فوق

(١) اقتباس للقديس اللاتيني أوغسطينوس. (مترجم)

تيرا، ولكن حتماً ليس فوق إيستوتي لاند. ولكن للأسف، كانت هنالك قضية أخرى قد استأثرت بكامل انتباهه.

طرحت لوسيت أسئلة قد أوحت بتفانيها في الاستماع واهتمامها بالحديث، ولكن البروفيسور العالم لا يلزمه الكثير من الذكاء ليدرك أن ارتباكها الساحر، وصوتها الخفيض، كانا يغليان شهوة بما لا يقل عما أظهرته عصر ذلك اليوم.

في حقيقة الأمر، كان ينتاب لوسيت مخاض فوضى عاطفية، لا يمكن أن يكبحها إلا أرستقراطي أمريكي، بطل في السيطرة على الذات. كانت قد بقيت لفترة طويلة مقتنعة بأنها إن أجبرت الرجل الذي أحبته حباً سخيفاً لا رجعة فيه، على مضاجعتها، حتى ولو مرة واحدة، فإنها بطريقة أو بأخرى، وبمساعدة عناصر الطبيعة المذهلة، ستحول حدثاً عابراً إلى رابطة روحية أبدية؛ ولكنها أيضاً كانت متأكدة أنه إن لم يحدث الأمر في ليلة سفرهما الأولى، فإن علاقتهما ستعود إلى نمطها المتعب، الميؤوس منه، والمألوف من مزاح، ورد المزاح، الذي يخفي وراءه إثارة مشتعلة، سيخمدها مرور الزمن. كان فان قد فهم حالتها، أو ظنّ على الأقل، بأثر رجعي، أنه فهمها، حين لم يعد يجد في خزانة صيدلية الماضي، مع رفوفها التي تصدر صريراً، وفراشي الأسنان التي تهوي من فوقها، إلا دواءً واحداً، «زيوت النثر الأطلسي»، للطبيب هنري[1]. عندما نظر، كئيباً، إلى كتفيها العاريتين، النحيلتين للغاية، المرنتين جداً (لدرجة دفعته ليتساءل ما إذا كانت، كالملائكة، غير قادرة على شبك جناحيها

---

(١) الطبيب هنري: تلميح إلى المؤلف البريطاني هنري جايمس (١٨٤٣ - ١٩١٦)، أما كامل الجملة فيشير إلى زجاجة الدواء الفارغة (القسم الأول، الفصل ٢٣). (مترجم)

أمامها) اعتقد أن عليه أن يعاني خمسة أيام الرحلة المتبقية من ألم شهواني، إذا ما امتثل للشروط التي يمليها عليه شرفه العميق - ليس فقط بسبب جمالها المتفرد، بل لأنه لم يتمكن أبداً في حياته أن يخرج في رحلة لأكثر من ثماني وأربعين ساعة، من دون صحبة فتاة للمتعة. كان يخشى أن هذا بالضبط ما كانت تسعى إليه: أنه بمجرد أن يتذوق جرحها ولذة امتلاكها، فإنها ستبقيه أسيراً لديها لأسابيع، وربما لأشهر، أو ربما لأكثر من ذلك، ولكن فراقاً قاسياً كان ليأتي لا محالة، مع أمل جديد ويأس قديم، لا يمكن لهما البتة خلق معادلة متوازنة معاً. ولكن كان هنالك ما هو الأسوأ: على الرغم من وعيه، وإدراكه لاشتهائه لطفلة مريضة، إلا أنه شعر، في التفاف غامض لعواطف قديمة، أن خجله يشحذ تلك الشهوة.

شربا قهوة تركية ثقيلة، ومحلاة، وكان ينظر خلسة إلى معصمه ليرى كم أصبح الوقت - ماذا؟ إلى متى يمكن أن يستمر تعذيب إنكار الذات؟ متى ستتداخل بعض الأحداث كحفلة لسباق في الرقص مثلاً؟ كم عمرها؟ (كان عمر لوسيندا فيين خمس ساعات فقط إن عكسنا «تيار الزمن» البشري).

كانت حبيبة مثيرة للشفقة، لدرجة أنه، عندما همّا بالخروج من ركن الشواء، لم يستطع منع نفسه (إذ إن الشهوانية هي أفضل ما يجلب لنا الأخطاء القاتلة) من أن يداعب كتفها اليانعة اللامعة، في لحظة كانت الأسعد في حياة لوسيت، مطبقاً فوق تحدّبه المثالي، وعلى نحو ملائم جداً، تجويفَ باطن يده الحارة. ثم بعد ذلك، بكامل وعيها لنظراته المحدقة، مشت أمامه بزهو كما لو كانت قد ربحت جائزة في المشي فوق الحبال. لم يستطع وصف ثوبها بغير كلمة «نعامي» (إن كان هناك نعام بلفائف ريش نحاسي)، إذ إنه أظهر تأرجح خطواتها، وطول ساقيها المغمدتين في جوارب حريرية. من

الناحية الموضوعية، كانت أكثر أناقة من أختها «المهبلية». أثناء عبورهما لمهابط السفينة، حيث الحبال المخملية، التي مدّها على عجل بحارة روس (الذين نظروا بتعاطف إلى شابين أنيقين، يتحدثان بلغتهما التي لا لغة في العالم تضاهيها جمالاً)، أو بينما كانا يتنزهان فوق هذا أو ذاك السطح، دفعته لوسيت للتفكير في بعض المخلوقات البهلوانية التي لا خوف عليها من البحار الهائجة. رأى، باستياء رجل نبيل، أن ذقنها المائل، وأجنحتها السوداء، وخطوتها المتحررة، لا تجذب فقط العيون الزرقاء البريئة، بل أيضاً أعين رفاق السفر الفاسقين، الذين كانوا يحدقون فيها. رفع صوته مهدداً أنه سيصفع أول سفيه سيأتي في طريقه، ومشى، لاإرادياً، نحو الخلف، ملوحاً بإيماءات وعيد سخيفة، إلى أن اعترضه كرسي طويل مطوي (هو أيضاً يعيد عجلة الزمن إلى الوراء، بطريقة بسيطة)، ما جعلها تنفجر ضاحكة. مستمتعة بمزاج الشمبانيا اللطيف، شعرت لحظتها أنها أكثر سعادة، وأعادت فان نحو المصعد، بعد أن قادته بعيداً عن سراب معجبيها. نظرا دونما اهتمام كبير إلى الأشياء المسلية المعروضة في واجهات البيع. سخرت لوسيت من بزة سباحة مطرزة بخيوط ذهبية. وجود سوط لضرب الخيل قد أثار إعجاب فان. نصف دزينة نسخ من مؤلفات سالزمان، بأغلفة لامعة، كانت مكدسة على نحو لافت، بين صور الكاتب الأنيق، الوقور، الذي أصبح اليوم طي النسيان، بين إناء «بينغو مينغو»، يحوي أزهاراً اصطناعية.

شدّ حبلاً أحمر ثم دخلا الصالة.

«إذاً، من كانت تشبه»، سألت لوسيت، «تلك الخنزيرة القبيحة؟»

«لست أدري»، أجاب كاذباً، «من تقصدين؟»

«كما تريد»، قالت، «أنت لي الليلة، لي، لي!»

اقتبست من كيبلينغ[1] - ذات الجملة التي كانت آدا تتوجه بها إلى كلبها داك. نظر فان حولهما مفتشاً عن قشة، يسوّف بها غرقه المحتم.

«أرجوك يا فان»، قالت لوسيت،« لقد تعبت من التجوال، أشعر بالضعف، والحمى، أكره العواصف، لنذهب إلى الفراش!»

«انظري هناك!»، صاح مشيراً إلى ملصق. «إنهم يعرضون هناك ما يسمى بـ«ملذات دون جوان الأخيرة». إنه عرض تجريبي، وللبالغين فقط. خاص بسفينة توباكوف!»

«سيكون عرضاً مضجراً غير ممثْيل[2]»، قالت لوسي (مدرسة هوساي، ١٨٩٠)، وكان فان أثناء ذلك قد سحب جانباً ستار المدخل. دخلا في بداية صورة تمهيدية، تظهر رحلة بحرية نحو غرينلاند، مع بحار هائجة، في ألوان مبهرجة. لم تكن لذلك صلة برحلة توباكوف، التي لم يضطر قبطانها للاتصال بمرفأ غودهافن. علاوة على ذلك، كان مسرح العرض يتأرجح بين إيقاع وإيقاع مضاد، أمام ألوان الشاشة المتضخمة، الكوبالتية والزمردية. لا عجب أن المكان كان شبه خالٍ، كما لاحظت لوسيت، ثم أضافت أن آل روبنسون قد أنقذا حياتها حين أعطياها ظرفاً كاملاً من حبوب Quietus.

«أتريد واحدة؟ حبة واحدة باليوم تبقي الغثيان بعيداً. تورية[3]. يمكنك مضغها، إنها حلوة.»

---

(١) كيبلينغ: روديارد كيبلينغ (١٨٦٥-١٩٣٦) مؤلف بريطاني، من أشهر أعماله: كتاب الغابة Jungle book. (مترجم)

(٢) ممثْيَل: مثْيلة: أو Methylation، عملية كيميائية. (مترجم)

(٣) تفاحة واحدة في اليوم تبقي الطبيب بعيداً.

«اسم الدواء ظريف. لا شكراً يا حلوتي. كما أنه لم يبق لديك إلا خمس حبات.»

«لا تقلق لقد خططت للأمر جيداً. ربما بقي في الرحلة أقل من خمسة أيام.»

«بل أكثر، في الواقع. لا يهم. قياستنا للزمن لا معنىً لها؛ الساعة الأكثر دقة عبارة عن دعابة؛ ستقرئين عن كل ذلك يوماً ما. عليك فقط بالانتظار.»

«ربما لا. أعني، ربما لا أملك صبراً حتى ذلك الحين. أعني... إن مدبرة منزل ليوناردو لم تتمكن يوماً أن تنهي قراءة كفه. قد أغفو قبل أن يتسنى لي التوغل في كتابك التالي.»

«أسطورة متفوقة من الناحية الفنية»، قال فان.

«إنه الجبل الجليدي الأخير. عرفت ذلك من الموسيقى. لنذهب يا فان! أم تريد رؤية عرض آخر؟»

مررت شفتيها فوق خده في الظلام، أخذت يده في يدها، قبّلت عقد أصابعه، وقال في نفسه فجأة: «في النهاية، لم لا؟ الليلة؟ الليلة. فليكن الأمر!»

كان يستمتع بنفاد صبرها، وقد سمح لنفسه، الأحمق، أن يترك الأمر ليثير شهوته، ثم راح، الخسيس، يهمس في أذنها، مطيلاً بذلك أمد تأجج نار أملها، الجديدة، والحرة:

«إن أحسنت التصرف، فسنتناول الشراب سوية عند منتصف الليل، في غرفة الجلوس خاصتي.»

كانت المشاهد الرئيسية قد بدأت في تلك اللحظة. لعب أدوار الشخصيات الثلاث الرئيسية (دون جوان شديد الشحوب، ليبوريلو مع كرشه فوق الحمار، ودونا آنا التي كانت من الواضح أنها في

الأربعين من عمرها وليست على قدر كاف من الإثارة) نجوم قديرون، قد ظهرت صورهم في لقطات «شبه ثابتة»، أو كما يُقال في لغة أخرى، فوق ورقة شفافة ضمن مقدمة موجزة. وعلى عكس التوقعات، تبين أن الصور جيدة للغاية.

في طريقه نحو القلعة النائية، حيث وعدته، وأخيراً، سيدة صعبة المراس (قد ترمّلت على يد سيفه) بليلة حب كاملة في مخدعها العفيف والرطب، كان العجوز الماجن يرعى فحولته برفضه لسلسلة من الجميلات المتعاقبات في دربه؛ تنبأت له غجرية أنه، وقبل وصوله إلى القلعة، سيقع في شباك حيل أختها دولوريس، وهي فتاة راقصة (شخصية مقتبسة من رواية أوسبرغ، كما بينت دعوى قضائية لاحقة). كما أنها تنبأت بأمر لفان أيضاً، إذ إنه، وقبل أن تخرج دولوريس من خيمة السيرك لتسقي الماء لحصان جوان، كان فان قد عرف من ستكون.

في الأشعة السحرية لكاميرا التصوير، في هذيان راقصة الباليه الرشيقة، تبخرت عشر سنوات من حياتها وعادت لتكون تلك الفتاة المستهترة «التي لا ترتدي سروالاً داخلياً» (كما قصد فان إزعاج معلمتها بذكر هذه الترجمة لكلمة مستهترة، التي وضعها فرينشمان): ذكرى تافهة قد تطفلت على تشويق لحظته العاطفية الحاضرة، بذلك الغباء المتناقض الذي يبديه مسافر غريب، حين يسأل شخصاً يتربص به عن الطريق الصحيح في متاهة من الأزقة المعتمة.

تعرفت لوسيت على آدا بعد أربع أو خمس ثوان، وعندها، أمسكت برسغه:

«يا لها من كارثة! كنت متأكدة من وقوعها يوماً ما. إنها هي! دعنا نذهب من هنا أرجوك، فلنخرج! لا أريدك أن تشاهد فشلها. إنها متبرجة على نحو مرعب. كل إيماءاتها طفولية وكاذبة ـــ»

«دقيقة أخرى فقط!»، قال فان.

رهيبة؟ كاذبة؟ لقد كانت مثالية تماماً، وغريبة، ذات فتنة مألوفة. من خلال بعض الآثار الفنية، بعض المصادفات الساحرة، كانت المشاهدة القليلة التي أسندت إليها تشكل خلاصة مثالية عن شكلها عام ١٨٨٤، ١٨٨٨، ١٨٩٢.

أمالت الراقصة الغجرية الصغيرة رأسها بينما كانت تسقي حمار الخادم الذليل ليبوريلو، ورأت فوق قطعة برشمان خريطة للطريق المؤدي إلى القلعة. كشف العنق عن بياضه تحت الشعر الأسود الطويل، الذي فرقت خصلاته المنسدلة، حركةُ كتفيها. لم تكن دولوريس في تلك اللحظة تخص رجلاً آخر، بل كانت مجرد طفلة، تمسك بفرشاة طلاء وردية، تغمسها في دماء فان، وتحوّل بها قصر الدونا آنا إلى زهرة مستنقع.

تخطى الدون فوق ظهر حصانه ثلاث طواحين هواء، كانت تدور بشفراتها السوداء قبالة شمس غاربة ومشؤومة، وأنقذ دولوريس من غضب الطحان الذي اتهمها بسرقة حفنة من الطحين ومزق ثوبها الرقيق. بأنفاس بدأت تتقطع، عبر بها جوان جدولاً (إبهام قدمها العارية يدغدغ وجهه على نحو بهلواني) ثم أنزلها فوق العشب، في غيضة لأشجار الزيتون. وقفا بعد ذلك يواجه أحدهما الآخر. لمّست بطريقة شهوانية الجواهر في عجرة سيفة، فركت بطنها الفتي بثيابه المطرزة الضيقة، وفجأة، ظهرت فوق وجه الدون المسكين، ملامح نشوة مبكرة. ثم ابتعد عنها غاضباً، عائداً فوق ظهر فرسه.

لم يفهم فان إلا بعد فترة طويلة (حين أعاد مشاهدة الفيلم، حين أرغم، مرات ومرات، على إعادة مشاهدة الفيلم كاملاً حتى النهاية التعيسة والغريبة في قلعة الدونا آنا) أن ما بدا مشهد عناق عرَضي، لم يكن إلا مشهداً انتقامياً. أما في صالة عرض السفينة، عند مشاهدته

الأولى، فقد وقف، متهيئاً للمغادرة، قبل أن ينتهي تماماً مشهد الزيتون، بعد أن تخطى غضبه حدود العقل. في تلك اللحظة، غادرت ثلاث نساء عجائز أيضاً من جانب لوسيت (التي كانت نحيلة بما يكفي كي تبقى في مقعدها)، بوجوههن الحجرية، مظهرات اعتراضهن على المشهد، وقد مررن من أمام فان (الذي كان لا يزال واقفاً) تجر كل منهن قدميها المتشنجتين أمام الأخرى. في الوقت ذاته، لاحظ وجود شخصين آخرين، ثنائي روبنسون المفقودَيْن منذ فترة طويلة، وكانت تفصلهما عن لوسيت، كما بدا، مقاعد العجائز الثلاث، المغادرات. بوجهين يشعان فرحاً، تعلوهما ابتسامات الخير والتفاني، انزلقا للمرور من أمام المقاعد المجاورة للوسيت، التي التفتت نحوهما، لمرتها الأخيرة، لتمنحهما، للمرة الأخيرة، آخر هداياها، ابتسامة مجاملة ودودة، أكبر من خيبتها، وأكبر من الموت. عبرا أمامها، بتجاعيدهما المشرقة، متجهين، بأصابع مرتجفة، نحو فان الذي تملص من تطفلهما، متحججاً بدوار البحر، ليغادر فوراً قاعة العرض، الغارقة في ظلمة متمايلة.

في سلسلة الأفعال المتعاقبة التي قمت بها - التي مضى عليها الآن ستون عاماً، والتي لا يمكن لي أن أطحنها تحت رحى النسيان ما لم أجد كلمات متعاقبة مناسبة، توازن الأفعال بإيقاعها - عدت، أنا، فان فين، إلى حمامي، أغلقت الباب (فُتح مرة، ثم أغلق من تلقاء نفسه) ولجأتُ إلى وسيلة مؤقتة أقل غرابة بكثير عن تلك التي جاء بها الأب سيرغي (الذي قطع العضو الخطأ في حكاية الكونت تولستوي الشهيرة) ليتخلص بقوة من الضغط الحاد[1] المزعج، كما

(١) ليتخلص بقوة من الضغط الحاد: انتقال مقصود من قبل الكاتب من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب. (مترجم)

فعل منذ سبعة عشر عاماً. وكم هو حزين، كم هو معبّر، أن الصورة التي انعكست فوق شاشة ذروته (عندما فُتح الباب غير المقفل لمرته الثانية، بينما كانت أذناه غارقتيْن تحت مستوى الماء) لم تكن الصورة الأخيرة للوسيت التي اشتهاها، بل الصورة التي لا تُمحى لجيد عارٍ منحنٍ، وانسياب لشعر أسود مفلوق، وفرشاة طلاء أرجوانية.

ثم، وبداوعي السلامة، كرر ذلك الفعل المقرف، ولكن الضروري.

بعد ذلك، أعاد التفكير في الحالة كلها بمشاعر فاترة، وشعر أن أفضل ما يمكن فعله هو الخلود للنوم، وإطفاء مصباح «الكرباء»[١] (البديل العائد زحفاً نحو الاستعمال العالمي). ما إن اعتادت عيناه على ظلمة الغرفة، بدأت الأشباح الزرقاء تأخذ أشكالها وأمكنتها. افتخر بقوة إرادته. رحب بالألم الثقيل في جذره الذي طرح ماءه. رحب بصواب الفكرة التي بدت له فجأة صحيحة تماماً، جديدة، وحقيقية كشق باب صالة الجلوس الذي كان يتوسع ببطء، الفكرة التي مفادها أنه في غده (الغد الذي، وفي أفضل أحواله، قد وقع قبل سبعين سنة على الأقل) سوف يشرح للوسيت، بصفته فيلسوفاً وبصفتها أخت رجل آخر، أنه يعرف كم هو مؤلم وسخيف أن يصرف أحد ما كل ثروته الروحية والعاطفية على النزوة الجسدية لشخص آخر، وأن محنته تشبه محنتها إلى حد بعيد، ولكنه في النهاية، قد توصل إلى حلول للاستمرار في الحياة، والعمل، ولم ينجرف وراء اشتهائه لها لأنه يرفض أن يدمر حياتها من خلال علاقة ستكون عابرة، ولأن آدا، بالنسبة له، كانت لا تزال الطفلة التي أحبها. عند تلك النقطة، بدأت تموجات النوم تظهر على سطح المنطق، ولكنه

(١) الكرباء: وردت في النص الأصلي ectric بدل electric. (مترجم)

قفز فجأة، عائداً إلى وعيه الكامل، عندما رن الهاتف. بدت الآلة بعد كل رنين، وكأنها تربض لتشحن نفسها لرنين آخر، وكان فان قد قرر في البداية أن يتركها لستنفد نداءها دون أن يرد. ثم استسلمت أعصابه للإشارة الملحة، فتناول السماعة.

لا شك أنه كان محقاً من الناحية الأخلاقية باستخدام الذريعة الأولى التي خطرت في باله لإبقائها بعيدة عن سريره؛ ولكنه أيضاً قد عرف حقاً، كرجل نبيل وكفنان، أن الكلمات التي نطق بها كانت قاسية جداً ومبتذلة، وذلك فقط لأنها كانت ترفض أن تراه إلا بالصورة التي رسمتها له وآمنت بها:

«Mozhno pridti teper (أيمكنني المجيء الآن)؟»، سألت لوسيت.

«Ya ne odin (لست وحدي)»، أجاب فان.

تبع ذلك لحظات صمت، ثم أقفلت الخط.

بعد انسحاب فان من صالة العرض، كانت لوسيت قد بقيت أسيرة ثنائي روبنسون المحبين (راشيل، مع حقيبة يد كبيرة معلقة فوق كتفها، قد هرعت نحو المقعد الذي أخلاه فان، بينما شغل بوب المقعد المجاور الآخر). بسبب قليل ما اعتراها من الإحساس بالعار، لم تخبرهما أن الممثلة (التي، على نحو غامض وسريع، قد ظهر اسمها بين قائمة الممثلين عند نهاية الفيلم على أنها تيريزا زيغريس) التي مثلت الغجرية المشؤومة، الدور الصغير ولكن غير الهام، لم تكن إلا طالبة المدرسة الشاحبة، التي قد يكونان قد رأياها في لادور. دعاها، ذانك المتطرفان، لتناول الكوكا كولا معهما في مقصورتهما، الصغيرة، الكئيبة والمعزولة على نحو سيّئ، لدرجة أنه كان يمكن لأي شخص أن يسمع كل كلمة وكل شكوى صادرة عن طفلَيْن ترعاهما ممرضة صامتة، يغشاها بدورها دوار البحر، وبو

جعلتهما يخلدان للنوم متأخراً، متأخراً جداً - لا، ليسا بطفلَيْن، ربما زوجان شابان، خائبان، في رحلة شهر عسلهما.

«نحن متفهمان»، قال روبيرت روبنسون الذي كان متجهاً نحو الثلاجة لإيداع حمولة أخرى، «متفهمان تماماً لمدى انغماس الدكتور فيين بأعماله المثيرة للاهتمام - أنا شخصياً أندم أحياناً لكوني متقاعداً - ولكن هل تظنين يا لوسيت، بصحتك! أنه قد يقبل تناول العشاء غداً معك ومعنا وربما زوجين آخرين، سيسره لقاءهما بالتأكيد؟ أترسل له السيدة روبنسون دعوة رسمية؟ أتوقعين عليها، أيضاً؟»

«لست أدري، أنا متعبة للغاية»، قالت، «وقد بدأ 'الروك آند رول' يدور في رأسي. أعتقد أني سأصعد إلى قفصي وسآخذ الحبوب المهدئة معي. أجل، لم لا؟ فلنتعش سوية غداً! لقد كنت فعلاً بحاجة إلى هذا الشراب البارد.»

بعد أن أعادت سماعة الهاتف الجاحدة إلى مهدها، بدلت فستانها بسروال أسود وقميص ليموني (كانا مقررين لصباح اليوم التالي)؛ بحثت من دون جدوى عن ورقة رسائل عادية لا تحمل شارة أو رمزاً للسفينة؛ انتزعت صفحة غلاف صحيفة هيرب، وحاولت التفكير في كلمات مسلية، مسالمة ومبهرة، لتكتب رسالة انتحارها. لكنها كانت قد خططت لكل شيء ما عدا تلك الرسالة، لذا شطرت حياتها الفارغة نصفين، ورمت المزق في المرحاض؛ صبت لنفسها كأساً من مياه الموت، وابتعلت أربع حبات خضراء، الواحدة تلو الأخرى، مضغت الخامسة، ثم سارت إلى المصعد الذي حملها، بنقرة زر واحدة، من جناحها المؤلف من ثلاث غرف، مباشرة إلى المشرب فوق سطح التنزه، المفروش بالسجاد الأحمر. كان هنالك رجلان، بدا عليهما الثَّمَل، وكان كل منهما منهمكاً بإزلاق حبة فطره الحمراء تحت سرواله، وقال كبيرهما للآخر، عندما استدارا

للمغادرة: «يمكنك أن تخدع اللورد خاصتك، يا عزيزي، ولكن ليس أنا. أوه لا!»

تناولت جرعة من فودكا «كلاس»، البغيضة، الرخيصة، ولكن الفعالة بما يكفي؛ ثم أعادت الكرّة؛ وكانت بالكاد قادرة على تناول الثالثة لأن ما يشبه الجحيم كان قد بدأ يسبح في رأسها. اسبح كالجحيم يا توباكوفيتش، لتنجو من أسماك القرش!

لم تكن تحمل محفظتها. كادت تقع عن مقعدها المحدب على نحو سخيف عندما حاولت أن تفتش عن قطعة نقدية في جيب قميصها.

«إلى النوم يا صغيرة»، قال الساقي توبي باتسامة أبوية، ظنت بها لوسيت، مخطأة، نية سيئة. «إنه وقت النوم يا آنسة»، ردّد بينما ربت فوق كفها العارية. نكصت لوسيت غاضبة، وأجبرت نفسها على الرد بصوت واضح وعالٍ:

«سيدفع لك غداً ابن عمي فان فين، ويحطم أسنانك المزيفة.»

ست، سبع خطوات لا أكثر - عشر وتصل إلى الأعلى. عشر خطوات. بالساقين والساعدين. يوم الأحد. غداء فوق العشب. كلهم لهم رائحة نتنة. حماتي تبتلع طقم أسنانها. كلبتها، بعد كثير من الركض، ابتلعت جرعتيْ ماء ثم تقيأت بهدوء خلاصة وردية، فوق مفرش النزهة. ثم بعد ذلك، ابتعدت تهز بذيلها.

بينما كانت تجر نفسها نحو الأعلى، اضطرت لوسيت للتمسك بحبل الدرابزين. كانت تتقدم بخطوات متمايلة كما لو كانت عرجاء. ما إن وصلت السطح المفتوح، شعرت بالأثر الثقيل الذي خلفته تلك الليلة السوداء، وعدم ثبات عالمها المؤقت الذي كانت على وشك مغادرته.

على الرغم من أن لوسيت لم تكن قد ماتت من قبل، ولم تغطس في بحر بنفسجي، من ارتفاع كهذا، في مثل تلك الظلال المضطربة، وانعكاساتها الأفعوانية، إلا أنها سلمت نفسها من دون تردد إلى الموجة التي احدودبت ترحيباً بها. ولكن تلك النهاية المثالية لم يكتب لها النجاح، فقد أفسدتها عودتها الغريزية التلقائية إلى السطح، بدل الاستسلام لخدرها تحت الماء، كما خططت في آخر ليلة لها فوق الأرض، إذا ما اضطرت للقيام بذلك.

لم تكن الفتاة السخيفة متمرسة في تقنيات الانتحار، كما، وعلى سبيل المثال، يتدرب المظليون كل يوم على القفز الحر، وهذا أمر آخر سنراه في فصل لاحق. بسبب اضطراب الأمواج، وفقدان تركيز لوسيت الذي لم تعرف معه في أي اتجاه عليها أن تنظر، عبر العتمة والملح المزبد، وعبر خصلات شعرها الطافية، لترى أضواء السفينة، التي سرعان ما تخيلتها كآلاف العيون الكبيرة، المبتعدة كثيراً، في انتصار لا يرحم. أضعت الآن ملاحظتي التالية.

تذكرتها!

حتى السماء المظلمة لم تكن رحيمة، وحتى رأسها، جسدها، وخاصة ذلك السروال اللعين العطش، كلها قد استسلمت لقاع Oceanus Nox[1]. مع كل لطمة ملح بارد، ارتجفت لوسيت بغثيان له رائحة اليانسون، وصار الغدر، حسناً، أقصد الخدر، يسري في ذراعيها وعنقها. عندما بدأت تفقد أثر نفسها، فكرت أنه من المناسب لو تكشف لكل نسخات «لوسيت» التي كانت تراها في تلك اللحظة تبتعد عنها - وتأمر كل من تحمل السر أن تمرره إلى الأخرى

---

(١) Oceanus Nox: ليل المحيط باللاتينية، وهي أيضاً عنوان إحدى قصائد فيكتور هوغو. (مترجم)

همساً في أذنها، كما في سراب قصر كريستالي - أن الموت لا يعدو كونه تشكيلة أكثر اكتمالاً لشظايا الوحدة التي لا تُعد ولا تحصى.

لم تر شريط حياتها يمر أمامها كما خشينا جميعاً أنها قد فعلت؛ بقي المطاط الأحمر، خاصة دميتها الحبيبة التي غرقت يوماً، سليماً، لم تفسده أزهار أذن الفأر الزرقاء، أزهار الجدول الذي سيبقى منساباً في الذاكرة، إلى ما لانهاية؛ ولكنها رأت صوراً لنهايات غريبة، بينما كانت تسبح كتوباكوف هاوٍ، في حلقة من رعب موجز، وخدر رحيم. رأت خفيْن جديدين من الفراء الرمادي في غرفة نومها، كانت بريجيت قد نسيت توضيبهما في حقيبتها؛ رأت فان يمسح فمه بمنديل قبل أن يجيبها، وبعد ذلك، بقي متمنعاً عن الإجابة، ثم طرح المنديل فوق الطاولة، بينما نهض كل منهما واقفاً؛ رأت فتاة بشعر أسود طويل، تنحني بسرعة لتمسد ظهر كلب داشهاند، متوج بإكليل من الزهور شبه بال.

تم إطلاق زورق آلي مضاء، من السفينة التي لم تكن قد ابتعدت كثيراً، يحمل فان، مدرب السباحة، توبي المرتدي ثوباً مشمعاً، وعدداً من منقذين آخرين؛ ولكن في ذلك الوقت، كان كثير من البحر قد انجرف بعيداً، وكان التعب قد هدّ مقدرة لوسيت على الانتظار؛ سرعان ما امتلأت سماء الليل بهدير طائرة نفاثة قديمة ولكن قوية. كان شعاع إنارتها الدؤوب مسلطاً فقط على رأس فان الأسود، الذي، بعد أن قفز في اللجة الظلماء، صار يقارع الموج زاعقاً باسم الفتاة الغارقة، في تيه المياه السوداء، المعرّقة بالزبد.

٦

أبي:

ستجد ضمن المغلف رسالة أخرى لا تحتاج إلى شرح، أرجو أن تقرأها، وفي حال لم يكن فيها ما تعترض عليه، أرجو منك إرسالها إلى السيدة فينلاندر، التي لا أعرف عنوانها. ولتحط علماً - على الرغم من الأمر لم يعد مهماً الآن - أن لوسيت لم تكن يوماً عشيقتي، كما لمّح لك مرة حمار خسيس، ما زلتُ أتعقب أثره حتى اليوم. أُعلمت أنك ستعود إلى الشرق الشهر القادم. اطلب من أمينة سرك الحالية الاتصال بي في كينغستون، إن كنت مهتماً برؤيتي.

آدا:

أرغب في تصحيح وإكمال تفاصيل قصة موتها التي نُشرت، حتى قبل عودتي. لم نكن «نسافر سوية». لقد أبحرت من ميناء مختلف وتفاجأت بوجودها على متن توباكوف. بقيت علاقتنا كما كانت دائماً. قضيت اليوم التالي (الرابع من يوليو) كاملاً معها، باستثناء ساعات قليلة قبل العشاء. نعمنا بحمام من الشمس. استمتعت هي بالنسيم

العليل، وماء حوض السباحة المالح. لقد بذلت قصارى جهدها لتبدو غير مهمومة ولكني رأيت كم أن ذلك لم يكن صحيحاً. التعلق العاطفي الذي شكلته في مخيلتها، الافتتان الذي شتلته بيديها، لم يكن مزروعاً في أرض المنطق. إضافة إلى وجود صورة شخص لا يمكنها منافسته. آل روبنسون، روب وراشيل، اللذان خططا لمراسلتك عبر والدي، كانا آخر من تحدث إليها في تلك الليلة قبل الساقي الذي أقلقته تصرفاتها، تبعها نحو السطح المفتوح، وشهد قفزتها التي لم يتمكن من إيقافها.

بعد خسارة بهذه الفداحة، أفترض أنه لا مفر من إعادة تثمين أدنى التفاصيل، كل وتر قد قُطع، كل هامش قد محّ، من ذلك الماضي القريب. حضرت معها الجزء الأكبر من فيلم «قلاع في إسبانيا» (أو شيء من هذا القبيل)، وكان الخليع الماجن قد شق طريقه نحو القلعة الأخيرة حين قررت تركها في رعاية ثنائي روبنسون، اللذين انضما إلينا في مسرح السفينة. ذهبت إلى الفراش، ثم استُدعيت حوالي الواحدة فجراً حسب التوقيت البحري، بعد لحظات قليلة من مغادرتها لمتن السفينة. جرت كل محاولات إنقاذها ضمن النطاق المعقول، ولكن، وفي النهاية، اضطر القبطان، بعد ساعة من الارتباك والأمل، أن يوقف البحث بقرار حاسم وشنيع. لو أنه كان قابلاً للرشوة أو التفاوض، لكنت أجبرتهم حتى اليوم بالحوم حول تلك البقعة المشؤومة.

كطبيب نفسي، أعرف بطلان التكهنات حول ما إذا كانت أوفيليا لتغرق نفسها، من دون مساعدة خائن ما، حتى وإن تزوجت حبيبها فولتماند. أعتقد، بشكل غير شخصي، لو أن

ف. قد أحبها، لكانت ماتت في سريرها، آمنة وشيباء؛ ولكن، وبما أنه لم يحب تلك العذراء البائسة، وبما أن التعاطف والرقة لا يمكن أبداً أن يتحولا إلى حب، وبما أن، فوق كل ذلك، ظهور القاتلة الأندلسية، أكرر، في المشهد، كان أمراً لا يمكن نسيانه، فأنا ملزم بالوصول إلى نتيجة واحدة، يا عزيزتي آدا، وعزيزي آندريه، وهي أنها كانت لتنهي حياتها لا محالة، مهما حاول معها ذلك الرجل الشقي.

في عوالم أخرى أكثر رفعة، وأكثر عمقاً على المستوى الأخلاقي، قد يوجد ما نفتقده فوق ذرة الوحل التي نعيش فوقها، من قيود، مبادئ، تعاطف، وحتى بعض الفخر، إزاء جعل امرأة سعيدة حتى وإن لم نكن نحبها،؛ أما فوق هذا الكوكب، فإن كل «لوسيت»، ينتظرها مصير قاتل.

كان لا بد من تدمير بعض ممتلكاتها الصغيرة - صندوق سجائر، فستان سهرة شفاف، وكتاب فرنسي كان مفتوحاً عند صفحة تصف نزهة في البرية - لأنها كانت تحدق بي.

خادمك المطيع

فان فيين.

بني:

لقد أرسلت الرسالة حسب رغبتك. إن أسلوبك الكتابي لملتوٍ جداً مما دفعني للشك في وجود شيفرة ما، لو لم أكن أعلم أنك تنتمي للمدرسة المنحطة، مشاركة مع ليو العجوز البذيء والمسلول أنطون. لا يهمني أبداً ما إذا كنت قد ضاجعت لوسيت أم لم تفعل؛ ولكني قد علمت من دوروثي فينلاندر أن الطفلة كانت مغرمة بك. الفيلم الذي حضرتما

عرضه كان، بلا شك، «ملذات دون جوان الأخيرة»، وفيه تنتحل آدا، شخصية شابة إسبانية، وفي الحقيقة، رائعة الجمال. كان النحس قد لاحق مهنة تلك الفتاة المسكينة. اعترض هاوورد هوول بعد إطلاق الفيلم مدعياً: أنه قد طُلب منه تقديم دور تستحيل تأديته، يمزج بين أكثر من «دون» واحد؛ أن يونزيك (المخرج) كان قد قرر في مستهل الأمر أن يبني فيلمه الخيالي على رواية ثيربانتس الخام؛ أن قصاصات من النص الأصلي بقيت عالقة كصوف قذر بالنسخة التي وصل إليه، وأنك إن أصغيت جيداً للمسار الصوتي، يمكن أن تسمع في مشهد الحانة، صوت أحد المبتهجين من طاقم العمل، يتوجه مرتين إلى هوول باسم «كويكس». تمكن هوول من شراء وتدمير عدد من النسخ، بينما تم منع تداول الأخرى من قبل محامي الكاتب أوسبيرغ، الذي ادعى أن شخصية الغجرية قد سُرقت من بنات أفكاره الخاصة. وبالنتيجة، لا يمكن شراء بكرة فيلم، سيتلاشى كالدخان، ما إن ينتهي عرضه على شاشات المحافظات. تعال لنتعشى سوية في العاشر من يوليو. باللباس الرسمي.

صديقي العزيز:

لقد تأثرنا، أنا وزوجي، كثيراً بهذا النبأ الرهيب. ما لن أنساه أبداً، هو أن تلك المسكينة قد أبرقت إليّ ليلة موتها لتعلمني أنها ستقوم بتوضيب بعض الأشياء في جناحي المزدحم على متن توباكوف. لطالما أكننت للوسيت الرقيقة، الناعمة، مشاعر التعاطف والشفقة، وهذا ما أندم عليه اليوم. كنت سعيدة لبذل قصارى جهدي، لأني عرفت أنك ستكون

هناك أيضاً، كما أخبرتني بنفسها أيضاً: أنها ستكون في قمة السعادة لأنها ستبحر لعدة أيام مع ابن عمها الغالي.

للانتحار فلسفة غامضة لم يتوصل أي عالم إلى فهمها وشرحها.

لم أبك في حياتي بقدر ما أفعل الآن. يكاد القلم يسقط من يدي. سنعود من مالبورك حوالي منتصف أغسطس. تفضلوا بقبول فائق الاحترام.

كوردولا دوبراي - توباك.

فان:

لقد تأثرنا عميقاً، أنا وآندريه، بالمعلومات الإضافية التي شرحتها في خطابك العزيز (ذي الختم الناقص). لقد تلقينا لتونا، عبر السيد غروبشيفسكي، رسالة من الزوجيْن روبنسون، اللذين لم يسامحا نفسيهما (المسكينين المحبين)، على إعطائها هاتيك الحبوب المهدئة، الجرعة الزائدة التي، فوق ما تناولته من كحول، قد ضاعفت من خدرها الذي استحال معه بقاؤها على قيد الحياة، لو أنها غيّرت رأيها بعد سقوطها في ظلمة الماء البارد.

لا يمكن أن أشرح، يا عزيزي فان، مدى تعاستي. تعاسة أكبر من كل الآلام التي أمكن لي أن أختبرها يوماً، في رياض آرديس.

حبي الوحيد:

هذه الرسالة لن تُرسل أبداً. ستلقى في صندوق فولاذي، يُدفن تحت شجرة سرو في فيلا أرمينا، وإن ظهرت

صدفة خلال نصف قرن من الزمن، لن يعرف أحداً من كتبها ومن هو المعني بها. وما كانت لتُكتب لو لم يكن عويل تعاستك في سطر رسالتك الأخير، هو ذاته صرخة انتصاري. يجب على عبء هذه الحمى [وُجدت بقية هذه الجملة مهترئة بفعل بقعة من الصدأ، عندما أخرج الصندوق من مدفنه عام ١٩٢٨. وجاءت التكملة على الشكل التالي] ... عند عودتي إلى الولايات، بدأت سعياً منفرداً. في مانهاتن، في كينغستون، في لادور، في عشرات المدن الأخرى، استمررت في البحث عن تلك الصورة التي لم [غير واضح] فوق متن السفينة، من دار عرض إلى آخر، وفي كل مرة كنت أكتشف جزءاً من عذاب عظيم، من انفجار جمالي، في أدائك. هذا [غير مقروء] هو دحض كامل لكل اللقطات الصامتة الشنيعة خاصة كيم. من الناحية الفنية، ومن الناحية الآرديسية، أفضل اللحظات هي في المشهد الأخير - حين تتبعين الدون حافية القدمين، عند عبوره الردهة الرخامية متجهاً نحو موته الأخير، نحو سرير الدونا آنا المغطى بستائر سوداء، الذي ترفرفين حوله، يا فراشة زيغريس، ترفعين شمعة مائلة على نحو هزلي، وتهمسين بنصائح مبهجة ولكن غير مجدية في أذن السيدة العبوس، ثم تمعنين النظر فوق ستار موريتاني، لتطلقي قهقهة عفوية عالية، ساحرة ولذيذة، تدفع من يسمعها للتساؤل ما إذا كان ممكناً لأي فن أن يستحق اسمه، من دون هذا الانفجار المثير لطالبة مدرسة مبتهجة. وكل هذا السحر القافز من الشاشة، يا شمس إسبانيا الغاربة، لم يدم في مجمله إلا إحدى عشرة دقيقة، على امتداد أربعة إلى خمسة مشاهد، من دقائق ثلاث.

ثم وللأسف، جاءت هاتيك الليلة، في حي كئيب يعج بالورش وأكشاك الدخان والكحول، حين وللمرة الأولى، ورغم عدم رؤيته كاملاً - إذ إن الشاشة عند مشهد الغواية صارت تومض وتبهت - تمكنت من ملاحظة [كل تتمة الرسالة بالية].

٧

استقبل صباح القرن الجديد، الصافي والمزدهر (الذي عشنا، أنا وآدا، أكثر من نصفه) ببداية قصته الفلسفية الثانية، «إدانة المكان» (لم تكتمل أبداً، ولكنها، بعد إعادة النظر فيها، تشكل مقدمة لـ «نسيج الزمن»). ظهر جزء من هذا البحث، المكتوب بأسلوب علمي دقيق، ولكن معقد وعميق، في الإصدار الأول (٤ يناير) لمجلة أمريكية شهرية شهيرة جداً، The Artisan (الحرفي الماهر). يمكننا قراءة أحد التعليقات الواردة في واحدة من الرسائل، الرسمية على نحو مأساوي (تم التخلص من كل باقي الرسائل ما عدا هذه)، التي كانت شقيقته ترسلها عبر البريد العمومي، بين الحين والآخر. بطريقة ما، وبعد التبادل الذي جرى عقب موت لوسيت، تم اعتماد هذا النوع من المراسلات غير السرية، بموافقة ضمنية من قِبل ديمون:

حزيناً فوق قمم القوقاز
طار ديمون، المطرود من الجنة
تحته، أومض ذلك النتوء لجبل «بيك»
الذي تلمع الشمس فوق ثلجه إلى ما لا نهاية[1]

---

(١) الذي تلمع الشمس فوق ثلجه إلى ما لا نهاية: اقتباس من رواية «ديمون» (الشيطان) لميخائيل ليرمنتوف.

الجهل التام لأحدهما بعنوان الآخر، قد بدا في الحقيقة، أكثر ريبة من الرسائل التي كان يمكن لها أن تكون موقعة على الشكل التالي:

مزرعة آغافيا

٥ فبراير ١٩٠٥

لقد أنهيت للتو قراءتي لـ«تأملات في سيدرا» للكاتب إيفان فيين، وأنا أعتبرها مقالة عظيمة، أستاذي العزيز. «سهام القدر المفقودة»، وغيرها من اللمسات الشعرية، قد ذكرتني بالمرتين أو الثلاث، التي تناولت خلاها الشاي والكعك في بيتنا الريفي، عشرين سنة خلت. لقد كنتُ، كما تذكر (عبارة افتراضية!) «فتاة مثالية[١]» تتدرب على الرماية ما بين حاجز الشرفة ومزهرية، وكنت أنت طالب مدرسة خجولاً (قد وقعت معه، وكما توقعت أمي، في حب مبكر جداً!) يلتقط لي، بكل طاعة، السهام التي فقدتها بين الأجمات المفقودة، في قلعة مفقودة، ترعرت فيها لوسيت المسكينة، وآدا السعيدة، السعيدة جداً، القلعة التي أصبحت اليوم، بيتاً للعميان، بعد أن أيّدت كل من أمي والآنسة لاريفيير نصيحة داشا، بتحويل منزلنا لخدمة طائفتها. داشا، أخت زوجي (لا بد أن تقابلها قريباً، أجل، أجل، أجل، إنها حالمة ولطيفة، وأشد ذكاء مني) التي عرضت عليّ مقالتك، طلبت مني أن أضيف إلى رسالتي أنها تأمل بتجديد دائرة معارفك - ربما في سويسرا، في فندق بيلفو في مونرو، خلال أكتوبر. أعتقد

(١) فتاة مثالية: تلميح إلى رواية «فتيات مثاليات» للكونتيسة دي سيغور.

أنك قابلت مرة الآنسة «كيم بلاكرينت» - حسناً، إن العزيزة داشا، من ذات الصنف تماماً. إنها ماهرة في تقصي الأصالة والحفاظ عليها، وكل أنواع الدراسات التي لا يمكن لي أن أسميها! لقد تخرجتْ من تشوز (حيث درست التاريخ - الذي كانت لوسيت تطلق عليه «التاريخ القذر»، تسمية مبكية مضحكة!). بالنسبة لها، أنت «الفارس الكئيب»، لأنها ذات مرة، ذات مرة فوق أجنحة يعسوب، قبل زواجي بوقت قصير، حضرتْ - أعني في ذلك الوقت، لا أستطيع التخلص من أسلوبي «الاستطرادي» - إحدى محاضراتك العمومية حول الأحلام، التي أرسلت خلالها ورقة تشرح لك فيها كابوسها الأخير، كانت قد كتبته وفصلته بشكل أنيق، ولكنك قرأته متجهماً ورفضت التكلم عنه. حسناً، لقد تحدثت إلى العم ديمينتي ليحث «الفارس الكئيب»، ليحضر، إلى فندق بيلفو في مونرو، حوالي السابع عشر من شهر أكتوبر، على ما أعتقد، فما كان منه إلا أن ضحك قائلاً إنه عليّ أنا وداشينكا تدبير هذا الأمر.

«تهاني» مرة أخرى يا عزيزي إيفان! إنك، كما نعتقد نحن الاثنتين، لفنان رائع لا يمكن لأحد تقليده، وعليك أن تضحك فقط عندما تطالك انتقادات الحمقى، خاصة تلك التي يطلقها الإنكليز من الطبقة الدنيا-الوسطى- العليا، الذين يتهمون لغتك بكونها متحفظة وملتوية، فهم ليسوا إلا كمزارع أمريكي، يرى كاهنه «عجائبياً» فقط لأنه يتحدث اليونانية.

ملاحظة:

Dushevno klanyayus' («أنحني من أعماق روحي») - عبارة مبتذلة وغير صحيحة تستحضر صورة روح تقوم بفعل

nashemu zaochno dorogomu professor (الانـــحـــنـــاء)
o kotorom mnogo slïshal («لأستاذنا العزيز غير المرئي»)
ot dobrago Dementiya («الـذي سـمـعـت عـنـه الـكـثـيـر»)
(«من دينتون الطيب ومن أختي»). Dedalovicha i sestritsï
S uvazheniem (مع خالص احترامي)
آندريه فينلاندر

طبيعية المكان المؤنث (أو الذي نعتبره مؤنثاً ومزدحماً، حتى وإن كان العدم هو ما يشغله - المفهوم المريح للذهن) مائية في غالبها، بذات قدر طبيعة كوكبنا، العنصر الذي أهلك لوسيت. عنصر آخر، ذو صلة بالغلاف الجوي، لا يقل جاذبية وقرفاً، قد أهلك ديمون.

في أحد أصباح مارس عام ١٩٠٥، فوق شرفة فيلا أرمينا، حيث جلس، متكاسلاً، فوق سجادة، محاطاً كسلطان بأربع أو خمس نساء عاريات، فتح فان صحيفة أمريكية يومية، كانت تصدر في نيس. خلال رابع أو خامس أسوأ كارثة عرفها القرن الجديد، تدهورت طائرة عملاقة، لأسباب لم تعرف، على ارتفاع خمسة عشر ألف قدم فوق المحيط الأطلسي، بين جزر ليسيانكي ولايسانوف، في منطقة غافاي. وتضمنت قائمة «الشخصيات البارزة» النافقة في ذلك الانفجار: مدير إعلانات لمتجر كبير، نائب رئيس العمال لقسم الصفائح المعدنية في شركة لصناعة الفاكسات، مسؤول تنفيذي في شركة تسجيل، شريك بارز في شركة محاماة، مهندس معماري له باع طويل في مجال الطيران (أول خطأ مطبعي هنا، يستحيل تصويبه)، نائب رئيس شركة تأمين، نائب رئيس آخر، هذه المرة لمجلس التوافق (أياً كان هذا المجلس!) ـــ

«أنا جائعة»، قالت جميلة لبنانية نكدة، لها من العمر خمسة عشر صيفاً قائظاً.

«رني الجرس!»، قال فان الذي سيطرت عليه حالة من الذهول الغريب، مستمراً في قراءة أسماء من قضوا نحبهم:

ـــ رئيس شركة متخصصة ببيع الخمور بالجملة، مدير شركة لمعدات التوربينات، مصنّع أقلام رصاص، أستاذا فلسفة، مراسلان صحفيان (مع لا مزيد من التقارير)، مراقب مساعد في مصرف لتوزيع الخمور الصحية (خطأ مطبعي قاتل)، مراقب فرعي لمؤسسة إدارية، رئيس، أمين سر دار نشر ـــ

كل تلك الأسماء البارزة، إضافة إلى أسماء ثمانين آخرين، من نساء ورجال، وأطفال صامتين، قد لاقوا حتفهم في السماء الزرقاء، كانت قد بقيت محجوبة إلى أن تم التواصل مع أقرباء الضحايا؛ ولكن القائمة الأولى لتلك التوصيفات التجريدية السخيفة، بدت كتمهيد لخطب جلل لا يجب أن يعرض دفعة واحدة على القارئ، بل كفاتح للشهية؛ فقط عند الصباح التالي، علم فان أن رئيس المصرف الذي ضاع بين أخطاء الطباعة، كان والده.

«السهام المفقودة من مصير كل إنسان تبقى مبعثرة حوله»، إلخ (تأملات في سيدرا).

آخر مناسبة رأى فيها فان والده كانت في منزلهما، في ربيع ١٩٠٤. آخرون أيضاً قد حضروا: إيليوت العجوز، السمسار، محاميان (غرومشيفسكي وغروموويل)، الطبيب آيكس، خبير الفنون، روزاليند نايت، أمينة سر ديمون الجديدة، والوقور كيثار سويين، المصرفي الذي أصبح عند الخامسة والستين من عمره في طليعة المؤلفين؛ أنتج خلال عام واحد عجائبي، «محيط الخصر»، قصيدة حرة يهجو بها عادات الغذاء الأنغلو-أمريكانية، و«كاردينال

غريشكين»، حكاية متناهية الدقة، في المديح العلني للكنيسة الرومانية. لم تكن القصيد إلا كرَمش بومة لأجفانها؛ أما الرواية، فقد عرفت بالـ«إبداعية»، كما أطلق عليها نقاد شباب مشهورون (نورمان غيرش، لويس ديير، وآخرون) الذين أثنوا عليها بأصوات تبجيلية عالية جداً، لا تستطيع أذن بشرية طبيعية تحمّل ذبذبتها المؤذية؛ ومع ذلك، بدا الأمر في غاية الغرابة، حين، وبعد الدوي العظيم الذي أحدثته مقالات النعي عام ١٩١٠ («كيثار سويين: الرجل والكاتب»، «سويين الشاعر والإنسان»، «كيثار كيرمان لافير سويين: السيرة الذاتية»)، دخلت القصيدة كما الرواية في غياهب النسيان، تماماً كما فعلت مهنة نائب رئيس الرقابة في مجلس التوافق، ذو الباع الطويل - أو، مراسيم ديمون.

تمت مناقشة الكثير من الأعمال حول طاولة الاجتماع. كان ديمون قد اشترى مؤخراً جزيرة صغيرة في المحيط الهادئ، ذات استدارة مثالية، إضافة إلى منزل وردي فوق منحدر أخضر وشاطئ تكسوه الرمال كالكشاكش (كما يُرى من الجو)، وكان يرغب يومذاك في بيع القصر الصغير الثمين في شرق مانهاتن، وهذا ما لم يرده فان. قال السيد سويين، المتمرس في جشعه، ذو الأصابع السمينة المزينة بخواتم براقة، إنه قد يشتريه إن أبقى فيه ديمون بعض اللوحات الفنية. لم تنجح الصفقة.

تابع فان أبحاثه الخاصة إلى أن تم انتخابه (في الخامسة والثلاثين!) لرئاسة كلية راتنر للفلسفة، في جامعة كينغستون. كان هذا الخيار نتيجة ليأس المجلس بعد وقوع كارثة؛ على نحو غامض، اختفى المرشحان الآخران، وهما من كبار العلماء الراسخين، كلاهما أكبر وأقدر من فان، ومبجلان حتى في طارطاريا، حيث سافرا كثيراً، يمسك أحدهما بيد الآخر، وتشع عيونهما أملاً (ربما

ماتا تحت أسماء مستعارة في الحادث اللغز الذي حلّ بالطائرة المنفجرة فوق محيط مبتسم). وقد بقيا مختفييْن حتى «إحدى عشرة ساعة»، قبل أن يُحل المجلس، الذي لا يجب أن يبقى شاغراً لفترة زمنية أطول مما تنص عليه القوانين الموضوعة، وذلك لمنح المنصب لشخص جديد، قد يكون أقل كفاءة، ولكنه يحمل روح التجديد. لم يكن فان محتاجاً إلى شرف كهذا ولم يقدّره أبداً، ولكنه قبله بروح طفل صالح منحرف، أو لنقل الامتنان المنحرف، أو ربما ببساطة لإرضاء روح والده الذي كان ليُفتتن بأمر كهذا. لم يأخذ مهمته على محمل الجد، فأخفض حتى الحد الأدنى (ربما عشرة في السنة)، عدد المحاضرات التي توجب عليها إلقاؤها بنغمة خطابية رتيبة ومزعجة، تماماً كما كانت تُحفظ في «مسجل الصوت» الصغير، المخفي في جيبه سترته، إلى جانب علبة حبوب فينوس المعقمة، بينما كان يحرك شفتيه بصمت، مفكراً في الصفحة الممتدة من نصه المترامي، الذي لم ينته مع نهاية دراسته. لقد قضى في كينغستون عدداً لا بأس به من السنوات الكئيبة والمضجرة (تخللتها رحلات متنوعة في الخارج)، وكان أثناءها تلك الشخصية الغامضة، التي لم تجمع حولها أساطير في الجامعة، ولا حتى في المدينة. لم يحبه زملاؤه المتزمتون، لم يحظ بشهرة في الحانات المحلية، لم يندم عليه طلابه الذكور؛ تقاعد عام ١٩٢٢، وقرر الإقامة في أوروبا.

مكتبة
t.me/t_pdf

٨

يوم الأحد في بيلفو مونرو
أحزان قوس القزح عند وقت العشاء

تلقى فان تلك البرقية الغريبة مع فطور يوم السبت، ١٠ أكتوبر، ١٩٠٥، في قصر مانهاتن القائم في جنيف. في اليوم ذاته، غادر إلى مونرو، ونزل في فندقه المعتاد، «الإوزات الثلاث»، في الطرف المقابل من البحيرة. كان البواب (رجل صغير الحجم، نحيل، يحمل من الأصالة ما يكاد يكون أسطورياً) قد توفي خلال أيام إقامة فان الأخيرة هناك، منذ أربع سنوات خلت، وها هي ابتسامة جوليان الذابلة، المتحفظة، التي كانت تحمل تواطؤاً غامضاً، والتي كانت تضيء كمصباح من وراء ورقة برشمان، قد اختفت اليوم، ليحل مكانها الوجه المستدير الوردي للخادم الحالي، المرتدي معطفاً طويلاً، وقد وقف استعداداً لتحية فان السمين العجوز.

«اسمع يا لوسيان!»، قال فان، محدقاً عبر نظاراته، «قد أستقبل هنا - كما عرف جيداً من كان قبلك - كل أنواع الزوار الغرباء، سحرة، سيدات مقنّعات، رجال مجانين - أعرفهم؟ وأتوقع سرية إعجازية من قبل الإوزات الثلاث الصامتات. إليك مكافأة تمهيدية.»

«شكراً جزيلاً»، قال البواب، وكالعادة، شعر فان بجزيل التأثر بذلك التهذيب المفرط، الذي لا يحرك ذرة في أفكاره الفلسفية.

كان قد حجز غرفتين واسعتين: ٥٠٩ و٥١٠: صالة قديمة الطراز، مع أثاث ذهبي أخضر، مع غرفة سرير ساحرة، متصلة بحمام مربع، من الواضح أنه كان في أساسه غرفة قديمة (حوالي ١٨٧٥، عندما تم ترميم وتجديد الفندق). قرأ فان، بحدس مثير، الكلمات المكتوبة فوق بطاقة مثمنة الأضلاع، معلقة بشريط أحمر: الرجاء عدم الإزعاج. علقها فوق المقبض الخارجي للباب. لا أريد تلقي مكالمات. أخبروا عاملة المقسم[1] على وجه الخصوص (لا تخصيص لأنثى، ذات صوت عذب، بالإنكليزية).

أمر فان بإحضار باقات من الأوركيد من متجر الزهور في الطابق السفلي، وفطيرة من لحم الخنزير من خدمة الغرف. نجا من ليلة طويلة (مع غربان الألب تنعق عند صباح خال من الغيوم) في سرير له بالكاد ثلثا حجم السرير الكبير، الذي كان يجمعهما في شقتهما التي لا تنسى، منذ اثني عشر عاماً. تناول فطوره فوق الشرفة - متجاهلاً نوارس الاستطلاع. سمح لنفسه بقيلولة فاخرة بعد غداء متأخر؛ أخذ حماماً آخر لإغراق الوقت؛ وفي المتنزه، استهلكه الأمر ساعتين من المشي، مع توقف عند كل مقعدين، ليصل إلى ساحة بيلفو الجديدة، على بعد نصف ميل، جنوب شرق فندقه.

شوّه قارب أحمر المرآة الزرقاء (كان يمكن للعدد أن يكون مئة لو كنا في زمن كازانوفا!). كانت طيور الغطاس هناك لقضاء الشتاء، ولكن طيور الغرّة لم تكن قد عادت بعد. آرديس، مانهاتن، مونرو،

---

(١) عاملة المقسم: كتب فان ملاحظته باللغة الفرنسية مستخدماً téléphoniste، الكلمة التي كانت لتفقد صيغة تأنيثها لو كتبت بالإنكليزية. (مترجم)

فتاتنا الحمراء الصغيرة قد ماتت. اللوحة الرائعة التي رسمها فروبل للوالد، كل تلك الكنوز المجنونة تحدق بي، مرسومة في داخلي.

التوهج الدافئ لأشجار الكستناء المتشابكة، المزدحمة فوق جبل روسيت، جعلت من هذا التل الغافي خلف المدينة، مستحقاً لاسمه وسمعته الخريفية؛ وعلى الشاطئ المقابل لليمان (ليمان تعني عاشق)، تلوح قمة الصخرة السوداء، Sex (Scex) Noir.

شعر بالحر وعدم الارتياح في القميص الحريري والفانيلا الرمادية - واحدة من بدلاته القديمة وقد اختارها فقط لأنه تجعله يبدو أقل سُمنة؛ ولكن كان يجب عليه أن لا يتمسك بارتداء صدريته الضيقة؛ متوتّر كصبي في أول لقاء غرامي له! تساءل ما أفضل ما يمكنه أن يأمل به - أتراهم الآخرون سيشاركون في لحظة لقائهما الأولى، أم أنها ستتمكن من حضورها وحيدة، للدقائق الأولى على الأقل؟ هل حقاً تجعله تلك النظارات، وذلك الشارب الصغير الأسود، يبدو أصغر سناً، كما أكدت له عاهرات مهذبات؟

عندما وصل أخيراً، أمام واجهة بيلفو البيضاء، وستائره الزرقاء (فندق رعاه الأثرياء فقط من الإيستوتيلانديين، الرينلانديين، والفيينلانديين، ولكنه لم يرق لنفس المستوى فائق الرقي، الذي وصل إليه «البجعات الثلاث»، الفندق الضخم، القديم، الحميم، بطلائه الذهبي الفاخر)، انتبه فان فزعاً، أن ساعة يده لم تشر بعد إلى السابعة مساءً، أولى ساعات تناول العشاء في الفنادق المحلية. مشى عائداً عبر الحارة التي اجتازها نحو حانة، طلب كوباً من عصير الكرز المكثف، مع فنجان قهوة محلى بقطعة من السكر. كانت عثة «طائر الطنان»، ملقية فوق حافة نافذة المرحاض، ميتة وجافة. Thank log أن الرموز لا توجد لا في الأحلام ولا في فواصل الحياة الواعية.

اندفع عبر الباب الدوار لبيلفو، تعثّر بحقيبة مبهرجة، ودخل الردهة بخطوات مضحكة. وبّخ البواب خادمة الغرف، ذات المئزر الأخضر، لأنها هي من ترك الحقيبة هناك. أجل، كانوا يتوقعون حضوره في الصالة. تقدم نحوه سائح ألماني مبدياً اعتذاراً شديداً لم يخلُ من الفكاهة، بسبب الحقيبة التي قال إنها خاصته.

«إن كان الأمر كذلك»، أجاب فان، «فيجب أن لا تسمح للمنتجعات الصحية بإلصاق إعلاناتها فوق حقائبك.»

لم يكن الجواب في محله، وسَرَت في الجو ذبذبات لتلميحات غير مريحة، وبعد لحظة، تلقى فان في ظهره ضربة قاتلة (أمور كهذه تحدث، معظم السائحين غير متوازنين) ودخل في مرحلة جديدة من مراحل وجوده.

توقف عند عتبة الصالة الرئيسية، ولكنه ما إن بدأ يستعيد توازنه ويمسح بنظرته محتوياته البشرية المبعثرة، حتى رأى مجموعة بعيدة من البشر تركض نحوه. إنها آدا! وقد هرعت نحوه متناسية أمر الحشمة واللياقة. اختصر اندفاعها المنفرد والمتلهف كل سنوات الفرقة، عندما تحولت الغريبة المبهرجة ذات الشعر الأسود بتصفيفته العصرية العالية، إلى الفتاة ذات الذراعين الشاحبتين، والشعر أسود، التي لطالما كانت فتاته. في لحظة الزمن العائد تلك، كانا هما الوحيدين من بدا عليهما الحماس بين الجمع المتواجد في الصالة الكبيرة، وقد التفتت إليهما كل الرؤوس، وحدقت بهما كل الأعين، عند التقائهما في منتصفها، كما لو كانا فوق المسرح؛ ولكن النشوة التي ظهرت في عينيها وفي بريق مجوهراتها، قد سيطر عليها صمت يتناقض مع انفجار الحب الذي كان متوقعاً في ذروة ذلك التقارب المتهور؛ دون أن يحني رأسه، رفع يدها البيضاء إلى شفتيه وقبّلها. ثم وقفا يحدقان أحدهما في الآخر، هو يلعب بالقطع النقدية في

جيب سرواله، تحت غطاء سترته التي كان يحملها فوق كوعه، وهي تتحسس قلادتها، كما لو كان كل منهما يعكس الضوء المتردد لترحيبهما المتبادل، الذي انخفض وهجه إلى حد كارثي. كانت تشبه آدا أكثر من أي وقت مضى، مع لمسة من أناقة قد أضيفت إلى سحرها، الخجول، والمتوحش. كان شعرها الذي زاد اسوادده مرفوعاً فوق رأسها في تصفيفة شينيون لامعة، وجاء خط عنقها «اللوسيتي» المكشوف، المستقيم والنحيل، كهدية تفطر القلوب. حاول أن يأتي بجملة مختصرة (ليخبرها بحيلة قد خططها لتحديد موعد غرامي آمن يجمعها)، ولكنها قاطعت نحنحته بخطاب تحذيري: «Sbrif usï (على هذا الشارب أن يختفي)!»، ثم التفتت وقادته نحو زاوية الصالة البعيدة، التي استهلكت منها سنوات انتظار طويلة، قبل أن تجمعهما. في تلك الجزيرة، المليئة بأرائك ورجال آلبين قد اجتمعوا حول منضدة كبيرة مع منفضة سجائر نحاسية في مركزها، كانت أخت زوجها «الموعودة» هي أول شخص قامت آدا بتقديمه إليه: كانت سيدة قصيرة وبدينة، رمادية الملابس، ذات وجه بيضاوي، شعر كستنائي قصير، بشرة صفراء باهتة، عينين جديتين قاتمتَي الزرقة، ونتوء لحمي صغير كنواة ذرة ناضجة، بجانب إحدى فتحتَي أنفها المتقوستين، قد أضافته الطبيعة بضرب من الصدفة إلى ما يوحي به أنفها من نزعة إلى الانتقاد المتطرف، الأمر الذي ليس بغريب على الوجوه الروسية الضخمة. كانت اليد التالية التي امتدت للمصافحة تخص رجلاً، طويلاً وأنيقاً، تعلو محياه، على نحو بارز، وجاهة ونبالة، لا يمكن له معهما إلا أن يكون الأمير غريمين في النص الأوبرالي الأخرق. يده تلك، القوية والحارة، قد جعلت من فان تواقاً إلى غسل يديه بمحلول مطهر، مما علق من أجزاء زوجها المكشوفة لعامة الناس. ولكن ما إن حركت آدا - مستعيدة بهجتها -

عصاها السحرية غير المرئية، حتى تحول الرجل الذي ظن فان مخطئاً أنه زوجها، آندريه فينلاندر، إلى يوزليك، المخرج الموهوب لفيلم دون جوان المحكوم بالفشل. «أعتقد أنه فاسكو دي غاما»، تمتم يوزليك. وقف إلى جانبه رجلان، يجهلهما، لا تعرف آدا اسميهما، وهما اليوم في عداد الأموات بعد إصابتهما بأمراض مجهولة، تبين من وقفتها الذليلة أنهما مديرا أعمال ليموريو، الممثل الكوميدي اللامع (عبقري استثنائي - قد طواه النسيان اليوم أيضاً - بلحية غليظة، قد رغب يوزليك بشدة مشاركته في فيلمه التالي). كان ليموريو قد التقى المخرج مرتين سابقاً، في روما وفي سان ريمو، وكان في كل مرة، ومن أجل إبرام عقد أولي، يرسل إليه ذينك العميلين الرثّين، غير الكفوءيْن، والمجنونين تقريباً، واللذين لم يعد لدى يوزليك ما يناقشه معهما، بعد أن استنفدا كل شيء، الثرثرة الموضوعية، حياة ليموريو الجنسية، الشغب في هوول، ضاحية تشستر، وكذلك هواياته، هوايات أبناء يوزيلك الثلاثة، وابنهما، ابن العميلين، فتى أوراسي متبنى غاية في الجمال، كان قد قتل مؤخراً في شجار قد وقع في ملهى ليلي، تم إغلاقه للسبب ذاته. كانت آدا قد رحبت بوجود يوزليك الواقعي وغير المتوقع في صالة بيلفو ليس لأنه حدث موازن للإحراج والخداع المسيطر على جو الليلة الأولى، بل لأنها كانت تطمح أيضاً، للحصول على دور في فيلم «ما تعرفه دايزي»؛ ومع ذلك، إضافة إلى أن آدا لم تكن وقتذاك، مع اضطراب روحها، قادرة على المداهنة في مصلحة مهنتها، إلا أنها أدركت أن قبول ليموريو للدور يعني أنه سيمنح فرصتها لواحدة من عشيقاته.

وأخيراً، وصل فان إلى زوج آدا.

كان فان قد قتل مرات عدة، بطريقة نهائية، وفوق كل مفترقات طرق عقله المظلمة، الفتى المسكين، آندرييفيتش فينلاندر الطيب،

الذي ارتدى لسهرته تلك بدلة حداد بشعة، مزدوجة الصدر، بوجه رخو كعجينة تلتقي تجاعيدها الصغيرة بطريقة ما، بعينيْ كلب صيد حزين، وبخيوط نقاط العرق فوق جبينه، وبكل ما فيه من صفات تقدم السمات الكئيبة لقيامة غير ضرورية. بإهمال غير مقصود (أو ربما مقصود جداً) لم تقدم آدا الرجلين بعضهما لبعض. أعلن زوجها عن اسمه، اسم أبيه، والكنية، بتنغيم تعليمي لمعلق روسي في فيلم تربوي. «Obnimemsya, dorogoy (لنتعانق يا فتى)!»، أضاف بصوت أكثر حيوية، ولكن بتعبير حدادي ثابت (يذكر على نحو غريب بكوسيجين، عمدة يوكونسك، حين يتلقى باقة ورد من فتاة من الكشافة، أو عندما يتقصى الأضرار الناجمة عن هزة أرضية). حملت أنفاسه رائحة قد تعرّف عليها فان مندهشاً، فهي مسكن قوي يرتكز على مادة النيوكودئين، يوصف في حالة التهاب الشعب الهوائية، النفسي والزائف. عندما أصبح الوجه المتغضن البارد أقرب، صار بالإمكان رؤية الكثير من الثآليل والزوائد، التي، ومع ذلك، لم يشغل أي منها المكان الاستفزازي الذي شغله الملحق الصغير، تحت أنف شقيقته. كان قد أبقى شعره الرمادي البني قصيراً كجندي، يحلق بجزازته الخاصة. كان له المظهر الأنيق والصحيح، لريفي إيستوتي، يستحم مرة واحدة في الأسبوع. توافدنا جميعاً إلى غرفة الطعام. عندما مد ذراعه إلى الباب ليفتحه قبل أن يفعل النادل، مسّ فان ماضيه (الذي ما زال يداعب قلادته)، الماضي الذي كافأه فوراً بنظرة جانبية من نظرات دولوريس الجميلة.

لعب الحظ في ترتيب المقاعد.

مديرا أعمال ليموريو، الثنائي العجوز، اللذان لم يتزوجا ولكنهما استمرا في العيش سوية حتى فترة طويلة أوصلتهما إلى الاحتفال بالذكرى الفضية، قد جلسا إلى الطاولة منفصلين، بين

يوزليك، الذي لم يتحدث إليهما ولا حتى لمرة واحدة، وفان، الذي بدأ يرزح تحت تعذيب دوروثي. أما آندريه (الذي قام بحركة الصليب فوق قميصه المغلق حتى الياقة، قبل أن يحشر المنديل فيها)، فقد وجد نفسه جالساً بين أخت وزوجة. طلب «لائحة الـ فان»[1] (ما يوفر المتعة الحقيقية لفان الحقيقي)، ولكن وباعتباره كحولياً من الدرجة الأولى، فقد اكتفى بإلقاء نظرة سريعة على صفحة «النبيذ الأبيض السويسري» قبل أن يمرر لائحة النبيذ إلى آدا، التي طلبت الشمبانيا من دون تردد. أخبرها في صباح اليوم التالي أن ابن عمها «قد ترك udivitel'no simpatichnoe vpechatlenie (انطباعاً ظريفاً على نحو ملحوظ)». كان الجهاز اللفظي لرجلنا الغالي يتألف، بشكل شبه حصري، من المفردات العامة الروسية، المميزة بظرافتها، ولكنه - كرجل لا يحب الحديث عن نفسه - لم يتحدث كثيراً، خاصة وأن خطاب أخته الرنّان (موجة تنثر رذاذها فوق صخرة فان) قد نوَّمه مغناطيسياً مستحوذاً على انتباهه الطفولي الكامل. مهّدت دوروثي، عبر شكوى متواضعة، لتقريرها المؤجل طويلاً عن كابوسها المتكرر («أنا أعرف طبعاً أن الكابوس بالنسبة لمرضاك هو zhidovskaya prerogative[2]»)، ولكن في كل مرة كان يرفع فيها المحلل النافر نظره عن صحنه ليعيرها انتباهه، كان يركز عينيه بشدة على صليب بحجم كنسي يلمع فوق صدرها الذي يكاد لا يبين، لدرجة أنها أحست بوجوب مقاطعة روايتها (التي كانت تدور حول انفجار حلم بركاني) لتقول: «فهمت من كتاباتك أنك ساحر رهيب. وهنا أكاد أتفق تماماً مع سيمون ترازر، في أن التهكم هو زينة الرجل الحقيقي؛

---

(١) لائحة الـ فان: cart de van كما يلفظ أندريه «لائحة النبيذ» بلهجته الروسية. (مترجم)

(٢) zhidovskaya prerogative: امتياز يهودي بالروسية. (مترجم)

ومع ذلك، أريدك أن تعرف أني أعترض على النكات المعادية للأرثوذكسية، في حال كنت تنوي إلقاء واحدة.»

عند هذا الحد، كان فان قد اكتفى من جنون جارته، غير المثير للإعجاب البتة. نجح في تثبيت كأسه بعد أن مال بسبب حركة قام بها قاصداً لفت نظر آدا، وقال متوجهاً إلى آدا، بلهجة جافة، وصفتها بعد ذلك بلاذعة، مثيرة للشكوك، وغير مقبولة أبداً:

«غداً صباحاً، سأستأثر بك يا عزيزتي. فكما أخبرك المحامي خاصتي، أو خاصتك، أو ربما كلاهما معاً، أن حسابات لوسيت الموجودة في عدّة مصارف سويسرية ــ»، ثم قدم نسخة رسمية محضرة مسبقاً ومخترعة بأكملها، عن قائمة أعمال وحسابات لوسيت. «أقترح عليك»، أضاف، «إن لم يكن لديك أي ارتباطات أخرى» - (ملقياً نظرة استفسارية قد تخطت الزوج وشقيقته لتصل إلى السينمائيين الثلاثة، الذين، واحداً تلو الآخر، قد هزوا رؤوسهم بالموافقة) - «سنذهب أنا وأنت لمقابلة مستشاري السيد جورا، أو راتون، الاسم يهرب من رأسي، المهم، سنذهب إلى لووزون، على بعد نصف ساعة بالسيارة من هنا. لقد أعطاني عدة أوراق عليك التنهد فوقها، أعني أنك ستتنهدين ضجراً من كثرة التوقيعات فوقها، إنه أمر ممل. اتفقنا؟ حسناً.»

«ولكن يا آدا»، أطلقت دورا بوقها، «لقد نسيت أننا ننوي غداً صباحاً زيارة مؤسسة فلورال هارموني، في شاتو بيرون!»

«ستزورونه بعد غد، أو الثلاثاء، أو ثلاثاء الأسبوع القادم»، قال فان. «كان بودي أن أصحبكم أنتم الثلاثة نحو مكان التأمل الرائع ذاك، ولكن عربتي الصغيرة السريعة لا مكان فيها إلا لراكب واحد، وأمر تلك الودائع التي لا يمكن تعقبها، لطارئ حقاً، على ما أعتقد.»

كان يوزليك متحرقاً لقول شيء ما. استسلم فان لرغبة ذلك الرجل الآلي، ذي النوايا الحسنة.

«يسعدني ويشرفني تناول العشاء مع فاسكو دي غاما»، قال يوزليك رافعاً كأسه أمام جهازه الوجهي الأنيق.

كان الاسم ذاته قد ورد (وهذا ما أعطى فان فكرة عن مصدر معلومات يوزليك الخاطئة) في «أجراس تشوز» (مذكرات كتبها زميل سابق لفان، هو اليوم رئيس تشوز، وقد تسلق سلم الشهرة وبقي على رأس قائمة الروايات الأكثر مبيعاً، والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى تلميحاته الوقحة ولكن المضحكة جداً عن فيلا فينوس في برانتون بروكس). بينما كان يلوك نخاع جواب مناسب، بفمه الممتلئ بالـ شارلوت (ولا أقصد الـ شارلاتان «شارلوت روسية» المقدمة في معظم المطاعم، بل الكعكة الساخنة المحمصة المحشوة بالتفاح، الفطيرة الممتازة والأصلية، محضرة من قبل تاكومين، رئيس الطباخين في الفندق، القادم من روز باي - كاليفورنيا)، تنازعت فان رغبتان ملحّتان متناقضتان: أولاً، إهانة يوزليك لكونه وضع يده فوق يد آدا بينما سألها تمرير الزبدة قبل لحظات (كانت غيرته العارمة من هذا الرجل ذي العينين اللامعتين، لا تقارن بغيرته من آندريه، وقد تذكّر، برعشة من الكبرياء والحقد، كيف قام ليلة رأس السنة لعام ١٨٩٢، بضرب أحد أقربائه، الغندور فان زيمسكي، الذي سمح لنفسه بمداعبة مماثلة، عندما مرّ بطاولة عشائهما لإلقاء التحية، ثم قام فان لاحقاً، تحت ذريعة أخرى، بكسر فكه في نادي الأمير الصغير)؛ وثانياً، رغبته في إخبار يوزليك عن مدى إعجابه بـ«ملذات دون جوان الأخيرة». وكونه، ولأسباب واضحة لم يتمكن من إشباع الرغبة رقم واحد، فقد تنازل عن الأخرى، التي بدت له ملطخة سرياً بتهذيبٍ جبان، واكتفى بالرد بعد

أن تمكن وأخيراً من ابتلاع المزيج السابح في لعاب كهرماني:

«من المؤكد أن كتاب 'جاك تشوز' هو أكثر تسلية - خاصة بذلك المقطع عن التفاح والإسهال، ومقتطفات من ألبوم 'صدَفة فينوس'» - (أزاح يوزليك طرفه ونظر جانبياً، كما في محاولة للاستذكار، ثم أحنى رأسه بإشادة حيوية، تقرّ بذاكرة مشتركة) - «ولكن كان على النذل أن لا يكشف عن اسمي الحقيقي ولا أن يشوّه اسمي المستعار.»

خلال ذلك العشاء الرهيب (الذي لم ينعشه سوى شارلوت وخمس قوارير من نبيذ موويت، استهلك فان منها وحده ما يزيد عن ثلاث)، كان يتجنب النظر إلى ذلك الجزء من آدا، الذي يسمى الوجه - الجزء الإلهي، المفعم بالحياة، الصادم على نحو غامض، الذي يحمل في شكله الأساسي، صفات خاصة، نادراً ما تلتقي وجوه الكائنات الحية (الوجوه المتبرجة والمقنعة لا تُؤخذ بالحسبان). أما آدا، فلم تستطع منع عينيها السوداوين من الالتفات إليه بين اللحظة والأخرى، كما لو كانت، مع كل نظرة، تستعيد توازنها؛ ولكن مع عودة الجميع إلى الصالة لتناول القهوة هناك، بدأ فان يعاني من صعوبة في التركيز، وقد أصبح ذلك العذاب كارثياً بعد انسحاب السينمائيين الثلاثة.

آندريه: «Adochka, dushka (حبيبتي)، azskazhi zhe pro rancho, pro skot (أخبريه عن المزرعة، والماشية)، emu zhe lyubopitno (سيهمه الأمر بلا شك).»

آدا (كما لو كانت خارجة من غيبوبة): O chyom tï (أقلت شيئاً)؟

آندريه: Ya govoryu, razskazhi emu pro tvoyo zhit'yo

(قلت أخبريه عن حياتك اليومية، عاداتك)، Avos' bït'yo (ربما قد يأتي لزيارتنا) zaglyanet k nam.

آدا: Ostav', chto tarn interesnago (انسَ الأمر، ما المثير فيها)؟

داشا (متوجهة إلى فان): لا تستمع إليها. Massa interesnago (هنالك الكثير من الأمور الأشياء المهمة). Delo brata og-romnoe, volnuyushchee delo, trebuyushchee ne men'she truda, chem uchyonaya dissertatsiya (إن أعماله مهمة جداً. تتطلب جهداً كبيراً لا يقل عن جهد عالِم). Nashi sel'skohozyaystvennïya mashinï i ih teni (معداتنا الزراعية وما إلى ذلك)، eto tselaya kollektisya predmetov mo demo y skul'pturi i zhivopis (هي مجموعة فن حقيقي وحديث)، وأظن أنك ستعشقها كما أفعل.

إيفان (متوجهاً إلى آندريه): لا أعرف شيئاً عن الزراعة ولكن شكراً على أي حال.

صمت.

إيفان (دون أن يدري تماماً ما عليه أن يضيف): طبعاً يهمني أن أرى آلاتك يوماً ما. إنها تذكرني دائماً بوحوش ما قبل التاريخ ذوات الأعناق الطويلة، التي كانت ترعى هنا وهناك، كما تعلم، أو تجعلني أفكر مكتئباً في أحزان الانقراض - ربما أنا أفكر في الحفارات -

دوروثي: آلات آندريه لا تمتّ البتة إلى عصور ما قبل التاريخ (تضحك جزلة).

آنـدريـه: Slovom, milosti prosim (بـكـل الأحـوال، أنـت مـرحـب بـك دائـمـاً). Budete zharif verhom s kuzinoy (ستحظى بأوقات ممتعة من ركوب الخيل مع ابنة عمك).

صمت.

إيفان (متوجهاً إلى آدا): أتكون التاسعة والنصف من صباح الغد وقتاً مبكراً بالنسبة لك؟ أنا في فندق الأوزات الثلاث. سأمر لأخذك بسيارتي الصغيرة - وليس فوق ظهر حصان (مبتسماً كجثة في وجه آندريه).

داشـا: Dovol'no skuchno (كـم هـو مـؤسـف) أن تـفـسـد زيارات المحامين والمصرفيين زيارة آدا لبحيرة ليمان الرائعة. أنا متأكدة أنه كان بالإمكان إنهاء تلك المهمات إن دعوتها إلى منزلك لمرتين أو ثلاث، بدل جرها إلى لووزون أو إلى جنيف.

عادت الثرثرة المجنونة إلى موضوع حسابات لوسيت المصرفية، وأوضح فان أنها كانت تضيع دفاتر شيكاتها، الواحد تلو الآخر، وأن لا أحد يعرف بالضبط كم من المصارف المختلفة التي كانت قد أودعت فيها مبالغ كبيرة من المال. بعد قليل، وقف آندريه (الذي بدا كرئيس بلدية يوكونسك، تغمره البهجة بعد افتتاح معرض كاتكين لمكافحة حرائق الغابات الذي يقدم نموذجاً جديداً من طفايات الحريق) تاركاً مقعده، مبدياً اعتذاره لاضطراره للانسحاب إلى فراشه في وقت مبكر جداً، مصافحاً فان بقوة كما لو كان يودعه إلى الأبد (وهذا ما حصل فعلاً، إلى الأبد). بقي فان مع السيدتيْن في الصالة البادرة والمهجورة، حيث كانت الإضاءة، بقصد التوفير، آخذة في الانخفاض، شيئاً فشيئاً.

«كيف وجدت أخي؟»، سألت دوروثي. «On red-chayshiy chelovek (إنه من صنف البشر الأكثر ندرة). لا أستطيع إخبارك كم تأثر بموت والدك، وطبعاً، بنهاية لوسيت الغريبة. رغم أنه، ألطف الرجال، لم يكن موافقاً على روحها الباريسية المستهترة، إلا أنه كان شديد الإعجاب بمظهرها - كما أظن أنك فعلت أيضاً - لا، لا، أرجوك لا تنفي ذلك - إذ إنني لطالما قلت، إن جمالها كان يبدو كما لو كان مكملاً لجمال آدا، لقد كانتا معاً نموذجاً فريداً من الجمال المثالي، بالمعنى الأفلاطوني» (عادت لضحكتها الجزلة). «جمال آدا مثالي بكل تأكيد، muirninotchka[1] حقيقية - حتى حين تتجهم كما الآن - ولكنها لا تكون جميلة إلا في شروطنا البشرية الصغيرة، وفقاً لقواعد جماليات مجتمعنا - أليس صحيحاً يا بروفيسور؟ - التي معها يمكن أن تُطلق صفة المثالية على وجبة، على زواج، أو على نزهة فرنسية.»

«انحني لها احتراماً!»، قال فان لآدا بنبرة كئيبة.

«أوه، إن آدوشكا لتعلم كم أني مخلصة لها» - (فاتحةً باطن كفها ليد آدا المنسحبة). «لقد شاركتُ في حل كل مشكلاتها. كم طردنا من رعاة البقر لأنهم delali ey glazki (غمزوها)! وكم كابدنا من خسائر منذ بداية هذا القرن! والدتها ووالدتي؛ رئيس أساقفة إيفانكوفر والطبيب سويسير من لومباغو (قمنا أنا والأم بزيارته عام ١٨٨٨)؛ ثلاثة من الأعمام البارزين (الذين، لحسن الحظ، كنت بالكاد أعرفهم)؛ ووالدك الذي لطالما اعتبرته روسياً أرستقراطياً أكثر منه بارونا إيرلندياً؛ بالمناسبة، في هذيان سرير موتها - أتمانعين يا

---

(١) muirninotchka: تجمع بين الكلمة الإيرلندية muirnin وتعني حبيبة أو غالية، و ochka الصيغة التصغيرية الروسية. (مترجم)

آدا إن أفشيت تلك الأمور العائلية؟ - كانت مارينا الرائعة مهووسة بوهميْن اثنين، يتناقض أحدهما مع الآخر - الأول هو أنك كنت متزوجاً من آدا، والثاني هو كونكما أخاً وأختاً، وقد سبب لها الصدام بين تيْنك الفكرتين معاناة ذهنية شديدة. ماذا تسمي مدرستك في الطب النفسي صراعاً كهذا؟»

«لم أعد ملتحقاً بأي مدرسة»، قال فان كاتماً تثاؤبه. «كما أنني، خلال عملي، أحاول أن لا أشرح شيئاً. أنا أصف الحالات فقط.»

«ومع ذلك، لا يمكنك إنكار أن بعض تلك الرؤى ـــ»

استمر الأمر على هذا النحو لأكثر من ساعة، وبدأت شقوق فكّي فان بالظهور. في النهاية، وقفت آدا، تبعتها دوروثي في ذلك، ولكنها واصلت حديثها واقفة:

«غداً ستأتي العمة العزيزة بيلوكونسكي - بيلوكونسكي للعشاء معنا، إنها عجوز عانس ومبهجة، تعيش في فيلا فوق فالفيه. عجوز رهيبة. تحب أن تزعج أندروتشا دائماً بقولها إنه ما كان يجدر بمزارع بسيط مثله أن يتزوج بابنة ممثلة وتاجر لوحات فنية. هلّا انضممت إلينا - يا جان؟»

أجاب جان: «للأسف لا، يا عزيزتي داريا أندريفنا: علي الاهتمام بوزني، بالإضافة إلى أنني مدعو إلى عشاء عمل في الغد.»

«تستطيع على الأقل» - (مبتسمة) - «أن تناديني داشا.»

«سأحضر العشاء كرامة لآندريه فقط»، شرحت آدا. «إن تلك السيدة، هي في الحقيقة عجوز بغيضة ومبتذلة.»

«آدا!»، قالت داشا مع نظرة توبيخ طفيفة.

قبل أن تتقدم كل من السيدتين نحو المصعد، رمقت آدا فان بنظرة، أما هو، الذي لم يكن غبياً في أمور الغرام، لم يذكر أنها قد «نسيت» حقيبة يدها الحريرية فوق المقعد الذي جلست فوقه. رافقهما

حتى نهاية الممر المفضي إلى الأعلى، ثم عاد ليتشبث بالكنز المتروك، منتظراً عودتها المخططة لاسترجاعه خلف أحد أعمدة صالة الفندق، متوقعاً أنها ستقول لمرافقتها الملعونة (التي كانت في تلك اللحظة، بلا شك، تعيد تقييمها لـ«الفارس الكئيب») في أي لحظة سيتحول فيها زر المصعد إلى لونه الأحمر: «Akh, soumotchkou zabyla (أوه، لقد نسيت محفظتي)!» - وستعود فوراً، مثل نينون[1] حبيبة فيري، لترتمي في أحضانه.

التقت شفاههما في غضب حنون، ثم انقضّ على عنقها الياباني، الجديد، الغضّ و الإلهي، الذي كان يتوق إليه طوال الليلة، كما كانت بجعة جوبيتر تتوق إلى ليدا.

«سنتوجه فوراً إلى غرفتي في الفندق ما إن تستيقظي. لا تزعجي نفسك بأخذ حمام. تعالي كما أنت» - وفي فورة حريقهما الملتهب، عاد إلى التهام شفتيها إلى أن (دوروثي حتماً قد بلغت السماء) وضعت أصابعها الثلاث فوق شفتيه الرطبتين - ثم هربت.

«لا تنسي أن تمسحي عنقك!» صاح في أثرها هامساً (من، وأين في هذه القصة، أو في هذه الحياة، استطاع أيضاً أن يصيح هامساً؟).

في تلك الليلة، وفي أحلام ما بعد «موويت»، جلس فوق الرمال الناعمة لشاطئ استوائي، حيث العديد من المستلقين تحت أشعة الشمس، وكان في لحظة يحك القضيب الأحمر الذي يزعج فتى مراهقاً، وفي أخرى ينظر من خلال نظاراته الشمسية إلى التظليل المتناظر فوق كلا الطرفين من العمود الفقري خاصة آدا، أو ربما لوسيت، مع تظليل أقل خفوتاً بين الأضلع، بينما كانت جالسة فوق

(١) نينون: تلميح إلى نيون دو لونكلوه (١٦٢٠-١٧٠٥) كاتبة فرنسية. (مترجم)

منشفة على مسافة قريبة منه. سرعان ما استدارت لتستلقي على بطنها، وكانت، هي أيضاً، تضع نظارات شمسية، ولم يتمكن أي منهما من تحديد اتجاه نظرة الآخر من خلال الكهرمان القاتم، ولكنه، رغم ذلك، قد عرف من خلال غمّازة قد سببتها ابتسامة باهتة في طرف خدها، أنها كانت تنظر إلى عضوه القرمزي (الذي بقي على لونه واهتياجه طوال الحلم). قال أحدهم، بينما كان يجر طاولة ذات دواليب بقربهما: «إنها واحدة من أخوات Vane[1]». استفاق بعد ذلك متمتماً - بتقدير احترافي - بتلك التورية الحلمية التي تجمع اسمه وكنيته، وكانت تضرب أذنيه بعنف، ثم، وبحركة سحرية من إعادة التأهيل وربط الوقائع، سمع مرور دواليب طاولة الإفطار عبر عتبة الغرفة المجاورة، لتدخل بعد ذلك آدا غرفته، بفم لم يتخلص بعد من أثر تناول العسل. كانت الساعة آنذاك الثامنة إلا ربعاً، لا أكثر.

«فتاة ذكية» قال فان؛ «ولكن قبل كل شيء علي الذهاب إلى دورة المياه.»

لقاؤهما ذاك، واللقاءات التسعة التي تلته، قد مثّلت ذروة ما عاشاه من حب منذ أحد عشر عاماً: كان في التعقيد المرافق له، والخطر المحيط به، إشعاع لن يمحيه القادم من السنين. نمط الجناح الإيطالي بشكل أو بآخر؛ المصابيح الجدارية المزينة بزخارف متقنة من زجاج بلون الكاراميل الباهت؛ أزرارها الرخامية التي تسبب أحياناً ظهور الضوء، وأحياناً ظهور الخادمات؛ نوافذها العازلة، القابعة وراء ستائر كثيفة تحجبها تماماً، يجد معها الصباح، كفتاة مفرطة الاحتشام، صعوبة في خلع ملابسه؛ الأبواب المحدّبة

---

(١) Vane: ريشة المروحة التي تدور باتجاه الهواء. (مترجم)

الانزلاقية لخزانة كبيرة بيضاء من طراز «عذراء نورينبيرغ» موجودة في ردهة جناحهما؛ وحتى النسخة الملونة الموقعة من قبل «راندون»، والتي تظهر قارباً متيناً بثلاث صواري، فوق مياه مرفأ مارسيليا الخضراء المتماوجة؛ كل ذلك، كل ذلك الجو الألبيرغي المحيط بمواعيدهما الغرامية الجديدة، قد أضاف لمسة روائية جديدة (قد يكون «أليكسيس وآنا» قد تركا بعض ما كتباه هنا!) قد رحبت بها آدا كإطار داعم وحامٍ للحياة، المحرومة من العناية الإلهية فوق ديسديمونيا، حيث الشعراء هم الأرباب الوحيدون. حين، بعد ثلاث أو أربع ساعات من الحب المحموم، كان السيد فان والسيدة فينلاندر يغادران معتكفهما الفخم إلى الضباب الأزرق لأكتوبر الاستثنائي ذاك، الذي بقي حالماً ودافئاً طوال فترة الخيانة الزوجية، كانا يشعران بأنهما كانا لا يزالان تحت حماية الإله بريابوس، الذي نصب الرومان القدماء تماثيله فوق رؤوس الجبال الحمراء الصغيرة.

«سأرافقك نحو المنزل - لقد تركت لتوّك اجتماعاً مع مصرفيي لووزون، وأنا أرافقك في طريق عودتك، من فندقي إلى فندقك.»

كانت تلك جملة فان المقدسة التي لم ينفك يكررها لتأكيد الوقائع المصيرية. أخذاً بالاحتياطات، تجنبا، ومنذ يومهما الأول، أي ظهور ملتبس لهما معاً، فوق الشرفة المفتوحة على البحيرة، وعلى مرمى نظر كل الزهور الصفراء والأرجوانية، التي كانت تزين حدود المتنزه.

استخدما المخرج الخلفي لمغادرة الفندق.

مسار تحدّه نباتات الشمشير، تشرف عليه أشجار السيكويا دائمة الخضرة، بمظهرها المثير للحنين (كان سياح أمريكيون يظنون مخطئين أنها «أرز لبناني»، في حال انتبهوا لوجودها) قد قادهما إلى «شارع التوت» (التسمية السخيفة) حيث انتصبت شجرة باولونيا

مزهرة (من فصيلة أشجار التوت أيضاً! صاحت آدا) على نحو غير مناسب، عند شرفة تعلو دورة مياه عمومية، وكانت أوراقها الخضراء التي لها شكل القلوب آخذة في التساقط، محتفظة بما يكفي من الأوراق لإلقاء ظل أرابيسكي فوق جانب جذعها الجنوبي. عند زاوية الممر المحصّب، والمؤدي إلى الرصيف، انتصبت شجرة جنكة، وكان لونها الذهبي المخضر أكثر إشراقاً من جارتها، بتولا محلية، بلونها الأصفر الباهت. تتبعا جنوباً ممشى فيليتاز الشهير، الذي امتد على طول جانب البحيرة السويسري، من فالفيه إلى شاتو دو بيرون (أو شاتو دو شيون). انتهى الموسم الأنيق، وعادت الطيور الشتوية، وعدد من سكان وسط أوروبا المهاجرين، ليحلوا مكان العائلات الإنكليزية، وكذلك نبلاء الروس، القادمين من نيبيسينغ وونيبيغون.

«أشعر بنثرتي عارية على نحو غير لائق.» (كان قد حلق، مع ولاويل من الألم والحسرة، شاربه بوجودها). «كما أنني لا أستطيع الاستمرار في بلع كرشي طوال الوقت.»

«أوه! أحبك أكثر بوزنك الزائد هذا - مزيد منك لأحبه. إنه جين قد ورثته عن أمك، على ما أعتقد، لأن ديمون كان يزداد رشاقة كلما كبر. حين رأيته في جنازة أمي، كان يحمل مظهر دون كيشوت، على نحو إيجابي. الجنازة الغريبة! كان يرتدي أزرق حدادياً. ابن الدون أونسكي، شخص بذراع واحدة، قد أحاط ديمون بذراعه المتبقية، وانتحب كلاهما بدموع غزيرة. ثم جاء شخص يرتدي ثوباً، بدا وكأنه يجسد الإله فيشنو ولكن بنسخة مبالغ في تلوينها، وألقى خطبة غير مفهومة. ثم تحولت مارينا إلى دخان متصاعد. اقترب مني ديمون وقال لي، منتحباً: 'أما أنا، فلن أخيب ظن ديدان القبر المسكينة!' بعد ساعتين تماماً من إخلاله بهذا

الوعد، جاءنا في المزرعة زوار مفاجئون - فتاة في الثامنة، في غاية الرشاقة، تضع حجاباً أسود، ومعها امرأة كبيرة، كأنها قوادة، وأيضاً بالأسود، مع حارسيْن شخصيين. طلبت الشمطاء مبلغاً كبيراً من المال، لم يسعف الوقت ديمون، حسبما ادعت، لإيفائه، مقابل فضّ بكارة الفتاة. استدعيت أقوى فتيان مزرعتنا في الحال، ليرموهم جميعاً خارجاً.»

«غير طبيعي!» قال فان، «كلما كبر صغرت خياراته - أعني خياراته من الفتيات وليس من الفتيان الأقوياء والصامتين. كانت لروزاليندا العجوز ابنة أخ لها من العمر عشر سنوات فقط، وكانت مسؤولة عن رعاية فراخ الدجاج. لم يتوان عن مطاردة الطيور ومطاردتها معاً في قفص التفريخ.»

«لم تحب أباك يوماً»، قالت آدا بحزن.

«مخطئة. لقد أحببته وما زلت أحبه، بحنان، بفهم، وبتوقير، لأنني، بعد كل شيء، أحمل منه ذلك الأثر الشعري في دمي. ولم أكن خائفاً منه، إذ إن الأمر الذي أقلقنا، أقصد أنت وأنا، قد دفن في ذات اليوم الذي دفن فيه العم دان.»

«أعرف، أعرف. يا للشفقة! وما نفع ذلك؟ قد لا يجب أن أخبرك، ولكن كانت زياراته إلى آغافيا تقل عاماً بعد آخر. أجل، كانت الأحاديث الدائرة بينه وبين آندريه مثيرة للشفقة. أعني، لم يكن آندريه متحدثاً طلقاً، رغم تقديره العالي للتدفق الخيالي والانسيابي لسرد ديمون - دون أن يفهمه كلياً - وكان غالباً ما يعبّر عن دهشته بالتعبير الروسي 'tssk-tssk'، هازاً رأسه، ويقول مجاملاً 'يا لطرافتك!'. ثم ذات يوم، حذرني ديمون أنه لن يأتي لزيارتنا مجدداً إن كان سيسمع المزيد من النكات السخيفة، التي يلقيها آندريه السخيف (Nu i balagur-zhe vï, Dementiy Labirintovich)، أو

إن كان سيسمع مجدداً من دوروثي، التي لا يمكن لأحد أن يتحملها، ولا أن يزيدها سخفاً ووقاحة، رأيها في طريقة تخييمي في الجبال، يرافقني فقط راعي البقر مايو، ليحميني من الأسود».

«أكان ممكناً لأحد أن يعرف المزيد عن هذا الأمر؟» سأل فان.

«أحدٌ لم يعرف! كل ذلك قد حصل في الفترة التي لم أكن فيها أتحدث إلى زوجي ولا إلى أخته. لم أستطع السيطرة على الوضع. بكل الأحوال، لم يأت ديمون لزيارتي حتى عندما كان على بعد مئتي ميل، وقد استعاض عن ذلك ببريد، أرسله من ناد للقمار، يحمل رسالتك، الجميلة، الجميلة جداً، التي كتبت فيها عن نبأ لوسيت، وعن فيلمي.»

«أود معرفة تفاصيل أكثر عن حياتك الزوجية - تواتر الجماع، الأسماء السرية الصغيرة الحميمة، الروائح المفضلة ـــ»

«Platok momental'no (محرمة سريعاً)! فتحة أنفك اليمنى ملأى بسائل بلون الجاد،» قالت آدا، ثم أشارت إلى لافتة دائرية بجانب المرج، مؤطرة باللون الأحمر، تحمل جملة «هذه الكلاب ممنوعة»، وقد رُسم تحتها، بطريقة شنيعة، كلب هجين أسود بشريط أبيض حول عنقه: وتساءلت لماذا ينبغي بالقضاة السويسريين منع تهجين كلب الـ«ترير» الاسكتلندي مع كلب الـ«كانيش» الفرنسي؟

الفراشات الأخيرة في عام ١٩٠٥، «الطويس» الكسولة و«الحمراء المزركشة»، «ملكة إسبانيا»، و«أبو دقيق الأصفر»، كانت قد حققت أقصى استفادة من أكثر أزهار الخريف تواضعاً. مرّ ترام على يسارهما بالقرب من المتنزه، حيث توقفا لاستراحة، ولتبادل قُبلٍ حذرة، بعد أن تلاشى هدير العجلات. اكتسبت القضبان التي ضربتها الشمس بريقاً كوبالتياً رائعاً - ظهيرة منعكسة فوق معدن لامع.

«فلنتناول الجبن مع النبيذ الأبيض تحت تلك التعريشة!» اقترح فان. «سيتناول آل فينلاندر غداء اليوم عند الثانية.»

كان هناك ما يشبه جهازاً موسيقياً تصدر منه موسيقى الأدغال؛ كانت الأكياس المفتوحة لزوجين من تيرول موضوعة، على نحو مزعج، بالقرب من طاولة آدا وفان، الذي رشا بعض الخدم لنقل طاولتهما إلى رصيف غير مستخدم. أعجبت آدا بالطيور المائية: إوزات الزرقاي، سوداء مع أجنحة بيضاء، تتضارب وسوادها، لتجعلها تبدو كمتسوقين (كلها تشبيهات آدا) يحملون ألواحاً كرتونية طويلة (ربطات عنق جديدة؟ قفازات؟) تحت كل ذراع، بينما ذكّرت الزرقاي السوداء فان بنفسه حين كان في الرابعة عشرة من عمره، وقد كان قد خرج لتوه، رطباً، من غطسة في الجدول. سبحت طيور الغرّة (التي عادت وأخيراً) وكانت تضخّ رقابها بحركة غريبة، كحركة الأحصنة حين تمشي. طيور غطّاس كبيرة وصغيرة، قد أبقت رؤوسها، بأعرافها، منتصبة، وكان سلوكها ينذر بأمر ما. كانت لتلك الطيور، كما قالت آدا، طقوس تزاوج رائعة، إذ يواجه الذكر الأنثى على مسافة قريبة جداً، هكذا - (شكّلت قوساً بسبابتيها) - كحاملتي كتاب ولكن من دون كتاب، ثم يهز كل منهما بدوره رأسه، مثيراً بذلك ومضات نحاسية.

«لقد سألتك عن طقوس آندريه.»

«أوه، إن آندريه متحمس جداً لرؤية تلك الطيور الأوروبية! إنه صياد بارع ويعرف جيداً كيفية جمع الطرائد في الغرب، حيث طيور الغطّاس صغيرة جداً مع خط أسود حول منقارها الأبيض الكبير. يطلق عليها آندريه pestro-klyuvaya chomga. أما ذلك الغطاس المتوج الكبير هناك، يسميه khokhlouchka. إن كنت ستعبس هكذا

ثانية، عندما أتفوه بما هو بريء ولا أقصد به إلا تسليتك، فإنني سأقبّلك على رأس أنفك، وأمام الجميع.»

بدت متكلفة نوعاً ما، بعيدة عن دماء فيين التي تسري في عروقها. ولكنها استأنفت في الحال:

«أوه، انظر إلى تلك النوارس البحرية التي تؤدي دور الدجاج!»

كان عدد من النوارس المبتهجة، لا يزال بعضها يعتمر قبعات الصيف السوداء الضيقة، قد جثم فوق الدرابزين القرمزي على امتداد ضفة البحيرة، وقد أدارت الطيور أذيالها للطريق، وبقيت تراقب بعضها بعضاً، لمعرفة من هو الطائر الشجاع بينها الذي سيبقى على مقربة من المارة القادمين. رفرفت الغالبية وهرعت نحو الماء عند اقتراب آدا وفان. نشل طائر ريش ذيله وقام بحركة مماثلة لأحدنا عندما «يثني ركبتيه»، ولكنه بقي ثابتاً فوق الدرابزين.

«أعتقد أننا رأينا هذا النوع مرة واحدة في آريزونا - في مكان يدعى سالتسينك - بحيرة من صنع الإنسان. نهاية طرف الذيل لدى نوارسنا المحلية مختلفة تماماً.»

بدأ غطّاس متوّج، كان يطفو على مسافة ليست بالقريبة، بالغوص شيئاً فشيئاً، وببطء شديد، ثم قفز فجأة كما لو كان سمكة، مظهراً جانبه السفلي الأبيض اللامع، ثم غطس مختفياً.

«لمَ بحق الله» سأل فان، «لمْ تدعيها لتعرف، بطريقة أو بأخرى، أنك لم تكوني غاضبة منها؟ رسالتك الخلبية قد جعلتها غير سعيدة!»

«آه!» قالت آدا. «لقد وضعتْني في موقف محرج للغاية. يمكنني أن أفهم مدى غضبها من دوروثي (التي ظننت. . التي كانت غبية بما يكفي لتحذرني من عدوى السحاق الشفوية!) ولكن كل هذا ليس مبرراً يدفع بها للبحث عن آندريه في البلدة وإخباره بأنه صديقة مقربة

للرجل الذي أحببته أنا قبل زواجي. لم يجرؤ على إزعاجي بفضوله المحرَّض، ولكنه اشتكى إلى شقيقته من neopravdannaya zhestokosf (قسوة لوسيت غير المبررة).»

«يا آدا! يا آدا!» صاح فان متأوهاً. «أريدك في الحال أن تتخلصي من هذا الزوج ومن شقيقته!»

«أعطني أسبوعين!» قالت، «عليّ أولاً العودة إلى المزرعة. لا أتحمل فكرة عبثها بأشيائي.»

بدا كل شيء في البداية وكأنه يمضي وفقاً لتعليمات بعض من العبقرية اللطيفة.

أكثر ما أسعد فان (السعادة التي لم تُدِنها عشيقته ولم تغفرها أيضاً) إصابة آندريه بالزكام لأكثر من أسبوع. رعته دوروثي (المولودة ممرضة) المتفوقة على آدا (التي لم تمرض هي نفسها أبداً، ولا يمكنها تحمّل رؤية شخص مريض) بجهوزيتها الدائمة لرعاية أخيها المريض، الذي كان يتصبب عرقاً ويكاد يختنق، بينما كانت تقرأ على مسمعه صحيفة Golos Feniksa الروسية؛ ولكن في يوم الجمعة، أمر طبيب الفندق بإرساله إلى أقرب مستشفى أمريكي، حيث لم يُسمح حتى لأخته بزيارته «بسبب الضرورة المستمرة للاختبارات الروتينية» - أو ربما لأن الفتى المسكين قد رغب في مواجهة كارثته في عزلة رجولية.

خلال الأيام التي تلت، استغلت دوروثي وقت فراغها في التجسس على آدا. كانت المرأة متأكدة من أمور ثلاثة: أن لآدا عشيقاً في سويسرا؛ أن فان يكون أخاها؛ وأنه كان يدبر لأخته الفاتنة مواعيد غرام سرية مع الرجل الذي أحبته قبل زواجها. أن تكون الظنون الثلاثة، مجتمعة، حقيقة، فهذا ما وجد فيه فان ظاهرة مبهجة، ولكن الهراء الناتج عن تجزئتها، فهذا ما وفّر له مصدر تسلية أكبر.

كان فندق الإوزات الثلاث منطقة محصنة بالنسبة لعاشقينا. أياً كان المستفسر، سواء حضر بشخصه أو اتصل هاتفياً، كان البواب أو أحد مساعديه، ليخبره أن فان ليس في الفندق، أنه لا يعرف من تكون السيدة فينلاندر، وأن كل ما يمكنه فعله هو ترك رسالة. لم تفضح سرَّ تواجده سيارتُه المركونة في أيكة معزولة. في فترة ما قبل الظهيرة، كان يستخدم بانتظام مصعد الخدمة، المفضي مباشرة إلى الفناء الخلفي. سرعان ما حفظ لوسيان، المتمتع بشيء من الذكاء، صوت دوروثي الرنان «الصوت النحاسي»، أو «لم تكن الترومبيت راضية هذا اليوم»، إلخ. ولكن الأقدار الودية، قد أخذت فيما بعد يوم عطلة.

كان آندريه قد تعرّض لنزيف غزير أثناء رحلة إلى فينيكس، خلال شهر أغسطس. كان العنيد، المستقل، المتفائل على نحو غير متبصر، قد أرجع سببه إلى نزيف في الأنف، وبعد أن أخطأ في تشخيصه، أخفى الأمر عن الجميع لتفادي «الثرثرات الغبية». كان يعاني، ولسنوات طويلة، من سعال رطب، كسعال أي رجل يدخن مثله علبتي سجائر في اليوم الواحد، ولكن، بعد أيام قليلة من نزّ أول قطرة دم من أنفه، بصق بلغماً قرمزي اللون في حوض مغسلته، فقرر أن يتوقف عن التدخين، ويقتصر على tsigarki (سجائر صغيرة). وقع الخطب الآخر في حضور آدا، قبل وقت قصير من مغادرتهما إلى أوروبا؛ تمكن من التخلص من منديله الملطخ بالدم قبل أن تراه، ولكنها تذكرت أنه قال "Vot te na" (أمر غريب حقاً). ولاعتقاده، كما معظم الإستوتيين الآخرين، أن أهم الأطباء متواجدون في أوروبا الوسطى، وعد نفسه أنه سيستشير اختصاضياً من زيورخ، قد حصل على اسمه من أحد أعضاء «بيت الضيافة» (ملتقى أخوية صانعي الأموال)، إن عاد لسعال الدم مرة أخرى. المستشفى الأمريكي في فالفيه، بجوار الكنيسة

الروسية التي بناها فلاديمير شوفالييه، أحد أسلافه، قد أكدت إصابة رئته اليسرى بالسل، إصابة غير قابلة للشك.

في صباح يوم الأربعاء المبكر، الواقع في ٢٢ أكتوبر، كانت دوروثي، وعلى نحو محموم، تحاول تحديد موقع آدا (التي بعد زيارتها المعتادة للبجعات الثلاث، ذهبت لقضاء بضع ساعات من الراحة في «بافيا»، صالون للحلاقة والتجميل) وقد تركت رسالة لفان، لم يستلمها إلا في وقت متأخر من الليل، بعد عودته من رحلة إلى سورسيير، في فاليز، على بعد حوالي مئة ميل شرقاً، حيث اشترى لنفسه فيلا، عبر إحدى نسيباته، وتناول العشاء مع المالكة السابقة، أرملة رئيس مصرف، السيدة سكارليت اللطيفة، ومع ابنتها إيفلين، شقراء جميلة على الرغم من البثور التي تملأ وجهها، وقد أثارت تلك الصفقة السريعة داخل كل منهما، إعجابها كما شهوتها.

كان لا يزال هادئاً ومتفائلاً؛ بعد أن قرأ بتمعن تقرير دوروثي الهستيري، بقي مؤمناً أن لا شيء يهدد مصيرهما؛ أن آندريه، في أحسن حالاته سيموت قريباً، موفراً على آدا عناء الطلاق؛ وأنه، في أسوأ الأحوال، سيتم ترحيل الرجل إلى مصح في رواية، ليتسكع فوق الصفحات القليلة لخاتمة وشيكة، بعيدة كل البعد عن واقع اتحاد حياتيهما. في صباح يوم الجمعة، عند التاسعة صباحاً، حسب الاتفاق المبرم في العشية الفائتة، قاد سيارته نحو فندق بيلفو، مع الخطة السعيدة لاصطحابها إلى سورسيير ليريها منزله الجديد.

خلال الليل، كانت عاصفة رعدية قد ضربت وكسرت ظهر ذلك الصيف المعجزة. وتناسباً مع الجو المزعج، حلّ ميعاد طمثها المفاجئ مختصراً من مداعبات الأمس.

كانت تمطر عندما أغلق باب سيارته بقوة. رفع ساقيْ بنطاله

المخملي الفضفاض، ثم مرّ، عابراً بركة صغيرة، بين سيارة إسعاف وسيارة سوداء أخرى ضخمة، وقد اصطفتا الواحدة وراء الأخرى، أمام الفندق. كانت كل أبواب السيارة السوداء مفتوحة، وكان اثنان من خدم الفندق قد بدآ بتكديس الحقائب فيها، تحت إشراف السائق، وكانت باقي أجزاء السيارة القديمة المستأجرة، تصدر هديراً متحفظاً يتناسب ونخير الرازحين تحت ثقل الحمولات التي ينقلونها.

انتبه فجأة لزحف المطر البارد فوق رأسه الأصلع، وكان على وشك دخول المقصورة المزججة، عندما رأى آدا خارجة، بطريقة تشبه إلى حد ما خروج الدمى (مرة دمية أنثى ومرة ذكر) من حجرة الساعات البارومترية الخشبية، عندما تفتح أبوابها لإعلان الوقت. كانت ترتدي معطف ماكينتوش فوق فستان عالي الياقة، مع شال رقيق فوق شعرها المنساب، وحقيبة من جلد التمساح تتدلى من كتفها، وكل ذلك قد شكّل مجموعة ملابس قديمة الطراز، تكاد تكون ريفية. «لم يكن يعلو وجهَها وجه»، كما يقول الروس للتعبير عن قنوط عظيم. قادته حول الفندق، نحو قاعة مستديرة بشعة، بعيداً عن رذاذ المطر الكئيب، وحاولت هناك احتضانه، ولكنه تهرّب من شفتيها. كانت ستغادر خلال دقائق. كان المستشفى قد أعاد بسيارة الإسعاف، آندريه البطل، ذا الحالة الميؤوس منها، إلى فندقه. تدبرت دوروثي أمر حجز مقاعد ثلاثة فوق طائرة جنيف- فينيكس، وكانت السيارتان هناك لتقلّاها وزوجها، مع أخته الملحمية، مباشرة نحو المطار. طلبت منه منديلاً، فأخرج واحداً أزرق من جيب سترته، ولكن الدموع بدأت تنهمر لتغطي عينيها بالكامل، بينما وقف أمامها بذراع ممتدة نحوها.

«جزء من التمثيلية؟»، استفسر ببرود.

هزت رأسها، تناولت المنديل مع «ميرسي» طفولية، أفرغت

أنفها، لهثت، ابتلعت ريقها ثم تحدثت، ثم، في اللحظة التالية، كان كل شيء، كل شيء قد ضاع.

لم تكن قادرة على إخبار زوجها بقرار الانفصال بعدما تبين أنه مريض. كان على فان الانتظار حتى يتعافى آندريه تماماً، ويصبح مؤهلاً لتلقي خبر كهذا، وهذا ما قد يستغرق بعض الوقت. من المؤكد أنها ستفعل أقصى ما يمكنها للتعجيل في شفائه التام، فهنالك في آريزونا، على سبيل المثال، صانع معجزات ــ

«وكأننا نبلسم الرجل قبل شنقه»، قال فان.

«وفكّر»، قالت آدا بينما رفعت ذراعيها بحركة قوية كما نرفعهما عندما نسقط من يدنا غطاءً أو صينينة، «فكّر كم كان نبيلاً حين لم يفضح أي شيء! بالطبع لا يمكنني تركه الآن!»

«أجل! القصص القديمة ذاتها! عازف الفلوت الذي كان عليك معالجة عجزه، وحامل الراية المغامر، الذي قد لا يعود من حرب بعيدة.»

«لا تبدأ بالسخرية!»، اعترضت آدا. «إنه لرجل مسكين! مسكين حقاً! كيف تجرؤ على السخرية؟»

بحكم العادة الغريبة التي كان يمارسها حتى في أيام شبابه، فإن فان دائماً ما كان يخفف من قوة غضبه وخيبة أمله من خلال صياغته لعبارات مبهمة وجارحة، قد تؤذي الشخص المقابل بقدر ما يفعل ظفر خشن عالق في ثوب حريري - وجهه الآخر، بطانة جهنمية.

«قلعة حقيقية، قلعة واضحة»، بدأ هنا بالصياح، «هيلين الطروادية، آدا الآرديسية! لقد خنت الشجرة، كما خنت العثة!»

«Perestagne (توقف، توقف)!»

«آرديس الأولى، آرديس الثانية، ثم فترة مانهاتن، والآن مونرو ــ»

«قلت توقف!»، رددت آدا (كمجنون يتعامل مع مريض صرع) .

«من يعيد إليَّ هيلين ـــ»

«اخرس!»

«ـــ والفراشة.»

«أرجوك توقف يا فان! أنت تعرف أن فراقك سيقتلني.»

«ولكن، ولكن، ولكن» - (صافعاً جبينه في كل مرة) - «أن نكون قاب قوسين أو أدنى من، من، من - ثم يأتي هذا الأبله ليلعب دور كيتس[١]!»

«Bozhe moy (يا إلهي)! عليَّ الذهاب. قل شيئاً يا حبيبي! يا حبيبي الوحيد! قل ما يحملني على الصبر!»

سادت برهة صمت لم يشوّهها إلا انهمار المطر فوق الأفاريز.

«ابقي معي يا فتاة!» قال فان، «ولننس كل شيء - المكابرة، الغضب، والإشفاق الذي أضعنا فيه حياتنا.»

بدت للحظة مترددة، أو بالأحرى تفكر في التردد؛ ولكن صوتاً رناناً قد وصلهما من الخارج، حيث كانت دوروثي واقفة، بمعطف رمادي وقبعة رجالية، تلوح بعصبية بمظلتها غير المفتوحة.

«لا أستطيع، لا أستطيع، سأراسلك»، تمتمت حبيبتي المسكينة باكية.

قبّل فان يدها الباردة كورقة سقطت من شجرة، ثم مشى، تاركاً بيلفو للاهتمام بأمر سيارته، والبجعات الثلاث للاهتمام بأغراضه، والسيدة سكارليت لتهتم ببثور ابنتها إيفلين، واستمر في المشي حوالي عشرة كيلومترات، على امتداد طريق لزج يوصل إلى ريناز،

---

(١) كيتس: جون كيتس (١٧٩٥-١٨٢١) شاعر إنكليزي توفي بالسل أيضاً. (مترجم)

ومن هناك، طار إلى نيس، بيسكرة، كايب تاون، نيروبي، ثم إلى منطقة الباسيت ــ

وطار حزيناً فوق قمم الباسيت ــ

هل ستراسله؟ أوه، لقد فعلت! أوه، كل ما حصل قد كان أكثر من رائع! لا تنتهي المنافسة بين الواقع والخيال، في قهقهة فتاة. عاش آندريه بعد ذلك لبضعة أشهر فقط، لا تتجاوز po pal'tzam (عد الأصابع)؛ شهر، اثنان، ثلاثة، أربعة - لنقل خمسة. كان آندريه بخير في ربيع عام ١٩٠٦، أو ربما ١٩٠٧، مع رئة معطلة تماماً ولحية بلون القش (لا شيء يشغل المريض عن مرضه كغطاء الوجه النباتي). تشعبت الحياة، ثم تشعبت ثانية. أجل، لقد أخبرت زوجها بكل شيء. وجّه آندريه إلى فان إهانة فوق شرفة فندق دوغلاس البنفسجية، حيث كان ينتظر آدا، في النسخة الأخيرة من «أطفال ملعونون». كان السيد توباك (الديوث السابق) مع اللورد إرمينين، شاهدين على النزال، بالإضافة إلى بعض نباتات يكة طويلة وصبار قصيرة. ارتدى آندريه Cutaway (سترة بذيل طويل مستدير - نمطه المعتاد)؛ أما فان، فبدلة بيضاء. لم يرغب أي منهما في التراجع، وقد أطلقا النار في وقت واحد. سقط كلاهما. استقرت رصاصة السيد Cutaway في كعب حذاء فان اليساري (أبيض بكعب أسود)، مسببة له رضاً بسيطاً في القدم (مع إحساس بالتنميل)، هذا كل ما في الأمر. أصاب فان خصمه في منطقة ما تحت البطن - إصابة خطيرة قد تعافى منها في الوقت المناسب، أو ربما لم يفعل أبداً (هنا تسبح التشعبات في الضباب). كان واقع الأمر أكثر ضبابية.

هل راسلته كما وعدت؟ أوه، أجل، أجل! استلم منها خلال سبعة عشر عاماً حوالي مئة رسالة قصيرة، تحوي كل منها حوالي مئة كلمة، وتتألف من ثلاثين صفحة تشرح فيها أموراً تافهة، معظمها عن

صحة زوجها والحيوانات المحلية. بعد أن ساعدتها برعاية آندريه في مزرعة آغافيا، خلال عدد من السنوات الصعاب (لقد لامت آدا المسكينة على كل ساعة بائسة قد قضتها في جمع الفراشات وتربيتها)، وبعد اعتراضها على اختيار آدا لعيادة غروتونوفيتش الشهيرة والممتازة (ليقضي فيها زوجها فتراته اللامنتهية من العلاج) بدل مصحة الأميرة آلاشين الراقية، انسحبت دوروثي فينلاندر إلى قرية، شهيرة بأديرتها، قريبة من القطب الشمالي (إيلمنا، الآن نوفوستابيا)، حيث تزوجت في النهاية من السيد برود أو بربيد، حنون شغوف، أسمر أنيق، كان يطوف بالقرابين وغيرها من الأشياء المقدسة، عبر المناطق السيبيرية، وأصبح على أثر ذلك مديراً (إدارة قد تكون قد استمرت لنصف قرن لاحق) للآثار في غوريلوو (هيركولانيوم[1] لياسكا)؛ أما الكنوز التي عثر عليها في زواجه، فهي أمر آخر.

استمرت صحة آندريه بالتدهور البطيء. خلال السنتين الأخيرتين أو ربما الثلاث، من وجود الخامل، فوق الأسرّة ذات المفاصل المتحركة، التي يمكن تعديل وضعياتها بمئات الطرق، فقدَ قدرته على الكلام، ولكنه بقي قادراً على هز رأسه والإيماء به، العبوس عند التركيز، أو رسم ابتسامة ضئيلة عند استنشاقه لرائحة طعام (التي هي في الحقيقة، مصدر بهجتنا الأولى). مات في ليلة ربيعية، وحيداً في غرفة مستشفى، وقد حدث في صيف العام ذاته، ١٩٢٢، أن تبرعت أرملته بكل مجموعاتها إلى متحف الطبيعة الوطني، وسافرت جواً إلى سويسرا، لـ«لقاء استكشافي»، يجمعها بفان البالغ من عمره اثنين وخمسين عاماً.

(١) هيركولانيوم: مدينة رومانية قديمة جنوب إيطاليا. (مترجم)

القسم الرابع

هنا يقاطعني شخص مزعج ليسألني، بروح الغطرسة تلك التي نراها لدى من يطلب من رجل نبيل إبراز رخصة قيادته، كيف استطاع البروفيسور أن يوفق بين رفضه اعتبار المستقبل «حالة زمنية»، وبين واقع أنه، أي المستقبل، لا يمكن لنا اعتباره غير موجود، باعتباره «يمتلك سمة واحدة، تنطوي على فكرة مهمة جداً، كفكرة الضرورة المطلقة.»

ارمهِ خارجاً! من قال إني سأموت؟

لدحض الحجة القاطعة بطريقة أكثر أناقة: إن اللاوعي، بعيداً عن فكرة انتظاره لنا مع تكات ساعته الموجودة أمامنا، في مكان ما، فإنه ينطوي على كل من الماضي والحاضر، بكل جوانبهما التي يمكن تصورها، لأنه ليس عنصراً ممثلاً للوقت بحد ذاته، بل للتداعيات العضوية الطبيعية في كل الأشياء، سواء كانت واعية لمفهوم الزمن أم لا. معرفتي أن الآخرين يموتون، لا تمتّ إلى موضوعنا بصلة. أنا أعرف أيضاً أنك، وإياي، على الأرجح، قد وُلدنا، ولكن هذا لا يثبت أننا مررنا عبر المرحلة الزمنية المعروفة بالماضي: حاضري، وجودي الواعي القصير، هو من يخبرني أنني فعلت، وليس الرعد الصامت لـ«لاوعي لامتناهٍ»، يعود إلى ولادتي

التي وقعت قبل اثنين وخمسين عاماً، ومئة وخمسة وتسعين يوماً. تعود ذاكرتي الأولى إلى منتصف يوليو ١٨٧٠، أي في الشهر السابع من حياتي (طبعاً يبدأ الوعي المتذكر عند معظم الناس في عمر أكبر، في عامهم الثالث أو الرابع) عندما، في أحد الأصباح، في فيلا ريفييرا، سقطت قطعة من الجص الأخضر من السقف، بسبب زلزال، وقد وقعت في مهدي. الأيام المئة والخمسة والتسعين التي سبقت هذا الحدث، وكونها لا يمكن تمييزها عن «اللاوعي اللامتناهي»، فإنه لا يمكن إدراجها ضمن الزمن المدرَك، وبذلك فإن عمر عقلي، الذي أستمد منه فخري، يكون اليوم (منتصف يوليو ١٩٢٢) بالضبط اثنين وخمسين عاماً، وقطعة من سقفي الملون.

بذات الفهم للزمن الإدراكي الفردي، أستطيع المشي عائداً نحو الماضي، وأتذوق متعة التذكر على حدة، إضافة إلى متعة تذكر سقوط القطعة الجصية التي كانت على شكل حبة أناناس، حين أخطأت رأسي، ثم أفترض في اللحظة التالية أن كارثة كونية أو جسدية، قد - لا تقتلني، بل تغرقني في حالة من الذهول الدائم، غريب ومثير بذات الوقت نسبة للعلم، وبالتالي، يتخلص هذا الانحلال الطبيعي من أي شعور بالمنطق أو بالزمن. وما هو أبعد من ذلك، أن ذلك الاستنتاج له شكل زمني أقل إثارة للاهتمام (وإن كان مهماً جداً)، وهو «الزمن العالمي» («لقد أمضينا زمناً هائلاً في قطع الرؤوس»)، يعرف أيضاً بـ«الزمن الموضوعي» (هو في الحقيقة نسيج خشن من أوقات خاصة)، باختصار، إنه تاريخ البشرية والفكاهة، وهذا النوع من الأشياء. فعلى سبيل المثال، إنْ تطور الجنسُ البشري، بطريقة غير محسوسة (وهنا دهاء حجتي) وتحول إلى نوع آخر من «الكائنات العاقلة»، أو ما يتفرع عنها، التي تتمتع بطرق

أخرى متنوعة للوجود أو للحلم، تكون أبعد من مفهوم الزمن الذي يعرفه البشر، فعندئذ، وعلى هذا النحو فقط، لا يمكن لأحد حرمان الجنس البشري من حقه في الحصول على مستقبل. وبهذا المعنى، فإن الإنسان لن يموت أبداً، إذ قد لا تكون هناك أبداً نقطة تصنيفية في ارتقائه التطوري، يمكن تحديدها على أنها المرحلة الأخيرة من إنسان يخوض سلسلة من التغييرات الصغيرة التي ستحوله إلى Neohomo (إنسان جديد)، أو إلى بعض طين حقير. أعتقد أن صديقنا لن يزعجنا بعد الآن.

إن هدفي من كتابة «نسيج الزمن» (عمل شاق، ممتع ومبارك، سأضعه بعد الانتهاء منه فوق طاولة مكتب يغمرها نور فجر جديد، تخص قارئاً لا يزال غائباً) هو تطهير مفهومي الخاص لفكرة الزمن. أرغب في فحص جوهر الزمن، وليس زواله، لأنني لا أؤمن أنه يمكن لجوهره أن يُختصر في فكرة الزوال. أرغب في تحسس الزمن ومداعبته.

يمكن لأحدنا أن يكون محباً للـ«مكان» ولإمكانياته: لنأخذ السرعة، على سبيل المثال، سلاسة السرعة، وهسيس سيفها؛ فخر نسر بسرعته التي يسيطر معها على كل شيء؛ صرخة فرح عند المنعطفات؛ ويمكن لأحدنا أيضاً أن يكون محباً للزمن، ذواقاً لما يعرف بالأمد. لا شيء يبهج حواسي كالزمن، بمواده وامتداده، بترهل تجاعيده، بضبابه الرمادي الذي يستحيل لمسه، وبروعة استمراريته. أتمنى لو كانت له هيئة زائفة، لأدع نفسي لتنغمس فيه، حد الاستحواذ. أعرف أن كل الذين حاولوا الوصول إلى القصر المسحور قد ضلّوا في الظلام، أو غرقوا في الفضاء. وأنا أيضاً مدرك أن الزمن هو البيئة المثالية لثقافة الاستعارات.

لِمَ يصعب - يصعب على نحو مخزٍ - حمل مفهوم الزمن إلى

حقل التركيز الذهني، وإبقاؤه هناك إلى أن يتم فحصه؟ يا له من جهد، من ارتباك، ومن تعب مضنٍ! إنه أشبه بالتنقيب، بيد واحدة، داخل صندوق التابلوه في السيارة، عن خريطة الطريق - خريطة الجبل الأسود، خريطة الدولوميت، نقود، برقية - تجد كل شيء ما عدا خريطة ذلك الامتداد الفوضوي ما بين آرديس ومنطقة ما ينتهي اسمها بسوبرانو، وكل ذلك أثناء قيادتك في الظلام، وتحت المطر، محاولاً الاستفادة من ضوء أحمر صغير في تلك العتمة، بينما تعمل ماسحات الزجاج، بإيقاعها البندولي: إصبع الفضاء الأعمى، يخرق ويمزق نسيج الزمن. كما أن أوريليوس أوغسطينوس، هو أيضاً، وفي صراعه مع الموضوع ذاته، قبل خمس مئة عام، قد خبر هذا العذاب الجسدي الرهيب للعقل المستتر، خبر chtchekotiki (دغدغات) التقريب، ومراوغات الإرهاق الذهني - ولكنه، على الأقل، كان قادراً على إعادة شحن دماغه بالطاقة الممنوحة من الرب (سأورد حاشية هنا عن مدى متعة مشاهدة كيف كان يضغط على تفكيره أثناء الكتابة، فوق الرمال وتحت النجوم، مازجاً تأملاته العميقة مع نوبات صلوات عنيفة).

ضعت مجدداً. أين كنت؟ أين أكون؟ طريق موحل. سيارة متوقفة. الوقت هو الإيقاع: إيقاع الحشرات في ليلة حارة و رطبة، تموجات دماغ، التنفس، الطبل في صدغيّ - أولئك هم حراس الزمن المخلصون؛ والعقل هو ضابط لهذا الإيقاع المحموم. يمكن لأحد مرضاي أن يميز إيقاع الوميض المتعاقب كل ٠,٠٠٣ من الثانية.

ما الذي دفعني، ما الذي جعلني أشعر بالارتياح قبل دقائق من مرور الفكرة في ذهني؟ أجل. ربما يكون الإيقاع هو التلميح الوحيد للزمن؛ ليس ضربات الإيقاع المتواترة، بل الصمت بين ضربتين:

الفاصل الرقيق. إن النبض المنتظم بحد ذاته يذكر بفكرة القياس المزرية، ولكن بين كل نبضتين، يختفي شيء ما يشبه «الزمن الحقيقي». كيف يمكنني استخراجه من تلك الهوة اللينة. على الإيقاع أن لا يكون سريعاً جداً، ولا بطيئاً جداً. فضربة واحدة في الدقيقة تلغي إحساسي بالتسلسل، وخمس ذبذبات في الثانية تجعلني غارقاً في ضباب. الإيقاع البطيء يذيب الزمن، والإيقاع السريع لا يفسح له مكاناً. أعطني، على سبيل المثال، ثلاث ثوانٍ، ويمكنني عندئذ القيام بأمرين: إدراك الإيقاع وجس الفاصل الزمني. هل قلت هوّة؟ حفرة قاتمة؟ ولكن هذا هو المكان ليس إلا، ذلك الشرير الكوميدي، الذي يعود من الباب الخلفي، مع بندوله الإيقاعي، بينما أتلمس أنا معنىً للزمن. ما أسعى إلى فهمه هو بالضبط الزمن الذي يمكنني قياسه بمساعدة المكان، بما أن اكتساب المعرفة ذاته، يتطلب «زمناً».

إن أخبرتني عيني شيئاً عن المكان، تخبرني أذني شيئاً آخر عن الزمن. ولكن، في حين يمكن التفكر في شأن المكان بسذاجة، وربما أيضاً بشكل مباشر، فإنه لا يمكنني سماع الزمن إلا بين الضغوط والإجهاد، للحظة موجزة ومقعرة، بحذر وبقلق، مع إدراكي المتزايد أنني لا أستمع للزمن بذاته، ولكن تدفق الدم عبر خلايا عقلي، ومن ثم عبر أوردة عنقي المفضية إلى القلب، مكمن آلامنا، التي لا علاقة لها بالزمن.

اتجاه الزمن، سهم الزمن، زمن في اتجاه واحد، أمر يبدو مفيداً لي للحظة، وسرعان ما يتضاءل في اللحظة التالية، ليصل مستوى من الوهم المرتبط، على نحو غامض، بألغاز النمو والجاذبية. إن عدم قدرة الزمن على المضي باتجاه معاكس (الذي، في المقام الأول، لا يتجه نحو أي مكان) هي شأن محدود: لو أن أعضاءنا لم تكن غير

متناظرة مع أعضائنا الكهربائية، لكانت نظرتنا للزمن متدرجة ورحيبة، كالليل الوعر والجبال المسننة، حول قرية صغيرة، مطمئنة، ترتعش أضواؤها في الظلمة. لقد قيل لنا إن الكائن الذي يفقد أسنانه ويتحول إلى عصفور، فإن أفضل ما يمكنه فعله لاحقاً عندما يحتاج ثانية إلى الأسنان، هو أن يطوّر منقاراً مسنناً، لن يكون أبداً كالأسنان التي امتلكها سابقاً. المشهد الآن هو زمن «الإيوسين[1]» وأبطاله هو الأحفوريات. إنه مثال مسلٍّ عن الطريقة التي تغش بها الطبيعة، ولكن لا علاقة مهمة تربطه بالزمن الأساسي، المستقيم أو الدائري، كما لا علاقة تربط طريقة كتابتي من اليسار إلى اليمين بأفكاري المنسابة.

وبالحديث عن التطور، أيمكننا تخيل أصل الزمن، والدرجات الحجرية التي صعدها، وكمّ التحولات التي رفضها؟ أكان هنالك شكل بدائي للزمن، والذي لم يكن فيه الماضي، على سبيل المثال، متبايناً بشكل واضح عن الحاضر، بحيث أمكن للأشكال والظلال الماضية أن تظهر من خلال «الآن»، اللين، الطويل واليرقاني؟ أم أن هذا التطور لا يتعلق إلا بقياس الزمن، من الساعة الرملية إلى الساعة الذرية، ومن الذرية إلى النجم النابض؟ وكم من الزمن قد استغرق الزمن القديم ليصبح «زمن نيوتن؟» «تَفَكّرْنَ في البيض!»، كما قال ديك فرنسي لدجاجاته.

زمن نقي، زمن إدراكي، زمن ملموس، زمن خالٍ من المحتوى، من السياق، ومن التعليق الحالي - هذا هو زمني وهذا هو موضوعي. كل ما دون ذلك هو رمز رقمي أو شكل من أشكال المكان. نسيج المكان يختلف عن نسيج الزمن، أما ذلك النمط

(١) إيوسين: فترة زمنية جيولوجية. (مترجم)

الأبقع رباعي الأبعاد الذي خلقه النسبويون، فهو نمط رباعي فعلاً ولكن قد استبدلت إحدى سيقانه بشبح ساق. إن زمني هو زمن ساكن أيضاً (سنتخلص حالياً من الزمن «المتدفق»، من زمن الساعة المائية، ومن زمن دورة المياه).

الزمن الوحيد الذي يعنيني هو ذلك الذي أوقفته أنا، والذي ترعاه إرادتي وينشغل به عقلي. لذا سيكون من غير المجدي، لا بل سيكون أمراً شريراً، لو أشركنا الزمن «العابر» في القضية. أستغرق طبعاً وقتاً أطول في الحلاقة حين تكون أفكاري في الوقت ذاته «تجرب» إيجاد كلمات؛ وبالطبع، لا أحيط علماً بتأخري إلا عند النظر إلى ساعتي؛ وبالطبع، تبدو لي السنوات، في عمري الخمسيني، تمر بشكل أسرع، لأنها باتت تشكل أجزاء أصغر وأصغر من وجودي المتنامي، ولأنني أيضاً أقل ضجراً مما كنت عليه في طفولتي، التي قضيتها بين لعبة مملة وكتاب أكثر مللاً. ولكن هذا «التسريع» يعتمد تحديداً على عدم مراعاة المرء للوقت.

إنها مغامرة غريبة - هذه المحاولة لتحديد طبيعة شيء يتكون من مراحل شبحية. ومع ذلك، فإني واثق بأن قارئي المقطب جبينه فوق هذه السطور (متجاهلاً فطوره، على الأقل) سيتفق معي أنه لا يوجد ما هو أكثر روعة من الفكر المنفرد؛ وأنه يجب على هذا الفكر المنفرد أن يستمر في مسيرة كدحه، أو - لاستخدام تشبيه أكثر حداثة - أن يتقدم، على سبيل المثال، في سيارة يونانية، حساسة ومتوازنة، تظهر مزاجه اللطيف، وبراعة قيادته الآمنة، عند كل منعطف، خلال رحلته نحو قمة ألبية.

علينا التخلص من مغالطتين قبل أن نستمر قدماً. الأولى هي الخلط بين عناصر زمنية وأخرى مكانية. لقد تمت حقاً إدانة المكان، المحتال، ضمن هذه الملاحظات (تجري الآن صياغتها النهائية

خلال نصف يوم عطلة خلال رحلة مصيرية)؛ ستجري محاكمته في مرحلة لاحقة من تحقيقنا. الخطأ الثاني هو عادة لغوية ممعنة في القدم. نحن نعتبر الزمن كنوع من التيار، لا علاقة له بشلال جبلي فعلي، يبرز بياضه فوق خلفية متباينة لصخور سوداء، أو فوق نهر باهت الألوان، في واد تضربه الرياح، ولكنه يستمر في تدفقه عبر المناظر الطبيعية الكرونوغرافية[1]. نحن معتادون جداً على هذا المنظر الأسطوري، وحِرْصنا هذا على تسييل كل مرحلة من مراحل الحياة، قد أفضى في النهاية إلى عدم تمكننا من الحديث عن الزمن من دون الحديث عن حركة المادة. في الواقع، إن إحساسنا بحركة الزمن، قد وصلنا، طبعاً، من العديد من المصادر الطبيعية، أو المألوفة على الأقل - وعي الجسم الفطري لتدفق الدم في عروقه، الدوار القديم الذي يسببه ظهور النجوم، وأيضاً، بالطبع، أساليبنا للقياس، كظل عقرب الساعة الشمسية الزاحف، تقطّر الرمل في الساعة الرملية، خبب عقرب الثواني في ساعة اليد - وها نحن قد عدنا إلى «المكان». لاحظوا الأطر والأوعية الحاضنة! إن الفكرة القائلة إن الزمن «يتدفق» طبيعياً كما تسقط تفاحة فوق طاولة الحديقة، تعني أنه يتدفق في شيء ما، وعبره، وإن اعتبرنا أن هذا الـ «شيء ما» هو المكان، فلن يكون لدينا إلا استعارة تتدفق على طول شريط لقياس المسافات.

ولكن حذار، anime meus[2]، من تموجات مارسيل[3]،

---

(١) كرونوغرافية: chronic: ذو صلة بالزمن. (مترجم)

(٢) anime meus: باللاتينية: روحي. من باب تقليد الأب أغسطينوس. (مترجم)

(٣) تموجات مارسيل: تصفيفة شعر تعرف بـ marcel wave، يُجعد فيها الشعر على شكل تموجات كثيرة بواسطة كاوٍ حراري. (مترجم)

خاصة الفن المعاصر؛ تجنبي السرير البروستي[١]، والتوريات القاتلة (إنها انتحار بحد ذاته - بالنسبة لأولئك الذين قرأوا فيرلان[٢]).

أصبحنا الآن جاهزين للخوض في شأن «المكان». نحن نرفض من دون ندم، المفهوم الاصطناعي للزمن الملوث بالمكان، ومفهوم المكان المتطفل على الزمن، ومفهوم الزمن المكاني، الخاص بالآداب النسبوية. يمكن لأي شخص، إن أحب، أن يتمسك بالفكرة القائلة إن المكان هو قشرة الزمن الخارجية، أو جسد الزمن، أو أن المكان يغمر الزمن أو العكس، أو أن المكان، بطريقة غريبة، هو مجرد مضيعة للزمن، وحتى لجثته، أو أن يقتنعوا أنه في نهاية هذا المسير الذي لا نهاية له، الزمن هو المكان؛ هذا النوع من الثرثرة مسل جداً، خاصة حينما نكون شباناً؛ ولكن لا أحد يمكنه أن يحملني على الاعتقاد بأن حركة المادة (مؤشر، على سبيل المثال) عبر منطقة محفورة في المكان (لنقل قرص) تتطابق بطبيعتها مع «مرور» الزمن. الجسم الذي يتحرك يتجاوز فقط بعض المواد الأخرى التي تعمل على قياسه، ولكنه لا يخبرنا شيئاً عن البنية الفعلية للزمن غير المحسوس. وبالمثل، فإن شريطاً متدرجاً، حتى وإن من طول لامتناهٍ، لا يمكن اعتباره بذاته «المكان»، تماماً كما لا يمكن لعداد المسافات الأكثر دقة أن يستعرض طريقاً أراه كمرآة سوداء للمطر تحت عجلات تدور، ولا أن يسمع ضرب المطر، ولا أن يشم رطوبة ليل يوليو في المرتفعات الألبية، ولا حتى أن يمتلك قاعدة حواسي الناعمة. نحن، المكانيّين المساكين، نتكيف مع

---

(١) السرير البروستي: تورية تحمل تلميحين إلى شخصيتين: الأولى مارسيل بروست، والثانية سرير بروكرست، القصة الشهيرة في الميثولوجيا الإغريقية. (مترجم)

(٢) فيرلان: بول فيرلان (١٨٤٤-١٨٩٦) شاعر فرنسي. (مترجم)

«الامتداد»، بأبعادنا المكانية الثلاثية، أفضل مما نفعل مع «المدة»: لأجسامنا قدرة على التذكر لا تملكها ذواكرنا الطوعية، التي نتباهى بها. لا أستطيع تذكر رقم سيارتي الجديدة (رغم أني نجحت بالأمس في تحويله إلى عناصر ذاكرية) ولكني أشعر بالأسفلت تحت عجلاتها كما لو كان قطعة من جسدي. ومع ذلك، فإن المكان (كالزمن) هو أمر لا يمكنني إدراكه: مكان تحدث فيه الحركة. بلازما يمكن للمادة - تكثيفات البلازا المكانية - أن تُحفظ فيها وتُنظم. يمكننا قياس كريات المادة والمسافات الفاصلة فيما بينها، ولكن البلازما المكانية لا يمكن إحصاؤها بحد ذاتها.

نحن نقيس الوقت (عقرب الثواني يخبب، عقرب الدقائق يهتز، من دقيقة مرقمة وملونة، نحو أخرى) بشروط مكانية (من دون معرفتنا بطبيعة أي منهما)، ولكن امتداد المكان لا يتطلب دائماً شروطاً زمنية - أو على الأقل، لا يتطلب من الزمن أكثر من نقطة «اللحظة الحالية»، التي يحتويها الحاضر المزيف داخل هوته. تأتي الحيازة الحسية لوحدة مكانية على نحو حسي عندما، على سبيل المثال، تلتقط عين سائق خبير رمزاً في إشارة طرقية خلال قيادته فوق الطريق السريع - لسان أسود تحيط به قنطرة سوداء داخل مثلث أحمر (خليط من أشكال وألوان يمكن التعرف عليها خلال «لا شيء من الزمن»، عندما تُرى على نحو صحيح، على أنها إشارة نفق) أو شيئاً آخراً أقل أهمية كلوحة مسلية تعلن عن «فينوس ♀»، التي يمكن أن يُساء فهمها على أنها موقف خاص بالعاهرات، بينما هي في الحقيقة إشارة للمصلّين، أو للسياح والمتنزهين، تشير إلى وجود كنيسة عند النهر المحلي. أنا أقترح إضافة، « § »، علامة الفقرة، للأشخاص الذين يقرأون أثناء القيادة.

يرتبط المكان بحواس البصر، اللمس والجهد العضلي؛ يرتبط

الزمن على نحو غامض مع السمع (ومع ذلك، يمكن لرجل أطرش أن يميز «مرور» الزمن، أفضل مما قد يفعل رجل أعمى فاقد الأطراف، لا فكرة لديه عما تعني كلمة «مرور»). «المكان هو اكتظاظ في الأعين، والزمن هو غناء في الآذان»، كما يقول جون شايد[١]، شاعر معاصر، اقتبسها فيلسوف ملفّق («مارتن غاردنر»[٢]) في كتابه Ambidextrous Universe، صفحة ١٦٥. يرفرف المكان فوق الأرض، بينما يبقى الزمن ما بين المفكر والإبهام، عندما يستعمل السيد برغسون[٣] مقصه. يضع المكان بيوضه في أعشاش الزمن: «قبل» هنا، «بعد» هناك - فوقها حاضنة منقطة بـ«نقاط العالم» خاصة مينكوفسكي[٤]. من الناحية الذهنية، فإن قياس الامتداد العضوي للمكان أسهل من قياس «امتداد» الزمن. لا بد أن مفهوم المكان قد تشكل قبل مفهوم الزمن (غويا في ويترو[٥]).

إن الفراغ الذي لا يمكن إدراكه (لوك[٦]) الخاص بالمكان

---

(١) جون شايد: شخصية في رواية أخرى للكاتب: نار باهتة. (مترجم)

(٢) مارتن غاردنر (١٩١٤-٢٠١٠): رياضياتي، كاتب، صحفي، ناقد أدبي، كاتب خيال علمي، وساحر استعراضي من الولايات المتحدة. (مترجم)

(٣) برغسون: عودة ثانية إلى هنري برغسون، والتلميح هذه المرة إلى الفكرة التي قال بها برغسون وهي فصل الزمن عن المكان. (مترجم)

(٤) مينكوفسكي: هيرمان مينكوفسكي (١٨٦٤-١٩٠٩) هو عالم رياضيات وفيزياء ألماني روسي. وهو واضع نظرية «زمكان» رباعي الأبعاد، بثلاثة أبعاد مكانية ورابع زمني. (مترجم)

(٥) غويا في ويترو: جان ماري غويا، فيلسوف فرنسي (١٨٥٨-١٨٨٨) وقد تمت مناقشة أفكاره في كتاب «الفلسفة الطبيعية للزمن» لجيرالد جيمس ويترو (١٩١٢-٢٠٠٠)، عالم رياضيات وفيلسوف بريطاني. (مترجم)

(٦) لوك: جان لوك (١٦٣٢-١٧٠٤) فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي. درس الطب ومارس التجريب العلمي، حتى عرف باسم «دكتور لوك». (مترجم)

اللامتناهي، يمكن تمييزه عقلياً (وبالفعل، لا يمكن تخيله على نحو آخر) عن «العدم البيضوي»، خاصة الزمن. يتنامى المكان على نحو لاعقلاني، بينما لا يمكن اختزال الزمن ليصبح جذوراً وكسوراً مكتوبة فوق لوح أسود. قد يبدو قسم معين من المكان أكثر رحابة في عين ذبابة منه في عين س. ألكسندر، ولكن اللحظة بالنسبة للأخير، ليست ساعات بالنسبة للذبابة، وإلا، لما طارت بسرعة عند محاولة صفعها. لا يمكنني تخيل المكان من دون الزمن، ولكن يمكنني جداً تخيل الزمن بعيداً عن المكان. «الزمكان»، ذلك الهجين البشع الذي يبدو شاذاً حتى لغوياً. يمكن للمرء أن يكون كارهاً للمكان، ومحباً للزمن.

هنالك من يعرفون كيفية طي خريطة طريق. ولكن ليس هذا الكاتب أمامكم.

عند هذه النقطة، أعتقد أنه يجب قول شيء عن موقفي تجاه «النسبية». ليس بموقف متعاطف. ما يميل العديد من علماء الكون إلى قبوله كحقيقة موضوعية، هو في الحقيقة العيب المتأصل في الرياضيات الظاهرة على أنها حقيقة. في اتجاه الحركة، يتم تقصير جسم الشخص المدهش المتحرك في المكان، كما ينكمش على نحو كارثي، لأن تسارعه يقترب من السرعة التي، وبأمر من صيغة مشكوك في أمرها، لا سرعة بعدها. إنه سوء حظه، وليس حظي - ولكني أستبعد قصة ساعته الآخذة في التباطؤ. إن الزمن، الذي يتطلب إدراكُه أعلى درجة من درجات نقاء الوعي، هو العنصر الأكثر عقلانية في الحياة، وإن عقلي ليشعر بالإهانة إزاء رحلات الخيال التكنولوجي. أحد الاستنتاجات البليغة على نحو خاص، المجتزأ (أظنه إنغلفاين[1])

---

(١) إنغلفاين: تسمية تحمل تلميحاً إلى اثنين: أينشتاين، وبول لانجفان (١٨٧٢-١٩٤٦)، عالم فيزيائي فرنسي. حاصل على نوبل الفيزياء ١٩٢٦. (مترجم)

من نظرية النسبية - وقد كان ليدمرها تماماً لو أنه بُتر منها على نحو صحيح - يقول إن كائنات درب التبانة مع حيواناتها الأليفة، بعد عودتهم من رحلة استجمامية في منتجعات فضائية سريعة، سيعودون أصغر سناً أكثر مما لو بقوا في منازلهم لوقت أطول. أتخيلهم خارجين من أقواسهم الجوية - يشبهون بعضاً من سكان ليون المتصابين، أعضاء بعض النوادي، حين يتناسلون، ببزاتهم المضحكة، من سيارات نواديهم الكبيرة، حين تتوقف فجأة، وتومض بمصابيحها الجانبية بطريقة غاية في الإزعاج، أمام سائق سيارة غير صبور، تماماً عند النقطة التي ينحسر فيها الطريق ليتفرع نحو قرية جبلية.

يمكن اعتبار تلك الأحداث المدرَكة، التي تحدثت عنها، متزامنةً، إن كانت تنتمي للحظة انتباه واحدة؛ وبنفس الطريقة (مقارنة تحوي شركاً، عقبة لا يمكن إزالتها) يمكن للمرء امتلاك وحدة مكانية - لنقل، قرص المصباح القرمزي الأمامي لسيارة، بنواته البيضاء، يمنع مرور السير إلى زقاق، قد اقتحمته، رغم ذلك، بسرعة غاضبة. أعرف أن النسبيين الذين يجدون في «الإشارات الضوئية» و«الساعات المسافرة» عراقيلَ، يحاولون دحض فكرة التزامن على المقياس الفلكي، ولكن دعونا نتخيل يداً عملاقة مع إبهام فوق نجمة، وبنصر فوق أخرى - ألن يلمس كلتيهما في اللحظة ذاتها - أو ألن تكون المصادفات المحسوسة أكثر تضليلاً من تلك البصرية؟ أعتقد أنه من الأفضل لي أن تراجع وأعلن انسحابي من هذا المقطع.

ضرب جفاف مدينة هيبو، خلال الأشهر الأغزر إنتاجاً في مسيرة أوغسطين الأسقفية، مما أدى لاستبدال الساعات المائية بالرملية. لقد عرّف الماضي بـ«ما لم يعد موجوداً»، والمستقبل بـ«ما لم يأت بعد» (في الواقع، المستقبل هو ضرب من الفانتازيا المنتمية إلى فئة فكرية أخرى، تختلف جوهرياً عن تلك الخاصة بالماضي، الذي كان

هنا - على الأقل - منذ لحظة - أين وضعته؟ في أي جيب حشرته؟ ولكن البحث عنه، بحد ذاته، هو ماضٍ).

الماضي غير قابل للتغيير، غير ملموس، ولا يمكن أبداً زيارته مجدداً - المواصفات التي لا تنطبق على هذا الجزء من المكان الذي أراه الآن، على سبيل المثال، كالفيلا البيضاء ومرآبها الأبيض (المجدد حديثاً)، مع سبع أشجار من السرو بأطوال غير متساوية، تهيمن طوال أيام الأسبوع على الطريق الخاص، الذي يتعرج بين السنديان وشجيرات الورود المنتصبة على جانبي الطريق العام، الذي يربط سورسيير بالطريق السريع، الواصل نحو مونرو (مسافة تزيد على مئة ميل).

سأشرع الآن بالنظر إلى الماضي على أنه تراكم من الحواس والأشياء المدركة، وليس على أنه تفكك الزمن، الذي تنطوي عليه استعارات غريبة، تعبّر عن الانتقال. إن «مرور الزمن» ليس إلا صورة يلفقها العقل، من دون نظير موضوعي لها، ولكن مع نظائر مكانية سهلة. إنها لا تُرى إلا إذا نظرنا إلى الوراء، لتظهر لنا على هيئة أشكال وظلال، أشجار صنوبر وصفصاف، آخذة في الابتعاد بكل صمت: كارثة انقضاء الزمن الأبدية، الانهيارات والانزلاقات الأرضية، الطرق الجبلية التي لا تتوقف فيها الصخور عن الهبوط من القمم، متدحرجة نحو رجال لا يتوقفون عن العمل.

نحن نبني نماذج من الماضي، ثم نستخدمها بمنطق مكاني، لتجسيد وقياس الزمن. لنأخذ مثالاً مألوفاً. كانت زيمبر، وهي بلدة قديمة على نهر ميندر، قرب سورسيير في منطقة فاليز، قد اختفت شيئاً فشيئاً بين المباني الحديثة. وبحلول هذا القرن الجديد، اكتسبت مظهراً حديثاً بالكامل، وعند ذاك قرر بعض المهتمين بالحفاظ على التراث بالتحرك. اليوم، وبعد سنوات من إعادة بناء متقنة، برزت

نسخة من زيمبر القديمة، بقلعتها، وكنيستها، وطاحونتها التي استقرت فوق الضفة الأخرى لميندر، لتقف في مواجهة البلدة المعصرنة، يفصل بينهما جسر طويل. الآن، إن استبدلنا المنظر المكاني (كما نراه من طائرة مروحية) بالمنظر الزماني (كما يراها من يتذكر البلدة الأصل)، واستبدلنا النموذج المادي من زيمبر القديمة، بالنموذج الذهني الذي كان لها في الماضي (لنقل، حوالي ١٨٢٢)، فإن البلدة الحديثة والنموذج القديم سيتحولان ليصيرا شيئاً مختلفاً عن نقطتين في المكان ذاته وفي أزمنة مختلفة (من المنظور المكاني فإنهما في نفس الزمن ولكن في مكانين مختلفين). إن المكان الذي قامت فيه البلدة الحديثة قد تحول فوراً إلى حقيقة، في حين أن صورتها المستعادة في الذاكرة (بغض النظر عن الاستعادة المادية) تلمع في مكان متخيل، ولا يمكننا الاستعانة بأي جسر، للوصول من أحدهما إلى الآخر. بعبارة أخرى (العبارة التي تُكتب حينما يكون الكاتب يتخبط كما القارئ في حالة من تشوش ذهني لا يمكن علاجه)، عندما نبني نموذجاً للبلدة القديمة في أذهاننا (وعلى ضفاف الميندر) فإن كل ما نفعله هو وضعه داخل الإطار المكاني (أو استئصاله من عنصره الخاص لنرميه فوق شواطئ المكان). ولذا فإن مصطلح «قرن واحد» لا يتوافق، ولا بأي معنى، مع مئة قدم من جسر فولاذي، بين البلدات القديمة والحديثة، وهذا ما كنا نرغب في إثباته، وقد أثبتناه الآن.

الماضي إذاً، هو تراكم مستمر للصور. يمكن تأمله بسهولة والاستماع إليه، اختباره وتذوقه عشوائياً، إلى أن يفقد المدلول الذي يفترضه بالمعنى النظري الشامل، أي التناوب المنظم لأحداث مترابطة. ثم يتحول إلى حالة عارمة من الفوضى، يمكن لعبقرية الذاكرة الكلية التي استدعيتها عند هذا الصباح من صيف ١٩٢٢، أن

تنتقي منها أي شيء يرضيه: حبات الألماس المتناثرة فوق أرضية الغرفة، عام ١٨٨٨؛ جميلة روسية بقبعة سوداء في حانة باريسية، عام ١٩٠١؛ وردة حمراء رطبة بين أخرى اصطناعية، عام ١٨٨٣؛ نصف ابتسامة متأملة تعلو وجه معلمة إنكليزية، عام ١٨٨٠، تعيد إغلاق قلفة تلميذها بعناية، بعد مكافأة ما قبل النوم؛ فتاة صغيرة، عام ١٨٨٤، تلعق عسل فطورها عن أصابعها المتباعدة، ذات الرؤوس المقضومة والمشوهة؛ الفتاة نفسها، في الثالثة والثلاثين، تعترف، في وقت متأخر من النهار، أنها لا تحب الزهور في الأواني؛ الألم المريع الذي ضرب كتفه، تحت مرأى طفلين يحملان سلة فطر، في غابة من الصنوبر كانت تحترق بفرح؛ وضجيج مزعج منبثق من سيارة بلجيكية، قد تجاوزتها بالأمس، عند منعطف أعمى من طريق جبال الألب. صور كتلك، لا تخبرنا شيئاً عن نسيج الزمن الذي حبكته - ما عدا، ربما، في حالة واحدة يصعب فصلها. هل يختلف لون العنصر المستذكَر (أو أي من خصائصه ذات التأثير البصري) من تاريخ إلى آخر؟ أيمكنني أن أعرف من خلال اللون ما إن وضعته في مكان سابق أو لاحق، في مكان أعلى أم أخفض، بين أجزاء ماضيَّ المتراصفة؟ أيوجد أي يورانيوم ذهني يمكّن «موجات دلتا» خاصة قياس الأحلام، من قياس عمر ذاكرة؟ تكمن الصعوبة الرئيسية، التي استعجلت في شرحها، في عدم قدرة المجرب على استخدام العنصر ذاته في أوقات مختلفة (على سبيل المثال، الموقد الهولندي، والزوارق الشراعية الزرقاء في حضانة قصر آرديس، عام ١٨٨٤، و١٨٨٨)، بسبب اختلاط الانطباعين (وربما أكثر)، ليشكلا في النهاية صورة مركبة في العقل؛ ولكن إذا ما اخترنا عناصر مختلفة (على سبيل المثال، وجهي حوذيين مميزين: بن رايت، ١٨٨٤، وتروفيم فارتوكوف، ١٨٨٨) فإنه يستحيل، نسبة لما توصلت إليه في

بحوثي، أن تتجنب التطرق ليس فقط إلى صفات كل منهما، بل حتى إلى مختلف الظروف العاطفية، التي لا تسمح لنا أن نعتبر العنصرين متساويين أساساً، إن جاز التعبير، قبل أن يتعرضا لمداخلة الزمن. لست متأكداً أن عناصر كهذه لا يمكن اكتشافها. في عملي المهني، في مختبرات علم النفس، اخترعت عدداً من الاختبارات المبتكرة (أحدها، طريقة لاختبار عذرية أنثى من دون اللجوء إلى فحص جسدي، تحمل اليوم اسمي). وعليه، يمكننا افتراض إمكانية إجراء التجارب - وكم هو معذب، إذاً، اكتشاف المستويات الدقيقة من تخفيف الألوان المشبعة، عن نقطة معينة من الصورة المسترجعة، وتعميق لمعانها عند أخرى - لها من الدقة ما يجعل هذا الـ«شيء ما» (الذي أميزه على نحو مبهم، في صورة شخص تذكرته دون أن أتعرف على هويته، والذي يُنسب «بطريقة ما» إلى طفولتي المبكرة أكثر منها إلى مراهقتي) محدداً، إن لم يكن باسم، فعلى الأقل بتاريخ، على سبيل المثال، أ. ج. ١ يناير ١٩٠٨ (يا للفرحة! لقد عرفت من يكون «أ. ج»، إنه معلم أبي السابق، الذي جلب لي «آليس في الزجاج العاكس»، كهدية في عيدي الثامن عشر).

لا يتسم إدراكنا للماضي باتصاله بتعاقب الأحداث السابقة، بذات درجة القوة التي يتسم فيها إدراكنا للحاضر باتصاله بالأحداث التي وقعت مباشرة قبل لحظات في واقعنا المعاش. أقوم عادة بحلاقة ذقني يومياً، وتغيير شفرة الحلاقة بعد كل استعمالَيْن؛ يحدث بين الحين والآخر أن أهمل حلاقتي ليوم واحد، مما يضطرني في اليوم التالي إلى جزّ الشعيرات الخشنة المزعجة التي نمت على نحو هائل، والتي، أمرّ بأصابعي فوقها مرتين أثناء الحلاقة، لأتأكد من زوالها، وفي هذه الحالة، أستخدم الشفرة لمرة واحدة. وهكذا، فإنني عندما أتذكر سلسلة من الحلاقات التي أجريتها مؤخراً، فإنني

أهمل عنصر التعاقب: كل ما أريد معرفته، ما إذا كان النصل المتروك في أداة محراثي الفضية قد أدى واجبه مرة أم مرتين؛ إن كان قد استُعمل لمرة واحدة، فإن تعاقب اليومين اللذيْن نما خلالهما شعر ذقني لا يعود مهماً في ذهني - في الواقع، أميل إلى سماع صوت الحلاقة والإحساس بها في صباحي التالي أولاً - المهمة التي تطلب شجاعة - ثم أسقط من حساباتي اليوم الذي مرّ من دون حلاقة، والذي، كانت فيه لحيتي نامية بالاتجاه المعاكس للزمن، إن صح التعبير.

إن استطعنا الآن، بمساعدة بعض الخردة الرديئة المستخلصة من المعرفة المرتبطة بألوان محتويات الماضي، تغيير وجهة نظرنا عنه واعتباره ببساطة، إعادة بناء متماسك لأحداث منقضية، يحتفظ العقل العادي ببعضها على نحو أقل وضوحاً من بعضها الآخر، يمكننا عندها أن نلعب مع الظلال والضياء في طرقات الماضي، لعبة أكثر سهولة. تتضمن صور الذاكرة صوراً تِلوية للصوت؛ أصوات قد ابتلعتها الأذن، كما هي، وسجلتها قبل لحظة، بينما كان العقل منشغلاً بتجنب حشد طلاب المدرسة، بحيث يمكننا إعادة الاستماع إلى صوت أجراس الكنيسة، بعد أن غادرنا «تورستين»، بقبة كنيستها الهادئة، التي لا يزال صدى أجراسها يتردد في ذاكرتنا. إن تحليل الخطوات الأخيرة من الماضي القريب، يتطلب وقتاً محسوساً أقل مما يحتاج إليه الجرس المقروع لاستنفاد ضرباته. تلك «الأقل» الغامضة، التي هي سمة خاصة بالماضي الذي لا يزال طازجاً، هي التي ينزلق فيها الحاضر أثناء فحصه الفوري لأصوات الظل. تشير هذه «الأقل» إلى أن الماضي ليس في حاجة إلى ساعات، وأن تعاقب أحداثه ليس ساعة زمنية، بل شيئاً آخر أكثر تماشياً مع إيقاع الزمن الحقيقي. سبق أن اقترحنا أن الفترات الفاصلة بين الضربات المعتمة

تتضمن الشعور بنسيج الزمن. وينطبق الأمر ذاته، على نحو أكثر غموضاً، على الانطباعات الناتجة عن إدراك الفترات الزمنية المنسية، أو «المحايدة»، بين الأحداث الحيوية. بشروط لونية (أزرق رمادي، بنفسجي، رمادي أحمر) محاضرات الوداع الثلاث التي ألقيتها - محاضرات عامة - حول زمن السيد برغسون، في جامعة عظيمة، قبل بضعة أشهر. أتذكر على نحو أقل وضوحاً - أنا القادر فعلياً على إخضاع عقلي - فواصل الأيام الستة، بين الأزرق والبنفسجي وبين البنفسجي والرمادي. ولكني أتصور بوضوح تام، الظروف التي جرت فيها المحاضرات نفسها. تأخرت قليلاً عن الأولى (محاضرة عن الماضي)، وقد لاحظت برعشة غير سارة، كما لو أني كنت أحضر جنازتي الخاصة، النوافذ شديدة الإضاءة في قاعة كاونترستون، وطالب ياباني بجسمه الصغير، كان قد تأخر بدوره، تخطاني بسرعة جنونية، ثم اختفى في المدخل، قبل زمن طويل من وصولي إلى درجات المنصة شبه الدائرية. في المحاضرة الثانية (عن الحاضر)، خلال الثواني الخمس من الصمت و«الانتباه الداخلي»، الذي طالبت به الحاضرين، من أجل تقديم توضيح للفكرة الأولى التي كنت على وشك طرحها (أو بالأحرى، كانت الآلة النفيسة في جيب سترتي الصوفية هي من سيقوم بذلك) فيما يخص الإدراك الحقيقي للزمن، خلال تلك الثواني، صدر عن شخص عملاق بلحية بيضاء، نائم فوق كرسيه، شخيرٌ قد ملأ القاعة - التي انهارت، بالطبع. عند المحاضرة الثالثة والأخيرة، عن المستقبل (الزمن الزائف)، وبعد بضع دقائق من عمل مسجلي الممتاز، تعرضت تلك الآلة الصوتية السرية لكارثة ميكانيكية غامضة، وقد فضلت أن أمثل إصابتي بنوبة قلبية لأُحمل خارجاً - وأقضي ليلة، لا نهاية لها، (إنه حقاً لأمر مقلق بالنسبة لمحاضر) محاولاً فك تشفير وفرز الملاحظات

التي فسد تسجيلها، وإعادة نسخها فوق الورق، ملاحظات ستبقى مكبرات الصوت السيئة، ولفترة طويلة، تلوكها في حلم مألوف (ينسبه الدكتور سيغني مونديو مونديو إلى قراءة الحالم خلال طفولته لرسائل والديه الغرامية). أقدّم هذه التفاصيل المضحكة ولكن البارزة، لأظهر أن الأحداث المختارة للاختبارات، لا يجب أن تكون فقط صارخة ومتدرجة (ثلاث محاضرات في أسبوع)، بل ترتبط أيضاً بعضها ببعض من خلال ميزتها الرئيسية (سوء حظ المحاضر). أنظر إلى فترتَي الخمسة أيام على أنهما قطرتان توأمان، كل منهما مترعة بما يشبه الضباب الرمادي الناعم، وقليل من القصاصات الورقية المنثورة (التي قد تنقلب إلى ملونة إن سمحتُ بتشكيل بعض الذاكرة العرضية، ضمن الحدود التشخيصية). بسبب وضع «التواصل الخافت» وسط الأشياء الميتة، لا يمكننا تحسسه، اختباره وسماعه على نحو حسي، كما نتحسس، نختبر ونسمع، الهوات الفاصلة بين إيقاع النبض تحت عروقنا؛ ولكن يمكن اعتباره خاصية مميزة، تشارك في «جمود الزمن الإدراكي». إن الحسية، التي أجد نفسي مرهقاً بعبئها، تثبت أنها مفيدة جداً في هذا النوع من المهام - وهي مهمة تقترب الآن من مرحلتها الحاسمة، والتي هي ازدهار الحاضر.

الآن، تضرب رياح الحاضر قمةَ الماضي، القمم التي أفخر أنني مررت بها خلال حياتي - آمبريل، فلويلا، وفوركا[1]، خاصة وعيي الأنقى! تتغير اللحظة عند نقطة الإدراك، فقط لأنني، وبشكل دائم، في حالة من التحولات عديمة الأهمية. لأعطي نفسي وقتاً لقياس الوقت، عليَّ أن أنقل عقلي في الاتجاه المعاكس لحركتي - كما نشعر بصف أشجار الحور يمشي بعكسنا عندما نتخطاه أثناء قيادتنا

(١) آمبريل، فلويلا، وفوركا: جبال في سويسرا. (مترجم)

السريعة، ظانين أنها أشخاص بلهاء يلاحقوننا، وما إن نتوقف للتأكد، تكشف لنا الكتلة الخضراء المشوشة والضبابية عن أوراقها.

هذا الانتباه، هو ما أسميته العام الماضي بـ«الحاضر المتعمد»، لتمييزه عن شكله الأكثر عمومية، الذي يُدعى (كلاي ١٨٨٢) «الحاضر المخادع». إن البناء الواعي لأحدهما، والمسار المألوف للآخر، يمنحنا ثلاث أو أربع ثوانٍ، مما يمكننا أن نشعره به على أنه «الآنية». هذه الآنية هي الحقيقة الوحيدة التي نعرفها؛ إنها تتبع العدم الملون لما لم يعد موجوداً، وتسبق العدم المطلق للمستقبل. وهكذا، وبالمعنى الحرفي تماماً، يمكن القول إن الحياة البشرية الواعية تدوم دائماً للحظة فقط، لأنه في أي لحظة من لحظات انتباهنا المتعمد لتدفق وعينا الخاص، لا يمكننا أن نعرف ما إذا كانت تلك اللحظة ستكون متبوعة بأخرى أم لا. كما سأشرح لاحقاً، أنا لا أؤمن أن «الحدس» (توقع ترقية أو كارثة[١] اجتماعية، كما يقول أحد المفكرين غير المحظوظين) يلعب أي دور مهم في تشكيل الحاضر المخادع، كما لا أؤمن أن المستقبل يتحول إلى لوحة ثالثة من لوحات الزمن، حتى وإن كنا نتوقع أمراً أو آخر - انعطاف في طريق مألوف أو البروز الخلاب لتلّتين شديدتي الانحدار، فوق قمة إحداهما قلعة وفوق الأخرى كنيسة، لأنه كلما كانت التوقعات أكثر وضوحاً قلَّت احتمالية النبوءة. لو قرر الأحمق الذي يقود ورائي، في هذه اللحظة، أن يتجاوزني، لاصطدم وجهاً لوجه مع الشاحنة القادمة من وراء المنعطف، وسنختفي أنا والطريق في الاصطدامات المتعددة.

إذاً، فإن حاضرنا المتواضع هو الفترة الزمنية التي ينتبه لها المرء

---

(١) توقع ترقية أو كارثة: مقتبسة عن صمويل ألكسندر (١٨٥٩-١٩٣٨)، فيلسوف بريطاني، من كتابه: الزمان، المكان والله. (مترجم)

بشكل مباشر وفعلي، مع النضارة العالقة من ماضٍ، لا يزال يُنظر إليه على أنه جزء من الآنية. فيما يتعلق بحياة أجسادنا اليومية وراحتها المعتادة (صحية إلى حد مقبول، قوية إلى حد مقبول، تتنفس النسيم الأخضر، تستلذ بأفخر طعام في العالم - بيضة مسلوقة)، فإن عدم مقدرتنا على الاستمتاع بالحاضر الحقيقي ليست مهمة البتة، فالحاضر الذي ليست مدته إلا صفراً، تمثله لطخة كبيرة، كما تمثل نقطة هندسية لابُعدية، نقطةٌ ضخمة بحبر الطابعة، فوق ورق محسوس. يمكن لسائق عادي، وفقاً لعلماء النفس ورجال الشرطة، أن يميز، بصرياً، وحدة زمنية قصيرة الامتداد كعُشر من ثانية (كان لدي مريض، مقامر سابق، يستطيع التعرف على بطاقة ورق لعب، بسرعة تزيد سرعة غيره بخمس مرات!). سيكون مثيراً لو استطعنا قياس الوقت الذي نحتاج إليه لإدراك التوقعات الخائبة أو المحققة. يمكن للروائح أن تكون مفاجئة جداً، وعند معظم الناس، تكون حاسة السمع واللمس أسرع من النظر. هذان المسافران مجاناً (المتطفلان على العربات المارة) نتنان جداً - نتانة الذكر بينهما مثيرة للقرف.

بما أن الحاضر ليس إلا نقطة متخيلة لا تعي الماضي القريب، فلا بد من تحديد هذا الوعي. لن تكون المرة الأولى لتدخّل المكان، إن قلت إن ما ندركه على أنه «حاضر»، ما هو إلا البناء المستمر للماضي، الذي يرتفع بمستواه، ببطء وسلاسة، على نحو لا هوادة فيه. يا لهزاله! يا لسحره!

ها هما هنا، قمتا تلتين صخريتين، احتفظت بهما سبعة عشر عاماً في ذهني، بشاعرية وحيوية رسم منسوخ - حتى وإن لم تكن مطابقة تماماً، أعترف؛ تحب الذاكرة الهفوات (التي تضيفها من تلقاء نفسها)؛ يعزز فعل التصحيح الفني من انطباع اللحظة الحاضرة. الإحساس الأكثر ذكاءً بالغيب، من وجهة نظر بصرية، هو الحيازة

المتعمدة لجزء من المساحة التي جمعتها العين. إنها نقطة الالتقاء الوحيدة التي تجمع الزمان بالمكان، ولكن لها ارتداد بعيد المدى. ليكون الحاضر حاضراً، عليه أن يعتمد على احتضان واعٍ لتمدد لامتناهٍ. عندها، وعندها فقط، يمكنه أن يتساوى مع «مكان» لا يحده «زمن». لقد أُصبت بجروح في سباقي مع المحتال.

ها قد وصلتُ الآن إلى مونرو، أقود سيارتي تحت أكاليل الترحيب الحار. إنه يوم الإثنين، ١٤ يوليو ١٩٢٢، والساعة الآن الخامسة والنصف مساءً، كما تشير ساعة يدي، بينما هي الثانية عشرة إلا ثماني دقائق، في ساعة السيارة، والرابعة وعشر دقائق في كل ساعات البلدة. والمؤلف الآن في حالة مختلطة من الفرح، الإرهاق، التوقع والذعر. كان يمارس التسلق في جبال البلقان التي لا جبال في العالم تضاهيها، مع اثنين من الأدلاء النمساويين السياحيين، وابنة متبناة لمدة مؤقتة. كان قد أمضى معظم شهر مايو في دالماسيا، ويونيو في دولوميت، وقد تلقى رسائل في كلا المكانين، من آدا، تخبره فيها بنبأ وفاة زوجها (٢٣ أبريل، آريزونا). شرع في طريق العودة بسيارته «آرغوس»، الأغلى عنده من الياقوت والفراشات، لأنه عرف أنها قد أمرت بشراء واحدة مماثلة، لتصل إلى جنيف وتجدها جاهزة في انتظارها. كان قد اشترى مؤخراً ثلاث فيلات جديدة، اثنتين على البحر الأدرياتيكي، وواحدة في آرديز جنوب كانتون غريسون. في وقت متأخر من يوم الأحد، ١٣ يوليو، في منطقة ألفينا القريبة، قام بواب «قصر الراون» بتسلميه برقية كانت قد وصلته منذ يوم الجمعة:

> سأصل «البجعات الثلاث» في مونرو، يوم الاثنين، عند وقت العشاء. أريد أن تجيبني بكل صراحة ما إذا كان التاريخ أو التوقيت، أو الرحلة برمّتها غير مناسبين.

الرد الذي أرسله، عبر جهاز التلغراف الجديد، إلى مطار جنيف، قد انتهى بذات الكلمة التي أنهت بها آدا رسالتها عام ١٩٠٥؛ وتحت تهديدات رعود الليلة الماطرة، شق طريقه نحو كانتون فود. كونه قد انطلق مسافراً بسرعة جنونية، فقد فاته اتخاذ طريق أوبيرهالبشتين، عند تقاطع سيلفابلانا (١٥٠ كلم جنوب ألفينا)؛ عاد شمالاً عبر شيافينا وسبلوغن، وقد شق طريقاً محفوفاً بشروط مروعة، أفضت به إلى الطريق السريع ١٩ (رحلة من ١٠٠ كلم لم تكن بالضرورية)؛ عن طريق الخطأ، انحرف شرقاً نحو خور؛ قام باستدارة، تحت وابل من اللعنات، وقطع خلال ساعتين ١٧٥ كيلومتراً، تمتد غرباً وصولاً إلى بريغ. فوق مرآة سيارته الجانبية، كان توهج الفجر الشاحب، قد تحول، منذ وقت طويل، إلى ضوء نهار مشرق، عندما التحق بالطريق الجنوبي، عبر طريق بفينوالد الجديد، نحو سورسيير، حيث، وقبل سبعة عشر عاماً، كان قد اشترى منزلاً (الآن فيلا جولانا). كان الخدم الثلاثة أو الأربعة الذين كان قد أهملوا مهمة رعاية البيت التي أوكلهم بها، مستغلين بذلك غيابه الطويل لينهبوا البيت ويختفوا؛ وهكذا، وبمساعدة اثنين متحمسيْن من مسافري الطريق المتطفلين، اللذين كانت السبل قد تقطعت بهما في منطقة مجاورة - شاب مقرف من هيلدن، وهيلدا، شابة بشعر طويل، هزيل وقذر - استطاع الوصول وأخيراً إلى بيته. أخطأ مرافقاه بتوقعهما العثور على غنائم ومشروبات هناك. بعد أن رماهما خارجاً، حاول عبثاً النوم فوق سرير بلا ملاءة، ثم حمل نفسه إلى حديقة تملأها العصافير المغردة، حيث وجد رفيقيه يتضاجعان في حوض سباحة فارغ، وكان عليه طردهما ثانية. كان الوقت قد قارب الظهيرة. عمل لبضع ساعات على «نسيج الزمن»، الذي كان قد بدأ به في دولوميت، داخل لاميرموور (ليس أفضل آخر الفنادق التي نزل

فيها) . كان الدافع النفعي الكامن وراء تلك المهمة هو إلهاء نفسه عن التفكير في محنة السعادة التي تنتظره على بعد ١٥٠ كلم غرباً؛ في المقابل، لم يقاوم رغبته الصحية في تناول وجبة إفطار ساخنة، قد قاطع من أجلها مهمته الفكرية، منطلقاً في رحلة لاكتشاف مطعم على جانب الطريق الذي أوصله لاحقاً إلى مونرو. كانت بعض التغييرات قد طرأت على «البجعات الثلاث» منذ أن غادره عام ١٩٠٥. كان قد حجز الغرف ٥٠٨، ٥٠٩ و٥١٠. للوهلة الأولى، لم يتعرف عليه لوسيان المستكرش ذو الأنف الأحمر، ولكنه بعد ذلك قال ملاحظاً، إن السيد قد اكتسب وزناً، علماً أن فان كان قاد استعاد تقريباً الوزن الذي كان عليه منذ سبعة عشر عاماً، بعد أن خسر بعضاً من وزنه أثناء رحلة تسلق جبال البلقان، مع المجنونة الصغيرة آكرازيا (تم إلحاقها مؤخراً بمدرسة عصرية داخلية قرب فلورنسا). كلا، لم تتصل السيدة فينلاندر. أجل، لقد تم تجديد القاعة. كان لويس ويشت، ألماني سويسري، هو من يدير الفندق حينذاك، خلفاً لزوج أمه، لويجي فانتيني. داخل الصالة، التي أمكن رؤيتها من الباب المفتوح، تم استبدال اللوحة الزيتية التي لا تُنسى - ثلاث من «ليدا[1]» بأوراك ممتلئة، يثرثرن فوق بحيرة - بتحفة بدائية جديدة تظهر ثلاث بيضات صفر مع زوج من قفّاز سباك، فوق ما يشبه بلاط حمام رطب. ما إن دخل فان المصعد، يتبعه عامل الاستقبال بمعطفه الأسود، تعرّف المصعد على وقع خطوته المألوفة، فأصدر صوتاً ترحيبياً معدنياً، عميقاً وكأنه قادم من غور، ثم، ومع صعوده، بدأ يبث، على نحو محموم، أصواتاً غريبة بدت وكأنها تبث تقريراً عن سباق ما - سباق درجات ثلاثية العجلات، على الأرجح. أشفق فان على ذلك

(١) ليدا: فتاة أحبها زيوس في الميثولوجيا الإغريقية.

الصندوق العملي الأعمى (أضيق من رافعة الدلاء المستخدمة قديماً) وقد استبدل في هذه الأيام بمصاعد تعتبر فخمة (مقصورة من المرايا) تحول فيها الخادم الأشيب المتحدث بلغات سبع، إلى أزرار ومفاتيح.

في رواق غرفة ٥٠٩، تعرّف على لوحة سفينة الأشرعة[1] قرب الخزانة البيضاء، التي تبدو على وشك الولادة (التي كانت تثبت تحت أبوابها الدائرية المنزلقة، زاوية سجادة، قد اختفت اليوم). في الصالة ذاتها، لم يكن هناك ما يألفه إلا مكتب نسواني وإطلالة الشرفة. أما الباقي - زخارف شبه شفافة على شكل قمح، زهور زجاجية، كراسي منجدة بالحرير - فكله قد اختفى لمصلحة تجهيزات «هوشموديرن».

أخذ حماماً وبدّل ملابسه، وقضى على آخر ما تبقّى في زجاجة كونياك، كان قد حملها في حقيبة سفره، ثم اتصل بمطار جنيف، وأخبروه أن آخر طائرة قادمة من أمريكا قد وصلت لتوّها. ذهب في نزهة - ورأى شجرة التوت الشهيرة، التي نشرت أطرافها الهائلة فوق دورة مياه متواضعة، فوق شرفة مرتفعة، تطل على ممر محصّب، وكانت الشجرة يومها في إزهار بنفسجي باذخ. شرب الجعة في المقهى المواجه لمحطة القطار، وبعد ذلك، دخل، لاإرادياً، محلاً لبيع الزهور. لا بد أنه أبله لينسى ما قالته في المرة الأخيرة عن فوبيا الزهور الغريبة التي تعاني منها (تعود بشكل أو بآخر إلى ليلة الفسق التي قُطفت فيها زهرتها، منذ ثلاثة وثلاثين عاماً). أما عن الورود، فلم تحبها يوماً. حدق في زهور كارول صغيرة من بلجيكا، أحاسيس وردية بأعناق طويلة، نجوم قرمزية رائعة. كانت هنالك أيضاً أزهار

---

(١) سفينة الأشرعة: لوحة شهيرة للرسام الهولندي بيتر مورتييه (١٦٦١-١٧١١).

زينيا، أقحوان، وجرار قد زرعت فيها أقنيثيا، وسمكتان ذهبيتان رشيقتان في حوض مائي محشور في قلب حائط. لم يشأ تخييب أمل بائع الزهور العجوز والمهذب، فاشترى سبع عشرة وردة باكارا عديمة العبير، طلب دليل الهاتف، فتحه عند الصفحة التي تحمل في رأسها علامة التبويب Ad-Au، في مونرو، ووقع نظره فوق آدور، يولاند، الآنسة سيكرت (سر)، شارع المذات رقم ٦، وقام، بكامل حضور عقله الأمريكي، بإرسال الباقة إلى ذلك العنوان.

كانت الناس قد عادت بعجل من أشغالها. كانت الآنسة آدور بثوبها الضيق المتعرق تصعد الدرج. كانت الشوارع أكثر هدوءاً من الماضي الصامت. عمود موريس القديم، الذي ظهرت فوق منصته العالية مرة أميرة البرتغال الحالية كممثلة، لم يعد موجوداً عند زاوية طريق موسترو Chemin de Mustrux (تشويه قديم لاسم المدينة)، الذي يملأه اليوم هدير الشاحنات.

كانت خادمة الغرف قد أغلقت الستائر. فتحها بحركة عنيفة كما لو أراد أن يطيل عذاب ذلك اليوم، حتى مداه الأخير. كانت الدرابزين المعدنية لشرفة غرفته ناتئة نحو الخارج بما يكفي لالتقاط المزيد من أشعة الشمس. تذكّر آخر نظراته الكئيبة نحو البحيرة، في أكتوبر ١٩٠٥، بعد أن فارق آدا. كان بط الزرقاي يهبط ثم يرتفع فوق سطح البحيرة الذي هطلت الأمطار فوقه بغزارة، فرحاً بالماء المضاعف؛ على طول ممشى البحيرة، كنت ترى الأمواج الرمادية المتقدمة، وقد علت غرتها لفائف الزبد الحلزونية، تتلاطم بين الحين والآخر، رامية برذاذها العالي فوق حاجز الممشى. ولكن اليوم، في أمسية الصيف المشعة هذه، لم يزبد الموج، لم تسبح الطيور؛ يمكن رؤية بعض النوارس فقط، ترفرف ببياضها فوق انعاكسها الأسود على سطح الماء. تقع تلك البحيرة في قلب سكون حالم، بلون الأخضر

المتماوج فوق سطحها، وزرقة تحيط بها كالكشكش، وبقع من النقاء الواضح والناعم، تتخلل سطحها المجعد؛ وفي الزاوية السفلى اليمنى من الصورة، كما لو أن الرسام يرغب في تضمين مثال خاص جداً عن النور، فإن الإشعاع المبهر لشمس متجهة نحو الغرب، كان ينبض توهجاً بين أشجار حور لومباردي، الممتدة على جانب البحيرة، التي بدت سائلة وملتهبة معاً.

في البعيد، كان هنالك أحمق، بظهره المتكئ على الفراغ، فوق مزلاج مائي يجره قارب سريع، يشق نسيج اللوحة؛ لحسن حظه أن وقع قبل أن يلحق بنفسه ضرراً أكبر، وفي اللحظة ذاتها، رن الهاتف في الصالة.

حدث الآن أن فعلت ما لم تفعله مسبقاً، ولا أي مرة خلال حياتها البالغة - تكلمت إليه عبر الهاتف؛ ومنذ ذلك الحين، احتفظ الهاتف بجوهر وتألق اهتزازات حبلها الصوتي، بالوثبة المفاجئة الطفيفة في نغمتها، ضحكتها المتشبثة بحواف العبارة، كما لو كانت خائفة، في طفرة بهجتها الطفولية، أن تهرب منها بعض الكلمات. كان ناقوس ماضيهما، كما لو أنه اتصال عجائبي قادم من الماضي («آرديس، واحد واحد ثمانية ستة» - ماذا؟ لا، لا، ليس ثمانية ثمانية، بل ثمانية ستة). صوت ذهبي، شاب، قد تدفق فجاة بكل خصائصه الشجية التي عرفها - أو بالأحرى، تذكرها فوراً، بالترتيب الذي جاءت به: تلك الحيوية، تلك المتعة المثيرة الفياضة، الأمان الذي يمنحه، التمثيل الذي يوحي به - وما كان مبهجاً على نحو خاص، هو حقيقة إدراكها التام والبريء، لمواربات صوتها التي تشعل فيه نار الرغبة.

كانت هنالك مشكلة تخص حقائبها. لم تكن قد حُلت بعد. خادمتاها اللتان كان يفترض بهما أن تكونا قد سافرتا قبلها على متن

لابوتا (طائرة شحن) مع حقائبها الكبيرة، قد رستا في مكان ما. كل ما كان معها حقيبة صغيرة. كان البواب يُجري لها بعض الاتصالات. أينزل فان؟ لقد كانت neveroyatno golodnaya (تتضور جوعاً).

جاء ذلك الصوت الهاتفي، بإحيائه للماضي وربطه بالحاضر، بالجبال الصخرية القاتمة المنتصبة خلف البحيرة، بقرص الشمس المتلألئ الراقص عبر شجر الحور، ليشكل نقطة مركزية لأعمق أفكاره عن الزمن المادي الملموس، عن «الآن» اللامعة، التي كانت الحقيقة الوحيدة في نسيج الزمن. بعد مجد القمة، جاء الآن دور النزول الصعب.

كانت آدا قد حذرته في رسالة سابقة أنها «قد تغيرت على نحو ملحوظ، من حيث الشكل كما اللون». كانت ترتدي مشداً قد أبرز عظمة جسدها الجديدة، المغطى بثوب فضفاض من المخمل الأسود، غريب ورهباني على حد سواء، تماماً كأسلوب أمها المفضل في الملبس. كانت لشعرها تصفيفة صبيانية رائجة في ذلك العصر، وكان مصبوغاً بالبرونزي اللامع. لم يتغير شحوب عنقها ويديها، ولكنهما أظهرا خيوطاً غير مألوفة وعروق بارزة. استخدمت مستحضرات تجميل فخمة لإخفاء الخطوط الناعمة عند زوايا شفتيها الممتلئتين القرمزيتين، وعينيها المظللتيْن بألوان قاتمة، اللتين بدت الآن حدقتاهما، غير الرائقتين، أقل غموضاً من قصر نظرها (ميوب) الذي سبب لها رفرفة عصبية لرموشها كثيفة الطلاء. انتبه أن ابتسامتها قد كشفت عن ضرس علوي ملبس بالذهب؛ كان له واحد مماثل في جانب فمه الآخر؛ لم يكئبه بريق زينتها المعدني بقدر ما فعله ثوبها المخملي بأكمامه المربعة، بطوله الذي يغطي الركبتيْن، مع حشوة للوركين كان يفترض بها أن تصغر من محيط الخصر، وت...

بضخامتها المبالغة، الحوض البدين. لم يبق شيء من نعمة رشاقتها. شكلها الجديد، مخملها، وكل شيء فيها قد أضفى جواً مزعجاً من النفور والعقبات. كان حبه العارم لها، الذي لا يمكن لشيء أن يثنيه عنه، أكبر من كآبة قد تصيبه بسبب مجرد هواجس جنسية؛ ولكن، للحظته تلك، لا شيء قد حرك حواسه - لا شيء البتة، في الواقع، لدرجة أنه لم يشعر بأي لهفة (عندما رفع كل منهما كأس الشمبانيا في محاكاة لطقوس تزاوج الغطاس) لإشراك فخره الذكوري في احتضان فاتر ما بعد العشاء مباشرة. لو فعل، لكان أمراً سيئاً، وإن لم يفعل، لكان أسوأ. عندما التقيا في المرة الأخيرة، سرعان ما أطلقا العنان لعواطفهما التي كانت مكبوتة لسنوات كئيبة بعد ما عانيا من الآلام التي سببها مبضع القدر، وسرعان ما غرقا في بحر من اللذة الجنسية، سامحيْن للحياة أن تلتقط أنفاسها رويداً رويداً. ولكن اليوم، كان عليهما إنعاشها بنفسيهما.

بدت نفعية التفاهات المتداولة - أو بالأحرى مونولوجه الكئيب - أثناء العشاء، مهينة إلى حد مريع. شرح بإسهاب - محارباً صمتها اليقظ، خائضاً في برك الصمت، كارهاً نفسه - كم كانت رحلته طويلة وشاقة؛ وأنه لم ينم جيداً؛ وأنه كان يعمل على تحقيق في طبيعة الزمن، الموضوع الذي يتطلب صراعاً مع أخطبوط العقل. نظرت إلى ساعة يدها.

«ما أخبرك به»، قال بنبرة قاسية، «لا علاقة له بالساعات.»
أحضر النادل قهوتهما. ابتسم، وأدرك أن ما وقف وراء ابتسامتها هو محادثة دائرة عند الطاولة المجاورة، حيث كان وافد جديد، رجل إنكليزي سمين وتعيس، قد بدأ بمناقشة لائحة الطعام مع مدير الصالة.

«سأبدأ»، قال الإنكليزي، «بالموز.»

«هذا ليس بالموز يا سيدي (bananas) بل عصير الأناناس (ananas).»

«أوه، فهمت! حسناً، أعطني حساءً رائقاً!»

ابتسم فان الشاب رداً على ابتسامة آدا الشابة.

كم كان غريباً كيف أضفى هذا التبادل في الكلمات عند الطاولة المجاورة بهجة جاءت على شكل خلاص.

«عندما كنت صغيراً»، قال فان، «وخلال فترة إقامتي الأولى - أو الثانية على الأرجح - في سويسرا، كنت أظن أن كلمة "Verglas" (جليد مزجج) فوق لافتات الطرقات، هي اسم لبلدة سحرية، موجودة دائماً في الجوار، في أسفل كل منحدر ثلجي، بلدة لم يرها أحد، ولكنها تنتظر دورها. وصلتني رسالتك في إنغادين، حيث توجد أماكن سحرية حقيقة، كالراون، أو آلرونا - وهو اسم لشيطان عربي صغير في مرآة عراف ألماني. بالمناسبة، لدينا فوق شقة قديمة مع غرفة نوم إضافية، خمسة- صفر- ثمانية.»

«يا إلهي! أخشى أن عليك إلغاء حجز الغرفة ٥٠٨. إن بقيت الليلة فإن غرفة ٥١٠ ستكون كافية لكلينا، ولكن لدي لك أخبار سيئة. عليَّ العودة إلى جنيف مباشرة بعد العشاء لإيجاد الحقائب والخادمتين، اللتين وضعتهما السلطات في مأوى خاص بالمشردات، لأنهما لم تستطيعا دفع الرسوم الجمركية المفروضة حديثاً، والتي تعود بلا شك للعصور الوسطى - في النهاية، أوليست سويسرا في ولاية واشنطن، بشكل أو بآخر؟ اسمع! لا تتجهم هكذا!» (ربتت فوق يده المبرقشة التي تحمل وحمتهما المشتركة، والتي ضاعت بين نمش التقدم في العمر، كطفل ضاع داخل غابة خريفية في حكاية خرافية، النمشات التي يمكن تتبعها حتى توصلك إلى إبهام ماسكوداغاما المشوه، وأظافر جميلة لوزية الشكل) - «أعدك

بالاتصال خلال يومين أو ثلاثة، وبعدها سنذهب في رحلة بحرية إلى اليونان مع آل باينارد - لديهما يخت وثلاث فتيات رائعات ما زلن يسبحن من دون ثوب سباحة، موافق؟»

«لست أدري ما الذي أكرهه أكثر»، أجاب، «آل باينارد أم اليخوت. ولكن أيمكنني خدمتك بأي شيء في جنيف؟»

لم يستطع. كان السيد باينارد قد تزوج من كوردولا خاصته بعد طلاق مثير - كان على أطباء سويسرا البيطريين فعل شيء حيال قرونه (التذكير الأخير بهذه النكتة).

لم يتم تسليم سيارة آرغوس خاصة آدا. السواد القاتم اللامع للسيارة الفخمة المستأجرة، وسائقها بزيّه قديم الطراز، قد ذكّراه برحيل آدا عام ١٩٠٥. رآها تبتعد، ثم صعد، كرجل زجاجي، كطيف الزمن الواقف بكامل انتباهه، وعاد إلى طابقه الخامس المقفر. لو أنهما عاشا سوية طوال الأعوام السبعة عشر المنصرمة، لكانا وفرا على نفسيهما الصدمة والإهانة؛ كان تقدمهما في السن تعديلاً قد جرى بالتدريج، على نحو لا يمكن تعديله، كالزمن تماماً.

جاء بحثه الذي كان يعمل عليه، والذي هو عبارة عن ملاحظات محشورة هنا وهناك في جيوب سراويل نومه، لينقذه كما فعل في سورسيير. ابتلع فان حبة منومة، وخلال الأربعين دقيقة، التي استغرقت الدواء ليعطي مفعوله، جلس إلى المكتب النسواني في الغرفة، مستسلماً لـ«أعماله الليلية».

الخراب الذي يخلفه التقدم بالسن، والأسى الذي سببه للشعراء، هل تراهما يخبران علماء طبيعة الزمن أي شيء عن جوهر الزمن؟ قليل جداً. وحدها مخيلة روائي يمكن أن تنجذب إلى ذلك الصندوق البيضاوي الصغير، الذي احتوى يوماً على Duvet de Ninon (مسحوق للوجه، مع طائر الجنة مرسوم فوق الغطاء، منسي

في درج كان مفتوحاً قليلاً، من أدراج قوس نصر المكتب - ومع ذلك، ليس انتصاراً على الزمن.

بدا ذلك الشيء الأزرق-الأخضر-البرتقالي، وكأنه موجود هناك بقصد خداع من يعثر عليه، ودفعه للظن أنه كان في الدرج منذ سبعة عشر عاماً، ينتظر اليد البطيئة والمرتبكة لحالم مبتسم: حيلة دنيئة لاسترداد زائف، مصادفة مزروعة وخطأ فادح، إذ إن لوسيت، التي أصبحت اليوم حورية في بساتين الأطلسي (وليس آدا، التي أصبح بطريقة ما غريبة، في سيارة الليموزين السوداء، بالقرب من مورس) هي من كانت تفضل ذلك المسحوق. رماها بعيداً لئلا تضلل فيلسوفاً ضعيفاً؛ ما يهمني هو الملمس الدقيق لنسيج الوقت، خالياً من كل الأحداث المطرزة.

دعونا نلخّص.

من الناحية الفيزيولوجية، فإن الإحساس بالزمن هو إحساس بالتحول المستمر، وإن كان لـ«التحول» صوت، فإن هذا الأخير قد يصبح، وليس على نحو غير طبيعي، ذبذبة ثابتة؛ ولكن بحق الإله، دعونا لا نخلط بين الزمن وطنين الأذن، وبين المدة التي يتركها هدير صدفة البحر في دمائنا! فلسفياً، من الناحية الأخرى، الزمن هو مجرد ذاكرة آخذة في التشكل. في كل حياة فردية، ومن المهد إلى اللحد، يستمر التشكل والتقوية التدريجيين لعمود الوعي الفقري، والذي هو «زمن الأقوياء». «أن تكون» يعني أن تعلم أن هنالك «من كان» قبلك. «أن لا تكون»، تعني النوع «الجديد» للزمن (الزائف): المستقبل. وأنا أستبعده. الحب، الحياة، المكتبات، لا مستقبل لها.

الزمن هو أي شيء ما عدا اللوحة الشعبية ثلاثية الأبعاد: ماض لم يعد موجوداً، نقطة الحاضر التي لا مدة لها، و«ما لم يأت»

والذي قد لا يأتي أبداً. لا. هنالك لوحتان فقط. الماضي (الموجود أبداً في ذهني) والحاضر (الذي يمنحه عقلي مدة، وبالتالي، هو واقع). إن قمنا بإنشاء مقصورة ثالثة من التوقعات المحققة، التي تنبأنا بها، وقمنا بترتيبها مسبقاً، والتي تسمى بالبصيرة النافذة، التكهن المثالي، فإننا نكون لا نزال نطبق الحاضر على عقولنا.

إن كان ينظر إلى الماضي على أنه مستودع الزمن، وإن كان الحاضر هو عملية ذلك الإدراك، فإن المستقبل، من ناحية أخرى، ليس بنداً من بنود الزمن، ولا علاقة له بالزمن ولا حتى بالشاش الشفاف فوق نسيجه الملموس. المستقبل هو مجرد دجال في بلاط الزمن. يتصور المفكرون، والمفكرون الاجتماعيون أن الزمن الحاضر يتجاوز نفسه إلى «مستقبل» لم يتم إدراكه بعد - ولكن ليس هذا إلا يوتوبيا موضوعية، وسياسات متقدمة. يجادل السفسطائيون التكنولوجيون أنه من خلال الاستفادة من قانون الضوء، ومن خلال استخدام تيلسكوبات جديدة قادرة على فك رموز عادية تفصلنا عنها مسافات كونية، من خلال عيون عملاء لنا فوق كوكب آخر، فإننا نملك فرصة حقيقية لرؤية ماضينا (غود-صان يستكشف غود-صان، وهكذا) بما في ذلك المستندات التي تثبت أننا لا نعرف ما ينتظرنا في المستودع (فنحن لا نعرف منه إلا «الآن») وأن المستقبل، وبمحض صدفة، كان موجوداً بالأمس، مما يعني، من خلال الاستقراء، أنه موجود اليوم. وهذا ما قد يكون ممتازاً فيزيائياً ولكنه قابل للتحقيق منطقياً، وسلحفاة الماضي لن تتجاوز أبداً أخيل المستقبل، بغض النظر عن كيفية تحليلنا للمسافات، فوق سبّورات سوداء.

أفضل ما نقوم به عند افتراض فكرة المستقبل (الأسوأ هو تأدية حيل تافهة)، هو التوسع الهائل في الحاضر المخادع، سامحين له أن ينفذ إلى أي قدر من الزمن، مع كل ما أمكن من معلومات، توقعات

وتكهنات. في أفضل أحواله، فإن المستقبل هو فكرة وجود حاضر افتراضي قائم على تجربتنا في تتابع الأحداث، وعلى إيماننا بالمنطق والعادة. بالطبع، لا يمكن لآمالنا، بطبيعة الحال، أن تجعل المستقبل موجوداً، إلا إن أمكن لندمنا أن يغير الماضي. يحمل الأخير، على الأقل، نكهة وأثر كياننا الفردي. ولكن المستقبل يبقى بعيد المنال عن أوهامنا ومشاعرنا. في كل لحظة، هنالك لانهائية من التشعبات الممكنة. من شأن أي مخطط محدد أن يلغي مفهوم الزمن ذاته (هنا بدأت حبة المنوم بتطويف أول سحابة). المجهول، غير المنتَظر وغير المجرَّب، وكل تقاطعات "x" العظيمة، هي جزء لا يتجزأ من الحياة البشرية. إن المخطط المحدد، بتعريته لشروق المفاجأة، يمحي أي غروب محتمل ــــ

بدأ مفعول الحبة بشكل جدي. انتهى وأخيراً من ارتداء ملابس النوم (العملية التي تطلبت منه ساعة من المحاولات والتعثرات الخرقاء، لم يكتمل معظمها) ثم تلمّس طريقه نحو السرير. حلم بأنه كان يتحدث في قاعة المحاضرات، عن السفن العابرة للأطلسي، وكان يوجد شخص هيبي يشبه ذلك المتطفل من هيلدن، يسأله ساخراً كيف فسر المحاضر أننا في أحلامنا نكون مدركين أننا سنصحو بعد قليل، وهل يشبه ذلك اليقين يقينَ الموت بطريقة ما؟ وإن كان الأمر كذلك، فإن المستقبل ــــ

عند الفجر، ومع أنين مفاجئ، وجد نفسه جالساً فوق سريره يرتجف: لو لم يتحرك من فوره، لكان خسرها إلى الأبد! قرر أن يغادر فوراً إلى مانهاتن في جنيف. رحب فان بهيكل برازه المصقول الذي عاد إليه من جديد بعد أسبوع من الطين الأسود المشوه، الذي كان في كل مرة يملأ حوض التبرز عالياً، لدرجة لم يكن ممكناً لكمية الماء الدافعة التخلص منه دفعة واحدة. كانت للأمر علاقة بزيت

الزيتون ومياه الخزانات الإيطالية. حلق، استحم، وارتدى ملابسه بسرعة. أكان الوقت مبكراً جداً على طلب الإفطار؟ أعليه الاتصال بفندقها قبل أن يبدأ؟ أعليه استئجار طائرة؟ أو ربما يكون الأمر أبسط ـــ

كانت درفات باب الشرفة مفتوحة على مصراعيها. كانت أفواج من الضباب لا تزال متغلغلة في زرقة الجبال وراء البحيرة، ولكن كان لون أمغر، هنا وهناك، يدبغ بعض القمم، تحت سماء فيروزية خالية من الغيوم. مرت أربع شاحنات ضخمة ترعد مدوية بهديرها. وقف إلى درابزين الشرفة وتساءل ما إذا كان مرة قد أشبع رغبته المعتادة في الغطس. تراه فعل؟ أفعل؟ لا يمكن معرفة ذلك أبداً، حقاً. في الطابق الأسفل، وفوق شرفة مجاورة بشكل أو بآخر، ظهرت آدا متماهية في المشهد.

رأى شعرها البرونزي، عنقها وذراعيها البيض، الزهور الشاحبة في ثوبها الرقيق، ساقيها العاريتين، خفها الفضي بكعبه العالي. بتأمل، بصبىً وبجنون، كانت تخدش فخذها تحت ردفها الأيمن: التوقيع الوردي فوق رق لادور، عند الغسق، وقت هجوم البعوض. تراها سترفع نظرها إليه؟ التفتت كل زهورها نحوه، مبتهجة، في لفتة ملكية، ثم نهضت، وقدمت إليه الجبال، الضباب، والبحيرة مع بجعات ثلاث.

غادر الغرفة وهرع نحو درج لولبي، نزولاً إلى الطابق الرابع. في أي غرفة تراه رأى تخيلاته؟ ٤١٠؟ أم ٤١٢؟ أم ٤١٤؟ بدأ الشك يأكل جوفه. ماذا سيحصل إن لم تكن قد فهمته؟ لم تكن تنتظره؟ لقد فهمته، وانتظرته.

«بعد ذلك بقليل»، كان فان (راكعاً، متنحنحاً، محاولاً إيجاد الكلمات) يقبّل يديها الحبيبتين الباردتين، بامتنان جم، متحدياً

المصير المشؤوم حتى الموت، وحينذاك، انحنت بشفقها الحالم فوقه وسألته:

«أصدقت حقاً أني ذهبت؟»

«Obmanshchitsa (مخادعة) Obmanshchitsa»، استمر فان في تكرارها، بكل حماسة وبهجة الاكتفاء السعيد.

«طلبت منه أن يرجع»، قالت، «عند مكان ما قرب مورزيه (مورس، أو walruses[1] كما تُلفظ بالروسية، التورية اللفظية التي قد تكون رسالة من حورية بحر). وأنت كنت قد نمت. استطعت النوم!»

«كنت أعمل»، أجاب، «لقد أنهيت مسودتي.»

اعترفت أنها عند عودتها في منتصف الليلة، استعارت من مكتبة الفندق (كان المفتاح لدى البواب الليلي، القارئ الشغوف) مجلد الموسوعة البريطانية، الذي احتوى مقالاً عن «الزمكان»:

«'الزمن' (كما كُتب هنا، على نحو اقتراحي) 'يدل على الملكية' - أنت ملكيتي، وبالتالي، أنت فضيلتي - 'ويمكن للأجسام الجامدة أن تشغل مواقع متعددة'. أليس جميلاً؟ أليس جميلاً؟»

«لا تسخري يا آدا من نثرنا الفلسفي!» قال حبيبها معترضاً. «كل ما يهم الآن هو أنني أعطيت الزمن حياة جديدة، من خلال سلخه عن أخيه السيامي، المكان، وعن المستقبل الزائف. كان هدفي كتابة ما يشبه الرواية في شكل بحث حول «نسيج الزمن»، والتحقيق في مادته المحجوبة، مع استعارات توضيحية تتزايد تدريجياً، تدرجاً دقيقاً يبني لقصة حب منطقية، تنتقل من الماضي إلى الحاضر، تتطور كسرد واقعي، كما لو كانت، وأيضاً تدريجياً، تعكس التناظرات، التي ستتحلل من جديد في تجريد طفيف.»

---

(١) walruses: حيوان «الفظ» البحري، الذي تنسب إليه فكرة حورية البحر المتخيلة. (مترجم)

«أتساءل»، قالت آدا، « ما إذا كانت محاولة اكتشاف تلك الأشياء تستحق النظارات الطبية. يمكننا معرفة الوقت. يمكننا معرفة وقت ما. ولكن لا يمكننا البتة معرفة الزمن. إن حواسنا، بكل بساطة، لا تملك أن تدركه. إن الأمر أشبه ـــ»

القسم الخامس

١

أنا فان فين، أحيّيكم، أحيّي الحياة، آدا فيين، أحيّي الدكتور لاغوس، ستيفان نوتكين، فيوليت نوكس ورولاند أورانجر. اليوم هو عيد ميلادي السابع والتسعين، وها أنا فوق مقعدي المريح، الجديد والرائع، أسمع صرير معزقة ووقع أقدام، في الحديقة، حيث يلمع الثلج. وأسمع أيضاً خادمي الروسي العجوز، الأصم أكثر مما يظن بنفسه، يفتح ويغلق أدراج خزانة ملابسي، ذات المقابض الوردية. ليس المقصود بهذا الجزء الخامس أمامكم وضع خاتمة؛ إنه المقدمة الحقيقية لـ «آدا، الوهج، سجلات عائلة»، والتي سبع وتسعون بالمئة منها حقيقي، والثلاث بالمئة المتبقية هي احتمالات.

من بين كل منازلهما العديدة، في أوروبا وغيرها من المناطق المدارية، أصبح القصر الذي بني مؤخراً في إيكس، في جبال الألب السويسرية - بعواميده الأمامية وأبراجه المزينة - هو المفضل عندهما، وخاصة في منتصف الشتاء، حين يكون الهواء المتلألئ الشهير، كريستال إيكس، متطابقاً مع أعلى وأسمى أشكال الفكر الإنساني - «الرياضيات البحتة وفك الشيفرات» (إعلان لم يُنشر بعد).

خاض الزوجان السعيدان رحلات طويلة، مرتين في السنة عا...

الأقل. لم تعد آدا لجمع وتربية الفراشات ثانية. ولكنها خلال كل مراحل شيخوختها الحيوية والصحية، أحبت تصويرها في محيطها الطبيعي، في أسفل حديقتها، أو في أعلى العالم، مرفرفة، جاثمة فوق الزهور أو فوق القذارات، منزلقة فوق العشب أو فوق الغرانيت، تقاتل بعضها بعضاً أو تتزاوج. رافقها فان خلال رحلات تصويرية إلى البرازيل، الكونغو، غينيا الجديدة، ولكنه بقي في سره يفضل البقاء تحت خيمة مع كأس طويلة من الشراب، على الانتظار الطويل تحت شجرة، لتصوير بعض الأصناف النادرة، التي جذبها الطعم الموضوع. قد أحتاج إلى كتاب آخر لوصف مغامرات آدا في «آدا لاند». يمكن، بناء على موعد، مشاهدة الأفلام المصورة، وممثليها المصلوبين (مع أسمائها مكتوبة فوق الألواح الزجاجية) في متحف لوسيندا، ٥، بارك لاين، مانهاتن.

٢

كان مخلصاً لشعار الأسلاف: «جسم سليم، ميراث قديم». لم يذكر أنه، حتى عامه الخمسين، قد اضطر، إلا مرة واحدة، للركض في أروقة المستشفى فوق نقالة (مع أقدام شخصين يركضان إلى جانبه، بأحذية بيضاء)، مرة واحدة لم تتكرر. ومع ذلك، فقد لاحظ أن تلك التشققات المتشعبة لا تنفك متسللة إلى هيئة جسده الصحية، كما لو أن التحلل المحتوم كان يرسل إليه أول مبعوثيه، عبر زمن رمادي ساكن. كان كل انسداد أنف يُصاب به بسبب الزكام، يسبب له بدوره أحلاماً خانقة، وما إن كان يقف على عتبة البرد، حتى يجد الألم العصبي الوربي منتظراً له مع رمحه الفتاك. كلما كبرت منضدة جانب السرير، تراكمت فوقها لوازمه الليلية التي لا غنى عنها: قطرات الأنف، أقراص يوكاليبتوس، سدادات الأذن الشمعية، أقراص المعدة، حبوب منومة، مياه معدنية، مراهم الزنك، مع غطاء أنبوب احتياطي في حال تدحرج الأول تحت السرير، مناديل كبيرة لمسح العرق المتراكم بين فكه الأيمن وترقوته اليمنى، اللذيْن لم يعتادا أبداً على سمنته وإصراره على النوم على جانب واحد فقط، كي لا يسمع صوت قلبه أبداً؛ أخطأ ذات ليلة من عام ١٩٢٠، حين خطر له أن يحسب العدد الأقصى لضربات قلبه المتبقية (آخذاً في

الحسبان حياته لنصف قرن آخر)، أما الآن، فإن السرعة العبثية للعد التنازلي قد بدأت بإزعاجه، وتسريع معدل انقضاء حياته. خلال أسفاره الانفرادية، وغير الضرورية إلى حد ما، تطورت لديه حساسية مرضية تجاه الضجيج الليلي في الفنادق الفاخرة (أصوات الشاحنات المزعج جداً، المصنف ثلاث نجوم على سلّم الإزعاج؛ الصيحات الخرقاء خلال سهرات أيام السبت، يتبادلها شباب مبتدئون، في شارع خالٍ: تصنيفها ثلاثون؛ الشخير الذي ينقله الراديايتر من الطابق السفلي: ثلاثمئة)؛ ولكن، وعلى الرغم من أن سدادات الأذن كانت شيئاً لا يستغني عن خدماته في لحظات اليأس الكلي، إلا أن عيبها (وخاصة بعد الكثير من النبيذ) كان في تضخيم النبض في صدغيه، والزقزقة الغريبة في فتحة أنفه المسدودة، والصرير الشنيع في فقرات رقبته. وقد عزا سبب صدى ذلك الصرير، المنتقل عبر الأوعية الدموية إلى الدماغ، قبل أن يسيطر عليه نظام النوم، عزاه إلى التفجير الغريب الذي يقع في مكان ما من رأسه، في اللحظة التي تبدأ فيها حواسه بخيانة وعيه. ثبت أن النعناع المضاد للحموضة، وغيره من المستحلبات المشابهة، لا يكون كافياً في بعض الأحيان، لتخفيف حرقة المعدة القوية، التي عانى منها منذ أمد بعيد، والتي دائماً ما تصيبه بعد تناوله صلصات دسمة معينة؛ ولكن من ناحية أخرى، كان يتطلع بحماس شبابي، إلى الأثر الممتع لملعقة من بيكربونات الصوديوم المحلولة في الماء، الذي لم يفشل مرة في إطلاق فوري ومريح لثلاثة أو أربعة تجشؤات، لا تقّل حجماً عن بالونات الرسوم المتحركة، التي كان يراها في مجلات طفولته.

قبل أن يلتقي (في الثمانين من عمره) بالطبيب لاغوس، اللبق والرقيق، البذيء والمثقف، الذي أقام وسافر معه ومع آدا، كان فان يكره الأطباء. على الرغم من دراسته الطبية، لم يستطع التخلص من

شعوره الساذج المستتر (المتلائم مع ريفي جاهل أكثر من عالم) بأن الطبيب حين يضغط على إجاصة آلة الضغط، أو عندما يسمع صوت تنفيسها، فإنه يكون على علم مسبق (وأيضاً يبقيه سراً) بالمرض الفتاك الذي يتم تشخيصه بيقين تام، كيقين الموت ذاته. تذكر ساخراً صهره الراحل، حين أخفى - مثله - عن آدا أمر مثانته التي كانت تزعجه بين الحين والآخر، أو أنه كان يعاني من دوار كلما طأطأ لقص أظافر قدمه (المهمة التي كان يؤديها بنفسه، لكونه غير قادر على تحمّل أي يد بشرية تلمس قدميه العاريتين).

كما لو كان يبذل قصارى جهده للتمتع بصحة جسده (الذي، سرعان ما سيُؤخذ منه، كما يُرفع من أمامنا الصحن الذي حوى آخر وألذ فتات طعامنا)، صار يثمن بعض الملذات المتواضعة، كالضغط على بثرة برأس أسود وتفجيرها، أو استخراج المكنونات النفيسة في عمق أذنه اليسرى (لم تكن مفرزات اليمنى مهمة) بظفر بِنصره الطويل، أو السماح لنفسه بما كان بوتييان يعتبره «متعة إنكليزية»، وهي أن يغمر نفسه بالماء في حوض استحمامه حتى الذقن، ثم يحبس نفسه، لبذل بوله السري، السلس والدافئ.

من ناحية أخرى، أثرت عليه آلام الحياة أكثر مما فعلت في الماضي. كان يئن وجعاً حين تتعرض طبلتا أذنيه لهجوم بوق ساكسوفون، أو حين يطلق شاب أبله، أدنى مستوى من أن يكون بشرياً، العنان لرعود دراجته النارية الجهنمية. إن السلوك التعسفي للأشياء الغبية والعدائية - جيب خاطئ، رباط حذاء ممزق، حاملة ثياب فارغة، لا تحمل شيئاً، تسقط مستنكرة مع ضجيج كبير، داخل خزانة مغلقة ومظلمة - قد جعله ينطق بالقسَم الأوديبي، الذي أطلقه أسلافه الروس.

كان قد توقف عن التقدم في العمر عند الخامسة والستين، ولكن

عند الخامسة والستين بدأت تغييرات تطرأ على عضلاته وعظامه، أكبر من مثيلتها عند الأشخاص الذين لم يمارسوا في حياتهم أبداً، الرياضات التي مارسها هو في ذروة صباه. انحسرت رياضة التنس والسكواش لتفسح مجالاً للبينغ بونغ؛ ثم، ذات يوم، نسي مضربه المفضل، الذي ما زال يحتفظ بحرارة مقبضه، في ملعب أحد النوادي، الذي لم يعد لزيارته أبداً. خلال عقده السادس، صارت رياضة لكم الكيس تؤدي مهمة الملاكمة والمصارعة، التي كان يمارسها قبلاً. مفاجآت الجاذبية قد جعلت من التزلج الآن رياضة مزعجة. بقي قادراً في عامه الستين على المبارزة، ولكن تمريناً لدقيقتين، صار كفيلاً بإعمائه تعرقاً؛ سرعان ما شاركت المبارزةُ طابةَ الطاولة بذات المصير. لم يستطع أبداً التخلص من تحامله، المتعجرف إلى حد ما، على الغولف؛ بكل الأحوال، كان فد فات الأوان على ذلك. في السبعين، حاول الركض قبل تناول الفطور في زقاق منعزل، ولكن ارتجاج وارتداد صدره المترهل قد ذكّراه، على نحو مريع، بأنه أثقل بثلاثين كيلوغراماً عما كان عليه في شبابه. في التسعين، بقي يرقص على يديه - في حلم متكرر.

في الحالات العادية، كانت حبة أو حبتان من المنوم تساعده في التغلب على السهاد، لثلاث أو أربع ساعات من النوم المتواصل، ولكن في بعض الأحيان، وخاصة بعد إنجازه لمهمة ذهنية، فإن ليلة من الأرق الحاد والمتعب قد تتطور لتصير صداعاً نصفياً عند الصباح. لا يمكن لدواء التغلب على ذلك العذاب. وعندئذ، كان يتمدد، يتقوقع، ثم يتمدد، يضيء ويطفأ المصباح الجانبي (مصباح كهربائي بديل، تم منعه من جديد عام ١٩٣٠) ثم يسود وجودَه المستعصي يأسٌ جسديّ أكثر استعصاءً. بقي نبض قلبه قوياً وثابتاً؛ بقي قادراً على هضم عشائه على نحو كافٍ؛ لم يتجاوز زجاجة

بورغندي واحدة، كحصة يومية - ومع ذلك، استمر ذلك الأرق البغيض في جعله منبوذاً في بيته: كانت آدا تغفو بسرعة، أو تقرأ مرتاحة، تفصل بينهما عدّة أبواب؛ في أماكن أكثر بعداً، انتقل العديد من الخدم إلى هاتيك البقعة غير الودودة، التي تؤوي عامة النائمين، والتي تغطي التلال المحيطة بسواد رقادهم؛ هو وحده كان محروماً من ذلك اللاوعي الذي احتقره جداً، بقدر ما سعى إليه وتمناه.

٣

خلال كل سنوات انفصالهما الأخير، لم يتغير جوهر حبه للخلاعة أبداً؛ ولكن ممارسته للحب كانت أحياناً لتنخفض إلى مرة واحدة خلال أربعة أيام، وكان أحياناً ينتبه مصدوماً أن أسبوعاً قد انقضى بعفة هادئة. بقي تعاقب العاهرات الفاتنات متناوباً مع جولات لعاشقات غير محترفات، قد قابلهن صدفة في المنتجعات، وحدث أن تخلل كل ذلك أحياناً شهر من الحب الخلاق بصحبة بعض النساء العابثات التافهات (كانت هنالك عذراء إنكليزية حمراء الشعر، لوسي مانفريستان، انتحرت في الرابع من يونيو، ١٩١١، في الحديقة المسورة لعزبة نورماندية، حملت جثتها إلى فيالتا، على البحر الأدرياتيكي، وها هو يتذكرها الآن بقشعريرة من الرغبة)؛ ولكن كل تلك الغراميات الزائفة لم تحمل له سوى التعب؛ سرعان ما تخلص بعد ذلك من القصر المشؤوم الذي لم تكن تمديداته الصحية جيدة، أعيدت جثة الفتاة المحترقة بالشمس، وصار بحاجة فعلية إلى ما هو شرير وملوث، لإحياء رجولته.

بعد أن بدأ عام ١٩٢٢ حياة جديدة مع آدا، عزم فان على أن يكون مخلصاً لها. باستثناء بعض المناسبات السرية، التي استنزفت طاقته على نحو مؤلم، والتي استسلم فيها لما أطلقت عليه الطبيبة لينا

وين، وبجدارة، «استراق النظر الاستمنائي»، فإنه تمكن، بطريقة أو بأخرى، من المثابرة على قراره. أثبتت تلك المحن أنها مجزية أخلاقياً، أما جسدياً فقد كانت تافهة خرقاء. وكما هي الحال حين يبتلى طبيب أطفال بعائلة مصابة بأمراض مستعصية، فكذلك كانت حال طبيب النفس خاصتنا الذي عانى من حالة ليست بالمألوفة، ألا وهي ازدواجية الشخصية. كان حبه لآدا قضية حياة، همهمة ثابتة من السعادة، مختلفة عن أي شيء قد خبره في حالات مرضاه العقليين، أو حالات فردية غريبة أخرى. كان مستعداً للقفز في قار يغلي من أجل حمايتها، أو لحفظ شرفه عند سقوط قفازها أرضاً. كانت حياتهما معاً ترجيع صدىً لما عاشاه عام ١٨٨٤، أول صيف لهما. لم ترفض يوماً مشاركته في متعة مشاركة غروب الشمس، الذي كان يزداد روعة في كل مرة، المشاركة التي كانت تصبح أكثر ندرة، مع مرور الوقت. رأى من خلالها كل ما رغبت فيه روحه العنيدة وصعبة الإرضاء، في هذه الحياة. مدفوعاً بحنان غامر، ركع عند قدميها فجأة في كثير من المواقف الدراماتيكية، الصادقة، والمحيرة لأي شخص قد يدخل الغرفة مع مكنسة كهربائية. وفي اليوم ذاته، كانت حجرات وأجزاء فرعية أخرى من كيانه تصارع الندم والرغبات، وتضع خططاً للاغتصابات وللفجور. كانت اللحظة الأكثر خطورة عندما انتقل معها إلى فيلا أخرى، مع طاقم جديد من الموظفين وجيران جدد، حيث التفتت كل حواسه، وبكل دقة جليدية رائعة، إلى الفتاة الغجرية التي كانت تسرق الدراق، أو إلى ابنة خادمة الغسيل، الجسورة.

عبثاً قال لنفسه إن تلك الرغبات الدنيئة لا تختلف في جوهر عدم أهميتها عن إزعاج الحكة الشرجية التي يحاول المرء معالجتها بنوبة حك مفاجئة. ولكنه علم أنه إن غامر ملبياً رغبة الطرف الآخر، فإنه

سيعرّض حياته مع آدا للدمار. كيف يمكنه أن يلحق بها الأذى على هذا النحو الفظيع الذي لا يبرر؟ إنه يذكر في أحد أيام عام ١٩٢٦ أو ربما ٢٧، حين رمته بتلك النظرة اليائسة ولكن الأبية، قبل أن تمشي نحو السيارة التي كانت ستحملها في رحلة، كان قد رفض أن يرافقها خلالها، في اللحظة الأخيرة. كان قد رفض - محاكياً إيماءات وعرج شخص مصاب بالنقرس - لأنه كان قد أدرك - ما أدركته هي أيضاً - أن الفتاة المحلية الجميلة التي كانت تدخن في الشرفة الخلفية، ستقدم المانغا لسيدها بمجرد أن ترحل سيدة منزله لحضور مهرجان السينما في سندباد. كان السائق قد فتح لها الباب، عندما ركض فان صائحاً نحو آدا، لينضم إليها ويسافران معاً، باكييْن، مثرثريْن، ساخرين من حماقته.

«كم أن الأمر مضحك!»، قالت آدا، «يبدو أن كل العاهرات الصغيرات هنا لديهن تلك الأسنان السوداء والمهشمة.»

(«أورزوس». لوسيت في ثوبها الأخضر اللامع. «اهدأ أيها الشغف المضطرب!» أثداء فلور وأساورها، بثرة الزمن الحلزونية).

اكتشف فان أن أثراً خفياً من تلك العربدة يمكن له أن يتحول من إغراء لا تنفك تقاومه، إلى رغبة لا تنفك تحلم بالاستسلام لها، يوماً ما، في مكان ما، بطريقة ما. واكتشف أيضاً أنه مهما تأججت النار في تلك الإغراءات، فإنه لا يستطيع الاستغناء عن آدا ولا حتى ليوم واحد؛ وأن العزلة التي كان يحتاج إيها لارتكاب إثمه بطريقة لائقة، لم تكن مسألة ثوانٍ من الخلوة في دغل ما، بل ليلة مريحة في حصن منيع؛ وأن تلك الإغراءات في النهاية، حقيقية كانت أم متخيلة قبل النوم، كانت آخذة في التضاؤل، رويداً رويداً. في الخامسة والسبعين، كانت لقاءاته الحميمة بآدا المتعاونة جداً، كل أسبوعين، لتحمل لكليهما الرضا التام. كانت أمينات سره اللواتي تعاقبن على

العمل لديه في الفترات الأخيرة، يصبحن أقل فأقل جمالاً (أجملهن أنثى بشعر مرفوع كحبة جوز الهند، وفم حصان، كانت تكتب رسائل غرامية إلى آدا)؛ وعندما اقتحمت فيوليت نوكس تلك السلسلة غير المثيرة، كان فان قد بلغ الثامنة والسبعين، مع عنة كاملة.

٤

فيوليت نوكس [الآن هي زوجة السيد رولاند أورانجر. محرر]، المولودة عام ١٩٤٠، قد جاءت لتقيم معنا عام ١٩٥٧. لقد كانت (وبقيت - حتى بعد عشر سنوات) إنكليزية شقراء ساحرة، لها عينان كالدمى، بشرة مخملية، وردفان صغيران تفصّلهما تنورة ضيقة [. . . . . .]؛ ولكن مثل تلك التصميمات، وللأسف، ما عادت لتثير خيالاتي. كانت مسؤولة عن كتابة هذه المذكرات - سلوان آخر عشر سنوات من وجودي، بلا شك. كانت ابنة صالحة، وأختاً جيدة، وحتى نصف أخت مكرسة، إذ كانت قد تحملت، ولعشر سنوات، مسؤولية أبناء أمها من زواجيْن، إضافة إلى ما أنجبته على حدة [شيء ما]. كنت أدفع أجرها [بسخاء] شهرياً، مدركاً جيداً لحاجتي إلى موظفة مخلصة في عملها، لا يزعجها تنفيذه بصمت رغم فضول حيرتها. أطلقت عليها آدا اسم «فيالوشكا»، وسمحت لنفسها بترف تأمل عنق «البنفسجية الصغيرة» البارز، فتحات أنفها الوردية، وذنب الحصان الجميل المتدلي من قمة رأسها. أحياناً بعد العشاء، وبينما كنا ثلاثتنا نستمتع بالمسكرات، كانت آدا تتأمل طابعتي الجميلة (العاشقة لليكور البرتقال Koo-Ahn-Trow) بعينين حالمتين، ثم، بسرعة خاطفة، تنقر قبلة فوق خدها المحمر. كان لذلك الوضع أن يكون أكثر تعقيداً لو أنه حدث قبل عشرين عاماً.

لست أدري لماذا بالغت في تركيزي على عجز فان فين - شعره الأشيب وآلته المترهلة. لا يمكن للخليع أن يتوب يوماً. إنهم يحترقون، يطلقون بعض الشرارات الخضراء الأخيرة، ثم يهمدون. على الباحث الذاتي ورفيقته المؤمنة به تعليق أهمية أكبر على تدفقه الفكري الذي لا يُصدق، على تفجره الخلاق، الذي حدث في عقل عمره التسعيني، الغريب، المنعزل، أو بالأحرى، المنفر (صيحات تعجب «لا، لا!» بين أقواس محرر، يقدم لأدب أخويّ).

كره بقوة، وأكثر من أي وقت مضى، كل أنواع الفنون الزائفة، من خردوات النحت المشوهة، إلى المقاطع الروائية المطبوعة بخط مائل، والتي قصد الكاتب البارع من خلالها أن ينقل طفرة أفكار بطله. أصبح أقل صبراً تجاه مدرسة سيغ (م.د، م.د[1]) للطب النفسي. رأى في اعتراف مؤسسها («قمت خلال أيام دراستي بقطف زهور البنات لأنني رسبت في امتحان علم النبات»)، الاعتراف الذي اعتبر قنبلة العصر، والذي جاء في آخر ما كتبه عام ١٩٥٩ تحت عنوان «مهزلة العلاج الجماعي للاضطرابات الجنسية»، أهم أقواله التي يمكن اقتباسها (أراد بداية كلٌّ من مستشاري الزواج ومستشاري حالات الإسهال، الاعتراض، ولكنهم آثروا الابتعاد عن الفضائح).

قرعت فيوليت باب المكتب وسمحت للسيد أورانجر بالدخول، وهو رجل قصير، سمين، بربطة عنق على شكل فراشة، وقد وقف عند العتبة، نقر بكعبيه، وهب مندفعاً إلى الأمام (كما يتحرك راهب ثقيل، ممسكاً بذيل ردائه) بما يشبه الهرولة، لم يوقفها انهيار كدسة الأوراق الموضوعة فوق منضدة القراءة، التي انزلقت بضربة من كوع الرجل المتحمس للدخول وإبداء إعجابه.

---

(١) م.د، م.د: سيغ مونديو مونديو. أي سيغموند فرويد. (مترجم)

غالباً ما كانت آدا (التي استمتعت بترجمة، لمصلحة مطبوعات أورانج، أعمال غريبايدوف إلى الفرنسية والإنكليزية، وبودلير إلى الإنكليزية والروسية، وجون شايد إلى الروسية والفرنسية) تقرأ لفان، بصوت متوسط العمق، النسخات المنشورة لعاملين آخرين في مجال «نصف الوعي[1]». كانت أبيات الشعر المترجمة إلى الإنكليزية، على وجه الخصوص، مسؤولة عن بسط أسارير فان في ابتسامة غريبة، كانت لتجعله يبدو، إن لم يكن واضعاً طقم أسنانه في فمه، تماماً كما قناع ممثل يوناني هزلي. لم يقل ما الذي كان يغضبه أكثر: الشعر متوسط الجودة ولكن سليم النية، الذي سبب افتقاره إلى الحدس الفني، فشل محاولات الشاعر بالإخلاص لنصه، إضافة إلى المهزلة التي أضافتها أخطاء التأويل، أم الشاعر المحترف، الذي نمّق بإبداعات صوره الخاصة روحَ الكاتب فيه، الميتة والعاجزة (شارب هنا، أعضاء حميمة هناك) - وهو الأسلوب الذي، في إطار إعادة الصياغة، يخفي على نحو مسلٍّ جهله باللغة الأصلية، من خلال الخلط بين أخطاء معرفة سطحية وتافهة، بنزوات تقليد مزخرف.

بينما كانت آدا، مع السيد أورانجر (المحفز بطبيعته) وفان، يناقشون الأمور تلك في بعد ظهر أحد أيام عام ١٩٥٧ (كان كتاب آدا وفان «المعلومة والنموذج» قد صدر لتوّه)، توصل مجادلنا العجوز فجأة إلى أن كل منشوراته - حتى تلك الأكثر تخصصاً وصعوبة، كـ«الانتحار والسلامة العقلية» (١٩١٢)، «كومبيتاليا» (١٩٢١)، و«عندما لا يستطيع الطبيب النفسي أن ينام» (١٩٣٢)، على سبيل المثال وليس الحصر - لم تكن مجرد مهام معرفية مكتوبة بلغة عالم،

---

(١) نصف الوعي: ويقصد به الشعر. (مترجم)

بل بأسلوب أدبي حيوي مفعم بالحياة، قد تدرب عليه لسنين طويلة. وقد سُئل لما لم يكن ميالاً، لماذا لم يختر ملعباً أكبر ليجري فيه مباريات ما بين الإلهام والتصميم، بين الشكل والمضمون؛ تضافرت الآراء ليقرر في النهاية عزمه على كتابة مذكراته - ليتم نشرها بعد وفاته.

كان كاتباً بطيئاً جداً. استغرقه الأمر سنوات ست للانتهاء من كتابة المسودة الأولى وإملائها على الآنسة نوكس، وقام بعد ذلك بمراجعة النسخة المطبوعة، وأعاد كتابتها كاملاً بخط يده (١٩٦٣-١٩٦٥)، ليمليها ثانية على فيوليت التي لا تكلّ ولا تمل، والتي أنتجت أصابعها النسخة الأخيرة عام ١٩٦٧. E, p, i[١] - لماذا «ياء الضمير» يا عزيزتي!

(١) E, p, i: إبستيمولوجيا: دراسة طبيعة المعرفة.

٥

آدا التي كانت مستاءة من عدم انتشار شهرة أخيها على نحو كافٍ، قد هللت فرحاً لنجاح «نسيج الزمن»، (١٩٢٤). قالت إن هذا العمل لطالما ذكّرها، بطريقة غريبة ومرهفة، بألعاب الشمس والظلال التي اعتادت أن تلعبها في طرقات متنزه آرديس المنعزلة. قالت إنها كانت مسؤولة، بطريقة ما، عن تحولات اليرقانات الجميلات التي نسجت حرير «زمن فيين» (التسمية التي أُطلقت على مفهوم فان، بذات البساطة والشهرة التي انتشرت فيها تسمية «مدة برغسون» و«حافة وايتهيد[1] الباهرة»). ولكن كتاباً أقدم وأضعف من «نسيج الزمن» بكثير، وهو «رسائل من تيرا» (الرسائل المسكينة والضئيلة، التي لم يبق منها إلا ست نُسَخ في فيلا أرمينا، أما الباقي فبين أكداس الكتب الجامعية) فقد بقي الأقرب إلى قلبها بسبب الذكريات غير الأدبية التي ربطته بإقامتهما في مانهاتن عام ١٨٩٢-١٨٩٣. في الستين من عمره، رفض فان، مستنكراً ومشمئزاً، اقتراحها المتواضع بوجوب إعادة نشره، جنباً إلى جنب مع «تأملات في سيدرا»، وكتيب

(١) ألفريد نورث وايتهيد (١٨٦١-١٩٤٧): عالم رياضيات وفيلسوف إنكليزي. (مترجم)

مسل جداً، مضاد للفلسفة السيغينية، يحمل عنوان «الزمن في الأحلام». في السبعين من عمره، ندم فان على ازدرائه السابق، عندما، ومن دون إذن شخصي أو ترخيص، قام فيكتور فيرتي، مخرج فرنسي، بتحويل «رسائل من تيرا» إلى فيلم سينمائي، كُتب في شارته أن مؤلفه يدعى «فولتماند»، وقد كتبه قبل نصف قرن من الزمن. جعل فيرتي تاريخ زيارة تيريزا إلى أنتيتيرا عام ١٩٤٠، ولكنه ١٩٤٠ فوق تيرا، أما في أنتيتيرا فوق كوكبنا فهو ١٨٩٠. سمح خيال المخرج ببعض الانغماسات الممتعة في أنماط وآداب ماضينا (هل تذكرت أنه كانت للخيول قبعات - أجل، قبعات - عندما اجتاحت موجات من الحر مانهاتن؟) وطرح فكرة - استغلتها آداب الخيال الفيزيائي أيما استغلال - عن سفر الكبسولات الفضائية، عائدين في الزمن إلى الوراء. سأل الفلاسفة بعض الأسئلة الشريرة، تم تجاهلها من قبل محبي السينما، المثمنين لخداعها.

على نقيض مسار تاريخ ديمونيا الضبابي في القرن العشرين، مع التحالف الأنغلو-أمريكي الذي أدار نصف الكرة الأرضية، وطارطاريا التي أدارت الآخر خلف حجابها الذهبي، ظهرت سلسلة من الثورات والحروب لتفكك صورة مفهوم الاستقلال الذاتي فوق تيرا، وتحولها إلى أجزاء. في استعراض مثير للإعجاب، للأحداث التاريخية فوق تيرا، والتي ابتدعها فيتري - أعظم عبقري سينمائي على الإطلاق لإخراج صورة لمثل ذلك النطاق أو توظيف مثل هذا العدد الهائل من الممثلين (قال بعضهم إنهم فاقوا المليون، قال آخرون نصف مليون من الرجال والمرايا) لممالك سقطت، ديكتاتوريات نهضت، وجمهوريات اتخذت نصف مقاعد، ونصف أسرّة، لتمدد فوقها في مختلف الوضعيات غير المريحة. كان المفهوم مثيراً للجدل، ولم تشب التنفيذ شائبة. انظروا إلى كل أولئك الجنود

الذين يغْدون مسرعين جداً عبر البرية المليئة بالخنادق، مع طين ينفجر، وجثث ترمى هنا وهناك، في فيلم فرنسي صامت.

عام ١٩٠٥، أطلقت النرويج تنهيدة كبيرة، ومالت بعمودها الفقري، سالخة نفسها عن السويد، عملاقها التوأم المزعج، بينما، وفي حركة فصل مماثلة، صوّت البرلمان الفرنسي، عبر مظاهر لم تخلُ من الانفجارات العاطفية الحيوية، للطلاق بين الدولة والكنسية. ثم، في عام ١٩١١، وصلت القوات النروجية تحت قيادة أموندسن إلى القطب الجنوبي، تزامناً مع اقتحام إيطاليا لتركيا. عام ١٩١٤، غزت ألمانيا بلجيكا وقام الأمريكيون بتمزيق أحشاء بنما. عام ١٩١٨، هزم الأمريكان ذاتهم مع الفرنسيين ألمانيا التي كانت حريصة على هزيمة روسيا (التي كانت بدورها قد هزمت طارطاريا في وقت سابق). في النرويج، كان هنالك سيغريد ميتشل[١]، في أمريكا مارغريت أونديست[٢]، وفي فرنسا سيدوني كوليت. عام ١٩٢٦، استسلم عبد الكريم، بعد حرب جذابة أخرى، وعادت «القبيلة الذهبية» مرة أخرى لاستعباد روسيا. عام ١٩٣٣، وصل أثولف هيندلر (يُعرف أيضاً بـ «بيتلر» من بتر) إلى سدة الحكم في ألمانيا، وكان صراع جديد، على نطاق أوسع مما كان عليه ١٩١٤-١٩١٨، قد بدأ، حين نفدت الوثائق القديمة من بين يدي فيتري، وعندما غادرت تيريزا (لعبتها زوجة فيتري) تيرا في كبسولة فضائية، بعد تغطيتها للألعاب الأولمبية التي جرت في برلين (حصل النرويجيون على معظم الجوائز، ولكن الأمريكان قد فازوا بحدث المبارزة، وهو

---

(١) سيغريد ميتشل: تلميح إلى سيغريد أونديست (١٨٢٢-١٩٤٩)، أديبة نروجية. حاصلة على نوبل الآداب عام ١٩٢٨. (مترجم)

(٢) مارغريت أونديست: تلميح إلى مارغريت ميتشل (١٩٠٠-١٩٤٩)، أديبة أمريكية. كاتبة «ذهب مع الريح». (مترجم)

لإنجاز رائع، ووجهوا للألمان ضربة في مباراة كرة القدم النهائية، حيث فازوا عليهم بثلاثة أهداف مقابل هدف).

شاهد فان وآدا الفيلم تسع مرات، بسبع لغات مختلفة، وحصلا في النهاية على نسخة للمشاهدة المنزلية. وجدا أن الخلفية التاريخية بعيدة كل البعد عن الكتاب الأصلي، وفكرا بالبدء بإجراءات قانونية ضد فيتري، ليس لأنه سرق فكرة «ر.م.ت.»، بل لأنه شوَّه الأحداث السياسية فوق تيرا، كما وضعها فان، بكثير من العناية والمهارة، مستقاة من مصادر حسية خارقة للطبيعة، ومن أحلام هوسية. لكن خمسين سنة كانت قد مرت على كتابة الرواية من دون المطالبة بأي حق للنشر؛ في الواقع، لم يستطع فان حتى أن يثبت أن فولتماند كان هو ذاته. ومع ذلك، استطاع بعض الصحافيين إثبات صحة ادعائه، وقد سمح لهم فان، برحابة صدر، أن يعلنوا عن ذلك.

ساهمت ثلاثة ظروف في النجاح الاستثنائي للفيلم المصور. كان أحدها، طبعاً، هو أن الديانة السائدة قانونياً، التي رفضت إشارة تيريزا إلى المذاهب الحسية، قد حاولت منع عرضه. جاء عامل جذب ثانٍ من مشهد لم يقتطعه فيتري: في مشهد مستعاد من الثورة في فرنسا السابقة، تم، عن طريق الصدفة الخاطئة، قطع رأس ممثل بائس الحظ، كان يؤدي دور مساعد الجلاد، بينما كان يدفع الممثل الكوميدي ستايلر، الذي لعب دور ملك ممانع، نحو المقصلة. وأخيراً، السبب الثالث والأكثر إنسانية، هو أن تلك البطلة الجميلة، جيدا فيتري، نرويجية الأصل، وبعد أن أثارت المشاهدين، عبر تسلسلات وجودية، بتنانيرها الضيقة، وثيابها المغرية، قد خرجت من كبسولتها إلى أنتيتيرا بعريها الصارخ، على الرغم طبعاً من أنها مصغرة - مليمتر من الأنوثة المجنونة ترقص في «دائرة المجهر الساحرة»،

كجنية خليعة، وقد كشفت، في وضعيات معينة (سأكون ملعوناً)، عن بريق نقطة في خيط عانتها، تلمع كالذهب.

في آغوني، باتاغونيا، رينكل بالز، وبرادور، ظهرت في محلات بيع التذكارات دمى وحلى مدلاة من المرجان والعاج تحمل رموزاً من فيلم «ر.م.ت.». برزت نوادي «ر.م.ت.» في كل مكان. أدرجت «ر.م.ت.» ضمن قائمة الطعام في مطاعم الوجبات الخفيفة، كطبق يحوي أشكالاً فضائية وفتيات مصغرات. من المراسلات الهائلة التي تراكمت فوق مكتب فان خلال بضع سنوات من الشهرة العالمية، تبين أن آلاف أو أكثر من الأشخاص غير المتوازنين، إلى حد ما، يؤمنون (كان تأثير فيلم فيتري - فيين هائلاً) بهوية الحكومة السرية والمخفية، في تيرا وأنتيتيرا. تضاءل واقع ديمونيا ليصير مجرد وهم. في الواقع، لقد خضنا في كل ذلك. السياسيان اللذان قد أطلق عليهما في الرسوم الهزلية القديمة، اسم فيلت العجوز والعم جو، كانا موجودَين بالفعل. لم تعنِ تسمية «الدول الاستوائية» المحميات البرية الطبيعية فقط، بل أيضاً المجاعات، الموت، الجهل، السحرة، وعملاء من أتومسك[1] بعيد. في الواقع، لقد كان عالمنا، في منتصف القرن العشرين. كانت تيرا تتعافى، بعد أن عانت من المحارق ومحاكم التفتيش، من الوحوش والأنذال اللذين خلفتهم ألمانيا، كتحصيل حاصل، لملاحقتها لأحلام المجد. لم يتم نقل المزارعين والشعراء الروس إلى إيستوتي لاند، والأراضي المجدبة منذ سنين - كانوا يموتون، في هذه اللحظة بالذات، في مخيمات العبيد في طارطاريا. حتى حاكم فرنسا لم يكن تشارلي تشوز، ابن شقيق اللورد غول، الدمث، ولكن جنرال فرنسي، ذو مزاج سيّئ للغاية.

---

(١) أتومسك: رواية خيال علمي للأمريكي كوردوينر سميث (١٩١٣-١٩٦٦).

٦

نيرفانا، نيفادا، فانيادا. بالمناسبة، عليَّ أن أخبرك، يا حبيبتي آدا، أن «أمنا الدمية»، وفقط في لقائي الأخير بها، أي بعد مضي قليل من الوقت على كابوسي السابق لأوانه، أو بالأحرى التحذيري، You can sir، عندها فقط، نادتني بـ: يا صغيري، فانيا، فانيوشا - الأسماء التي لم أسمعها منها قط، الأمر الذي بدا في غاية الغرابة، وفي غاية الحذ . . . (اهتز الصوت، ثم انقطع).

«أمنا المومياء!» (ضحكة). «للملائكة أيضاً لهم مكانسهم الخاصة - لتنقية أرواحنا وكنس الصور الرهيبة بعيداً عنها. كانت لممرضتي السوداء ثياب مخرمة، مع نزوات بيضاء».

سُمع فجأة صوت انهيار أسفل المزراب في الخارج: لقد تفككت هابطة جليدية.

في ذاكرتهما المشتركة، كانا يسجلان، ويعيدان تشغيل، أفكارهما الأولى المرتبطة بمفهوم الموت. هنالك مشهد واحد، سيكون من الجميل إعادة تشغيله أمام الستارة الخلفية، الخضراء والمتحركة، لأحد مسارح آرديس. الحديث عن «ضمان مزدوج»، في الأبدية، وقد بدأ قبل ما يلي بلحظات:

«أعرف أن فان سيكون موجوداً في النيرفانا. وسأكون معه في أعماق جحيمي.»

«صحيح، صحيح» (زقزقزة عصافير كمؤثرات صوتية هنا، وأغصان مذعنة، وما اعتدت تسميته بـ«القطرات الذهبية»).

«كحبيبيْن وكشقيقيْن»، قالت باكية، «لدينا فرصة مضاعفة لنكون سوية في الأبدية، الأبدية فوق تيرا. أربعة أزواج من العيون في الفردوس!»

«كم هذا لطيف!»

شيء من هذا القبيل. شيء بهذه الصعوبة البالغة. لا ينبغي بسراب الوميض الغريب، الرامز إلى الموت، أن يظهر بسرعة في سجلاتنا هذه، ومع ذلك، لا بد أن ينفذ إلى المشاهد الغرامية الأولى. أمر صعب وليس بالمستحيل (يمكنني القيام بأي شيء، يكمنني أداء التانغو والرقص على يدي العظيمتين). بالمناسبة، من مات أولاً؟

آدا. فان. آدا. فانيادا. لا أحد. أمل كل منهما لو يرحل أولاً، كما لو كان تنازلاً - ضمنياً - للآخر، عن حياة أطول. وأمل كل منهما لو يرحل آخراً، ليجنب الآخر العذاب، القلق، ومشقة الترمل. سيكون حلاً مناسباً لو أنك تتزوج من فيوليت.

«لا شكراً. لقد داعبت سحاقيتين في حياتي، وهذا يكفي. يقول «إميل العزيز» إن كلمة «سحاق» هي مصطلح علينا تجنب استخدامه. كم كان محقاً!»

«إن لم تكن فيوليت، ففتاة فرنسية محلية. أو يولاند كيكشاو.»

لماذا؟ سؤال وجيه. على كل، لا يجب أن يُسلم هذا الجزء من الكتاب إلى فيوليت لتطبعه. أخشى أننا سنجرح العديد من الناس (إيقاع أمريكي معاصر)! كفاك! لا يمكن للفن أن يجرح أحداً. بلى، وكيف لا يمكنه!

في الواقع، لم يعد الآن لمسألة أسبقية الموت أي أهمية.

أعني، أن على البطل والبطلة أن يكونا شديدَي القرب من بعضهما حين يبدأ الرعب، قرباً عضوياً وثيقاً، بحيث يتداخلان، يتحللان، ليضيع رماد كل منهما في رماد الأخير. وحتى إن تم وصف نهاية فانيادا في هذه الخاتمة، فإننا، الكتّاب والقراء، لن نكون قادرين على فهم (قصر نظر، قصر نظر) من منهما مات قبل الآخر، دافا أو فادا، آندا أو فاندا.

كانت لي زميلة في المدرسة تُدعى فاندا. وأعرف فتاة تُدعى آدورا، شيء صغير في آخر «زهرة حب» زرتها. ما الذي يدفعني للاعتقاد بأن هذا الفصل هو أنقى تنهيدة زفرتها في هذا الكتاب؟ ما هو أسوأ ما في الموت؟

لأننا ندرك أن له ثلاثة جوانب (تشبه إلى حد ما ثلاثية الزمن الشعبية). هنالك أولاً، وجع التنازل عن الذكريات، وللأبد . إنه مكان عام، ولكن، ما هي الشجاعة التي على الإنسان امتلاكها ليمر عبر هذا المكان العام مراراً وتكراراً، دون أن يستسلم للتوقف عن مهزلة جمع ثروات وعيه، مراراً وتكراراً، الثروات التي انتُزعت منه غصباً!

ثم يأتي الجانب الثاني - الألم الجسدي البغيض. لأسباب واضحة، دعونا لا نتناول هذا الجانب!

وأخيراً، هنالك المستقبل الزائف، عديم السمات، فارغ وأسود، عدم تحمّلٍ مؤبد، التناقض المتوج لأوهامنا الأخروية، الباقية في أدمغتنا المصندقة!

«أجل» قالت آدا، التي كانت عندها تبلغ من العمر أحد عشر عاماً وكثير من الشعر الأبيض. «أجل، ولكن خذ كمثال رجلاً مشلولاً، قد نسي كل ماضيه بالتدريج، سكتة دماغية إثر أخرى، ومات في نومه كولد صالح، وكان قد آمن طوال حياته أن الروح لا

تموت - أوليس الأمر بالرائع؟ ألا يكون في ذلك ترتيب مريح للأمر برمّته؟»

«عزاء ضعيف»، قال فان الذي كان عندها يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً وكثير من الرغبات الأخرى. «أنت تفقدين خلودك إن فقدت ذاكرتك. وإن هبطت في فردوس تيرا، مع وسادتك ومبولتك، فإنك لن تُحشري مع شكسبير ولونغفيلو في البقعة ذاتها، بل مع عازفي الغيتار والحمقى.»

أصرت أنه إن لم يكن هنالك من مستقبل، فمن حق أحد أن يبتكره، وبهذه الطريقة، يكون المستقبل الفردي موجوداً، بقدر ما يكون صاحبه موجوداً.

مر ثمانون عاماً سريعاً - مسأل تغيير شريحة في فانوس سحري. انقضت معظم أصباحهما في إعادة ترجمة مقطع من قصيدة جون شايد الشهيرة (من البيت ٥٦٩ وحتى ٥٧٢):

... Sovetï mï dayom
Kak bit' vdovtsu: on poteryal dvuh zhyon
On ih – vstrechaetlyubyashchih, lyubimih,
Revnuyushchih ego drug k druzhke...

(... نحن نقدم النصائح.

لأرمل. كان قد تزوج مرتين:
قابل زوجتيْه؛ أحب كلتيهما، أحبته كلتاهما،
وغارت كلتاهما، كل من الأخرى...)

أشار فان إلى أنه هنا تكمن المهزلة - كل منا حر، طبعاً، في تخيل آخرة تعجبه: الجنة المعممة التي وعد بها أنبياء الشرق والشعراء، أو التي هي خليط من خيالات فردية؛ ولكن عمل الخيال معاق، إلى حد ميؤوس منه، بحاجز منطقي: لا يمكننا دعوة

أصدقائنا - ولا حتى أعدائنا بطبيعة الحال - إلى تلك الحفلة. إنّ نقْل كل علاقاتنا المتذكَّرة إلى حياة سماوية سيتحول بلا شك إلى استمرارية، من الدرجة الثانية، لموتنا الجماعي الرائع. وحده الرجل الصيني، أو الطفل المتخلف، يمكن له أن يتخيل أنه سيكون موضع ترحيب في قسم العالم المستقبلي ذاك (وسط كل أشكال الكائنات ذوات الأذيال المنبطحة أمامه إجلالاً) من قبل بعوضة سبق له أن أرداها قتيلة فوق فخذه العارية، التي بُترت آنذاك، وقد عادت له اليوم، في استيقاظة البعوضة المومئة - اقفز، اقفز، التصق بي!

لم تضحك؛ كررت أبيات الشعر التي سببت معضلة كهذه. يجادل «السيغنيون» متقلصو العقول فرحين، أن السبب وراء خلو النسخة الروسية من «كلتاهما» المكررة لمرات ثلاث، لم يكن، لم يكن على الإطلاق، وجوب إضافة بيت واحد على الأقل، كحامل للأمتعة الزائدة، في حال أردنا حشر تلك الكلمات المرهقة، التي ستخلّ من وزن القصيدة في الروسية.

«أوه، أوه يا فان! نحن لم نحبها بما يكفي. تلك التي كان عليك أن تتزوجها، تلك الجالسة فوق الدرابزين الحجري، المنتعلة خفاً أسود، وتلفّ ساقاً فوق أخرى. ولو أنك فعلت، لجرى كل شيء على ما يرام - لمكثتُ معكما كليكما في عزبة آرديس، ومقابل كل تلك السعادة التي ستمنح لنا مجاناً، مقابل كل ذلك، سنستمر في إثارتها حتى الموت!»

هل حان وقت المورفين؟ لا، ليس بعد. «الزمن والألم» مصطلح لم يُذكر في «النسيج». أمر مؤسف، إذ إن عنصراً واحداً من الزمن يدخل في الألم، يدخل في المدة الثقيلة، والثابتة، للألم الذي لا يمكنني تحمّله؛ لا شيء في هذا الألم يشبه «الشاش الرمادي»، إنه ألم صلب كساق شجرة قاتمة، أوه، لا أستطيع، استدعوا لاغوس!

وجد فان نفسه يقرأ في سكينة الحديقة. لحق الطبيب بآدا نحو المنزل. كان زوجا فيين قد اقتنعا، وعلى مدار صيف بائس كامل (أو أقنع كل منهما الآخر) بأن تلك كانت أعراض العصبي ثلاثي التوائم (neuralgia).

أأشرح أثراً؟ عملاق، بوجه يتلوى ألماً، يثبت آلة تعذيب بملزمة ومن ثم يبدأ بلفها. مذلة الآلام الجسدية تجعلك، إلى حد بعيد، غير مكترث لقضايا أخلاقية، كمصير لوسيت مثالاً، وما هو أكثر تسلية - في حال كانت كلمة تسلية صحيحة - أن تستنتج أن المتألم يتكلف عناء اختيار نمط الأمثلة، حتى في لحظات مهولة كتلك. الطبيب السويسري، الذي كان على اطلاع بكل تفاصيل المرض (والذي تبين أنه قد تعرف في مدرسة الطب على ابن شقيق الطبيب لابينيه)، قد أبدى اهتماماً كبيراً بالكتاب الذي أوشك على الانتهاء وصُحح جزئياً، وقال ضاحكاً إنه لا يريد شفاء شخص أو أشخاص، بل شفاء كتاب، قبل فوات الأوان. وقد فات. المخطوطة التي اعتقد الجميع أنها ستكون مأثرة فيوليت، الأكثر امتيازاً، العمل شديد النظافة، المطبوع فوق ورق «آتيكوس» الخاص جداً، بتخطيط خاص جداً (النسخة المبجلة المستلمة بخط فان)، إضافة إلى النسخة الرئيسية، الملفوفة بقطعة قماش بنفسجية، المحفوظة حتى عيد فان السابع والتسعين، قد تم تلطيخها بتغييرات جهنمية بالحبر الأحمر، وقلم أزرق. يمكننا أيضاً أن نفترض أن زوجينا، شهيدَي الزمن الذي قضياه مسطحين على ظهريهما، لو أنهما قرأا الموت، لفعلا في نهاية هذا الكتاب المنجز، وماتا في عدن أو في الجحيم، في نثر كتاب أو في قصيدة مبالغ في شاعريتها.

كانت قلعتهما في إيكس، المبنية مؤخراً، قد أنجزت في شتاء كريستالي. بخطأ غريب، حوت قائمة آخر أعماله المكتوبة عنوان

كتاب لم يقم أبداً بتأليفه، رغم الخطط التي وضعها للكتابة عن مزيد من الآلام: «اللاوعي واللاواعي». لم يعد هنالك ألم يدفعه للكتابة الآن - وكان ألم آدا أكبر من قدرتها على الإكمال. «ما هذا الكتاب! يا إلهي! يا إلهي!»، صرخ الطبيب [بروفيسور. محرر] لاغوس، فيما كان يزن النسخة الأصلية التي لم يعد الوالدان الهزيلان والشاحبان، لطفلين ضائعين في الغابة - (أطفال في الغابة) كتاب صغير في مكتبة آرديس - قادرين على منع ما جرى في صورتها الأولى الغامضة: شخصان في سرير واحد.

عزبة آرديس - وهج آرديس وروضها - الأمواج المتلاطمة التي تكرر نفسها عبر آدا، سجل ممتع ومسهب، قد وقع الجزء الرئيسي من أحداثه في أمريكا الحالمة واللامعة - أوليست ذكريات طفولتنا شبيهة بالقوارب الكبيرة المبحرة نحو فينلاند، تطوقها، بكل هدوء، عصافير الأحلام البيضاء؟ بطل الرواية، سليل واحدة من أكثر عائلاتنا ثراءً وفخامة، هو الطبيب فان فيين، نجل البارون ديمون فيين، شخصية بارزة لا تُنسى في مانهاتن ورينو. نهاية حقبة غير عادية، متزامنة مع صبا فان، الذي لا يقل استثنائية. لا شيء في عالم الأدب - ربما باستثناء مذكرات الكونت تولستوي - يمكن أن يضاهي فصول هذا الكتاب التي تناولت «آرديس»، في البهجة الخالصة والبراءة الأركادية. في الملكية الريفية لعمه دانيال فيين، جامع الفنون، تطورت قصة حب طفولية متألقة، لتصير سلسلة من المشاهد الرائعة ما بين فان والحلوة آدا، فتاة صغيرة بجمال غير مألوف، ابنة مارينا، نجمة المسارح، وزوجة دانيال. لم تكن علاقتهما مجرد تقارب خطير بين أبناء العمومة، بل انطوت على ما يحظره القانون، قد أشير إليه في الصفحات الأولى.

على الرغم من الكثير من تعقيدات المؤامرة وعلم النفس،

تواصلت أحداث القصة بوتيرة قوية. ما إن نتوقف لبرهة لالتقاط أنفاسنا، والتأمل في المحيط الجديد، الذي أزلق لنا فيه بساط بطلنا السحري، فتاة جذابة أخرى، لوسيت فيين، ابنة مارينا الصغرى، حتى نراها وقعت هي الأخرى في حب الماجن فان. يشكل مصير لوسيت المأساوي، إحدى أبرز العلامات الفارقة في هذا الكتاب.

تدور بقية قصة فان، بسرد صريح وملون، حول علاقته الغرامية الطويلة بآدا، التي قاطعها زواجها من مربي مواشٍ من آريزونا، كان سلفه الرائع هو من اكتشف بلادنا. بعد موت زوجها لمّ شمل العاشقين. قضيا شيخوختهما معاً، يسافران، ويقيمان في مختلف الفيلات التي شيدها فان في نصف الكرة الغربي، وقد فضّلا بعضهما على البعض الآخر. أضفت دقة التفصيل التصويري روعة لا يستهان بها على زخارف السجل الحالي: معرض زهور معرشة؛ لوحة مرسومة فوق سقف؛ لعبة مسلية قد تقطعت بها السبل بين نبات forget-me-not، عند حافة الجدول؛ فراشات وبساتين أوركيد على هامش الرواية؛ درج رخامي غارق في ضباب؛ غزالة تراها تعدو كلما حدقت في حدائق الأجداد؛ وهنالك مزيد، وهنالك مزيد.

مكتبة
t.me/t_pdf

هذا الكتاب

منذ تلك اللحظة، وُلدت معرفته العاطفية. لمحها صدفة في الصباح التالي تغسل وجهها وذراعيها فوق حوض قديم الطراز قائم على دعامة مزينة بأسلوب الروكوكو، وكانت قد رفعت شعرها نحو أعلى رأسها، وزمزمت أطراف ثوب نومها حول خصرها الذي بدا كتويج زهرة انبثق منه ظهرها النحيل بأضلاعه البارزة التي شفّ الثوب عنها. يلتف حول الحوض ثعبان خزفي سمين، وعندما توقف ذلك الحيوان الزاحف، كما فعل هو، لتأمّل حواء، وتأمّل ارتجاج ثدييها المبرعمين، انزلقت صابونة بلون التوت من يديّ الفتاة التي ثنت قدمها - بالجورب الأسود - وضربت بها الباب بعنف، ولكن دويّ إغلاقه لم يشِ بغضب فتاة محتشمة، بل كان أقرب إلى صدى فقاعات صابون قد وقعت فوق رخام رنّان.

t.me/t_pdf

الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9922605319
9 789922 605319